

مَوْضُوعُ الدِّعْوَةِ الخطاب الدعوي للمعرف بالإسلام

ضمن المشاريع العلمية لمركز

الدار للدراسات والاستشارات التحليمية والتربوية

تحت إشراف معهد البحوث والدراسات في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

تأليفُ

أ. د. محمد بن عبد العزيز العواجي

أساتذة النفسانيات وعلوم القرآن، بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

1441

شرح

هوتيار بامرني

مدير أكاديمية الصحابة لتأهيل الدعاة

② محمد عبد العزيز العواجي، ١٤٤٢هـ
 فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
 العواجي، محمد عبد العزيز محمد
 موسوعة دليل الداعية. / محمد عبد العزيز محمد العواجي. -
 المدينة المنورة، ١٤٤٢هـ
 ١٦ مج.
 رقم: ٦-٧٥٨٠-٠٣-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
 رقم: ٨-٧٥٨٦-٠٣-٦٠٣-٩٧٨ (ج ٦)
 ١- الدعوة الإسلامية ٢- الدعاة أ- العنوان
 ديوي ٢١٣ ١٤٤٢/٧١٧٩

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٧١٧٩ رقم: ٦-٧٥٨٠-٠٣-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
 رقم: ٨-٧٥٨٦-٠٣-٦٠٣-٩٧٨ (ج ٦)

الباعث على اختياري لشرح هذا الكتاب

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَّمَ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى؛ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيُحْشَوْنَ وَلَا يُحْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا وَبَعْدُ:

أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَرْزُقَنَا صِحَّةَ الْفَهْمِ، وَحَسَنَ الْقَصْدِ، وَأَنْ يَعَلِّمَنَا مَا يَنْفَعُنَا وَأَنْ يَنْفَعَنَا بِمَا عَلَّمَنَا وَأَنْ يَزِيدَنَا عِلْمًا وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْإِخْلَاصَ فِي الْقَوْلِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَأَنْ يَسْتَعِينَنَا لَدِينِهِ وَلَا يَسْتَبْدِلَنَا، "سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ".

نجد في أيامنا هذه قلة الخبرات في اختيار أولويات محتوى التعريف بالإسلام، وقلة التركيز على أسسه حتى من الذين يعملون منذ سنوات في هذا التخصص، بل قد يقع البعض منهم في أخطاء جسيمة تضر بالدعوة، وما ذلك إلا لقلّة تفرّسهم، وعدم تأهّلهم بشكل كافٍ أو لأنهم على الجانب الشخصي، قد أخفقوا في مسيرتهم التعليمية والتربوية كحاجتهم إلى دراسة العقيدة ورسوخها في نفوسهم، أو تحسين سلوكهم، أو زيادة مهاراتهم الشخصية والتقنية والعمل على رفع مستواهم في المجال الذي يريدون التخصص فيه، كتفنيدهم شبهات الملاحدة والإبداع في ذلك، أو المهارة في الحوار مع النصارى، أو الكفاءة في العناية بالمسلمين الجدد وتعليمهم أمور دينهم والعمل على تثبيتهم بما يسد على الشيطان منافذه إليهم؛ فيكرهوا أن يعودوا إلى الكفر بعد إذ أنقذهم الله منهم.

ولذلك وجب على الكل أن يأخذوا الأمر على محل الجد والمثابرة، فيعملوا على تطوير ما لديهم من مهارات بالقدر الذي يجعلهم بارعين في إبراز جمالك الإسلام ومحاسنه وقيمه وتشريعاته بما يليق به.

ومن هذا المطلق دعت الضرورة إلى دراسة مادة مستقلة تختار لنا المحتوى المناسب للتعريف بالإسلام، وهي مادة "موضوع الدعوة" أو "الخطاب الدعوي للمعرف بالإسلام"، والذي يعني بتعريف الإسلام، وعرض محتواه ومضمونه ومواضيعه.

والمقصود بتعريف الإسلام هنا: هو التعريف بالله ووعدايته، وبيان الإسلام بمراتبه، وأركانه، وشرائعه، وأخلاقه، وأنظمته، وخصائمه، ومقاصده، ومحاسنه.

ولا شك أن هذه أهم مادة ينبغي التأهيل لها، والتدريب عليها، فلا فائدة من كثرة المهارات المختلفة إن لم نخطب غير المسلم بالمحتوى الأساسي الذي سيقم عليه الحجّة بالفعل بعد إقناعه، وليس هو وعسب، بل إقناع كل عاقل منصف، إذا أراد الله له الهداية.

ولقد كنت أرقبُ منذ سنوات مؤلفات أهل الخبرة، وأساليبهم في جزئية (الخطاب التعريفي بالإسلام)، فوجدت فيها النزر اليسير الذي يصلح قوله لغير المسلم، وصرت على هذا الحال، إلى أن وفقني الله عز وجل، وعصمت على (موسوعة دليل الداعية) لفضيلة الشيخ أ. د. محمد بن عبد العزيز العواجي وهي عبارة عن 16 مجلداً، والتي قرأتها جميعاً، والله الحمد والمنة، ووجدت فيها هذا السفر النافع "موضوع الدعوة" والذي بدأت من الوهلة الأولى نصح إخواني الدعاة بقراءته، فهو منطلق جيد للتعريف بالإسلام وعرض محاسنه، حتى أنني من شدة إعجابي به، جعلته مقراً لمادة "الخطاب الدعوي للمعرف بالإسلام" في "برنامج صناعة المعرف بالإسلام" لأكاديمية الصحابة، ولم أكتف بذلك، فقد استشرت شياخي أ. د. محمد العواجي، وأخذت الإذن منه أن أشرع الكتاب (الشرع بهذا الخط القريب من خط اليد)، وأضيف أمثلة من واقع تجاربي في هذا المجال، حتى تصبح المادة أسهل للاستيعاب؛ فشجعتني وراجع شرعي بعد تفرغي منه واعتمده جزاءه الله خيراً، ثم وفقني الله عز وجل بتسجيل سلسلة تحتوي على 10 حلقات؛ ليكون للدعاة مادة مرئية، ومكتوبة؛ ليسهل على الأكاديميات، وكليات الدعوة تأهيل الدعاة عليها بطريقة تعليمية حديثة.

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل اليسير مباركاً، نافعاً، خالصاً لوجه الكريم، وأن ينفعني به في حياتي وبعد مماتي، وأن ينفع به كل من انتهى إليه؛ فإنه تعالى غير مسئول، وأكرم مأمول وهو عسبنا ونعم الوكيل.

سبحانك اللهم ومحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

الفقيه إلى رحمة ربه

جو تيار بامرني، ألمانيا

المقدمة

"إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]، ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ءَ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 71]"⁽¹⁾.

وأشهد أن نبينا محمداً ﷺ بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الله به الغمة، تركنا على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فصلوات ربي وسلامه عليه وعلى آل بيته وأصحابه وعلى كل من سار على هديه واستن بسنته إلى يوم الدين. وبعد:

يتعرض هذا البحث لجانب من البصيرة في الدعوة إلى الله، وهو الإجابة عن سؤال:

إلى أي شيء ندعو الناس؟

أو ما المجالات التي يخاطب الدعوة المدعويين بها؟

أو ما هي المادة التي سيتم طرحها لمخاطبة المدعويين؟

بما أن الباعث أن يجيب من خلال هذا البحث عن التساؤلات الآتية:

- ما هو خطاب التعريف بالإسلام؟
- ما هي مواضيع الدعوة؟ (الإمام ندعو غير المسلمين بالضبط؟)
- وما هي الفحوى (المضمون) الذي تدور حوله رسالة الإسلام؟
- كيف تستطيع بطلمات بسيطة عن الإسلام، تقولها لغير المسلم، فتجعله يسلم؟

يشمل البحث:

(موضوعات الخطاب التعريفي بالإسلام)، وهي عبارة عن دراسة نظرية لجملة من خصائص ومقاصد الإسلام، وأصول التلقي، وقواعد الاستدلال في الإسلام، وأدلة صحة الإسلام.

(1) هذه خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه ويفتتح بها كلامه وخطبته، وقد رواها سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب خطبة النكاح (1892)، سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب خطبة النكاح (2120)، جامع الترمذي، كتاب النكاح، باب خطبة النكاح (1105)، سنن النسائي، كتاب النكاح، باب ما يستحب من الكلام عند النكاح (3277)، وصححه الألباني في كتابه خطبة الحاجة.

بما أن التعريف بالإسلام هو المرحلة الأولى من مراحل الدعوة، فإنه لا بد من الحديث عن (مجالات التعريف بالإسلام)، وما هي المادة المعرفية التي ستُطرح لمخاطبة الذين يراد تعريفهم بالإسلام؟

ويمكن تلخيصها في المجالات التالية:

أولاً: بناء تصور عام عن رسالة الإسلام وأصول التلقي والاستدلال فيه.

ثانياً: عرض مقاصد الإسلام الخمس وهي حفظ الدين والنفس، والمال، والنسل، والعقل.

ثالثاً: بيان خصائص الإسلام.

رابعاً: بيان تعاليم الإسلام وهي أركان الإسلام والإيمان.

خامساً: بيان محاسن الإسلام، العقدية والتعبدية، والأخلاقية، والاقتصادية، والقضائية، والاجتماعية،

والسياسية، واهتمام الاسلام بالعلم.

سادساً: بيان التشريعات الحقوقية في الإسلام، من خلال عرض حقوق الإنسان في الإسلام إجمالاً ثم حقوق

أصناف مخصوصة مثل: المرأة والطفل والعمال، والكبار والأسرى، وغير المسلمين، ثم بيان حقوق الحيوانات والبيئة،

والحقوق الصحية.

وبهذا نكون من خلال هذا الكتاب قد بينا وأشرنا للدعاة إلى شمولية هذا الدين، وبيننا تصورا واضحا عن

الإسلام الذي ندعو إليه في أذهان الدعاة إلى الله ليقوموا هم بدورهم في بناء صورة ذهنية عن الإسلام والدعوة

وإليه وتعليمه.

منهجية البحث:

والمنهجية التي سلكتها في كتابة هذا الكتاب تتمثل في النقاط التالية:

- عزو الآيات المستشهد بها للسورة ورقم الآية عقب كل آية.
- الاعتماد على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ في استنباط القواعد والأحكام.
- الاعتماد على كتب التفسير بالمأثور خاصة للبحث في معاني الآيات، وعلى كتب العلماء عامة في صياغة البحث ومسائله.
- الالتزام بإيراد الأحاديث الصحيحة فقط، ولم نستشهد بحديث اتفق على ضعفه.
- الاعتماد في تصحيح الأحاديث على أقوال أهل الشأن في هذا المجال.
- اجتهادنا قدر الاستطاعة أن لا نذكر قاعدة ولا حكماً، ولا أمراً من أمور الدعوة إلا وندلل عليه من القرآن وما يفسره من السنة وأقوال أئمة السلف، وأفعالهم.
- الالتزام قدر المستطاع عدم ذكر الخلاف في المسائل الفقهية.
- محاولة الفهم العميق، والإمعان القوي في نصوص الكتاب والسنة.

- الاستفادة من الكتب المعاصرة نقلا مباشرا أو الاستفادة من أفكارها وإعادة صياغتها مع مراعاة الأمانة العلمية في نسب الفكرة أو النص لأصحابه.

خطة البحث:

ويشتمل الكتاب على مقدمة، وستة فصول، وخاتمة وفهارس على النحو التالي:

الفصل الأول: بناء تصور عام عن رسالة الإسلام:

المبحث الأول: بيان أن الإسلام هو دين الله الوحيد وهو دين كل الأنبياء:

المطلب الأول: الإسلام هو دين الله الذي لا يقبل دين سواه.

المطلب الثاني: الإسلام دين كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

المبحث الثاني: بيان الآيات الجامعة لرسالة الإسلام وأصوله وتعاليمه:

المطلب الأول: أصناف البر في سورة البقرة.

المطلب الثاني: المنهيات العشر في سورة الأنعام.

المطلب الثالث: جوامع التوجيهات الإسلامية في سورة النحل.

المطلب الرابع: التوجيهات الإسلامية في سورة الإسراء.

المطلب الخامس: صفات المؤمنين في سورة المؤمنون.

المطلب السادس: صفات عباد الرحمن في سورة الفرقان.

المبحث الثالث: عرض رسالة الإسلام:

المطلب الأول: أقوال تجمع رسالة الإسلام.

المطلب الثاني: بيان رسالة الإسلام الذي هو دين كل الأنبياء.

المبحث الرابع: مدخل الدعوة إلى الإسلام:

المطلب الأول: تثبيت عقيدة الربوبية وأن لهذا الكون خالقا.

المطلب الثاني: غرس حقيقة سبب الخلق والإيجاد.

المطلب الثالث: تثبيت أهمية حاجة الإنسان إلى منهج للحياة.

المطلب الرابع: غرس حقيقة البعث والجزاء.

المبحث الخامس: أصول التلقي وقواعد الاستدلال في الإسلام:

تمهيد حول : مجمل منهج أهل السنة في التلقي والاستدلال.

المطلب الأول: تعظيم النصوص الشرعية والانقياد لها.

المطلب الثاني: الاعتماد على السنة الصحيحة.

المطلب الثالث: صحّة فهم النصوص وأهميته في الاستدلال الصحيح.

المطلب الخامس: الاعتماد على منهج الصحابة في الفهم.

المطلب السادس: معرفة اللغة العربية.

المطلب السابع: جمع النصوص الواردة في الباب الواحد.

الفصل الثاني: بياض خصائص الإسلام:

تمهيد: مفهوم خصائص الإسلام وأهميتها بيانا.

الخاصية الأولى: الربانية.

الخاصية الثانية: العالمية.

الخاصية الثالثة: الشمولية.

الخاصية الرابعة: التكامل.

الخاصية الخامسة: الواقعية.

الخاصية السادسة: الوسطية.

الخاصية السابعة: التيسير.

الخاصية الثامنة: التدرج.

الخاصية التاسعة: السماحة.

الخاصية العاشرة: العدل.

الفصل الثالث: عرض مقاصد الإسلام:

تمهيد: مقدمات حول مقاصد الإسلام وأهميتها:

المطلب الأول: مقدمات حول مقاصد الإسلام.

المطلب الثاني: أهمية عرض مقاصد الإسلام.

المقصد الأول: حفظ الدين.

المقصد الثاني: حفظ النفس.

المقصد الثالث: حفظ النسل.

المقصد الرابع: حفظ المال.

المقصد الخامس: حفظ العقل.

الفصل الرابع: بياض تعاليم الإسلام

تمهيد: شمولية الإسلام والفرق بين الإسلام والإيمان.

المبحث الأول: أركان الإسلام:

تمهيد: مقدمات حول أركان الإسلام.

الركن الأول: الشهادتان.

الركن الثاني: إقامة الصلاة.

الركن الثالث: إيتاء الزكاة.

الركن الرابع: صيام رمضان.

الركن الخامس: الحج.

المبحث الثاني: أركان الإيمان:

تمهيد حول مفهوم الإيمان وأدلته.

الركن الأول: الإيمان بالله.

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة.

الركن الثالث: الإيمان بالكتب.

الركن الرابع: الإيمان بالرسول.

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر.

الركن السادس: الإيمان بالقدر خيره وشره.

المبحث الثالث: بيان شعب الإيمان.

الفصل الخامس: إظهار محاسن الإسلام:

تمهيد: أهمية إبراز محاسن الإسلام.

المبحث الأول: محاسن التشريع الاعتقادي في الإسلام.

المبحث الثاني: محاسن التشريع التعبدي في الإسلام.

المبحث الثالث: محاسن التشريع الأخلاقي في الإسلام:

المطلب الأول: الحث على السلوكيات الفاضلة.

المطلب الثاني: التحذير من السلوكيات السيئة.

المبحث الرابع: محاسن التشريع الاقتصادي في الإسلام.

المبحث الخامس: محاسن التشريع القضائي في الإسلام:

المطلب الأول: أهمية القضاء في الإسلام.

المطلب الثاني: الإسلام حدد مصدر القضاء العادل.

المطلب الثالث: دستور القضاء الإسلامي.

المطلب الرابع: واجب القاضي في الإسلام.

المطلب الخامس: نماذج من القضاء في صدر الإسلام:

المبحث السادس: محاسن التشريع الاجتماعي في الإسلام:

المطلب الأول: محاسن الإسلام في الوصية ببر الوالدين.

المطلب الثاني: محاسن الإسلام في الوصية بصلة الأرحام.

المطلب الثالث: محاسن الإسلام في التشريعات الخاصة بالمجتمع.

المبحث السابع: محاسن تشريع العلاقات الزوجية في الإسلام:

المبحث الثامن: محاسن التشريعات السياسية في الإسلام.

المبحث التاسع: محاسن الإسلام في الأمر بالعلم:

المطلب الأول: اهتمام الإسلام بالعلم.

المطلب الثاني: اهتمام الإسلام برعاية طلاب العلم.

المطلب الثالث: نماذج لعلماء الإسلام وتخصصاتهم.

المطلب الرابع: المكتبات في الحضارة الإسلامية.

المطلب الخامس: الاهتمام بالمدارس وطلاب العلم الوافدين في الحضارة الإسلامية.

المبحث العاشر: محاسن تشريع الجهاد في الإسلام:

المطلب الأول: السُّلم هو الأصل في الإسلام.

المطلب الثاني: لماذا الجهاد في الإسلام.

المطلب الثالث: ضوابط وأخلاقيات الجهاد في الإسلام.

المطلب الرابع: شبهة انتشار الإسلام بالسيف.

المبحث الحادي عشر: محاسن الإسلام في تشريع الحدود:

المطلب الأول: الحكمة من الحدود في الإسلام.

المطلب الثاني: المحاسن العامة في تشريع الحدود في الإسلام.

المطلب الثالث: نماذج من محاسن الإسلام في الحدود.

الفصل السادس: بياج التشريعات الحقوقية في الإسلام:

المبحث الأول: حقوق الإنسان في الإسلام.

المبحث الثاني: حقوق غير المسلمين في الإسلام.

المبحث الثالث: حقوق المرأة في الإسلام.

المبحث الرابع: حقوق الطفل في الإسلام.

المبحث الخامس: حقوق العمال والخدم في الإسلام.

المبحث السادس: حقوق الكبار في الإسلام.

المبحث السابع: حقوق الحيوان في الإسلام.

المبحث الثامن: حقوق البيئة في الإسلام.

المبحث التاسع: الحقوق الصحية في الإسلام.

المبحث العاشر: حق الحرية في الإسلام.

والله أسأل أن ينفع بهذا العمل وأن يجعله حجة لنا لا علينا وأن يلهمنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجبر تقصيرنا في هذه الدراسة، وأن يغفر ما كان فيه من خطأ وزلل، وأن يبارك في الطيب منها. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

المشرف العام على الموسوعة

أ.د. محمد بن عبد العزيز العواجي

عضو هيئة التدريس بقسم التفسير كلية القرآن الكريم

الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

الفصل الأول

بناء تصور عام عن

رسالة الإسلام

ويتضمن أربعة مباحث:

المبحث الأول: بيان أن الإسلام هو دين الله الوحيد وهو دين كل الأنبياء.

المبحث الثاني: بيان الآيات الجامعة لرسالة الإسلام وأصوله وتعاليمه.

المبحث الثالث: عرض رسالة الإسلام.

المبحث الرابع: مدخل الدعوة إلى الإسلام.

المبحث الخامس: أصول التلقي وقواعد الاستدلال في الإسلام.

الجنّة والنار»، والثابت أن أول ما نزل على الإطلاق سورة (اقرأ)، وفيها ذكر الجنّة والنار، «حتى إذا تاب»، أي: رجع «الناس إلى الإسلام» واطمأنت نفوسهم عليه، وثقنوا أن الجنّة للمطيع والنار للعاصي «نزل الخلاق والحرام»، فأشارت بذلك إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأنه أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمنين والمطيعين بالجنّة، والإنذار والتخويف للكافرين بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام؛ ولهذا قالت: «ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً»؛ وذلك لأن طباع النفوس بالتفرد عن ترك المألوف، فتدبج التنزيل والتشريع حتى استقر الإيمان في القلوب، فلما امتلأت قلوبهم بنور الإيمان نزل التحريم والتحليل والأحكام، فأسرع المؤمنون إلى تنفيذ أوامر الله.

ثم قالت عائشة رضي الله عنها: «لقد نزل بمكة» الوحي «على محمّد صلى الله عليه وسلم وإني لجارية»، أي: طفلة صغيرة «العب: {بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر} [القمر: 46]»؛ إشارة منها إلى تقوية ما ظهر لها من الحكمة المذكورة، وهو تقدم سورة القمر وليس فيها شيء من الأحكام على نزول سورة البقرة والنساء مع كثرة استعمالهما على الأحكام.

ثم قالت: «ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده» تعني: بالدينية؛ لأن دخول النبي صلى الله عليه وسلم عليها إنما كان بعد الهجرة، وأرادت بذلك تأثر نزول الأحكام.

ثم أغرقت عائشة رضي الله عنها للسائل العراقي المصحف، فأملت عليه أي السورة، أي: آيات كل سورة؛ ويتبين لنا من الحوار -الذي دار بين أمنا عائشة رضي الله عنها، وبين هذا الرجل العراقي- الحكمة العظيمة من وراء التدرج في الدعوة؛ فتمت أمور تحتل أولوية -مقارنته مع غيرها-، وتسبقها من حيث الأهمية، وإذا تداخلت هذه الأولويات فيما بينها، قد يؤدي ذلك إلى تغيير الناس عن طريق الحق بدلاً من ترغيبهم فيه.

ولذلك ينبغي أن نعطي في المراحل الأولى -من بين المواضيع الطروحة- الأولوية للتعريف بأصول الإسلام وقضاياه الأساسية، والعمل على بناء التصورات الصحيحة له، وإزالة التصورات المغلوطة عنه، وبت الرسائل الإيجابية التي تحصر، والرد على شبهة المثارة نحوه.

وفي المراحل المتقدمة لاحقاً إن شاء الله، سوف يتسع المضمون ليشمل الأصول والفروع، وجميع مسائل الإسلام التي تصلح تعريفها لغير المسلم بما فيها: التشريعات والأحكام والمعاملات والعقائد والروحانيات، وعبادات القلوب والجوارح، والأخلاق.

وتستهدف مادة الكتاب -مع الإعداد التميز- الآتي:

- أن يتعرف المتدرب/الطالب/الداعي إلى الله مواضيع متنوعة وأساسية لعرض جمال الإسلام.
- أن يدرك المتدرب قيمة وأهمية وأثر هذه المواضيع في التعريف بالإسلام.

- أن يجيد عرض محاسن الإسلام في المكان والزمان الصحيحين.
- أن يكون قادرًا على إقامة الأدلة على أصول الدين وصدق الإسلام.
- أن يكتسب مهارة التركيز على الأولويات في التعريف بالإسلام.
- أن يجيد طرح موضوعات التعريف بمقالة الإسلام العظمى بمنهجية صحيحة.
- أن يكتسب مهارات عرض أساسيات الإسلام بطريقة موجزة خلال 30 دقيقة.
- أن يكتسب مهارات عرض براهين وجود الخالق سبحانه وبراهين صحة الإسلام.
- أن يدرك حقيقة سبب الخلق والإيجاد.
- أن يفهم علاقة الإنسان بالكون في الإسلام.
- أن يُثَمِّنَ أهمية هاجمة الإنسان إلى منح الحياة.
- أن يقر بحقيقة البعث والجزاء.
- أن يُعظِّمَ النصوص الشرعية والانقياد لها.
- أن يعتقد على السنة الصحيحة.
- أن يتعزز بأدلة صحة الإسلام.
- أن يعدد خصائص الإسلام.
- أن يحدد مقاصد الإسلام.
- أن يدرك أثر أركان الإسلام في الحياة.
- أن يعدد محاسن الإسلام وتكاملها.
- أن يبرز أهمية التشريعات الحقوقية في الإسلام.

وبعد تحقيق هذه الأهداف سيكون له دور فعال في التعريف بالإسلام.

ولإبراز أهمية وجود هذا الدور يمكن أن نسأل:

لو سئل أحد الدعاة عن ما هو الإسلام؟ أو طلب منه كلمة تعريفية عن الإسلام يلقيها في وقت قصير جداً، فكيف يضمن فيها رسالة الإسلام، ويعرضها عرضاً شاملاً متوازناً مقنعاً؟
هذا السؤال لا بد وأن يواجهه الداعية وخصوصاً في دعوة غير المسلمين وفي البلاد غير الإسلامية، بل يحتاجه كثير من المسلمين الذين ينظرون إلى الإسلام نظرة قاصرة.

في كثير من البلدان وخصوصاً في الغرب تأتينا فرص كثيرة للرد على سؤال: ما هو الإسلام؟ في أماكن العمل، وفي المدارس، وفي الجامعات، وحتى في المساجد يوجد لدينا فرصة استقبال صفوف مدارس المدينة؛ ليتعرفوا على المسجد والمسلمين والإسلام في إطار "التعايش بين الشعوب"، بل إن أكثرية هذه المدارس هي من تقوم بهذه الفاعلية؛ لكي يثبتوا لنا أنهم ليسوا عنصريين، ولكن للأسف أكثرية المساجد والمراكز الإسلامية لا تملك الشخص المناسب للتعريف بالإسلام وبمضمونه المناسب، فمعظم أئمة المساجد، ينصب تعريفهم بمفرقات المسجد، وباتجاه القبلة والمحراب، ونادراً ما يقوم أحدهم بتعريف الإسلام، خلال محتوى لائق فعال.

ولو أنه تم تدريب أئمة المساجد والمنصرطين في المراكز الدعوية وطلاب الجامعات على محتوى كهذا؛ سيتجراً ويتحضر فنام كثيرة منهم؛ للتصدر تعريفاً بالإسلام، ولطرحه بطريقة ملائمة، وسيتم على إثر ذلك إعداد منتجات دعوية، وإصدار كتيبات مناسبة، وفوق كل ذلك سيتم اجتناب الكلام الذي لا يقدم ولا يؤخر.

ولقد وجدت كتاب تعريف لأعد الأئمة الجامعيين يُوزع على زوار المسجد بعض الأمور التي تُظهر الإسلام بهيئة معقدة، كتعليمهم الأشهر الهجرية أو ماذا يقال في كل ركعة في الصلاة، أو ترجمة كلمات الآذان. نعم، مثل هذه الأمور تكون نافعة، ولكن إذا رافقها تعريف بالله وبربوبيته، ووعدايته، فهو الرب الخالق، المستحق وعده للعبادة.

ولا نستطيع أن نقوم بإعداد رسالة واحدة عن الإسلام تقال في كل مكان، وعند كل أحد، ولكن الذي يحكم هذا هو الزمان والمكان والحال والفئة المخاطبة، فيعطى كل موقف ما يحتاجه من رسالة الإسلام.

ولكن هناك معالم أساسية يمكن من خلالها بناء رسالة عن الإسلام صالحة لكل زمان ومكان، أما صياغتها فتختلف باختلاف الزمان، والمكان، والحال، والمخاطبين.

أصول الدعوة إلى الإسلام

هناك أربعة أصول للدعوة إلى الإسلام، وهي كالتالي:

الأصل الأول: موضوع الدعوة: (الإسلام) أو (الدعوة إلى الله):

قال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: 108].

والمقصود بالدعوة إلى الله، الدعوة إلى دينه، وهو الإسلام: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران: 19]، ذلك الدين الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من ربه سبحانه وتعالى، إذن، الإسلام هو (موضوع الدعوة) وحققتها، وهو (أصلها الأول).

الأصل الثاني: الداعية إلى الله:

لقد بلغ الرسول الكريم الدين الإسلامي العظيم أحسن وأكمل تبليغ، وظل يدعو إليه منذ أن أكرم الله بالرسالة إلى أن انتقل إلى جوار ربه جلَّ وعلا، يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا} [الأحزاب: 45-46]، فقد كان صلى الله عليه وسلم، هو الداعية الأول إلى الإسلام، إذن، فالداعية إلى الله هو الأصل الثاني.

الأصل الثالث: الدعوة إلى الإسلام:

لم تكن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم مقصورة إلى العرب فحسب، وإلا كانت رسالته إلى العالم أجمع: عرهم وعجمهم، إنهم وجاهنهم؛ قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ: 28]، ولذلك فإن الدعويين إلى الإسلام أصلها الثالث.

الأصل الرابع: وسائل وأساليب الدعوة:

لقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الإسلام وفق وسائل وأساليب ومناهج كانت وحيًا إليه من عند الله عز وجل، وهي ثابتة في القرآن والسنة المطهرة، ومن ثم فإن الوسائل والأساليب المستخدمة في الدعوة إلى الله، تُعدُّ أصلها الرابع.

وختلاصة ما سبق: أن أصول الدعوة أربعة: موضوعها، والداعي، والمدعو، والوسائل.¹

الأصل الأول: موضوع الدعوة

إن موضوع الدعوة، هو الدين الإسلامي، الذي أوحى الله تعالى به إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا الأساس لا بد من بيان تعريفه وأركانه وخصائصه وأنظمتهم ومقاصده، ولقد قسم الشيخ عبد الكريم زيدان رحمه الله هذا الباب إلى خمسة فصول.

¹ أصول الدعوة للدكتور عبد الكريم زيدان ص 5

الفصل الأول: تعريف الإسلام.

الفصل الثاني: أركانه.

الفصل الثالث: خصائصه.

الفصل الرابع: أنظمتها.

الفصل الخامس: مقاصده.

الفصل الأول: تعريف الإسلام

هناك العديد من الأسئلة تحتاج منا إلى إجابة، وهي:

- ما الفرق بين تعريف الإسلام والتعريف بالإسلام؟

- هل تعريف الإسلام يعني ما هو الإسلام؟

أم أن التعريف بالإسلام يُقصد به (موضوع الدعوة): والذي هو بمثابة جواب على هذا السؤال: بماذا تُعرّف غير المسلم بالإسلام؟

يمكن تعريف الإسلام بتعاريف كثيرة منها:

التعريف الأول:

في حديث جبريل عليه السلام، حيث جاء بهيئة أعرابي يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لِيَسْمَعَ الحاضرون ويتعلموا أمور دينهم، قال: "يا محمد ما الإسلام؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت. فقال: صدقت...". إذن، فتعريف الإسلام، هو ما ورد في هذا الحديث.

التعريف الثاني:

الإسلام، هو الخضوع والاستسلام والانقياد لله رب العالمين، ويشترط فيه أن يكون اختيارياً لا قسرياً؛ فالخضوع القسري لسنن الله الكونية، أمرٌ عام لجميع المخلوقات، ولا ثواب فيه ولا عقاب، يقول الله تعالى: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَنْتُقُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [سورة آل عمران: 83]. فكل مخلوق خاضع لله ولسنن في وجوده ويقائه وفنائه، والإنسان كغيره من المخلوقات في هذا الخضوع القسري، أما الخضوع الاختياري لله رب العالمين فهذا هو جوهر الإسلام، المطالب به الإنسان، وعليه يكون الثواب والعقاب، ومظهره: الانقياد التام لشرع الله بتمام الرضى والقبول، وبلا قيد ولا شرط ولا تعقيب.

ومن ثم كان الإسلام بهذا المعنى هو دين الله المرضي عنده، وأوحى به إلى رسوله الكرام وبلغوه إلى الناس، قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران: 19]، وقال تعالى: {وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران: 85]، وقال الله تعالى: {وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [لقمان: 22]، {وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} * أم كنتم شهداء، إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيهِ ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا ونحن له

⁷ الراوي: عمر بن الخطاب، صحيح ابن ماجه (الصفحة أو الرقم: 53).

مُسْلِمُونَ} [البقرة: 126-127]. ثم خص لفظ «الإسلام» بالدين الذي جاء به محمد من ربه وبالاتقياد التام له، وبهذا المعنى الخاص للإسلام جاء قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَذَكَّرُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْتَصِمَةٍ غَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لِإِسْمِي فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: 3]. وعلى هذا يكون تعريف الإسلام (بمعناه الخاص) وهو المطلوب عند إطلاقه، هو: "الموضوع الاختياري لله رب العالمين، ومظهره الاتقياد لشرع الله الذي أوجاهه إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأمره بتبليغه إلى الناس".

التعريف الثالث:

الإسلام، هو النظام العام والقانون الشامل لأمر الحياة ومناهج السلوك للإنسان الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من ربه وأمره بتبليغه إلى الناس، وما يترتب على اتباعه أو مخالفته من ثواب أو عقاب، قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران: 85]، وقال تعالى: {وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [لقمان: 22]، ويعني بذلك الإسلام الذي جاء به محمد من رب العالمين.

التعريف الرابع:

الإسلام، هو مجموع ما أنزله الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من أحكام العقيدة والأخلاق والعبادات والعمالات والإخبارات في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وقد أمره الله بتبليغها إلى الناس قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [سورة المائدة: 67]. ولا غرو أن ما أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من قرآن وسنة، وما اشتمل عليه من جميع الأحكام التي ذكرناها آنفاً، هو الإسلام، دين الله تبارك وتعالى.

التعريف الخامس:

الإسلام، هو الأجوبة الصحيحة الحقة لثلاثة أسئلة شغلت عقول البشر في القديم وفي الحديث، والتي ترد على فكر كل إنسان كلما خلا بنفسه وجمال مخاطره في أمور الحياة، أو كلما شيع ميتاً أو شاهد قبراً. هذه الأسئلة هي:

من أين جئنا؟

ولماذا جئنا؟

وإلى أين المصير؟

والأجوبة الصحيحة لهذه الأسئلة التي أخبر بها رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم تكون مجموعها وتفصيلاتها الإسلام.

وعن السؤال الأول:

يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُفُوسٍ ثُمَّ مِّنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَدَّدٍ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ

طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّهُمْ وَنِيَامُ مِنْ يَوْمِهِ وَيُوفَىٰ وَنِيَامُ مَنْ يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمَرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتَتْ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ بَهيجٍ {الحج: ٥} .

ويقول تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْقَةً فِي قَرَارٍ مُّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْقَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ

أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} {المؤمنون: 12-14}

ويقول تعالى: {الْحَسْبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْقَةً مِّنْ مَّيِّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ

فَسَوًى} {سورة القيامة: 36-38}، ويقول تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ

طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} {السجدة: 7-9}.

ويقول تعالى: {هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ

نُطْقَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِمْ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} {سورة الانسان: 1-2} .

ويقول تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} {الطارق: الآية: 5}.

أي: من الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب.

فهذه الآيات الكريمة، ومثيلاتها في القرآن الكريم تُبين أن الإنسان لم يكن شيئاً، وإلا كان معدوماً، فخلق

الله تعالى الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام من طين أو تراب ثم جعل نسله من ماء مهين على النحو

المذكور في هذه الآيات.

وعن السؤال الثاني:

يقول الله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} {سورة الزاريات: ٥٦}، والعبادة تتضمن معرفة

الله ومحبة والمضوع له واتباع مناهجه التي وضعها للإنسان؛ لتكميل نفسه ورفعها إلى المستوى اللائق بها

والمستعدة له؛ ليظفر بالسعادة الحقيقية هنا وهناك في الدنيا والآخرة. فالإنسان خلق لعبادة الله بمعناها

الواسع كما سنذكر فيما بعد.

وعن السؤال الثالث:

يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ} {الانشقاق: 6}.

ويقول تعالى: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} {الروم: 11}.

ويقول تعالى: {ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} {الزمر: 7}.

ويقول تعالى: {وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى} {النجم: 42}.

ويقول تعالى: {إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى} {العلق: 8}.

فهذه الآيات الكريمة تُبين مصير الإنسان بعد موته، وهو رجوعه إلى خالقه؛ لمجازاته على أعماله في الدنيا،

وإدخاله الدار التي تلائم، فإن كان قد زكَّى نفسه بعبادة الله وصار من الطيبين؛ فنزله في دار الطيبين - الجنة

- وإن كان قد دَسَّ نفسه ولوئها بأقذار العصية وأبقى خبيثها؛ فنزله في دار الخبيثين: جهنم - عياداً بالله منها -.

الإسلام، هو الروح الحقيقية للإنسان، والنور الهادي له في درب الحياة، والشفاء الكافي الوافي لأعراض البشرية، والصراط المستقيم الذي لا يضل من سلكه وسار فيه، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْهَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: 52].

وقال تعالى: {وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [الإسراء: 82].

وقال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً} [فصلت: 44].

ومن الواضح أن هذا التعريف، هو تعريف للإسلام ببعض صفاته اللاصقة به، والتي لا تفك عنه، كأن نقول على سبيل المثال: الإسلام هو دين الفطرة؛ وذلك لقول الله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِن كَثُرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم: 30].

كما يمكن أن نقول أيضًا في تعريف الإسلام: إنه دين التوحيد، أو دين العلم، أو دين العدل؛ لأن فيه هذه المعاني على أتم الوجوه، ويدعو إليها، ويؤكد عليها.

تعريف أخرى للإسلام:

ومما تجب ملاحظته أن ما ذكرناه من تعريف متنوع للإسلام، إنما هو على سبيل التمثيل، لا الحصر؛ إذ يمكن الاتيان بتعاريف أخرى، وبعبارات متنوعة، ولا مانع من ذلك البتة، بشرط أن يكون مضمون التعريف صحيحاً ومنطقياً على معنى الإسلام، وأن تكون ألفاظ التعريف واضحة صحيحة لا لبس فيها، ولا غموض، ولا استتباب، ولا تناقض، ولا اختلاف.

وهناك ملاحظة ثانية، ألا وهي: أن هذه التعاريف التي ذكرناها كلها صحيحة، ولا تناقض فيما بينها، ولا اختلاف؛ لأن كل واحد منها يستلزم أو يتضمن ما في التعريف الآخر، وإلّا يكمن الاختلاف في الألفاظ لا في المعاني التي يبرزها هذا التعريف دون ذلك، وهذا القدر من الاختلاف لا يؤثر في وحدة مضمون التعاريف، ودلالاتها على معنى الإسلام صراحةً أو بالتضمن والاستلزام كما قلنا.

ما هو الغرض المنشود من تعدد التعاريف؟

إن الغرض الذي نقصده من إيراد التعاريف المتعددة للإسلام، هو أن الداعي بين يديه جملة من التعاريف يستطيع أن يختار منها ما يناسب حال الدعوة من جهة مدى فهم، وثقافته، وعلمه، وسلامته فطرته، ونوع الشبهات التي عشت قلبه، والمعاني التي هو بحاجة إلى معرفتها عن الإسلام أكثر من غيرها. فالشخص الحائر الذي قرأ ما يسمى بالفلسفة، واشتهت عنده الأمور، يناسبه إذا سئل عن الإسلام أن يجاب بالتعريف الخامس، والذي يقول: إن الإسلام هو الأهمية الحقة الصحيحة لما يرد على ذهن الإنسان من أسئلة: من أين جئنا؟ ولماذا؟ وإلى أين المصير؟ والتي بلغها رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس.

أما الشخص الذي يعمل بالأمر القانونيّة والعلوم الاجتماعيّة، يناسبه عندما يسأل ما هو الإسلام، أن يجاب بالتعريف الثالث.

وغير المسلم إذا دُعِيَ إلى الإسلام وسأل عنه، يجاب بالتعريف الأول: الإسلام، أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .. الخ.

التعريف المختار:

والتعريف الذي نختاره ونجعله أساساً لبيان أركان الإسلام، هو التعريف الأول الذي ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل، وقد ذكرناه سابقاً، وهو يتضمن جميع ما في التعاريف الأخرى من معانٍ¹.

التعرف إلى أسس الإسلام

ما أروع البشرية إلى التعرف إلى أسس الإسلام، وبعبارة موجزة وشيقة تناسب المستويات المتنوعة؛ ليتكون لدى كل منصف يبحث عن حقيقة هذا الدين من مراجع الموثوقة، فكرة واضحة تُزيل اللبس عنه، ولا تُورث عليه شبهة، مع المراعاة في ذلك: الوقت والتنوع والشمول.

ويمكن إجمال تلك المعالم في المباحث التالية:

المبحث الأول

بيان أن الإسلام هو دين الله الوحيد وهو دين كل الأنبياء

يمكن بيان هذا المعلم في مطلبين:

المطلب الأول

الإسلام هو دين الله الذي لا يقبل ديناً سواه

لا بد وأن يدرك المدعو أن الإسلام هو دين الله الوحيد، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85].

إنها قاعدة صريحة لا تقبل التأويل، ولا التحريف، الإسلام هو الدين الوحيد الذي يقبله الله من العبد، قال

¹ أصول الدعوة للدكتور عبد الكريم زيدان ص 9-15

الرازي: "بَيَّنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الدِّينَ لَيْسَ إِلَّا الْإِسْلَامُ، وَأَنَّ كُلَّ دِينٍ سِوَى الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُ غَيْرٌ مَقْبُولٌ عِنْدَ اللَّهِ، لِأَنَّ الْقَبُولَ لِلْعَمَلِ هُوَ أَنْ يَرْضَى اللَّهُ ذَلِكَ الْعَمَلَ، وَيَرْضَى عَنْ فَاعِلِهِ وَيُثَبِّتُهُ عَلَيْهِ"⁽¹⁾.

وقال ابن جزي: "الآية إبطال لجميع الأديان غير الإسلام"⁽²⁾.

وقال ابن تيمية: "بَيَّنَّ أَنَّ الدِّينَ - الَّذِي رَضِيَهُ وَيَقْبَلُهُ مِنْ عِبَادِهِ - هُوَ الْإِسْلَامُ، وَلَا يَكُونُ الدِّينَ فِي مَحَلِّ الرِّضَى وَالْقَبُولِ إِلَّا بِانْضِمَامِ التَّصَدِيقِ إِلَى الْعَمَلِ"⁽³⁾.

وقال القاسمي: "المعرض عن الإسلام والطالب لغيره فاقد للنفع، واقع في الخسران، بإبطال الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها، وفي ترتيب الرد والخسران على مجرد الطلب دلالة على أنَّ حال من تدين بغير الإسلام واطمأن بذلك أفضح وأقبح"⁽⁴⁾.

وعلى هذا فرسالة محمد ﷺ واجبة الاتباع، قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجَّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [آل عمران: ٢٠].

قال ابن كثير: "وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة"⁽⁵⁾.

وعن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب ؓ أتى رسول الله بنسخة من التوراة، فسكت، فجعل يقرأ ووجه رسول الله يتغير، فقال أبو بكر ؓ: ثكلتك الثواكل، ما ترى وجه رسول الله ﷺ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله، فقال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: ((والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتكم عن سواء السبيل، ولو كان حياً وأدرك نبوتي لاتبعني))⁽⁶⁾ وفي رواية ((ما وسعه إلا اتباعي))⁽⁷⁾.

وقال النبي ﷺ ((والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي، ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار))⁽⁸⁾.

(1) مفاتيح الغيب 2/282.

(2) التسهيل في علوم التنزيل 1/151.

(3) مجموع الفتاوى 7/360.

(4) محاسن التأويل 2/345.

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 2/298.

(6) مسند أحمد 3/387 (15195)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 1/173-174 وله شواهد كثيرة تقويه، وأخرج الألباني رواية جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض الكتب قال فغضب وقال: "أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بما بيضاء نقية"، قال الألباني: حديث حسن إسناده ثقات غير مجالد وهو ابن سعيد فإنه ضعيف، ولكن الحديث حسن له طرق أشرت إليها في مشكاة المصابيح 1/8 (177) ثم خرجت بعضها في إرواء الغليل 6/38.

(7) شعب الإيمان للبيهقي 1/199 (176)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح 3/1 (177).

(8) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب وجوب إيمان أهل الكتاب برسالة الإسلام (143).

وهذه القاعدة الصريحة التي لا تقبل التأويل، ولا التحريف، لا بد وأن يدركها الداعية إلى الله قبل المدعو، ألا وهي: أن الإسلام، هو دين الله الأوسع، ولا يجوز المداهنة فيه - كما هو الحال عند بعض الدعاة في أوروبا - فالضمون الدعوي توقيفيٌّ، لا تصرّف فيه، أما الأساليب والوسائل فهي اجتهادات؛ ولذلك تعدد طرق الناس في تبليغ دين الله تعالى.

وفي هذا الإطار سأعرض حواراً قصيراً، يُقنع بالمنطق والعقل والنقل أنه لا دين غير دين الإسلام، ومن ثم يُبطل جميع الأديان دون، يقول الله تبارك وتعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران: 19].

يقول أحمد المشايخ: "دعانا أحمد الأخوة المشهود لهم بالصالح إلى الإفطار، وكان من بين الحضور دكتور في إدارة الأعمال، والذي كان يعمل مستشاراً لوزير المالية في الشؤون الجمركية.

فقلت له: عندي أسئلة إدارية، فهل أنت مستعد لإجابتها؟ فقال: نعم.

سألته: هل يمكن أن ترجع مؤسسة لزمان طويل جداً دون إدارة؟

قال: مستحيل، لا بد من كل مؤسسة من إدارة.

فقلت: هذا الكون، هل هو مؤسسة؟

قال: أجل، هو مؤسسة كبيرة.

قلت: إذن، من يديره؟

فتردد وتلكأ، فقلت: لا يمكن أن يديره إلا الذي خلقه وصوره.

قال: نعم.

قلت: هل يمكن أن تكون هناك مؤسسة ناجحة بها إدارتان متساويتان وليس فوقهما إدارة عليا تأمر وتنهي؟

قال: لا، من قواعد الإدارة، وحدة المرجع التنظيمي، فلا يمكن تعدد المسؤولية.

فقلت: {لَوْ كَانَتْ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الأنبياء: 22].

فسألني عن ترجمة الآية فترجمت له. ثم قلت: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَزَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ} [المؤمنون: 91].

وسألته: هل يمكن أن تقابل الإدارة العليا جميع المنتسبين إلى المؤسسة في كل صغيرة وكبيرة؟

قال: لا، إنما تقابل رؤساء العمل.

فقلت: أولئك الرسل.

ثم سألتها: أرايت لو أن الإدارة أصدرت قراراً بأن الدوام يبدأ من الساعة الثامنة صباحاً، وبعد مدة أصدرت قراراً آخر بأن الدوام يبدأ من الساعة السابعة صباحاً، بأيهما سوف يعمل الموظفون، بالقرار الأول أم بالأخير؟

قال: بالأخير.

قلت: الأول المسيحية، والثاني الإسلام.

فتردد ثم قال: لماذا تغير الإدارة التوقيت؟

فقلت: لماذا تغيرون أنتم التوقيت من الصيفي إلى الشتوي ومن الشتوي إلى الصيفي؟

قال: لمصلحة العمال.

قلت: أيضاً تغيير التشريع لمصلحة العمال.

قال: كيف ذلك؟

قلت: أنت مقر أن أول أسرة في العالم من البشرية هي أسرة آدم؟

قال: نعم.

قلت: لو أن آدم شرع له تحريم زواج الإخوان، هل سينتشر العالم؟

قال: لا.

قلت: هل يمكن أن يبقى تشريع الإخوان مشروعاً، أم تزوج بأختك الشقيقة؟ قال: لا.

قلت: إذن تطوّر العالم يقتضي تغييراً في التشريع.

انظر إلى سرعة بديهة المحاور، وقوة حوار مع الطرف الآخر، وكيف أنه درس جيدا خلفية المدعو!

نحن بحاجة إلى مثل هذه النقاشات؛ للاستفادة منها، ومحاولة محاكاتها في الوقت والمكان المناسب، ولو أننا صنعنا من هذا السيناريو فيديوجرافيك، ثم ترجمناه إلى لغات العالم؛ لوجدنا له أثرٌ بالغٌ بمشيئة الله في إسلام غير المسلمين، فمن إذن يقول لهذه المهمة العظيمة أنا لها؟، محتسبا في ذلك الأجر العظيم المترتبة عليها، والتي لا يعلم قدرها إلا الله عز وجل.

المطلب الثاني

الإسلام دين كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

الإسلام دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعه من أولهم إلى آخرهم، والأدلة في ذلك كثيرة منها قول الله تعالى عن إبراهيم ويعقوب عليهما الصلاة والسلام: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿البقرة: ١٣٢ - ١٣٣﴾، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿آل عمران: ٦٧﴾.

وقال تعالى عن عيسى ﷺ: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَأَمْنَا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ ﴿آل عمران: ٥٢﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَأَمْنَا وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ ﴿المائدة: ١١١﴾.

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يقول لأهل الكتاب: ﴿قُولُوا ءَأَمْنَا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿البقرة: ١٣٦﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿آل عمران: ٦٤﴾.

وعند مجادلة أهل الكتاب أمر الله تعالى نبيه بإعلان الإسلام والدعوة إليه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَأَمْنَا بِالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿العنكبوت: ٤٦﴾.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِلَّا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿هود: ١٤﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّكُمْ إِلهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿الأنبياء: ١٠٨﴾.

وهذا رسول الله ﷺ، يعلن أن دين الأنبياء واحد بقوله: ((أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد))^(١).

وقال رسول الله ﷺ: ((مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين))^(٢).

(1) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله {واذكر في الكتاب مريم} [مريم: 16] (3443).

(2) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ (3534).

فالإسلام بناء كبير ختم الله بالنبى ﷺ هذا البناء وأكمّله، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].
 فالعالم لا يحتاج إلى أنبياء وإنما يحتاج إلى من ينقل علم الأنبياء، لقول النبي ﷺ: ((إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها))⁽¹⁾.

نموذج للتعريف بالإسلام مع نصراني

الخطوة الأولى

أولاً ينبغي عليك أنهي الداعية إلى الله أن تبدأ حوارك بما هو مشترك بينك وبين المدعو، وذلك بأن تطرح عليه هذا السؤال: هل تحب عيسى عليه السلام؟
 فسيكون جوابه: بالطبع أعبه.
 ثم تقول له: هل تعلم أن المسلمين أيضاً يحبون عيسى عليه السلام، ومحبون أمه الصديقة مريم عليها السلام؟ والمفاجئة لك أكيد والتي لم تكن تعرفها، أن المسلمين يحبون عيسى عليه السلام أكثر من النصارى.
 هل تعرف كيف ذلك؟

نحن لدينا ركن من أركان الإيمان يقول: إن لم تؤمن بعيسى عليه السلام ونجبه وتحترمه لا يكمل إيماننا، ولذلك تؤمن به وبإبراهيم ونوح وموسى ومحمد كأنبيا، الله ورسله عليهم السلام، فهم جميعهم لديهم نفس الهدف، وهو أن يجربوا الناس أن الرب واحد، وليس اثنين أو ثلاثة، فهو وحدة المستحق العبادة، ولا أحد سواه.

الآن بدأنا شيئاً فشيئاً نزيلُ الغبار، وبطريقة حوارية مؤدبة، نُقَرِّبُ إليه الحقيقة ونساعد؛ ليفكر، فلا يخرج من الجلسة إلا وتركت عنده أثراً طيباً في نفسه وقلبه، ثم تكمل: وعيسى عليه السلام ولدَ بطريقة معجزة، وأنَّ السيدة مريم عليها السلام طاهرة وعفيفة؛ ولذلك نحن المسلمون نفضب ممن يتهمونها بالفاحشة ونُسيتون إليها. ليس هذا فحسب، بل سأخبرك بالزيد عن عقيدتنا تجاه عيسى عليه السلام، ولكن قبل ذلك: هل تأذن لي أن أعرفك بأسيات الإسلام باختصار شديد؟

فإن سمع لك، وأعطاك المجال لتحدثه، ابدأ بتعريفه بأسيات الإسلام بشكل ملخص، ثم تعود وتقول له: إنَّ عقيدتنا في عيسى عليه السلام أنه قبل ولادته لم يكن موجوداً، فالله هو الذي خلقه، وخلق أمه قبله، وخلقني وخلقك، إذن عيسى عليه السلام هو نبي من أفضل الأنبياء والمرسلين، وله مكانة خاصة عند رب العالمين. ليس رباً ولا خالقاً؛ ولا هو ابنُ الله عز وجل؛ فالله عز وجل لا يحتاج إلى ولد، (ولا يليق به؛

(1) سنن أبي دواد، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة (4291)، وصححه الألباني في الصحيحة (599)

لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفء له من خلقه؛ ولأنَّ جميع الخلائق عبيد له).¹ والقول بأن عيسى هو الرب أو أنه ثالث ثلاثة، يُفضَّب عيسى عليه السلام، ويُفضَّب الرب الخالق سبحانه وتعالى عما يصفون. يقول الله تعالى في سورة مريم: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَّقَطْنَ مِنْهُ * وَتَلْشَفُ الْأَرْضُ وَحَجْرُ الْجِبَالِ هُدًًا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مريم: 88-93].

الآن هان دور الترغيب والترهيب:

صديقي المحب، نحن كائنات خُلِقنا للخلود، فقد كُتِب علينا منذ أن أدركنا وجودنا على هذه الأرض أننا سنعيش حياة أبدية، فما الموت إلا انتقال من الحياة الدنيا إلى الحياة البرزخية، وما البعث أيضا إلا انتقال من البرزخ إلى الدار الآخرة، فقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحٍ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَسْرُبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَوْهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَسْرُبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَوْهُ، فَيُنَادِي: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خَلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خَلُودٌ فَلَا مَوْتَ. ثُمَّ قَرَأَ: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ، وَهُؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا} [مريم: 39].²

ولذلك تعين عليك أن تبحت في شأن حياتك بعد الموت، إن الأمر جليل، ويستحق البحث أكثر مما تصور، ومن الأهمية بمكان أن تعرف أية رسالة من رسالات ربك وغالقلك، يجب أن تتبعها؛ لتنال الجنة وتنجو من النار، ولا شك أنها الرسالة الأخيرة، وهي رسالة الإسلام ومعجزته الكبرى وهو: القرآن، الذي جاء ناسخا لما قبله، والذي لم يتغير ولم يتبدل. وإذا كان الإنجيل والقرآن مصدرهما واحد وهو الله عز وجل إلا أن الإنجيل بعد مع مرور الزمن - كما يعترف بذلك أكثرية قساوسة النصارى - حصل له تحريف كبير، وتعددت نسخه، وتبدلت رسالة الخالق الأصلية؛ ولذلك أرسل الله سبحانه وتعالى آخر رسالة، والتي يريد منا أن نتبعها، ولن يقبل منا غيرها، بل إنَّ عيسى عليه السلام لن يقبل منا غير الإسلام؛ لأنه رسول رب العالمين.

وفي النهاية، عليك أن تعطيه واجبا مهما:

وذلك بأن تقول له: أتمنى منك أن تقرأ الإنجيل مرة أخرى، فإن أنت فعلت ذلك؛ فلن تجد عيسى عليه السلام في أي موضع منها، يقول إنه الرب، كما أن أمَّ الصديقة لم تقل عنه يوما أنه رب.

¹ تفسير ابن كثير، سورة مريم الآية: 92 {وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا}.

² الراوي: أبو سعيد الخدري، صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: 4730.

المبحث الثاني

بيان الآيات الجامعة لرسالة الإسلام وأصوله وتعاليمه

عند بناء التصور العام عن رسالة الإسلام المتفق عليها بين الرسل بشمول ووضوح وتكامل لا بد من عرض مجموعة من الآيات جمعت أصول الإسلام ورسالته الخالدة، لتتضح رسالة الإسلام ويعلم أن هذا الدين هو الحياة كلها، وأنه جاء لإصلاح الدنيا والدين، وإصلاح العلاقة بين العبد وخالقه وكذلك إصلاح العلاقة بين العبد والمخلوقين.

الفقرة عن طريقة القرآن الكريم في مخاطبة الخلق

كثير من الدعاة يبني وعظه وإرشاده على طريقة واحدة كالترهيب والترغيب، ويفعل عن طريقة القرآن التي تتسم بالشمولية والعمق، فالقرآن هو كتاب الله الذي نزل لإسعاد البشرية وهدايتها، وهو خطابٌ من خَلَقَ الإنسان ويعلم أسرارهِ وأحواله وما ينفعه وما يضره، ويعلم مداخل نفسه ومسارها، فلا شك أن طريقته في خطاب الناس ودعوتهم أسلم طريقة وأقربها لفطرة هذا الإنسان.

فينبغي على الداعية أن يسترشد بطريقة القرآن، في مخاطبته للفطرة، وفي ربط الإنسان بالكون وما فيه من آيات، وفي طريقته في الإقناع، وفي جمعه بين مخاطبة العقل ومخاطبة المشاعر، وفي بنائه على قاعدة الربوبية المتمثلة في الخلق والرزق والإنعام، وغير ذلك مما تميز به الأسلوب القرآني في الخطاب والإقناع.

لذا وجب أن يُعرض هذا الدين من خلال نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وليس من خلال الأساليب البشرية فقط، أو الطرق الكلامية في المحاوراة والإقناع، وذلك لعدة أمور:

أ- أنه بسماع كلام الله تعالى، وفهم مراده يهتدي من شاء الله هدايته وتقوم الحجّة على الضالّ المعاند، كما قال تعالى: {وَإِنْ أَهَدَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ} [التوبة:6]، وربما لا تقوم الحجّة والبلاغ بالأساليب البشرية والطرق الكلامية التي يعتمدها النقص والخلل.

ب- أن الله أمرنا بإبلاغ دينه ووعيمه كما أنزل، ولم يأمرنا باختراع طرق كلامية من عند أنفسنا لهداية الناس، نظن أننا نصل بها إلى قلوبهم، فلماذا نشغل أنفسنا بما لم نُؤمر به ونعرض عما أمرنا به؟

ج- أن أساليب الدعوة الأخرى، مثل الحديث بتوسع عن انحرافات الخصوم، والرد عليهم، سواء في مجال العقيدة، أو العبادة أو الأخلاق أو الآداب أو الاقتصاد، أو استخدام الجدلّات الفكرية والعقلية، كلديت عن إثبات

وجود الله -تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً-، أو الحديث عن التحريف الموجود في الإنجيل والتوراة وكتب الديانات الأخرى، وبيان تناقضها وبطلانها، كل ذلك يصلح أن يكون مدخلاً لبيان الفساد في مبادئ الخصوم واعتقاداتهم، ويصلح كذلك لأن يكون زاداً ثقافياً للمسلم -مع أنه لا يضره الجهل به- لكن لا يصلح مطلقاً أن يكون أساساً ومنطلقاً تقوم عليه الدعوة إلى الله.

د- أن الذين يدخلون إلى الإسلام بهذه الطرق السالفة، ليس بالضرورة أن يكونوا مسلمين حقاً، فقد يدخل أحدكم في هذا الدين إغماً بقضية معينة بسط له الحديث عنها، وقد يكون غير معتقد لقضايا رئيسية أخرى من أمور الدين، كمن يعجب -مثلاً- بمزايا الاقتصاد الإسلامي؛ لكنه لا يؤمن بالدار الآخرة، أو لا يؤمن بوجود الجن والشياطين وغير ذلك. وهذه النوعية من الناس ضررها على الإسلام أكثر من نفعها.

هـ- أن للقرآن سلطان على النفوس، فإذا خُيِّب بينه وبينها استجابت له النفوس الزكية، وترقت في معارج الإيمان والتقوى، فلماذا يحال بينه وبينها!

و- ألا تتدخل ردود الأفعال، وضغط الواقع، والخلفيات السابقة في عرض هذا الدين، بل يُعرض هذا الدين كما نزل، متبعاً في ذلك منهجه هو في مخاطبة الناس والتدرج بهم في مدارج الاستقامة.

ما هو أكثر مؤثر يدفع الإنسان الغربي لاعتناق الإسلام؟

والإجابة عن هذا السؤال مهم جداً؛ حتى يتم الاستفادة منها في دعوة البقية، لقد كنت أتوقع أنني سأصل إلى نظرية معقدة حول هذا الموضوع، أو تفاصيل دقيقة حول هذه القضية، لا يعرفها كثير من الناس، وقرأت لأجل ذلك الكثير من التجارب الذاتية لشخصيات غربية أسلمت، وشاهدت الكثير من المقاطع المسجلة يروي فيها غربيون قصة إسلامهم، ولم كنت مأخوذاً بأكثر عامل تَرَدَّدَ في قصصهم، ألا وهو: أنهم سمعوا القرآن وشعروا بشعور غريب استحوذ عليهم، هذا السيناريو يتكرر تقريباً في أكثر قصص الذين أسلموا، وهم لا يعرفون اللغة العربية أصلاً، إنها سطوة القرآن، والله يقول: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ هَشَمَةٍ لَّهِ} [الحشر: 27]، هذا تأثير الجملاد بالقرآن، فكيف بالبشر؟

للأسف، إننا ننسى أو نتناسا أن أكثر المصادر صحة وأصالة هو القرآن الكريم، والذي هو كلام الله الحق، لا يأتيه الباطل، وهو اليقين الذي لا يطرقت إليه التغيير ولا التبديل ولا الشك ولا الاحتمال، وهذه حقيقة مثبتة لفة وعقلا وعلماء، ولم يستطع أحد تحديها منذ نزول القرآن وحتى الآن وستستمر كذلك إلى الأبد.

إن التأمل في هذه الآيات التي سنذكرها، ستجيب القراء باختصار عن العديد من الأسئلة التي قد تطرحها قلوب وعقول غير المسلمين وقلوبنا وعقولنا أيضاً، مثلاً: من خلقنا؟ ولماذا خلقنا؟ وإلى أين نحن صائرون بعد مفارقة هذه الحياة؟ وغيرها من الأسئلة.

سمى العلماء هذه الآيات الثلاث بالوصايا لأن الله ختم كل آية منها بالوصية، وروي عن ابن عباس f أنه يقول عن هذه الآيات: "إنهن الآيات المحكمات"⁽¹⁾.

يقول ابن مسعود f: "من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ هذه الآيات الثلاث"⁽²⁾. لقد شملت هذه الوصايا رسالة الإسلام في كل نواحي الحياة، عقدياً وخلقياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً فيها تنتظم حياة الإنسان، وينضبط معاملاته، ضمن حد الشرع والعدل.

"هذه وصايا عشر هي وصايا الله تعالى لبناء مجتمع إنساني كامل، يقوم على أساس التعاون الإنساني والمودة ودفع الأذى ووقاية المجتمع من الآفات، ورعاية الضعفاء.. فيها تطهر النفس والعقول من آفات الفكر، وتطهير المجتمع من التقاطع والتنابد ومنع الاعتداء بأي نوع من أنواعه. وفيها، التعاون على حماية الضعفاء، وفيها إعطاء كل ذي حق حقه، وفيه إقامة العدل في كل ضروبه الذي هو ميزان الحقوق والواجبات، وفيها الوفاء بالعهد الذي هو رباط الجماعات الإنسانية مهما تختلف أجناسها وشعوبها وقبائلها"⁽³⁾.

(1) المستدرك على الصحيحين للحاكم (3138)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يُخرجاه.

(2) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير 1414/5.

(3) زهرة التفاسير لأبي زهرة 2727/5.

المطلب الثالث

جوامع التوجيهات الإسلامية في سورة النحل

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [النحل: ٩٠ - ٩٢].

"هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به. وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه، وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء" (1).

لقد أنزل الله تعالى القرآن لينشئ أمة وينظم مجتمعا، فهو دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس، إنما العقيدة وحدها هي الرابطة، فشرع الله المبادئ التي تكفل تماسك المجتمعات، وتكفل اطمئنان الأفراد والأمم، "فهذه الآية استئناف لبيان كون الكتاب تبيانا لكل شيء، فهي جامعة أصول التشريع" (2). فقد جمعت هذه الآية رسالة الإسلام، من حيث إنها أمرت بثلاثة أمور، لا يصلح شأن الإنسان إلا بها، وهي: العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، ونهت عن ثلاثة أمور، لا يصلح شأن الدنيا إلا بتركها، وهي: الفحشاء، والمنكر، والبغي. وبهذه الأوامر الثلاثة والنواهي الثلاثة تستقيم حياة الناس في الدنيا، ويفوزون بالآخرة. ولكن لا بد أن تفهم تلك الأوامر والنواهي بمفهومها الشامل في الإسلام الذي بينته آيات أخرى وأحاديث رسول الله ﷺ، فيدخل في العدل، العدل في القضاء، وعدل الإنسان بين أبنائه وبين زوجاته، وعدل الإنسان مع نفسه لأداء حقوقها، وقبل ذلك العدل مع الله وعدم الظلم بالإشراك معه في عبادته، وكذلك الإحسان مع الله في العبادة والإحسان مع الخلق والإتقان في العمل، وكذلك العلاقة بالقرابة وحسن الصلة بكل قرابة سواء كانت في النسب أو السبب أو قرابة مع الجيران، ويقاس على ذلك كل النواهي المذكورة.. والأمر بالوفاء بالعهد.

(1) تيسير الكريم الرحمن ص 447.

(2) التحرير والتنوير 254/14.

المطلب الرابع

التوجيهات الإسلامية في سورة الإسراء

قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخَذُولًا﴾ (٢٢) ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣) ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (٢٤) ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأُولَٰئِكَ عَفْوَراً﴾ (٢٥) ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ بَذْرًا﴾ (٢٦) ﴿إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (٢٧) ﴿وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ أَبْغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ (٢٨) ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (٢٩) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٣٠) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِيْتُمْ نَزْفُفَهُمْ وَإِنَّا لَكُرْهُمُ إِن فَتَلَهُمْ كَانِ خَطَاةً كَبِيرًا﴾ (٣١) ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ فَرْحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٢) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (٣٣) ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٣٤) ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ السُّتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٣٥) ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦) ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٣٧) ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٣٨) ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْفِقِي فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٢٢ - ٣٩].

عن ابن عباس ؓ قال، قال: "إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل، ثم تلا ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخَذُولًا...﴾" (1).

ففي هذه الآيات يبين الله تعالى شيئاً من أوامر هذا القرآن ونواهيها، التي تهدي للطريق والسلوك والهدي الأقوم، فيبدأ بالنهي عن الشرك، والأمر بالتوحيد، ثم تبدأ الآيات بعرض الأوامر والتكاليف: من بر الوالدين، وإيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل، في غير إسراف ولا تبذير. وتحريم قتل الذرية، وتحريم الزنا، وتحريم القتل. ورعاية مال اليتيم، والوفاء بالعهد، وتوفية الكيل والميزان، والتثبت من الحق، والنهي عن الخيلاء والكبر. وتنتهي الآيات بالتحذير من الشرك كذلك فإذن الأوامر والنواهي والتكاليف تقوم أولاً عقيدة التوحيد التي يقوم عليها بناء الحياة.

المطلب الخامس

صفات المؤمنين في سورة المؤمنون

قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ ﴾ [المؤمنون: ١ - ٨].

هذه آيات جامعة لرسالة الإسلام، فهي تجمع خصال نافعة من خصال الخير التي يحصل بها الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

فقد جمعت هذه الآيات الكريمة بين حق الخالق وحق المخلوق، وبين أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وبين الأعمال اللازمة والأعمال المتعدية.

وتضمنت هذه الآيات المنيرات أسباب الفوز باجتماعها في أعمال صالحة عظيمة وهي: المحافظة على الصلاة الخاشعة، والإعراض عما لا ينفع من القول والعمل، وحفظ الفروج عن الحرام، وأداء الأمانات، والوفاء بالعهود⁽¹⁾. فهذه الخصال المذكورة تجمع بين حق الله وحق المخلوقين، بعبارات جامعة شاملة لا تقتصر على معناها المحدود وإنما تشمل ما ورائها من توجيهات إسلامية، فالخشوع في الصلاة دلالة كبيرة على عظم الإيمان في القلب وأثر التوحيد على النفس الذي يتولد منه هذا الخشوع.. وقس على ذلك باقي الصفات..

تلك الصفات التي تبين رسالة الإسلام وتحدد شخصية المؤمنين المكتوب لهم الفلاح، وهي صفات ذات أثر في تحديد خصائص المسلمين ونوع الحياة التي لا بد أن يحيوها، الحياة الفاضلة العفيفة الإنسانية التي كرم الله بها الإنسان وليست الحياة الحيوانية الشهوانية.

(1) ينظر مقال بعنوان صفات المؤمنين في سورة المؤمنون د. عبدالله العواظي، منشور على موقع الألوكة.

المطلب السادس

صفات عباد الرحمن في سورة الفرقان

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝٦٣ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝٦٤ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۝٦٧ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٧٠ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَنْبُؤُا إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ۝٧١ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝٧٢ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝٧٣ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَجِيَّةً وَسَلَامًا ۝٧٥ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝﴾ [الفرقان: ٧٢ - ٧٦].

"وصفهم بالوقار والسكينة، والتواضع له وعبادته، وحسن الأدب، والحلم، وسعة الخلق، والعفو عن الجاهلين والإعراض عنهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، وقيام الليل والإخلاص فيه، والخوف من النار، والتضرع لربهم أن ينجيهم منها، وإخراج الواجب والمستحب في النفقات والاقتصاد في ذلك، والسلامة من كبائر الذنوب، والاتصاف بالإخلاص لله في عبادته، والعفة عن الدماء والأعراض، والتوبة عند صدور شيء من ذلك، وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر، والفسوق القولية والفعلية ولا يفعلونها بأنفسهم، وأنهم يتنزهون من اللغو والأفعال الردية التي لا خير فيها، وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانيتهم وكمالهم ورفعة أنفسهم عن كل خسيس قولي وفعلي، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها والتفهم لمعانيها والعمل بها، والاجتهاد في تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون الله تعالى بأكمل الدعاء، في الدعاء الذي ينتفعون به، وينتفع به من يتعلق بهم وينتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم، ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصحهم لأن من حرص على شيء ودعا الله فيه لا بد أن يكون متسببا فيه، وأنهم دعوا الله ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم وهي درجة الإمامة والصديقية.. فله ما أعلى هذه الصفات وأرفع هذه الهمم وأجل هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس وأطهر تلك القلوب وأصفى هؤلاء الصفاة وأتقى هؤلاء السادة"⁽¹⁾.

إنه من الضروري قبل قراءة هذه الآيات أن تعطى كلام الله المسامحة التي تليق به، وتقتصر على غير المسلم ألا يفوته الفرصة للاطلاع على آخر الرسالات الخالقة وخالف كل شيء، وبعقل منفتح وغياك من الأحكام المسبقة، وتقول له: "إن من المؤمل أن تترك هذه الآيات بالعلوم اللازمة؛ لتكون على بينة من عقافت الأمور وما ستؤول إليه".

وفي النهاية سيكون على عاتق المدعو وكل عاقل أن يختار لنفسه الهداية أو يختار العناد والخسران؛ لذا من الضروري في حوارنا أن نستند باستمرار -وفي كل موضوع نفتحه معهم- إلى الآيات التي تدعم كلامنا، فمثلا عن الخائف:

هل يوجد خالق؟

﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يوقِنُونَ﴾ {الطور: ٣٥-٣٦}

من الخالق؟

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلِ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ {الرعد: ١٦}

ما المقصود بلفظ (الله)؟

الله: هو المألوه العبود، ذو الألوهية، والعبودية على خلقه أجمعين، لما اصف به من صفات الكمال، وأخبر أنه الله الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه هو المألوه المستحق لمعاني العبودية كلها، والتي توجب أن يكون العبود وعبده، المحمود وعبده، المشكور وعبده، العظيم المقدس، ذو الجلال والإكرام.

ما الأدلة على وجود الله؟

إذا كان لدى المدعو وقت، فلتأتي بالأدلة التي سنعرضها في مكان آخر وإلا تجرّه بأن الآيات والدلائل كثيرة جدًا في القرآن الكريم ويصعب إيرادها جميعًا هنا، وندعوك لقراءة هذا الكتاب العظيم القرآن؛ للاطلاع على المزيد.

دليل الفطرة:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَيَّ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأُشْرَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ {الأعراف: ١٧٢}

﴿قَالَتْ رَبُّهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخَّرَكُمْ إِلَى أَهْلٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ {إبراهيم: ١٠}

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ {الروم: ٣٠}

خلق السموات والأرض:

﴿تَدْبِعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ {البقرة: ١١٧}

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ {آل عمران: ١٩٠}

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْغَبِيرُ﴾ {الأنعام: ٧٣}

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حِمِيًّا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَحَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾
{الأعراف: ٥٤}

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ {إبراهيم: ٣٣-٣٤}

﴿وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ {الإسراء: ٩٩}

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ {الروم: ٢٢}

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَيَتَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذِّنُّ مِنَ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ {القمان: ١٠-١١}

اللجوء إلى الله الخالق عند الشدائد:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ {الزمر: ٨}

التأكيد على ما تعرفه القلوب بالفعل:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لَهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لَكُمْ لَأَ تَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلٌّ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ {الفل: ٦٠-٦٤}

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَدْ لَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ {يونس: ٣١-٣٢}

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * اللَّهُ يُسْطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ {العنكبوت: ٦١-٦٣}

المخلق يدرك على الخالق:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يوقِنُونَ﴾ {الطور: ٣٥-٣٦}

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ {مریم: ٦٧}

﴿ثُمَّ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ {مریم: ٩}

الرعاية الإلهية للمخلق وتهيئة الأرض للناس:

أظهر الله رعايته بالمخلق من خلال تصميمه بطريقة متقنة، لا تشير فقط إلى أنه هو الخالق، ولكن أيضاً إلى أنه قد هيأه؛ لنعيش فيه. فيجب أن تدفعنا هذه الرعاية بما فيها من إقنات وتنظيم وتوازن وحكمة إلى الإيمان به ومحبه.

﴿لَمْ نجْعَلِ الْأَرْضَ مَهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَرْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا سِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجِبًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً تَجَاجِبًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ {النبا: ٦-١٦}

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ سَلْوًا﴾ {الفرقان: ٦١-٦٢}

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسَيِّونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَمَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُ مُسْتَحَرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَمَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ وَإِنَّ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ {النحل: ١٠-٩}

﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ {القمر: ٤٩}

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَلُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ قَدْرَهُ﴾ {الفرقان: ٢}

المبحث الثالث

عرض رسالة الإسلام

من خلال ما تم عرضه من الآيات السابقة حول رسالة الإسلام يمكن بيان رسالة الإسلام الذي هو دين كل الأنبياء من خلال مطلبين:

المطلب الأول

أقوال تجمع رسالة الإسلام

عندما نزل القرآن على الصحابة وعاش الصحابة مع رسول الله ﷺ يعلمهم ويزكيهم استطاع كل واحد منهم أن يصيغ صورة عن الإسلام تبهر من يستمع لها، فهم عاصروا نزول الوحي وشاهدوا التطبيق العملي للإسلام في كل مناحي الحياة. ومما يبين ذلك بعض النماذج منها:

أولاً: رسالة الإسلام في كلمة جعفر بن أبي طالب ؑ أمام النجاشي:

فقد ورد في كلمة جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي f حين عرض عليه رسالة الإسلام: "أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه، من: الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. فعدد عليه أمور الإسلام... ونقول في عيسى الذي جاء به نبينا: هو عبدالله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء، البتول"⁽¹⁾.

فهذه العبارات التي وصفت الإسلام جمعت بين العقيدة، والعبادة والشريعة والأخلاق، وهذه الأمور كلها تمثل رسالة الإسلام الذي هو رحمة للعالمين.. صاغها جعفر ؑ من خلال آيات القرآن المنزلة ومن سيرة رسول الله ﷺ وأقواله التي تمثل التطبيق العملي للإسلام.

ثانياً: رسالة الإسلام في كلمة ربي بن عامر ؑ أمام رستم:

قال ربي بن عامر ؑ لرستم: "الله جاء بنا، وهو بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"⁽²⁾.

(1) مسند أحمد 201/1 (1740)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن. وقد أوردت الرواية مختصرة.

(2) ينظر القصة بطولها في: تاريخ الطبري 520/3، والكامل في التاريخ لابن الأثير 297/2، والبداية والنهاية لابن كثير 39/7 حوادث سنة خمسة عشر.

فالكلمات التي عبر عنها في التعريف بالإسلام كل من جعفر ورعي f لم يقلها رسول الله ﷺ نصا وقبل ذلك لم تنزل في كتاب الله كما هي، وإنما هذا هو التصور عن الإسلام من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي وقعت في قلوب الصحابة واستطاعوا أن يصيغوها صياغة تناسب الحال والمستمع.

المطلب الثاني

بيان رسالة الإسلام الذي هو دين كل الأنبياء

ولذا يمكن أن نقول الإسلام الذي هو دين الله والذي هو دين كل الأنبياء يرتكز على الأصول التالية⁽¹⁾:

أولا: العبودية لله وحده:

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿٣٦﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

"فالتعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، هذان الأمران لم يخل شرع منهما، وأما خصوص العبادات فالشرائع مختلفة فيها بالوضع والهيئة والقلة والكثرة والزمان والمكان والشرائط والأركان"⁽²⁾.

ثانيا: إقامة العدل:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ [الحديد: ٢٥]. "أي ليقوم الناس في الدين والدنيا بالقسط بالعدل في حق الله، وفي حق العباد"⁽³⁾.

ثالثا: تحقيق الرحمة للعالمين:

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، قال الرازي: "إنه 'كان رحمة في الدين وفي الدنيا"⁽⁴⁾. وقال ابن عاشور: "وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين: الأول تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة، والثاني إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته"⁽⁵⁾.

رابعا: إتمام مكارم الأخلاق:

(1) سنكتفي هنا بذكر الأدلة وسيكون هناك تفصيل في كل هذه النقاط في مواضعها من هذا الباب.

(2) مفاتيح الغيب 139/28.

(3) تفسير جزء الذاريات لابن عثيمين ص 25.

(4) مفاتيح الغيب 193/22.

(5) التحرير والتنوير 166/17.

قال ﷺ: ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))⁽¹⁾، وفي رواية: ((صالح الأخلاق))⁽²⁾.

"قال الباجي: كانت العرب أحسن الناس أخلاقاً بما بقي عندهم من شريعة إبراهيم، وكانوا ضلوا بالكفر عن كثير منها فبعث ﷺ ليطمئئنا الأخلاق ببيان ما ضلوا عنه وبما خص به في شرعه، وقال ابن عبد البر: ويدخل فيه الصلاح والخير كله والدين والفضل والمروءة والإحسان والعدل فبذلك بعث ليطمئئنا"⁽³⁾.

خامساً: نشر العلم ورفع الجهل:

فأول ما نزل على النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿أَفْرَأَىٰ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَفَرَأَىٰ ذُرِّيَّتَكَ الْأَكْرَمَ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ [العلق: ١ - ٥].

فأول أمر خاطب الله به رسوله ﷺ هو الأمر بالعلم، لأن العلم طريق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ [سبأ: ٦].

"البداية بالعلم بداية منطقية وضرورية لأن كل المطالب من عبادة ومخالطة ودعوة وجهاد ومصالح دنيوية كالتجارات والزواج مفتقرة للعلم في ثمرتها الأخروية وفي حصيلتها العاجلة.. فتشير الآية إلى الترابط بين العلم والدين وإذا انفصل العلم عن الدين فإنه ينذر بوجود كارثة كبيرة.. إنها دعوة لهذه الأمة أن يقرؤوا ويتعلموا ويفتحوا كنوز العلم ويتخلصوا من أميتهم ويبدؤوا مسيرتهم العلمية المتترقية في كل مجالات العلوم"⁽⁴⁾.

وتكرار الأمر بالقراءة دعوة للمداومة وعدم الانقطاع.. فالعلم يحتاج إليه المسلم في كل وقت وفي كل زمان ومكان لتطبيق شرع الله وتحقيق الخلافة في الأرض.

سادساً: الاستخلاف في الأرض وإعمارها:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴿٢٦﴾ [ص: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿٥٥﴾ [النور: ٥٥].

والمقصود بالخليفة، كما قال الإمام البغوي: "والصحيح أنه خليفة الله في أرضه لإقامة أحكامه وتنفيذ وصاياه"⁽⁵⁾، فالخلافة تقوم على أساس الإصلاح والأمر بالمعروف وتحقيق العدل بين الناس فيما يقع بينهم من

(1) موطأ الإمام مالك 2/904 (1609)، والمستدرک علی الصحیحین للحاکم 2/670 (4221)، والأدب المفرد للبخاري 1/104 (273)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (45).

(2) مسند أحمد 2/381 (8939) وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح وهذا إسناد قوي.

(3) شرح الزرقاني على الموطأ 4/404.

(4) إشرافات قرآنية للعودة 2/110.

(5) معالم التنزيل 1/60.

مظالم ودفع الفساد والظلم عن الناس والنهي عن الفحشاء والمنكر وهذه هي رسالة الإسلام التي خلق الله من أجلها الخلق.

ومن معاني الاستخلاف عمارة الأرض، قال تعالى عن صالح: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيرة هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ [هود: ٦١].

"أي: استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض، تبنون، وتغرسون، وتزرعون، وتحثون ما شئتم، وتتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها"⁽¹⁾.

سابعاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والترغيب في الطيبات، والتيسير:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فكل معروف أمر الله تعالى به وحث على فعله، وكل منكر حذر الله منه ونهى عنه، وكل طيب أمر الله به، وكل خبيث نهى الله عنه، وكل أمر فيه يسر أمر الله به ورغب فيه وحث عليه، وهذه رسالة الإسلام التي توافق الفطرة: الأمر بالمعروف واستحلال الطيبات، والنهي عن المنكر وتحريم الخبائث، والتيسير في العبادات والتشريعات.

ثامناً: التعارف بين الشعوب لتحقيق التعاون:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

فقد خلق الله تعالى الخلق مختلفين في الألسنة والألوان والبلدان والقدرات، ليحصل بذلك التعاون والتكامل في الاستفادة من الآخر والاستخلاف في الأرض، واستثمار ما سخر الله لنا لعبادته وتقواه.

المبحث الرابع

مدخل الدعوة إلى الإسلام

الأصل أن أول ما يجب أن يدعى الناس إليه في الإسلام هو التوحيد، ولكن تختلف المداخل للدعوة للتوحيد من شخص لآخر، فالعلماء المتخصصون في علوم اجتماعية أو ثقافية أو دينية أو حياتية كل واحد منهم يختلف المدخل إليه ليتناسب مع عقله وقدرته.

وكذلك أصحاب الأديان المختلفة لكل واحد منهم مدخل دعوي يتناسب معه، حتى عامة الناس قد يختلفون في مداخل دعوتهم للإسلام، وهذا بلا شك يعطينا أهمية فهم رسالة الإسلام جيدا حتى نستطيع أن نوظفها توظيفا دعويا مناسباً.

ومن فوائد البدء بالتوحيد، بقاء الدعوة ثابتاً على العقيدة الصحيحة بعد إسلامه، وصبره على الابتلاءات التي تنتظره وعدم قبوله الفرق الإسلامية المنحرفة عقدياً، مهما كانت محاولاتهم لصيده، ولذلك من النادر أن تجد من أسلم بطريقة صحيحة، ويتعمق العقيدة، أنه عاش على هامش المجتمعات الإسلامية، ولم يطلب العلم ولم يدع إلى الإسلام أو نكص.

حقيقة التوحيد: إن الآيات تقرر في النفوس أن الله تعالى وحده هو المستحق للعبادة دون غيره، ووجه استحقاقه للعبادة أنه هو الرب لا رب غيره، وهو المنفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة وتدبير الأمر، كما أنه هو المصنف بالأسماء الحسنیة البالغة في الحسن غاية، والصفات العالیة الكاملة التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه؛ والتي لا يماثلها فيها أحد من خلقه، فهو الرب الكامل، وهو الخالق، وما سواه مخلوق، وهو الغني عن سواه، وغيره مفتقر إليه، وهو المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبة، والتأله له وحده لا شريك له، إلى جانب التعريف بأوصاف الأوتان والأنداد التي عبثت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعبادها نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا يصرون من عبدتهم، ولا ينفعونهم بمشقة ذرة، من جلب غير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا هو وبطلان إلهية ما سواه، إلى جانب لفت الانتباه أن خواص الخلق، الذين هم أكل الخليقة أخلاقا وعقولا ورأيا وصوابا، وعلماء وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون - قد شهدوا لله بذلك⁽¹⁾.

¹ ينظر تيسير الكريم الرحمن ص 787.

فلتصحيح الاعتقاد والبدء بالتوحيد لا بد أن تكون هناك رؤية واضحة متدرجة لبنني التوحيد في النفوس بناء قويا وأصيلاً، وأحاول بيان تلك الرؤية من خلال النقاط التالية:

المطلب الأول

تثبيت عقيدة الربوبية وأن لهذا الكون خالقاً

لا بد أولاً من غرس حقيقة أن لهذا الكون خالقاً مالكاً عالماً حكيماً ومدبراً، خلق الكون بما فيه وأوجده من العدم، وهذا الخالق هو الله الذي لا إله إلا هو، انطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164] وغيرها من الآيات.

ولأهمية هذا الأمر فقد أخذ حظاً جيداً من القرآن تفصيلاً وإجمالاً، لأهمية هذه القضية، حيث إن القرآن يوقظ الفطرة، ويزيل ما حولها من شبهات وغفلة وإلف، فيبين قدرة الله تعالى في الكون والنفوس. وهذا الأمر له وسائله الكثيرة، ومنها عرض آيات الله المتلوة والمشاهدة في الكون والنفوس، والحث على النظر والتأمل فيها، ومن المهم الاستفادة من جهود علماء القرآن والسنة فلهم جهود كبيرة في ذلك، ومن ذلك أبحاثهم في الإعجاز العلمي بأنواعه.

فهذا الكون لا بد له من خالق ومبدع ومدبر كما قال تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 88]، وقال: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: 7]، وقال تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ﴾ [الملك: 3]. فهذا دليل على وجود الله تعالى ووحدانيته، وهو دليل الإتيان والإحسان؛ لأن من نظر إلى هذا الخلق المتناسق المتكامل أيقن أن وراءه خالقاً له أحسن خلقه وأتقنه، فلم يوجد هذا العالم فلتة ولا مصادفة، ولا يوجد به ثغرة ولا نقص، ولا تفاوت ولا نسيان.

فلا بد من تنبيه القلوب والعقول على الاستيقاظ من الغفلة والانتباه من الألفة لتحصل الصلة بين الخالق المبدع فتحصل الهداية والتوفيق.

وهنا لا بد أن يبحث هذا المدعو عن الله الخالق لهذا الكون وعن صفاته وعن قدرته، فيعلم ويوجه أن الخالق لا بد أن يكون مالكاً ومدبراً وهنا سيصل إلى الله تعالى بفطرته.

المطلب الثاني

غرس حقيقة سبب الخلق والإيجاد

فإذا أدرك العبد أن الله تعالى هو الخالق والمالك والمدبر، يبدأ البحث عن سر خلقه وفائدة إيجاده، وهنا سيحس بقيمته في هذه الحياة وبدوره الذي يجب أن يقوم به لكي يتميز عن البهائم والجمادات، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

خلق الله الإنسان وكرمه على جميع المخلوقات، في خلقته، وفي تخبيره، وفي عقله، وفي قدراته، وفي تسخير الكون كله له، وفي استعداده للاستفادة من هذا الكون وتحقيق الاستخلاف في الأرض، فهذا التكريم له حكمة، وليس تكريماً عشوائياً؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

"أي: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ أيها الخلق ﴿أَنَّكُمْ خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أي: سدى وباطلاً تأكلون وتشربون وتمرحون، وتتمتعون بلذات الدنيا، وترككم لا نأمركم، ولا ننهاكم ولا نثيبكم، ولا نعاقبكم؟ ولهذا قال: ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾" (1).

فلا بد من تنبيه المدعو على أنه لم يخلق ليعيش هذه السنين في الحياة الدنيا بدون هدف أو دور أو رسالة، فهو ليس موجوداً عبثياً أو هامشياً في الوجود ليس له قيمة..

وأنه لم يترك سدى، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. "أي مهملاً لا عباً لاهياً لا يكلف ولا يجازى" (2).

أنه خلق لغاية وحكمة: قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وهنا يشعر الإنسان بأنه مخلوق لغاية، مزود بالمعرفة ومحاسب عليها، وأنه في فترة امتحان يقضيها على الأرض، لا في فترة لعب وهو وإهمال! وبهذا تتغير نظرتة إلى غاية وجوده، وشعوره بأهمية وجوده، وأن لهذه الحياة قيمة وقيم لا بد من التنبه لها.

فالإنسان لم يخلق ليتمتع كما تتمتع الأنعام، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]. بل قد يكونوا أضل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَّهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

(1) تيسير الكريم الرحمن ص 560.

(2) نظم الدرر 115/12.

فمعيار إنسانية الإنسان يكمن في مدى استفادته مما وهبه الله تعالى من إدراكات وحواس يميز بها بين الأمور ويتخذ من خلالها المواقف التي تبين إنسانيته وتكريم الله له. فالإنسان لم يخلق عبثاً ولم يترك سدى، بل إن وراء خلقه هدف وحكمة، وهو مراقب في كل حركاته وسكناته من قبل رب العالمين، ومسؤول عن أعماله وأفعاله أمام الله، فيثاب على الحسن منها، كما ويعاقب على السيئ منها.

المطلب الثالث

تثبيت أهمية حاجة الإنسان إلى منهج للحياة

إذا تيقن المدعو بأن لهذا الكون خالق، وبأنه مخلوق لحكمة بدء يفتش عن تلك الحكمة، ولن يجدها إلا عند من خلقه.. فالله تعالى هو الخالق ويعلم وظيفة كل مخلوق، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

والإنسان إذا أدرك أن الله هو الخالق المدبر وعرف سبب خلقه وتسخير ما في الكون له بدأ يتساءل كيف أصل إلى الله تعالى؟ وكيف أعبده؟

فهنا تأتي أهمية غرس حقيقة أن الله تعالى رسم للإنسان منهج حياته وعرفه ما يصلح شأنه ودلّه على ذلك بواسطة الأنبياء والمرسلين الذين هم أنوار الهداية ومصابيح الدجى، وهذا المنهج هو الكفيل بإسعاد الإنسان في الحياة الدنيا وفي الآخرة على حد سواء إذا ما سار عليه الإنسان والتزم بتعاليم الأنبياء، انطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]. "أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له ثم هداه لما خلق له وهداه لما يصلحه في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلبه"⁽¹⁾.

كقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١ - ٣].

فالله تعالى: "خلق الخلق فسوى، فإن لم يهده إلى تمام الحكمة التي خلق لها فسد، فلا بد أن يهدي بعد ذلك إلى ما خلق له"⁽²⁾.

(1) شفاء العليل ص 78.

(2) مجموع الفتاوى 135/16.

"فإذا علمنا أنه هو الهادي فإننا نستهدي بهدايته، بشريعته حتى نصل إلى ما أعد لنا ربنا من الكرامة"⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾⁽²⁾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿ [الإنسان: ٢ - ٣].

"أي الطريق الواضح الذي لا طريق في الحقيقة غيره، وهو طريق الخير الذي من حاد عنه ضل، وذلك بما أنزلنا من الكتب وأرسلنا من الرسل ونصبنا من الدلائل في الأنفس والآفاق، وجعلنا له من البصيرة التي يميز بها بين الصادق والكاذب وكلام الخلق وكلام الخالق والحق والباطل وما أشبهه"⁽²⁾.

وهنا يأتي دور القرآن والسنة في بيان المنهج الذي لا بد وأن يسير عليه المسلم، وأن هذا المنهج لا بد وأن يكون من خالق الإنسان وخالق هذا الكون، فهو أعلم بما خلق وبما يحتاج المخلوقين، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

(1) تفسير جزء النبأ لابن عثيمين ص162.

(2) نظم الدرر 133/21.

المطلب الرابع

غرس حقيقة البعث والجزاء

ولكي يلتزم الإنسان بهذا المنهج لا بد من محفز له ولا بد من جزاء وعقاب يجعله يتحرك في القيام بدوره الذي خلق من أجله، ولذا كان البعث والجزاء والحساب.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمَلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ [النجم: ٣١]، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦ - ٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

فالإنسان لا يتلاشى ولا ينتهي بالموت، بل إن حياته سوف تتجدد مرة أخرى في عالم آخر يلي هذا العالم يسمى بعالم الآخرة، فيبعث فيها ويحاسب على أعماله، فيثاب أو يعاقب حسب ما قدمه من أعمال فترة حياته في عالم الدنيا. فالإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان، وعقيدة من عقائد الإسلام الأساسية؛ فإن قضية البعث في الدار الآخرة هي التي يقوم عليها بناء العقيدة بعد قضية وحدانية الله تعالى.

ولأهمية هذا اليوم العظيم؛ نجد أن الله تعالى كثيراً ما يربط الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

وكقوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ لَكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الطلاق: ٢]، وقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

ولذا تجد أن الله تعالى يحفز المسلمين للعمل لأجر الآخرة، كما قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: 21].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدْرَأكُمْ عَلَىٰ تَحَرُّفٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ - ١٣].

"فالإيمان باليوم الآخر نتيجة لازمة للإيمان بالله وعدله، وتوضيح ذلك:

أن الله لا يقر الظلم ولا يدع الظالم بغير عقاب، ولا المظلوم بغير إنصاف، ولا يترك المحسن بغير ثواب وجزاء،

ويعطي كل ذي حق حقه، ونحن نرى في الحياة الدنيا من يعيش ظلماً ويموت ظلماً ولم يعاقب، ومن يعيش مظلوماً ويموت مظلوماً ولم يأخذ حقه، فما معنى هذا والله لا يقبل الظلم؟ معناه أنه لا بد من حياة أخرى غير هذه الحياة التي نعيشها، لا بد من ميعاد آخر يكافأ فيه المحسن ويعاقب فيه المسيء، ويأخذ كل ذي حق حقه.

والإيمان باليوم الآخر له أشد الأثر في توجيه الإنسان وانضباطه والتزامه بالعمل الصالح وتقوى الله، وبعده عن الأنانية والرياء، ولهذا يتم الربط بين الإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح في كثير من الأحيان، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [التوبة: 18].

والإيمان باليوم الآخر تنبيه للغافلين المنشغلين بأمور الحياة ومتاعها عن التنافس في الطاعات واغتنام الوقت للتقرب إلى الله بالطاعات إلى حقيقة الحياة وقصرها وأن الآخرة هي دار القرار والخلد، فالله تعالى لما أثنى على الرسل في القرآن وذكر أعمالهم مدحهم بالسبب الذي كان يدفعهم لتلك الأعمال والفضائل فقال: ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ [ص 46] أي: إن سبب تلك الأعمال الفاضلة أنهم تميزوا بتذكر الدار الآخرة فدفعهم هذا التذكر لتلك الأعمال والمواقف.

ولما تناقل بعض المسلمين عن الامتثال لأمر الله ورسوله قال تعالى تنبيهاً لهم: ﴿ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: 38].

فحين يؤمن الإنسان باليوم الآخر، فإنه سيوقن بأن كل نعيم في الدنيا لا يقاس إلى نعيم الآخرة، ولا يساوي من جهة أخرى غمسة واحدة من أجله في العذاب، وكل عذاب في الدنيا في سبيل الله لا يقاس إلى عذاب الآخرة، ولا يوازي من جهة أخرى غمسة واحدة من أجله في النعيم.

ومن أهمية الإيمان باليوم الآخر أنه يورث الطمأنينة بأن الإنسان ملاق نصيبه، فإذا فاته شيء من متاع الحياة الدنيا فلا ييأس ويقتل نفسه حزناً، بل عليه أن يجتهد ويوقن بأن الله لا يضيع أجر من أحسن العمل، وإن كان قد أخذ منه مثقال ذرة بظلم أو غش حصلها يوم القيامة في أحوج ما يكون إليها، فكيف يغتم من علم أن نصيبه سيأتيه لا محالة في أهم اللحظات وأخطرها؟ وكيف يحزن من يعلم أن من يقضي بينه وبين خصومه هو أحكم الحاكمين؟⁽¹⁾

من هذه النقاط الأربعة وتفصيلاتها يدخل الداعية للمدعوين ببناء الاعتقاد السليم وإزالة الاعتقاد الخاطئ، حيث إنه لا يمكن دخول أحد في الإسلام عن قناعة إلا لو تحقق التصور الصحيح لتلك القضايا الأربع، فإذا تمكنت من القلب سهل بعد تلك تحويل هذه العقيدة إلى سلوك يتمثل في عبادة وتشريعات يمكن تطبيقها والثبات عليها.

(1) دليل المسلم الجديد - عبدالله باهام باختصار وتصرف يسير.

إن أردت أن تعرف بالإسلام لغير المسلم باختصار:

هنا، ولكي يتضح لنا تطبيق هذه المطالب الأربعة، دعونا نطرق إلى نموذج حوار مع شخص غير مسلم، قد يكون ملحدًا أو يتقي لدين ما:

صديقي غير المسلم، هل تأذن لي أن أعطيك أهم المعلومات عن حقيقة الإسلام بشكل ملخص، وفي رقيقتين؟

الإسلام هو الاستسلام لله خالق الكون ومدبره، والانقياد له محبة وتعظيمًا، وأساس الإسلام هو الإيمان بالله، وأنه هو الخالق وكل ما سواه مخلوق، وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، لا معبود بحق إلا هو، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وله الكلمات المطلق بلا نقص، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً ولا مثيلاً، لا يحل ولا يتجسد في شيء من خلقه.

والإسلام هو دين الله تعالى الذي لا يقبل من الناس ديناً غيره، وهو الدين الذي جاء به جميع الأنبياء عليهم السلام.

وللإسلام أركان خمسة، هي: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة خمس مرات في اليوم، وإيتاء الزكاة وهو مقدار يسير يؤخذ من الأغنياء ويعطى للفقراء مرة واحدة في العام، وصوم رمضان وهو شهر واحد في السنة، والحج، وهو شعائر تؤدي في مكة مرة في العمر لمن استطاع ذلك.

ومن أصول الإسلام الإيمان بجميع الأنبياء، وبأن الله أرسل الرسل ليلفوا أوامره لعباده وأترك معهم كتباً، وكان آخرهم محمداً عليه السلام، أرسله الله بالشرعة الإلهية الخاتمة الناسخة لسائر الرسل قبله، أيدى الله بالآيات العظيمة، وأعظمها القرآن الكريم، كلام رب العالمين، أعظم كتاب عرفته البشرية، معجز في مضمونه ولفظه ونظمه، فيه الهداية للحق الموصل للسعادة في الدنيا والآخرة، وهو محفوظ إلى اليوم باللغة العربية التي نزل بها، لم يغير ولم يبدل فيه ولا عرفوا واحداً، ومن أصول الإسلام الإيمان باللائحة، والإيمان باليوم الآخر وفيه يبعث الله الناس من قبورهم يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم، فمن عمل الصالحات وهو مؤمن فله النعيم المقيم في الجنة، ومن كفر وعمل السيئات فله العذاب العظيم في النار، ومن أصول الإسلام الإيمان بما قدره الله من خير أو شر.

والإسلام دين متوافق مع العقل، وموافق للفطرة، تقبله النفوس السوية، شرعه الخالق العظيم لخلقهم، وهو دين الخير والسعادة للناس جميعاً، لا يميز عرقاً على عرق، ولا لونا على لون، والناس فيه سواسية، لا يميز أحد في الإسلام على غيره إلا بقدر عمله الصالح الذي ينفع فيه نفسه وينفع فيه غيره.

ومن أراد الدخول في الإسلام فعليه فقط أن يقول: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله)، عالماً بمعناها ومؤمناً بها، وبهذا يصير مسلماً؛ ثم يتعلم بقية شرائع الإسلام شيئاً فشيئاً؛ ليقوم بما أوجبه الله عليه.

وإذا لديه نصف ساعة تقريباً نقول:

هل تأذن لي أن أعطيك أهم المعلومات عن حقيقة الإسلام بشكل ملخص، وفي نصف ساعة؟

دعني أسألك في البداية: ألا يؤرقك سؤال نفسك: من خلقتني ولماذا؟ وإلى أين أذهب بعد الموت وما مصيري؟ من هو الإله الحق؟ من نعبد؟ وما هو المثوى الأخير؟ كيف أفوز بالجنة والحياة الأبدية؟ ما الهدف من كل هذا الوجود؟ أليس مقلقاً إن كانت النهاية موتاً وتراباً وعدمًا؟ ألا تكون الصدمة عظيمة إن لم تكن مهيباً لما بعد الموت؟

حين يتأمل المرء الأرض التي يعيش عليها، ويرى هذا الكون الواسع الجميل، السماء بنجومها الكثيرة، والأرض بجبالها، ووديانها، وأنهارها، وأشجارها وزروعها، وهوائها، ومائها، وبرها وبحرها، بليلها ونهارها، كل ذلك يسير وفق نظام متقن - حين يتأمل ذلك لا بد له أن يتساءل: من الذي خلق هذا كله؟ مَنْ {الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ ثِبَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ}، الماء الذي لا تقوم الحياة إلا به، فأخرج به النبات، والأشجار، والأزهار والثمار، وسقى به الناس والأنعام، وهياً الأرض لتحتفظ به؟ من الذي خلق الإنسان، فأبدعه، وجعله في أحسن صورة؟

فحينما يتأمل المرء في نفسه، يجد العجب في إبداع الخالق، وإحكام صنعه، تأمل في أجهزة جسمك المختلفة التي تعمل بطريقة محكمة، ولا تعرف عن عملها إلا القليل، فضلاً عن استطاعتك التحكم فيها.

انظر إلى الهواء الذي تستنشق، لو توقفت عنك لحظة؛ لفارقت الحياة، من الذي أوجده؟

هل يظن عاقل بأن الكون وما فيه خلقت عبثاً، وأن الناس يُولدون، ويعيشون على هذه الأرض زمناً ثم يموتون، وينتهي كل شيء؟! أو أن الكون وُجد بالصدفة أو أوجد نفسه بنفسه؟! وبما أن هذين الاحتمالين مستحيلان، إذن فلا بد أن هناك من أوجد كل هذا.

نعم؛ إنه الله الخالق الذي خلق الكون كله، وهو وحده الذي يتصرف فيه وسيرته، إنه ربك الذي خلقك، ورزقك، وحبيك، وميتك، وهو الذي أوجدك من العدم، كما أوجد هذا العالم كله من العدم.

ألا يستحق منك بعد كل هذا، استثمار ساعة للتعرف على خالقك وماذا يريد منك؟ ولماذا خلقتنا نحن البشر؟ ومن يجيئني على كل أسئلتي؟

حقيقة الإسلام ومعناه، وإلى ماذا يدعو؟

إن الإسلام يحثنا على التفكير والتأمل وإعمال العقل، وأن نبني أركاننا على الدليل الصحيح، ونجد أن القرآن يشير إلى ذلك، فقد حكى الله لنا فيه عن أهل العقول والتفكير، فقال: {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ} [آل عمران: 191].

صديقي، ألا يهملك أن تتعرف بعمق ومجديرة على الدين الأكثر والأسرع انتشاراً كما أثبتت الإحصاءات العالمية؟ وما السبب من وراء ذلك؟ ما رأيك أن تعطني نفسك ولو مرة في حياتك الفرصة؛ لتتعرف على الإسلام من مصادره الموثوقة، ثم تحكم عليه بموضوعية واتزان؟

لذلك دعني أولاً أعرفك بحقيقة الإسلام ومعناه، وإلى ماذا يدعو "باختصار شديد":

(الإسلام) هو الاستسلام لله خالق الكون ومديره، والانقياد له محبة وتعظيماً، وأساسه هو الإيمان بالله، وأنه هو الخالق وكل ما سواه مخلوق، وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، ولا معبود بحق إلا هو، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وله الكمال المطلق بلا نقص، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً ولا مثيلاً، لا يحل ولا يتجسد في شيء من خلقه.

(الإسلام) هو دين الله تعالى الذي لا يقبل من الناس ديناً غيره، وهو الدين الذي جاء به جميع الأنبياء عليهم السلام.

(وللإسلام) أركان خمسة، هي: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة خمس مرات في اليوم، وإيتاء الزكاة وهو مقدار يسير يؤخذ من الأغنياء ويعطى للفقراء مرة واحدة في العام، وصوم رمضان وهو شهر واحد في السنة، والحج، وهو شعائر تُؤدى في مكة مرة في العمر لمن استطاع ذلك.

(ومن أصول الإسلام) الإيمان بجميع الأنبياء، بل إنَّ الطريقَ الأعظم لمعرفة الله عز وجل؛ فلقد أرسل الله تعالى الرسل والأنبياء إلى الناس؛ ليعينوا لهم الحق من الباطل، ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى، ولا شك أن هذا البعث دليل على وجود خالقٍ عظيم، يريد هداية عباده، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: 25]؛ فالرسل هم من أخبرونا عن الله عز وجل، وأخبرونا عن ذاته وأسمائه وصفاته سبحانه، فعن طريقهم صلوات الله عليهم أجمعين؛ عرفنا الله جل وعلا، وعرفنا كيف نعبد، ونتقرب إليه، وكيف ننجو من عذابه في يوم لا ينفع مال ولا بنون * إِلَّا مَنْ اتَّقَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: 88-89]، ذاك القلب الذي يعام أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

ولذلك إخبار هؤلاء الأنبياء والرسل عن الله عز وجل، مع تأييد الله عز وجل لهم بالعجزات، لا يجعل لأحد حجة على الله يوم القيامة؛ فالله عز وجل أعطاك الفطرة التي تعرفه بها، وأعطاك العقل، وأعطاك النظر في مخلوقاته وأرسل لك: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: 165].

وكان آخر الرسل محمدٌ صلى الله عليه وسلم، أرسله الله بالشريعة الإلهية الخاتمة الناصحة لشرائع الرسل قبله، أيدَهُ اللهُ بالآيات العظيمة، وأعظمها (القرآن الكريم)، كلام رب العالمين، أعظم كتاب عرفته البشرية، مُعْجَزٌ فِي مضمونه ولفظه ونظمه، فيه الهداية للحق الموصل للسعادة في الدنيا والآخرة، وهو محفوظ إلى اليوم باللفظة العربية التي نزل بها، لم يُغَيَّرْ ولم يُبَدَّلْ فيه ولا حرفاً واحداً.

(ومن أصول الإسلام) الإيمان بالملائكة، والإيمان باليوم الآخر وفيه يَبْعَثُ اللهُ النَّاسَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِيَحْسَبَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، فَمَنْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَهُ النَّعِيمُ الْمَقِيمُ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْ كَفَرَ وَعَمِلَ السَّيِّئَاتِ؛ فَلَهُ الْعَذَابُ الْعَظِيمُ فِي النَّارِ.

(والإسلام) دين متوافق مع العقل، ومتوافق للفظية، تقبله النفوس السوية، شرعه الخالق العظيم للخلق، وهو دين الخير والسعادة للناس جميعاً، لا يميز عرقاً على عرق، ولا لوناً على لون، والناس فيه سواسية، لا يميز أحدٌ في الإسلام على غيره إلا بقدر عمله الصالح الذي ينفع فيه نفسه وينفع فيه غيره.

ومن أراد الدخول في الإسلام فعليه فقط أن يقول: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله)، عالماً بمعناها ومؤمناً بها، وبهذا يصير مسلماً؛ ثم يتعلم بقية شرائع الإسلام شيئاً فشيئاً؛ ليقوم بما أوجبه الله عليه.

القاعدة الأساسية لدين الإسلام: كلمة التوحيد

إنَّ القاعدةَ الأساسيةَ لدين الإسلام هي كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) وبدون هذه القاعدة الصلبة، لا يقام بناء الإسلام الشامخ، إنها أول كلمة يجب أن يتلفظ بها الداخل في دين الإسلام، مؤمناً بها، معتقداً لجميع معانيها ومدلولاتها.

فما معنى لا إله إلا الله؟

لا إله إلا الله تعني:

- لا خالق للوجود إلا الله.

- لا مالك ومتصرف في هذا الوجود إلا الله.

- لا معبود يستحق العبودية إلا الله.

إنَّ اللهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَأَوْجَدَهُ مِنَ الْعَدَمِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس: 38-40].

وقال تعالى: {وَأُنزِلْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا

فَأَنْبَتْنَا بِهِ جِبَّتًا وَهَبَّ الْكَهْمِيدَ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ {ق:7-10}.

وأُنزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا، لا تقوم الحياة إلا به، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [الأنبياء: 30]، فأخرج به النبات والثمار، وسقى به الأنعام والإنسان، وهياً الأرض؛ لتحتفظ به، فسلكه فيها يتابع وأنهارا.

كما أن أول إنسان خلقه الله، هو أبو البشر آدم عليه السلام، خلقه من طين، ثم سواه وصوره ونفخ فيه من روحه، ثم خلق منه زوجه، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما ذكرنا ذلك آنفاً.

إن الله سبحانه وتعالى تعرفه الفطر السليمة دون حاجته إلى تعليم، فقد أوجده في تكوينها التوجه والاتجاه إليه، ولكنها كُفِلَتْ وَتَبِعَتْ عَنْ سُبْحَانِهِ.

ولهذا إن أصابها كارثة أو جائحة أو مازق شديد وكريات، وواجهت الخطر المحرق في البر أو البحر؛ لجأت مباشرة إلى الله؛ تستمد منه العون والخلاص مما هي فيه، والله سبحانه يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.

هذا الخالق العظيم أكبر من كل شيء، بل لا يقاس شيء من خلقه به، فهو العظيم الذي لا حد لعظمته ولا يحيط به أحد علماً، الموصوف بصفة العلو على خلقه فوق سمواته {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11] لا يماثله شيء من خلقه، وما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك.

وهو الذي يرانا سبحانه من فوق سمواته، ونحن لا نراه: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: 103]، بل لا تتحمل هواننا وقوانا أن نراه في هذه الدنيا.

لقد طلب ذلك أحد أنبياء الله وهو موسى عليه السلام، لما كلمه الله عند جبل الطور: {قَالَ رَبِّ ارْنِيْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ}، فقال له الله تعالى: {لَنْ تَرَانِيْ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِيْ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [الأعراف: 143]، للجبل العظيم الشامخ، انهار وتصدع من تجلّي الله له، فكيف يستطيع الإنسان ذلك بقواه الضعيفة الهزيلة؟!

ومن صفات الله سبحانه وتعالى أنه على كل شيء قدير: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} [فاطر: 44].

بيده الحياة والموت، يحتاج إليه كل مخلوق، وهو غني عن كل مخلوق، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: 15]. ومن صفاته سبحانه، العلم والإحاطة بكل شيء: {وَعِنْدَهُ مَقَالِقُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [الأنعام: 59]، يعلم ما تتكلم به ألسنتنا وتعمله جوارحنا، بل وما تكنه صدورنا: {يَعْلَمُ هَمَاتِنَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: 19].

فإنه سبحانه مطلع علينا، خبير بأموالنا، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، لا يفعل ولا ينسى ولا ينام، قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: 255].

له اللسان المطلق الذي لا نقص فيه ولا عيب، وله الأسماء الحسنى والصفات العلى، التي لا تنبغي إلا له، قال تعالى {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: 180].

والله سبحانه لا شريك له في ملكه، ولا ند ولا ظهير، منزه سبحانه عن الزوجهة وعن الولد، بل هو الغني عن ذلك كله، قال الله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدْرًا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَّقَطْنَ مِنْهُ وَتَلْسَفُ الْأَرْضُ وَحَجْرُ الْجِبَالِ هُدًًا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مریم: 88-93].

وهو سبحانه المصف بصفات الجلال والجمال والقوة والعظمة والكبرياء والملك والجهوت، وهو أيضًا المصف بصفات الكرم والمغفرة والرحمة والإحسان، فهو الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، والرحيم الذي سبقت رحمته غضبه، والكريم الذي لا حد لكرمه ولا تنفذ غزائنه.

والتعرف على صفاته سبحانه يزيد القلب محبة وإجلالا، وخشية وخصوعا لله؛ ولهذا فإن معنى (لا إله إلا الله) أن لا يُصرف شيء من العبودية إلا لله، فلا معبود بحق إلا الله، فالله هو المصف بصفات الألوهية والكمال وهو الخالق الرزاق النعم الذي يحيي ويميت، المتفضل على خلقه فهو وحده المستحق للعبادة لا شريك له، ومن رفض عبادة الله أو عبد غير الله، فقد أشرك وكفر، فلا يكون السجود والركوع والخضوع والصلاة إلا لله، ولا يُستغاث إلا بالله، ولا يُتوجهُ بالدعاء إلا إليه، ولا تُطلبُ الحاجات إلا منه، ولا يُتقربُ بأي قرينة وطاعة وعبادة إلا له: {قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: 162-163].

لماذا خلقنا الله؟

الإجابة على هذا السؤال الكبير في غاية الأهمية، لكن من الضروري أن نُستمدَّ الإجابة من الوحي الإلهي، فالله هو الذي خلقنا، وهو الذي يُجبرنا عن الغاية التي من أجلها خلقنا، قال جل شأنه: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 56].

وكل مخلوقات الله مفعولة ومجبولة في تركيب حياتها على العبودية والتسبيح لله رب العالمين: {سُجِّدَ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء: 44] والملائكة يُلهمون التسبيح كما يُلهم بني آدم النفس.

لكن عبودية الإنسان الخالق اختياريّة وليست إجباريّة (اختياريّة اختياريّة): {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [التغابن: 2]

قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالرُّوَابُ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ فَعَمَلُهُ مِنَ مُكْرِمٍ} [الحج: 178]

فإنه خلقنا لعبادته، وليختبر نجاحنا في تحقيق هذه العبادة، فمن عبّد الله وأحبّه وخضع له وأطاع أوامره واجتنب نواهيه، نال رضا ورحمته ومحبتة وجازاه الجزاء الحسن، ومن رفض عبادة الله الذي خلقه ورزقه، واستكبر عنها، ورفض الانقياد لأوامره، واجتنب نواهيه، فقد باء بفضبه وسخطه وأليم عقابه.

فإنه جمل وعلا لم يخلقنا عبثاً ولم يتركنا سدى، وإن من أجهل الناس وأحمقهم، من ظن أنه خرج إلى هذه الدنيا، ووهب له السمع والبصر والعقل، ثم عاش فيها فترة من الزمن، ثم مات، ولا يدري لماذا جاء إلى هذه الدنيا؟ وإلى أين سيذهب بعدها؟ يقول الله عز وجل: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون: 115].

ولا يستوي عنده من كان يؤمن به، ويتوكل عليه، ويتحاكم إليه، ويخضع له، ويتقرب إليه بالعبادات، ويبحث عما يرضيه في كل موقع، ومن كان يكفر به سبحانه وتعالى وهو الذي خلقه وصوره وكذّب بآياته ودينه، ورفض الخضوع لأمره، فالأول ينال الثواب والمحبة والرضى، والثاني يصيب السخط والفضب والعقاب، حيث يعنت الله الناس بعد موتهم من قبورهم، ويجازي المحسن منهم بالتكريم في جنات النعيم، ويعاقب المسيء المستكبر الراض لعبادة الله بالعذاب الأليم في دار الجحيم.

ولك أن تفكر في عظم التكريم والثواب للمحسن عندما يكون من الله الغني الكريم، الذي لا حد لكرمه ورحمته، ولا تنفذ خزائنه.

وكذلك لك أن تتخيل شدة العقوبة، وألم العذاب للكافر، عندما تصدر من الله الجبار العظيم المتكبر الذي لا حد لجبروته وكبريائه.

خالق واحد.. معبود واحد

يؤكد الإسلام أن الاعتقاد النظري لا يكفي للدخول في الإيمان، فإذا كان الرب الخالق واحداً، فينبغي أن يكون هو المألوه المستحق وحده العبادة.

وكلمة (الله) تعني في اللغة العربية ثلاث معانٍ مجتمعة:

فهي تعني: المعبود الذي يخلص الناس له صلاتهم وصيامهم، وإليه تتوجه قلوبهم، وجميع عباداتهم، وهو العظيم في ذاته وصفاته ومجده بحيث تحار العقول في عظمتة وتعجز عن الإحاطة به، والذي تتعلق به القلوب وتحن إليه النفوس، فتأنس بذكره، وتتلذذ بقربه وعبادته.

ويؤكد القرآن بأنه لا بد من تصحيح التصور عن (الله) عز وجل، وتنقيته من جميع التحريفات والافتراءات التي لا تليق بجلاله وعظمته.

فالله كما يوضح القرآن، هو الخالق والمبدع لهذا الكون ونظامه، وكل ما يحصل فيه مهما صغر، فهو خلقه وحاصلٌ بمشيئته وتقديره وعلمه، فلا تحمل أنثى من جميع أنواع المخلوقات، ولا تلد إلا بعلمه ومشيئته، ولا تنزل قطرة من مطر، ولا يحدث أي تغير في ليل أو نهار، في ظاهر أو باطن، في أي جانب من هذا الكون، إلا والله محيط به علما وقدره ورحمته، قال الله تعالى: {إِلَيْهِ يُرَدُّ عَامُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنَ ثَمَرَاتٍ مِنْ أُلْمَاهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ} [فصلت: 47].

ولا ادعى بعضهم أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع، جاء القرآن مفندا لتلك المزاعم، قائلا بكل وضوح: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [ق: 38] وأن ذلك الزعم وأشباهه ما طرأ للعقل إلا بتشبيه الله بما يعرفه العقل من المخلوقات، ولكنه هو الله سبحانه الخالق، وما سواه مخلوق، فكيف يشبه المخلوق خالقه؟، يقول الله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 17].

وهو سبحانه الحكيم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وما نراه في الحياة منه يُظهر لنا حكمته ولطفه، وكما يحفى على الصغير بعض تصرفات والديه ولا يستطيع فهمها أو تفسيرها؛ لعظم الفارق في قدرة التفكير بينهم، فقد يفوت العقل البشري إدراك شيء من حكمته الله في بعض خلقه ومشيئته.

وإذا كان الملك أو الرئيس في الدنيا لا يمكنه معرفة أصحاب الاحتياج والضعف، ولا كيفية الوصول إليهم إلا عبر الأعدان والمساعدين والمقربين؛ لتعريفه بأوضاع رعيته؛ من أجل أن يساعدهم ويأخذ بيدهم، فالله سبحانه يعلم الجهر وما يحفى، وهو القوي المالك القادر، وكل الكون بيده وتحت تصرفه، يقول الله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: 82]، فلماذا التوجه لغيره واتخاذ وسيلة؟

ويقرر القرآن أن اطمئنان القلب، وانسراح الصدر لا يتم، ولا يكتمل ما لم يلتجئ المسلم إلى ربه طارحا حاجاته بين يديه، وهو القادر العظيم المحب لعباده اللطيف بهم، القريب منهم الذي يفرح بدعاء عباده له، ويكرمهم ويجازيهم بقدر التجاهلهم وإخباتهم إليه، قال تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَصْنَاءَ مَا تُحِبُّونَ لَمْ يُغْنِكُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ إِذْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ خَبِيرًا} [النحل: 62-63].

وكما ذكرنا سابقا أن الله عز وجل، هو الرب الخالق الواحد؛ إذن، فهو المعبود، المستحق وحده العبادة؛ فلا يصح صرف شيء منها لغير الله، بل ينبغي إخلاص العبادة له سبحانه بدون وسيط أو شفيع، فالخالق أعظم

من ذلك وأجل؛ ولهذا فقد كانت أشد القضايا وضوحاً في الإسلام، وجوب إخلاص العبادة لله وعدمه دون غيره، قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْفِرِينَ} [النحل: 36]، وهي دعوة جميع الرسل كما يؤكد القرآن، فلا رسول ولا ملك ولا ولي مهما بلغ صلاحه يمكن أن يصرف إليه شيء من أنواع الدعاء بحجة أنهم وسطاء بين الله وعباده؛ لأن الجميع في النهاية مخلوقات الله وعبيد له، والله قريب من عباده يسمع كلامهم، ويجيب دعاءهم متى ما أخلصوا العبادة له سبحانه.

وكيف لا يجد طعم السعادة والأنس من أخلص التوجه إلى الله؟ فلا تشتت ولا اضطراب، فالملك واحد، والخالق واحد، والمعبود واحد، والتوجه والاتجاه، إنما يكون إليه سبحانه دون ما سواه.

وهذا هو معنى سورة قصيرة من أعظم وأشهر سور القرآن، وهي سورة الإخلاص؛ حيث يأمر الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يعلنها بكل وضوح: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 1-4] وكأنه يجيب على سؤال من هو الله؟ لتكون الإجابة: إن الله واحد لا شريك له في العبادة، وهو الذي تعتمد عليه وتلجأ له جميع الخلائق؛ لطلب احتياجاتها، وأنه منزه أن يكون له ولد، أو أن يكون قد وُلد، فهو الأول الذي ليس قبله شيء، وليس له نظير أو شبيه في ذاته وصفاته، إذ هو الخالق وما عداه مخلوق.¹

¹ منهجية الحوار مع الملاحدة وتقنيدهم شبهاتهم حول الإسلام، جوتيار بامرني، ص 572-584.

المبحث الخامس

أصول التلقي وقواعد الاستدلال في الإسلام

من أهم ما لا بد أن يعلم عن رسالة الإسلام: المصدر الذي يتم تلقي الإسلام منه والذي وصل إلينا الإسلام من خلاله، والأدلة على تشريعات الإسلام وصدق خبره.

وهذا الأمر مما تختلف فيه الشريعة الإسلامية عن كل الشرائع، حيث إنها شريعة ربانية منزلة من عند الله الخالق المالك المدبر الذي يعلم ما خلق وما يصلحه.

ومصادر هذه الشريعة ودستورها وهو القرآن محفوظ من التبديل والتحريف، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. ومن حفظ الله تعالى للقرآن أن حفظ بيان القرآن وشرحه من خلال حفظه للسنة النبوية بأن قيض لها علماء أفنوا أعمارهم في جمعها وتمحيصها.

أما الشرائع الأخرى فهي نتاج بشر، أسسها أو حرف في أصولها الصحيحة، حتى ظهر تناقضها وعدم صلاحيتها لكل زمان ومكان وتعارضها مع الفطر السليمة.

إن هذا الدين له أصول وقواعد في تلقي الدين وفهمه، أما الشرائع إذا عرفت وفهمت سهل على غير المسلمين تلقي الدين أولاً ثم الاطمئنان إليه ثانياً والثبات عليه بعد ذلك.

وكثير من الذين يريدون أن يطعنوا في هذا الدين كثيراً ما يطعنون في مصدره القرآن والسنة، ولكن قيض الله من علماء الإسلام من وقف ضد هذه حملات الطعن متسلح بسلاع الدليل والبرهان الخبري والعقلي والحسي تحت راية الإيمان واليقين بهذا الدين.

وفي هذا المبحث سنلقي الضوء على منهج الإسلام في التلقي والاستدلال تنبيهاً على ربانية هذا الدين وحفظ الله تعالى له من الزيادة والنقصان والتبديل والتحريف، مبتدئين بتمهيد حول مجمل منهج أهل السنة في التلقي والاستدلال.

تمهيد حول: مجمل منهج أهل السنة في التلقي والاستدلال:

لأهل السنة منهج قويم في التلقي والاستدلال حتى لا يدخل في دين الله ما ليس منه، وحتى لا يفهم كلام الله وسنة رسوله فهما غير سوي يؤدي إلى تصرفات غير صحيحة أو تكوين صورة عن الإسلام غير متكاملة أو متناقضة.

وما سيأتي من قواعد لأهل السنة في التلقي والاستدلال لكل منها تفاصيل وضوابط لكن نجملها في هذه النقطة خشية الإطالة⁽¹⁾:

- 1) مصدر العقيدة كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ الصحيحة، وإجماع السلف الصالح.
- 2) كل ما صح من سنة رسول الله ﷺ وجب قبوله والعمل به، وإن كان آحاداً في العقائد وغيرها.
- 3) المرجع في فهم الكتاب والسنة هو النصوص المبينة لها، وفهم السلف الصالح، ومن سار على منهجهم من الأئمة، ولا يعارض ما ثبت من ذلك بمجرد احتمالات لغوية.
- 4) أصول الدين كله قد بينها النبي ﷺ، وليس لأحد أن يحدث شيئاً زاعماً أنه من الدين.
- 5) التسليم لله ولرسوله ﷺ: ظاهراً، وباطناً، فلا يعارض شيء من الكتاب أو السنة الصحيحة بقياس، ولا ذوق، ولا كشف ولا قول شيخ، ولا إمام، ونحو ذلك.
- 6) العقل الصريح موافق للنقل الصحيح، ولا يتعارض قطعيان منهما أبداً، وعند توهم التعارض يقدم النقل.
- 7) يجب الالتزام بالألفاظ الشرعية في العقيدة، وتجنب الألفاظ البدعية التي أحدثها الناس، والألفاظ المجملة المحتملة للخطأ والصواب يستفسر عن معناها، فما كان حقاً أثبت بلفظه الشرعي، وما كان باطلاً رد.
- 8) العصمة ثابتة للرسول ﷺ والأئمة في مجموعها معصومة من الاجتماع على ضلالة، وأما آحادها فلا عصمة لأحد منهم، وما اختلف فيه الأئمة وغيرهم فمرجه إلى الكتاب والسنة فما قام عليه الدليل قبل، مع الاعتذار للمخطئ من مجتهدي الأمة.
- 9) في الأمة محدثون ملهمون كعمر بن الخطاب، والرؤيا الصالحة حق، وهي جزء من النبوة، والفراسة الصادقة حق، وفيها كرامات ومبشرات، بشرط موافقتها للشرع، وليست مصدراً للعقيدة ولا للتشريع.
- 10) المرء في الدين مذموم والمجادلة بالحسنى مشروعة وما صح النهي عن الخوض فيه وجب امتثال ذلك، ويجب الإمساك عن الخوض فيما لا علم للمسلم به، وتفويض علم ذلك إلى عالمه سبحانه.
- 11) يجب الالتزام بمنهج الوحي في الرد كما يجب في الاعتقاد والتقرير، فلا ترد البدعة ببدعة، ولا يقابل التفريط بالغلو ولا العكس.

12) كل محدثة في الدين بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ويمكن بيان أصول أهل السنة في التلقي والاستدلال في المطالب التالية:

(1) متن: مجمل معتقد أهل السنة والجماعة للشيخ ناصر العقل مع شرحها. ومنهج التلقي والاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة؛ د. أحمد بن عبد الرحمن الصويان. منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد، لعثمان علي حسن.

المطلب الأول

تعظيم النصوص الشرعية والانقياد لها

إن أصل دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين: الاستسلام والخضوع والانقياد؛ قال: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ [الزمر: 54].

وحقيقة الاستسلام: تعظيم أمر الله ونهيه، والإذعان لهما، والوقوف عند حدود الله وما أنزل على نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظَمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ. عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ [الحج: 30]، فكل ما أمر به الشارع أو نهى عنه فحقه التعظيم والإجلال والامتنال، وهذا هو طريق الفلاح والفوز؛ قال: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور: 52].

وقد نهى الله عن التقديم بين يدي الله ورسوله؛ فقال: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات: 1].

فإذا جاء أمر الله فلا مجال للاختيار أو التردد، بل التسليم والانقياد؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: 36]. وقد نفى الله الإيمان بالكلية عمن أعرض عن حكم النبي ﷺ ولم يرض به ووجد في نفسه حرجا من ذلك؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: 65].

وتوعّد الله المخالفين لأمره فقال: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: 63].

وقال ﷺ: ((يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً؛ كتاب الله وسنتي))⁽¹⁾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وقد أمر الله بطاعة رسوله ﷺ في أكثر من ثلاثين موضعا من القرآن وقرن طاعته بطاعته وقرن بين مخالفته ومخالفته كما قرن بين اسمه واسمه فلا يذكر الله إلا ذكر معه"⁽²⁾.

(1) موطأ الإمام مالك، باب النهي عن القول بالقدر، رقم (1661)، قال ابن عبد البر عن الحديث: "مخفوظ معروف مشهور عن النبي ﷺ عند أهل العلم شهرة يكاد يستغني بها عن الإسناد" التمهيد 331/24.

(2) مجموع الفتاوى 103/19.

ولما سأله رجل عن مسألة قال: قضى فيها رسول الله ﷺ بكذا وكذا. فقال له الرجل: ما تقول أنت؟ فغضب الإمام الشافعي وقال له: "تراني في بيعة، تراني في كنيسة، ترى على زي الكفار، هو ذا تراني في مسجد المسلمين على زي المسلمين مستقبل قبلتهم، أروى حديثاً عن النبي ﷺ ثم لا أقول به" (1).

ولذا "فلا يجوز معارضة النص بالعقل، ففي المنهج الإسلامي لا يتعارض النص الصحيح مع العقل الصريح، فإذا وقع التعارض فيكون لعدم صحة النقل أو عدم صحة الدليل العقلي، وإذا صح العقل وضح النقل فيكون التعارض من المستحيلات.

فهذا الحديث الشاهد منه أن منهج أهل السنة في فهم نصوص الوحيين أنها لا تعارض بالعقل، فإذا لم يستطع العقل إدراك معنى النص يقدم الإنسان النص، لأن النقل ثابت معصوم من الخطأ، أما العقل فمتغير وغير معصوم من الخطأ، فالعقول متفاوتة ولهذا يجب تقديم النص إذا تعارض مع العقل" (2).

ما أكثر نقاط القوة في الإسلام لإثبات ربانية هذا الدين فمن نقاط القوة في الإسلام، أن منهجه التلقي والاستدلال وحفظ الله تعالى له من الزيادة والنقصان والتبديل والتحريف فهو دين دليل وإلا لقال من شاء ما شاء كما في الأديان الأخرى أو كما في الفرق المنحرفة. شهد بدقة النقل الأعداء قبل الأصدقاء، وقد خص الله تعالى أمتنا بهذا الإسناد دون غيرنا من الأمم، وفي هذا يقول عبد الله بن المبارك: إن الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء. فإذا قال أهل البدع إن أحاديثهم صحيحة أو مسندة إلى النبي صلى الله عليه وسلم! فلنقل لهم: أين أسانيدكم؟

ففي المنهج الإسلامي لا يتعارض النص الصحيح مع العقل الصريح، فإذا وقع التعارض فيكون لعدم صحة النقل أو عدم صحة الدليل العقلي، وإذا صح العقل وضح النقل فيكون التعارض من المستحيلات.

عناية المسلمين بصحة نقل هذا الدين

لما كانت أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته هي المبنية لكلام الله تعالى، الشارحة للأوامر والنواهي في دين الإسلام، عني المسلمون عناية عظيمة بصحة نقل الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، واجتهدوا اجتهاداً عظيماً في تصفية هذه النقول من الزيادات التي ليست من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي بيان الأقوال المكذوبة عليه صلى الله عليه وسلم، ووضعوا لذلك أدق القواعد والنظم التي يجب أن تراعى في نقل هذه الأحاديث من جيل إلى جيل. وستحدث بشكل مختصر جداً عن هذا العلم (علم الحديث) حتى يتبين للقارئ ذلك الأمر الذي تميزت به الأمة الإسلامية عن سائر الملل والنحل فيما يسرها الله له من حفظ دينه صافياً نقياً لا تختلط به الأكاذيب والخرافات على مر العصور والأزمنة.

(1) طبقات الشافعية للسبكي 138/2.

(2) الضوابط الشرعية لفهم نصوص الكتاب والسنة - محاضرة مفرغة د. حمد بن عبد المحسن التويجري، منشورة على موقع السكينة باختصار.

لقد اعتمد نقل كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم على أمرين رئيسين هما:

الأول: الحفظ في الصدور، والأمر الثاني: الكتابة في السطور، فقد كان المسلمون الأولون من أكثر الأمم قدرة على الحفظ الدقيق، والاستيعاب الواسع لما يتميزون به من صفاء الذهن وقوة الذاكرة، وهذا معلوم وبيّن لمن اطلع على سيرهم، وعرف أخبارهم، حيث كان الصحابي يسمع الحديث من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيحفظه جيداً وينقله بدوره بعد ذلك للتابعي الذي يحفظه، ثم يبلغه هو بدوره لمن بعده، وهكذا ظل إسناده الحديث مستمراً يتناقله علماء الحديث على مر الأزمان، يكتبونه ويحفظونه عن ظهر قلب ثم يقرؤونه على تلاميذهم، ثم يتسام التلميذ مسئولية التبليغ بعد أن يصير عالماً، وهكذا انتقل علم الحديث بالتواتر إلى أن وصل إلينا.

ولهذا فلا يقبل مطلقاً حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم دون معرفة إسناده من الرواة الذين نقلوا هذا الحديث. وترتب على هذا الأمر أيضاً علم آخر تميزت به أمة الإسلام عن سائر الأمم هو علم الرجال أو علم الجرح والتعديل. وهو علم يعني بمعرفة حال هؤلاء الرواة الذين ينقلون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. فيهتم بسيرهم الذاتية، بتاريخ ولادتهم ووفاتهم، وبمعرفة شيوخهم وتلاميذهم، وتوثيق العلماء المعاصرين لهم ومدى ضبطهم وإتقانهم للحفظ، وما يتحلون به من الأمانة وصدق الحديث إلى غير ذلك من الأمور التي تهتم عالم الحديث؛ ليتأكد من صحة الحديث المروي عن طريق هذه السلسلة من الرواة.

إنّ علم انفردت به هذه الأمة حرصاً منها على صحة الكلام المنسوب إلى نبيها صلى الله عليه وسلم، ولا يوجد في التاريخ كله من أوله إلى يومنا هذا أن حدث هذا الجهد الضخم الهائل من العناية بحديث أحد من الناس مثلما عني بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولذا فهو صريحٌ ضخم مدون في كتب عينية عناية تامة برواية الحديث، وذكرت السير الذاتية المفصلة لآلاف الرواة، لا لشيء، إلا لأنهم كانوا الواسطة في نقل أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأجيال التي تليهم، ولم يكن في هذا العلم مجاملة لأحد من الناس، بل هو كاليزان في دقة النقد، يقال عن الكاذب بأنه كاذب، والصادق بأنه صادق، ويقال عن سيء الحفظ بأنه سيء، وقوي الحفظ بأنه كذلك، ووضعوا لذلك أدق القواعد التي يعرفها أهل هذا الفن.

ولا يكون الحديث صحيحاً عندهم إلا إذا اكتملت سلسلة الرواة بعضها ببعض، وتوفر في هؤلاء الرواة العدالة وصدق الحديث مع قوة الحفظ والضبط.

إنّ الإسلام دين شفاف، فلا يوجد به أسرار، ولكل شخص كامل الحرية أن يسأل عن كل صغيرة وكبيرة. مستجد عالماً كبيراً يعطي محاضرة، مستجد طفلاً عمره 13 يسأل أين دليلك فيما تقول، فيجيبه العالم بطمأنينة أحسن، لا تقبل أي كلام من كائن من كان بدون دليل والدليل الذي سألت عنه، هو كذا وكذا.

المطلب الثاني

الاعتماد على السنة الصحيحة

أمر الله بطاعة نبيه ﷺ في آيات كثيرة؛ منها قوله: ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: 7].

وسنة النبي ﷺ هي الموضحة والمبينة لكتاب الله، قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: 44].

وذم رسول الله ﷺ أقواما يتركون ما جاء في سنته؛ فقال: ((ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ألا يوشك رجل ينثني شعبانا على أريكته يقول: عليكم بالقرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه))⁽¹⁾.

والاستدلال العلمي الصحيح يعتمد على الأحاديث الصحيحة والحسنة، وأما الأحاديث الموضوعة والضعيفة فلا يجوز الاستدلال بها، ويجب الحذر منها.

فقد قيض الله لسنة نبيه ﷺ من أهل الإخلاص علماء أعلاما نذروا حياتهم لتنقية سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وجمعه وآله وجمعها وتدوينها وتوثيقها وتنقيحها حتى تصل إلينا في صحاح اعتمد عليها الفقهاء والعلماء كمصدر ثان للتشريع مع القرآن الكريم.

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أسسوا علوما جديدة للثبوت من الأخبار وروايتها، فكان علم الرجال وعلم الإسناد، وعلم الجرح والتعديل، وعلم العلل، وغيرها، وكلها تتابع رواة الأحاديث وتدرس أحوالهم، وما ظهر من أمرهم وما خفي، للتأكد من مدى صدقهم فيما نقلوه عن الرسول ﷺ، بل تدرس الحالة الاجتماعية والسياسة والاقتصادية التي عاشها الرواة ومدى تأثيرها عليهم في نقل الحديث.

(1) مسند أحمد 410/28 (17173)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح، وسنن ابن ماجة، افتتاح الكتاب، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ، والتعليق على من عارضه (12)، وسنن أبي داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة (4606)، وجامع الترمذي، كتاب العلم، باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ (2664). قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (2642).

عام الحديث والسنة الصحيحة

هناك أمر آخر متعلق بعلم الحديث، ألا وهو: تعدد سلسلة الإسناد للحديث الواحد، بحيث يصل الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق أكثر من سلسلة من سلاسل الرواة، فيكون للحديث الواحد إسنادان أو ثلاثة أو أربعة أسانيد وأحياناً عشرة أسانيد وأحياناً أكثر من ذلك.

وكلما تعددت سلسلة الإسناد كلما قوي الحديث وازدادت الثقة في نسبه للرسول صلى الله عليه وسلم. فالحديث الذي يرويه أكثر من عشرة من الثقات في كل طبقاته يسمى الحديث المتواتر وهو أعلى أنواع النقل لدى المسلمين، وكلما كانت القضية هامة في دين الإسلام كبيان أركان الإسلام مثلاً كانت الروايات المتواترة لها أكثر، وتعددت أسانيد الرواية لها، وكلما كانت القضية من الفروع والمستحبات كانت الأسانيد والرواية لها أقل والاهتمام بها أضعف.

وأعلى رتبة في النقل، والاهتمام بالرواية الهتم بها المسلمون، هو نقل القرآن الكريم، حيث لقيت كتابته في السطور عناية فائقة، وكذلك حفظه في الصدور، وإتقان ألفاظه ومخارج حروفه وطريقة قراءته، وقد نقله بأسانيد الرواية الآلاف إلى الآلاف عبر الأجيال المتعاقبة، ولذلك لم تدخل إليه يد التحريف ولا التبديل على مر السنين، فالمصحف الذي يُقرأ في المغرب، هو نفس المصحف الذي يُقرأ في المشرق، هو نفس المصحف الموجود في سني بقاع الأرض مصداقاً لقول الله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر: 9].

المطلب الثالث

صحّة فهم النصوص وأهميته في الاستدلال الصحيح

قد جاءت الإشارات العديدة في كتاب الله تبارك وتعالى لأهمية العقل، وتكررت الدعوة لإعمال العقل كما

في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

إن صحّة فهم النصوص الشرعية ركيزة أساسية لصحة الاستدلال، ولا يستطيع المرء أن يعرف مراد الله ومراد رسوله ﷺ إلا حينما يستقيم فهمه لدلائل الكتاب والسنة، بل إن كثيراً من البدع والضلالات لم تحدث إلا بسبب سوء الفهم.

قال ابن القيم: "صحّة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده، بل ما أُعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد طريقهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهمهم ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا الله أن نسأله أن يهدينا إلى صراطهم في كل صلاة.

وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يميز به بين الصحيح والفساد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغبي والرشاد، ويمدّه حسن القصد وتحرّي الحق والصواب، وتقوى الرب في السر والعلانية، ويقطع عنه اتباع الأهواء وإيثار الدنيا وطلب محمّدة الخلق⁽¹⁾.

كما أن سوء الفهم أصل كل بلية، يقول ابن القيم: "سوء الفهم عن الله ورسوله ﷺ؛ أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأ في الأصول و الفروع، ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد"⁽²⁾.

ومما يدل دلالة واضحة على أهمية الفهم الصحيح للقرآن والسنة، أن الأئمة ؓ كانوا يهتمون كثيراً بالفهم الجيد، فهذا الإمام أحمد يجلس عند شاب أعرابي يطلب منه العلم فسأله أحد أصحابه: "يا أبا عبد الله تركت ابن عيينة عنده الزهري وعمرو بن دينار وزيد بن علاقة والتابعون ما الله به عليم!!"، فقال له: اسكت. فإن فاتك حديث بعلو تجده بنزول، ولا يضرك في دينك ولا في عقلك، وإن فاتك عقل هذا الفتى أخاف أن لا تجده إلى يوم القيامة!! ما رأيت أحداً أفقه في كتاب الله عز و جل من هذا الفتى القرشي. فقال: من هذا؟ فقال الإمام: هو محمد بن إدريس الشافعي⁽³⁾.

فالشريعة المطهرة حذرت أشد التحذير من الفهم السقيم وتحريف الكلام، كما قال تعالى عن بني إسرائيل:

﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦].

"فليس كل من استدل بالقرآن والسنة يعتبر محقاً، إنما الحق الذي يستدل بالنص في مكانه، وبمعناه الصحيح، وبمراد الله، ومراد رسوله ﷺ، فإذا استدل الإنسان بكلام الله على غير مراده فهذا من أعظم الفرية، ومن أعظم الجرم، لأن هذا افتراء على الله -س- يحمل كلام الله ما لا يحتمل، فإنه لو أتى إنسان وقال: أنت أردت بكلامك كذا وكذا، على غير مرادك، لقلت له: كذبت أنا ما أردت بهذا الكلام هذا المعنى. فكيف يفترى هؤلاء على الله وعلى رسوله ﷺ، ويحملون كلامهما على غير مرادهما، ولهذا لا بد من ضوابط وقواعد يضبط به الاستدلال بنصوص الوحيين، لنعرف الحق من الباطل، ولنفرق بين الحق والمبطل"⁽⁴⁾.

(1) إعلام الموقعين 69/1.

(2) الروح لابن القيم ص 63.

(3) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم 203/7 باختصار.

(4) الضوابط الشرعية لفهم نصوص الكتاب والسنة - محاضرة مفرغة د. حمد بن عبدالمحسن التويجري، منشورة على موقع السكينة.

المطلب الرابع

الاعتماد على منهج الصحابة في الفهم

للصحابه منزلة جليلة؛ فقد شرفهم الله وأعلى منزلتهم ورفع قدرهم ودرجاتهم وعدّهم من فوق سبع سموات؛ قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ السَّابِقِينَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100].

يقول ابن مسعود: "من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، وأقومها هديا، وأحسنها حالا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوا آثارهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم" (1).

من أجل هذا، فإن فهم دلائل الكتاب والسنة إنما يؤخذ من الصحابة؛ ففيهم تكلم رسول الله ﷺ وعليهم نزل الكتاب، فهم أعلم الناس بمراد الله ومراد رسوله، خاصة بعد أن كثرت البدع، وقَلَّ العلم، وفسدت الفهوم، وهجرت السنة.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ قوله: ((فإنه من يعيش منكم بعدي، فسيري اختلافا كثيرا؛ فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة)) (2).

قال شيخ الإسلام: "فمن فسّر الكتاب والحديث وتأولّه على غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين فهو مفتر على الله، ملحد في آياته، مُحرف للكلم عن مواضعه، وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام" (3).

قال ابن رجب: "فالعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها، والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام والزهد والرفائق والمعارف، وفي ذلك كفاية لمن عقل، وشغل لمن بالعلم النافع عني واشتغل" (1).

(1) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر 97/2، من طريق قتادة عنه.

(2) مسند أحمد 4/126، 127، سنن أبي داود، كتاب السنة، باب لزوم السنة (4607)، وجامع الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (2676)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع (2549).

(3) مجموع الفتاوى 243/13.

المطلب الخامس

معرفة اللغة العربية

لقد تنزل القرآن على قلب الرسول ﷺ بلسان عربي مبين، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١١٥﴾ [الشعراء: 192 - 195]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ [يوسف: ٢].

ولكي نفهم دلائل الكتاب والسنة على الوجه الصحيح لا بد من معرفة لغة العرب التي نزل بها القرآن والتي خاطب بها رسول الله ﷺ أصحابه؛ ولهذا تواتر اعتناء علماء الأمة وأئمتها بلغة القرآن حتى يوضع خطاب الشارع في موضعه اللائق به شرعاً؛ يقول ابن عبد البر: "ومما يستعان به على فهم الحديث العلم بلسان العرب ومواقع كلامها وسعة لغتها وأشعارها، وكان عمر بن الخطاب ؓ يكتب إلى الآفاق أن يتعلموا السنة والفرائض، واللحن - يعني النحو-، كما يتعلم القرآن" (2).

ومن المواقف المهمة التي تبين أهمية المعرفة باللغة العربية وعدم اللحن فيها وأنها سبب للفهم السقيم، ما ورد أن أعرابياً قدم في زمان عمر ؓ فقال: من يقرؤني مما أنزل الله على محمد فأقرأه رجل براءة، فقال: إن الله برئ من المشركين ورسوله بالجر، فقال الأعرابي: أو قد برئ الله من رسوله!! إن يكن الله برئ من رسوله فأنا برئ منه، فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه فقال: يا أعرابي أتبرأ من رسول الله وقال: يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يقرؤني فأقرأني هذا سورة براءة فقال: ﴿ أَنْ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة: ٣] - أي: قرأه خطأ بكسر لام رسوله-، فقلت أو قد برئ الله من رسوله فإن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه. فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابي، قال فكيف يا أمير المؤمنين قال: إن الله برئ من المشركين ورسوله، فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ ممن برئ الله ورسوله منه، فأمر عمر بن الخطاب ألا يقرئ الناس إلا عالم باللغة (3).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -: "يحتاج المسلمون إلى شيئين: أحدهما: معرفة ما أراد الله ورسوله ﷺ بألفاظ الكتاب والسنة بأن يعرفوا لغة القرآن التي بها نزل وما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر علماء المسلمين في معاني تلك الألفاظ فإن الرسول لما خاطبهم بالكتاب والسنة عرفهم ما أراد بتلك الألفاظ" (4).

(1) بيان فضل علم السلف على علم الخلف لابن رجب ص 150-152

(2) جامع بيان العلم وفضله 1129/2.

(3) كنز العمال لابن عساکر (4157)، وجامع الأحاديث للسيوطي 498/27 (30575).

(4) مجموع الفتاوى 253/17.

كما أن نشر اللغة العربية من نشر الدين والدعوة إليه. وإن لغة اصطفاها الله تعالى من بين اللغات جميعاً؛ لتكون وعاءً لآخر رسالاته للبشرية، ولكتابه الخالد «القرآن الكريم»؛ لا شك في كونها لغة مترعة على عرش الألسنة واللغات؛ وذلك لما لها من خصائص وميزات تستحق بها هذا الاصطفاً.

وهناك حقيقة ينبغي على الشعوب المسلمة الانتباه إليها، وهي: خطورة الابتعاد عن اللغة العربية، فكلما ابتعدوا عن تعلم اللغة العربية وممارستها في حياتهم اليومية، كانوا أقرب إلى الجهل والوقوع في البدع التي هنرنا منها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أيما تحذير، وقد أكد على هذا أيضاً شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، حيث إنه أرجع الخلل في الدين عند أهل البدع إلى قلة فهم اللغة العربية؛ فيقول: «لا بد في تفسير القرآن والحديث أن يُعرف ما يدرك على مراد الله ورسوله من الألفاظ وكيف يُفهم كلامه. ومعرفة العربية التي غوطينا بها، مما يُعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك ضلال أهل البدع كان لهذا السبب؛ فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دال عليه ولا يكون الأمر كذلك»¹.

وأوجب شيخ الإسلام ابن تيمية على المسلم تعلم اللغة، فقال: «إن معرفة اللغة من الدين، ومعرفة فرض واجب، وإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»².

وقد أورد السيوطي (ت 911هـ) قول عمر بن الخطاب: «سمعت الشافعي يقول: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتكلمهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطوطاليس... ولم ينزل القرآن ولا أتت السنة إلى على مصطلح العرب ومذاهبهم في المحاوراة والتخاطب والاعتجاج والاستدلال لا على مصطلح اليونان، ولكل قوم لغة واصطلاح»³.

¹ الإجماع: لابن تيمية، ص 111.

² اقتضاء الصراط المستقيم: لابن تيمية، ص 207.

³ العلم بالعربية: ضرورة عقيدية: للدكتور عباس أرهيلة، ص 87. وانظر؛ صوت الكلام عن فن المطلق والكلام: للسيوطي، شرح وتعليق الدكتور سامي الشار، ص 45، الطبعة الأولى - السعادة، سنة 1947م.

المطلب السادس

جمع النصوص الواردة في الباب الواحد

تمثل النصوص الشرعية وحدةً واحدةً يكمل بعضها بعضاً، فلا تتضح المسألة حتى تستوفي جميع النصوص الواردة فيها، فالنصوص الثابتة تأتلف ولا تختلف؛ فكلها خرجت من مشكاة، ولا يمكن أن يرد التناقض بينها أو الاختلاف، ولهذا فقد وصف الله كتابه العزيز بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: 41، 42].

إذا تقرّر هذا؛ فإنه لا يجوز أن يؤخذ نصٌّ ويترك نصٌّ آخر في الباب نفسه؛ لأن هذا يؤدي إلى تقطيع النصوص وبترها؛ قال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: 85].

يقول الإمام أحمد: "الحديث إذا لم تجمع طرقه لم تفهمه، والحديث يفسر بعضه بعضاً"⁽¹⁾.

ويقول الإمام ابن تيمية: "إذا ميز العالم بين ما قاله الرسول ﷺ وما لم يقله، فإنه يحتاج أن يفهم مراده ويفقه ما قاله، ويجمع بين الأحاديث ويضم كل شكل إلى شكله، فيجمع بين ما جمع الله ورسوله، ويفرق بين ما فرق الله ورسوله، فهذا هو العلم الذي ينتفع به المسلمون، ويجب تلقيه وقبوله، وبه ساد أئمة المسلمين؛ كالأربعة وغيرهم - ء أجمعين"⁽²⁾.

"ومنهج أهل السنة والجماعة الأخذ بجميع النصوص، فأهل السنة يروون ما لهم وما عليهم، أما أهل البدع فإنهم يأخذون من النصوص ما يؤيد بدعتهم بزعمهم ويدعون ما يخالف بدعتهم، وهذا هو الذي يوقع الإنسان في الضلالة والانحراف، ولهذا أمرنا الله -،- بالرجوع إلى أهل العلم، لأنهم الأقدر والأجدر بالنظر في جميع النصوص، لأن من النصوص نصوص عامة ونصوص خاصة، ومطلق ومقيد، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، ولا يعرف هذا إلا من أهل العلم. فلا بد من الأخذ بجميع النصوص وألا تقتصر على جانب واحد من جوانب النصوص، فالخوارج أخذوا بنصوص الوعيد وتركوا نصوص الوعد، والمرجئة أخذوا بنصوص الوعد وتركوا نصوص الوعيد، والمعطلة أخذوا بنصوص التنزيه وتركوا نصوص الإثبات، والممثلة أخذوا بنصوص الإثبات وتركوا نصوص التنزيه، أما أهل السنة فأخذوا بجميع النصوص"⁽³⁾.

(1) الجامع لأخلاق الراوي 212/2.

(2) مجموع الفتاوى 316/27.

(3) الضوابط الشرعية لفهم نصوص الكتاب والسنة - محاضرة مفرغة د. حمد بن عبدالمحسن التويجري، منشورة على موقع السكينة.

ماذا سأل في مصادر الإسلام عن الإسلام؟

معظم الديانات على الأرض سميت نسبة إلى شخص أو أمة أو بلدٍ ظهرت فيه هذه الديانة، فالمسيحية أخذت اسمها من السيد المسيح عليه السلام، واليهودية نسبة إلى قبيلة يهوذا، والبوذية نسبة إلى مؤسسها بوذا، والهندوسية نسبة إلى الهند، وهكذا.

أما الإسلام فإنه لا ينتسب لرجل بعينه، ولا لقبيلة، أو عرق، أو أمة؛ وذلك لأنه ما أُبتدِعَ من تلقاء بشر حتى يُنسَبُ له، وإلا سمي بهذا الاسم؛ لأنه يعني التسليم والطاعة الكاملة للرب الخالق المالك، والتحرر من كل أنواع العبودية لغيره.

كما أن رسالة الإسلام رسالة عالمية، فهي للناس كافة، لا يحدها مكان ولا يحويها زمان، ولا يخلو واقع الناس في حياتهم من حكم شرعي مقتبس منها، إنها الرسالة العامة والشاملة والخاتمة، جاءت لهداية الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم في أي نقطة من هذه الأرض؛ قال الله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: 1].

ولذلك مستجد أن الإسلام بمصدرية: (القرآن والسنة):

- يرشدنا إلى احترام آبائنا وكبار السن ورعايتهم، والإحسان إلى الأهل والزوجة والأبناء.
- وشجعنا على إطعام الضعفاء والفقراء ومساعدة المحتاجين والمعاقين ومساندتهم، فخير الناس هو أنفعهم للناس.
- وأمرنا بالصدق والأمانة والوفاء والكرم والإيثار والتواضع والقناعة والتسامح والرحمة والصبر والإحسان والعفة والشكر والشجاعة للحق وإقامة العدل، وأن نتعامل مع البشر والحيوانات والطيور والبيئة من حولنا برحمة، وأن نحب للناس ما نحب لأنفسنا وأن نسعى في إسعاد الآخرين وتجنب أذاهم، فلا نفتاب أحد، ولا نكسر مشاعر أحد بلفظ أو تصرف، وأن نتجنب الفرور والتكبر، وألا نختقر الناس أو نضع من قدرهم.
- وأمرنا بالألّا نفش الناس، ولا نكذب عليهم، ولا نخدعهم، ولا نخسدهم، ولا نسيء الظن بهم.
- ويؤكد لنا أن جميع الناس سواسية بفض النظر عن الجنس، أو اللون أو الجنسية، أو الأرض التي يتقي لها الفرد، وهذا ما أرشد إليه النبي محمد صلى الله عليه وسلم حول مبدأ المساواة والعدل بين الناس، وهو أمرٌ مستمد من كتاب الله العزيز، والذي فيه حلول للقضاء على تلك العنصرية البغيضة¹.

¹ منهجية الحوار مع الملاحدة وتفنيد شبهاتهم حول الإسلام، جوتيار بامرفي، ص 572-584.

الفصل الثاني

بيان خصائص الإسلام

وفيه تمهيد وعشرة خصائص:

تمهيد: مفهوم خصائص الإسلام وأهمية بيانها.

الخاصية الأولى: الربانية.

الخاصية الثانية: العالمية.

الخاصية الثالثة: الشمولية.

الخاصية الرابعة: التكامل.

الخاصية الخامسة: الواقعية.

الخاصية السادسة: الوسطية.

الخاصية السابعة: التيسير.

الخاصية الثامنة: التدرج.

الخاصية التاسعة: السماحة.

الخاصية العاشرة: العدل.

تمهيد: مفهوم خصائص الإسلام وأهمية بيانها:

أولاً: مفهوم خصائص الإسلام:

الخصائص: "جمع خصيصة، وخصه بالشيء، يَخَصُّه خَصًّا.. يقال: اختص فلان للأمر وتخصص له: إذا انفرد"⁽¹⁾.
و"التخصيص والاختصاص والخصوصية والتخصص: تفرد بعض الشيء بما لا يشاركه فيه الجملة، وذلك خلاف العموم"⁽²⁾، و"الخصائص: الصفة التي تميز الشيء وتحدده"⁽³⁾.
وخصائص الإسلام: "خصائصه الخاصة به التي تميزه عن غيره تمييزاً واضحاً بارزاً"⁽⁴⁾.
وعلى ذلك فخصائص الإسلام: هي أوصافه ومميزاته ومقوماته التي تفرد وتميز بها عن غيره من الأديان والمذاهب الأخرى.

ثانياً: أهمية عرض خصائص الإسلام على المدعوين:

خصائص الإسلام لا بد للداعية من معرفتها معرفة جيدة وتفهمها للناس لأمر:

1- حتى لا يختلط الخبيث بالطيب، والصالح بالطالح⁽⁵⁾:

فمعرفة السمات التي تميز الإسلام عن غيره من الأديان منهج إسلامي أصيل، قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ
الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُمْ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧]. وقال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّوْنُكُمْ بِئِهٍ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾
[الأنعام: ١٥٣]. وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ أَلْبَتَىٰ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]

وقبل ذلك في افتتاح المصحف يقول الله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧].

وقال تعالى في آخر المصحف: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِكُفْرَتِكُمْ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا
أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

(1) لسان العرب 25/7.

(2) المفردات في غريب القرآن ص 149..

(3) المعجم الوسيط 238/1.

(4) ينظر: أصول الدعوة؛ عبدالكريم زيدان ص 40-41.

(5) الطالح: طالح مفرد: ج طالحون وطُلِح: شَرِب، فاسد خلاف صالح" لا يعرف الصَّالِح من الطَّالِح - شابُّ طالح لم يجد من يوجهه. ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة 1408/2.

فمعرفة الخصائص تعين على تحديد معالم المنهج الإسلامي، وتمييز هويته في هذا الزمن الذي كثرت فيه الدعاوى، وبغير ذلك سيبقى الغبش والمداهنة واللبس والترقيع.. والإسلام لا يقوم على هذه الأسس الواهنة الضعيفة. حيث أصبحنا نسمع ونقرأ في هذا الزمان من ينسب بعض المناهج المتطرفة التي غلت أو فرطت في دين الله تعالى إلى منهج الإسلام، فيشوهون صورة هذا الدين ويلبسون الحق بالباطل.

2- إدراك عظمة هذا الدين:

فقد من على هذه الأمة بنعمة الإسلام العظيم فأكملة لها وأتمه عليها ورضيه لها فقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، فتعريف المدعويين بخصائص الإسلام تعينهم على إدراك عظمة هذا الدين، فيزدادون به يقيناً، فتثبت على الطريق أقدامهم ويغدو استعلاؤهم واعتزازهم بهذا الدين جبلا لا تمزه عواطف الشهوات ولا الشبهات ولا الانبهار بزائف الحضارات.

فعظمة هذا الدين تكمن في أنه دين رباني وليس دين بشري، وهو دين عالمي شامل متكامل وسطي ميسر واقعي يراعي الفطرة فيقوم على التدرج والسماحة والعدل.. يدرك أنه لا يمكن أن يكون إلا من الله تعالى ليصلح لنا حياتنا ونسعد في الدارين فديننا هو الدين الوحيد الذي يحقق السعادة للفرد والمجتمع لأنه الدين الشامل الذي يتلائم مع الفطرة البشرية لأن الله تعالى هو الذي خلق الكون ويعلم ما يصلحه وما يفسده قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ٤].

3- تتيح لغير المسلمين تكوين صورة صحيحة عن الإسلام:

فإبراز الدعاة لخصائص الإسلام تتيح لغير المسلمين تكوين صورة صحيحة مشرقة متكاملة مترابطة عن الإسلام تجمع بين العقل والنقل والفطرة السليمة، بعيدة عن الإفراط أو التفريط لتزول عن قلوبهم الغشاوة وينجلي عن أبصارهم الغمام فيبصروا حقيقة الإسلام كما هي، ومن ثم يكون ذلك باعثاً لهم حثيثاً لاعتناقه والتمسك به. ولذلك يسأل كثير من الناس لماذا الإسلام هو خير الأديان؟ لماذا نحن مسلمون؟ وما الذي يختلف في الإسلام عن الأديان الأخرى؟ ولماذا يحارب الإسلام وحده ولا تحارب الديانات الأخرى؟

كل هذه الأسئلة سيتضح الإجابة عنها من خلال دراسة مجموعة من مميزات هذا الدين، والتي نجملها في: الربانية، العالمية، الشمول، والتكامل، والواقعية، والوسطية، والتيسير، والتدرج، والسماحة، والعدل، والرقي، والمثالية وسيكون الحديث عنها في الخصائص العشر⁽¹⁾:

(1) ألفت مؤلفات كثيرة في خصائص الإسلام، وكثير من أفكارها متداخل فيما بينها، فللاستزادة ينظر على سبيل المثال: خصائص الشريعة الإسلامية د. عمر الأشقر، خصائص الشريعة الإسلامية وميزاتها السيد سابق، والخصائص العامة للإسلام د. يوسف بن عبدالله، وخصائص الإسلام الذي ندعو إليه د. إسماعيل على محمد، وبحث: الخصائص العامة للإسلام د. إبراهيم بن حماد بن سلطان الرئيس منشور على موقع الألوكة.

الخاصية الأولى

الربانية

"الربانية نسبة إلى الربان الذي يرب الناس وهو الذي يصلح أمورهم ويربها ويقوم بها"⁽¹⁾. قال شيخ الإسلام: "الرباني من يرب الناس كما يرب الربان السفينة"⁽²⁾.

ومعنى ربانية المنهج الإسلامي: أي أن منهج الإسلام منزل من عند الله سبحانه وليس من وضع البشر المتصفون بالعجز والنقص.

فالربانية التي هي من خصائص منهج الإسلام تعني أمرين: الأول: ربانية المصدر، أي أنه من عند الله تعالى. والثاني: ربانية القصد، أي عبادة الله وحده لا شريك له. وتوضيح ذلك:

المحور الأول: ربانية المصدر:

بمعنى أن الإسلام مصدره من الله، من خلال القرآن المنزل وسنة الرسول الخاتم ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: 191]. وقال: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: 3 - 4]، وقال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكَمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: 174]، وقال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: 57].

وخاصية الربانية هي الخاصية الأم التي تتفرع عنها كل الخصائص الأخرى، ويمكن اعتبار الخصائص الأخرى نتاج هذه الخاصية، فربانية المصدر لها دلالات كثيرة تؤثر في عملية الدعوة أجملها في النقاط التالية:

أولاً: ربانية الإسلام هي التي صاغت منهجه القويم:

وهذه الصياغة كانت وفق علم الله المحيط بالكائن المنزل عليه ذلك المنهج، بصفاته وأحواله وطبيعته وغرائزه وجبلته ومواطن ضعفه وقوته وما يصلحه وما يقيمه وينهض لمهمته، فجاء متناغماً متسقاً ملائماً لتلك الطبيعة البشرية، فالذي وضعه هو القائل عن نفسه: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: 14].

فهو الذي يعلم عن الإنسان ما لا يعلمه عن نفسه. فهو منهج رباني ملائم لطبيعة المكلفين ولا يفرض عليهم إلا ما فيه نفع لهم ولا يمنع عنهم إلا ما فيه شر لهم، فهو الأنسب لكل البشر ويستحيل أن تتعارض شرائعه

(1) جامع البيان للطبري 327/3.

(2) مجموع الفتاوى 62/1.

مع فطرة الإنسان كما فعلت المذاهب الوضعية المعاصرة.

ثانياً: المنهج الإسلامي مبرأ عن الهوى الإنساني:

فالإسلام هو المنهج الوحيد المبرأ من الهوى والضعف الإنساني، والرغبة في النفع الذاتي لشخص المشرع، أو لأسرته، أو لطبقته، أو لجنسه،..

فواضع المنهج الإسلامي هو الله. وهو سبحانه رب البشر أجمعين فهو لا يشرع ليحابي نفسه، ولا ليحابي طبقة من البشر على طبقة أخرى ولا ليحابي جنساً على جنس.

ثالثاً: ربانية المنهج الإسلامي تجعله في عصمة عن النقص والخلل:

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82]. فالقصور

البشري يعتري كل المناهج الأخرى التي هي من نسج البشر، فمهما اتسم واضعيها بالحيادية والعدالة والعقلانية فمحال أن يستوعب كل البشر وكل احتياجات البشر ويراعي المكان والزمان الذي يعيش فيه البشر.

رابعاً: إن الإسلام هو المنهج الوحيد غير المحرف والمبدل:

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: 9]، فلم يختلط بأوهام البشر وأغلاط البشر

وانحرافات البشر حيث إن النظم القائمة كلها - عدا دين الله تعالى الإسلام - لا تخرج عن أحد هذه الأصناف الثلاثة:

- 1- منهج ديني محرف، اختلط فيه كلام الله تعالى بكلام البشر وأهوائهم، ومثاله: اليهودية والنصرانية.
 - 2- منهج ديني بشري، فيه القيام بأداء طقوس تعبد وتأله يؤديها الإنسان لمألوه أو لعدد من الآلهة؛ من صنع البشر، فليس له أصل من عند الله تعالى، مثل: الهندوسية، البوذية، عبادة الشيطان، عبادة الأصنام، وغيرها.
 - 3- منهج مدني بشري خالص. فهو مدني لأنه نظام حياة دنيوية؛ يعني بتنظيم حياة الإنسان الدنيوية وتحقيق مصالحه وفق ضوابط وقواعد دنيوية، مصدره البشر، أفراداً أو جماعات، مثل الشيوعية، الرأسمالية، الوجودية.
- ويبقى الإسلام وحده بصفائه ونقاؤه وسموه وكماله من بين سائر المناهج والأديان هو الباقي في خضم الصراعات الثقافية والفكرية والحضارية لربانيته.

خصائص الإسلام: هي أوصاف ومميزاته ومقوماته التي تفرده وتميزها عن غيره من الأديان والمذاهب الأخرى، يعني خصائصه الخاصة به التي تميزه عن غيره تميزاً واضحاً بارزاً وهي خصائص تثبت صحة هذا الدين وعدم وجودها في الأديان الأخرى تثبت أن هذه الطوائف والأديان ليست على حق لذا عرض هذه الخصائص في الدعوة إلى الله سبحانه ليجعل أتباع الديانات الأخرى أن يقارنوا بأنفسهم الفرق الشاسع بين الإسلام وغيره.

وذلك خلافاً لما سواه من المناهج والأديان الأخرى، ولعل عرضاً عاماً لتلك المناهج القائمة بين الناس على هذه البسيطة يجلي الصورة ويوضحها. فالمناهج الموجودة على وجه الأرض هي ثلاثة أصناف:

الأول: منهج ديني محرّف، فهو إلهي في الأصل، وله كتاب سماوي من الله تعالى، ولكن دخله التحريف والتبديل، والحذف والزيادة، فاختلف فيه كلام الله تعالى بكلام البشر وأهوائهم، ومثاله: اليهودية ديانة العبرانيين المنحدرين من إبراهيم عليه الصلاة والسلام والمعروفين بالأسباط من بني إسرائيل الذي أرسل الله إليهم موسى عليه الصلاة والسلام مؤيداً بالتوراة ليكون لهم نبياً، وبين الله عز وجل في القرآن الكريم أنهم حرفوا وبدلوا كلام الله تعالى. والنصرانية هي الرسالة التي أنزلت على نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام، مكملة لرسالة موسى عليه السلام. وقد تعرض الإنجيل للتحريف والتبديل كما ذكر الله تعالى ذلك في القرآن العظيم، واسترجت النصرانية بمعتقدات وفلسفات وثنية.

الثاني: منهج ديني بشري، فهو ديني لأن فيه القيام بأداء طقوس تعبد وتآله يؤديها الإنسان لآلوه أو لعدد من الآلهة؛ من بشر وحجر ومال وهوى وشهوة وغير ذلك، وقد لا يكون فيها صلاح حال هذا الإنسان ولا تنظيم حياته؛ وإلا طقوس غامضة أو مرعبة. وهو دين بشري لأنه من صنع البشر، فليس له أصل من عند الله تعالى، ومن أمثلة ذلك: الهندوسية، البوذية، عبادة الشيطان، عبادة الأصنام، وغيرها. فالهندوسية: ديانة وثنية، نشأت قرابة القرن الخامس عشر قبل الميلاد، يعتقدون بأن لكل طبيعة نافعة أو ضارة إلهها يعبد؛ وهي آلهة كثيرة؛ يلتقي الهندوس على تقيس البقرة. والبوذية: هي ديانة الهند في القرن الخامس قبل الميلاد. كانت متوجهة إلى العناية بالإنسان، وفيها دعوة إلى التصوف والخشونة ونبت الترف والمنادة بالمحبة والتسامح وفعل الخير. أسسها «سدهارتا جوتاما» الملقب بـ «بوذا أفي العالم المستنير، ولما مات إلهه أتباعه، فهم يعتقدون أن بوذا هو ابن الله، وهو المخلص للبشرية من مآسيها وآلامها وأنه يتحمل عنهم جميع خطاياهم. عبادة الشيطان: ظهرت في خضم الوضع الشهواني العالمي، وتتمثل قيم هذه الفئة في الضياع وتقليب الممارسات الجنسية والرقص، ولهم كتابهم الديني وهو كتاب الشيطان»، من تأليف الأمريكي اليهودي ليفي، المؤسس لكنيسة الشيطان بسان فرانسيسكو، بالولايات المتحدة، وهم يريدون أن تكون الحياة من غير قيود الأخلاقيين، ويرون أنه أن أوان التخلص من الأخلاق؛ لأنها عنصر تعويق وليست عامل دفع وترقية، وهم يرتدون الثياب السوداء، ويرسمون وشم الصليب المعقوف أو نجمة داود على صدورهم وأذرعهم.

الثالث: منهج مدني بشري خالص. فهو مدني لأنه نظام حياة دنيوية؛ يعني بتنظيم حياة الإنسان الدنيوية وتحقيق مصالحه وفق ضوابط وقيود دنيوية، وبشري لأن مصدره البشر، أفراداً أو جماعات، فهو نتاج تفكير الإنسان واجتهاده وتحبته وتناقضاته وتنظيره ومن أمثلة ذلك: العلمانية (Secularism) العلمانية وترجمتها الصحيحة اللادينية أو الدنيوية، وهي دعوة إلى إقامة الحياة على العلم الوضعي والعقل، ومراعاة المصلحة بعيداً عن الدين، وقد ظهرت في أوروبا منذ القرن السابع عشر وانتقلت إلى الشرق بداية القرن التاسع عشر، ومدلول العلمانية عزل الدين عن الدولة وعن حياة المجتمع، وإبقاؤه هيبساً في ضمير الفرد لا يتجاوز العلاقة الخاصة بينه وبين ربّه. والشيعوية، والشيعوية: مذهب فكري يقوم على الإلحاد، وأن المادة هي أساس كل شيء. والرأسمالية نظام اقتصادي ذو فلسفة اجتماعية وسياسية، يقوم على أساس تنمية الملكية الفردية والمحافظة عليها؛ بالبحث عن الربح بشتى الطرق والأساليب، ويدعو إلى الحرية السياسية والأخلاقية والاجتماعية المطلقة، والوجودية: مذهب فلسفي أدبي، ملحد، يركز على الوجود الإنساني الذي هو الحقيقة اليقينية الوحيدة، وأن للإنسان أن يثبت وجوده كما يشاء، فكل إنسان يفعل ما يريد، وليس لأحد أن يفرض قيماً أو أخلاقاً على الآخرين. فالوجودي الحق هو الذي لا يقبل توجيهها من الخارج، إنما يسير نفسه بنفسه ويلبّي نداء شهواته وغرائزه دون قيود ولا حدود. وغيرها كثير.

هذه هي المناهج القائمة بين يدي البشر على وجه الأرض، ويبقى الإسلام وعده بصفائه ونقائه وسموه وكماله من بين سائر المناهج والأديان هو القادر على البقاء في غصن الصراعات الثقافية والفكرية والمضاربية؛ لأنه يمتلك خصائص تؤهله لذلك، ويكفي وعد الله العليم الخبير القوي القادر بأن العقاب للمؤمنين، يقول جل وعلا: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ. {الصف: 9-8}.

وإن أحداث الأيام الحالية وما تبع أحداث الحادي عشر من سبتمبر من تطورات واضطرابات في العلاقات العالمية بين الحضارات، لما يحتاج لوقفه نرى من خلالها مصداق كلام ربنا جل وعلا، ففي الوقت الذي نتجه سهام الاتهام والتشويه لدين الإسلام، من خلال دراسات علمية ونفسية للمعرف على الإسلام، والتعرف على الطرق الأكثر أضراراً في تشويه وتغيير الناس منه، وتبني وسائل إعلامية قوية ومؤثرة مهمة القيام بدور التنفيذ لنتائج تلك الدراسات، بالرغم من كل ذلك يبقى الواقع دليلاً على عظمة هذا الدين، وقوته المؤثرة في العالمين، فمع كل هذه الجهود الإبليسية ينتشر الإسلام بشكل أقوى مما هو عليه قبل هذه الأحداث، وهذا نور الله، والله تعالى متم نوره ولو كره الكافرون.

خامساً: الإسلام دين الله فهو ناصره ومؤيده:

فالدين هو دين الله وهو ناصر دينه وأوليائه الذين اصطفاهم لتبليغه، مهما تظاهر عليهم الأعداء، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿التوبة: ٣٢ - ٣٣﴾.

"فإضافة النور إلى اسم الجلالة إشارة إلى أن محاولة إطفائه عبث، وأن أصحاب تلك المحاولة لا يبلغون مرادهم" (2).

إنه هو الوعد الحق من الله، الدال على سنته التي لا تبدل، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿النور: ٥٥﴾.

فإنه تعالى جعل لنصر دينه سنن لا تحابي أحداً، فلا ينصر هذا الدين بين قوم قصرُوا فيه أو خذلوه، وإنما يمكن لدينه مع الفئة العالمية المضحية المؤمنة حق الإيمان.

المحور الثاني: ربانية القصد:

أي أن الإسلام يجعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد هو رضا الله تعالى ونيل مرضاته بتحقيق العبودية الخالصة لله وحده لا شريك له، وبهذا يعرف الإنسان أن لوجوده غاية فيشعر أن لحياته قيمة ومعنى وأنه ليس ذرة تافهة في

¹ مدرغل إلى الثقافة الإسلامية، أعضاء هيئة التدريس، قسم الدراسات الإسلامية بجامعة الملك سعود ص 51-54

(2) التحرير والتنوير 172/10.

الفضاء ولا مخلوقاً سائياً هملاً.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلْفِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]. فطالما أننا سنرجع إلى الله فالله تعالى لم يخلقنا عبثاً بل خلقنا لعبادته قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

ولا جدال في أن للإسلام غايات وأهدافاً أخرى إنسانية واجتماعية، ولكن عند التأمل، نجد هذه الأهداف في الحقيقة خادمة للهدف الأكبر، وهو مرضاة الله تعالى، وحسن مثوبته. فهذا هو هدف الأهداف، أو غاية الغايات.

ففي الإسلام تشريع ومعاملات، ولكن المقصود منها هو تنظيم حياة الناس حتى يستريحوا، ويبرأوا من الصراع على المتاع الأدنى، ويفرغوا لمعرفة الله تعالى، وعبادته، والسعي في مرضيه.

وعلى سبيل المثال ففي الإسلام جهاد وقاتل للأعداء، ولكن الغاية هي: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وفي الإسلام حث على المشي في مناكب الأرض، والأكل من طبيائها، ولكن الغاية هي القيام بشكر نعمة الله وأداء حقه: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

وكل ما في الإسلام من تشريع وتوجيه وإرشاد، إنما يقصد إلى إعداد الإنسان ليكون عبداً خالصاً لله، لا لأحد سواه. ولهذا كان روح الإسلام وجوهره هو التوحيد.

الإسلام دين إلهي وهذه المصيبة أعظم خصائصه وأسسها؛ فما سواها من الخصائص نتيجة لها وثمرتها من ثمارها. دين أنزل الله تعالى على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وتكفل بحفظه ونصرته وإظهاره على الدين كله.

دين من عند الله تعالى مصدره القرآن العظيم والسنة المطهرة الصحيحة، القرآن كلام الله المنزل على رسول محمد صلى الله عليه وسلم. وقد حفظه الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

مصدر الإسلام، ومشروع أحكامه ومناهجه هو الله تعالى فهو وحده إلى رسول الكريم ﷺ باللفظ والمعنى (القرآن الكريم) وبالمعنى دون اللفظ (السنة النبوية). فالإسلام بهذه المصيبة يختلف اختلافاً جوهرياً عن جميع الشرائع الوضعية لأن مصدرها الإنسان، أما الإسلام فمصدره رب الإنسان. إن هذا الفرق الهائل بين الإسلام وغيره لا يجوز اغفاله مطلقاً ولا التقليل من أهميته.

النصوص الدالة على أن الإسلام من عند الله

بيننا فيما سبق أن القرآن من عند الله وسنبت ذلك بدليل الإجماع أيضاً، ومعنى ذلك أن كل آية فيه هي من عند الله، ومعنى ذلك أيضاً أن الإسلام هو من عند الله ومع هذا فمن المفيد ذكر بعض الآيات القرآنية الصريحة في أن القرآن الكريم من عند الله أنزل على رسول الكريم ﷺ، فمن هذه الآيات:

قوله تعالى:

إنا أنزلناه في ليلة القدر (سورة القدر، الآية: ١)
 ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم سورة الحجر، الآية: ٨٧.
 وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم سورة النحل، الآية: ٦
 إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين سورة الزمر، الآية: ٢
 تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين سورة السجدة، الآية: ٢
 والقرآن الكريم، وفيه معاني الإسلام، واجب الاتباع دون غيره من الكتب والأديان السماوية السابقة،
 قال تعالى: {وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتقوه واتقوا لعلكم ترحموا}. ومنته الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام هي الأخرى
 كالقرآن واجبة الاتباع، وعلى هذا دل القرآن، لأن الرسول كما قال تعالى عنه: وما ينطق عن الهوى
 إن هو إلا وحي يوحى .

والسنة المصدر الثاني وحي من عند الله تعالى كما قال جل وعلا عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {وَمَا
 يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} [النجم: ٣-٤]. وبين الله تعالى مهمة النبي محمد صلى الله عليه
 وسلم وهي إبلاغ دين الله إلى الناس، فقال جل وعلا: {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ} [العنكبوت: ١٨]، النور
 : ٥٤]. فهو صلى الله عليه وسلم واسطة في إبلاغ شريعة الله تعالى من الله سبحانه إلى خلقه وبيانها لهم. والله
 جل وعلا يقول في آية محكمة: {وَكَذَلِكَ أَوْهَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ
 وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي
 السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} [الشورى: ٥٢-٥٣].
 ولهذه الخصيصة ثمرات منها:

١- أنه يبين الحقائق الكبرى التي لا يستطيع الإنسان معرفتها إلا بالوحي المعصوم؛ كعقوبة الخالق، وصفاته
 وأمره ونهيه، وديانة الخليقة والغاية من خلق الإنسان.

٢ - أنه دين من عند الله تعالى سالم من النقص والتعارض والهوى والخياف والظلم، فهو شرع الله العليم الخبير
 سبحانه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يقول الله تعالى مبيّناً عظمة دينه واتفاق
 تشريعاته: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}. [النساء: ٨٢].

٣- موافقته للعلم الصحيح والعقل السليم، فهو دين يعتني بالعلم ويمجد العلماء، ومحترم العقل ومخاطب عقول
 العقلاء. وقد بين جل وعلا مكانة العلم والعقل ومنزلة أهلها فقال سبحانه: {وَلِلَّك الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ
 وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}. [العنكبوت: ٤٣].

٤- تحرير الإنسان من عبودية الإنسان والهوى؛ فيخلص في عبادته الله رب العالمين سبحانه وتعالى، ويعمل
 وفق شرعه وتوجيهه وأمره ونهيه.

قال عدي بن حاتم رضي الله عنه: "أثبت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنق صليب من ذهب. فقال يا عدي اطرح عنك هذا الوثن وسمعت يقرأ في سورة براءة {اتخذوا أبنائهم ورهبانهم أرباباً من دون الله} قال أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أهلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه."¹

وكما قال ربي بن عامر بين يدي رستم قائد جيوش كسرى: "إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام."²

تلبية مطالب النفس البشرية، وذلك بتشريع ما يصلح لها وما يصلحها، فهو دين الله الذي خلق الإنسان ويعلم ما يتناسب مع هذه النفس البشرية: {ألا يعلم من خلقه وهو اللطيف الخبير} [الملك: ١٤].

ما يترتب على كون الإسلام من عند الله
أولاً: كماله وخلوه من النقائص

ويترتب على كون الإسلام من عند الله كماله وخلوه من معاني النقص والجهل والهوى والظلم، لسبب بسيط واضح هو أن صفات الصانع تظهر في ما يصنعه .. ولما كان الله تعالى له الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله ويستحيل في حقه خلاف ذلك ، فان أثر هذا الكمال يظهر في ما يشرعه من أحكام ومناهج وقواعد. وبالتالي لا بد أن يكون كاملاً. وهذا بخلاف ما يصنعه الانسان وشرعه فانه لا ينفك عن معاني النقص والهوى والجهل والجور، لأن هذه المعاني لاصقة بالبشر ويستحيل تجردهم عنها كل التجرد وبالتالي تظهر هذه النقائص في القوانين والشرائع التي يصنعونها .

وكيفينا هنا أن نذكر مثالا واحداً للتدليل على ما نقول: جاء الإسلام بمبدأ المساواة بين الناس في الحقوق وأمام القانون بغض النظر عن اختلافهم في الجنس أو اللغة أو اللون أو الحرفة أو الغنى أو الفقر، وأقام ميزان التفاضل على أساس التقوى والعمل الصالح. وقد ورد هذا المبدأ العظيم في القرآن والسنة النبوية . قال تعالى : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم. { وجاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال : « يا أيها الناس ان ربكم واحد وان أبأكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ولا لأعمر على أسود ولا لأسود على أعمر إلا بالتقوى »

وقال عليه الصلاة والسلام « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » . وبلغت دقة تطبيق هذا المبدأ إلى حد أن النبي ﷺ أنكر على مسلم عربي قوله لمسلم غير عربي: "يا ابن السوداء." واعتبر هذا القول من بقايا الجاهلية الأولى.

وواضح من ذلك أن التشريع الإسلامي ارتفع إلى أعلى مستوى من العدالة والمساواة في نظرته إلى الأفراد وان اختلفوا في الجنس واللون واللغة وغير ذلك وطبق هذا المبدأ فعلاً في واقع الحياة. وفي القرن العشرين، وفي عصرنا الحاضر، وبالرغم من الضخيم الهائل في العالم حول المساواة وتسطير هذا المبدأ في دساتير الدول، فانه لا يزال مجرد كلام لا نصيب له في الواقع إلا الشيء القليل. ففي الولايات

¹ صحيح الترمذي 3095

² البداية والنهاية ٧-٤٧.

المتحدة الأمريكية لا تزال الفروق قائمة بين المواطنين في أبسط الحقوق على أساس اللون والجنس، فصاحب البشرة البيضاء أسمى منزلة وأعلى قدرا من صاحب البشرة السوداء، ولا مساواة بين الاثنين في الحقوق الآدمية ولا أمام القانون. ولو كان هذا التفريق والتميز في واقع الحياة فقط لا يمكن أن يدعي البعض أنه من انحراف الافراد ولا تسأل عنه الدولة ولكن الواقع أن القانون نفسه يقر ويعترف صراحة بهذا التميز الظالم بين الأسود والأبيض ومحيمه وان كان الاثنان يحملان الجنسية الأمريكية. فمن هذه النصوص القانونية في بعض الولايات الأمريكية: «ان النكاح بين شخصين أبيض وآخر زنجي يعتبر نكاحا باطلا». وطلان العقد هنا لا يرجع إلى نقص في أهلية العاقدين فأهليتها كاملة والم يرجع إلى شيء آخر خطير في نظر واضع القانون هو أن أحد طرفي عقد النكاح ذو بشرة بيضاء بينما الطرف الآخر في العقد ذو بشرة سوداء ...

و من هذه النصوص أيضا في بعض الولايات المتحدة الأمريكية: أن كل من يطبع أو ينشر أو يوزع ما فيه دعوة أو حث للجمهور على اقرار المساواة الاجتماعية والزواج بين البيض والسود أو تقديم حجج للجمهور أو مجرد اقتراح في هذا السبيل يعتبر عمله جريمة يعاقب عليها القانون بغرامة لا تتجاوز خمسمائة دولار أو بالسجن مدة لا تتجاوز ستة أشهر أو بالعقوبتين ان هذا النص يوغل في اتباع الهوى والجور والظلم دون حياء أو فجل أو وخر من ضمير الى درجة أنه يعاقب من يدعو إلى المساواة بين مواطنين أمريكيين يحملون الجنسية الأمريكية ولكنهم يختلفون في ألوان أجسادهم ووجوههم. فهل أدرك من هذا على نقص الانسان وجهله وجوره؟

أما التمايز بين رعايا المستعمر (بكر الميم) وأهل البلاد المنكوبة بالاستعمار فحدث ولا حرج، فالمستعمرون يضعون من القوانين ما يجعل أهل البلاد المستعمرة بمنزلة البهائم، دون أن يشعر هؤلاء المستعمرون بتأنيب ضمير أو مجورهم على هؤلاء الآدميين. وما يعتبرونه ظلما في بلادهم وبالنسبة لرعاياهم يعتبرونه حقا وعدلا بالنسبة لأهل البلاد المنكوبة باستعمارهم. وهذا وغيره يدل على مدى ما عند الانسان من ظلم وجور وهوى ومحابة وجهل.

ثانيا: وترتب أيضا على كون الإسلام من عند الله، انه يظفر بقدر كبير جدا من الهيبة والاحترام من قبل المؤمنين به، مهما كانت مراكزهم الاجتماعية وسلطاتهم الدنيوية، لأن هذه السلطات وتلك المراكز لا تحرهم من دائرة الخضوع لله تعالى واحترام شرعه وطاعة هذا الشرع طاعة اختيارية تنبعث من النفس وتقوم على الايمان ولا يقصر عليها المسلم قسرا. وفي هذا ضمان عظيم لحسن تطبيق القانون الإسلامي وعدم الخروج عليه ولو مع القدرة على هذا الخروج. أما القوانين والمبادئ، الوضعية التي شرعها الانسان فانها لا تظفر بهذا المقدر من الاحترام والهيبة، إذ ليس لها سلطان على النفوس ولا تقوم على أساس من العقيدة والايمان كما هو الحال بالنسبة للإسلام ولهذا فان النفوس تجرؤ على مخالفة القانون الوضعي كلما وجدت فرصة لذلك وقدرة على الافلات من ملاحقة القانون وسلطان القضاء ورأت في هذه المخالفة اتباعا لأهوائها وتحقيقاً لرغباتها.

إن القانون لا يكفي أن يكون صالحا بل لا بد له من ضمانات تكفل حسن تطبيقه، ومن أول هذه الضمانات إيجاد ما يصل هذا القانون بنفوس الناس ومحملهم على الرضى به والانقياد له عن طواعية واختيار. ولا يحقق مثل هذه الضمانة مثل الإسلام، لأنه أقام تشريعاته على أساس الايمان بالله واليوم الآخر ورسوله محمد ﷺ، وان الالتزام الاختياري بهذه التشريعات واحترامها هو مقتضى هذا الايمان.

وللتدليل على صحة ما نقول نضرب مثلا واحدا بشأن واقعة معينة عالها الإسلام بتشريعه ونجح في هذه المعالجة، وعالجت هذه الواقعة بالذات القوانين الوضعية وفشلت في هذه المعالجة .

من المعروف أن العرب قبل الإسلام كانوا مولعين بشرب الخمر لا يجدون فيه منقصة ولا منكرا، وكانت زقات الخمر ودنانه في البيوت كلاء المخزون في القرب والحباب. فلما أتى الإسلام بتحريم الخمر بقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا إيا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون { كان لكمة {فاجتنبوه} قوة هائلة تفوق قوة الجيش والشرطة وما يمكن أن تستعمله أي دولة لتنفيذ أوامرها بالقوة والجر .. لقد قام المسلمون الى زقات الخمر فأراقوها ، وإلى دنانه فأسروها، وطمعوا نفوسهم من شرب الخمر حتى غدوا وكأنهم لا يعرفون الخمر ولم يتذوقوها من قبل .. لان أمر الله ورد {فاجتنبوه} وأوامر الله من شأنها الاحترام والطاعة .

وفي القرن العشرين ارادت الولايات المتحدة الامريكية تحليص مواطنيها من الخمر، وقبل ان تشرع قانون تحريم الخمر، مهدت له بدرعاية واسعة جدا لتهيئة النفوس إلى قبول هذا القانون، وقد استعانت بجميع أجهزة الدولة وبذوي الكفاية في هذا الباب استعانت بالسينما ومسارح التمثيل وبالإذاعة وبنشر الكتب والرسائل والنشرات والمحاضرات والاعصائيات من قبل العلماء والاطباء والمختصين بالشؤون الاجتماعية، وقد قدر ما انفق على هذه الرعاية بـ (٦٥) مليون من الدولارات وكتببت تسعة آلاف مليون صفحة في مضار الخمر ونتائج وعواقبها . وانفقت ما يقرب من (١٠) عشرة ملايين دولار من أجل تنفيذ القانون وبعد هذه الرعاية الواسعة والمبالغ المنفقة شرعت الحكومة قانون تحريم الخمر لسنة ١٩٣٠ وموجه حرم بيع الخمر وشراؤها وصنعها وتصديرها واستيرادها. فما كانت النتيجة ؟ لقد دلت الاعصائيات للحدثة الواقعة بين تشريعه وبين تشريع الأول سنة ١٩٣٣ انه قتل في سبيل تنفيذ هذا القانون مائتا نفس وهبس نصف مليون شخص وغرم المخالفون له غرامات بلغت ما يقرب من أربعة ملايين دولار، وصودرت أموال بسبب مخالفته قدرت بألف مليون دولار. وكان آخر الطائف أن قامت الحكومة الامريكية بالغاء قانون تحريم الخمر في أواخر سنة ١٩٣٣، ولم تستطع تلك الدعايات الضخمة التي قامت بها الدولة أن توجد القاعدة التي يرتكز عليها القانون في نفوس المواطنين وبالتالي قاموا بمخالفته مما حمل الحكومة على الغائه، لان القانون لم يكن له سلطان على النفوس يحملها على احترامه وطاعته، ومن ثم فشل والغي. أما لكمة {فاجتنبوه} التي جاء بها الإسلام في جزيرة العرب فقد أثرت أعظم التأثير وطبقت فعلا وأريققت الخمر من قبل أصحابها وامتنعوا عنها، لا بقوة شرطي ولا بقوة جندي ولا رقيب ولكن بقوة الايمان وطاعة المسلمين لشرائع الإسلام واحترامهم لها.

الخاصية الثانية

العالمية

يقصد بالعالمية: توجه عقيدة الإسلام وكتابه وأحكام الإسلام وتشريعاته وتوجيهاته للناس كافة على اختلاف أجناسهم، عن طريق رسول خاتم للعالمين⁽¹⁾.

ويمكن بيان هذه الخاصية في النقاط التالية:

أولاً: مظاهر عالمية الإسلام:

1- عالمية عقيدة الإسلام:

فأما عالمية عقيدته، فلأنها عقيدة كل الأنبياء والمرسلين على تنوع شرائعهم وتبيان أزمانهم وأقوامهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

فالتوحيد قاعدة الانطلاق وأساس الدعوة القويمة منذ أن بعث الله الرسل للناس، لا تبديل فيها ولا تحويل. توحيد الإله وتوحيد المعبود، فلا انفصال بين الألوهية والربوبية.

فعقيدة الإسلام هي عقيدة كل أنبياء الله فلا يقبل الله من أحد سواها، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

2- عالمية شريعة الإسلام:

وأما عالمية شريعته المطهرة فلأنها الشريعة المهيمنة الخاتمة إلى الناس كافة، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ [سبأ: ٢٨]، فلم يستثن الله أحداً.

وهذا يعني أن الإسلام رسالة للناس كافة على اختلاف ألوامهم وألسنتهم وبلدانهم وعلى امتداد الزمن من بعثة النبي ﷺ إلى يوم الدين، فلا تنحصر رسالة الإسلام في بلد ولا عرق ولا جنس ولا لون ولا عصر.

(1) ينظر: كتاب معالم في أصول الدعوة ص 165 وما بعدها في بعض أفكار هذه الخاصية.

3- عالمية رسول الإسلام:

وأما عالمية رسوله ﷺ، فلقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف 158] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء 107].

وقال رسول الله ﷺ: ((أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي..)) وذكر منها: ((وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس عامة))⁽¹⁾.

وفي لفظ: ((..وبعثت إلى كل أحر وأسود))⁽²⁾.

وقال ﷺ: ((والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار))⁽³⁾.

4- عالمية القرآن:

وأما عالمية كتابه الكريم فلأنه آخر الكتب الإلهية نزولا، والناسخ لما سبق منها، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان 1]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف 104]. فهذا النص مكّي، وله دلالة على إثبات عالمية هذه الرسالة منذ بدايتها، فقد بين الله تعالى أنها للعالمين مع أن الرسول ﷺ كان يواجه في مكة بالتكذيب والمقاومة والجحود.

ثانيا: شواهد عملية على عالمية الإسلام:

1- العالمية في رموز وقادة الإسلام:

وقد تجسدت عالمية الاسلام على مر العصور في رموز كثيرة مسلمة، آمنت بالإسلام ونصرته كبلال الحبشي وصهيب الرومي⁽⁴⁾، وسلمان الفارسي وعمر بن الخطاب القرشي، ومحمد بن إسماعيل البخاري، وابن حجر العسقلاني، وشيخ الإسلام بن تيمية الدمشقي.. ومحمد الفاتح التركي، وصلاح الدين الأيوبي الكردي..

2- رسائل النبي ﷺ لملوك عصره:

أضف إلى هذا كتب الرسول ﷺ إلى ملوك وأمراء عصره يحثهم فيها على اعتناق الاسلام، فقد أرسل إلى كسرى ملك الفرس، والقيصر عظيم الروم، والمقوقس ملك مصر والنجاشي ملك الحبشة.. وقد انتشر الاسلام في شبه الجزيرة العربية، ووصلت الفتوحات الاسلامية إلى مصر وشمال إفريقيا والشام وبلاد فارس ولازال الإقبال على الاسلام في كل أرجاء الكرة الأرضية مصداقا وبشرى الله ورسوله قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى

(1) صحيح البخاري، كتاب المساجد، باب: ((جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا)) (438)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: ((جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا)) (521).

(2) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا (521).

(3) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب إيمان أهل الكتاب برسالة الإسلام (153).

(4) يقال صهيب الرومي، لأنه أقام في الروم، ولكنه من العراق، وسي وأتوا به إلى مكة، وهو عربي.

وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿التوبة: ٣٣﴾. وقول ﷺ: ((ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار...))⁽¹⁾.

3- السعة في الشريعة:

فمما يثبت عالمية الإسلام تلك السعة في شريعته التي تأكد على رفع الحرج، وجلب التيسير عند المشقة، وتغير الفتوى بتغير معطياتها زمانا ومكانا وحالا وهذا الذي على مثله يؤمن الناس بالإسلام. فتتحقق مصالحهم في العاجل والآجل ليس فقط بحفظ الضرورات، وإنما برعاية الحاجيات والتحسينات أيضا مع تشريع الرخص المبيحة للمحرمات عند وجود المشقات البالغة أو الضرورات.

ثالثا: واجب الدعوة تجاه عالمية الإسلام:

مع التنبيه إلى أن تلك العالمية تلزم على المسلمين عامة، والدعاة خاصة أمور، منها: أن يحملوا هم إيصال هذا الدين لكافة الخلق. وأن لا يفرق في بذل الخير بين أحد من الناس لاعتبارات عرقية أو إقليمية أو مذهبية. والعمل على توحيد المسلمين في كل مكان، وجمع كلمة المسلمين وإقامة اتحادات إسلامية عالمية قوية، ومناصرة قضايا المسلمين المعاصرة في أي بلد كانوا.

على الدعوة أن تستفيد من كل الوسائل والإمكانات المتاحة لإصلاح دين العالمين ودنياهم، وتحقيق الاستخلاف في الأرض.

الخصيصة الثانية

العموم - العالمية

من بديهيات الإسلام وصفاته الاصلية انه جاء لعموم البشر ولم يأت لطائفة معينة منهم أو لجنس خاص من أجناسهم، قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾ (وقال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾. وعموم الإسلام هذا غير مقصور على فترة معينة من الزمن أو جيل خاص من البشر والى هو عموم في الزمان كما هو عموم في المكان، ولهذا فهو باق لا يزول ولا يتغير ولا ينسخ، لان النسخ يجب ان يكون في قوة المنسوخ سواء أكان النسخ كليا أم جزئيا، وحيث ان الإسلام ختم الشرائع السابقة كلها وان محمدا ﷺ هو خاتم الانبياء والمرسلين، فمعنى ذلك أن الشرائع الالهية انقطعت وان الوحي الالهي لم يعد ينزل على أحد، قال تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾. وعلى هذا لا يتصور أن ينسخ الإسلام أو يغيره شيء.

-وقد يقال هنا: لماذا كانت الشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع، أما كان من الأفضل والانفع استمرار تنزل الشرائع الالهية وابقاء باب الرسائل الالهية مفتوحا؟ والجواب لا، لان تنزل الشرائع ليس من قبيل العبث واللغو، والى هو لسد نقص في تشريع سابق، أو لإكمال تشريع سابق، وحيث ان الشريعة الإسلامية كاملة تامة مدت كل ما لم تأت به الشرائع السابقة وأكدت ما جاءت به هذه الشرائع السابقة فلا حاجة ولا داعي لمجيء شريعة أخرى قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي

(1) مسند أحمد 155/28 (16956)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد 14/6، وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

ورضيت لكم الإسلام ديناً. { فمع هذا الكمال والتمام لا داعي لمحي، شريعة أخرى، وعين لا شريعة أخرى فلا رسول آخر بعد محمد ﷺ.

وعوم الشريعة الإسلامية وبقاؤها وعدم قابليتها للنسخ والتبديل والتغير بالتفصيل أو الزيادة كل ذلك يستلزم عقلا وعدلا أن تكون قواعدها وأحكامها ومبادئها وجميع ما جاءت به على نحو يحقق مصالح الناس في كل عصر ومكان ويفي بجاهاتهم ولا يضييق بها ولا يتخلف عن أي مستوى عال يبلغه المجتمع البشري. إن هذا والحمد لله متوافر في الشريعة الإسلامية لأن الله تعالى، وهو العليم الخبير، إذ جعلها عامة في المكان والزمان، وغائمة لجميع الشرائع، جعل قواعدها وأحكامها صالحة لكل زمان ومكان، ومهيأة للبقاء والاستمرار لهذا العموم.. إن ما نقوله هو الحق، ويدل عليه واقع الشريعة الإسلامية وطبيعة مبادئها وأحكامها وأفكارها ومناهجها، ولا بد هنا من بيان موجز كل الإيجاز لاظهار هذا المعنى وإثبات صحة ما نقوله بالادلة والبراهين:

الدليل الاول: مكانة المصلحة في الشريعة

يقوم هذا الدليل على اظهار مدى حرص الشريعة الإسلامية على مصالح الناس الحقيقية ودرء المفسد عنهم. والواقع ان الشريعة الإسلامية ما شرعت الا لتحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل، أي في الدنيا والآخرة، ودرء المفسد والأضرار عنهم في العاجل والآجل أيضاً، حتى إن بعض الفقهاء قال وقوله حق: "إن الشريعة كلها مصالح، إما درء مفسد أو جلب مصالح". وقد يظن البعض أن هذا القول مبالغ فيه، والواقع أنه لا مبالغة فيه، لأن ما قلناه عنها ونقلنا قول بعض الفقهاء عنها، وصف ثابت للشريعة ولكل حكم من أحكامها، فلا يخرج شيء منها عن هذا الوصف أو الفرض العام الذي تريد الشريعة تحقيقه للعباد في عاجلهم وآجلهم. ونكتفي هنا بذكر بعض الادلة الجزئية على هذه الحقيقة التي تكون البرهان الاول.

- (أ) قال تعالى في تعليق رسالته محمد ﷺ: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}، والرحمة تتضمن قطعاً رعاية مصالح العباد ودرء المفسد عنهم، ولا يمكن أن تكون رحمة إذا اغفلت هذه المصالح.

- (ب) تعليق الأحكام بجلب المصلحة ودرء لفسدة لاعلام البشر بان تحقيق المصالح هو مقصود الإسلام، وأن الأحكام ما شرعت إلا لهذا الغرض، قال تعالى: {ولكم في القصص حياة يا أولي الألباب}. فالقصص شرع لتحقيق هذه المصلحة وهي الحياة للناس أي الامن والاستقرار والاطمئنان وعقن الدماء. بزجر من تسول له نفسه الاعتداء على ارواح الناس. وقال تعالى: { إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَبَلِّغُوا لَهُمْ بَلَاتُ مُتَّبِعُونَ. } فتحریم الخمر يمنع عن الناس مفسدة الصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ودرء المفسدة لا شك في انه وجه من وجوه المصلحة، لان المصلحة لها وجه ايجابي وهو جلب نفع لم يكن، ووجه سلبي وهو دفع ضرر أو مفسدة. وهكذا بقية الأحكام بلا استثناء لا يخرج منها أي حكم سواء أكان من أحكام الاعتقادات أو العبادات أو غير ذلك. نعم، قد يجهل البعض تفاصيل المصلحة في حكم من الأحكام، ولكن هذا الجهل ليس بحجة على انتفاء المصلحة، فإن الانسان قد يجهل تفاصيل منفعة دواء ولكن جهله به لا يمنع من تحقيق المصلحة فيه، فإذا كان هذا واقعاً فيما يضعه انسان فكيف لا يكون فيما يضعه خالق الانسان؟ هذه واحدة. والثانية ان المصلحة المقصودة في التشريع الإسلامي لا تقتصر على مصالح الدنيا وإنما تتجاوزها الى مصالح الآخرة أي إلى اعداد الانسان للظفر بالسعادة الدائمة بجوار الرب الكريم الرحيم.

- (ج) تشريع الرخص عند وجود المشقات في تطبيق الأحكام اذا كانت هذه المشقات فوق طاقة البشر المعتادة، من ذلك إباحتها النطق بكلمة الكفر عند الاكراه عليها بالتهديد بالقتل ونحوه، وإباحتها المحرم عند

الضرورة مثل أكل الميتة ولحم الخنزير عند التعرض للهلاك جوعاً، وإباحة الفطر في رمضان للمريض والمسافر. ولا شك ان رفع المشقة ضرب من ضروب رعاية المصلحة ودرء المفسدة عن الناس.

- (د) عرف بالاستقراء والتأمل ان مصالح العباد تتعلق بأمر ضرورية أو حاجية أو تحسينية، فالاولى هي التي لا قيام لحياة الناس بدونها واذا فاتت حل الفساد وعمت الفوضى واختل نظام الحياة. وهذه الضروريات هي:

حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال.

أما الحاجيات: فهي التي يحتاجها الناس لتحقيق اليسر والسعة في عيشتهم واذا فاتتهم لم يحتل نظام الحياة ولكن يصيب الناس ضيق وعرج.

وأما التحسينيات فهي التي ترجع إلى محاسن العادات ومطامير الاخلاق واذا فاتت غرقت حياة الناس عن النهج القويم السليم الذي تقضي به الفطر السليمة والعادات الكريمة. وأحكام الشريعة كلها تحقق وتحفظ مصالح الناس المتعلقة بالضروريات والحاجيات والتحسينات.

فبالنسبة للضروريات شرع للدين - لاقامته وتحقيقه - العبادات وشرع لحفظه الجهاد وعقوبة الرد، وزجر من يفسد على الناس عقيدتهم والنفس شرع لإيجادها النكاح، وشرع لحفظها القصاص على من يعتدي عليها، وتحريم إلقاء النفس بالتهلكة ولزوم دفع الضرر عنها. والعقل شرع لحفظه تحريم الخمر وعقوبة شاربها. والنسل شرع لإيجاده الزواج، وشرع لحفظه عقوبة الزنى والقذف، وعمرته اجهاض المرأة الحامل. والمال شرع لتحصيله أنواع المعاملات من بيع وشراء ونحو ذلك، وشرع لحفظه حرمة أكل مال الناس بالباطل أو اتلافه بلا وجه سائغ مشروع، والحجر على السفير، وتحريم الربا وعقوبة السرقة.

وبالنسبة للحاجيات شرعت لها الرخص عند المشقة، وشرع الطلاق للخلاص من حياة زوجية لم تعد تطاق وشرعت الردية في القتل الخطأ على عاقلة القاتل.

وفي التحسينيات شرعت الطهارة للبدن والتوب، وستر العورة، وأخذ الزينة عند كل مسجد، والنهي عن بيع الانسان على بيع أخيه، والنهي عن قتل الاطفال والنساء في الحروب.

فاستقراء نصوص الشريعة يدل على أن الإسلام ما قصد بتشريع الأحكام للناس إلا لحفظ هذه الضروريات والحاجيات والتحسينات، وهذه هي مصالحهم في الدنيا والآخرة. واذا تعارضت المصالح رجح أعظمها مصلحة أو أقلها مفسدة، فقتل القاتل مفسدة لان فيه تفويت حياته ولكنه جاز لان فيه مصلحة أعظم وهي حفظ حياة الناس. وكشف العورة مفسدة ولكن إذا احتج إليها لإجراء عملية جراحية ضرورية، جاز الكشف لأن مصلحة حفظ النفس من الهلاك أكبر من مفسدة كشف العورة. وترك المحتكر دون اعتراض عليه أو منع له مصلحة له ولكن فيه مفسدة أكبر وهي الاضرار بالناس فشرع المنع من الاحتكار. والدفاع عن البلاد يعرض النفوس الى القتل وهذه مفسدة ولكن ترك الاعداء يدخلون بلاد المسلمين مفسدة أعظم من قتل النفوس فكان في دفعهم بقتالهم مصلحة أكبر من مفسدة هلاك النفوس في هذا القتال. وهكذا تجري أحكام الشريعة على ما هو جليب المصالح ودرء المفسد.

وعلى هذا فكل مصلحة مشروعة حقيقية تظهر أو مفسدة تظلم فإن الشريعة الإسلامية تبين إجماد الحكم لتحقيق تلك المصلحة ودرء هذه المفسدة في ضوء قواعد الاجتهاد المقررة في الفقه الإسلامي، لان الشريعة كما يقول الفقيه ابن القيم: "مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة غرقت من العدل الى الجور وعن الرحمة الى ضدها وعن المصلحة الى المفسدة وعن الحكمة الى العبث فليست من الشريعة وان ادخلت فيها بالتأويل، فالشريعة

عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه."

وتخرج من جميع ما تقدم ان الشريعة الإسلامية وما جاءت به من أحكام صريحة في نصوصها وما ابتني عليها من أحكام اجتهادية في ضوء موازين الاجتهاد الصحيح لا يمكن ابدان تضييق بمجاهات الناس المشروعة ولا تعجز عن تحقيق مصالحهم الحقيقية في أي زمان ومكان.

الدليل الثاني: مبادئ، الشريعة وطبيعة احكامها

أحكام الشريعة نوعان: (الاول) جاء بشكل قواعد ومبادئ عامة و(الثاني) جاء بشكل أحكام تفصيلية. وكلا النوعين جاء على نحو يوافق كل مكان وزمان ويتفق مع عموم الشريعة ويقاؤها. ولا بد من الكلام بليغاً عن كل نوع:

- النوع الاول: القواعد والمبادئ، العامة.

وردت في الشريعة قواعد ومبادئ عامة تتضمن أحكاماً عامة يمكن بسهولة تطبيقها في كل مكان وزمان وقد صيغت بكيفية تمكنها من سهولة هذا التطبيق وسرعة، كما ان معناها الحق لا يمكن أن يتخلف عن أي مستوى عال يبلغه أي مجتمع. وبالتالي يتسع لكل مصلحة حقيقية جديدة للناس. كما ان هذه القواعد والمبادئ، تعتبر كلاساً لما يقوم عليها من أحكام جزئية ولما يتفرع عنها من فروع فمن هذه القواعد والمبادئ:

أولاً: مبدأ الشورى.

وهو مبدأ أصيل من مبادئ، الشريعة في نظام الحكم الإسلامي ووصف من أوصاف المسلمين في جمعهم ومباشرتهم أمور الحكم والسلطان، قال تعالى: {وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ إِنَّهُمْ لَكَرِيمٌ} وقال تعالى لرسوله الكريم ﷺ: {وشاورهم في الأمر} إن هذا المبدأ أسمى وأعدل وأحكم قواعد الحكم الصالح بين البشر ولا يمكن الاستعاضة عنه بغيره، وقد جاء بدرجة كافية من العموم والمرونة بحيث يتسع لكل تنظيم صحيح يوضع لتطبيق هذا المبدأ وسيأتي شيء من التفصيل لهذا المبدأ عند الكلام عن نظام الحكم في الإسلام.

ثانياً: مبدأ المساواة.

وهو أيضاً من مبادئ، الإسلام العظيمة، وله مظاهر كثيرة في جميع جوانب التشريع الإسلامي، منها المساواة أمام القانون وفي تطبيق الأحكام، وفي المراكز القانونية اذا ما تساوى الأشخاص في الشروط التي يشترطها التشريع الإسلامي، ومساواة في التكليف اذا تساوى الأفراد في أسبابها الموجبة. ان هذا المبدأ العظيم طبق فعلاً في واقع الحياة، وحرص النبي الكريم ﷺ على تطبيقه، فقد جاء في السنة الشريفة ان امرأة من بني مخزوم سرقته فجاء اسماء بن زيد يستشفع لها عند رسول الله ﷺ، فقال الرسول: "أشفع في حد من حدود الله؟" ثم قال عليه الصلاة والسلام: "ألا أهلك الذين من قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقته لقطعت يدها". ولا شك أن المساواة وما ابتني عليها وما تفرع عنها، قاعدة يهش لها العقل السليم وتقبلها الفطرة السليمة وتستقيم بها الامور وتصلح الاحوال ومن ثم فهي صالحة في كل زمان ومكان.

ثالثاً: مبدأ العدالة.

العدالة في الإسلام مبدأ بارز، يظهر هذا البروز في الأمر بها والحكم بين الناس بموجبه، والالتزام بمقتضاها

بالنسبة للمقرب والبعيد، والعدو والصديق وفي المحكمة وفي السوق، وإدارة شؤون الدولة وفي البيت، وحتى فيما يعطيه الأب لاولاده. ان روح العدل وجوهرة اعطاء كل ذي حق حقه واستعمال كل شيء في موضعه وهذا المعنى الواسع للعدل يحكم جميع تصرفات الانسان وعلاقاته بغيره وواجباته نحو غيره من بني الانسان.

ومن النصوص القرآنية الواردة في موضوع العدل قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } وقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هَوًىٰ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } ولا شك ان هذا المبدأ يضمن مصالح الناس ويتسع لكل تنظيم صحيح يحقق معنى العدالة والمقصود منها، فإذا رُوي ان تحقيق العدالة في القضاء يستلزم جعل المحاكم على درجتين ابتدائية واستئنافية، او ان المحكمة تؤلف من أكثر من عالم واحد، أو تعيين هيئة تدقيقية لأحكام المحاكم "محكمة التمييز" فهذا ونحوه سائغ جائز ما دام فيه تحقيق العدالة في القضاء على وجه سليم.

رابعاً: قاعدة لا ضرر ولا ضرار .

وهي حديث نبوي ومعناها ان الضرر مرفوع بحكم الشريعة أي لا يجوز لاحد ايقاع الضرر بنفسه أو بغيره، كما أن مقابلة الضرر بالضرر لا يجوز لأنه عبث وإفساد لا معنى له، فمن أضرقت مال غيره فلا يجوز للغير اضرارك مال المعتدي والامله أن يطالبه بالتعويض. وإذا كان الضرر ممنوعاً فإنه اذا وقع وجب رفعه، ولهذا جاءت قاعدة فرعية مبنية على هذه القاعدة هي "الضرر يزال". وهناك فروع وأحكام كثيرة بنيت على هذه القاعدة منها تقرير حق الشفعة، ومنع التعسف في استعمال الحق، وحق السلطة في اتخاذ الاجراءات الوقائية لمنع الضرر عن الناس كحجر المرضى والقادمين الى البلاد في مجاهر خاصة، والتسعير في ظروف معينة .. الخ .

النوع الثاني: الأحكام التفصيلية.

الأحكام التفصيلية في الشريعة الإسلامية كثيرة يطول شرحها وبيانها وفيها لاظهار مدى قابليتها للبقاء والاستمرار، ولهذا نكتفي بأخذ "عينات" و "لمنجز" من هذه الأحكام للتأمل فيها وفيها والتحديد فيها ليتبين لنا مدى صلاحيتها للبقاء والعموم. إن أحكام الشريعة كما ذكرنا إما أن تتعلق بأمر العقيدة، أو بالأخلاق، أو بالعبادات أو بالعاملات. وعلى هذا نأخذ بعض النماذج من كل مجموعة من هذه المجموعات.

فمن أحكام العقيدة وجوب الايمان بالله وبرسوله محمد ﷺ. ومسألة الايمان بالله ورسوله من المسائل البديهية التي يؤمن بها كل عقل سليم وكل فطرة سليمة، وعليها من الأدلة والبراهين ما لا يوجد على غيرها من البديهيات. وستنظم بتفاصيل عن ذلك اثناء كلامنا عن أركان الإسلام في الفصل الرابع عن بيان تعاليم الإسلام وعلى هذا فلا يتصور مجيء زمان أو جيل من الناس يقال فيه: إن مسألة الايمان بالله وما يتفرع عنها من مسائل العقيدة أو مسألة الايمان بمحمد ﷺ أصبحت من المسائل العتيقة التي تناقض العصر ولا يقرها العقل، لان العقل لا ينكر الحقائق الثابتة والما يؤكد لها ويعمقها في النفس، ولأن شأن الحقائق الثابتة الخلود، والعقل يعترف ويقر بهذا الثبات. ولا شك ان الايمان بالله من الحقائق الثابتة الخالدة التي لا يمكن أن تتغير وتنتقض في أي زمان فهي كسألة واحد وواحد يساوي اثنين.

- ومن أحكام العبادات وجوب الصلاة والصيام ونحو ذلك. ومسائل العبادة من لوازم الايمان بالله ومقتضاها لانها تنظيم لعلاقة الفرد بخالقه والوفاء بحقه هذا الخالق العظيم، والانسان لا ينفك عن صفة مخلوقيته لله في أي دهر من الدهور وفي أي زمن من الأزمان، وبالتالي لا ينفك عن وجوب أداء حقه الله عليه ولا

يستغني عن تنظيم علاقته بربه، والعبادات وسيلة لتزكية النفس وطهارتها وعشوها بمعاني الحق وتحليلتها من الكدورات وربطها بخالقها ودفعها إلى الخير ومنعها من الشر وقد أشار القرآن الكريم لبعض هذه المعاني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ. وَلَا تَنْسَى أَنَّ الْجَمْعَ سَيَكُونُ سَعِيدًا جِدًا إِذَا كَثُرَتْ فِيهِ النَّمَاذِجُ الْبَشَرِيَّةُ الَّتِي صَقَلَتْهَا عِبَادَاتُ الْإِسْلَامِ، وَسَيَكُنُّ فِيهِ الْخَيْرُ قَطْعًا وَيَقْلُ فِيهِ الشَّرُّ إِذَا لَمْ يَنْعَدَمْ، وَفِي ذَلِكَ كَلِمَةٌ تَحْقِيقٌ كَبِيرٌ لِصَلْحَةِ الْجَمَاعَةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَمَنْ تَمَّ فَأَعْطَاهُمُ الْعِبَادَاتَ لَا بَدَّ مِنْهَا فِي أَيِّ مَجْتَمَعٍ إِنْسَانِيٍّ وَبِالنِّسْبَةِ لِكُلِّ فِرْدٍ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ أَوْ فِي أَيِّ قَرْنٍ بَعْدَهُ.

وأحكام الاخلاق كوجوب الصدق والوفاء والامانة والالتزام بالظلمة والتعاون على البر، وعمرمة الكذب والغدر والخيانة والتعاون على الشر، والتحلل من المسؤولية، واستغلال النفوذ، والظلم، ونحو ذلك. أقول هذه الأحكام الاخلاقية بالوجوب والتحريم ضرورية لكل انسان ولكل مجتمع انساني يريد الصلاح والسداد. انه لا يغني عن الاخلاق أي تقدم في مجال الثقافة والعلوم، ان الازمة التي يمر بها العالم اليوم، والاضطراب في المجتمعات وسوء العلاقات بين الافراد مردها الى زعزعة القيم الاخلاقية في النفوس وتجاوزها فهي أزمة أخلاقية في جوهرها وأساسها. والشريعة في تأكيدها على الاخلاق لم تكن مسرفة في هذا التأكيد ولا مبالغة فيه لأنها أكدت على ما هو ضروري لاقامة قواعد الاصلاح على أساس متين ابتداء من النفس.. والاخلاق معان ثابتة يحتاجها الانسان السوي ولا يتصور ان يجي، يوم يقال فيه: إن الصدق والعدل والوفاء بالعهد وترك الظلم معان فاسدة عتيقة لم تعد صالحة لزماننا أو عصرنا اللهم الا اذا ارتد الانسان الى جاهلية جهلاء لم تصل اليها الجاهلية الاولى.. وسيأتي مزيد من التفصيل للاخلاق فيما بعد.

والأحكام التفصيلية الأخرى المتعلقة بالعاملات، أي بعلاقات الأفراد فيما بينهم، هي الأخرى صالحة للبقاء والعموم لان تفصيلها بني على أساس ان الحاجة اليها تبقى قائمة دائماً وأن غيرها لا يسد مسدها أبداً ولا يحقق مصلحة الناس على الوجه الذي تحققه.

فمن هذه الأحكام تنظيم الاسرة وكيفية الزواج وحق الحضانه والولاية والنسب والميراث والطلاق، والنفقة ونحو ذلك من شؤون الاسرة. وكل هذه الأحكام جاء على نحو صالح واف كاف لتحقيق الخير والصلاح للناس ولا يمكن الاستعاضة عنها بأحسن منها، فالنكاح جاء تنظيمه غاية في البساطة وغاليا من الشكليات والطقوس فيكفي فيه ايجاب من الرجل وقبول من المرأة بحضور شهود ورضى ولي المرأة صيانة لهذا العقد الشريف الكريم من الابتذال والحداع، ولا يشترط لصحة النكاح أن يكون على يد شخص معين أو في مكان معين أو بكيفية خاصة أو بلفظ معين أو بتراويل معينة، فهذه الكيفية البسيطة للنكاح تؤهل للبقاء والعموم ولا يتصور العقل غيرا منها.

وتشريع الطلاق هو الشهي، الطبيعي العقول اذ لا يصح اجبار شخصين على ابقاء الرابطة الزوجية بالرغم من قيام ما يدعو إلى انفصالها والى العقول أن تباع الفرقة بينهما ليذهب كل واحد إلى سبيله ويجرب عظمه في شركة أخرى وزوجية جديدة. ولهذا أباحت الدول الغربية الفرقة بين الزوجين بالرغم من تحريمه بزعمهم في الديانة النصرانية. ولا يقال لماذا اعطي للزوج حق الطلاق ومنعت منه المرأة، لاننا نقول ان للمرأة ان تشتترط لنفسها حق الطلاق في عقد الزواج اذا شاءت وهذا شرط معتبر، كما لها أن تطلب التفريق من المحكمة إذا مسها ضرر من الزوج لا يمكن تلافيه إلا بإيقاع الفرقة بينهما.

وتنظيم الميراث وتحديد انصبة الورثة جاء على شكل ممتاز لوحظ فيه مختلف الاعتبارات كقرب الوارث وعماجه وتفتيت الثروة وتوزيعها مما يجعل هذا التنظيم وما بني عليه من أسس واعتبارات صالحا لكل زمان ومكان. وتحريم الربا، وهو حكم يخص المعاملات المالية، حكم تفصيلي غير قابل للتبديل والنسخ، لان مفسد الربا واضرارها ذاتية فيه لا تنفك عنه ابدا ومن مظاهرها انحلال المجتمع وفساده واستساغته للظلم وفقدان

التعاون الاجتماعي بين أفرادها. وعلاج مثل هذا المجتمع الفاسد يكون باصلاحه جزئياً لا بترك فساده واعوجاجه وتشريع الأحكام الملائمة لهذا الفساد والاعوجاج.

والعقوبات في الشريعة جاءت مفصلة لعدد من الجرائم وهي الردة، والزني، والقذف، والسرقه، وقطع الطريق، وشرب الخمر، وقتل النفس. أما الجرائم الأخرى فقد تركت الشريعة تقدير عقوبتها الى القاضي وتسمى الجرائم التعزير، وعقوباتها تسمى عقوبات التعزير والعقوبات المقدره كلها غير صلاح وعدك ووقاية للمجتمع من الشرور والفساد ولا يستغني أي مجتمع فاضل عنها، لأنها بنيت على أساس العدالة وتحقيق الزهر الكافي للمجرم وحفظ مصلحة الفرد والمجتمع. فعقوبة الردة بنيت على اصلين (الاول) اخلاق المسلم بالتزامه بأحكام الإسلام (الثاني) درء المفسدة عن المجتمع. وبيان ذلك أن الفرد بإسلامه التزم بأحكام الإسلام وأصوله وعدم الخروج عليها أو هدمها، فإن فعل ذلك محلاً بالتزامه فينال جزاء هذا الاخلاق هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن في الردة وعلانها مفسدة للمجتمع واضراراً بها مع التعمد وسبق الاصرار، لأن المرتد ما كنا نعرفه لولا اعلان رده المتعمدة قاصداً من وراء ذلك تشكيلك الناس في عقائدهم واحداث الاضطراب فيما بينهم وزعزعة كيان الدولة التي اتخذت الإسلام أساساً لها في قيامها وبقائها وأهدافها.

فكان لا بد من عقوبة زاهرة لمنع هذا الفساد عن الناس وعن الدولة ذاتها التي اتخذت الإسلام أساساً لها كما قلنا وعقوبة الزني بنيت على أساس رعاية الاخلاق ومنع افسادها للفرد والاسرة والمجتمع كشيوع الامراض و اغتلاط الانساب وخراب البيوت والعزوف عن الزواج وما إلى ذلك والشريعة من أصولها وأهدافها العناية بالاخلاق ومنع الفساد عن الناس ولا شك ان المجتمع الفاضل يرحب بهذه العقوبة ولا يضيف بها ولا يجد فيها الا الخير والمصلحة وزهر المفسدين الذين يريدون التلهي والعبث بأعراض الغير.

وعقوبة السرقة وهي قطع اليد - هي العلاج الحاسم لقطع دابر هذا الاعتداء على أموال الغير، وإشاعة الطمأنينة في نفوس الناس. ان قطع يد واحدة ثمن قليل جدا لتحقيق طمأنينة المجتمع. ان قطع اليد الخائنة المجرمة كقطع اليد المتأكلة التي يقرر الطبيب وجوب قطعها لسلامة الجسد. ان عقوبة السجين للسارق ما ردعت وما قللت حوادث السرقة، ولكن عقوبة قطع اليد ردعت في الماضي المجرمين عن السرقات، ولا تزال هذه العقوبة قادرة على الرعب والزهر في الوقت الحاضر، وكون هذه العقوبة قديمة لا يقدر في صلاحها، فليس كل قديم فاسداً ولا كل جديد صالحاً لأن صلاح الشيء يستفاد من ذاته ومدى نفعه لا من جدته وقدمه.

وعقوبة القتل العمد في الشريعة الإسلامية هي القصاص أي قتل الجاني. والقصاص حق لاهل المجني عليه فلمهم ان يطلبوه ولا يسع المحكمة الامتناع عن اجاتهم، كما لهم أن يعفوا ويتصالحو مع القاتل على الدية. وفي حالة العفو أو المصالحة يجوز للمحكمة أن تعاقب القاتل عقوبة تعزيرية بالحبس أو الجلد، فهذا التنظيم لعقوبة القتل العمد تنظيم كامل لم يفلج جانب الطبيعة البشرية وما جبلت عليه من حب أخذ الثأر من الجاني وانزال القصاص العادل به، كما لم يفلج جانب المجتمع ومصلحته. فجميع العقوبات التفصيلية قامت على معان واوصاف ثابتة لا تتغير ومن ثم فهي صالحة لكل مجتمع فاضل يريد ان يعيش بأمان واطمئنان.

- أما عقوبات التعزير، وهي بالنسبة لجميع الجرائم التي لم تحدد الشريعة لها عقوبات، فالقاضي في تحديده العقوبة يلاحظ مدى جسامة ضررها بالمجتمع، وسوابق المجرم، وظروفه التي دفعته الى الاجرام، إلى غير ذلك من الأمور ويقرر بعد ذلك العقوبة المناسبة في ضوء قوله تعالى: { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا } ولا شك أن نظام التعزير نظام مرن في الشريعة يمكنها من مواجهة مختلف الحالات التي يلزم فيها العقاب، وبالتالي يكون صالحاً لكل زمان ومكان.

الدليل الثالث: مصادر الأحكام.

مصادر الأحكام الشرعية نوعان: (الأول) مصادر أصلية وهي الكتاب والسنة النبوية (الثاني) مصادر تبعية قامت على المصادر الأصلية كالأجماع والاجتهاد بأنواعه المختلفة كالقياس والاستحسان والمصلحة المرسل. وهذه المصادر كلها تجعل الشريعة الإسلامية في غاية القدرة والاستعداد والاهلية للبقاء والعموم، بحيث لا يحدث شيء جديد إلا وللشريعة حكم فيه، إما بالنص الصريح أو بلاجتهاد الصحيح، وبالتالي لا تضيف الشريعة بالوقائع الجديدة وبالتالي لا تضيف بمجاهات الناس ومصالحهم. ومن جميع ما تقدم من أدلة وبراهين يظهر لنا بفاية الموضوع ان الشريعة الإسلامية شريعة فيها كل مقومات العموم المكاني والزمني، ومن ثم فهي صالحة للجميع وفي جميع الازمان ، وهذا من فضل الله على بني الانسان¹.

عاجت البشرية ماسة إلى دين عالمي يوحد جميع البشر؛ وشترط في عالمية الدين أن يكون فيه خصائص: يكون صالحاً لكل جنس وكل زمان ومكان، وبدون ذلك لا يتحقق معنى العالمية في أي دين ومن الخصائص الضرورية فيه: تحقيق الأمن الذي يضمن وحدة الإنسانية وحمية البشر ويقوم شريعته على بُند العنصرية ولا يتناقض مع العلم ويكون شريعته كاملاً ومستقرّاً لا يحتاج إلى تطوير بل إلى اجتهاد، لا تؤثر فيه الأحداث والتطورات الحضارية فالإسلام حضارة قائمة بذاتها. ويكون فيه أرضية تضمن حرية منضبطة وأرضية تراعي مشاعر الناس وعالمية تصلح أنه لا يجرع مشاعر أحد من سيرك دينه ويتقي للإسلام فلا يحصل مع أحد ضياع. على سبيل المثال: سيجد اليهودي والنصراني مكانة خاصة لأنبيائهم كوسى وعيسى عليهم السلام في الإسلام وإيمانهم بكتبهم المقدسة الغير محرفة التي نزلت على موسى وعيسى وليس كما عندهم لا يؤمن اليهودي بالنصراني ويؤذيهم باتهام مريم عليها السلام بكلام بذي، وتجدهم أن كلاهما لا يؤمنون بحاتم النبیین محمد صلى الله عليه وسلم فمكانة موسى وعيسى في الإسلام ضمان للتفاهم والسلام ولكن كراهيتهم لأنبياء بعض ليست أرضية مناسبة لأن يكون أديانهم عالمية.

ومن تأمل في النصوص الشرعية من الكتاب والسنة وجدها غنية ببيان كون هذا الدين ديناً للعالمين إلى الناس جميعاً وهذا دليل واضح على أن خطباته وتوجيهاته تعم الناس كافة ولذا فقد أكد صلى الله عليه وسلم على أخوة الأنبياء جميعاً عليهم السلام ووعده من هاجمهم في هداية الخلق، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبيا، إخوانة لعالات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد."²

كما أكد صلى الله عليه وسلم على أنه جاء بالرسالة الخاتمة الهادية لجميع الناس، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فصلت على الأنبياء بسيت. وذكر منها: "وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة."³

¹ أصول الدعوة للدكتور عبدالكريم زيدان ص 68

² أفرهم أحمد 2/482 (70263)، صحيح البخاري (3443).

³ صحيح البخاري 438

وخلص القول: أن عالمية الإسلام ضرورة من ضرورات هذا الدين، ودليل أكد على تشريع القويم الصالح لكل زمان ومكان وهذه الشروط تمثل مجازيفها في الإسلام، فمجتمع الإسلام هو مجتمع البشرية كلها. فالدين الذي يصلح للبشرية كلها يجب أن يحوي الشريعة والعقيدة معاً، ويجب أن تكون العقيدة صحيحة وسليمة، والشريعة خيرةً وصالحةً؛ وما على المسلمين الآن إلا أن يفهموا معنى عالمية الإسلام لتثبيت أنفسهم وليُعرفوا غير المسلمين بهذه الحقائق وأن يسعوا لتبصير الناس بحقيقة أن الإسلام دينٌ ودولة، ومضارة عالمية، ويبيد إنقاذ البشرية من طريق الهلاك الذي تزدى فيه، حتى تغير تلك الصورة المشوهة التي أخذها الآخرون عن الإسلام حتى ظنوا أنه دين لا يصلح إلا لأهل البادية فقط، وأنه دين يعادي الحضارة والتقدم ويجافي الرقي والازدهار.

الخاصية الثالثة

الشمولية

أولاً: مفهوم شمولية المنهج الإسلامي وأصالته:

يقال اشتمل بثوبه: أداره على جسده كله حتى لا تخرج منه يده، وشمله احتواه، وتضمنه⁽¹⁾. فالشمولية هي الاحتواء والتضمين.

فالشمول: يعني أن الإسلام طريقة ومنهج حياة للفرد والأسرة والمجتمع والدولة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وشمولية رسالة الإسلام تعني: احتواء وتضمن رسالة الإسلام لكل ما يمكن أن يحتاجه الإنسان. فهي إحاطة أحكام الإسلام وتشريعاته بكل مجالات الحياة، قال تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] أي: "ما فرطنا في شيء بكم إليه حاجة إلا بيناه في الكتاب إما نصاً وإما مجملاً وإما دلالة"⁽²⁾.

وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢]. وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

قال ابن مسعود: "أنزل في القرآن كل علم، وبين لنا فيه كل شيء، ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن"⁽³⁾.

قال ابن جرير: "نزل عليك يا محمد هذا القرآن بيانا لكل ما بالناس إليه الحاجة من معرفة الحلال والحرام والثواب والعقاب"⁽⁴⁾.

وقال الشيخ ابن سعدي: "لما كان هذا القرآن ﴿تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل 189] صار حجة الله على العباد كلهم، فانقطعت به حجة الظالمين وانتفع به المسلمون فصار هدى لهم يهتدون به إلى أمر دينهم ودينهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة، فالهدى ما نالوه به من علم نافع وعمل صالح"⁽⁵⁾.

(1) ينظر: المعجم الوسيط 395/1، القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص 201.

(2) زاد المسير، ابن الجوزي، 34/3.

(3) جامع البيان 279/17، الإبانة لابن بطة 148/6 (424).

(4) جامع البيان 278/17.

(5) تيسير الكريم الرحمن ص 446.

فالقرآن الكريم فيه تبيان لكل شيء، حيث يقدم القواعد الكلية والخطوط الرئيسية والمرجعيات والمعايير الكلية للعيش في الحياة الدنيا، كما يتدخل في بعض التفاصيل ليقررها مباشرة لسبب ما في علم الله كما في آيات المواريث وآيات الدين.

والتشريع الإسلامي شاملاً لأمر، منها: تشريعات اجتماعية تضبط علاقات الأسرة والمجتمع، وهناك تشريعات مالية تضبط الاقتصاد ودورة المال وهناك تشريعات تعبدية توضح الشعائر والنسك، وهناك تشريعات جنائية توضح أحكام الحدود والقصاص، وهناك تشريعات مدنية كالميراث، وأخرى دولية في علاقات الدول والمعاهدات.

ثانياً: كلام لابن القيم حول شمولية الإسلام:

قال -: "فسبحان الله الذي جعل شريعته الكاملة قياماً للناس وغذاءً لحفظ حياتهم، ودواءً لدفع أدوائهم، وظله الظليل الذي من استظل به أمن من الحرور⁽¹⁾، وحصنه الحصين الذي من دخله نجا من الشرور. والحمد لله الذي نزه شريعته عن هذا التناقض والفساد، وجعلها كفيلاً وافية بمصالح خلقه في المعاش والمعاد.. هي شريعة مؤتلفة النظام، متعادلة الأقسام، مبرأة من كل نقص، مطهرة من كل دنس مسلمة لا شية⁽²⁾ فيها، مؤسسة على العدل والحكمة، والمصلحة والرحمة، قواعدها ومبانيها، إذا حرمت فساداً حرمت ما هو أولى منه أو نظيره، وإذا رعت صلاحاً رعت ما هو فوقه أو شبهه. فهي صراطه المستقيم الذي لا أمت فيه ولا عوج، وملته الحنيفية السمحة التي لا ضيق فيها ولا حرج، بل هي حنيفية التوحيد سمحة العمل، لم تأمر بشيء فيقول العقل لو نمت عنه لكان أوفق، ولم تنه عن شيء فيقول الحجا⁽³⁾ لو أباحت لكان أرفق، بل أمرت بكل صلاح، ونهت عن كل فساد، وأباحت كل طيب، وحرمت كل خبيث، فأوامرها غذاء ودواء، ونواهيها حمية وصيانة، وظاهرها زينة لباطنها، وباطنها أجمل من ظاهرها، شعارها الصدق، وقوامها الحق، وميزانها العدل، وحكمها الفصل"⁽⁴⁾.

ثالثاً: لماذا يخافون من شمولية الإسلام:

فشمولية المنهج الإسلامي ضد اختزال الدين في العقيدة والعبادة والأخلاق وصرفه عن المعاملات والأحكام والقوانين وتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم وطريقة الإدارة التي تعرف بالسياسة والحكم والتقنين والاقتصاد وغيرها..

ولولا فهم قوم شعيب ذلك ما حاربوه وعبأوا دعوته كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَسْعَيْبُ أَصَلَتْكَ تَأْمُرُكَ

(1) أي: الموضوع الذي اشتد فيه الحر. ينظر: المحكم والمحيط الأعظم 517/2.

(2) الشية: كلُّ لونٍ يخالفُ معظمَ لونِ الفرس وغيره. أي: ليس فيها عيب ولا علامة تشوه الشريعة وتسوئها، ينظر: مختار الصحاح ص 339.

(3) الحجا: العقل والفطنة. المحكم والمحيط الأعظم 459/3.

(4) إعلام الموقعين عن رب العالمين 162/3.

أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوِي أَنْتَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ [هود: ٨٧]

وقد فهم كفار قريش شمولية الإسلام فحاربوا محمداً ﷺ ورسالته، فقريش كانت تؤمن بالعلمانية التي تتيح حرية العقيدة والعبادة والأخلاق بشرط ألا تتدخل في المعاملات، فتركت الصابئين ومن هم على دين إبراهيم ' ومن آمن باليهودية والنصرانية دون حرب أو مواجهة رغم اختلافهم معهم في العقيدة والعبادة، كورقة بن نوفل وغيره، وقبلت من أبي بكر أن يتعبد الله داخل داره، وهذا ما يعبر عنه العلماء بتوحيد الربوبية الذي آمن به مشركو قريش، ورفضوا توحيد الألوهية قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت ٦١] (1).

نزل القرآن يدعو للتوحيد وإقامة حياة متكاملة تحكمها الشريعة الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين 1-3]، فالتصدي للتطفيف في الميزان في سورة مكية يدل على طبيعة هذا الدين وشمول منهجه للحياة الواقعية وشؤونها العلمية وإقامتها على الأساس الأخلاقي العميق الأصيل في طبيعة هذا المنهج الإلهي القويم.

فالسورة المكية عادة توجه اهتمامها إلى أصول العقيدة الكلية مع العناية بالتوجيهات الأخلاقية وربطها بأصول العقيدة. أما التصدي لمسألة بذاتها من مسائل الأخلاق - كمسألة التطفيف في الكيل والميزان - والمعاملات بصفة عامة، فأمر جاء في السورة المدنية لتنظيم حياة المجتمع في ظل مجتمع مسلم.

رابعاً: مجالات الشمول وأنواعه:

الإسلام لم يترك كبيرة ولا صغيرة في أي شأن من شؤون الحياة إلا ونظمه، وبمراجعة مرجعي الإسلام الرئيسيين القرآن الكريم والسنة المطهرة نجد أنهما ما تركا شيئاً إلا وتناولاه تفصيلاً أو إجمالاً، مع دعوة العلماء إلى الاجتهاد والقياس ورعاية المصالح، مما يسر للفقهاء أن يقعدوا قواعد الفقه العامة مع المرونة التي تستوعب كل حادثة في أي زمان ومكان فشرع الإسلام في العقيدة وفي العبادة وفي الأخلاق وفي السياسة وفي القضاء وفي الاقتصاد وفي الحرب وفي السلم وفي التربية وفي التعليم وفي الفن وأنشأ دولة وأقام أمة.

ففي العقيدة تحدث عن توحيد الله وأسمائه وصفاته والجنة والنار والحساب والحشر والميزان والشفاعة والملائكة والجن والموت والقبر والساعة وأشراتها وعلاماتها والبعث.

وفي العبادة تحدث بشمول عن العبادات وأنواعها وأحكامها من صلاة وصيام وزكاة وحج ونذر وطواف. وفي الأخلاق يجعل الأخلاق ثمة العقيدة السليمة والعبادة الصحيحة، ويدعو إليها بمحكم القرآن والذي لا يقبل نسخاً ولا تخصيصاً ولا تأويلاً، ويجعلها أزكى الأعمال في ميزان المؤمن يوم القيامة .

(1) مقال بعنوان الإسلام والحياة، د. علاء سعد حسن، منشور على موقعه رابطة أدباء الشام.

وفي السياسة تحدث عن الحكم بما أنزل الله وعن الشورى، وأوجب على الحاكم المساواة بين الرعية في الحكم والقضاء وفي التوزيع العادل للثروة.

وفي الاقتصاد بنى الإسلام منهجا اقتصاديا متكاملا كما بنى مناهج السياسة والأخلاق والتربية، فحرم الربا وأوجب الزكاة وشرع كتابة الدين وقنن المعاملات المالية كالشركات ونحوها ودفع إلى العمل وأوجب تنمية الثروة وحارب الفقر.

وفي الحرب حدد أهدافها وشرع وسائلها وعلم أخلاقها.

وفي العلاقات الخارجية بين كيفية التعامل مع الأعداء ومع غيرهم من المسلمين وحقوق كل فئة وكيفية التعاون المشترك ومبدأه.

ومن الشمولية: شمولية أنشطة الإنسان المختلفة، فتعرض الإسلام لنشاط الإنسان من حيث نموه وأطواره، ومن حيث تركيبه وتكوينه، وجنسه وبلده والعلاقة بين كل جنس وأهل بلد، ومن حيث مسؤولية كل إنسان الفردية والجماعية، وكل ما يتعلق بعمل الإنسان وكسبه وسعيه في الأرض.

فالإسلام هو العقيدة المثلى للفرد والجماعة، يهتم بالروح والجسد، والدنيا والآخرة، يراعي حال السلم والحرب ويضبط التعامل فيها، وينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

إن شمول العقيدة في توجيهاتها الفردية والاجتماعية هو السمة الخاصة في الإسلام، فتتعامل مع الإنسان بشمولية تقيه الانفصال والتباين.

ومن هنا فالواجب عدم تجزئة الإسلام والعمل على التعريف به عقيدة وعبادة وشريعة، فهو دين الله الكامل الشامل الذي ارتضاه للناس جميعا، ولا يقبل منهم غيره، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

دين شامل

شرع الله سبحانه وتعالى للأمة دينًا شاملاً في أحكامه وتشريعاته للثقلين من الجن والإنس، ولكل تصرفاتهم وعلاقاتهم، حيثما كانوا؛ فوق أي أرض وتحت كل سماء. يقول المولى جل وعلا: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ} [النحل: ٨٩]، فهو دين ودولة، وهو عقيدة وعبادة، وهو حكم وقضاء، وشريعة وقانون، ومصحف وسيف، وجهاد ودعوة، وسياسة واقتصاد، وعلم وخلقت وتوجيه.¹

وتنضح شمولية الإسلام في صور منها:

¹ الوجيز في الثقافة الإسلامية (٨٧).

1- أنه دين شامل للتقلين الجن والإنس فأما الإنس فظاهر في نصوص القرآن العظيم، يقول الله جل وعلا: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} (الأنبياء: ١٠٧). ويقول سبحانه: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}. [الأعراف: ١٥٨].

وأما الجن فيقول الله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦].

2- أنه دين شامل للزمان كله؛ من بعثة نبينا محمد إلى قيام الساعة.

3- دين شامل للمكان؛ فليس خاصاً بإقليم دون آخر، ولا بأمة دون أخرى؛ شمولية مكانية؛ يطالب بهذا الدين كلُّ البشر في أي مكان ومن أي أمة، ويتأكد بها أن المسلم مطالب بتنفيذ أحكام دين الله تعالى في كل مكان.

4- دين شامل للإنسان في مراحل حياته المختلفة، وفي علاقاته المتعددة، يوجهها إلى ما فيه صلاحه ورفعته وحفظه وهدايته.

5- دين شامل لحركة الكون والحياة، يراعيها في أحكامه وتشريعاته، فلا تنفك الأحكام الشرعية عن حركة الكون بأفلاكه وأجرامه، وليله ونهاره، وعمره وقمره، فهناك عبادات مرتبطة بحركة الشمس؛ كالصلوات الخمس والسحور والإفطار، وعبادات مرتبطة بدورة القمر؛ كالصيام والحج وغير ذلك، فإراعي ذلك في بيان مهمة الإنسان تجاهها ودوره نحوها، وتوجيهه إلى ما فيه عمارتها وصلاحها، فالكون والخلق كله لله سبحانه وتعالى: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ} ﴿٦﴾ [طه: ٦].

6- دين شامل في توجيه نظر الإنسان إلى الدنيا والآخرة فهما داران متكاملتان، للإنسان في كلٍّ منهما نصيب، فالدنيا مزرعة للآخرة، يزرع فيها ما يرغب جنينه في الآخرة. يقول الله جل وعلا: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ لَّكَ أَعْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}. [القصاص: ٧٧].

وبهذا يتأكد للمسلم أنه ما من شأن من شؤون ولا تصرف من تصرفاته إلا والله تعالى فيه حكم وقضاء، وأن دين الإسلام منهج حياة مهيمن على كل تصرفات الإنسان، فيردُّ بذلك على كل من يعترض على نظرة الإسلام الشمولية لشؤون الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية وغيرها؛ ممن يرددون مقالاتٍ مستوردة؛ كقولهم: «ما لله الله وما لقيصر لقيصر»، وقولهم: «لا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة»، ويقال لهم بأنَّ الله كلُّ أمر ونهي وتبدير وحكم وقضاء، {قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ}. [آل عمران: ١٥٤]، ويقول جل وعلا: {لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ} ﴿٤﴾ [الروم: ٤].

وقد أُنكر الإسلام أشدَّ الإنكار على من يأخذ من الدين ما يهوى، ويدع ما لا يوافق هواه، وينسى أن الإسلام كلُّ لا يتجزأ، يقول الله جل وعلا: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُؤْمِنُونَ أَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ أَلَّا يَكْفُرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا} ﴿١٥٠-١٥١﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

الشمول والثالثية

والثالثية في الإسلام تصف بالشمول، لأن الإسلام يريد من المسلم أن يبلغ الكمال المقدر له بتناسق وفي جميع شؤون، فلا يقبل على جانب واحد أو عدة جوانب ويبلغ فيها المستوى العالي من الكمال، بينما

يهمل الجوانب الأخرى حتى ينزك فيها إلى دون المستوى المطلوب، ان مثله مثل من يقوي يديه ويترك سائر أعضائه رخوة هزيلة ضعيفة. وعلى هذا الأساس فهم الصحابة الكرام مثالية الإسلام فلم تأسروهم عبادة ولم تقيدهم عادة، وإلم تقلبوا في جميع العبادات والأحوال وبلغوا فيها المستوى العالي من الكمال، فلم يجسوا نفوسهم في مكان ولا على نوع من العبادة ولا على سطح معين من الأعمال، وإلم باشروا الجميع، فعند الصلاة كانوا في المسجد يصلون، وفي حلقات العلم يجلسون معلمين أو متعلمين، وعند الجهاد يقاتلون، وعند الشدائد والمصائب يواسون ويساعدون، وهكذا كان شأنهم في جميع الأحوال.

الشمول

قلنا في بعض تعاريف الإسلام انه نظام شامل لجميع شؤون الحياة وسلوك الانسان. ان هذا الوصف للإسلام وصف حقيقي ثابت للإسلام لا يجوز تجريد منه الا بالافتراء عليه او بسبب الجهل به. وشمول الإسلام لهذا لشؤون الحياة وسلوك الانسان لا يقبل الاستثناء ولا التخصيص، فهو شمول تام بكل معاني كلمة الشمول، وهذا بخلاف المبادئ والنظم البشرية فان الواحد منها له دائرته الخاصة التي ينظم شؤونها، ولا شأن له فيما عدا ذلك. وعلى هذا فلا يمكن للمسلم ان يقول ان هذا المجال لي انظم أموري كما انشاء بمعزل عن تنظيم الإسلام، لا يمكن ان يقول المسلم هذا لان الإسلام يحكمه من يافوخه إلى اخصر قدميه وللإسلام في كل ما يصدر الانسان حكم خاص، كما له حكمه في كل ما يضعه في رأسه من أفكار وفي قلبه من ميول. وعلى هذا لا يجوز للمسلم ابدا أن يسمح لغير نظام الإسلام أن ينظم أي جانب من جوانب حياته لانه ان فعل ذلك دخل في نطاق معنى قول الله تعالى: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا غِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَسَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}.

وأحكام الإسلام الثابتة لأفعال الانسان وتصرفاته وعلاقاته مع غيره هي الوجوب والندب والتحریم والكراهة والاباحة والصحة والبطلان، والافعال التي تتعلق بها هذه الاحكام تسمى على التوالي الواجب والمندوب والمحرم والمكروه والمباح والصحيح والباطل.

وأحكام الإسلام بالنسبة لما تتعلق به تنقسم إلى الأقسام الآتية:

أولاً: أحكام العقيدة الإسلامية، وهي تتعلق بأمر العقيدة كالايمان بالله واليوم الآخر وهذه هي الامور الاعتقادية.

ثانياً: أحكام الاخلاق، وهي المتعلقة بما يجب أن يتحلى به المسلم، وما يجب أن يتخلى عنه كوجوب الصدق وحرمة الكذب .

ثالثاً: أحكام تتعلق بتنظيم علاقة الانسان بخالقه، كالصلاة والصيام وغيرها من العبادات .

رابعاً: أحكام تتعلق بتنظيم علاقات الافراد فيما بينهم وهذه على أنواع:

(أ) أحكام الاسرة من نكاح وطلاق وإرث ونفقة .. الخ وتسمى في الاصطلاح الحديث بأحكام الاسرة أو قانون الأحوال الشخصية .

(ب) أحكام تتعلق بعلاقات الافراد ومعاملاتهم كالبيع والاجارة والرهن والكفالة، وهي التي تسمى في الاصطلاح الحديث بأحكام المعاملات المالية أو بالقانون المدني .

(ج) أحكام تتعلق بالقضاء والدعوى واصول الحكم والشهادة واليمين واليمينات وهي تدخل فيما يسمى اليوم بقانون المرافعات .

- د) أحكام تتعلق بمعاملات الاجانب غير المسلمين عند دخولهم الى اقليم الدولة الإسلامية، والمقوت التي يتمتعون بها والتكاليف التي يلتزمون بها ، وهذه الاحكام تدخل فيما يسمى بالقانون الدولي الخاص .
- هـ) أحكام تتعلق بتنظيم علاقات الدولة الإسلامية بالدول الاخرى في السلم والحرب، وتدخل فيما يسمى اليوم بالقانون الدولي العام.
- و) أحكام تتعلق بنظام الحكم وقواعده ، وكيفية اختيار رئيس الدولة، وشكل الحكومة، وعلاقات الأفراد بها، وحقوقهم ازاءها، وهي تدخل فيما يسمى اليوم بالقانون الدستوري .
- ز) أحكام تتعلق بموارد الدولة الإسلامية ومصارفها ، وتنظيم العلاقات المالية بين الافراد والدولة، وبين الاغنياء والفقراء ، وهي تدخل في القانون المالي بمختلف فروع .
- ح) أحكام تتعلق بتحديد علاقة الفرد بالدولة من جهة الافعال المنهي عنها: "الجرائم ومقدار عقوبة كل جريمة" .. وهذه تدخل فيما يسمى اليوم بالقانون الجنائي ويلحق بهذه الاحكام الاجراءات التي تتبع في تحقيق الجرائم وانزال العقوبات بالمجرمين وكيفية تنفيذها ، وهي تدخل فيما يسمى اليوم بقانون تحقيق الجنايات أو بقانون المرافعات الجزائية.

مقارنة بين شمول الشريعة وشمول القوانين الوضعية

وواضح مما قدمناه ان الشريعة في شمولها تختلف مع جميع القوانين الوضعية، لان شمولها كامل تام بكل معنى الكلمة، فما من حدث ولا عمل يصدر عن الانسان ، ولا علاقة تقوم بينه وبين غيره الا وللشريعة حكم فيها . فأمور العقيدة والاخلاق والعبادات تدخل في نطاق شمول الشريعة ولا تدخل في نطاق تنظيم القوانين الوضعية . وحتى في نطاق العلاقات البشرية التي تنظمها القوانين الوضعية فإن الشريعة تختلف اختلافاً بيناً مع القوانين الوضعية في هذا المجال من ناحيتين (الأولى) ناحية مراعاة الاخلاق (الثانية) من ناحية الحل والحرم.

الناحية الاولى - مراعاة المعاني الاخلاقية - فالشريعة الإسلامية راعت جانبها كل الرعاية وسمحت لها بالتسرب الى القواعد القانونية والامتراج بها واقامة الاحكام التنظيمية عليها . وهذا بخلاف القوانين الوضعية حيث انها لا تراعي المعاني الاخلاقية، بل ان الاصل فيها هو الفصل بين القواعد الاخلاقية والقواعد القانونية فالفرد والحيانة وعدم الالتزام بالكلمة معاني زمنية في ميزان الاخلاق ومن ثم لا تجوز ولا تباع في جميع العلاقات التي تنظمها الشريعة الإسلامية والاحكام التي تقرها سواء أكانت هذه العلاقات بين فرد وفرد أو بين دولة ودولة ونكتفي هنا بضرب مثال واحد فقط ليظهر لنا مدى تمسك التشريع الإسلامي بالمعاني الاخلاقية في أدق العلاقات وأخطرها ولو ترتب على هذا التمسك تضحيات جسيمة. يقرر الفقهاء المسلمون ان الاجنبي (غير المسلم) اذا دخل اقليم الدولة الإسلامية بأمان ولمدة معينة لا يجوز تسليمه الى دولته اذا طلبته خلال هذه المدة ولو على سبيل المفاداة بأسير مسلم عندها، ويبقى المنع من تسليمه قائماً حتى لو هددت دولته الدولة الإسلامية باعلان الحرب عليها اذا لم تسلمها اياه ويعلل الفقهاء هذا الحكم بان الاجنبي دخل اقليم الدولة الإسلامية بأمان منها فعلى الدولة الإسلامية ان تفي بعهدتها له فيبقى آمناً لا يحسسه سوء، وتسليمه بدون رضاه غدر منها بعهدتها له لا رخصة فيه فلا يجوز في شرع الإسلام. ويبقى المنع من تسليمه وعدم الحاق أي ضرر به حتى لو قتلت دولته جميع رعايا الدولة الإسلامية المقيمين في أرضها لان فعلها ظلم ولا مقابلة بالظلم، هكذا يقول الفقهاء ، فأني مستوى رفيع بلغه التشريع الإسلامي في التزامه بالمعاني الاخلاقية في أدق الظروف واحرج الاوقات مما لا نجد له نظيراً ابداً في أي تشريع وضعي آخر لا في القديم ولا في

الجديد، ولا عجب من ذلك فالشريعة الإسلامية من عند الله، وما يأتي من الله هو الحق الخالص والعدل الخالص.

الناعية الثانية - جهة الحل والحرمة في الفعل نفسه فان الفعل قد يكون صحيحا في ظاهره لاستيفائه شروط الصحة المطلوبة ولكنه يعتبر حراما لمخالفة حقيقته الباطنة او قصد صاحبه لما يأمر به الإسلام ان هذه الصفة للشئ في الحل والحرمة تبقى لاصقة بالفعل وان صدر بها حكم قضائي يقضي بخلاف ذلك الذي يدعي ديناً على آخر ظلماً ويثبت ذلك امام المحكمة، فإن حكم المحكمة انه محقق في مطالبته أو يستحق الدين من صاحبه، بل يبقى الامر عند الله تعالى على حقيقته وهو ان هذا المدعي ارتكب حراما وأكل سمنا وهذا لا يجوز في شرع الله ولا ينفعه حكم الحاكم بما ادعى لنفسه ظلماً، لان الحاكم يحكم بحسب الظاهر والله يتولى السرائر، ولان مناط الثواب والعقاب في الآخرة على عقايق الافعال ونيات الانسان، وما ارتكبه من حلال أو حرام. والاصل في تعلق الحقوق وثبوت الآثار الشرعية على حقيقة الفعل وكونه حلالاً جائزاً ظاهراً وباطناً، ولكن لما كان الباطن أمراً خفياً يعجز الانسان عن ادراكه أو يتعذر عليه ولاجل استقرار الامور ومهريات الاحكام على أسس ثابتة وقواعد مضبوطة، فقد اعتبرت الشريعة الإسلامية الظاهر وجعلت صحته ومطابقتها لمطلوبات الشريعة قرينة على صحة الباطن وحله ومناط لتعلق الحقوق وثبوت الآثار. ولكن الشئ، أو الفعل يبقى بالرغم من ذلك موصوفاً بالحل والحرمة بناء على حقيقته الباطنة، وما يترتب على هذا الوصف من جواز الاقدام عليه أو تحريره وما يتبع ذلك من ثواب أو عقاب، لان الحكم بحسب الظاهر لا يقلب الحلال حراماً ولا الحرام حلالاً، وبالتالي لا يحل للمسلم لنفسه فعل الحرام أو أكله وان أباغ له ذلك القضاء. يدل على ما قلناه قول النبي الله: " إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّمُ تَخْصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَن يَكُونَ الْآخِرَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأُقْضَىٰ عَلَيْهِ عَلَىٰ نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لِمِنْ حَقِّ أَهْبِهِ شَيْئًا، فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْضُ لِمَنْ قَطَعَتْهُ مِنَ النَّارِ." ولهذا اذا ظهر الباطن ظهوراً كافياً وتكشفت حقيقته فالعبرة به لا بالظاهر.

ان أهمية ما بيناه تظهر في حفظ حقوق الناس وكف بعضهم عن بعض عن الاعتداء، ذلك ان المسلم يعلم بان اقدامه على الحرام أو الاعتداء أو هضم حقوق الغير لا يفيد ولا يخلصه من المسؤولية وان استطاع في الدنيا التخلص من المسؤولية أو التهرب من القانون أو التحايل على القضاء، أو اخفاء حقيقة نفسه وفعله، ان هذه الامور لا تحفي على الله أبداً وسيحاسب عليها عند مثوله أمام المحكمة الإلهية الرهيبية في الآخرة، وعلى هذا الأساس فان المسلم لا يقدم على شئ، إلا إذا كان حلالاً ولا يطالب بشئ، إلا إذا كان له وان استطاع المطالبة بما ليس له، ولا يرتكب ما لا يحل له وان استطاع اخفاء ذلك عن القضاء، وبهذا تحفظ الحقوق ويأمن الناس عليها وتقل الحشومات والنازعات، ويقل عدد المراجعين للمحاكم، وفي هذا كله أعظم ضمانات لمسن تنظيم علاقات الافراد فيما بينهم وعدم ضياع الحقوق على اصحابها. وهذا مما لا يوجد في القوانين الوضعية، فإن المسألة عندها تنتهي بثنائها صدور القرار من المحكمة ولا شئ بعد هذا، از لا سلطان للقوانين الوضعية على أمور الآخرة وليس فيها المعاني التي ذكرناها.²

¹ صحيح البخاري 7769

² أصول الدعوة للدكتور عبدالكريم زيدان ص 56

الخاصية الرابعة

التكامل

من خصائص الإسلام التكامل في المنهج الإسلامي، أي: أن كل أمر أو توجيه فيه يتكامل مع أمر وتوجيه آخر، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. يقال: تكاملت الأشياء: كَمَلَّ بعضها بعضاً بحيث لم تحتج إلى ما يكملها من خارجها⁽¹⁾.

وتتضح هذه الخاصية في أمرين:

الأول: التكامل في العبادة والتشريع:

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٢ - ٤].

إن الصفة الأولى للمتقين الإيجابية، فيجتمع فيهم الإيمان بالغيب، والقيام بالفرائض، والإيمان بالرسول كافة، واليقين بعد ذلك بالآخرة، وهذا هو الكمال الذي تمتاز به العقيدة الإسلامية، والنفوس المؤمنة بهذه العقيدة، ولهذا كانت هذه العقيدة جدير بأن تكون عالمية وخاتمة ومهيمنة، وليعيش الناس في ظلها بمنهج حياة متكامل، وشامل للشعور والعمل، والإيمان والنظام.

وقد شرع الله تعالى مجموعة من العبادات الأساسية التي لا بد لكل مسلم القيام بها، ولا يجوز لأحد أن يقوم بها مقام غيره مثل عبادة الصلاة والزكاة الواجبة والصوم، أما الحج فإنه يجوز أن ينوب أحد عن أحد في أدائها متى تعذر ذلك لمرض لا يرجى برؤه أو موت.

وهناك عبادات يمكن أن يقوم بها أناس نيابة عن إخوانهم، وهو ما يعبر عنه الفقهاء بالواجب الكفائي إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين، كصلاة العيدين والكسوف والخسوف فهذا من مظاهر التكامل الذي يرفع الله به الحرج عن الأمة.

ومن جانب آخر: وهو أن من الصعب بل من المستحيل أن يتم فصل الدين عن الدنيا أو التشريع عن التنفيذ أو الإيمان عن الحياة في النظام الإسلامي، فلقد جعل الإسلام تشريعاته متداخلة متكاملة يؤدي بعضها إلى بعض بحيث لا يمكن اجتزاء الدين، ولو حدث لكان الهلاك والضياع.

ومن أمثلة ذلك فريضة الزكاة: فهي عبادة مالية، وقد تحتاج إلى جهاز إداري ونظام محاسبي يحدد ممن تجبي منه ولمن تعطى، وفي هذا يقول تعالى: ﴿حُذِّمْنَ أَمْوَالُهُمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: من الآية 103] فواجب

على الحكام جمعها وتوظيف من يقوم على جمعها والإشراف على صرفها حتى لو احتاج الحاكم لتفريغ من يقوم بذلك فإن له أن يعطيه من الزكاة فمن مصارف الزكاة ﴿وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٦٠].

وكذلك حث الإسلام على الزواج والاستعفاف فقال: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، فوضع شروطاً لهذا الزواج ابتداءً كالولي والشهود، ووضع شروطاً لاستمرار الحياة هائلة مطمئنة بقوله: ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ثانياً: التكامل في تلبية احتياجات الأمة:

ويتضح هذا الأمر في موضوع طلب العلم والجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. فقد أمر الله تعالى بتخصيص قوم لطلب العلم: قال ابن عاشور: أي "أنه كما كان النفر للغزو واجباً لأن في تركه إضاعة مصلحة الأمة؛ كذلك كان تركه من طائفة من المسلمين واجباً لأن في ذهاب جميع المسلمين للغزو إضاعة مصلحة للأمة أيضاً، فأفاد مجموع الكلام أن النفر للغزو واجب على الكفاية، أي على طائفة كافية لتحصيل المقصد الشرعي منه، وأن تركه متعين على طائفة كافية منهم لتحصيل المقصد الشرعي مما أمروا بالاشتغال به من العلم في وقت اشتغال الطائفة الأخرى بالغزو.. ولذلك كانت هذه الآية أصلاً في وجوب طلب العلم على طائفة عظيمة من المسلمين وجوباً على الكفاية"⁽¹⁾.

فالأمة المسلمة تتكامل فيكون منها طالب العلم ويكون منها المجاهد، فينفر لطلب العلم الشرعي طائفة وطلب العلوم الأخرى التي تقيم الحياة طائفة أخرى، فلا بد من وجود الطبيب المسلم والطبيبة المسلمة والمهندس المسلم والمترجم المسلم..

ويظهر التكامل جلياً كذلك في توظيف الطاقات وتوزيعها ليكمل كل مسلم أخاه في تحقيق الخلافة في الأرض، فهذا رسول الله ﷺ يوزع الجهود للتكامل الأمة فيقول: ((أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي بن أبي طالب، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأعلمهم بالحلل والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، ألا وإن لكل أمة أميناً، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح))⁽²⁾. وبذلك تتكامل الأمة فلا يطلب من كل مسلم أن يكون فيه كل تلك الصفات والمهارات ولكن لا بد من التخصص لتحقيق التكامل لتلبية احتياجات الأمة.

(1) التحرير والتنوير 60/11-61.

(2) سنن ابن ماجه، افتتاحية الكتاب، باب فضل زيد (154)، مسند أحمد 281/3 (14022)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (1224).

الخاصية الخامسة

الواقعية

أولاً: مفهوم الواقعية في الإسلام ومخالفة الأديان الأخرى لذلك:

الإسلام بما أنه شامل وعالمي فإنه يراعي واقع الحياة التي يعيش فيها الإنسان، فالشرائع التي في الإسلام ملائمة لفطرة الإنسان وواقعه وحياته، ولهذا فهي الشريعة القادرة على إسعاد البشرية كلها، "فطرة الإسلام للإنسان تقوم على مبدأ الواقعية فلا إغراق في المثالية، ولا سقوط في المادية، ولا إنكار لحاجات الإنسان وغرائزه، ولا إفراط في المتع واللذائذ الشهوانية"⁽¹⁾.

فعلمية الرسالة تلزم أن يكون الإسلام واقعياً صالحاً لكل زمان ومكان من خلال التلقي والعمل، وكلُّ تشريع لا يخاطب واقع الناس فمحكوم عليه بالفشل.

لقد جاءت النصرانية بالرهينة فخالفت فطرة الإنسان، فكان نتاجها شذوذاً واغتصاباً للأطفال وحالات حمل من سفاح بين الراهبات تدل عليها بعض التقارير⁽²⁾.

وجاءت الشيوعية معتبرة الإنسان ترسا في آلة يعمل للجميع ولا يعود عليه عمله، فخالفت فطرة الإنسان فكان نتاجها سقوطاً مدوياً وتحلفاً كبيراً.

واعترفت قيم الغرب الإنسان حيواناً ناطقاً، فأطلقت العنان للشهوات دون قيد ورقيب، فكان الانهيار الأخلاقي والمجتمعي.

والإسلام جاء ليشرع للإنسان تشريعات تخص روحه وجسده، غرائزه وأخلاقه، عواطفه وانفعالاته؛ جاء الإسلام ليخرج كوامن الخير في الإنسان ويضبط نوازع الشر.. جاء الإسلام ليخاطب الإنسان كما خلقه اللطيف الخبير، فكان مصلحاً له وصالحاً في كل زمان ومكان⁽³⁾.

ثانياً: مظاهر تطبيق الإسلام للواقعية⁽⁴⁾:

ولأنه تشريع كل زمان ومكان، فقد وضع أساس الكليات ولم يتعرض للتفصيلات، وحدد الثوابت وترك المتغيرات. فالكليات في التشريع هي مقاصده، وهي حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال والتفصيلات حول كيفية التنفيذ ووسائل التطبيق.

وحدد ثوابت لا تتغير فالصدق فضيلة والكذب رذيلة لا يتغير هذا على مدار الزمن، ومهما تباعدت العصور، والزنا فاحشة وساء سبيلاً؛ يعاقب فاعله ويثاب تاركه.

(1) معالم في أصول الدعوة ص 173

(2) ينظر على سبيل المثال تقرير: الاعتداءات الجنسية على الراهبات في الكنائس، منشور على موقع طريق الإسلام.

(3) ينظر: خصائص المنهج الإسلامي، د. أمير بسام، مقال منشور على موقع نافذة مصر.

(4) بعض أفكار هذه النقطة من مقال بعنوان: من معالم دين الواقعية- منشور على موقع التوحيد والاصلاح.

الشواهد على الواقعية في التشريع الإسلامي ومنها: تشريع الرخص حال الاضطرار أو الاحتياج، وتشريع التوبة من الذنوب وتشريع الكفارات لبعض المخالفات التماساً للسلامة من تبعاتها وإشاعة للبر والخير والإحسان، وتشريع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراتبه وأحواله من حيث الوجوب والاستحباب والجواز والحرمة، واعتبار الزمان والمكان في التربية والتعليم والأمر والنهي والفتوى، مع تشريع المرحلية في الدعوة والتغيير والإصلاح والإنكار.

والإسلام أقر **التفاوت الفطري والعملي** بين الناس، فليس كل الناس في درجة واحدة من حيث قوة الإيمان والالتزام بما أمر الله به من أوامر، والانتهاز عما نهى عنه من نواه والتقييد بالمثل العليا.

وتتجلى الواقعية في **العبادات** من حيث مراعاتها لظروف الإنسان وطاقاته ومشاغله، قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَنَّابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاخَرُونَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: 18].

كما روعيت فيها **الطبيعة النفسية للإنسان** وما يعتريه به من ملل فوزعت على الزمن، فكان بعضها سنوياً، وبعضها مرة في العمر، وبعضها شرع عدة مرات في اليوم، كما كان بعضها بدنياً، وبعضها مالياً، والبعض الآخر يجمع بين الأمرين.

ومن مظاهر الواقعية في **التحليل والتحریم** أن الشريعة لم تحرم إلا ما فيه ضرر على الإنسان، وأحلت ما فيه له منفعة، قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ [الأعراف: 157]، وقدرت الضرورات التي تعرض على الإنسان فرخصت له تناول المحرمات عند الاضطرار: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: 119].

ومن واقعية الشريعة في **المجال الاجتماعي والاقتصادي**، أنها اعترفت بالدافع الفطري الواقعي في نفس الإنسان: واقع حب التملك فأقرت مبدأ الملكية الفردية وما يترتب عليه من حق التصرف في الملك وحق الإرث له، ولكنها لم تنس واقعاً آخر هو مصلحة المجتمع وحقوقه وحاجات الفئات الضعيفة من أبنائه، فلهاذا قيدت هذه الملكية بقيود في اكتساب المال، وفي تنميته، وفي الاستمتاع به، وفي التصرف فيه، وأوجبت فيه حقوقاً لله وللناس.

ومن واقعية الشريعة الإسلامية في **تشريعات الزواج والأسرة**، أنها راعت قوة الدوافع الجنسية لدى الإنسان، وذلك بشرعية "نظام الزواج"، دون أن يعني ذلك إطلاق هذا الدافع الفطري من أي ضوابط محققة لمقاصده، ولكن كان تشريعه بطريقة ترفع الإنسان عن الحيوان بما يليق بكرامته وخلافته في الأرض.

وكون الإسلام يتعامل بواقعية مع الإنسان، لا يعني موافقته في كل رغباته وتطلعاته، بل يريد أن يسمو به إلى درجات من التكامل والانسجام مع طبيعة الفطرة التي فطر عليها من غير تأثير أو تغيير.

ثالثاً: نماذج عملية للواقعية في الإسلام:

ومن النماذج التي تدل على واقعية الإسلام:

1- الأمر بصلاة الجمعة والانتشار بعدها لطلب فضل الله:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ٩ - ١٠].

"إنها دعوة إلى العمل وإلى السعي إليه، كما سعى المؤمنون إلى الصلاة . فالسعي إلى العمل أداء لحق النفس، وحق الأهل والولد، كما أن السعي إلى الصلاة أداء لحق الله . وكلا الحقين واجب الأداء، فمن قصر في أحدهما حوسب عليه حساب المقصرين .

ودعوة إلى أن يملأ المسلمون وجوه الأرض سعياً وعملاً، وأن يأخذوا بكل ما يمكن لهم منها، ويقيم لهم فيها المقام الكريم، وألا يقصروا جهدهم على جانب منها، أو في ميدان من ميادينها، بل ينبغي أن يكون لهم في كل ميدان مجال، وفي كل موقع عمل"⁽¹⁾.

2- الرخصة في ابتغاء فضل الله في الحج:

يقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ [البقرة: ١٩٨].

عن ابن عباس f، قال: "كانت عكاظ ومجنة، وذو الحجاز أسواق الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في المواسم فنزلت:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ في مواسم الحج⁽²⁾.

يقول الشيخ ابن سعدي -: "أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب في مواسم الحج وغيره، ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالاً منسوباً إلى فضل الله، لا منسوباً إلى حذق العبد، والوقوف مع السبب، ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه"⁽³⁾.

فقد بين الله تعالى إباحة البيع والشراء في الحج، وسماه القرآن ابتغاء من فضل الله ليشعر من يفعل هذا أنه ينتغي من فضل الله حين يتجر وحين يعمل بأجر وحين يطلب أسباب الرزق، إنه لا يرزق نفسه بعمله. إنما هو يطلب من فضل الله، فيعطيه الله.

(1) التفسير القرآني للقرآن - لعبدالكريم الخطيب 952/14-953.

(2) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: { ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم } [البقرة: ١٩٨] برقم (4519).

(3) تيسير الكريم الرحمن ص92.

ومتى استقر هذا الإيمان في قلب المسلم، وهو ينتغي الرزق، فهو إذن في عبادة الله، لا تتنافى مع عبادة الحج، ومتى تعمقت هذه المشاعر في قلب المؤمن انطلق يعمل وينشط كما يشاء.. فكل حركة منه عبادة في هذا المقام يحسبها عند الله.

الواقعية في الإسلام...

والإسلام لا يفعل طبيعة الانسان وتفاوت الناس في مدى استعدادهم لبلوغ المستوى الرفيع الذي يرسمه، وفي ضوء هذا النظر الواقعي جعل الإسلام عدا أدنى أو مستوى أدنى من الكمال لا يجوز الهبوط عنه لأن هذا المستوى ضروري لتكوين شخصية المسلم على نحو معقول ولأنه أقل ما يمكن قبوله من المسلم ليكون في عداد المسلمين ولأنه وضع على نحو يستطيع بلوغه أقل الناس قدرة على الارتفاع إلى مستوى الكمال. إن هذا المستوى الأدنى يتكون من جملة معاني يجب القيام بها وهي المسماة بالفرائض، كما يشمل جملة معان يجب تهرها وهي المسماة بالمحرمات. إن هذه الفرائض والمحرمات جعلت بقدر طاقة أقل الناس استعداداً لفعل الخير وابتعاداً عن الشر ومن ثم يستطيع كل واحد الوفاء بمقتضاها ولا يعذر في التخلف عنها. ولكن بجانب هذا المستوى الإلزامي الواجب بلوغه على كل مسلم، وضعت الشريعة مستوى آخر أرفع وأوسع منه وعبئت إلى الناس بلوغ هذا المستوى العالي فإلزامهم به إرهات لهم وخرج شديد، والمخرج في شرع الإسلام مرفوع لأنه يخالف نظرة الإسلام الواقعية قال تعالى: { وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } { لَا يُكْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا }... وهذا المستوى العالي يشمل الندوبات التي ترغب الشريعة في القيام بها، والمكروهات التي ترغب الشريعة في ترك المسلم لها. وهذان المستويان الأدنى والأعلى موجودان في تشريعات الإسلام، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

أولاً: الصلاة منها ما هو فرض، ومنها ما هو مندوب، فالأول يدخل في معاني المستوى الأدنى، والثاني يدخل في معاني المستوى الأعلى وفيه جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من عبد مسلم يصلي لله تعالى في كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعاً غير فريضة إلا بنى الله تعالى له بيتاً في الجنة".¹ ثانياً: الصيام: الفرض منه صيام شهر رمضان، وهذا من معاني الحد الأدنى المطلوب، وصيام ست من شوال، وأيام البيض من كل شهر، وصوم الاثنين والخميس من معاني المستوى الأعلى. ثالثاً: الحج: فرضه مرة في العمر، وما زاد فتطوع وهو من معاني المستوى الأعلى.

رابعاً: وفي انفاق المال في سبيل الله فريضة الزكاة، قال تعالى: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وفي صدقة التطوع يقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نَفْسُكُمْ وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نَفْسُكُمْ وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نَفْسُكُمْ وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نَفْسُكُمْ﴾ [البقرة: 272]. خامساً: وفي القتل العمد شرع القصاص قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى (فلاهل القتل المطالبة به، وهذا حقهم، ولا تريب عليهم فيه، ولكن الإسلام ندب إلى العفو، وهو من معاني المستوى الأعلى، وفيه قال تعالى في نفس الآية: فَمَنْ عَفِيَ لهُ مِنْ أَهْلِهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ).

سادساً: وفي الاعتداء بصورة عامة تجوز العقاب بالمثل، والعفو والصبر أفضل، وهما من معاني المستوى الأعلى، قال تعالى: { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۗ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } [النحل: 726].

¹ أخرجه مسلم (728) أخرجه الترمذي (415)، والنسائي (1802) باختلاف يسير.

سابعاً: وفي البيوع والأشربة عيب الإسلام للمسلم أن يكون سهلاً في بيعه وشرائه ومقاضاته ، وهذه كلها من معاني المستوى الاعلى قال رسول الله : (رعم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى .
ثامناً: الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . فرض كفاي يجب وجوده في الامم، يتسع ويسوغ تركه باليد واللسان والاكتفاء بانكار القلب بالنسبة لحاكم ظالم طاغية لا صدره لسماع النصيحة وقتل من يأمره أو ينهيه ، ولكن من الندوب إليه قيام المسلم بأمره ونهيه وان أدى ذلك إلى قتله، وهذا من معاني المستوى الأعلى يدل على ذلك الحديث الشريف: "سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْرَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ، فَقَتَلَهُ." ولا يعترض علينا هنا بان القاء الانسان نفسه في التهلكة لا يجوز، وهذه تهلكة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ لَأُنَّا نَقُولُ: إِنَّ الِاسْتِشْهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَكْرَمَةٌ لَا تَهْلِكُ، وَانَّ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد أو باللسان ضرب من ضروب الجهاد المشروع، لما يترتب عليه من تقوية نفوس المحقين وخذلان المبطلين وإيقاف الظالمين عند حدهم.

تاسعاً: والكلام بالباطل حرام يجب تركه، والترك هنا من معاني المستوى الادنى ، والثرثرة وكثرة الكلام بما لا يفيد ولا ينفع مكروه وان لم يكن فيه باطل، جاء في الحديث: "إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ كَثْرَةَ كَلِمَاتِكُمْ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ."² فالكلام الكثير بما لا ينفع مكروه تركه افضل وهذا من معاني المستوى الأعلى.
عاشراً: والاكراه على الكفر بالتهديد بالقتل يسوغ للمكروه أن يقول كلمة الكفر بشرط اطمئنان القلب بالايمان رخصة من رخص الإسلام وهي من معاني الحد الأدنى قال تعالى: {إِلَّا مَنْ أَكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} النحل: 106، والندوب اليه عدم قوله الكفر وان أدى ذلك إلى قتله وهذا من معاني المستوى الأعلى. ولا تقف واقعية الإسلام عند الحد الذي ذكرناه وهو وضع مستويين للكفالات، أدنى وأعلى، واطمئنان رخصة واقعية الإسلام في أمر آخر هو ايجاد الخارج المشروعة للمسلم في أوقات الشدة والضيق، وعدم الزامه بما كان لازماً له أو واجباً عليه، أو محرماً عليه في الاوقات العادية، وعلى هذا الاساس جاءت الرخص كلها وجاءت القاعدة الفقهية (الضرورات تبيح المحظورات) لأن النفوس قد لا تقوى على الاستقرار بما يريد الإسلام في الظروف القاسية والأحوال الاضطرارية فتقع في العصية فففت الإسلام عنها بما شرعه من رخص ومنها اباحة أكل الميتة عند الجوع الشديد الذي يخاف فيه تلف النفس، واباحة ترك الواجب مثل الفطر في رمضان للمريض والمسافر، واباحة الصلاة للمريض وهو قاعد اذا كان لا يقوى على الوقوف .
وبهذه المثالية والواقعية في الإسلام يستطيع المسلم ان يحقق لنفسه الكفالات المقدور له بيسر وبما يوافق الفطرة دون ارهاق ولا هرج ولا انفraz عن الحياة وأهلها.³

والمثالية الواقعية تحققت ذلك كله في رسول الله ﷺ ولذلك أمرنا الله تعالى بالتأسي به: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة}

وقوام هذه المثالية الاعتدال والشمول

ونقصه بالاعتدال عدم الافراط والتفريط في أي شيء، واعطاء كل ذي حق حقه. يدل على ذلك قول الله تعالى: وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا {الفرقان - 67، وقال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا.} [سورة الإسراء: 29]

¹ صحيح الترغيب 2308، أخرجه ابن عثان في ((المجموعين)) (186/1)، والحاكم (4884)

² صحيح البخاري 1477.

³ أصول الدعوة للدكتور عبدالكريم زيدان ص 76

والاعتدال مطلوب حتى في العبادات فلا ينبغي للمسلم أن يرهق نفسه أو يؤذي جسده، يدل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه، قال: جاء ثلاثه رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟! قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصايح الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصايح وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني^١.

وتعذيب الجسد وتحمله ما لا يطيق ليس من مناهج الإسلام ووسائله لبلوغ الكمال المنشود، إذ ليس من لوازم هذا الكمال أو مقتضياته فعل ذلك، ولا من مقاصد الإسلام تعذيب الجسد لا قصد الغايات ولا قصد الوسائل، ومن ظن ذلك فهو واهم فان مثالية الإسلام يمكن بلوغها بنهج معتدل وسير مرع، وان الخروج عن هذا النهج يضعف الجسد ويقعد به عن أداء الفرائض فضلاً عن النوافل، ومن خرج عن هذا النهج وجب رده اليه، جاء في الحديث ان رسول الله ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس فسأل عنه فقالوا: يا رسول الله انه نذر ان يقوم في الشمس ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم. فقال عليه الصلاة والسلام: "مره فليتكلم وليقعد وليتم صومه." فالصوم مطلوب، ولكن الوقوف في الشمس حيث يمكن الوقوف في الظل غير مطلوب ولا معنى فيه، وكذلك الصمت الدائم طيلة النهار لا داعي له ولا فائدة فيه. وسر المسألة ان الجسد مركب الروح وليس من الحكمة فرق المركب أو اضعافه والجسد مستقر الروح ومسكنها وليس من المصلحة تحريمه ولا من الكمال المنشود هضمه حق، وان الروح هي الاخرى لها حق في الراحة والاستجمام لا يجوز التضريط فيه، جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري عن أنس رضي الله عنه دخل النبي صلى الله عليه وسلم فإذا جبلٌ مندودٌ بين السارين، فقال: ما هذا الجبل؟ قالوا: هذا جبلٌ لزيثب، فإذا قترت تعلقت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا، هلثوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا قتر فليقعده^٢. صحیح البخاري

1150.

وفي وصية رسول الله ﷺ لعثمان بن مظعون: تقول عائشة رضي الله عنها «أن عثمان بن مظعون أراد التبتل، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أترغب عن سنتي؟ قال: لا والله، ولكن سئلك أريد. قال: فإني أنام وأصايح، وأصوم وأفطر، وأتلح النساء، فاتت الله يا عثمان، فإن لأهلك عليك حقاً، وإن لضيفك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، فصم وأفطر، وصل ونم» أخرجه: أبو داود (١٣٦٩)، وأحمد (١/٦٦٨).

وهرمان الانسان نفسه أو جسده من الطيبات والمتع الحلال ليس من مناهج الإسلام في بلوغ الكمال والتم منهاجهم في الاعتدال، فاذا وجد الانسان أو تيسر له شيء من الطيبات بطريق الحلال أخذها وتناولها ولا يقدر ذلك في تعلقه بجمالية الإسلام، وإذا لم يجده لم يأس عليه وهكذا كان يفعل رسول الله، وفي كتاب الله: { يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين } { وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون } فالطلب لبلوغ الكمال تقوى الله وليس تحريم الطيبات وهرمان الجسد أو النفس منها.

ومع هذا فقد يسوغ أو يندب أو يجب أخذ الانسان نفسه بالشدّة وخشونة العيش ورضاه بالضيق إذا كان

ذلك لفرض مشروع أو مقصد نبيل أو لسبب مقبول، كما لو كان المسلم في مقام القدوة، أو بسبب إيتار الغير على نفسه، أو بسبب امتناعه عما لا يجوز له فيتعرض الى ما ذكرنا وعلى هذا الاساس يجب أن نفهم سيرة أسلافنا الصالحين وما روي عنهم من أخذ نفوسهم بالشدة وامتناعهم عن كثير من طيبات العيش ونعمتهم.

الخاصية السادسة

الوسطية

أولاً: مفهوم الوسطية وشموله في الإسلام:

تعرف الوسطية بأنها: "التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغى على مقابله ويحيف عليه"⁽¹⁾.

وقيل هي: "سلوك محمود - مادي أو معنوي - يعصم صاحبه من الانزلاق إلى طرفين متقابلين - غالباً - أو متفاوتين، تتجاذبهما رذيلتا الإفراط والتفريط، سواء في ميدان ديني أم دنيوي"⁽²⁾. قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143].

قال ابن جرير: "وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط، لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه، غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه - ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدّلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به؛ ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبّ الأمور إلى الله أوسطها"⁽³⁾.

وقال ابن القيم: "فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه. وخير الناس النمط الأوسط، الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين، ولم يلحقوا بغلو المعتدين، وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وسطاً، وهي الخيار العدل، لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط. والآفات إنما تتطرق إلى الأطراف، والأوساط محمية بأطرافها، فخير الأمور أوسطها"⁽⁴⁾.

والوسطية التي تميز بها الإسلام ليست محصورة في جزئية من الجزئيات، ولا في ركن من الأركان وإنما هي منهج شامل متكامل لا ينفصل بعضه عن بعض، فما تأملت في أي جانب من جوانب هذا الدين إلا وترى بجلاء معنى الوسطية.

(1) مفاهيم إسلامية، تأليف: وزارة الأوقاف المصرية ص 25.

(2) الوسطية مفهومًا ودلالة، د. محمد ويلالي، بحث منشور على موقع الألوكة.

(3) جامع البيان 5/2.

(4) إغاثة اللهفان لابن القيم 182/1.

يقول الشيخ السعدي عن قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ "أي: عدلا خيارا، وما عدا الوسط، فأطراف داخلة تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة، وسطا في كل أمور الدين، وسطا في الأنبياء، بين من غلا فيهم، كالنصارى، وبين من جفاهم، كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك، ووسطا في الشريعة، لا تشديدات اليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارى.

وفي باب الطهارة والمطاعم، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم الطيبات، عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئا، ولا يجرمون شيئا، بل أباحوا ما دب ودرج.

بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها، وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجملها، ومن الأعمال أفضلها"⁽¹⁾.

فهي الأمة الوسط بمعنى الحسن والفضل، والاعتدال والقصد، وسط الاعتقاد.. والتفكير وفي التنظيم وفي العلاقات.. وما يعوق الأمة اليوم إلا أنها تخلت عن منهج الله الذي اختاره لها، واتخذت لها مناهج مختلفة فيها إفراط أو تفريط.

ثانيا: نماذج ومظاهر وتطبيقات الوسطية في الإسلام:

هنا سأسوق بعض النماذج مع أدلتها لإظهار هذا المعنى:

1-الوسطية في الاعتقاد:

فعلى سبيل المثال: فقد وصف اليهود الله -تبارك وتعالى- بصفات النقص التي قد يتصف بها بعض المخلوقين وهذا الصفات لا تليق بالبشر فكيف بحق الله تعالى. أما النصارى فقد شبهوا المخلوق بالخالق وأضافوا عليه من الصفات والخصائص ما لا يليق إلا بالله.

أما عقيدتنا الإسلامية: فجاءت بالوسطية فوصفت الخالق بصفاته التي تليق بكماله وجلاله، وأوجب الله تعالى على المؤمنين أن يثبتوا ما أثبتته الله لنفسه أو أثبتته له رسوله ﷺ، ونفي ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

2-الوسطية في العبادة:

لعل من أهم ما يرسم منهج الوسطية في العبادة: تلك الأحاديث الثلاثة:

(1) تيسير الكريم الرحمن ص70.

عن أنس بن مالك ؓ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادته، فلما أُخبروا كأنهم تلقاؤها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً. وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء أبداً. فجاء رسول الله، فقال ﷺ: ((إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))⁽¹⁾.

وعنه ؓ قال: دخل النبي ﷺ، المسجد، فإذا جبل ممدود بين ساريتين فقال: ((ما هذا الجبل؟)) فقالوا: هذا جبل لزنب، فإذا فترت تعلقت به، فقال: ((حلوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد))⁽²⁾.

وعن عائشة ~ أن النبي ﷺ، دخل وعندها امرأة قال: ((من هذه؟)) قالت: فلانة، تذكر من صلاتها، قال: ((مه، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه))⁽³⁾. وقد كان قبل نزول القرآن، منهجان سائدان يتعلقان بالعبادة تفريطاً وإفراطاً:

المنهج الأول: التفريط والبعد عن التعبد: ويمثله اليهود ومن لحق بهم⁽⁴⁾ حيث قال الله عنهم: ﴿خَلَفَ مِنْ بَدْيِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

المنهج الثاني: التعمق في الروحانيات والغلو فيها، ويمثل هذا المنهج النصارى ومن لحق بهم، حيث ابتدعوا عبادات قاسية على النفس، تحرم الزواج، وتكبت الغرائز، وترفض كل أشكال الزينة، وقد قال الله عنهم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَارَعُوهَا حَتَّىٰ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧] و"الرهبانية هي المبالغة في العبادة، والرياضة والانقطاع عن الناس، وإيثار العزلة والتبتل"⁽⁵⁾.

3-الوسطية في متطلبات النفس الإنسانية:

وهذا الأمر تبرزه مجموعة من النصوص منها: قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَفْسَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ

(1) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (5063). واللفظ له، ومسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تافت نفسه إليه (1401).

(2) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب ما يكره من التشدد في العبادة (1082).

(3) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه (41).

(4) هذا محل خلاف بين المفسرين: فمنهم من قال لليهود، ومنهم من قال النصارى، ومنهم من قال لليهود والنصارى، جامع البيان 535/10، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم 1607/5، وتفسير مقاتل 632/2.

(5) محاسن التأويل للقاسمي 157/9.

﴿مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال: ﴿وَأَتَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْذُرْ بَذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67]. وقوله: ﴿يَبْنِي عَادَمَ حُدُودًا زِينَتًا عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31].

والإسلام يعلمنا التوسط في مشاعرنا قال ﷺ: ((أحب حبيبك هونا ما، عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما، عسى أن يكون حبيبك يوما ما))⁽¹⁾.

وقد ورد في السنة أن سلمان الفارسي زار أخاه أبا الدرداء رضي الله عنه وقد كان النبي ﷺ قد آخى بينهما، فرأى أم الدرداء رضي الله عنها متبذلة⁽²⁾ فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً، فقال له: كل، فإني صائم. فقال: ما أنا بأكل حتى تأكل؛ قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم. فلما كان آخر الليل، قال سلمان: قم الآن، فصليا، فقال سلمان: إن لبدنك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: ((صدق سلمان))⁽³⁾.

فالتوسط وإعطاء العبادة حقها والنفس حقها فطرة إنسانية يراعيها الإسلام وطبقها رسول الله ﷺ في حياته العملية وفهمها الصحابة من الرسالة المحمدية حيث إنهما رسالة تقوم على إقامة الدين والدنيا. هذه المصيبة وهي الوسطية هي العدل والفضل والخيرية والتوازن، فالإسلام دين الوسط في كل الأمور عقيدة وشريعة وأخلاقاً، وهو وسط بين غلو الديانات الأخرى وتقريبها، وهو وسط يجمع بين مطالب الروح والجسد والفرد والمجتمع، فلا يغلب جانباً على الآخر إلا بما يتناسب مع صلاح الروح وسلامة الجسد وفلاح الفرد وإصلاح المجتمع. وكما يأمر بالعبادة والعمل للدار الآخرة يوجه إلى السعي في طلب الرزق والمعاش في الدنيا، ويعتبر ذلك عبادة.

إن أمة الإسلام أمة وسط، شهد لها بذلك خالقها سبحانه وتعالى ورتب على ذلك مظهرها ومنزلتها ودورها في هذا الكون، وبين الأمم: {وَكُنَّا نَجْعَلُكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَتْلُوَنَ عَلَيْكُمْ هُدًى عَلَى النَّاسِ وَنَكُونَ الرَّسُولَ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}. [البقرة: 143].

(1) جامع الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الاقتصار في الحب والبغض (2128) وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه، والأدب المفرد عن علي موقفاً 744/1 (643)، المعجم الكبير للطبراني 70/13 (172)، وشعب الإيمان للبيهقي 514/8 (6168)، وقال العراقي في تخریج أحاديث الأحياء 643/1: رجاله ثقات رجال مسلم لكن الراوي تردد في رفعه، وقال الألباني صحيح الأدب المفرد ص 501: حسن لغيره موقفاً وقد صح مرفوعاً.

(2) متبذلة: أي في ثياب البذلة: وهي خلاف ثياب التجميل والتزين، ينظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي 436/1، وفتح الباري 210/4، وقال ابن عثيمين: يعني ليست عليها ثياب المرأة ذات الزوج، بل عليها ثياب ليست جميلة، ينظر: شرح رياض الصالحين لابن عثيمين 232/2.

(3) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له (1968).

فقوله سبحانه (وسطاً) أي عدلاً، ووسط الشيء، أو أوسطه بمعنى أفضله وأعدلته وخياره!
والمذج وسطية الإسلام كثيرة.

الخاصية السابعة

التيسير

يمكن بيان خاصية التيسير في النقاط التالية⁽¹⁾:

أولاً: مفهوم التيسير وأدلته:

يعرف اليسر بأنه: "سهولة تحصيل المرغوب، وعدم التعب فيه، والعسر: المشقة في تحصيل المرغوب والعمل المقصود"⁽²⁾.

والدين الإسلامي قد قام منهجه على التيسير ورفع الحرج بشكل يتوافق مع الفطرة الإنسانية وتتقبله النفس البشرية من غير تكلف أو تعنت، وذلك ينبع من كون الإسلام رسالة عالمية شاملة خالدة تستوعب جميع الأمكنة والأزمنة، وتصلح للناس جميعاً على اختلاف أعراقهم وألوانهم.

والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

قال الشيخ ابن سعدي -: "لما قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ ربما توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق، أو تكليف ما يشق، احترز منه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: مشقة وعسر، بل يسره غاية التيسير، وسهله بغاية السهولة، فأولاً ما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس، لا يثقلها ولا يؤودها، ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف، خفف ما أمر، إما بإسقاطه، أو إسقاط بعضه"⁽³⁾.

وبين الله تعالى في كتابه أن من رسالة النبي ﷺ، رفع الحرج والعسر كما في قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقد بين الله تعالى أنه يريد التخفيف عن الخلق، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

وبناء عليه فالله تعالى لا يكلف أحد فوق طاقته، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة

..[286]

(1) ينظر: التيسير المعاصر دراسة تحليلية؛ د. عبدالله بن إبراهيم الطويل رسالة دكتوراة. وكتاب الفقه الإسلامي بين التيسير والتعسير، د. محمد بن الدناه الأجوذي الشنقيطي. والتيسير في السنة النبوية ناجح سمارة.

(2) التحرير والتنوير 415/30.

(3) تيسير الكريم الرحمن ص546.

وأمر الله تعالى بترقب اليسر وانتظاره وتلمسه في كل أمر وفي كل نهي، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۗ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح 5-6].

ويشهد لهذا اليسر أيضاً مجموعة من الأحاديث منها قول المصطفى ﷺ: ((إن الله رضي لهذه الأمة اليسر وكره لها العسر))⁽¹⁾

وقوله ﷺ: ((إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا))⁽²⁾، وقوله: ((ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم))⁽³⁾، وقوله: ((إن الله لم يبعثني متعنتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً))⁽⁴⁾.

وأوصى الرسول ﷺ معاذ بن جبل و أبا موسى الأشعري f حين بعثهما إلى اليمن فقال: ((يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا))⁽⁵⁾.

وعن عائشة ~ قالت: ((كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال بما يطيقون))⁽⁶⁾.
وعنها رضي الله عنها أنها قالت: ((ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه))⁽⁷⁾.

فالتيسير وعدم التعنيت مظهر من مظاهر الوسطية في هذه الدعوة، والأدلة التي تؤيد هذه القاعدة أكثر من أن تحصر، ولذا يقول الإمام الشافعي -: "إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع"⁽⁸⁾.
قال السعدي -: "فأصل الأوامر والنواهي ليست من الأمور التي تشق على النفوس، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان، وحمية عن الضرر، فالله تعالى أمر العباد بما أمرهم به رحمة وإحساناً، ومع هذا إذا حصل بعض الأعذار التي هي مظنة المشقة حصل التخفيف والتسهيل، إما بإسقاطه عن المكلف، أو إسقاط بعضه كما في التخفيف عن المريض والمسافر وغيرهم"⁽⁹⁾.

ثانياً: قواعد فقهية في يسر الشريعة:

- (1) المعجم الكبير للطبراني 298/20 (707) وصححه الألباني في صحيح الجامع (1769).
- (2) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر (39).
- (3) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر (1337).
- (4) صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية (1378).
- (5) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه (3038)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر باليسر وترك التنفير (1733).
- (6) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ (أنا أعلمكم بالله.. (20).
- (7) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (3560)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب مبادئه ﷺ للأثم واختياره من المباح أسهله (2327).
- (8) الموافقات للشاطبي 231/1.
- (9) تيسير الكريم الرحمن ص 120.

ومن هذا أخذ الفقهاء † من النصوص الواردة الدالة على يسر المنهج الإسلامي بعض القواعد التي تبرز هذا الجانب ومن تلك القواعد على سبيل المثال:

القاعدة الأولى: "المشقة تجلب التيسير"⁽¹⁾:

أي: "المشقة التي تنفك عنها التكاليف الشرعية، أما المشقة التي لا تنفك عنها التكاليف الشرعية كمشقة الجهاد وألم الحدود؛ ورجم الزناة وقتل البغاة والمفسدين والجناة فلا أثر لها في جلب تيسير ولا تخفيف"⁽²⁾.

و"المشقة التي تجلب التيسير سبعة أنواع:

- 1- السفر وتيسيراته.
- 2- المرض وتيسيراته.
- 3- الإكراه وهو التهديد ممن هو قادر على الإيقاع بضربٍ مبرح، أو بإتلاف نفس، أو عضو، أو بجبس، أو قيد، أو بما هو دون ذلك لذي جاه، وبما يوجب غما يعدم الرضا.
- 4- النسيان، وهو عدم تذكر الشيء، واتفق العلماء على أنه مسقط للعقاب.
- 5- الجهل، وهو عدم العلم ممن شأنه أن يعلم وهو قد يجلب التيسير.
- 6- العسر وعموم البلوى.
- 7- النقص، وفيه نوع من المشقة يتسبب عنها التخفيف"⁽³⁾.

القاعدة الثانية: الضرورات تبيح المحظورات⁽⁴⁾:

والأصل في هذه القاعدة الفقهية قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الأنعام: 119].

وتصل حالات الضرورة إلى أربعة عشر حالة وهي: ضرورة الغذاء، والجوع أو العطش، والدواء، والإكراه، والنسيان، والجهل، والعسر أو الحرج، وعموم البلوى، والسفر والمرض، والنقص الطبيعي⁽⁵⁾.

مع التنبه إلى أن تقرير منهج التيسير في الإسلام:

1- لا يعني الإخلال بمقاصد الشريعة والدين، فلا يفهم من مبدأ التيسير أنه تفريط أو تسبب في تطبيق أحكام هذا الدين وتنفيذ أوامره.

2- ولا يعني تجاوز الحلال والحرام أو الإخلال بالمفاهيم الإسلامية والآداب العامة.

(1) هذه القاعدة مبثوثة في كتب القواعد الفقهية، انظر: شرح القواعد الفقهية للزرقي 157/1، والأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية للسيوطي ص 26-27.

(2) شرح القواعد الفقهية للزرقي 157/1.

(3) شرح القواعد الفقهية للزرقي 157/1-161 مختصراً، وللإستزادة من الأمثلة يمكن الرجوع للكتاب.

(4) شرح القواعد الفقهية للزرقي 131.

(5) لمزيد من التوسع يراجع كتاب: نظرية الضرورة الشرعية د. وهبة الزحيلي ص 73-74.

3- ولا يعني تحكيم الأهواء والرغبات في الانحراف عن شرع الله تحت مظلة التيسير، فهذا شأن ضعاف الإيمان الذين يطوعون ويلوون أعناقها لتحقيق مآربهم أو التحلل من التكليف الشرعية⁽¹⁾.

الشريعة الإسلامية مبنية على التيسير ورفع الحرج بشكل يتوافق مع الفطرة الإنسانية وتقبله النفس البشرية لأن الإسلام رسالة عالمية شاملة تستوعب جميع الأمكنة والأزمنة، وهما صالحة للناس جميعاً على اختلاف أعراقهم وألوانهم. وهي مبنية على تحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد، سواء ما أمرت به من فرائض ومندوبات أو ما نهت عنه من محرمات ومكروهات فهي في كل ذلك تهدف إلى تحقيق مقاصد ومصالح وحكم، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: "... فإن الشريعة مبناه وأساسها على الحكم ومصالح العباد، في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمة بين خلقه، وظل في أرضه وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم أتم دلالة وأصدقها."²

وإذا كانت أفعال العباد دائرة بين أحوال خمسة (الوجوب، والحرام، والمستحب، والمكروه، والجائز) فإن مقتضى ذلك أن ثلاثة منها وهي (المستحب، والمكروه، والجائز) لا عقاب فيها، فالمستحب، في فعله ثواب، وليس في تركه عقوبة، والمكروه في تركه ثواب، وليس في فعله عقوبة، والجائز يستوي طرفاه، ليس في تركه ولا فعله عقوبة.

فلم يبق إلا (الوجوب، والحرام) هما اللذان يتعلل بعض الناس بأنه قد تأتي بعض المشقة من جهتهما.

ومن لا ننفي أن يكون فيهما بعض المشقة، لكنها ليست المشقة التي تصل إلى الحرج والضيقة، فالواجبات متى تعذر شيء منها على المكلف سقط إيجابه، وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "...إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم"³

والمحرمات، لا تكون في التروكات، بل تكون في المفعولات، والترك ليس فيه مشقة؛ بل المشقة في المفعولات، فكيف يكون ترك الحرام شاقاً!

(1) ينظر: اليسر والسماحة في الإسلام د. فالخ الصغير ص 40 بتصرف.

² إعلام الموقعين عن رب العالمين (3/ 11)، لابن القيم.

³ رواه مسلم (1337)

الخاصية الثامنة

التدرج

يمكن بيان معالم التدرج في النقاط التالية⁽¹⁾:

أولاً: مفهوم التدرج وأهميته:

التدرج هو: "التقدم بالمدعو شيئاً فشيئاً للبلوغ به إلى غاية ما طلب منه وفق طرق مشروعة مخصصة"⁽²⁾.

فالتدرج: أخذ الأمور شيئاً فشيئاً، وقليلًا قليلًا، وعدم تناول الأمور دفعة واحدة⁽³⁾.

فمن خصائص المنهج الإسلامي أنه جاء متدرجاً بحسب الأحوال والوقائع، قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ

عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكَّةٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً﴾ [الإسراء: 106].

وقد ثبت في الصحيح أن أم المؤمنين عائشة ~ قالت: "...إنما نزل أول ما نزل من آي القرآن سورة من

المفصل⁽⁴⁾ فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب⁽⁵⁾ الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام. ولو نزل أول شيء: لا

تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً. ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً"⁽⁶⁾.

قال ابن حجر: "أشارت ~ إلى الحكمة الإلهية في ترتيب النزول، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى

التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت

الأحكام، ... وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف"⁽⁷⁾.

والحكمة في ذلك التدرج "أن هذا النوع من التشريع يكون أقرب إلى القبول والامتثال، خصوصاً مع أولئك

العرب الذين كانوا في إباحية تجعلهم ينفرون من التكليف بالجملة"⁽⁸⁾.

فقد "جاء النبي ﷺ والعرب قد استحكمت فيهم عادات، منها ما هو صالح للبقاء ولا ضرر منه على تكوين

الأمة ومنها ما هو ضار يريد الشارع إبعادهم عنه فاقتضت حكمته أن يتدرج بهم شيئاً فشيئاً لبيان حكمته

(1) ينظر: التدرج في دعوة النبي ﷺ، د. إبراهيم بن عبدالله المطلق، سياسة التدرج في تطبيق الأحكام الشرعية، د. إياد كامل الزبياري، مفهوم

التدرج في تطبيق الشريعة، د. عطية فياض، منشور على موقع السكينة. التدرج في التشريع الإسلامي، د. ماهر حامد محمد الحولي.

(2) التدرج في دعوة النبي ﷺ، د. إبراهيم بن عبدالله المطلق ص 17.

(3) ينظر بحث بعنوان، مفهوم التدرج في تطبيق الشريعة، د. عطية فياض، منشور على موقع السكينة.

(4) المفصل: آخره سورة الناس "واختلف في أوله فقيل: ق، وقيل: الحجرات، وطواله إلى عم، وأوساطه منها إلى الضحى، ومنها إلى آخر القرآن

قصاره، وسمي مفصلاً لقصر سوره، وكثرة فواصله. ينظر الإتيان 179/1-181.

(5) ثاب: ثاب الناس إذا اجتمعوا وجاؤا. الصحاح 94/1، ولسان العرب. 343/1.

(6) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن (4707).

(7) فتح الباري 48/10.

(8) المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي: مصطفى شلي، ص 75.

وإكمال دينه" (1).

ولذا فإن المتأمل في كتاب الله الباحث عن الحق، عند بحثه في القرآن في جانب التشريع لا بد وأن يتأثر بهذا المنهج القرآني الرباني في أوامره ونواهيه.

ثانيا: مثال على التدرج (التدرج في تحريم الخمر):

ونأخذ على ذلك مثالا واحدا وهو التدرج في تحريم الخمر:

فحينما واجه الإسلام الخمر لأول مرة في المجتمع العربي - وقد تأصلت فيه إلى أبعد الحدود - سلك منهجا متدرجا حكيما في مواجهتها، وذلك على ثلاث مراحل:

الأولى: ففي البداية لفت الأنظار إلى آثارها الضارة التي تفوق ما فيها من منافع محدودة، قال تعالى:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩].

الثانية: حرم تعاطيها قبل أوقات الصلاة بحيث لا يأتي وقت الصلاة إلا والواحد منهم في أتم صحوة، قال

تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣].

الثالثة: وبعد أن تهيأت النفوس لتحريمها، جاء التحريم القاطع، قال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ

وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ

وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

فعن عمر بن الخطاب ؓ، قال: لما نزل تحريم الخمر، قال: "اللهم بين لنا في الخمر بيانا شفاء". فنزلت هذه

الآية التي في سورة البقرة: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ

نَفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩].

قال: فدعي عمر، فقرئت عليه، فقال: "اللهم بين لنا في الخمر بيانا شفاء. فنزلت الآية التي في سورة

النساء: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣]، فكان منادي

رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: أن لا يقربن الصلاة سكران، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: "اللهم بين لنا

في الخمر بيانا شفاء". فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر فقرئت عليه، فلما بلغ: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴾ [المائدة

91]، قال: فقال عمر: انتهينا، انتهينا" (2).

"وبهذا التدرج لم يجدوا أدنى صعوبة في امتثالهم لهذه الآية بل أراقوا الخمر في طرقات المدينة حتى امتلأت منها

ومن ثم تأصل الابتعاد عن الخمر في العرف الاجتماعي عند المسلمين، فرغم انحراف هذه المجتمعات وبعدها

المتفاوت عن الإسلام إلا أن الإقبال على الخمر ضعيف فيها جدا مقارنة بالمجتمعات الأخرى ومن ثم فالنظر إلى

(1) أضواء على الثقافة الإسلامية د. أحمد فؤاد محمود ص 141.

(2) مسند أحمد 442/1 (376) سنن أبي داود، كتاب الأشربة، باب في تحريم الخمر (3670)، جامع الترمذي، كتاب التفسير، باب ما جاء في سورة المائدة (3049)، سنن النسائي، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر (5540) والمستدرک علی الصحیحین للحاکم 159/4، وقال: هذا حديث صحيح، ولم يخرجاه. وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (2442).

شرب الخمر باثتمزاز متأصل في الوجدان الاجتماعي لهذه المجتمعات. وتلك هي ميزة الإسلام حيث يعالج المشكلات الاجتماعية بالزواجة بين عمل الضمير الداخلي المنفعل بالإيمان، والرقابة الخارجية في صورة رأي عام يبسطه في المجتمع وعقوبة يكلف الدولة بتنفيذها. وبذلك يحاصر المشكلة من أن تتحول بمرور الزمن إلى عادة مستقرة ومقبولة اجتماعيا، بل تظل في الهامش وفي نطاق غير المسموح به⁽¹⁾.

"وكل داء من أدواء المجتمع الإنساني وكل عيب من عيوب الجيل الحاضر يتطلب إصلاحه حياة كاملة، ويستغرق عمر إنسان بطولم، وقد يستغرق أعمار طائفة من المصلحين ولا يزول، فإذا ذهب أحد يطارد الخمر في بلاد قد نشأت على حياة الترف والبهز ورائت باللهم واللذة أعياء أمرها وهبطت جهوده، لأن شرب الخمر ليس إلا نتيجة نفسية تعشق اللذة حتى في السم، وتبغى النشوة حتى في الإثم، فلا تهجره بمجرد الرعاية والنشر والكتب المطب وبيان مضارها الطبيعية ومفاسده الخلقية، وسن القوانين الشديدة والعقوبات الصارمة، لا تهجره إلا بتغيير نفس عميق، وإذا أرغمت على تركه بغير هذا التغيير تسلمت إلى غيره من أنواع الجريمة واستباحته بتغيير الأسماء والصور.

منعت حكومة أمريكا الخمر، وطاردتها في بلادها واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة كالمجلات والجرائد والمحاضرات والصور والسينما لتهجين شربها وبيان مضارها ومفاسدها ويقدرون ما أنفقت الدولة في الرعاية ضد الخمر بما يزيد على 60 مليون دولار، وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على 70 بلايين صفحة، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاماً لا يقل عن 250 مليون جنيه، وقد أعدم فيها 300 نفس؛ وسجن 532335 نفس، وبلغت الغرامات إلى 16 مليون جنيه، وصارت من الأملاك ما يبلغ 400 مليون وأربعة ملايين جنيه، ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراما بالخمر وعناداً في تعاطيها، حتى اضطرت الحكومة سنة 1933 م إلى سحب القانون وإباصه الخمر في مملكتها إباصه مطلقة. من كتاب تنقيحات للأستاذ أبي الاعلى المودودي².

ثالثاً: من تطبيقات التدرج المعاصرة:

1- "التدرج في الدعوة والبلاغ:

ومعناه: بيان الأحكام الشرعية للناس شيئاً فشيئاً، لتتم معرفتهم، واستيعابهم لها، وإدراكهم لحقيقتها، والتدرج فيها من الأصول إلى الفروع، ومن الأيسر إلى ما يليه، ومن السهل إلى الأشد، ومن القريب لأذهانهم إلى ما بعد عنهم، وهذا واجب العلماء والدعاة خاصة، وما يجب أن يتوقف هذا العمل ولا تلك السنة.

وهذا هو ما أمر به النبي ﷺ معاذاً عندما أرسله إلى اليمن في حديث الصحيحين عن ابن عباس أن معاذاً قال بعثني رسول الله ﷺ قال: ((إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا

(1) الجريمة والعقاب في الإسلام د. عبدالرحمن اللويحي ص 31.

² ماذا خسر العالم بخطايا المسلمين، ص 78، دؤيب الحسن النودي.

اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تَتَّخِذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ فِتْرًا عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ. (1)

2- تطبيق ما تستطيع الدولة أو الأفراد تطبيقه:

أي: تطبيق ما تستطيع الدولة أو الأفراد تطبيقه مما تعد القدرة شرطاً في القيام به، ويسقط مع العجز، أو يخفف حكمه، أو يترخص فيه على حسب درجة العجز، ومن ثم فما لا يمكن القيام به ولا القدرة عليه يؤجل تطبيقه إلى حين استيفاء شرطه وانتفاء موانعه، وألا يؤدي تطبيقه إلى مفسدة أعظم من المصلحة التي تترتب على تطبيقه، وكل من شرط القدرة على القيام بالتكليف وانتفاء العجز، والموازنة بين المصالح والمفاسد، من الأمور المعتمدة عند تطبيق أحكام الشرع.

ولذلك فإنه يجب بحث هذه المسألة في إطار شرط القدرة على القيام بالتكاليف، أو في باب فقه الموازنات (2).

تنبيه: "ولا نعني بالترج هنا مجرد التسوية وتأجيل التنفيذ واتخاذ كلمة التدرج "تكأة" للإبطاء بإقامة أحكام الله، وتطبيق شرعه، بل نعني بها: تحديد الأهداف بدقة وبصيرة، وتحديد الوسائل الموصلة إليها بعلم وتخطيط دقيق، وتحديد المراحل اللازمة للوصول إلى الأهداف بوعي وصدق بحيث تسلم كل مرحلة إلى ما بعدها بالتخطيط والتنظيم والتصميم حتى تصل المسيرة إلى المرحلة المنشودة والأخيرة التي فيها قيام الإسلام كل الإسلام" (3).

(1) صحيح البخاري 1496.

(2) ينظر بحث بعنوان، مفهوم التدرج في تطبيق الشريعة، د. عطية فياض، منشور على موقع السكينة.

(3) السياسة الشرعية، د. يوسف بن عبدالله ص 328-329.

الخاصية التاسعة

السماحة⁽¹⁾

أولاً: مفهوم سماحة الإسلام:

تدلّ مادة (س م ح): على معنى السلاسة والسهولة، والسماح. والسماحة: الجود، وسمح به أي جاد به، وسمح لي أعطاني، والمسماحة: المساهلة، وتسامحوا: تساهلوا⁽²⁾.

واصطلاحاً: تقال على وجهين:

الأول: بذل ما لا يجب تفضلاً، أو الجود عن كرم وسخاء⁽³⁾.

والثاني: في معنى التسامح مع الغير في المعاملات المختلفة ويكون ذلك بتيسير الأمور والملاينة فيها التي تتجلى في التيسير وعدم القهر، وسماحة المسلمين التي تبدو في تعاملاتهم المختلفة سواء مع بعضهم، أو مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى⁽⁴⁾.

ثانياً: مظاهر السماحة في الإسلام: حث على مجموعة من الصفات التي هي أسس السماحة في الإسلام

فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

ومما يدل على سماحة الإسلام كذلك قول النبي ﷺ: ((إنما يحرم على النار كل هين لين قريب سهل))⁽⁵⁾.

فالإسلام دين عظيم، يقوم على السلام والمسالمة؛ ليعيش الناس آمنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم؛ ولهذا شرع وحث على مجموعة من التشريعات التي تؤدي إلى التسامح بين الناس ومن ذلك:

1- السلام شعار الإسلام:

فإنه تعالى شرع السلام للمؤمنين في تحية اللقاء، وفي تحية الانصراف من الصلاة، ليكون شعاراً لهم في غدوهم ورواحهم، وفي مجتمعهم في مساجدهم ونواديههم، قال ﷺ: ((أولاً أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟. أفشوا السلام بينكم))⁽⁶⁾.

(1) للاستزادة ينظر: سماحة الإسلام في الدعوة إلى الله والعلاقات الإنسانية منهاجا وسيرة أ. د عبد العظيم المطعني، وسماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين أ. د حكمت بن بشير. وسماحة الإسلام، د. عمر قرشي.

(2) ينظر مقاييس اللغة 298/3، والمصباح المنير 376/1، ولسان العرب 489/2.

(3) ينظر: التعريفات للجرجاني ص 121، والنهاية لابن الأثير 398/2.

(4) ينظر: نضرة النعيم 2278/6.

(5) مسند أحمد 415/1 (3938)، صحيح ابن حبان 215/2 (469)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (1744).

(6) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سببا لحصولها (54).

2- السماحة مع غير المخالفين:

ويدعوننا ربنا، للسلام مع الغير بقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: 61]. وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: 208].

ومن أجل القواعد التي تحدد طبيعة العلاقة بين المسلم وغيره أنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256]، ولذا عاش غير المسلمين في كنف دولة الإسلام دون أن يتعرض أحد لعقائدهم ودياناتهم⁽¹⁾، فالإسلام لم يقم على اضطهاد مخالفه أو مصادرة حقوقهم أو تحويلهم بالإكراه عن عقائدهم أو المساس الجائر لأموالهم وأعراضهم ودمائهم، وتاريخ الإسلام في هذا المجال أنصع تاريخ على وجه الأرض.

3- السماحة والرد بالحسنى على المسيء والمعتدي:

وحت المؤمنين على الرد بالسلام على من يجهل عليهم؛ قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63].

ويحث كذلك الإسلام على العفو والسماحة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالرِّجَالِ عَلَىٰ أَلْسِنِهِمْ يَنْصَرِفُونَ﴾ [البقرة: 177]. وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كَبِيرَ الْأَيْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: 37].

قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: 22]. وقال: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: 190].

وقال النبي ﷺ: ((وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً))⁽²⁾، وقوله: ((من أقال عشرة أخيه أقاله الله يوم القيامة))⁽³⁾.

4- السماحة والإحسان بالمخاطبين:

وهذه مرتبة عالية جداً، فقد حث ربنا على مقابلة السيئة بالحسنة وهذا قمة التسامح، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [٣٤] وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: 34 - 35].

5- التحذير من عدم السماحة:

(1) تلبس مردود في قضايا حية، صالح بن حميد ص 30 باختصار.

(2) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع (2588).

(3) سنن أبي داود، كتاب البيوع، باب في فضل الإقالة (3460) ومسنند أحمد 400/12 (7431)، تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح

على شرط الشيخين.

فينهي النبي ﷺ عن أذية المسلم: بقوله: ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده))⁽¹⁾.
 وبين أن الخيرية لمن يبدأ بالسلام عند وقوع هجران أو فساد ذات البين، لقوله ﷺ: ((لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا، ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام))⁽²⁾.
 وينهي كذلك عن هجران المسلم لأخيه المسلم، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: ((تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا))⁽³⁾.
 إن في روح الإسلام من السماحة الإنسانية ما لا يملك منصف أن ينكره أو يراوغ فيه، وهي سماحة مبدولة للمجموعة البشرية كلها، لا لجنس فيها ولا لأتباع عقيدة معينة، وإنما هي للإنسان بوصفه إنساناً في حد ذاته خلقه الله وكرمه.

(1) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده برقم (10)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل (41).
 (2) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الهجر (6077)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعي (2560).
 (3) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب النهي عن الشحناء والتهاجر (2565).

الخاصية العاشرة

العدل

أولاً: مفهوم العدل:

العدل لغة: مادة (ع د ل) التي تدلّ على معنيين متقابلين: أحدهما يدلّ على الاستواء، والآخر على اعوجاج، ويرجع لفظ العدل هنا إلى المعنى الأول، وإذا كان العدل مصدراً فمعناه: خلاف الجور وهو ما قام في النفوس أنه مستقيم. والعدل (أيضاً) الحكم بالحق.

وعدل في الحكم: لم يجز فيه، وعدل عليه في القضية: أنصفه⁽¹⁾.

فالعدل: بذل الحقوق الواجبة وتسوية المستحقين في حقوقهم⁽²⁾.

وحقيقة العدل في الإسلام، أنه ميزان الله على الأرض، به يؤخذ للضعيف حقه، وينصف المظلوم ممن ظلمه، ويمكن صاحب الحق من الوصول إلى حقه من أقرب الطرق وأيسرها، وهو واحد من القيم التي تنبثق من عقيدة الإسلام في مجتمعه؛ فلجميع الناس في مجتمع الإسلام حقُّ العدالة وحقُّ الاطمئنان إليها.

ثانياً: أهمية العدل:

قال الماوردي: "إنّ مما تصلح به حال الدنيا قاعدة العدل الشامل، الذي يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمّر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكبر معه النسل، ويأمن به السلطان.. وليس شيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضماير الخلق من الجور؛ لأنه ليس يقف على حد، ولا ينتهي إلى غاية"⁽³⁾.

ويعدُّ العدل خصيصة من أهم الخصائص التي تميز المنهج الإسلامي حيث جعل الإسلام إقامة القسط -أي العدل- بين الناس هو هدف الرسالات السماوية كلها، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] فليس ثمة تنويه بقيمة القسط أو العدل أعظم من أن يكون هو المقصود الأول من إرسال الله تعالى رسله، وإنزاله كتبه؛ فبالعدل أنزلت الكتب، وبعثت الرسل، وبالعدل قامت السموات والأرض.

ثالثاً: تطبيقات العدل في الإسلام:

1- العدل مع المخالفين لنا:

(1) ينظر: مقاييس اللغة 4/246، والصحاح 5/1760، ولسان العرب 5/2838، ومفردات الراغب ص 324.

(2) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة لعبدالرحمن بن ناصر السعدي (253).

(3) أدب الدنيا والدين للماوردي ص 141-144 بتصرف.

وفي تقرير واضح وصريح لإحقاق العدل وتطبيقه ولو كنا مبغضين لمن نَحْكُم فيهم، يقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: 135]. أي: "مواظبين على العدل في جميع الأمور مجتهدين في ذلك كل الاجتهاد لا يصرفكم عنه صارف" (1).

قال ابن القيم: "هذا يمتحن به العبد إيمانه فيعرف منزلة الإيمان من قلبه ومحله منه، وعكس هذا عدل العبد في أعدائه ومن يجفوه، فإنه لا ينبغي أن يحمله بغضه لهم أن يحيف عليهم، كما لا ينبغي أن يحمله حبه لنفسه ووالديه وأقاربه على أن يترك القيام عليهم بالقسط، فلا يدخله ذلك البغض في باطل ولا يقصر به هذا الحب عن الحق" (2).

ويقول أيضاً: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 8]، قال ابن كثير: "أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد؛ صديقاً كان أو عدواً" (3).

فلا ينبغي للمسلم أن يتبع هواه في الحكم على الآخرين، قال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ [النساء: 135]. "الهوى: إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلاً والباطل حقاً، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه" (4).

فالعدل في الإسلام لا يتأثر بحب أو بغض، فلا يفرق بين المسلمين على أساس الحسب والنسب والجاه، كما لا يفرق بين مسلم وغير مسلم، بل يتمتع به جميع المقيمين على أرضه من المسلمين وغير المسلمين.

2- الشريعة الإسلامية عدل كلها:

يقول ابن القيم -: "فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث؛ فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل؛ فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها" (5).

(1) روح المعاني 167/5.

(2) الرسالة النبوية ص 33.

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 43/2.

(4) تيسير الكريم الرحمن ص 209.

(5) إعلام الموقعين لابن القيم 11/3.

ويشمل العدل في المنهج الإسلامي العدل في حصول الإنسان على متطلباته الخاصة من مأكّل ومشرب وملبس ومسكن، وحصوله على العمل، وتولي الوظائف المناسبة وكل مقومات الحياة الكريمة والمعاملة الكريمة.

3- العدل في جميع أمور الحياة:

فقد أمر الإسلام بالعدل في القول، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥]. "أي: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولاً تحكمون به بين الناس، وتفصلون بينهم الخطاب، وتتكلمون به على المقالات والأحوال ﴿فَاعْدِلُوا﴾ في قولكم، بمراعاة الصدق في من تحبون ومن تكرهون، والإنصاف، وعدم كتمان ما يلزم بيانه، فإن الميل على من تكره بالكلام فيه أو في مقالته من الظلم المحرم.

بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع، فالواجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه، وأن يبين ما فيها من الحق والباطل، ويعتبر قربها من الحق وبعدها منه"⁽¹⁾.

كما أمر بالعدل في الحكم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وأمر بالعدل في الصلح، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحَدُهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَقْبَلَ إِلَيْهِ أَمْرٌ بِاللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ ت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

رابعاً: من روائع الإسلام في تحقيق خاصية العدل:

ومن المواقف التي تدل على خاصية العدل وأصلتها في الإسلام قصة أسامة بن زيد -ع- مع المرأة المخزومية، فلما حاول أسامة بن زيد أن يشفع لامرأة من قبيلة بني مخزوم ذات نسب؛ كي لا تقطع يدها في جريمة سرقة، ما كان من رسول الله ﷺ إلا أن غضب غضباً شديداً، ثم خطب خطبة بليغة أوضح فيها منهج الإسلام وعدله، وكيف أنه سوى بين كل أفراد المجتمع رؤساء ومرؤوسين، فكان ممّا قاله في هذه الخطبة: ((إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِيمَ اللَّهُ! لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتَ يَدَهَا))⁽²⁾.

خامساً: رفع الظلم ومحاربتة من إقامة العدل:

بقدر ما أمر الإسلام بالعدل وحثّ عليه، حرّم الظلم أشدّ التحريم، وقاومه أشدّ المقاومة، سواء ظلم النفس أم ظلم الآخرين، وبخاصة ظلم الأقياء للضعفاء، وظلم الأغنياء للفقراء، وظلم الحكام للمحكومين، وكلّما اشتدّ ضعف الإنسان كان ظلمه أشدّ إثماً.

(1) تيسير الكريم الرحمن ص 280.

(2) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب حديث الغار (2475)، ومسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره (1688).

ففي الحديث القدسي: ((يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا))⁽¹⁾.

ويقول الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل ؓ: ((واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب))⁽²⁾. وقال: ((ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأُنصرك ولو بعد حين))⁽³⁾.

وعلى سبيل المثال: حرم الإسلام الربا، وحرم أكل أموال الناس بالباطل وحرم كل البيوع الجائرة والتي فيها غبن لأي إنسان وليس للمسلم فقط.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكْمِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

فهذا دليل على أن "أن قضاء القاضي لا يجل حراماً، ولا يحق لك باطلاً. وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى وتشهد به الشهود، والقاضي بشر يخطئ ويصيب. واعلموا أن من قضى له بباطل أن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة. فيقضي على المبطل للمحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق في الدنيا"⁽⁴⁾.

وقال ﷺ: ((من حلف على يمين يفتطع بها مال امرئ مسلم، هو عليها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان))⁽⁵⁾.

وهكذا يتضح أن العدل ودفع الظلم صفة لا زمة من صفات الشريعة الإسلامية الغراء وأنه ما من منهج غير منهج الإسلام ساوى بين الناس بهذه الطريقة السامية، وجعل العدل أساساً من أسس الحكم والتعامل بين الناس في مختلف مناحي الحياة.

هناك مزيد من الخصائص سأذكر ثلاث خصائص أخرى ونكتفي بها:

الخاصية الحادية عشر: دين العالم

للعالم في الإسلام مكانة سامية، وكففي دلالة على ذلك أن أول كلمة نزلت عند الله تعالى على نبي الهدى ﷺ، هي: قوله تعالى: {اقرأ}

(1) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (2577).

(2) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع (4347)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (27).

(3) جامع الترمذي، كتاب الدعوات، باب في العفو والغافية (3598) وقال: هذا حديث حسن.

(4) محاسن التأويل 53/2.

(5) صحيح البخاري، كتاب المساقاة، باب المصومة في البئر والقضاء فيها (2357)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بين فامرة بالنار (137).

دين يحترم العلم ويجلُّ العلماء، ويرى أن العلم طريقاً للخشية والخضوع والانقياد لأمر الله تعالى كما قال سبحانه: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨].

دين يرفع من شأن العلم: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر: ٩].

وآيات القرآن العظيم توجه إلى التفكير والتدبر والنظر، وإعمال العقل واللب في الوصول إلى الحق والصواب. ولهذا غمَّ الله تعالى كثيراً من الآيات بالأمر بذلك والحث عليه.

وقد أرشد الله تعالى في القرآن العظيم إلى أن الكون بمقائمه يتفق مع ما جاء في القرآن العظيم، وأن العلم الصادق يزيد الإيمان في النفس، فقال جل وعلا: {سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: ٥٣].

وقد أثر ذلك تأثيراً حضارياً قوياً في الأمة، وكان ذلك بدافع من الدين الإسلامي الذي شجع العلم، وقدر العلماء ودعا إلى التأمل والتفكير والتجريب، وأوروبا مدينة لهم بذلك.

ولهذا فهناك فرق شاسع بين موقف الإسلام من العلم وخاصة العلوم التجريبية وموقف الكنيسة من ذلك، خاصة ما كان في أوروبا قبل الثورة الفرنسية، وسيطرة الكنيسة ورجالها على عقول الناس وتفكيرهم، وتحريمها كل محاولة للتحرر من العبودية لرجال الكنيسة. وما نتج عن ذلك من الثورة على الكنيسة. بينما الإسلام قام أصلاً على العلم والتوجيه إليه والتحاكم إليه، فلا يصح عقلاً ولا واقعاً إسقاط أخطاء الكنيسة الباطلة على دين الإسلام، وادعاء أن الدين الإسلامي عاقت عن العلم ومانع من التقدم التقني والصناعي. وإن كان ذلك منهاج لمن لا معرفة عنده، أو من كان قصده غير الحق.

وإن المطلع على قرارات الجامعات العلمية - وخاصة ما يختص منها بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة - وما توصل إليه العلماء من عقائف علمية تطابق مع ما جاء به الخبر في دين الله تعالى، يرى إعجاز دين الإسلام؛ فيجد في ذلك الطمأنينة والثقة والأنس بأن الله تعالى أنعم عليه بالهداية للإسلام، وأكرمه باتباع سيرة خير الأنام، محمد عليه الصلاة والسلام.

وعيث إننا نعيش عصر حضارة مادية طغت على مشاعر الإنسان وشغلت أعماسه، فإن نعمة الله تعالى على أمة الإسلام في أن يتواكب هذا الدين بأصوله مع مقتضيات المرحلة وتظهر دلائل الإعجاز وإقامة الحجج على الناس في صور ظاهرة وصرحة، لا يمكن لأي بشر أن ينكرها ولا أن يتنكر لها، فهي دلائل على عظمة هذا الدين وعنايته بالعلم، ولهذا فتجد الإشارة إلى بعض من الصور الدالة على هذا الأمر المهم، مما تتجلى فيه صور الإعجاز العلمي في القرآن العظيم والسنة النبوية المطهرة، وتكون الإشارة دون التفصيل، فمن ذلك:

علم الفلك وما في هذا الكون الفسح من عظيم صنع الله تعالى، وما توصل له البشر من عقائف سبق إليها الإسلام.

' لا يخفى على مسلم أن دين الله تعالى حق وصدق، وأن ما في كتاب الله تعالى وسنة رسوله النابتة حق لا يرتاب فيه، وأن ما يرد من بحوث ودراسات في هذا الباب فيه الحق البين الواضح، وفيه ما يتكف له أصحابه ليتم التوافق والإعجاز، وإن ما نقصد له في هذا الباب هو الحقائق العلمية الواضحة، مما يستأنس به المرء، وتطمئن له النفس. والله أعلى وأعلم.

الأرضُ وما طرأ عليها من تغيراتٍ وحركةٍ دورةِ الماء فيها، والجبال وتثبيتها للأرض والشمس والقمر وجريانهما كلٌّ في فلكٍ يسبحون.

الإنسانُ وخلقُهُ، وما في ذلك من عقايق جاءت صريحةً في القرآن الكريم، ووقفت على بعضها المكتشفون من الغربيين والشرقيين، كعلم الأجنة وما فيه، ومراحل خلق الإنسان، وطبيعته ونفسه ونهايته.

عالم البحار، وأمواجه، ووجود الماء العذب في أماكن من البحار المالحة لا تمتزج، وتميز مياه الأنهار عند اختلاطها بمياه البحار، فلا يطفئ ماء البحر على ماء النهر. وكل ذلك العلم مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ركب بحراً ولا عاش قرب شاطئ.

إلى غير ذلك من دلائل الإعجاز وبراهين الحق التي تقوم على البشر في صدق ما جاء به رسول الله ﷺ.

ولنعرض لذكر أمثلةٍ مختصرةٍ على الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة:

ومن ملزج ذلك الإعجاز

إخبار الله بصيق التنفس عند الصعود إلى أعلى «الضبط الجوي»، يقول سبحانه: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فهذه حقيقة علمية حديثة.

أخبر الله عن موجين في البحار الموج الذي نراه، وموج آخر داخل البحار لم يكتشفه العلماء إلا حديثاً، فقد قال سبحانه: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُحِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ولا سمع بحار إنجليزي بهذه الآية سألت هل ركب محمد البحر؟ فلما قيل له: لا. آمن على الفور، وقال: إن ما ذكره محمد ﷺ إنما هو من عند الله، وليس من تلقاء نفسه.

* ومما ذكره الله عن البحر: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]، فلا تختلط مياه البحار ولا تطفئ على مياه الأنهار مع أنها تلتقي بل جعل الله حاجزاً طبيعياً يمنع انتقال الملح إلى مياه الأنهار حتى في حالات المد.

مراحل خلق الإنسان بدءاً بأصله وهو من تراب ثم أمهال الجنين في بطن أمه، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

[المؤمنون: ١٢-١٤].

وجاء الطب الحديث بما يوافق تلك العقائق التي نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرناً، حتى أسلم عددٌ من علماء الأجنة.

* أخبر الله سبحانه عن بداية الأرض وأنها كانت ملتصقةً مع الشمس ثم انفصلتا، وأن الماء أصل كلِّ حياةٍ، ودور الجبال في ثبات الأرض، وحفظ توازنها، وجريان الشمس والقمر كلٌّ في فلكٍ محصم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي

الأَرْضِ رَوَّاسِيٍّ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سَبَّالًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ. [الأنبياء: ٣٠-٣٣].^١ فهذه آيات الله تعالى مسطوره في كتابه العظيم، ومبتوئه في سنته نبيه الكريم، وشاهده صدق في واقع الكون والحياة، يهدي بها الله عباده إلى وحدانيته وألوهيته وأسمائه وصفاته جل وعلا.

وأخيراً فإننا نطمح أن يراجع القارئ الكريم هذه الكتب والمواقع المهمة لما فيها من عقائفة عظيمة:

كتاب التوراة والإنجيل والقرآن والعالم، لوريس بوكلي العالم الفرنسي الذي أسلم لما تجلّى له موافقة عقائفة العالم للقرآن.

وكذلك مؤلفات الشيخ العالم عبد المجيد الزنداني.

وكذلك موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وهو موقع متعدد اللغات وتحت رعاية رابطة العالم الإسلامي، ومحتوي عدداً كبيراً من البحوث والدراسات المتخصصة.

<https://www.eajaz.org>

وكذلك موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة؛ موقع متعدد اللغات، ومحتوي موضوعات كثيرة ومتجددة.

<https://eajazcenter.com/ar>

الخاصية الثانية عشر: دين الأخلاق

الإسلام دين الأخلاق، فما من حكم شرعي في دين الإسلام إلا ويلبّي مقصدًا خلقياً حميداً للإنسان، ولهذا كان قول نبينا محمد: «إِلْمَ بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَرَمَ وَفِي رِوَايَةٍ (صَالِحٍ) الْأَخْلَاقِ.»^٢ كانت العرب تتخلّف ببعض من محاسن الأخلاق بما بقي عندهم من شريعة إبراهيم عليه السلام، ولكن كانوا قد ضلّوا بالكفر عن كثير منها؛ فبعثت صلي الله عليه وسلم ليتمّ محاسن الأخلاق، كما يؤكّد هذا الحديث؛ حيث يقول النبي صلي الله عليه وسلم: "إِنَّمَا بُعِثْتُ"، أي: أُرْسِلْتُ لِلخَلْقِ، "لِأَتَمِّمَ"، أي: أُلِّمَ مَا انْتَقَصَ، "مَكَرَمَ الْأَخْلَاقِ"، أي: الأخلاق الحسنة والأفعال المستحسنة التي جبل الله عليها عباده؛ من الوفاء والمروءة، والحياء والعفة، فيجعل حسناتها أحسن، ويصنّف على سيئها ويمنع.، وقوله: "إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدِكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ التُّرْبَانُونَ وَالتُّشَدِّقُونَ وَالتَّقِيهُونَ، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا التُّرْبَانِينَ وَالتُّشَدِّقِينَ، فما التَّقِيهُونَ؟ قال: التُّكَبَّرُونَ"^٣. فالترثرة والتشدق والتفهيقة صفات ذميمة لما تضمنه من معنى العجب بالنفس والرد للحق والتعالي على الخلق.

وفي الحديث: "إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا."^٤

^١ انظر: حوار مع نصراني (ص: ٢٥-٣١).

^٢ أخرجه البزار (8949)، وتمام في (الفوائد) (276)، والبيهقي (21301). والرواية أخرها أحمد (8952)، والبيهقي في (شعب الإيمان) ((7978) واللفظ لهما، والحاكم (4221) باختلاف يسير.

^٣ صحيح سنن الترمذي 2018.

^٤ أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل، رقم (٥٦٨٨).

ومن أراد بالتسلك بالإسلام فعليه أن يكون حسن السلوك، سامي الخلق، شريف المعاملة، ولقد كان في سيرة النبي وصحابته الكرام، وسلف الأمة، أعظم مثال على ذلك المجتمع الأخلاقي المثالي

والله جل وعلا حين أننى على نبيه محمد ﷺ، كان ثناءه سبحانه بأبلغ وأرفع عبارة في قوله جل وعلا: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ.} [القلم: ٤].

وحين يقرأ المسلم القرآن العظيم أو يتتبع سنة رسول الله ﷺ يجد أن الله تعالى يؤكد على صفات أهل الإيمان بأنها الصفات الفاضلة، ويفصل في ذكرها تفصيلاً يبين سمو أخلاق هذا الدين ومقاصده، في صنف الناس بهذه الصبغة الأخلاقية الإلهية السامية، يقول الله جل جلاله: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ.} [المؤمنون: ١ - ٦].

وقال جل وعلا عن عباد الرحمن: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا، وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا، وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا.} [الفرقان: ٦٣-٦٨].

وفي سنة نبينا محمد ﷺ من النصوص ما يؤكد على هذه الحقيقة ويجعلها وصفاً رئيساً من صفات المؤمنين: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُوَدِّعُ جَارَهُ؛ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْقَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَقْلُ خَيْرًا أَوْ لِيَصْنَعَتْ."^١ ويقول: المُسَلِّمُ مِنَ سَلَمِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ لِسَانِهِ وَيَدِهِ.^٢

وهو دين الصدق كما قال الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلُونَا مَعَ الصَّادِقِينَ.} [التوبة: ١١٩].

وهو دين الصبر؛ كما قال عز وجل: {إِنَّمَا يُوفِى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ.} [الزمر: ١٠].

وهو دين التسامح والعفو: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ.} [الأعراف: ١٩٩].

وهو دين التعاون والنصرة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وهو دين الوفاء؛ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ.} [المائدة: ١]. إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الكثيرة التي تحت على الأخلاق الفاضلة.

وتتجلى هذه الخصيصة في أحكام هذا الدين وتفصيلات شريعة الله تعالى، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة فيها التربية على سحاء النفس وبذلها، وفي الصوم تلتبس أحوال الفقراء والشعور بحاجتهم، وفي الحج نهي عن الرقت والفسوق والجدال والصخب وتدريب النفس على الصبر والإيتار والمعاملات بين الناس تقوم على الموضوع والمصلحة المتبادلة، وتدمم الأحكام الشرعية الأنايية والمكر والغش والخداع والاحتكار وكل ما فيه جهالة وعثرة.

^١ أخرجه البخاري (٣١٥٣).

^٢ أخرجه البخاري (١٠).

ثم إن من دلائل أخلاقية الإسلام، أن المسلم وهو في أسمى المواقف وأشدّ الأوقات في الحرب وعين يُطرب ضجيج السلاح أسمع الأبطال، وعين تحمل الأرواح على الألف، وعين يتقابل المسلم مع الكافر في الحرب، تتجلى أخلاقية الإسلام، {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة: 190].

ويقول جل وعلا: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوا عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَقُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة: ٢].

ولقد كان من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصاياه لمن يبعثهم من هند الإسلام، ما فيه سمو أخلاق هذا الدين؛ فقد كان ﷺ إذا بعث أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «... لا تفلثوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأةً ولا شيخاً...» الحديث¹.

فهذه لمحة سريعة لهذه الخصيصة التي يمتاز بها دين الإسلام عما سواه من المناهج الأخرى.

الخصيصة الثالثة عشر: دين الفطرة

أن الخصيصة الرئيسة للعقيدة الإسلامية هي أنها عقيدة الفطرة السليمة التي فطر الله تعالى الناس عليها؛ إذ لما دعا الإسلام البشر جميعاً إلى الإيمان بالله والعبودية له وعده كان لهذه العقيدة صدق في أعماق فطرة الإنسان؛ وفطرية الإسلام كانت العامل الرئيس الذي دفع الناس إلى الإقبال على الإسلام.

والمراد بالفطرة الابتداء والاختراع، والمعنى في قوله: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ" أنه يولد على نوع من الجيلة والطبع التمهيني لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستقر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها، وإلم يعدل عنه من يعدل؛ لآفة من آفات البشر والتقليد².

فالإسلام هو الدين الذي جبل الله الناس عليه وهياهم لقبوله والعمل به. فلا يتعارض مع طبيعة الإنسان ولا يتضاد مع رغباته؛ بل يتفق معها ويوجهها ويرشدّها إلى الأصح والأسلم، فلو تجرد الإنسان من الهوى والعناد، لاعتترف بدين الإسلام وأنه الدين الحق.. {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم: 30].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصْرَانِهِ وَيُمَجْسَانِهِ. كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَتِ جَمْعَاءَ. هَلْ تَحْسُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءِ؟" ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَأَقْرَأُوا إِنْ سَأَلْتُمْ: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ﴾³

فإنه جبل وعلا خلق الناس عنفاء كلهم، ثم اجتالهم شياطين الجن والإنس فصرفتهم عن الحق والهدى والفطرة السليمة، ففي حديث عياض ابن عمير المجامعي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

¹ أخرجه مسلم (١٧٣١).

² النهاية في غريب الحديث (3/ 457).

³ أخرجه البخاري (4497)، ومسلم (2658).

قال ذات يوم في خطبته: "ألا إنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمُ مَا جَهِلْتُمْ مَعًا عَلَّيَنِي يَوْمِي هَذَا.. وفيه: وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي مُنْفَاءً كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَمُّهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَهْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُثْرِكْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ؛ عَرَمَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ..."²⁷

¹ الحديث أخرجه مسلم (2865).

² مدخل إلى الثقافة الإسلامية، ص 68-77

الفصل الثالث

عرض مقاصد الإسلام

وفيه تمهيد وخمسة مقاصد:

المقصد الأول: حفظ الدين.

المقصد الثاني: حفظ النفس.

المقصد الثالث: حفظ النسل.

المقصد الرابع: حفظ المال.

المقصد الخامس: حفظ العقل.

تمهيد: مقدمات حول مقاصد الإسلام وأهميتها:

المطلب الأول

مقدمات حول مقاصد الإسلام

مقاصد الإسلام هو ما يعبر عنه العلماء بمقاصد الشريعة، وبيان الأمر في النقاط التالية:

أولاً: مفهوم مقاصد الإسلام:

المقاصد لغة: مادة قصد لها معان كثيرة في اللغة العربية ومنها: الاستقامة، والسهولة، والعدل، والإرادة، والوسطية، والاعتماد، وإتيان الشيء، والتوجه، والنية، والغاية، والتعمد⁽¹⁾.

مقاصد الإسلام اصطلاحاً:

عرف المقاصد الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بقوله: "المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها"⁽²⁾.

وعرفها الأستاذ علال الفاسي بقوله: "بأنها الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها"⁽³⁾.

وعرفها الأستاذ يوسف حامد العالم بقوله: "هي المصالح التي تعود إلى العباد في دنياهم وأخراهم، سواء أكان تحصيلها عن طريق جلب المنافع أو عن طريق دفع المضار"⁽⁴⁾.

وقيل: "الغايات التي تهدف إليها النصوص من الأوامر والنواهي والإباحات، وتسعى الأحكام الجزئية إلى تحقيقها في حياة المكلفين، أفراداً وأسرّاً وجماعات وأمة"⁽⁵⁾.

ثانياً: كلام الشاطبي عن مقاصد الإسلام الكلية:

قال الشاطبي -: "تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام: أحدها: أن تكون ضرورية. والثاني: أن تكون حاجية. والثالث: أن تكون تحسينية.

فأما الضرورية: فمعناها أنها لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهاجر وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين...

(1) انظر: لسان العرب 3/357، والصحاح في اللغة 2/79، والقاموس المحيط ص 397.

(2) مقاصد الشريعة الإسلامية، لابن عاشور، ص 165.

(3) قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي، د. عبدالرحمن إبراهيم الكيلاني، ص 46.

(4) المقاصد العامة للشريعة الإسلامية ص 79.

(5) دراسة في فقه مقاصد الشريعة، د. يوسف بن عبدالله ص 20.

ومجموع الضروريات خمس وهي: حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل⁽¹⁾.

فإن الضروريات الخمس والتي يسميها بعض أهل العلم بالطيات وما شرعته الشريعة لحفظها من الأمور العظيمة التي على الدعاة تعليمها المسلمين والتعريف بها لغير المسلمين.

وجعلها بعضهم ستة فزاد على الخمسة المذكورة، العرض، وأدلتها واضحة من القرآن والسنة ولا يتسع المقام لتبعتها.

وهذه الطيات هي التي اتفقت الأديان السماوية وأصحاب العقول السليمة على احترامها وصيانتها، وقد أجمع أنبياء الله تعالى ورسوله من عهد آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم على وجوب حفظها. ولهذا جاءت الشريعة الإسلامية بمجموعة من التشريعات تضمن هذه الضروريات منذ كرها فيما بعد.

فالشريعة الإسلامية جاءت لحفظ الضرورات الخمس الذي فيه الأمن والأمان في الدنيا والآخرة، وهي: حفظ الدين وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال، (وعند البعض حفظ العرض) وتقسيمات هذه المقاصد الشرعية، وبيان أنواعها، مما يعطينا تفصيلاً لهذه المقاصد، وتتنوع المقاصد من ناحية التقسيم تنوعات كثيرة بحسب الاعتبارات في التقسيم، وباعتبار المصالح التي جاءت لحفظها، وهي ثلاثة أنواع:

الأول: المقاصد الضرورية التي لا بد منها، لا يمكن للبشر أن يعيشوا بدونها.

النوع الثاني: المقاصد الحاجية.

والنوع الثالث: المقاصد التحسينية.

والأحكام الشرعية ليكفل تحقيق المصالح بأقسامها الثلاثة.

ومقصود الشرع من الخلق خمسة: أن يحفظ عليهم دينهم، أن يحفظ عليهم أنفسهم، أن يحفظ عليهم عقولهم، أن يحفظ عليهم نسلهم، أن يحفظ عليهم أموالهم.

كل ما يضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول الخمسة فهو مفسدة.

إذن رفع المفسدة ماذا يكون؟ مصلحة. ورفع المصلحة ماذا يكون؟ مفسدة.

ثالثاً: كيفية حفظ مقاصد الإسلام الكلية:

قال الشاطبي: "والحفظ لها يكون بأمرين:

أحدهما: ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود.

والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم.

فأصول العبادات راجعة إلى حفظ الدين من جانب الوجود كالإيمان والنطق بالشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج وما أشبه ذلك، والعبادات راجعة إلى حفظ النسل والمال من جانب الوجود، وإلى حفظ النفس والعقل أيضا لكن بواسطة العادات.

والجنايات ويجمعها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ترجع إلى حفظ الجميع من جانب العدم⁽¹⁾.

رابعا: علاقة مقاصد الإسلام الكلية بالحدود:

بعض العلماء المتقدمين مثل الإمام القرافي أدخلوا العرض زيادة على المقاصد الخمس، لتكرار ذكره في الأحاديث كقول النبي ﷺ: ((كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه))⁽²⁾.

ولأنه شرعت في الاعتداء عليه عقوبة معروفة ذكرها القرآن وهي عقوبة القذف. ويبدو أن مسألة العقوبات كان لها أثر في تحديد الكليات أو الضروريات، فحد الردة أخذ منه حفظ الدين، وحد القصاص أخذ منه حفظ النفس، وحد السرقة أخذ منه حفظ المال، وحد الزنا أخذ منه حفظ النسل، وحد السكر أخذ منه حفظ العقل.

خامسا: الترتيب في مقاصد الإسلام الكلية:

مع أهمية جميع الضروريات الخمس إلا أنها ليست على درجة واحدة، فبعضها مقدم على بعض عند التعارض⁽³⁾.

قال ابن أمير الحاج: "ويقدم حفظ الدين من الضروريات على ما عداه عند المعارضة لأنه المقصود الأعظم، وغيره مقصود من أجله، ولأن ثمرته أكمل الثمرات وهي نيل السعادة الأبدية في جوار رب العالمين، ثم يقدم حفظ النفس على حفظ النسب والعقل والمال لتضمنه المصالح الدينية لأنها إنما تحصل بالعبادات، وحصولها موقوف على بقاء النفس، ثم يقدم حفظ النسب لأنه لبقاء نفس الولد إذ بتحريم الزنا لا يحصل اختلاط النسب، فينسب إلى شخص واحد فيهتم بتربيته وحفظ نفسه، وإلا أهمل فتفوت نفسه لعدم قدرته على حفظها، ثم يقدم حفظ العقل على حفظ المال لفوات النفس بفواته حتى إن الإنسان بفواته يلتحق بالحيوانات ويسقط عنه التكليف، ومن ثمة وجب بتفويته ما وجب بتفويت النفس وهي الدية الكاملة، ثم حفظ المال"⁽⁴⁾.

هناك فرق في التسلسل

سادسا: الوسطية في عرض ودراسة مقاصد الإسلام:

هناك عدد من المدارس في عرض ودراسة مقاصد الشريعة، منهم المدرسة العقلية التي تقدم المقاصد وتعطل النصوص، وعكسها المدرسة الظاهرية التي تقف على النص حرفيا بدون النظر للمقاصد.

أما المدرسة الوسطية فهي التي تربط بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية، ومن سماتها وخصائصها: الإيمان بحكمة الشريعة وتضمنها مصالح الخلق، وربط نصوص الشريعة وأحكامها ببعضها ببعض، والنظرة المعتدلة لكل

(1) الموافقات 18/2-20.

(2) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره، ودمه، وعرضه، وماله (2564).

(3) اختلف العلماء في ترتيب هذه الضروريات ويمكن الرجوع لذلك في كتب المقاصد. مثل: مقاصد الشريعة الإسلامية د. محمد اليوبي، ومقاصد الشريعة عند ابن تيمية.

(4) التقرير والتحرير 231/3.

أمور الدين والدنيا، ووصل النصوص بواقع الحياة وروح العصر، وتبني خط التيسير، والانفتاح على العالم والحوار والتسامح دون ذوبان أو استلاب.

وترتكز على البحث عن المقصد بطرقه المعروفة قبل إصدار الحكم، وفهم النص في ضوء أسبابه وملايساته، والتمييز بين المقاصد الثابتة والوسائل المتغيرة، والملاءمة بين الثوابت والمتغيرات، والتمييز في الالتفات إلى المعاني بين العبادات والمعاملات.

ومن النتائج التي أسفر عنها فقه هذه المدرسة أنها كان لها الأثر الواضح في اجتهاداتها ومواقفها المتوازنة في مختلف القضايا الفقهية والفكرية: الشخصية والأسرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدولية، كما وفقت إلى وضع حلول لكثير من المشكلات التي يعانها الأفراد والمجتمعات، وأجابت عن كثير من التساؤلات التي تثير أعدادا كبيرة من المسلمين، فوجدوا في أجوبة هذه المدرسة ما يعينهم على التمسك بالعروة الوثقى والاعتصام بحبل الله⁽¹⁾.

سابعا: كيف تستنبط مقاصد الإسلام:

تستنبط مقاصد الشريعة من خلال:

- 1- تتنوع النصوص التي جاءت بتعليقات في القرآن والسنة، لنعرف منها مقاصد الإسلام وأهدافه، مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] فهنا بين أن مقصد كل الرسالات إقامة العدل.
- 2- استقراء الأحكام الجزئية وتتبعها والتأمل فيها وضم بعضها إلى بعض، للوصول لمقصد كلي أو مقاصد كلية قصدتها الشارع الحكيم⁽²⁾.

والناظر في دراسة مقاصد الشريعة الإسلامية يجد أن علماء المسلمين قد استنبطوا هذا العلم وضبطوه عبر مراحل تاريخية ممتدة من عصر النبي صلى الله عليه وسلم حتى عصرنا هذا. وفي تسلسل عميق، جعل بعضها يدخل في بعض، حتى اجتمعت حكمها في الطيات الخمس المشهورة، وهي: (حفظ الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال)، ثم رتبوا هذه الطيات الخمس حسب الأهمية، بحيث تقدم المصلحة الأهم عند تعارضها، فيضحي بالمال لحفظ العرض، وكل ما قبله، ورضي بالنفس لحفظ الدين، ولا يجوز أن يضحي بالدين لحفظ المال³.

المطلب الثاني

أهمية عرض مقاصد الإسلام دعويا

خلق الله تعالى عباده وشرع لهم من الأحكام ما يصلح شأنهم في معاشهم وينجيهم في معادهم، ولعل من أعظم الأصول والمقاصد التي اتفقت عليها جميع الأديان والشرائع السماوية - وعلى رأسها الإسلام الذي هو

(1) دراسة في فقه مقاصد الشريعة- د. يوسف بن عبدالله، وقد قمت باختصار فكرة الكتاب.

(2) ينظر: الفقه السياسي ونظام الحكم في ضوء قواعد الشريعة وأصول الفقه، د. أشرف محمد علي غازي، ص 67.

³ القرآن إعجاز تشريعي متجدد د/ محمود أحمد الزين - دار البحوث للدراسات الإسلامية - دار إحياء التراث حبي - الطبعة الأولى (1425هـ = 2004م) (35).

خاتم الأديان والذي ما زال محفوظاً بحفظ الله من التبديل والتحريف - والتي من خلالها تنتظم حياة المجتمع الإنساني دينياً ودينيوياً، وبدونها أو باختلالها ينعدم النظام في المجتمع، ويختل ميزان استقرار الحياة فيها: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، والتي اتفق علماء الإسلام على تسميتها بالضروريات الخمس، التي هي أهم مقاصد التشريع الإسلامي.

وأهمية المعرفة بمقاصد الإسلام تكمن في أن هذا العلم يبحث ويدرس ويبرز جوهر الإسلام وغايته ورسالته، ويكشف عن حكم الإسلام ومقاصد أحكامه وهذا مما يعين على إبراز محاسن الشريعة ومكارمها، ونفي الأفهام والتفسيرات المشوهة للإسلام، والتقويم والتسديد والإمداد لسائر العلوم والدراسات الإسلامية. والغفلة عن استحضار مقاصد الإسلام، يوهم أن للدعوة غاية واحدة هي استجابة الناس واتباعهم للحق، وبناء عليه يتخذ من ذلك مقياساً وحيداً لصحة الدعوات ونجاحها أو خطئها وفشلها، مما يترتب عليه الانتقاء والغلو والإفراط أو التفريط والنظرة المحدودة عن الإسلام التي في النهاية تؤدي إلى نفرة الناس من الدين ومن أهله حيث إن الإسلام في جملته هو الذي يصلح الناس في دينهم وديناهم أما النظرة إليه من جانب واحد فقط فيؤدي إلى تشويههم وعدم صلاحيته لكل زمان ومكان.

ومن هنا تتجلى أهمية معرفة مقاصد الشريعة في أمور كثيرة، أذكر منها ما يخص تأهيل الدعاة في النقاط التالية:

- 1) يعين على التعرف على الإطار العام للإسلام، والتصور الكامل للإسلام، وتوضيح الصورة الشاملة للتعاليم والأحكام، لتتكون النظرة الكلية الإجمالية للفروع، وبذلك يعرف الداعية ما يدخل في الإسلام وما لا يدخل فيها.
- 2) إبراز علل التشريع وحكمه وأغراضه ومراميه الجزئية والكلية العامة والخاصة في شتى مجالات الحياة وفي مختلف أبواب الشريعة.
- 3) إبراز أهداف الدعوة الإسلامية التي ترمي إلى تحقيق مصالح الناس، ودفع المفسد عنهم، وذلك يرشد إلى الوسائل والسبل التي تحقق السعادة في الدنيا والفوز برضوان الله في الآخرة.
- 4) يؤكد على خاصية الإسلام في صلاحية الشريعة ودوامها وواقعيتها ومرونتها وقدرتها على التحقق والتفاعل مع مختلف البيئات والظروف والأطوار.
- 5) يعين على التوازن في الأعمال الدعوية، فلا يطغي جانب من جوانب الشريعة أو العبادة على جانب آخر، بل يدعو إلى أعمال الإسلام كله من غير إفراط ولا تفريط.
- 6) مقاصد الإسلام تجعل الإسلام يتحرك بين الناس بمرحلية، من غير تأخر ولا استعجال، بتدرج مدرّوس يراعي الواقع والأحوال والأفراد والجماعات.
- 7) مقاصد الإسلام تضبط الأفكار والمناهج، وتساعد على إدراك مآلات الأفعال.
- 8) مقاصد الإسلام تعين على رد الشبهات التي تثار حول الإسلام؛ ببيان منهجه الأصيل، وإدراك مراميه وأهدافه، فتبين صورة الإسلام واضحة.

(9) مقاصد الإسلام تساعد الدعاة على تحقيق أهدافهم، وترشيد مسيرتهم، بأقصر طريق، وأقل وقت وجهد مبذول، وبتقليل من المواجهات⁽¹⁾.

فوائد معرفة مقاصد الإسلام للمسلمين وللتعريف بها لغير المسلمين كثيرة منها باختصار شديد:

الفهم الصحيح والعميق لشريعة الإسلام وتعميق فهم القرآن وسنة رسول - صلى الله عليه وسلم. وللفقهاء والدعاة للوصول إلى الحكم الشرعي في النوازل التي لم يُصنَّ عليها في الشرع وللتيسير على الناس في دينهم وديارهم؛ قال الله - سبحانه وتعالى -: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: 185]. ولتثبت كذلك أن الشريعة الإسلامية كلها حكمت وعدت ورعته ومصالحته، وصالحته لكل زمان ومكان، ولكل شخص وأمة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ونؤذي رسالتنا المنشودة التي قالها ربي بن عامر - رضي الله عنه - لرستم قائد الفرس: "نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من يشاء من عباده، من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام".

وهنا سنعرض لمقاصد الإسلام الكلية - الخمس دون التعرض للخلاف في تفصيلاتها أو في ترتيبها - إظهاراً لأهميتها في تكوين تصور وممارسة صحيحة عن الإسلام:

المقصد الأول

حفظ الدين

أولاً: مفهوم حفظ الدين:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "معرفة رب العالمين غاية المعارف وعبادته أشرف المقاصد والوصول إليه غاية المطالب، بل هذا خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلهية"⁽²⁾.

وحفظ الدين يقوم على أصلين: الأول: حفظ الدين من جانب الوجود، وذلك بالمحافظة على ما يقيم أركانه ويثبت قواعده، الثاني: حفظ الدين من جانب العدم وذلك برفع الفساد الواقع أو دفع الفساد المتوقع⁽³⁾. وحفظه من جانب الوجود يكون بخمسة أمور: العلم، والعمل به، والدعوة إليه، والحكم به، والجهد من أجله.

(1) انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور، ص36، علم المقاصد الشرعية، د. نور الدين بن مختار الخادمي، ص51، الاجتهاد المقاصدي، د. نور الدين بن مختار الخادمي، ج1 ص85، الأسس العامة لفهم النص الشرعي، د. عبدالمجيد السوسوة، ص42، منهج التيسير المعاصر، عبدالله بن إبراهيم الطويل، ص24.

(2) مجموع الفتاوى: 13/2، وانظر مقاصد الشريعة عند ابن تيمية ص450.

(3) الموافقات 18/2.

وأما حفظ الدين من جانب العدم: فكتاب الله الكريم قد بين ضلال أهل الكتاب وكشف زيفهم وأنهم ليسوا على شيء، وحاجهم وأبطل زعمهم في القول بأن الله هو المسيح بن مريم أو القول بأن المسيح ابن الله، وفي دعوى الصلب والفداء⁽¹⁾.

ثانياً: أهمية حفظ الدين:

الدين ضرورة ملحة في حياة الإنسان، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

فالدين يلي النزعة الإنسانية والحاجة الفطرية التي تدفع الإنسان دفعا لعبادة الإله الواحد سبحانه، تلك الحاجة التي يفتقدها كثير من غير المسلمين في العالم اليوم، والتي هي السبب الرئيس في الفراغ الروحي الذي يعترف به القاصي والداني منهم، والذي هو سبب الكثير من الكوارث الإنسانية المعاصرة، لعل أخطرها كارثة فقدان الإنسان لحقيقة وجوهه وسبب وجوده على هذه الأرض عبادة الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

حفظ الدين يمد الإنسان بالوجدان والضمير، ويقوي في نفسه نوازع الخير وعناصر الفضيلة، ويضفي على حياته السعادة والطمأنينة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ءَآمَنٌ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

"ويقدم حفظ الدين من الضروريات على ما عداه عند المعارضة لأنه المقصود الأعظم، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وغيره مقصود من أجله، ولأن ثمرته أكمل الثمرات وهي نيل السعادة الأبدية في جوار رب العالمين"⁽²⁾.

لقد تجلت أولوية حفظ الدين على غيرها من الضروريات في حياة النبي ﷺ قولا وعملا، فحين ساومه أهل مكة على الرسالة الإسلامية والدين الحنيف الخاتم، كان رده أبلغ جواب لمن أراد معرفة منزلة الدين وضرورته في حياة المسلم والإنسان: ((يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته))⁽³⁾.

كما تجلت هذه الأولوية والضرورة في حياة وسلوك أصحابه من بعده ﷺ، فقدموا في سبيل الله ونشر دين الإسلام الغالي والنفيس من الأنفس والأموال والأولاد، وتحملوا في سبيل عقديتهم كل ألوان العذاب، ولعل في

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، ص 196 وما بعدها باختصار.

(2) التقرير والتحبير 231/3

(3) السيرة النبوية لابن هشام 166/1، والروض الأنف للسهيلي 11/3.

قتال أبي بكر الصديق ؓ المرتدين عن دين الله الإسلام بعد وفاته ﷺ، خير شاهد على أهمية وضرة الدين في حياة السلف الصالح⁽¹⁾.

ثالثا: وسائل حفظ الدين:

1- إن الشريعة الإسلامية تغرس اليقين بأصول الإيمان وأركانه - الإيمان بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

2- جمعت الشريعة في إقامة الإيمان على البرهان العقلي والحجة العلمية أيضا، ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلى النظر والتفكر والتدبر: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

3- أمرت الشريعة الإسلامية بالقيام بأصول العبادات وأركان الإسلام، فمن أهم أسرار العبادات وحكمها أنها تصل العبد بربه وتوثق صلته به، مما يرسخ أصل الإيمان في نفسه ويجدده، كما أوجبت الدعوة إلى الله وحماتها وتوفير أسباب الأمن لحملتها.

4- شرع الله الجهاد تمكينا للدين وحماية للاعتقاد، ودرء للعدوان عليه وعلى أتباع الدين وعلى الناس عموما، ونصرة للمظلوم، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَسُوا فَلَا عُذْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

5- أوجبت الشريعة الإسلامية الالتزام بتعاليم الدين وتطبيقها عن قناعة بها، ولم تقبل مجرد النطق باللسان والتصديق بالقلب دليلا على الإيمان، بل لا بد من قرن الإيمان بالعمل الصالح ليكتمل ويقبل.

6- شرع الله عقوبة الردة لكل من تسول له نفسه أن يتخذ الدين العوبة أو حيلة للنيل منه أو الطعن فيه، فمن ارتد بعد أن دخل هذا الدين بقناعة تامة، فقد أثبت على نفسه أنه إنما أراد بدخوله الإسلام إحداث بليلة واضطراب داخل المجتمع المسلم، ومن هنا يمكن فهم محاولة أهل الكتاب الولوج من هذا الباب للنيل من دين الله الإسلام: ﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]. وقال ﷺ: ((مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ))⁽²⁾.

وقال أيضا: ((لا يجل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة))⁽³⁾.

(1) من مقال بعنوان: لماذا كان حفظ الدين أهم ضروريات الإسلام؟ د. محمد لافي، منشور على موقع المسلم.

(2) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: لا يعذب بعذاب الله (3017).

(3) صحيح مسلم، كتاب القسام والمباريات والقصاص والديات، باب ما يباع به دم المسلم (1676).

الدين أولى الضروريات وكيفية حفظه

وحفظ الدين أولها وأكبر الطيات الحسنة وأرقاها، لأن الغاية التي خلقت لها هو هذا، الدليل؟ قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 56]، وضياعه ضياع بقية المقاصد.

لماذا يقدم حفظ الدين على كل شيء؟

لأن ضياع الدين ضياع بقية المقاصد، وغراب الدنيا بأسرها، وقد شبه الله حال الأمم التي خلقت من الدين الصحيح بالأموات، وشبه الدين بالحياة للأمم، قال تعالى: {أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كُنْ مِثْلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِجَارِعٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}. [الأنعام: 122].

لذا فقد شرع الله من الوسائل ما يتم به حفظ الدين، ومن ذلك: تعلمه، والعمل به، والدعوة إليه، والحكم به، والجهاد من أجله، ورد ما يخالفه، والصبر على الأذى في سبيل تحقيق ذلك.

فلحفظ الدين شرع الله أركان الإيمان وأركان الإسلام، من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج، بعد النطق بالشهادتين. فإذن لو قلت: حفظ الدين بإقامته، ومنع زواله واختلاله.

كيف تكون الإقامة؟

أولاً: بإقامة الشرائع، بأداء العبادات والمعاملات والأخلاق.

ثانياً: الدعوة إليه، فلا يُصور قيام الدين وانتشاره، وحفظ الدين في نفوس الخلق بدون الدعوة إليه، وبيان محاسنه، وتوضيح أحكامه وآدابه، وكشف الشبهات عنه، وفي ترك الدعوة تهديد لوجود الدين، وتشويه لمقائمه، وطمس لمعالمه. وعزوف المسلمين عن الدعوة أمر خطير يضر البشرية كلها وتتركهم في غياهب الجهل والشرك والخرافات.

فإذن الدعوة للدين هذه مهمة جداً في حفظ الدين، لأنها تثبته، وترسي قواعد، وتبين عقائمه، وفيها حماية له ودفاع عنه برد شبهات وتصحيح المفاهيم الخاطئة.

فالدعوة إلى الله من أعظم الوسائل وأنفعها لحفظه واستمراره، ولهذا جاء الأمر بها، ورتب على القيام بها أمر عظيم، والتفريط بها فيه زجر كبير، قال تعالى: {وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْغَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَهْتُونَ عَنَ الْمُحْسِنِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}. [آل عمران: 104].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فالمرصدون للعلم، عليهم للأمة حفظ علم الدين وتبليغه، فإذا لم يبلغوه علم الدين، أو ضيعوا حفظه، كان ذلك من أعظم الظلم للمسلمين، ولهذا قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [البقرة: 159]. "فالمرصدون للعلم" يعني: كلامه يشير إلى أن الخليفة أو الإمام من واجباته إرصاد ناس للعلم

والدعوة، يعني: توفير علماء في الأمة من وظيفة الإمام، يفرغهم، يبحث عنهم، يوحى لهم الجو، هذه من وظيفة الإمام أنه يوجد علماء.

يعني: إذا كان أهل الباطل، الساحر الكافر يقول للملك الكافر: ابعت إلي غلاماً أعلمه السحر. معناها ماذا يجب على الإمام المسلم؟

أن يبحث ويصطفى من الصغر من يتعلم الدين ليحمله، يفهمه ليعلمه، ويجب على الإمام تحقيق حفظ الدين بتوفير الدعاة اللازمين لنشره، والدفاع عنه، يعلمهم، يدرّبهم، يؤهلهم بمهارات دعوية ضرورية ثم يفرغهم، ينفق عليهم، يعطيهم وسائل.

وإذا ما فعلوا فعلى المسلمين أن يجتهدوا لفتح معاهد جامعات مدرّاس وعلى الناس عامة والتجار خاصة أن ينفقوا عليها.

قال: "فإن ضرر كتمانهم قد تعدى إلى البهائم وغيرها، فلعنهم اللاعنون حتى البهائم"، {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [البقرة: 159].

يدخل في اللاعنين البهائم؛ لأن البهائم تنضر من كتمان العالم؛ لأنه يقع به الفساد في الأرض، وترتب عليه قحط المطر، وفساد الزروع والثمار: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} [الروم: 41].

فتضرر البهائم فلعن الكافرين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "كما أن معلم الخير يصلي عليه الله، وملائكته، ويستغفر له كل شيء، حتى الحيتان في جوف البحر، والطير في جو السماء" [مجموع الفتاوى: 187/28].

إذن لو قال قائل: هذه أهدأيت عميية، يعني العالم للدرجة هذه، يعني يستغفر له الموت في البحر، والنمل في الجحر؟

نقول: نعم. لماذا؟ نقول: لأن العالم الذي يُعالم، وبين يدي دوراً في حفظ الدين، الذي لا تقوم الحياة إلا به، ولولا هذا لصاع الهدف من حياة الدنيا.

وقد ذكر العلماء في كتب الأحكام السلطانية، "أن من أوجب الواجبات على الحاكم المسلم: حفظ الدين على أصوله المستقرة، كما تركها محمد ﷺ، وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن نجم مبتدع أو ناع ذو شبهة عنه، أوضع له الحجة وبين له الصواب، وأخذ به بما يلزم من الحقوق والمدود، ليكون الدين محروساً من خلل، والأمة ممنوعة من زلل" [الأحكام السلطانية: 26/1].

ثالثاً: تحكيم الدين في الحياة.

حفظ الدين يعني لا بد من أن الدين يحكم، وليس في الرف، وفي كتب، وفي متاحف، لا بد يكون فعال، وفي حياة الناس، فليس حفظ الدين مجرد مثلاً حفظ نصوصه، أو طباعة في كتب، أو وضعه في مواقع

انترنت، لا. ما هو القانون الذي يسري بين الناس؟ الشرع. وعند الاختلاف يرجعون إلى ماذا؟ المحاكم والقضاة الشرعيين.

قال تعالى: {وَأَنْ أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ، أَفَحُكْمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُلْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ.} [المائدة: 49-50].

فإذن لا يكفي حتى مجرد جعل محاكم وقضاة، لابد الناس يسيرون بالشرع، يسيرون، يسامون، يفرض الشرع عليهم، ومن لوازم ذلك جعل القضاة والمحكم الشرعية. لكن ما هي القوانين؟ يسيرون بالشرع.

إذن حفظ الدين بإقامته، حفظه من الزوال التي هي مراعاة جانب عدم، ودرء المفسد، وإبعاد كل ما يؤدي الدين، سواء كان واقعاً أو متوقفاً.

ماذا شرعت الشريعة من أجل ذلك؟ من أجل حفظه من الزوال، حفظه من الاختلال؟

الدعوة لها علاقة بدمج الشبهات المثارة حول الدين، التي تؤدي إلى التشكيك، تؤدي لزوال الدين من بعض النفوس، أو لزوال بعض الدين؛ لأن الشبهات ممكن تؤدي إلى الحاد، ممكن تكون تزيل جزءاً من الدين من النفوس.

ماذا شرع أيضاً الشريعة من أجل حفظ الدين من جهة الاختلال؟

الدفاع والجهاد في سبيل الله، لحماية جناب الدين، فيكسر الطغاة الذين يصدون عن سبيل الله، يكسر الطغاة الذين يحولون بين الناس وبين اعتناق دين الله، يكسر الطغاة الذين يكرهون المؤمنين على الكفر، فشرع الله الجهاد لحماية الدين، وبعث تزول الفتنة فتنة الشرك والكفر قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال: 39].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، النهي عن المنكر، لأن الأمر بالمعروف من جهة الإقامة، والنهي عن المنكر من جهة الحفظ من الاختلال، وهذا فيه منع انتقاص شيء من الدين النهي عن المنكر: "من رأى منكم منكراً فليغيره" [رواه مسلم: 2269]. جميل، ماذا أيضاً؟

حفظ الدين من الاختلال، عهد الردة

فقد الردة من الإجراءات الشرعية العظيمة، التي جاءت لحفظ الدين من الزوال والاختلال، وهو عهد الردة لضمان عدم التلاعب بالدين، قال ﷺ: "من بدك دينه فاقتلوه" [رواه البخاري: 6922]، فقتل المرتد يثبت غيره، ويمنع شره.

وقد كان بعض أهل الكتاب قد تواصلوا فيما بينهم، أن يدخلوا في الدين في أول النهار، ثم يتردوا عنه في آخر النهار تشكيكاً وطعناً، فقال الله تعالى: {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُتْرِكَ عَلَى النَّاسِ آمَنُوا

وَجَهَّ النَّهَارَ وَكَفَّرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [آل عمران: 72] غطتة ليشوشوا على المسلمين وليرجع المسلمون عن دينهم. يسد هذا الباب بحد الردة، الدين ليس بوابة تدخل وتخرج، إذا دخلت وخرجت فحد الردة.

يدخل في ذلك أيضاً: الاجتهاد في رد البدع، هي لها علاقة طبعاً بالنهي عن المنكر، ولها علاقة بالجهاد، لأن الجهاد ضد أهل البدعة، النهي عن المنكر والبدعة داخلته في المنكر.

لكن هذه المسألة اعتني بها عند العلماء عناية خاصة، قضية معالجة البدع، لأن النصوص الشرعية فيها شديدة جداً لخطورة البدعة: {فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار} [رواه الطبراني في الكبير: 8521، وصححه الألباني في الصحيحة: 2735]، فإن الابتداع في الدين محرم، لقوله صلى الله عليه وسلم: "كل بدعة ضلالة" رواه مسلم.

ولا تقبل توبة المبتدع حتى يدع بدعته، لما في الحديث: "إن الله محب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته" رواه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الترغيب.

ولذلك لم يتجرأ أحد في عهد عمر أن يرفع رأسه ببدعة، فلو فعل أحد ففضضه عمر بجريد النخل، ضل يضربه على رأسه، حتى قال: حسبك يا أمير المؤمنين ذهب الذي في رأسي.

المقصد الثاني

حفظ النفس⁽¹⁾

أولاً: أهمية حفظ النفس في الإسلام⁽²⁾:

حق النفس حق مقدس في نظر الشريعة الإسلامية، فلقد خلق الله الإنسان وألبسه ثوب الكرامة وفضله على كثير ممن خلق بالعقل والعلم والبيان والنطق والشكل والصورة الحسنة والهيئة الشريفة والقامة المعتدلة، وشمله بالرعاية والعناية وهو نطفة في داخل الرحم وفي جميع أطواره، إلى أن صار خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين.

اهتم الدين الإسلامي الحنيف بحفظ النفس البشرية كما لم يهتم بذلك قبله ولا بعده دين، ولا فرقة ولا مذهب ولا قانون وضعي، بل إن الحياة البشرية لم تشهد تشريعاً للأحكام والوسائل التي تحفظ النفس الإنسانية وتعصمها كما في الشريعة الإسلامية.

فالإسلام تميز عن الديانة النصرانية في أنه لا يحتقر الدنيا ولا يهين الجسد، كما يختلف عن اليهودية في أنه لا يهتم بالروح وينسى الحياة الأخرى، فهو دين يدعو إلى تحقيق التوازن بين مطالب الروح وحاجات الجسد والتوفيق بين العمل والسعي في الحياة الدنيا، والعمل والسعي للحياة الآخرة.

فهو يربي النفس على الربط بين ذكر الله وعبادته، مع السعي لمصالحها في هذه الحياة، على أن تكون هذه المصالح عوناً على ذكر الله، وجانب الله فيها مرعي، وعلى أن لا تكون مصالح الدنيا سبباً في إغفال ما يربي النفس ويزيكها ويسمو بها ويطهرها.

وحرم الشرع إزهاقها إلا بحق كالقصاص أو الحدود أو التعزير، ولا يقال: هذا منافع لمقصد حفظ النفس؛ لكون مصلحة حفظها - والحالة هذه - عورضت بمصلحة أعظم، فأخذ بأعظم المصلحتين.

والمقصود بالأنفس التي عنيت الشريعة بحفظها الأنفس المعصومة بالإسلام أو الجزية أو العهد أو الأمان⁽³⁾. والحقيقة أن الوسائل والتشريعات الإسلامية التي حفظ الإسلام من خلالها النفس الإنسانية من الأذى والهلاك، منها ما هو وقائي يهدف إلى منع وقوع الأذى بالنفس المعصومة، ومنها ما هو علاجي يهدف إلى علاج آثار الجناية على هذه النفس، بما يعود على الأنفس الأخرى.

(1) للاستزادة حول الموضوع ينظر: مصلحة حفظ النفس في الشريعة الإسلامية د. محمد أحمد المبيض.

(2) ينظر: وسائل الشريعة الإسلامية لحفظ النفس المعصومة د. محمد لاني، مقال منشور على موقع المسلم. ماهية المقاصد وأقسامها، د. أسماء الموسى، بحث علمي منشور على موقع المنتقى الفقهي.

(3) انظر: روضة الطالبين 148/9.

فحفظ النفس هو حفظ الأرواح من التلف أفراداً وعموماً لأن العالم مركب من أفراد الإنسان، وفي كل نفس خصائصها التي بها بعض قوام العالم، وليس المراد حفظها بالقصاص فقط، بل نجد القصاص هو أحد أنواع حفظ النفوس، لأنه تدارك بعد الفوات بل الحفظ عن التلف قبل وقوعه، مثل مقاومة الأمراض السارية.

ثانياً: وسائل الإسلام في حفظ النفس:

مما جاءت به الشريعة لتحقيق هذا المقصد:

1- تحريم الاعتداء على النفس:

وردت نصوص كثيرة من الكتاب والسنة تدلُّ على تحريم الاعتداء عليها، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 93]، عن الضحاك قال: "لأن أتوب من الشرك أحب إلي من أتوب من قتل المؤمن"⁽¹⁾.

وقال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المائدة: 32]. قال مجاهد: "وعد الله قاتل النفس بجهنم، والخلود فيها، والغضب، واللعنة، والعذاب العظيم.. والقصد بالآية: تعظيم قتل النفس، والتشديد فيه؛ لينزجر الناس عنه، وكذلك الثواب في إحيائها كثواب إحياء الجميع؛ لتعظيم الأمر، والترغيب فيه"⁽²⁾.

ومنها قوله ﷺ: في أكبر اجتماع للناس عند موقف عرفة حيث قال: ((إِنَّ دِمَائِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بِلَادِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا...))⁽³⁾.

وجعل النبي ﷺ جريمة قتل النفس بعد جريمة الشرك بالله مباشرة، فعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: ((اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا، وأكل مال اليتيم...))⁽⁴⁾.

2- تشريع القصاص:

فالقصاص سبب من أسباب حفظ الأرواح، والنفوس من التلف، وذلك أن الله أخبر في كتابه أن في القصاص حياة: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ

(1) الدر المنثور 2/629.

(2) التسهيل في علوم التنزيل 1/243.

(3) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى (1739)، ومسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ (128).

(4) صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً} [النساء: 10] (2766)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (272).

شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿١٧٨﴾
 وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿البقرة: ١٧٨ - ١٧٩﴾.

وقال تعالى: ﴿وَكُنِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿المائدة: ٤٥﴾.

3- استتابة المرتد:

كما أن من مظاهر حرص الشريعة الإسلامية على النفوس، ووسائلها في صيانتها من الإتلاف، منحها من خلال الاستتابة فرصة للمرتد عن الإسلام للحياة، حرصاً منه على حياته التي أحلتها رده، وذلك بمنحه ثلاثة أيام للتوبة قبل قتله، وهو مذهب جمهور الفقهاء والعلماء، قال ابن بطال: "اختلف العلماء في استتابة المرتد، فروى عن عمر بن الخطاب وعثمان وعلى وابن مسعود أنه يستتاب؛ فإن تاب وإلا قتل، وهو قول أكثر العلماء"⁽¹⁾.

4- تحريم الانتحار والوعيد الشديد لمن قتل نفسه:

عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: ((من قتل نفسه بحديدة فحديده في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن شرب سماً فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً))⁽²⁾.

5- النهي عن القتال في الفتنة:

عن الأحنف بن قيس قال: خرجت وأنا أريد هذا الرجل، فلقيني أبو بكر فقال: أين تريد يا أحنف؟ قال: قلت: أريد نصر ابن عم رسول الله ﷺ - يعني علياً - قال: فقال لي: يا أحنف، ارجع، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار))، قال: فقلت أو قيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: ((إنه قد أراد قتل صاحبه))⁽³⁾.

6- النهي عن الإشارة بالسلاح ونحوه من حديدة وغيرها:

عن أبي هريرة ؓ قال: قال أبو القاسم ﷺ: ((من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلغنه حتى يدعه، وإن كان أخاه لأبيه وأمه))⁽⁴⁾.

(1) شرح البخاري لابن بطال 119/16، وللتوسع في هذه المسألة ينظر: حاشية ابن عابدين 225/4، المسبوط 98/9، بدائع الصنائع 4384/9، مواهب الجليل 281/6، المغني 76/10، 77، أحكام القرآن للقرطبي 47/3. وانظر التشريع الجنائي الإسلامي 723/2.

(2) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب: شرب السم والدواء (5333)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، وأن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار.. (158) واللفظ له.

(3) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب {وإن طائفتان من المؤمنين} (30)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما (2888) واللفظ له.

(4) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم (2616).

قال النووي: "فيه تأكيد حرمة المسلم، والنهي الشديد عن ترويعه وتخويفه والتعرض له بما قد يؤذيه، وقوله ﷺ: ((وإن كان أخاه لأبيه وأمه)) مبالغة في إيضاح عموم النهي في كل أحد، سواء من يتهم فيه ومن لا يتهم، وسواء كان هذا هزلاً ولعباً أم لا؛ لأن ترويع المسلم حرام بكل حال؛ ولأنه قد يسبقه السلاح كما صرح به في الرواية الأخرى، ولعن الملائكة له يدل على أنه حرام"⁽¹⁾.

وعن أبي موسى ؓ: عن النبي ﷺ قال: ((إذا مر أحدكم في مسجدنا أو في سوقنا ومعه نبل فليمسك على نصالها بكفه؛ أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيء))⁽²⁾.

7- النهي عن السب والشتم المفضي للعداوة ثم التقاتل:

قال تعالى: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: 53].

وعن عبدالله بن مسعود ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر))⁽³⁾.

8- الترخص في المكروه ولو قال كلمة الكفر فداء لنفسه من القتل ونحوه:

ولم يتوقف حرص الإسلام على حفظ النفس المعصومة على ما سبق من الوسائل الوقائية والعلاجية، بل تعداها إلى غير ذلك مما يعتبر رخصة ومنحة إلهية في بعض الحالات الاستثنائية، فقد أباح الإسلام النطق بكلمة الكفر عند الإكراه بالقتل، مع اشتراط أن يبقى القلب مطمئناً بالإيمان، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل: 106].

الضرورة الثانية: حفظ النفس

من أهم الضرورات بعد حفظ الدين، جعل له الشرع تدابير كثيرة في حفظه، وفي منع زواله: طرقت المحافظة على النفس من جهة الوجود، نحن الآن سنجري في نفس النهج: تحقيق الوجود ومنع الزوال؛ ما هي الأشياء التي أتت الشريعة بها لحفظ النفس من جهة الوجود؟

النكاح، تحريم الانتحار وقتل النفس، لهذا من جهة الزوال.

(1) شرح صحيح مسلم 170/16.

(2) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب أمر من مر بسلاح في مسجد أو سوق أو غيرها من المواضع الجامعة للناس أن يمسك بنصالها (2615).

(3) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله (46)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)) (97).

نتكلم الآن من جهة الوجود: تناول الطعومات والمشروبات، لا يجوز الإضرار عن الطعام، الإضرار عن الطعام المفضي للمهلك حرام، أو التخصيس البالغ فيه فيحصل تلف في الصحة قال تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف: 31]، {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} [النساء: 29].

الترخيص في تناول الطعام المحظور في حال الضرورة: {فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ} [البقرة: 173]، بل يجب عليه أن يأكل، إذا كان بدون الأكل من الميتة يموت، فيجب عليه أن يأكل بقدر ما يقيه حياً.

قال شيخ الإسلام: "كذلك أكل الميتة والدم ولحم الخنزير يحرم أكلها عند الفتن عنها، ويجب أكلها بالضرورة عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء.

قال مسروق: "من اضطر فلم يأكل حتى مات دخل النار - كل هذا من أجل حفظ النفس - قال: وذلك لأنه أعان على نفسه - يعني على إزهاقها - بترك ما يقدر عليه، من الأكل الباع له في هذه الحال، فصار بمنزلة من قتل نفسه". [الفتاوى الكبرى: 447/1]. الفتاوى الكبرى لابن تيمية.

أيضاً: إلزام الآباء برعاية الأبناء والإنفاق عليهم، فالابن الرضيع، بدون أكل ولا شرب يموت، هؤلاء صفار ما يستطيعون أن يوفروا لأنفسهم طعاماً بدون إنفاق عليهم يهلكون: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته." "اعتقت الشريعة بحقوق جميع الناس، حتى الحيوانات والبهائم، حيث أوجبته على ملائكتها الإنفاق عليهم، والقيام بحقوقهم، فما أكل الشريعة، وأشتملها، وأقومها، وأعد لها، وأوقاها!" ألا كلهم راع وكلهم مسؤول عن رعيتهم " [رواه البخاري: 7138، ومسلم: 1829].

من ضمن الإجراءات الشرعية: تشريع الرخص لحماية النفس.

مثلاً إفطار الحامل والمرضع: إن الله وضع عن المسافر نصف الصلاة والصوم، وعن الحاي والمرضع [رواه أبو داود: 2470 والترمذي 715، وصححه الألباني في المشكاة: 2025].

يعذر في ترك الجمعة والجماعة الخائف على ضياع نفسه، في حالات القصف، لا يذهب للجمعة والجماعة.

إذا جننا إلى طرق المحافظة على النفس من جهة منع الزوال ماذا نجد؟ حد القصاص.

الشريعة حرمت العدوان على النفس: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: 93]. القصاص في النفس والأعضاء: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} [البقرة: 179].

تشريع دفع الصائل، ما هو الصائل؟ المعتدي، فشرع دفعه ولو بقتله، حماية للنفس، سواء كان المعتدي إنساناً أو حيواناً، قال عليه الصلاة والسلام: "من قتل دون دمه فهو شهيد" [رواه البخاري: 2480، ومسلم: 141].

وقد نقل الإمام الصنعائي: الإجماع على أن من شهر على آخر سلاحاً ليقتله فرفع عن نفسه فقتل الشاهر - الذي هو الصائل - أنه لا شيء عليه. [سبل السلام: 262/3]. سبل السلام.

كذلك نجد النهي عن كل ما فيه إضرار أو إيذاء للنفس، كما جاء في حديث: "لا ضرر ولا ضرار" [رواه أحمد: 2865، وصححه الألباني في الرواء: 2653].

كذلك نجد منع الانتحار، وحتى أن أهل الفضل والعام لا يصلون على المنتحر، ردعاً لأمثاله ممن يريدون الانتحار: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَعْثِبْ: قَتَلَ النَّفْسَ، أَنْ يَقْتُلَ نَفْسًا، عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [النساء: 29-30].

المقصد الثالث

حفظ النسل

ويراد بحفظ النسل: حفظ النوع الإنساني على الأرض، بواسطة التناسل النظيف الصحيح العفيف الطاهر، ويمكن بيان هذا المقصد من خلال النقاط التالية⁽¹⁾:

أولاً: مفهوم حفظ النسل وأهميته:

وتبرز أهمية حفظ النسل في أمور:

1- حفظ النوع الإنساني:

الإسلام يسعى إلى استمرار المسيرة الإنسانية على الأرض؛ حتى يرث الأرض ومن عليها، وذلك من خلال التناسل العفيفي النظيف الصحي المتمثل في الزواج فهو عامل أساسي في استمرار النسل، ولقد نوه القرآن الكريم عن هذه الحكمة الاجتماعية البالغة حين قال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء 1]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَكُنْ لَكُمْ مِنْ أَوْجِحِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل 72].

وفي كثرة النسل من المصالح العمة والمنافع الخاصة مما جعل النبي ﷺ يقول: ((تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة))⁽²⁾.

ففي كثرة النسل قوة للأمة الإسلامية ومصدر عزة لها، فالأمة التي تملك أفراداً أكثر أقدر على الغلبة والتقدم والتحضر وأهيب جانباً لدى أعدائها، وإذا كانت هذه الذرية صالحة نفعت أمتها ومجتمعها وكانت وسيلة لنشر الخير للعالمين.

كما أن الدعوة بالإنشمار الديموغرافي وسيلة مثالية لنشر الإسلام في البلدان، مثل توطين المسلمين في مناطق نسبة المسلمين قليلة فيها فينتقل إليها مسلمون ويتزوجون من أهل هذه المناطق ويكثر من الإنجاب ويربون ذريتهم على عقيدة صحيحة وأخلاق وحب الدعوة إلى الله.

2- المحافظة على الأنساب:

فيحفظ النسل تحفظ الأنساب ويفتخر الأبناء بانتسابهم إلى آباؤهم لأن في هذا النسب اعتبارهم الذاتي وكرامتهم الإنسانية وسعادتهم النفسية، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَوْجِحَكُمْ الَّتِي تَنْظَهُرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية، د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق، بحث منشور على موقع الألوكة.

(2) سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء (2050)، مسند أحمد 158/3 (12634)، وعلق شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (1805).

أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴿٥﴾ [الأحزاب 4-5].

فالنسب هو رابطة سامية وصلة عظيمة على جانب كبير من الخطورة، لذا لم يدعها الشارع الكريم نبها للعواطف والأهواء تحبها لمن تشاء وتمنعها ممن تشاء، بل تولاها بتشريعه، وأعطاهما المزيد من عنايته، وأحاطها بسياس منع يحميها من الفساد والاضطراب، فأرسي قواعدها على أسس سليمة⁽¹⁾. وحفظ سلامة الأنساب ووضوحها، هو حفظ لكرامة الإنسان، وبناء أسر وأجيال ومجتمعات مسلمة تنعم بالوحدة والمودة والسعادة والاستقرار.

وقد أمرنا الرسول ﷺ بالاعتناء بالأنساب والاهتمام بها وعدم الخلط في الأنساب شيئا يسبب لها التشويه والالتام في الأعراس، فقال: وقال ﷺ: ((من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم، فالجنة عليه حرام))⁽²⁾. حيث إن حفظ الأنساب يترتب عليه أيضا كثير من الحقوق والأحكام، كإباحة الزواج، والإرث، والدخول على النساء.. وغيرها.

3- سلامة المجتمع من الأمراض الخبيثة المترتبة على الانحلال الخلقي:

قال تعالى في قصة نبيه لوط: ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطَهَرُ لَكُمْ ﴾ [هود 78]، ﴿ أَطَهَرُ ﴾ بكل معاني الطهر، النفسي والحسي، فهن يلبين الفطرة الطاهرة، ويثرن مشاعر طاهرة، فهي طهارة فطرية وطهارة أخلاقية ودينية.

وحذر رسول الله ﷺ من وقوع الفاحشة وظهورها في المجتمعات، فقال ﷺ: ((لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا))⁽³⁾.

4- تنمية عاطفة الأمومة والأبوة :

إن غريزة الأبوة والأمومة تنمو وتتكامل في ظلال بيت يعرف فيه الطفل أبوه وأمه، ويعرف الأبوان أن هذا الطفل هو طفلهما، فنمو مشاعر العطف والود والحنان، وهي فضائل لا تكمل إنسانية إنسان بدونها. وبذلك يترايط المجتمع المبني على المحافظة على نسله، بعد ترابط الأسرة، وتقوية أواصر المحبة بين العائلات، وتوكيد الصلات الاجتماعية مما يباركه الإسلام ويعضده ويسانده، فإن المجتمع المترابط المتحاب هو المجتمع القوي السعيد⁽⁴⁾.

5- تقوية ملكات الفرد ومواهبه فيما ينفع أمته ومجتمعه:

- (1) ينظر بحث ماجستير بعنوان: أحكام النسب في الفقه الإسلامي - فؤاد مرشد داؤود بدير، نابلس .
- (2) صحيح البخاري، كتاب الفرائض، باب من ادعى إلى غير أبيه (6766)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم (63).
- (3) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات (4019). وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (106).
- (4) وللاستزادة انظر: فقه السنة 2/139-141، وعقبات الزواج وطرق معالجتها على ضوء الإسلام، د. عبدالله ناصح علوان ص 11-17.

فإن الشعور بالنسل والذرية يبعث على النشاط وبذل الوسع في تقوية ملكات الفرد ومواهبه، فينتقل إلى العمل من أجل النهوض بأعبائه، والقيام بواجب الحفاظ على الذرية من الضياع بتعليمهم وتربيتهم وكسب الحلال لهم فتعمر الأرض وتتقدم المجتمعات وتصل الأجيال في النهوض بالتكاليف الإسلامية وبواجب الخلافة في الأرض.

فيكثر الاستغلال وأسباب الاستثمار مما يزيد في تنمية الثروة وكثرة الإنتاج، ويدفع إلى استخراج خيرات الله من الكون وما أودع فيه من أشياء ومنافع للناس.

قال الله تعالى عن دعاء نبيه زكريا: ﴿ذَكَرْ حَمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۚ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۗ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۗ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَٰ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۗ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۗ﴾ [مريم 2-7]

عاجمة الأطفال ماسة إلى الوالدة والوالد يجد سواء حتى يغفوا ويعيشوا في بيئة سعيدة ومرتاحة وتحمل مسؤوليات الوالدين تجاه أبنائهم والحفاظ عليهم من الضياع فكل واحد من الأبوين يقوم بدوره، وعدم ضياع المرأة نفسها وتجنب ضغوطات الحياة ورعاية الأولاد وعدها مما يرهقها.

وكذلك عند الكبر يهتم الأولاد بوالديهم ويقومون بواجبهم تجاههم... والأقرباء يتواصلون ويعينون بعضهم وهكذا يحصل ترابط أسري ويغفو مجتمع سعيد...

ثانيا: وسائل حفظ النسل في الإسلام:

ولا يكتف الإسلام بوضع الحلول الناجعة لأي مشكلة تقع في حياة الإنسان من أي نوع، بل يسارع إلى وضع التشريعات التي تقي هذا المخلوق المكرم من الوقوع فيها أصلا.

ولا يمكن مقارنة ما سنه الإسلام من تشريعات وقائية وعلاجية لحفظ الأعراس والأنساب بأي تشريع سابق أو لاحق عليه سماويا محرفا كان أم وضعيا بشريا، فبينما تساهم تشريعات الإسلام في حفظ أهم ضروريات استمرار حياة الإنسان - النسل - تساهم ممارسات الغرب والشرق وتشريعاتهم الوضعية في انتهاكه بشكل فاضح ومشين.

ومن أجل تحقيق هذا المقصد شرع الإسلام المبادئ والتشريعات التالية:

1- تشريع الزواج:

قال تعالى: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِن خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: 3].

كما أن النبي ﷺ رغب الشباب من أمته على الزواج، ففي الحديث الصحيح عن عبدالرحمن بن يزيد قال: دخلت مع علقمة والأسود على عبدالله فقال عبدالله: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ شَبَابًا لَا نَجِدُ شَيْئًا فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ

ﷺ: ((يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصْرِ وَأَحْسَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ))⁽¹⁾.

فقد شرع الإسلام الزواج ورغب فيه واعتبره الطريق الفطري النظيف الذي يلتقي فيه الرجل بالمرأة لا بدوافع غريزية محضة، ولكن بالإضافة إلى تلك الدوافع، يلتقيان من أجل تحقيق هدف سام نبيل هو حفظ النوع الإنساني، وابتغاء الذرية الصالحة التي تعمر العالم وتبني الحياة الإنسانية وتتسلم أعباء الخلافة في الأرض لتسلمها إلى من يخلف بعدها حتى يستمر العطاء الإنساني، وتزدهر الحضارة الإنسانية في ظل المبادئ النبيلة والقيم الفاضلة.

وهو ما يؤكد أنه ليس في الإسلام حرمان، فما من شهوة أودعها الله تعالى في كيان الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها لإشباعها.

2- سد ذرائع الوقوع في الفاحشة:

قال تعالى: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾^(٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُنَّ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُرُوجِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّالِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿ [النور: ٣٠ - ٣١].

فالإسلام أحاط العلاقة بين الذكر والأنثى بمجموعة من المبادئ والآداب الأخلاقية: التي تضمن تحقيق الأهداف السامية لهذه العلاقة، وتستبعد الممارسات الفوضوية للعلاقات بين الجنسين، فعن طريق إيجاب غض بصر الذكر عن الأنثى والأنثى عن الذكر يقطع الإسلام الطريق على وسائل الإثارة في النفس البشرية، وبإيجاب اللباس الساتر بمواصفات خاصة يحارب التشريع أسباب الفتنة.

ويحرم على الرجل الاختلاء بالمرأة الأجنبية حتى وإن كانت ملتزمة باللباس الساتر، إلا بوجود أحد محارمها، وللبيوت في الإسلام حرمة عظيمة، حيث لا يجوز دخولها دون استئذان أصحابها والسلام عليهم. وبالإضافة إلى هذه الآداب وغيرها يضع الإسلام الضوابط التي تنظم حالات اجتماع الرجال والنساء عند الحاجة.

(1) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم (5066)، ومسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنه، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم (1400).

3- تحريم الزنا وتشريع الحد عليه:

ولذا حرم الله الزنا وهو الاعتداء بالفعل، كما حرم القذف وهو الاعتداء بالقول، وحدد لكل منها عقوبة رادعة قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢٠﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿النور: ٢ - 3﴾.

يقول ابن القيم -: "مفسدة الزنا من أعظم المفسدات، وهي منافية لنظام مصلحة العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحرمات، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وابنته وأخته، وما في ذلك من خراب العالم"⁽¹⁾.

ويقول: "فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها، ونكست رؤوسهم بين الناس، وإن حملت من الزنا فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنا والقتل، وإن حملته على الزوج أدخلت على أهله وأهلها أجنبيا ليس منهم، فورثهم وهو ليس منهم ورآهم وخلا بهم وانتسب إليهم وهو ليس منهم، وكذلك زنى الرجل فإنه يوجب اختلاط الأنساب، وإفساد المرأة المصونة، وتعريضها للتلف والفساد، ففي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين"⁽²⁾.

ولذا كان التشديد في حد الزنا بجلد الزاني أو الزانية البكر مائة جلدة، أما المحصن سواء كان رجل أو امرأة فالحد هو الرجم.

والجلد أو الرجم يكون أمام الناس ردعا لغيرهم، وكذلك من عقوبة الزنا الإبعاد عن البلد عاما كاملا، وهذا ثبت بالسنة⁽³⁾.

وكذلك حرمة الزواج بالزاني أو الزانية قبل التوبة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الزَّانِيَةُ لَا يَجُوزُ تَزْوُجُهَا إِلَّا بَعْدَ التَّوْبَةِ"⁽⁴⁾.

4- تحريم القذف:

"أصل القذف الرمي بالحجارة، والقذف بالزنا مأخوذ من هذا المعنى"⁽⁵⁾.

(1) الجواب الكافي ص 359.

(2) الجواب الكافي ص 385.

(3) صحيح البخاري، كتاب الإيمان والندور، باب كيف كانت يمينا النبي (6633)، ومسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا (1697).

(4) مجموع الفتاوى 279/8، وقد اختلف أهل العلم رحمهم الله في ضابط رفع ذلك التحريم انظر الفتاوى الكبرى 122/4، وقد رجح شيخ الإسلام أنه يجوز تزوجها بعد التوبة وذكر الأدلة على ذلك من القرآن والسنة والإجماع والاعتبار، ورد على المخالفين.

(5) الملخص الفقهي 427/2.

وفي الشرع: الرمي بوطء يوجب الحد على المقذوف⁽¹⁾، وعند الفقهاء: الرمي بالزنا أو اللواط⁽²⁾.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ [النور: ٤ - ٩].

وقال رسول الله ﷺ: ((اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات))⁽³⁾.

إن ترك الألسنة تلقي التهم بدون دليل قاطع، يترك المجال لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئا بتلك التهمة النكراء، فيصبح المجتمع المسلم ويمسي أعراضه مجروحة، وسمعته ملوثة، وإذا كل فرد فيه منهم أو مهدد بالاتهام، وإذا كل زوج فيها شك في زوجته، وكل رجل فيها شك في أصله، وكل بيت فيها مهدد بالانهيار.

5- تحريم المثلية والشذوذ الجنسي:

فبالإضافة لاعتبارها في الإسلام من أعظم الجرائم وأقبح الذنوب وأسوأ الأفعال المنافية للفضيلة والطبع الإنساني السوي فإن الله قد عاقب عليها بعقوبة شديدة تناسب مع فظاعتها، وهو ما يردع كل من تسول نفسه التفكير في مثل هذه الجريمة البشعة التي تخرق ضرورة حفظ النسل بل وتجاوز ذلك بمراحل.

وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية إجماع الصحابة على قتل اللواط سواء كان محصنا أو غير محصن فقال بعد أن نقل رأي بعض العلماء فيه: "أما اللواط فمن العلماء من يقول: حده كحد الزنا، وقد قيل: دون ذلك، والصحيح الذي اتفق عليه الصحابة أن يقتل الاثنان الأعلى والأسفل، سواء كانا محصنين أو غير محصنين وذلك لما رواه أهل السنن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به))⁽⁴⁾.

ولم تختلف الصحابة في قتله ولكن تنوعوا فيه، فروي عن الصديق رضي الله عنه أنه أمر بتحريقه، وعن غيره قتله، وعن بعضهم أنه يلقي عليه جدار حتى يموت تحت الهدم، وقيل: يحبسان في أنتن موضع حتى يموتا، وعن بعضهم: أنه يرفع على أعلى جدار في القرية ويرمى منه ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط، وهذه رواية عن ابن عباس،

(1) سبل السلام 190/1.

(2) المغني 383/12.

(3) صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب رمي المحصنات (6857)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (89).

(4) سنن أبي داود، كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط (4462)، وسنن ابن ماجه، كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط

(2561) وصححه الألباني في صحيح الجامع (6589).

والرواية الأخرى قال: يرجم، وعلى هذا أكثر السلف، قالوا: لأن الله رجم قوم لوط، وشرع رجم الزاني تشبيهاً بقوم لوط، فيرجم الاثنان، سواء كانا حرين أو مملوكين، أو كانا أحدهما مملوكاً والآخر حراً إذا كانا بالغين، فإن كان أحدهما غير بالغ عوقب بما دون القتل، ولا يرجم إلا البالغ⁽¹⁾.

ويدخل في هذا ما يحصل بين النساء بما يسمى بالسحاق، و"لا خلاف بين الفقهاء في أن السحاق حرام، وقد عدّه ابن حجر من الكبائر⁽²⁾"⁽³⁾.

6- تحريم الإجهاض وتقرير العقوبة عليه⁽⁴⁾:

وأما تحريم الإجهاض فقد ثبت بعموم الآيات التي تحرم قتل الأولاد بغير حق، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢]، قال ابن كثير: "هذا يشمل قتله بعد وجوده كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتله وهو جنين كما يفعله بعض الجهلة من النساء تطرح نفسها لئلا تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه"⁽⁵⁾.

ومن الأدلة كذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ مَحْنٍ نَزَّفُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ مَحْنٍ نَزَّفُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

وقد نقل الإجماع على حرمة الإجهاض بعد نفخ الروح الفقيه المالكي ابن جزري في قوانينه الفقهية حيث قال: "وإذا قبض الرحم المني لم يجز التعرض له، وأشد من ذلك إذا تخلق، وأشد من ذلك إذا نفخ فيه الروح فإنه قتل نفس إجماعاً"⁽⁶⁾.

7- تحريم تحديد النسل:

جاء في فتوى مجمع الفقه الإسلامي:

"وبعد: فقد نظر مجلس المجمع الفقهي الإسلامي في موضوع تحديد النسل أو ما يسمى تضليلاً بـ "تنظيم النسل". وبعد المناقشة وتبادل الآراء في ذلك قرر المجلس بالإجماع ما يلي: نظراً إلى أن الشريعة الإسلامية تحض على تكثير نسل المسلمين وانتشاره، وتعتبر النسل نعمة كبرى ومنة عظيمة من الله بها على عباده، وقد تضافرت بذلك النصوص الشرعية من كتاب الله، وسنة رسوله، ودلت على أن القول بتحديد النسل أو منع الحمل مصادم للفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها، وللشريعة الإسلامية التي ارتضاها الله تعالى لعباده.

(1) مجموع الفتاوى 334/28-335 والسياسة الشرعية ص 138.

(2) الزواجر عن اقتراف الكبائر 119/2.

(3) الموسوعة الفقهية الكويتية 251/24.

(4) للاستزادة ينظر بحث: الإجهاض دراسة فقهية مقاصدية - د. فريدة صادق، منشور على موقع المنتقى الفقهي.

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 100/8.

(6) القوانين الفقهية 141/1.

ونظراً إلى أن دعاة القول بتحديد النسل أو منع الحمل ففة تهدف بدعوتها إلى الكيد للمسلمين لتقليل عددهم بصفة عامة، وللأمة العربية المسلمة والشعوب المستضعفة بصفة خاصة، حتى تكون لهم القدرة على استعمار البلاد واستعباد أهلها والتمتع بثروات البلاد الإسلامية، وحيث إن في الأخذ بذلك ضرباً من أعمال الجاهلية وسوء ظن بالله تعالى وإضعافاً للكيان الإسلامي المتكون من كثرة اللبنة البشرية وترابطها.

لذلك كله فإن المجمع الفقهي الإسلامي يقرر بالإجماع أنه لا يجوز تحديد النسل مطلقاً، ولا يجوز منع الحمل إذا كان القصد من ذلك خشية الإملاق، لأن الله تعالى هو الرزاق ذو القوة المتين، وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، أو كان ذلك لأسباب أخرى غير معتبرة شرعاً.

أما تعاطي أسباب منع الحمل أو تأخيره في حالات فردية لضرر محقق لكون المرأة لا تلد ولادة عادية وتضطر معها إلى إجراء عملية جراحية لإخراج الجنين فإنه لا مانع من ذلك شرعاً، وهكذا إذا كان تأخيره لأسباب أخرى شرعية أو صحية يقرها طبيب مسلم ثقة، بل قد يتعين منع الحمل في حالة ثبوت الضرر المحقق على أمه إذا كان يخشى على حياتها منه بتقرير من يوثق به من الأطباء المسلمين.

أما الدعوة إلى تحديد النسل أو منع الحمل بصفة عامة فلا تجوز شرعاً للأسباب المتقدم ذكرها، وأشد من ذلك في الإثم والمنع إلزام الشعوب بذلك وفرضه عليها في الوقت الذي تنفق فيه الأموال الضخمة على سباق التسلح العالمي للسيطرة والتدمير، بدلاً من إنفاقه في التنمية الاقتصادية والتعمير وحاجات الشعوب، والله أعلم⁽¹⁾.

هنا جعل المؤلف الضرورة الثالثة: حفظ النسل وعند الكثيرين حفظ العقل يأخذ الترتيب الثالث لاعتبارات واجتهادات.

إذا جئنا إلى المحافظة على النسل، الذي هو بقاء النوع الإنساني بواسطة التناسل؛ لأن الشرع يريد استمرار المسيرة البشرية.

فنجده أنه شرع طرقاً للمحافظة على النسل، وعلى بقائه، منها؟

النكاح والترغيب فيه: يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج [رواه البخاري: 5066، ومسلم: 1400]، وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ [النور: 32]، فشرع الزواج، وشرع تزوج الفقراء والأيتام.

وكذلك تربية الأولاد ورعاية الأسرة، وأمر بحسن اختيار الزوج والزوجة ومن حقوق الطفل أن يتم اختيار أم صالحة له واختيار أب صالح من قبل الأم لأولادهما: تنكح المرأة لأربع [رواه البخاري: 5090، ومسلم: 1466]، إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه [رواه الترمذي: 1084، وعسمر الألباني في المشكاة: 3090].

(1) ينظر الفتوى في مجلة البحوث الإسلامية 285/30.

الأمر بحسن العشرة بين الزوجين، الأمر برعاية الأهل: {قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}. {التحریم: 6}.

ماذا بالنسبة لفظ النسل من الاختلال؟ درء المفسد عن النسل؟ تحريم الزنا ومقدمات الزنا: {وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانِيَةَ} {الإسراء: 32}. هذه منع الزنا ومقدمات الزنا، {وَلَا تَقْرُبُوا} ولم يقل: لا تزنا.

فإذن حتى مقدمات الزنا التي تقرب تؤدي للوقوع ممنوعة، كالنظر، والتقبيل، إلى آخره..

ماذا نقول عن تحريم التبريج؟

أنه إجراء شرعي لفظ النسل، لأن التبريج يؤدي إلى الوقوع في الفاحشة: {وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} {الأحزاب: 33}، صنفان من أهل النار لم أرهما، نساء كاسيات عاريات [رواه مسلم: 2128]، إله التزين للزوجين لبعضهما البعض.

تشريع حد الزنا: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ [النور: 2]. وتشريع رجم الزاني المحصن والزانية المحصنة: والشح والشيحة إذا زنيا فارجموهما البتة.

تحريم القذف، وتشريع حد القذف: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا}. [النور: 4]، لأن الإتهام بالزنى من الجرائم العظيمة "اجتنبوا سبع الموبقات، -وذكر منها- قذف المحصنات الغافلات المؤمنات {رواه البخاري: 2766، ومسلم: 89}.

تشريع اللعان: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحْسَنِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [النور: 6-7]. الآيات.

حد اللواط والسحاق أو العقوبة التعزيرية؛ لأن من أسباب قلة النسل: الكفء الذكور بالذكور والإناث بالإناث، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ملعون من عمل بعمل قوم لوط [رواه أحمد: 2914، وصححه الألباني في الجامع الصغير: 10831]. رواه أحمد وهو حديث صحيح، وأمر بالعفة: {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا}. [النور: 33].

وشرع الاستئذان: {لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَيْهَا} [النور: 27]. لئلا يؤدي إلى الوقوع في الفاحشة.

المقصد الرابع

حفظ المال

أولاً: مفهوم المال وأهميته في الإسلام:

يقال: "مال الرجل يمول ويمال مولا ومؤولا إذا صار ذا مال وتمول مثله وموله غيره. ورجل مال أي: كثير المال"⁽¹⁾،

و"المال: كل ما يملكه الفرد، أو تملكه الجماعة من متاع، أو عروض تجارة، أو عقار، أو نقود، أو حيوان"⁽²⁾، "وسمي المال مالاً؛ لأنه يميل القلوب"⁽³⁾.

ومن خلال التعريف اللغوي تبين أن المال ليس مقصوراً على النقود الورقية المعروفة فقط؛ بل كل شيء مادي محسوس له قيمة مالية يستطيع أن يستفيد الإنسان من عينه أو مما ينتجه من مال.

ولقد أولى الإسلام المال اهتماماً واضحاً لا يخفى على عاقل، فاعتبره القرآن قوام الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: ٥]، قال ابن كثير: أي: "تقوم بها معاشهم من التجارات وغيرها"⁽⁴⁾.

والإسلام جعل المال شقيق الروح ومساوياً لها في الحرمة؛ فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: ((كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه))⁽⁵⁾.

وقال أيضاً في خطبته المشهورة: ((إن دمائكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا))⁽⁶⁾.

فحمى المال من أن تمتد إليه أيدي العابثين وتطلعات الطامعين، فهددهم بالويل والثبور وعظائم الأمور حسباً أو قطعاً أو قتلاً أو صلباً أو تشريداً.

ولا عجب أن يكون للمال في النظام الإسلامي قيمة كبيرة، ومكانة مرموقة، ولأن في المال كل ما تتوقف عليه الحياة في أصلها وكما لها، وسعادتها وعزها من علم وصحة وقوة، واتساع عمران وسلطان؛ ولا سبيل لذلك إلا بالمال.

(1) انظر: الصحاح 99/6 - 100 باختصار .

(2) انظر: القاموس الفقهي ص 344.

(3) هذه مقولة سفیان الثوري رحمه الله، انظر: تاريخ بغداد 44/4.

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 214/2.

(5) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله (2564).

(6) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى (1742)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان معنى قول النبي ﷺ لا ترجعوا بعدي كفارا

(66).

فالمال في الإسلام يعتبر عصب الحياة ولا يمكن أن تتقدم الحياة بدونه، وقد حرصت الشريعة على حفظ المال كأحد مقاصدها الأساسية لأنه من خلال توجيه الثروة بشكل صحيح يستطيع الإنسان أن يحقق الخير لنفسه ولمجتمعه.

ثانياً: تشريعات الإسلام لحفظ المال:

لم يتوقف اهتمام الإسلام بقضية المال عند اعتباره مقصداً من مقاصد الشريعة الإسلامية الضرورية التي لا تقوم الحياة ولا تستقيم إلا بها، بل وضع من التشريعات ما يضبط: أولاً: وسائل إيجاد المال وتحصيله من الانحراف، وثانياً: ما يحفظ بقاء المال واستمراره من التعدي أو الضياع.

وبيان ذلك في النقاط التالية:

1- الأمر بالسعي لتحصيل المعاش:

رفع الإسلام من مكانة العمل وعظم من شأنه، وجعله المصدر الأساس لكسب المال وتحصيله، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

فالإسلام يأمر بالعمل والكسب ويذم البطالة واستجداء الناس، وطلب المال منه، وعن المقدم ؓ أن رسول الله ﷺ قال: (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ)⁽¹⁾.

وهذه سنة الله تعالى للأنبياء جميعاً، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [سورة الفرقان 20]. قال القرطبي: "أي: يتجرون ويحترفون"⁽²⁾.

وقال ابن كثير: "للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم؛ فإن الله جعل لهم من السمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، والأدلة القاهرة، ما يستدل به كل ذي لب سليم، وبصيرة مستقيمة، على صدق ما جاءوا به من الله"⁽³⁾.

2- الإباحة للمعاملات التي يحتاج إليها الناس لمعاشهم:

فقد أباح الشرع كل المعاملات التي فيها صلاح حال الناس دون أن يكون فيها ظلم أو اعتداء على حقوق الآخرين، قال تعالى: ﴿وَاحِلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

فالأصل في المعاملات المالية الإباحة إلا ما دل الدليل على تحريمه، أو ما يندرج تحت محرم أو يؤول لمحرم..

(1) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل من عمل يده، رقم (2070).

(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 14/13.

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 100/6.

وما استجد من عقود معاصرة لا بد وأن تعرض على الشرع الحنيف ليقر بحلها أو حرمتها⁽¹⁾.

3- الأمر بتحريم المال الحلال:

قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: 172]، "فأباح الله الطيبات للمتقين التي يستعينون بها على عبادة ربهم التي خلقوا لها. وحرّم عليهم الخبائث التي تضرهم في المقصود الذي خلقوا له. وأمرهم - مع أكلها - بالشكر، ونهاهم عن تحريمها"⁽²⁾.
وعن أبي هريرة، ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: ((أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: 51] وقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأني يستجاب لذلك؟))⁽³⁾.

ومما يسأل عنه المرء يوم القيامة ((وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟))⁽⁴⁾.

4- التحريم لإضاعة المال بالإسراف والتبذير:

"الإسراف هو: مجاوزة الحد، وخص بعضهم استعمال الإسراف بالنفقة والأكل. يقول الجرجاني في التعريفات: الإسراف تجاوز الحد في النفقة.
وقيل: أن يأكل الرجل ما لا يحل له، أو يأكل ما يحل له فوق الاعتدال ومقدار الحاجة، وقيل: الإسراف تجاوز الكمية، فهو جهل بمقادير الحقوق.
والسرف: مجاوزة الحد بفعل الكبائر"⁽⁵⁾.
أما التبذير: هو تفريق المال في غير قصد، ومنه البذر في الزراعة، وقيل: هو إفساد المال وإنفاقه في السرف، وخصه بعضهم بإنفاق المال في المعاصي، وتفريقه في غير حق.
وقيل: عدم إحسان التصرف في المال، وصرفه فيما لا ينبغي، فصرف المال إلى وجوه البر ليس بتبذير، وصرفه في الأطعمة النفيسة التي لا تليق بحاله تبذير"⁽⁶⁾.

(1) يمكن الاستزادة حول هذا الموضوع من كتاب أصول في المعاملات المالية المعاصرة د. خالد المصلح.

(2) محاسن التأويل 473/1.

(3) صحيح مسلم، كتاب الكسوف، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وترتيبها (1015).

(4) جامع الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب في القيامة (2417) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(5) الموسوعة الفقهية الكويتية 167/4 - 177، وحاشية ابن عابدين 484/5.

(6) ينظر: حاشية ابن عابدين 484/5، وتفسير الكشاف 6/3، وتفسير مفاتيح الغيب 193/20.

"وعلى هذا فالتبذير أخص من الإسراف، لأن التبذير يستعمل في إنفاق المال في السرف أو المعاصي أو في غير حق، والإسراف أعم من ذلك، لأنه مجاوز الحد، سواء أكان في الأموال أم في غيرها، كما يستعمل الإسراف في الإفراط في الكلام أو القتل وغيرها"⁽¹⁾.

وقد فرق ابن عابدين بين الإسراف والتبذير من جهة أخرى، فقال: التبذير يستعمل في المشهور بمعنى الإسراف، والتحقيق أن بينهما فرقا، وهو أن الإسراف: صرف الشيء فيما ينبغي زائدا على ما ينبغي، والتبذير: صرف الشيء فيما لا ينبغي⁽²⁾.

وقال الماوردي، التبذير: الجهل بمواقع الحقوق، والسرف: الجهل بمقادير الحقوق⁽³⁾.

قال تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: 31].

قال عطاء بن أبي رباح: "نُهِوا عن الإسراف في كل شيء"⁽⁴⁾.

قال ابن كثير: "أي: ولا تسرفوا في الأكل؛ لما فيه من مضرة العقل والبدن"⁽⁵⁾.

ومن خطورة التبذير بين الله تعالى أن المبدرين إخوان الشياطين، قال تعالى: ﴿ وَآتَاكَ الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ۗ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۚ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: 27-26].

وقد أمر الله تعالى بالتوسط في الإنفاق، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: 29].

وقال تعالى مادحا عباده المقتصدين: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: 67].

"أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم، فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهلهم، فيقصرن في حقهم، فلا يكفونهم؛ بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا"⁽⁶⁾.

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده f؛ أن النبي ﷺ قال: ((كُلُوا، وَتَصَدَّقُوا، وَابْسُوا، فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ))⁽⁷⁾.

5- منع المال عن السفهاء لحفظه من التلف:

- (1) الموسوعة الفقهية الكويتية 4/177.
- (2) حاشية ابن عابدين 484/5.
- (3) نهاية المحتاج 4/350 - 351.
- (4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 2/182.
- (5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 2/182.
- (6) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 3/325.
- (7) صحيح البخاري تعليقا مجزوما به، في كتاب اللباس، باب قول الله تعالى: {قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده} [الأعراف: 32]، وسنن النسائي، كتاب الزكاة، باب الاختيال في الصدقة (2559) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (4505).

قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: 5].
قال ابن سعدي: "السفهاء جمع سفيه، وهو من لا يحسن التصرف في المال، إما لعدم عقله كالجنون والمعته ونحوها، وإما لعدم رشده كالصغير وغير الرشيد، فهى الله الأولياء أن يؤتوا هؤلاء أموالهم خشية إفسادها وإتلافها، ولأن الله جعل الأموال قياماً لعباده في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها، فأمر الولي أن لا يؤتيتهم إياها، بل يرزقهم منها ويكسوهم ويبدل منها ما يتعلق بضرورتهم وحاجاتهم الدينية والدينية، وأن يقولوا لهم قولاً معروفاً، بأن يعدوهم إذا طلبوها أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم ونحو ذلك، ويلطفوا لهم في الأقوال جبراً لخواطريهم"⁽¹⁾.

6- تحريم السرقة وإيجاب الحد على السارق:

قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: 38].

"السارق: هو من أخذ مال غيره المحترم خفية، بغير رضاه، وهو من كبائر الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة، وهو قطع اليد، والسنة قيدت عموم هذه الآية من عدة أوجه:
منها: الحرز، فإنه لا بد أن تكون السرقة من حرز، وحرز كل مال: ما يحفظ به عادة. فلو سرق من غير حرز فلا قطع عليه، ومنها: أنه لا بد أن يكون المسروق نصاباً، وهو ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما يساوي أحدهما، فلا تقطع اليد في الشيء النزر النافه.
والحكمة في قطع اليد في السرقة، أن ذلك حفظ للأموال، واحتياط لها، تنكيلاً وترهيباً للسارق ولغيره، ليرتدع السارق - إذا علموا - أنهم سيقطعون إذا سرقوا"⁽²⁾.
فهذا الحد تنكيل من الله رادع عن ارتكاب الجريمة رحمة بمن تحدثه نفسه بها، لأنه يكفه عنها، ورحمة بالمجتمع كله لأنه يوفر له الطمأنينة.

قال ابن القيم: "فمن تمام حكمة الشارع قطع يد السارق، دون يد المختلس والمنتهب والغاصب؛ لأن السارق لا يمكن الاحتراز منه، فإنه يثقب الدُّور، ويهتك الحرز، ويكسر القفل، فلو لم يشرع قطع يد السارق لسرق الناس بعضهم بعضاً، وعظم الضرر، واشتدت الخنة، فجميع من مر ذكرهم لا يعاقبون بقطع أيديهم بل بالضرب، والنكال، والسجن الطويل، والعقوبة باسترجاع المال منهم وردة إلى أصحابه"⁽³⁾.

7- تحريم قطع الطريق:

(1) تيسير الكريم الرحمن ص 164.
(2) تيسير الكريم الرحمن ص 230 باختصار.
(3) إعلام الموقعين 48/2.

ومن المعلوم أن من أهم أهداف وغايات قطاع الطريق هو الاعتداء على أموال الناس، وقد شرع الإسلام عقوبة شديدة رادعة على هذه الجريمة، لحفظ الأمن والأمان في المجتمع، والذي منه حماية أموال الناس، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: 33].

قال القرطبي: "قالت طائفة: يقام عليه بقدر فعله؛ فمن أخاف السبيل وأخذ المال قطعت يده ورجله من خلاف، وإن أخذ المال وقتل قطعت يده ورجله ثم صلب، فإذا قتل ولم يأخذ المال قتل، وإن هو لم يأخذ المال ولم يقتل نفي"⁽¹⁾.

ولا شك أن عقوبة بهذه الشدة وذلك الحسم كافية لحفظ أموال الناس من الاعتداء، ناهيك عن حماية المجتمع بأسره من غائلة اختلال أمنهم.

8- تحريم أكل أموال الناس بالباطل:

سواء كان ذلك بالربا أو أنواع البيوع المحرمة، من غش وغبن وبيع الأخ على بيع أخيه.. وغيرها من البيوع المحرمة قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ﴾ [النساء: 29].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 188]. فعن ابن عباس ؓ قال: "هذا في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه فيه بينة، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم آكل حرام"⁽²⁾.

وقال الرسول ﷺ: ((لا يجل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس))⁽³⁾ وعن عبدالله بن مسعود ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: ((من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله، وهو عليه غضبان))⁽⁴⁾. ومن ذلك عدم ممانعة الأجير حقه، فقال ﷺ ((أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه))⁽⁵⁾، وقال ﷺ: ((مطل الغني ظلم))⁽⁶⁾.

- (1) الجامع لأحكام القرآن 6/151.
- (2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 1/521.
- (3) مسند أبي يعلى 3/140 (1570)، السنن الكبرى للبيهقي 6/166 (11515)، صححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (7656).
- (4) مسند أحمد 7/59 (3946)، وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح، وهذا اسناد حسن.
- (5) سنن ابن ماجه، كتاب الرهون، باب أجرة الأجراء (2433)، والسنن الكبرى للبيهقي 6/199 (11654)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (1055).
- (6) صحيح البخاري، كتاب الحوالات، باب في الحوالة وهل يرجع في الحوالة (2287)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم مطل الغني وصحة الحوالة واستحباب قبولها (4085).

"كما نهي عن كل ما يجر إلى أكل أموال الناس بالباطل، فحرم التعامل بالربا وجعله من أكبر الكبائر؛ لما يجلبه من الأحقاد والضغائن، وحرم المقامرة والرشوة ونحوهما، وحرم أكل أموال اليتامى والضعفاء وأكل صدق المرأة إلا ما طابت به نفسها.

وجملة القول: إن الاعتداء على أموال الناس بأي وجه من الوجوه حرام، سواء كان عن طريق الكذب أو التحايل أو المماثلة والنصب، أو جحد العارية، والغش في المعاملة، وأكل الأجور ومنعها أصحابها، إلى غير ذلك مما يستحلّه أصحاب النفوس الضعيفة"⁽¹⁾.

9- تحريم إتلاف أموال الناس وإيجاب الضمان على ذلك:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المعارج: ٣٢].

وعن أبي هريرة ؓ قال النبي ﷺ: ((المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم))⁽²⁾، وقال النبي ﷺ: ((من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله))⁽³⁾.

"فالشريعة إنما جاءت بحفظ حقوق أرباب الحقوق بكل طريق، وسد الطرق المفضية إلى إضاعتها"⁽⁴⁾. فمن أتلف مال غيره بأي وسيلة أو طريقة من الطرق، فقد أوجب الإسلام عليه الضمان حفاظاً على حماية أموال الناس، ومن هنا قرر الفقهاء قاعدة فقهية عظيمة في هذا الباب هي: "الأصل في المتلفات ضمان المثل بالمثل والمتقوم بالمتقوم"⁽⁵⁾.

مع التنبيه إلى أنه لا اعتبار لكون الإتلاف حصل خطأً أو عمداً، وهذا أمر متفق عليه بين جماهير الفقهاء⁽⁶⁾، قال ابن القيم: "فالخطأ والعمد اشتركا في الإتلاف الذي هو علة للضمان وإن اختلفا في علة الإثم.. وهذا من الشرائع العامة التي لا تتم مصالح الأمة إلا بها، فلو لم يضمنوا جنائيات أيديهم لأتلف بعضهم أموال بعض وادّعى الخطأ وعدم القصد"⁽⁷⁾.

10- وجوب أداء الحقوق لأهلها:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

قال القاسمي: "إذا كان الله تعالى قد أوجب أداء الأمانات التي قبضت بحق، ففيه تنبيه على وجوب أداء الغصب والسرقة والخيانة ونحو ذلك من المظالم. وكذلك أداء العارية.. استدل المالكية، بعموم الآية، على أن الحربي إذا دخل دارنا بأمان فأودع ودیعة ثم مات أو قتل، إنه يجب رد ودیعته إلى أهله. وأن المسلم إذا استدان من

(1) بحث بعنوان الحكمة من قطع يد السارق - مجلة البحوث الإسلامية 308/25.

(2) جامع الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (2627) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(3) صحيح البخاري، كتاب الاستقراض، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها (2387).

(4) إعلام الموقعين 7/4.

(5) الأشباه والنظائر للسيوطي 2/2، وانظر المسألة في المغني 361/7.

(6) الأم 200/2، الاستذكار 279/7، المغني 211/9، المحلى 91/6.

(7) إعلام الموقعين 171/2.

الحربي بدار الحرب ثم خرج، يجب وفاؤه. وأن الأسير إذا ائتمنه الحربي على شيء لا يجوز له أن يخونه. وعلى أن من أودع مالا وكان المودع خانه قبل ذلك، فليس له أن يجحده كما جحده⁽¹⁾.

ولذا شدد الإسلام على الوفاء بالدين، وعدم المماطلة فيه، وعدم سقوطه حتى أنه لم يسقطه من ذمة الشهيد مع أنه جاد بنفسه وماله كما قال رسول الله ﷺ: ((يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين))⁽²⁾.

وورد أنه ﷺ كان لا يصلى عن الرجل الذي عليه دين حتى يقضى عنه، فعن سلمة بن الأكوع ؓ، قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ، إذ أتى بجنزة، فقال النبي ﷺ: ((فهل عليه دين؟))، قالوا: ثلاثة دنانير، قال: ((صلوا على صاحبكم))، قال أبو قتادة صل عليه يا رسول الله وعلي دينه، فصلى عليه⁽³⁾.

11- حفظ الحقوق المالية بالكتابة والإشهاد عند الدين والتجارة:

وأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ آيَةَ كَامِلَةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٢].

"هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين، إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة، أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقذارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها"⁽⁴⁾.

"الأمر بكتابة جميع عقود المداينات لشدة الحاجة إلى كتابتها؛ لأن بدون الكتابة يدخلها الغلط، والنسيان، والمنازعة، والمشاجرة شر عظيم"⁽⁵⁾.

12- إقرار نظام الإرث وتنظيمه تنظيمًا دقيقًا:

فقد أنزل الله تعالى تفصيلاً لأحكام الإرث في ثلاث آيات من القرآن، لأن الإنسان مفطور على حبه لأبنائه وقلقه عليهم إذا تركهم بدون مال، حتى عندما أراد سعد بن أبي وقاص ؓ أن يتصدق بماله عندما أحس بالموت قال له رسول الله ﷺ: ((الثلث، والثلث كثير إنك أن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تركهم عالة يتكفون الناس))⁽⁶⁾.

يذكر المؤلف "ضرورة حفظ المال" الضرورة الخامسة و"حفظ المال" عند الكثير من العلماء تأتي هذه الضرورة على الترتيب الخامس.

وإذا جئنا إلى حفظ المال، الذي هو عصب الحياة: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا} [النساء: 5]. فماذا نجد، ماذا نجد في موضوع حفظ المال؟ قال صلى الله عليه وسلم: "ولو كان لابن آدم وادٍ لأحب

(1) محاسن التأويل 3/183.

(2) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياها إلا الدين (2886).

(3) صحيح البخاري، كتاب الحوالات، باب إن أحال دين الميت على رجل جاز (2289).

(4) محاسن التأويل 2/233.

(5) تيسير الكريم الرحمن ص118.

(6) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة (1295)، ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث (1682).

أن يكون إليه ثاب، ولو كان له واريان لأحب أن يكون إليهما ثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب.} [رواه أحمد: 21906، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: 1639].

حفظ المال من جهة الوجود، والحث على الاكتساب: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ زَلُولًا فَامشُوا فِي مَنَازِلِهَا.} [الملك: 15]، {إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ.} [الجمعة: 10]، "ما أكلَ أحدٌ طعاماً قط، غيراً من أن يأكلُ من عملِ يده، وإن نبيَّ الله داودَ عليه السلام، كان يأكلُ من عملِ يده." [رواه البخاري: 2072].

إذا جئنا لقضية الحث على صيانة المال: الأمر بالتكسب هذه أوامر كثيرة جداً، قضية النصوص الآمرة بالتكسب وصيانة النفس عن ذلك السؤال.

كيف قضية الصيانة والمنع من الزوال والاختلال بالنسبة للمال؟

بعدم الإسراف، هذا نريد المنع من الزوال والاختلال.

حد السرقة، الله قال: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ} [النساء: 5]. فحث على صيانة المال؛ لأن إيتاء السفهاء المال يضيعها، فهي "عن تضييع المال، نهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال" [رواه البخاري: 6473، ومسلم: 593].

قال مفيان الثوري: "لأن أهلك عشرة آلاف درهم أعاسب عليها، أحب إلي من أن أحتاج إلى الناس" يعني أمر يدي.

وقال أيضاً: "من كان في يده من هذه -يعني الدنانير والدرهم- شيء، فليصلحه يستثمره، يحفظه من الضياع فإنه زمان من أحتاج كان أول ما يبيد دينه". [حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: 381/6].

كان زمان إذا أهد أحتاج فيه أول ما يتنازل عنه لتحصيل المال الدين، وما أشبهه بزماننا، تغير مواقف، ومناهج، ومسيرات، أشخاص وجماعات من أجل المال.

كذلك شرعت الشريعة: المحافظة على أموال الأيتام والقصر: {وَابْتَغُوا الْيَتَامَى حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النُّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا} [النساء: 6].

جاء الوعيد الشديد في هذا الموضوع: {إِنَّ النَّيْنَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّهَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا.} [النساء: 10].

ماذا جاء في الشرع من وسائل لحفظ المال من الزوال، أو حصول الاختلال، كما قلنا: تحريم الاعتداء على المال: {لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ} [النساء: 29].

النهي عن الفس، والتدليس، والسرقة، والرشوة، والربا.

وشرع حد السرقة لفظ المال: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [المائدة: 38].

والنبي ﷺ لما أخبر عن تحريم الشفاعة في الحدود، في قصة المخزومية، لفظ المال، جعل الشفاعة في الحدود من الكبائر، إذا بلغ الحد الإمام ما في مجال للشفاعة، ولما جاء أسامة قال: "أشفع في حد من حدود الله؟" [رواه البخاري: 3475، ومسلم: 1688].

خلاص بلغ الحد الإمام، ويجب الآن إقامة الحد للمحافظة على أموال الناس وردع من يسول نفسه الاعتداء على أموال الناس بالسرقة، مع أن المخزومية كانت تستعير الشيء، وتجده، فجحد العارية عليه قطع هذا لفظ المال.

"فإنما أهلك الناس قبلكم: أنهم كانوا إذا سرقت فيهم الشريف تركوه، وإذا سرقت فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد." [رواه البخاري: 3475، ومسلم: 1688].

حد الحرابة وسيلة أيضاً أخرى شرعية: {إِنَّمَا جِزَاءُ الذَّنْبِ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ} [المائدة: 33].

فإذا قتلوا يقتلوا، وإذا أخذوا المال يقطعوا، وإذا روعوا وأخافوا ينفوا من الأرض، ومحسب يعني قوة الجرم تكون قوة العقوبة.

يقول الباري الحنفي في لطيفة له: "اعلم أن قطع الطريق يسمى سرقة كبرى" [عاشية ابن عابدين: 4/116]، أما تسميتها سرقة، فلأن قاطع الطريق يأخذ المال سرا ممن إليه حفظ الطريق -من الذي عليه حفظ الطريق؟ الإمام السلطان.

فقاطع الطريق يأخذ المال سرا عن من؟ عن من وكل بحفظ الطريق، فلذلك سماها سرقة، قال: ممن إليه حفظ المكان المأخوذ منه وهو المالك أو من يقوم مقامه، وأما تسميتها كبرى، فلأن ضرر قطع الطريق على أصحاب الأموال وعلى عامة المسلمين بانقطاع الطريق -يعني هذا أكبر-، وضرر السرقة الصغرى يخص المالك بأخذ ماله وهتك حرزهم، ولهذا غلظ الحد في حق قاطع الطريق.

قلنا النهي عن الإسراف وتضييع المال: {وَلَا تُبَدِّرْ تَبْدِيرًا إِنَّ الْأُمُودَ كُنُوزًا لِإِخْوَانِ الشَّيَاطِينِ} [الإسراء: 26-27].

وهناك إحصاءات كثيرة اليوم، لو نرى كيف يضيع المجتمع الأموال في السفاسف، في الترهات، فيما يسمى بالكماليات تضيع أموال ضخمة جداً بالمليارات سنوياً في بلد واحد، عمليات تجميل بدون حاجة إليها، زيادة في الإنفاق، إسراف في السياحات بدرجته رهيبه.

مواد التجميل والملابس الزائدة كم أسرفوا فيها، كم يضيع من الأطعمة في الولايم؟ وكم، وكم يهدر من النعم؟

هذه كلها مخالفة لفظ الضمومات الخمس، ولا جعل الشرع الدفاع عن المال: "إن جاء رجل يريد أخذ مالي يا رسول الله؟ قال: لا تظلم مالك قال: أرايت إن قاتلني؟ قال: قاتله قال: أرايت إن قتلني؟ قال: فأنت شهيد قال: أرايت إن قتلتني؟ قال: هو في النار." [رواه مسلم: 140].

من مقاصد الشريعة العظيمة الحفاظ على أموال الناس وصونها من النهب والسرقه والصبياع، أو أن يطمع فيها أحدهم عند فقدها.

أحكام اللقطة شرعت من أجل المحافظة على المال: "من آوى ضالاً فهو ضالك، ما لم يُعَرِّفها." [رواه مسلم: 1725].

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أحكام المال الصالح الذي يجده المسلم، سواء كان نقداً أو حيواناً أو غيره ذلك.

وفي هذا الحديث يُخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن من ضمَّ وجمع إلى ملكه «ضالاً» وهي ما ضلَّ وضاع من البهيمة، ذكراً كان أو أنثى، «فهو ضالك»، أي: مائل عن الحقِّ مفارق للصواب «ما لم يُعَرِّفها»، يعني أن من أخذها لينذهب بها ويضمها إلى ماله، فهو ضالك، وعند ابن ماجه: «ضالُّ المسلم هرق النَّار»، أي: فيها العذاب بالنار لمن أخذها ولم يُعَرِّفها، أو قصده الخيانة فيها، وأما من أخذها ليردها أو ليعرفها ويطلب صاحبها؛ فلا بأس به. والتعريف: أن يُنادي عليها في مجامع الناس، في الشهر مرتين، أو ثلاثاً، أو أربعاً، يقول مثلاً: من له غنم ضالعة؟ فإذا جاءه من يعرف صفاتها وأماراتها الحفيفة دفعها إليه، أو جاءه من يُقيم البيئته عليها دفعها إليه، فإن مضت السنة ولم تُعرف فهي له.

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله عن اللقطة، فقالت: اعرف عقاصها ووكأها، ثم عرّفها سنة، فإن جاء صاحبها وإلا فساؤلك بها، قال: فضالُّ الغنم؟ قال: هي لك أو لأخيك أو للذئب، وعن ضالّة الإبل قال: فضالُّ الإبل؟ قال: ما لك ولها؟! معها سقاؤها وحذاؤها، ترد الماء، وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها. [رواه البخاري: 2372، ومسلم: 1722]. يعني: صاحبها.

فقال له صلى الله عليه وسلم: «ما لك ولها؟!» وهذا استنكار منه صلى الله عليه وسلم لأخذ ضالّة الإبل، وفي رواية الصحيحين: «ففضب حتى احمرت وجهتا» قيل: إنما كان غضبه صلى الله عليه وسلم عند السؤال عن ضالّة الإبل استقصاراً لعلم السائل، وسوء فهم؛ إذ لم يرع المعنى المشار إليه، ولم يتنبه له، فحاس الشبي على غير نظيره؛ فإن اللقطة إنما هي اسم للشبي الذي يسقط من صاحبه ولا يدري أين موضعه؟ وضالّة الإبل ليست كذلك؛ لأنها قد ترعى أياماً، ثم تعود إلى مكانها التي تعرفه أو يأتي صاحبها فيأخذها.

وقد بين صلى الله عليه وسلم السبب في ذلك بقوله: «معها سقاؤها»، أي: جوفها، فإذا وردت الماء شربت ما يكفيها حتى ترد ماء آخر، أو المراد بالسقا: العنق؛ لأنها ترد الماء وتشرب من غير ساق يسقيها، أو أراد أنها أجهل البهائم على العطش، ومعها حذاؤها، وهو خفها، أي: تقوى بأخفافها على السير وقطع البلاد الشاسعة وورود المياه النائية، فشبها النبي صلى الله عليه وسلم بمن كان معه سقاء وحذاء في سفره، «ترد الماء

وتأكلُ الشَّجَرَ»، أي: تأتي الماءَ فتشربُ، وتأكلُ من نباتِ الأرضِ، حتىَّ يجدها صاعبها. وذلك هو الفرقُ بين الإيلِ والغنمِ: أنَّ الإيلَ تملكُ من القوَّة ما تستطيعُ به الحفاظُ على حياتها إلى أن يجدها صاعبها، بخلافِ الغنمِ؛ فإنَّها إنْ شردتْ عن راعيها وقطيعها هلكت.

وفي الحديث: مُراعاةُ الإسلامِ لكلِّ أمورِ الحياةِ التي يهتمُّ لها الإنسانُ وتدخُّلُ في حياته، سواءً بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ.

المقصد الخامس

حفظ العقل

أولاً: مفهوم العقل وأهميته في الإسلام:

سمي العقل عقلاً لأنه يمسك ويلجم صاحبه عن ورود المهالك، والعقل هو الحابس عن ذميم القول والفعل⁽¹⁾.

فبذلك يتضح أن مادة -ع ق ل- في اللغة تدل على اجتناب القبائح وكل ما يسيء إلى الإنسان من أفعال وأقوال.

ويقصد بحفظ العقل: حفظ عقول الناس من أن يدخل عليها خلل، لأن دخول الخلل على العقل مؤد إلى فساد عظيم من عدم انضباط التصرف⁽²⁾..

وقد اهتم الإسلام بالعقل اهتماماً بالغاً، فالآيات تدعو الإنسان إلى التأمل والتفكير والتدبر والاعتناء بإعمال العقل في ما خلق الله للوصول من خلال ذلك إلى معرفة الخالق، ومتى تحققت معرفة الخالق، أصبح الإنسان عارفاً بأوامر الله فيتبعها، ومتفهماً لنواهيه فيجتنبها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ ﴿آل عمران: ١٩٠ - ١٩١﴾.

ويشمل كذلك الامتناع عن النواهي الإلهية والإتيان للأوامر الربانية، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٢].

وبذلك يجعل الإسلام العقل بمثابة بوصلة علمية وعملية في حياة الإنسان إذا ما فقدت وجهتها أصابه التيه والضياع.

وحفظ العقل هو أحد الكليات التي أكد عليها كثيراً. فأول أوجه عناية الإسلام بالعقل جعله مناطاً للتكليف، وشرطاً قبل الحساب مقابل الثواب أو العقاب في الدنيا والآخرة، وهو شرط لفهم العقائد والأحكام وتطبيقها.

فلولا العقل لما عرف الإنسان دين الإسلام والنبوة، والخير والشر، والحق والباطل، والمعروف والمنكر.

(1) ينظر: لسان العرب 459/11.

(2) مقاصد الشريعة لابن عاشور ص 81.

وقد ذمَّ الله تعالى أصحاب العقول الغافلة عن دينها، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

فإذا فقد الإنسان العقل السليم الذي يقوده إلى الخير، ويبعده عن الشر، فقد أصبح كالبهيمة التي تأكل وتشرب ولا تعقل شيئاً، بل إنها خير منه.

ثانياً: التشريعات الإسلامية التي فيها حفظ للعقل:

1- حرص الإسلام على ما ينمي العقل:

وذلك بتحفيز العقل وتنشيطه بتكثير النصوص الشرعية التي تحث على التفكير والتدبر والتعقل والتذكر في أسماء الله وصفاته وأفعاله، وفي الكون.

"حفظ العقل يتم في الإسلام بوسائل وأمور كثيرة، منها: فرض طلب العلم على كل مسلم ومسلمة، والرحلة في طلب العلم، والاستمرار في طلب العلم من المهد إلى اللحد، وفرض كل علم تحتاج إليه الأمة في دينها أو دنياها فرض كفاية، وإنشاء العقلية العلمية التي تلتهم اليقين وترفض اتباع الظن أو اتباع الهوى، كما ترفض التقليد للأباء وللسادة الكبراء، أو لعوام الناس، شأن الإمعة، والدعوة إلى النظر والتفكير في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء" (1).

وحت الإسلام على العلم وذم الجهل، وأمر بمحاربة الأمية، لما في ذلك من تعطيل لأهم وظائف العقل وهو حسن التفكير والنهوض بالإنسانية.

وفي نفس الوقت حد الشارع للعقل حدوداً وسن له ضوابطاً وقيوداً، لكيلا يرهق بمتاهات السؤال والبحث عن المحال (2).

2- حفظ العقل من المفسدات الحسية:

فمن المفسدات الحسية: الخمر وما في حكمها. يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١].

فتحريم الخمر حفاظاً على أجل ما يملك الإنسان وهو عقله، حتى وإن كان غيابه لفترة مؤقتة والتي قد يرتكب فيها المرء ما يندم عليه طول حياته. فالخمر سبب لانتهاك كل الضروريات الخمس للشريعة من دين، والنفس، والنسل، والعقل، والمال، فهي أصل كل شر.

3- حفظ العقل من المفسدات المعنوية:

والمفسدات المعنوية فهي كالتصورات المفسدة للدين والمجتمع أو سائر أنشطة الحياة البشرية. ودليله آيات

(1) دراسة في فقه مقاصد الشريعة د. يوسف بن عبدالله ص 29.

(2) علم مقاصد الشريعة - نور الدين الخادمي ص 82.

كثيرة جداً تذكر بوجوب إعمال العقل، منها قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤].

والعقل شرط في معرفة العلوم، وفي الأعمال وصلاحها، وبه يكمل الدين والعمل، لكنه لا يمكن أن يستقل بذلك، حيث لا بد أن يتصل العقل بنور الإيمان والقرآن.

والإصرار على تغييب العقل أو تجاوز دوره يؤدي بالإنسان إلى عواقب وخيمة، قال تعالى حكاية عن الكافرين يؤنبون أنفسهم يوم القيامة: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْدَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَقِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

4- الحث على إعمال الحق للوصول للحق:

وذلك بالنظر في الأمم السابقة، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وكذلك بالنظر في الأحكام الشرعية المبنية على تحقيق مصالح العباد واستخلاص حكم التشريع وأسراره، وبعد أن بين الله تعالى أحكام الطلاق قال: ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٢]، وفي وصايا سورة الأنعام وبعد ذكر مجموعة من النواهي، قال الله تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وبعدهما ذكر الله تعالى زينة المرأة ومحارمها قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [النور: ٦١].

وكذلك الأمر بالنظر في القرآن للحصول على الهداية، قال جلَّ وعلا: ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: 10]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣]، وقال سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: 68].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: "فإنَّ الله تعالى ركبَّ العقولَ في عباده ليعرفوا بها صدقته، وصدق رسله، ويعرفوه بها، ويعرفوا كماله، وصفاته وعظمته وجلاله، وربوبيته وتوحيده، وأتته الإله الحق وما سواه باطل، فهذا هو الذي أعطاهم العقل لأجله بالذات وبالقيصد الأول، وهداهم به إلى مصالح معاشهم، التي تكون عوناً لهم على ما خلقوا لأجله، وأعطوا العقول له، فأعظم ثمرة للعقل: معرفته لخالقه وفاطره، ومعرفة صفات كماله، ونعوت جلالة وأفعاله، وصدق رسله، والخضوع والدُّل والتعبد له" (1).

وقال ابن القيم كذلك: "واعلم أنَّه إن لم يكن حسن التوحيد وقبح الشرك معلوماً بالعقل، مستقراً في الفطر، فلا وثوق بشيء من قضايا العقل، فإنَّ هذه القضية من أجل القضايا البديهيات، وأوضح ما ركبَّ الله في العقول والفطر؛ ولهذا يقول سبحانه عقيب تقرير ذلك: أفلا تعقلون، أفلا تدكرون، وينفى العقل عن أهل الشرك، ويخبر عنهم بأنهم يعترفون في النار أنهم لم يكونوا يسمعون ولا يعقلون، وأنهم خرجوا عن موجب السمع والعقل، وأخبر

عنهم أنهم صم بكم عمي فهم لا يعقلون، وأخبر عنهم أن سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم لم تغن عنهم شيئاً⁽¹⁾.

5- تحرير العقل من سلطان الخرافة وإطلاقه من إसार الأوهام:

ومن هنا حرم الإسلام السحر والكهانة والشعوذة وغيرها من أساليب الدجل والخرافة، وكذلك تخلص الناس من عقدة الخوف من مفارقة الموروثات التي بان للناس مخالفتها للعقل الصحيح. قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولُو كَأَن ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:170].

كما أنه منع على العقل الخوض في الغيبات من غير سلطان أو علم يأتيه من الوحي المنزل على الأنبياء، واعتبر ذلك مسبباً في هدر طاقته من غير طائل قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [إغافر:56]. كانت هذه بعض الأساليب العامة التي استخدمها الإسلام لحفظ العقل، وقد أدى ذلك إلى تفعيل دور العقل في الرسالة، فأقام الإسلام التوحيد والإيمان مع العقل علاقة غاية في الترابط والقرب.

ثالثاً: حدود العقل في الغيبات والإلهيات⁽²⁾:

مع الدور العظيم الذي منحه الشارع للعقل، إلا أنه قطع مرام العقل في الخوض فيما لا يصلح له، ولا يمكن أن يكون له فيه دور في البحث، في الغيبات الخارجة عن نطاق تصور العقل لها، وعلى رأسها قضية الألوهية بجوانبها الثلاثة: الذات - الصفات - الأفعال.

فوقف دور العقل فيها على التصديق بما جاء عن طريق الخبر الصادق من الكتاب والسنة، ومنع الشارع العقل من الخوض فيها لأسباب منها:

1- أنه لا طاقة له في الوصول إلى حقائق عينية في هذا الجانب؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:110]، وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11].

2- أن قضية الألوهية ليست قضية من القضايا المحسوسة التي يمكن للعقل البحث فيها بناء على ما يشاهده منها ومن أحوالها، فالعقل لم يشاهد هذه الأمور الغيبية فلا يصح له الكلام فيها، فالكلام في الشيء فرع عن تصوره، والتصور للشيء إنما هو العلم به؛ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:255].

وقد شككت مسألة الألوهية قديماً وحديثاً أعظم مشكلة واجهت العقل البشري؛ لأنَّ البشر أدخلوا هذه المسألة تحت نطاق العقل، وفرضوا أنَّ للعقل قدرة في إدراكها ومعرفة حقائقها مجردة، بالعقل دون مصدر آخر يبين لها سبيل التعامل، وإزالة اللبس الحاصل للعقل فيها، فاختلقت الحلول، وتباينت التصورات العقلية لهذه القضية، من فلسفة إلى أخرى، ومن تصور إلى آخر.

وجاء القرآن هدى الله إلى العالمين، فشكل حلقة الوصل بين السماء والأرض، وبين تصوير المعاني الغيبية، وتصور المسلمين لها، وبين الإخبار عن الذات الإلهية، وما يجب لها من صفات الكمال وحكمة الأفعال، وإيمان

(1) مدارج السالكين 3/ 491.

(2) حدود العقل في الإلهيات والغيبات، ماهر عبدالحفيظ صفصوف، مقال منشور على موقع الألوكة.

المسلمين بها وإذعائهم لها.

وقد بين الوحي قصور العقل في تصور المسائل الغيبية في مناسبات كثيرة في الكتاب والسنة، وجاء الوحي مسدداً للعقل، مرشداً له فيما لا يدركه ولا يعرف ماهيته، وبين للعقل أن نصوص الوحي قد تأتي بما يحار العقل فيه، لكنّها لا تأتي بالمستحيل الذي لا يقبل الوجود، وأنّ مقام العقل في هذه المسائل مع النقل مقام التابع المفتقر العاجز الذي يسدُّ عجزه الوحي المبين من رب السماوات والأرضين تبارك وتعالى (1).

ومن هذه الأمثلة التي تتجلى فيها هذه الحقيقة قول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء 85].

فحقيقة الروح - أيّاً كان الراجح في تفسيرها من أقوال العلماء - محجوبة عن العقول، وهذا الذي صرّحت به الآية الكريمة، قال عبد الله بن بريدة: "إنّ الله لم يطلع على الروح ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلًا" (2).

فوجب على العقل قبول حقيقة الروح وإن لم يدركها بآلاته وحواسه المادية، وعلى قول: أنّ الروح هو الخلق المركّب الذي يكون مع الجسد مسمّى الإنسان - وهو الراجح - (3) فلا يعرف أنّ عاقلاً أنكر حقيقة الروح (4) التي يحيا بها الإنسان، مع عجزه عن تصورها تصوراً محسوساً ومعرفة ماهية هذه الروح، فدلّ هذا دلالة واضحة لكل لب صحيح أنّه ليس كلُّ محجوب فهو غير موجود، وأنّه ليس كلُّ ما لا يدركه العقل فليس بموجود، كما يزعم كثير من الفلاسفة وأرباب النظر، ودلّ دلالة عظيمة على وجوب انقياد العقل للنقل الصحيح، وعلى وجوب تبعيّة العقل للوحي، وأنّ النقل يحكم ولا يحكم، ويقضي ولا يقضى عليه.

وإذا كان هذا في غيب متعلّق بمخلوق، فكيف بغيّب متعلّق بذات الله؟! فأولى بالعقل أن يقف خاضعاً طائعاً مصدقاً لما جاء من خبر الصدق كتاباً وسنة، وأن يعمل العقل قدراته في إثبات وجود الباري تعالى، وأحقية عبادته، وإثبات حكمته في أفعاله، وأن يقرّ إقراراً جازماً بقصور العقل عن معرفة ماهية وحقيقة ذات الله تعالى وصفاته.

وفي قصة موسى عليه السلام وفرعون خير شاهد وبيان لفهم هذه المسألة، وأنها قضية مسلّمة عند رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، فتأمل هذه الآيات، تزلّ عنك لبس كل ذي زيغ وضلالة، وكل صاحب فكر سقيم، وتجلو صدرك بوحي القرآن المبين.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَعِينُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ

(1) قال ابن أبي العزّ في شرح الطحاوية ص 201، 202: أنّ العقل مع النقل كالعالمي المقلّد مع العالم المجتهد، بل هو دون ذلك بكثير، فإنّ العالمي يمكنه أن يصير عالماً، ولا يمكن العالم أن يصير نبياً رسولاً.

(2) معالم التنزيل للبعوي 135/3.

(3) معالم التنزيل للبعوي: 135/3.

(4) ولو فرض وجود من يقول بإنكار الروح، فأمثال هؤلاء كأمثال السوفسطائيين الذين سقط الكلام معهم لإبطلهم أساسيات وضروريات لا يستغنى عنها، وقد قيل:

وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لِيْنِ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ﴿الشعراء: 23 - 29﴾.

جاء سؤال عدو الله فرعون بلفظ: (ما) للسؤال عن الماهية والكيفية، ومعلوم أنّ لفظ (ما) يستخدم لغير العاقل، وإنما أراد عدو الله السؤال عن المادّة؛ لأنّه لو قصد السؤال عن الله سؤال معرفة وبيان لهذا الإله العظيم، لكان السؤال بلفظ (من) التي تستخدم للعاقل.

فجاء الجواب من موسى عليه السلام مغايراً للسؤال الذي سأله فرعون، فأجاب موسى عليه السلام بما يدلّ على وصف هذا الإله، وليس عن ماهيته وكيفيته، وأجاب نبي الله بما هو تعريف بالله، بذكر صفاته المحسوسة للخلق؛ ليستطيع أن يترقى العبد من المحسوس إلى تعقل الموصوف بهذه الصفات.

قال رسول الله ﷺ: ((تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في ذاته))⁽¹⁾.

والخلاصة: أن الله خلق الإنسان وفضله على سائر المخلوقات وجعله مكرماً منذ الأزل إذ نفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة وجعله خليفة في الأرض وسيدا عليها وسخر له هذا الكون لخدمته، وزاده تشريفاً وتكريماً بالعقل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الاسراء: 70].

فالعقل أداة فهم سر الوجود والخلق، وهو ما يملكه الإنسان من قدرة على التمييز بين الأفعال والأقوال من حيث صلاحها وفسادها ونفعها وضرها، وهنا تكمن أهميته في الإسلام فهو جهاز للتدبير والتفكير في النفس والكون وهو طريق الإيمان بالله، وهو أساس التكليف فلا تكليف على مجنون أو فاقد عقل، وهو وسيلة الاجتهاد في أمور الدين.

فيجب استعمال العقل في الخير لا في الشر، وفي طاعة الله لا معصيته، وفي عالم الشهادة لا في عالم الغيبات التي لا يعرفها إلا الله، وأن يقف العقل عن البحث في الأمور التي فوق طاقته مثل البحث عن ذات الله وفي الروح والقدر.

ولذا حرص الإسلام على حفظه من كل ما يضر به حساً ومعنى.

هذه الضرورة "حفظ العقل" جعلتها المؤلف في ترتيبها على الترتيب الخامس وعند الكثيرين هي تأتي كالضرورة الثالثة:

للعقل في الإسلام أهمية كبرى فهو مناط المسؤولية، وبه كرم الله تعالى الإنسان وفضله على سائر المخلوقات، وترهياً للقيام بالخلافة في الأرض، وسخر له ما في البر والبحر، قال الرمخشري: (كرم الله تعالى بالعقل، والنطق، والتمييز، والخط، والصورة الحسنّة، والقامة المعتدلة، وتدبير أمر العاش والمعاد)². وكلفه بعبادته، وطاعته

(1) حديث ضعيف، لكن يرتقي بشواهد إلى الحسن، وقد حسنه الألباني في "السلسلة الصحيحة" 1788، وحسنه في "الجامع الصغير" (2975).

² الكشاف، (2/ 635).

وتحمّل الأمانة اعتماداً على وجود العقل، وتحقق مصالح الدنيا والآخرة يحتاج إلى الشرع، والشرع لا يقوم إلاّ على العقل؛ لأنّه أساس التكليف.

بفقدتها يختلُّ نظام الحياة، وتشيّع الفوضى بين الناس، وتضيق مصالحهم، بخلاف الحاجيات والتحسينيات

ولأهمية العقل في الإسلام؛ فقد جعلت الشريعة المقصد الثالث من مقاصدها حفظ العقل، بعد حفظ الدين وحفظ النفس، وهذا الترتيب يُبين لنا مدى احتفاء الشريعة بالعقل، فالدين أولاً؛ لكونه الغاية التي من أجلها خلق الله تعالى الخلق، والنفس ثانياً؛ لكونها الوعاء الذي يضمُّ الجوارح والقلب والعقل، وجاء العقل في المرتبة الثالثة؛ لكونه وسيلة التلقّي والفهم، فيتلقّى عن الله تعالى بواسطة الأنبياء الشريعة، ويفهم عنهم المراد والمقصد.

فإنّ المتبع للعديد من الآيات القرآنية يجد أنها قد اهتمت بالعقل ومكانته، وحثّت على إعماله، واستثمار قدراته، وكذلك السنة النبوية وتوجيهاتها إلى العلم والتعلّم والتدبّر، والذي لا يوصل إليه إلاّ باستثمار طاقات العقل وقدراته، ممّا يدرك على مكانة العقل، كما يلاحظ ارتباط كثير من الأحكام بالعقل، ممّا يستنبط منها ضرورة حفظ العقل وصيانتها.

قال الشاطبي: (وحفظ العقل يتناول ما لا يفسده، وهو في القرآن، ومأمّله شرعية الحدّ أو الزجر، وليس في القرآن له أصلٌ على المخصوص، فأمّ يكن له في السنة حكم على المخصوص أيضاً، فبقي الحكم فيه إلى اجتهاد الأمة)، وهذا الاجتهاد مُستفادٌ من أصول الشريعة العامة، ونصوص القرآن والسنة، وقد فطن العلماء إلى ذلك، فُجّلوه المقصد الثالث من المقاصد التي جاءت الشريعة لتحقيقها.

تعريف العقل: العقل قوة في نفس الإنسان يُدرك من خلالها العلوم، ومُحصّل المعارف، وله إطلاقات مختلفة عند العلماء والحكماء والعامة. والمقصود بالعقل هنا: (هو القوة الإدراكية التي تلي قوة الحواس، وفي مجال يفوق مجال الحواس، ودون الوحي الإلهي الذي يأتي عن طريق الرُّسل لهداية العقل الإنساني إلى سواء السبيل، وجنّبته الزلل والضلال، ومُخرجه من الظلمات إلى النور).²

علاقة العقل بالحواس: الإنسان مُكوّن من عقلٍ وحواسٍ ظاهرة؛ كالسمع والبصر، والشّم، والذوق، واللمس، والعقلُ والحواسُ وسيلتان من وسائل الإدراك، لكنّ الحواسَ بمثابة المُقدّمات للعقل، تُعاونُهُ وتُساعدُهُ في الوصول إلى العلوم والمعارف، والعقل بمثابة الحاكم يتصرف فيما أتت به الحواس من معارف فينقّصها، ويقبّل ما كان حقاً، ويردُّ ما كان باطلاً، والعقل بدون الحواس لا قيمة له، كما أنّ الحواس بدون العقل لا قيمة لها في حياة الإنسان المُكرّم المُفضّل.

¹ الموافقات، (4 / 29).

² المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، (ص 328).

وسائل حفظ العقل

إذا انتقلنا إلى حفظ العقل الذي ميز الله به هذا الإنسان، وجعل العقل مناطاً للتكليف، والعقل جزء من النفس، نجد أن الشرع قد جاء بما يكفل الحفظ لهذه النعمة الإلهية العظيمة، وشرع تدابير لإبقائه، وتدابير لمنع زواله.

فما هي الأشياء التي جاء بها الشرع لحفظ العقل؟ حتى في قضية طلب العلم والتدبير والتفكير والتأمل، شرعت تهيئة وتقوية وتوجيه العقل: {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَلْبِطُونَ مِنْهُمْ} [النساء: 83]، {وَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} [آل عمران: 191]، {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} [النساء: 82]، "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، إذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر" [رواه البخاري: 7352، ومسلم: 1716].

إذن هذه، قضية تهيئة العقل وتقوية العقل بالتعلم، والاجتهاد، والاستنباط، والتفكير، والتدبير، والتأمل، والمدارسة، تهيئة، ومن جهة حفظ العقل أيضاً، مثلاً: تحريم تعاطي المسكرات والمخدرات.

لكن هذا يأتي في أي حق؟ المنع من الزوال والمنع من الاختلال.

فنجد أن الشرع حرم كل ما يفسد العقول ويذهبها، فتحريم الخمر معروف بالأدلة، وما هو أسوأ من الخمر، من المخدرات، وكل ما فيه إتلاف للعقل، وإتلاف لخلايا الدماغ.

أشياء تعاطى تؤدي إلى تلف خلايا الدماغ، هذه حرام.

لو قال أحد: أنا أريد آخذ بنج من غير داعي، بدون عملية، فما حكمه؟ حرام، لا يجوز تفتيت العقل، لا يجوز استعمال ما يفتت العقل إلا لضرورة، نجد حد شارب الخمر.

حتى من نواحي، منع العقل من الاختلال، مثلاً منع التقليد الأعمى، منع انحراف العقل حتى من جهة التفكير، منع انحراف العقل، التقليد بغير بينة: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِنَّ آبَاءَنَا أُولَئِكَ لَا يَعْقِلُونَ سِنِينَ وَلَا يَهْتَدُونَ} [البقرة: 170].

وسائل المحافظة على العقل: لهذه الأهمية الخاصة حافظ الإسلام على العقل وسنَّ من التشريعات ما يضمن سلامته وهويته وذلك من خلال وسائل أساسية، وأخرى مساعدة:

أولاً: "الوسائل الأساسية" لحفظ العقل:

الوسيلة الأولى: أهمية التعليم للمحافظة على العقل، فالتعليم من الأمور المطلوبة من كل رجل وامرأة، وجعل العلماء هم أفضل الناس، وحث على طلب العلم، وفائدة التعليم هي تمرين العقل وصلفه على سرعة الإدراك وربط الأسباب بالسببات والعلل بالعلولات، فالعقل البشري كما يحتاج في نموه وبقائه إلى الغذاء فإنه يحتاج أيضاً إلى العلم والمعرفة، وهو كالمرآة كلما زاد الاهتمام بتنظيفها من الغبار والأدران كانت أحسن حالاً في تأدية وظيفتها.

ونسبته لقيمة التعليم وأثره في تقويم العقول حرص الإسلام على أن يجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة، في قوله صلى الله عليه وسلم: (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ)؛ لقد أعلّى الشَّرْعُ الحَكِيمُ مِنْ قِيَمَةِ الْعِلْمِ والعُلَمَاءِ، ودينُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَلَ الْعَالِمِ الَّذِي يَنْقُلُ عِلْمَهُ إِلَى النَّاسِ، وما له مِنْ أَجْرِ عَظِيمٍ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى. وقد أوجب النبي صلى الله عليه وسلم التعليم؛ محافظَةً على العقول؛ لأنه لا قيمة لعقل جاهل يكون عُرضَةً لكلِّ ما يحظر عليه من الأوهام والخرافات، فمثل هذا العقل لا يدرك المصالح الدنيوية فضلاً عن الحقائق الدنيوية، فيصير فريسةً للبدع، والخرافات، والانحرافات الفكرية، وربما يصل به الحال إلى الشرك بالله تعالى من حيث لا يعلم؛ بسبب جهله المركَّب.²

الوسيلة الثانية: تحريم المسكرات والمخدرات، وتحريم كلِّ ما من شأنه أن يؤثّر على العقل، ويضرب به، أو يعطل طاقته؛ كالخمر والحشيش وغيرها، قال النووي: (وأما الخمر فقد أجمع المسلمون: على تحريم شرب الخمر، وأجمعوا: على وجوب الحدِّ على شاربيها، سواء شرب قليلاً أو كثيراً).³

والأهدأ في ذلك كثيرة ومتوافرة، ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: (كُلُّ شَرَابٍ أُسْكِرَ فَهُوَ حَرَامٌ)؛ وقوله صلى الله عليه وسلم: (كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ)⁴، وقوله صلى الله عليه وسلم: (كُلُّ مَا أُسْكِرَ عَنِ الصَّلَاةِ فَهُوَ حَرَامٌ)؛ قال النووي: (فيه تصريحٌ بتحريم جميع الأنبذة المسكرة، وأنها كلها تُسمّى خمرًا، وسواء في ذلك الفصيح⁵، ونبذ التمر، والرطب والبسر، والزبيب، والشعير، والذرة، والعسل، وغيرها، وكلُّها مُحَرَّمَةٌ، وتُسمّى خمرًا، لهذا مذهبنا، وبه قال مالكٌ وأحمدٌ والجمهور من السلف والخلف).⁶

وستوي قليل الخمر وكثيره في الحرمة؛ لأنَّ الكثير مُسكِرٌ، والقليل داعيةٌ إلى الإسكار، ولا يتم المقصود الشرعي إلا بتحريمه، فأُلْحِقَ بالكثير؛ سداً للذريعة، وإتماماً للمقصود الشرعي، وفي ذلك يقول ابن القيم: (وَمَنْعَ قَلِيلِ الْخَمْرِ، وَإِنْ كَانَ لَا يُسْكِرُ إِذْ قَلِيلُهُ دَاعٍ إِلَى كَثِيرِهِ، وَلِهَذَا كَانَ مَنْ أَبَاعَ مِنْ بَيْتِ التَّمْرِ التَّمْرَ المُسْكِرَ الْقَدْرَ الَّذِي لَا يُسْكِرُ خَارِجًا عَنْ مَحْضِ الْقِيَاسِ، وَالْحِكْمَةِ، وَمَوْجِبِ النَّصُوصِ).⁷

والتحريم يشمل كلِّ ما من شأنه أن يُذهب العقلَ من أنواع المخدرات والأقراص المُستحدثة؛ من البانجو والهروين والموادِّ، والكبتاجون ونحوها من الأقراص المخدرة التي تخلُّ بالإدراك وتُذهب العقل، إذ أنَّ العلةَ من تحريم الخمر المنصوص عليها صراحةً في القرآن والسنة هي زهاب العقل، ومن ثمَّ فإنَّ العلةَ نفسها إذا وجدت مع نوع آخر غير منصوص عليه أخذَ هُأَمُ المنصوص عليه، باعتبار العلة.

¹ رواه ابن ماجه، (81 / 1)، (ع 224). وصححه الألباني في (صحيح سنن ابن ماجه)، (92 / 1)، (ع 184).

² انظر: المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، (ص 366).

³ شرح النووي على صحيح مسلم، (217 / 11).

⁴ رواه البخاري، (95 / 1)، (ع 239)؛ ومسلم، (3 / 1585)، (ع 2001).

⁵ رواه مسلم، (3 / 1587)، (2003)، (2002).

⁶ رواه مسلم، (3 / 1586)، (ع 1733).

⁷ الفصيح: شرابٌ يتخذ من البسر المقضوف: أي المشدوف. انظر: النهاية، (3 / 453).

⁸ شرح النووي على صحيح مسلم، (13 / 148).

⁹ إعلام الموقعين، (2 / 103).

الحكمة من تحريم الخمر والمخدرات: المحافظة على نعمة العقل والإدراك هي الحكمة الأساسية والغاية العظمى التي من أجلها شرع تحريم الخمر، وما يلحق بها من المسكرات والمخدرات، وقد قرّر العلماء ذلك في العديد من أقوالهم، ومما جاء في ذلك:

أ- قول الرازي: (إنَّ عقل الإنسان أشرف صفاته، والخمرُ عدوُّ العقل، وكلُّ ما كان عدوًّا لأشرف فهو أفسس، فيلزم أن يكون شرب الخمر أفسس الأمور. وتقريره: أنَّ العقل إلهٌ سميَّ عقلاً؛ لأنه يجري مجرى عقول الناقه، فإنَّ الإنسان إذا دعاه طبيعه إلى فعلٍ قبيح، كان عقله مانعاً له من الإقدام عليه، فإذا شرب الخمر بقي الطبع الداعي إلى فعل القبائح خالياً عن العقل المانع منها.

ب- وذكر ابن أبي الدنيا: أنه مرَّ على سكران، وهو يبوك في يده، ويمسح به وجهه كهبيته المتوضئ، ويقول: الحمد لله الذي جعل الإسلام نوراً، والماء طهوراً.¹

والفطرة السليمة ترفض بما أودعه الله فيها شرب الخمر؛ وذلك لأنَّ شرب الخمر يُنافي المروءة والأخلاق القويمه؛ لذا وجد من أهل الجاهلية من لم يشرب الخمر لما دله عليه طبيعته وفطرته من غبثتها وعدم فائدتها، (فعن العباس بن مرداس: أنه قيل له في الجاهلية: لم لا تشرب الخمر؛ فإنها تزيد في جراتك؟ فقال: ما أنا بأخذ جهاي بيدي، فأدخله جهوفي، ولا أرضى أن أصبح سيّد قوم وأمسي سفيهم).²

ج- وقال الألويسي: (لو لم يكن فيها سوى إزالة العقل والخروج عن حد الاستقامة لكفى، فإنه إذا أختلَّ العقل حصلت الجبائث بأسرها).³ ولذا أسماها النبي صلى الله عليه وسلم أمَّ الجبائث، وأمَّ الفواحش. والخمر أصل الشرور ومنبؤها، حرّمها الله سبحانه وتعالى على العباد؛ لأنها تُؤدِّي إلى مفسد كثيرة؛ فضررها لا يقتصر على شاربيها فقط، بل يتعدى إلى غيره. عن عثمان بن عفان قال: "اجتنبوا الخمر فإنها أمَّ الجبائث، إنه كان رجلٌ ممن خلا قبلكم تعبد، فعلقته امرأة غويّة، فأرسلت إليه جاريةها، فقالت له: إننا ندعوك للشهادة، فانطلقت مع جاريةها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دوني، حتى أفضتني إلى امرأةٍ وضيت، عندها غلامٌ وباطيةٌ خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع عليّ، أو تشرب من هذه الخمر كأمّ، أو تقتل هذا الغلام، قال: فاسقيني من هذا الخمر كأمّ، فسقته كأمّ، قال: زيدوني، فام يرم حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر، إلا ليوشك أن يخرج أحدُهما صاحبه!"⁴

الأضرار المترتبة على شرب المسكر: إنَّ تحريم المسكرات والمخدرات في الشريعة الإسلامية جاء في المقام الأوّل لفظ العقل وصيانته، كما جاء لتجنّب ما يسببه غياب العقل من مفسد ومضار متحققة الوقوع بغيابه، وهذه المفسد وتلك المضار متعدّدة الجوانب ومتعدّية الأثر، فمنها ما يلحق الشفخص المدمن نفسه، ومنها ما يلحق المحيطين به أفراداً ومجمعات، ومن ثمّ الأمة بأسرها، ومن ذلك ما يلي:

الأضرار والمفسد القاصرة: التي تعود على شاربي الخمر في شخصه ودينه وعقله وبدنه وماله ومكانته بين الناس: فقد أشار القرآن الكريم إلى مفسد الخمر وأضرارها، وأنَّ ضررها أكبر من نفعها، وأنها تورث العداوة

¹ التفسير الكبير، (6/ 40).

² شفاء الغليل، (ص 103).

³ روح المعاني، (2/ 114).

⁴ صحيح النسائي 5682.

والبغضاء، ونهض عن ذكر الله، وعن الصلاة، وجاء في السنة: أنها أم الفواحش وأكبر الكبائر، وأنها أم الجبايات، ومن شربها لم تقبل صلاته أربعين يوماً، وأنها ملعونة وشاربها، وأنه يسقى عرق أهل النار يوم القيامة¹، وبيات ذلك يأتي فيما بعد.

وأما الأضرار البدنية: فهناك أضرار سلبية تؤثر على الجهاز العصبي بسبب تعاطي المسكرات، وثبتت أن 30% من المجانين الذين يعالجون في مستشفيات الأمراض العقلية كان جنونهم ناشئاً عن تعاطي المسكرات، مما حدا ببعض الأطباء الألمان أن يقول: (اقفلوا لي نصف الحانات أضمن لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات والملاحئ والسجون).²

بل إن للمسكرات أثراً خطيراً على أجهزة الجسم؛ كالأوعية الدموية، والكلى، والرئتين، يقول الأطباء: إن السكر لا يتحول إلى دم كما تتحول سائر الأغذية بعد الهضم، بل يبقى على حاله فيزعم الدم في مجاريه فتسرع حركة الدم، وتخرج عن وضعها الطبيعي، لأن الأساس في الخمر مادة الكحول، فزيادتها في الجسم بتعاطي الخمر لمدة طويلة يحدث التهاباً مزمنياً في الأعصاب، وفي الكلى، وتصلباً في الشرايين، وتنجراً في الكبد، وضعفاً في القلب، ويكون موت السكران محققاً إذا بلغت نسبة الكحول في دمه ستة في الألف.³

وأما إضاعة المال: فهو ضرر ظاهر لا يحتاج إلى برهان؛ كما قال ابن أبي الدنيا: (بلغني أن قيس بن عاصم قيل له في الجاهلية: تركت الشراب؟! قال: لأني رأيت متلفاً للسم، داعية إلى شرّ المقال، مذهبة بمروءات الرجال)،⁴ فإن مدمن الخمر لا يستطيع التخلي عن شربها، وربما أدى به الحال إلى التخلي عن الضروريات أو الحاجيات بسبب تبذير المال في شرب الخمر، فيفسد بذلك عقله ودينه ودينه.

ووصف ابن القيم الخمر بأنها: (تورث الخزي والندامة والفضيحة، وتلحق شاربها بأنقص نوع الإنسان؛ وهم المجانين، وتسلبه أحسن الأسماء والسمات، وتكسوه أقيح الأسماء والصفات، وتسهل قتل النفس، وإفشاء السر الذي في إفشائه ضرته أو هلاكه، ومؤاخذة الشياطين في تبذير المال الذي جعله الله قياماً له... وتهوّن ارتكاب القبائح والمائم، وتخرج من القلب تعظيم المحارم، ومدمنها كعابد وثني، ولم أهاجت من حرب، وأفقرت من غني، وأزلت من عزيز، ووضعت من شريف، وسلبت من نعمته، وجلبت من نقمة، وفسخت من مودة، ونسجت من عداوة، ولم فرقت بين رجل وزوجته، فذهبت بقلبه، وراحت بلبه، ولم أورثت من حسرة، وأغررت من عبرة، ولم أغلقت في وجه شاربها باباً من الخير، وفتحت له باباً من الشر، ولم أوقعت في بلية، وعملت من منيته، ولم أورثت من خزيته... فهي جماع الإثم، ومفتاح الشر، وسلاية النعم، وجملة النقم).⁵

وأما الأضرار المتعدية: فهناك مفاصد في محيط الأسرة حيث يقصر شارب الخمر في حقوق زوجته وأولاده بإهمال شؤونهم في الرعاية والعناية، وكذا في الجانب المالي بإضاعته في هذه السُّموم، والمفاصد الاجتماعية لا

¹ أضرهم النساء 5664، وابن ماجه 3377.

² أضرهم أبو داود 3674، وابن ماجه 3380.

³ صحيح مسلم 2002.

⁴ انظر: مجلد الهداية الإسلامية، (4/ 214)؛ تفسير المنار، (326).

⁵ انظر: روح الدين الإسلامي، (ص409).

⁶ زم السكر، (ص74).

⁷ هادي الأرواح، (ص122).

تعدّ ولا تُحصي؛ لأنّ متعاطي الخمر تتأثر قواه العقلية، ويخرج بذلك عن تصرفات العقلاء، وعود الشرع وقيود العادة والطبع، ويكون مستعداً لإحداث كلّ رذيلة اجتماعية، ولقارفة كلّ جريمة؛ كالقتل والزنا والسرقة ونحوها.

وأما الأضرار التعديّة إلى محيط الأمة: فإنّ كلّ أمة انتشر فيها داء المسكرات والمخدرات تصاب بالوهن والتفكك في روابطها وعلاقاتها، وتنتشر ضغائن العداوة والبغضاء بين أفرادها؛ بسبب ما يقع من جرائم على النفس، والعرض، والمال، وتضعف كذلك القوة الإنتاجية؛ بسبب تأثير المسكرات على القوة العاملة، والقوة المدافعة عن هرماتها ومقدساتها، وربما نتج من ذلك إفشاء أسرار الدولة إلى الأعداء بسبب سيطرة الشهوات على أفرادها فلا تفلح في حياة الدنيا ولا في الآخرة.¹

قرأت تقارير كثيرة عن جرائم وحوادث مختلفة الغرب كان السبب وراءه المسكرات. قرأت في موقع Statistika: في عام 2022، وقع حادث مروري تحت تأثير الكحول في ألمانيا. أصيب حوالي 20700 شخص في حوالي 16800 حادث بإصابات شخصية. وفي الجمل، كان هناك حوالي 167 ألف مخالفة مرورية تتعلق بالكحول والمخدرات في عام 2022.

الوسيلة الثالثة: العقوبة الرادعة على تناول المسكرات؛ وذلك لخطورتها وأثرها البالغ الضرر على الفرد والمجتمع، وسلك في ذلك مسلكين:

المسلك الأول: الوازع الديني: ببيان هُكم المسكرات، وبيان المضار والمفاسد المترتبة على شربها، وبيان عقوبة الآخرة، ومن ذلك:

أ- قوله صلى الله عليه وسلم: (كلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، إِنَّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ؛ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْحَبَالِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا طِينَةُ الْحَبَالِ؟ قَالَ: عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ أَوْ عَصَاةُ أَهْلِ النَّارِ).²

ب- وقوله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا فَمَاتَ وَهُوَ يُدْمِنُهَا، لَمْ يَتَّبِ، لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الْآخِرَةِ).³

ج- وقوله صلى الله عليه وسلم: (الْخَمْرُ أُمُّ الْجَبَائِثِ، فَمَنْ شَرِبَهَا لَمْ تُقْبَلْ صَلَاتُهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَإِنْ مَاتَ وَهِيَ فِي بَطْنِهِ مَاتَ مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً).⁴

د- وقوله صلى الله عليه وسلم: (الْخَمْرُ أُمُّ الْفَوَاحِشِ، وَأَكْبَرُ الْكَبَائِرِ، مَنْ شَرِبَهَا وَقَعَ عَلَى أَمْرٍ، وَضَالَّتِ، وَعَمَّتِ).⁵

¹ انظر: المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، (ص 378، 382).

² رواه مسلم، (3/ 1587)، (ع 2002).

³ أي: يُدوم على شربها، بأن لم يتب عنها حتى مات على ذلك. انظر: تحفة الأحمدي، (5/ 486).

⁴ رواه مسلم، (3/ 1587)، (ع 2003).

⁵ رواه الطبراني في (الأوسط)، (4/ 81)، (ع 3667). وعسنه الألباني في (صحيح الجامع الصغير)، (1/ 631)، (ع 3344).

⁶ رواه الطبراني في (الكبير)، (11/ 164)، (ع 11372). وعسنه الألباني في (صحيح الجامع الصغير)، (1/ 631)، (ع 3345).

هـ- وقوله صلى الله عليه وسلم: (لَعَنَ اللَّهُ الْحَمْرَ، وَشَارِبَهَا، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَمُبْتَاعَهَا، وَعَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهَا)؛¹

المسلك الآخر: الوازع السلطاني: المتمثل في العقوبة البدنية في الدنيا، فهو بذلك يمنع الظواهر الجرمية، ويزجر المجرم من معاودة الإجرام، وهذا المسلك مُتَمِّمٌ ومُكَمِّلٌ للأول، وقد شُرِعَتْ عقوبة الخمر، وهي الجلد في السنة النبوية، وذلك فيما يلي:

أ- عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَجَلَدَهُ بِجَرِيدَتَيْنِ نَحْوِ أَرْبَعِينَ). قال: وَقَعَلَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمَّا كَانَ عُمُرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسْتَشَارَ النَّاسَ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَخَفَّتْ الْحُدُودُ ثَمَانِينَ²، فَأَمَرَ بِهِ عُمُرُ³.

ب- وفي حديث عاي رضي الله عنه؛ أَنَّهُ جَلَدَ أَرْبَعِينَ، ثُمَّ قَالَ لِلجَلَّادِ: (أَمْسِكْ)، ثُمَّ قَالَ: جَلَدَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعِينَ، وَجَلَدَ أَبُو بَكْرٍ أَرْبَعِينَ، وَعُمَرُ ثَمَانِينَ، وَكُلُّ سُنَّةٍ، وَهَذَا أَهْبُ إِلَيْ⁴.

ج- وعن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: (كُنَّا نُوْتِخُ بِالشَّارِبِ عَايَ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِمْرَةَ أَبِي بَكْرٍ وَصَدْرًا مِنْ خِلَافَةِ عُمَرَ، فَتَقُومُ إِلَيْهِ بِأَيْدِينَا وَنِعَالِنَا وَأُرْدِيَتِنَا، حَتَّى كَانَ آخِرُ إِمْرَةِ عُمَرَ، فَجَلَدَ أَرْبَعِينَ، حَتَّى إِذَا عَتَوَا⁵ وَفَسَقُوا جَلَدَ ثَمَانِينَ)⁶. قال الترمذي: (والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم: أن حد السكران ثمانون)⁷.

وقال النووي: (اختلف العلماء في قدر حد الخمر:

1- فقال الشافعي، وأبو ثور، وداود، وأهل الظاهر، وآخرون: حدُّه أربعون. قال الشافعي: وللإمام أن يبلغ به ثمانين، وتكون الزيادة على الأربعين تعزيرات، على تسببه في إزالة عقله، وفي تعريضه للقتل، وأنواع الإيذاء، وترك الصلاة، وغير ذلك.

¹ رواه أبو داود، (3/ 326)، (ع 3674). وصححه الألباني في (صحيح سنن أبي داود)، (2/ 477)، (ع 3674).

² (أخفَّتْ الحُدُودُ ثَمَانِينَ): بصبب أخف، وهو منصوبٌ بفعلٍ محذوف، أي: اجعلته كأخفَّتْ الحدود، أو اجعلته كأخفَّتْ الحدود، والقصورُ بقول: (أخفَّتْ الحُدُودُ ثَمَانِينَ) يعني: المصروف عليها في القرآن، وهي: حدُّ السرقة بقطع اليد، وحدُّ الزنا بجلد مائة، وحدُّ القذف ثمانين، فاجعلها ثمانين كأخفَّتْ هذه الحدود، وفي هذا: جوازُ القياس، واستحبابُ مشاركة القاضي والمفتي أصحابه، وماضري مجلسه في الأحكام. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، (11/ 216).

³ رواه مسلم، (3/ 1330)، (ع 1706).

⁴ (وَكُلُّ سُنَّةٍ): معناه: أَنَّ فِعْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سُنَّةٌ يُعْمَلُ بِهَا، وَكُنَّا فَعَلْنَا عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَكِنْ فِعْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَهْبُ إِلَيْ انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، (11/ 217).

⁵ (وَهَذَا أَهْبُ إِلَيْ): إشارة إلى الأربعين التي كالت جلدًا وقال للجَلَّادِ: (أَمْسِكْ). ومعناه: هذا الذي قد جلدته، وهو الأربعون، أَهْبُ إِلَيْ مِنَ الثَّمَانِينَ، وفيه: أَنَّ فِعْلَ الصَّحَابِيِّ سُنَّةٌ يُعْمَلُ بِهَا، وَهُوَ مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْتَدِينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ) رواه الترمذي، (44/ 4)، (ع 2676) وقال: (حسن صحيح). وصححه الألباني في (صحيح سنن الترمذي)، (3/ 70)، (ع 2676). انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، (11/ 217).

⁶ رواه مسلم، (3/ 1331)، (ع 1707).

⁷ (عَتَوَا): العتوا: المبالغة في ركوب المعاصي، والعتا: هو الذي لا يؤمر عنده الوعظ والزهرة. انظر: كشف المشكل، لابن الجوزي (11/ 81).

⁸ رواه البخاري، (6/ 2488)، (ع 6397).

⁹ سنن الترمذي، (4/ 84).

2- ونقل القاضي عن الجمهور من السلف والفقهاء؛ منهم مالك، وأبو حنيفة، والأوزاعي، والثوري، وأحمد، وإسحاق - رحمهم الله تعالى، أنهم قالوا: عدّه ثمانون، واحتجوا: بأنه الذي استقرّ عليه إجماع الصحابة، وأنّ فعل النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن للتحديد، ولهذا قال في الرواية الأولى: (تحوّ أربعين).¹

وهجّة الشافعي وموافقيه: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم إمّا جلد أربعين، كما صرّح به في الرواية الثانية²، وأما زيادة عمر: فهي تعزيرات، والتعزير إلى رأي الإمام؛ إن شاء فعلة، وإن شاء تركه، بحسب المصلحة في فعله وتركه، فرآه عمر، ففعله، ولم يره النبي صلى الله عليه وسلم، ولا أبو بكر رضي الله عنه، ولا علي رضي الله عنه، فتركوه، وهكذا يقول الشافعي: إنّ الزيادة؛ إلى رأي الإمام، وأما الأربعون؛ فهي الحدّ المقدّر الذي لا بدّ منه، ولو كانت الزيادة عدداً لم يتركها النبي صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر رضي الله عنه، ولم يتركها علي رضي الله عنه بعد فعل عمر؛ ولهذا قال علي رضي الله عنه: "وكلُّ سنّة" معناه: الاقتصار على الأربعين، وبلغ الثمانين، فهذا الذي قاله الشافعي هو الظاهر الذي تقتضيه هذه الأحاديث، ولا يشكّل شيء منها³.

وهذه العقوبات المقرّرة في حقّ شارب الخمر بنوعها (الحد - التعزير) يُنابذ بها ردع شارب الخمر وزجره عن المعادة؛ حفاظاً لعقله الذي به تُصان الأعراض، وتُحرم الحرمات، وتُحفظ المجتمعات، وتُحصى من التّعديّ والخروج على النسق العام والآداب العامة التي أقرّها الإسلام، ووافقها الطبع والعرف.

ثانياً: "الوسائل المساعدة" لفظ العقل:

1- تربية العقل على روع الاستقلال في الفهم والنظر، واتباع البرهان، ونبذ التقليد غير القائم على الحجّة؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ آلِهَةٍ قُلُوبًا لَهُمْ أَلْبَابٌ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: 24]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [المؤمنون: 177]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111].

2- الدعوة إلى تنمية العقل مادياً ومعنوياً؛ مادياً: بالغذاء الجيّد الذي يُقويّ الجسم ويُشيطّ الذهن، ومن هنا كره للمقاضي أن يقضي وهو جائع، وفُضِّلَ تقديم الطعام على الصلاة إذا حضراً معاً. أما معنوياً: فبالتأكيّد على طلب العلم واعتباره أساس الإيمان، وإتاحة التعليم للجميع، وجعله حقاً مُشاعاً بين أفراد المجتمع، بل هناك حدّ أدنى منه واجبٌ على كلّ مسلم ومسلمة، وليس أدلّ على اعتبار السنة النبوية لمكانة العقل وقيّمته من أنها جعلت فُكّك الأسرى؛ أسرى بدر بأن يقوم كلّ واحدٍ منهم بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، فجعل القراءة والكتابة، وهما باب العلم ومفتاح التدبّر جعلتهما مُعادلاً للحريّة، إذ أنّ تحرير العقل من قيد الجهل يعادل فُكّك الأسير من الأسر ونيله الحريّة، وهذا الفعل من النبي صلى الله عليه وسلم لدليل دامع على أهميّة العقل في الإسلام والسنة النبوية.

3- رفع مكانة العقل، وتكريم أولي العقول؛ ففي أكثر من آية من القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿قَبَشْرٌ عِبَادِي * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 18].

¹ رواه مسلم، (3/ 1330)، (ج 1706).

² رواه مسلم، (3/ 1331)، (ج 1706).

³ شرح النووي على صحيح مسلم، (111/ 217، 218).

17، 18]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190]، ويقول تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9].

4- تحمير العقل من سلطان الخرافة، وإطلاقه من إفسار الأوهام، ومن هنا حرّم الإسلام السّحر والكهانة والشعوذة وغيرها من أساليب الدّجّل والخرافة، كما أنه منّع على العقل الخوض في الفيبات من غير سلطانٍ أو علمٍ يأتيه من الوحي المنزّل على النبي صلى الله عليه وسلم، واعتبر ذلك سبباً رئيساً في هدر طاقته من غير طائل؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَجَارِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: 56].

5- تدريب العقل على الاستدلال المنهجي، والتعرف على الحقيقة، من خلال وسيلتين:

أ- وضع المنهج الصحيح للنظر العقلي المفيد لليقين، ومن هنا جاءت الدعوة إلى التّثبت قبل الاعتقاد، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: 36]، وذكر الله تعالى عن أهل الكهف أنهم قالوا: ﴿هُؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ لَآتَيْنَهُمْ مِنَ اللَّهِ كِتَابًا﴾ [الكهف: 15].

ب- الدعوة إلى التدبّر في نواحي الكون لاستكشافها، وتأمل ما فيها من دقة وترابط، والاستقراء والتحصيص الدقيق للوصول إلى اليقين.

6- توجيه الطاقة العقلية إلى استخلاص حكم التشريع وأسراره، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

7- استخلاص الطاقات المادية في الكون والاستفادة منها، في بناء الحضارة ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: 15].

8- فتح باب الاجتهاد في التشريع، فيما لا نصّ فيه، ويمثّل ذلك في أمرين:

أ- استخلاص المقاصد والأهداف من النصوص والأحكام الشرعية.

ب- استنباط الأحكام والتشريعات لما يستجد من حوادث، وهو مجال واسع يستند إلى مبادئ عدة؛ كالقياس، والمصلحة، والاستحسان، وغيرها.

الطيرة استهتار واستخفاف بالعقل

تحريم الطيرة بكل أشكالها فهذا بعضها: في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا عدوى ولا طيرة وأحبُّ القائل الصالح)). ولهما عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا عدوى، ولا طيرة، ويُعجبني القائلُ) قالوا وما القائلُ قال: (كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ)). وفي رواية: (الطِّمَّةُ الْحَسَنَةُ).

وعن ابن مسعود مرفوعاً: (الطِّيرَةُ شِرْكٌ قَالَهُ ثَلَاثًا، وَمَا مِنَّا إِلَّا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ!). والمقصود بقوله: وما منا إلا، أي وما من أحدٍ إلا وتخطر الطيرة في باله.

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيرَةُ عَنْ هَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا كَفَارَةٌ ذَلِكَ قَالَ يَقُولُ "اللَّهُمَّ لَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا خَيْرُكَ").²

ويتكرر في بعض الأحاديث معنى يجب إيضاحه وهو أن الطيرة لا يؤخذ عليها إن كانت خاطرة تخطر في البال، وإنما المؤاخذة أن تُصعب فعلاً. ففي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي أنه قال: (وَمِنَّا رِجَالٌ يَطِّيرُونَ. قَالَ: (ذَلِكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ فَلَا يَصُدُّهُمْ)).

وقال عكرمة: كنا جلوساً عند ابن عباس فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير، خير، فقال ابن عباس: (لا خير، ولا شر). فبادره ابن عباس بالإنكار عليه، لئلا يعتقد أن له تأثيراً في الخير، أو الشر.

وخرج طاووس مع صاحب له في سفر، فصاح غراب، فقال الرجل: خير، فقال طاووس: (وأي خير عنده؟ والله لا تصحبي).

وقال بعض العلماء إن في الطيرة أربعة محذورات شرعية:

1. شركاً بالربوبية لما فيها من ادعاء عام الغيب، ولما فيها من اعتقاد جلب النفع، ودرء الضر.
2. شركاً في الألوهية، لما فيها من تعلق القلب بغير الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله.
3. إنها تضعف قلب الإنسان، وتفتح عليه باب الخوف من غير الله، وتقوده إلى الجهل والخرافة.
4. إن فيها اعتماداً على ما ليس سبباً لا شرعاً، ولا قدراً.

الخلاصة: تخلص مما سبق إلى أن العقل في الإسلام يحتمل مكانة سامية؛ لكونه وسيلة التلقي للنصوص، فهو الباب الأول للإيمان؛ لذا رُفِعَ التكليف عن المجنون لفقدانه هذه الوسيلة، وقد أعلى الإسلام من شأنه ورفَع من قدره واتخذ من الوسائل والتدابير الحافظة والداعمة لتثبيته وتطويره ما يُمكنه من تحقيق الهدف المنوط به، وهو تعقل الأمور والتمييز بين الحسن والقبيح والذي يترتب عليه مدى قدرة الإنسان وكفاءته في تحقيق الخلافة على وجه الأرض.

¹ أفهمهم أبو داود (3970) واللفظ له، والترمذي (1674)، وابن ماجه (3538)، وأحمد (3687)

² إصلاح المساجد 177.

فهذه إذن نبذة عما جاء في الشريعة لفظ الضروريات الخمس، التي لا تقوم الدنيا والآخرة، مصالح الدنيا والآخرة إلا بها، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.¹

¹ مقاصد السنة النبوية، مقال على شبكة الألوكة، د. محمود بن أحمد الدوسري.

الفصل الرابع بإاء تهايم الإسلام

ويتضمن مبحثان:

المبحث الأول: أركان الإسلام.

المبحث الثاني: أركان الإيمان.

تمهيد: شمولية الإسلام والفرق بين الإسلام والإيمان:

أولاً: التنبية على شمولية تعاليم الإسلام للعقيدة والعبادة والشريعة:

من خصائص هذا الدين أنه دين شامل للعقيدة والعبادة والمعاملات..

فالإسلام ليس عقيدة قلبية أو حالة روحية يعيشها القلب فحسب..

والإسلام ليس تكاليف مالية وجهد بدني يقوم به المسلم..

والإسلام ليس نظاما اقتصاديا أو اجتماعيا أو سياسيا فحسب..

بل الإسلام هذا كله (عقيدة وعبادة وشريعة)، وإذا أردنا أن نعرض تعاليم الإسلام التي تميز الإسلام عن

غيره، فلا بد أن نعرض الإسلام وفق هذا الشمول والتكامل..

ولذا فتعاليم الإسلام التي لا بد للمسلم أن يلتزم بها بينها الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وقد جمع

حديث جبريل مع النبي ﷺ جانبي العقيدة والعبادة..

فعن عمر بن الخطاب ؓ قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض

الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه

إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: ((الإسلام أن

تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت

إن استطعت إليه سبيلا))، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله، ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال:

((أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره))، قال: صدقت، قال:

فأخبرني عن الإحسان، قال: ((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))، قال: فأخبرني عن

الساعة، قال: ((ما المسئول عنها بأعلم من السائل)) قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: ((أن تلد الأمة ربنتها،

وأن ترى الخفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان))، قال: ثم انطلق فلبث مليا، ثم قال لي: ((يا

عمر أتدري من السائل؟)) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ((فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم))⁽¹⁾.

أما جانب التشريع والمعاملات الأخرى فقد ورد في آيات من كتاب الله تعالى، وهي كثيرة تدل على وجوب

اتباع الشريعة الإسلامية وتطبيقها في جميع شؤون البشرية، منها قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ

أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[الجاثية: 18].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١١٣] لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ

﴿[الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

(1) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة (8).

وغيرها من الأدلة التي تثبت شمولية تعاليم هذا الدين فيما يخص الاعتقاد والعمل فيما بين العبد والله تعالى، والمعاملات والتشريعات فيما يصلح حاله مع نفسه وحاله مع الناس.

وهنا سنعرض لهذه الجوانب كمجال من مجالات الدعوة بل هو المجال الأهم، حيث يمثل التطبيق العملي للإسلام، مقتصرين في هذا الفصل على الحديث عن أركان الإيمان والإسلام، أما ما يتعلق بالشريعة والمعاملات فقد أفرد في الفصلين الخامس والسادس.

ثانياً: الفرق بين الإسلام والإيمان:

مع التنبيه إلى أن الإسلام والإيمان يجتمعان ويفترقان، قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

ولقد أجاد العلماء + الكلام حول الفرق بين الإيمان والإسلام في مواضع من الدراسات العقدية، وملخصها⁽¹⁾ في نقاط:

- إذا أفرد الإيمان أو الإسلام فلا فرق بينهما، بل كل منهما يشمل الدين كله.
- وإذا اجتمع لفظ الإسلام والإيمان في نص، فلكل منهما معنى، فيدل الإسلام على الأعمال الظاهرة، وهي أركان الإسلام الخمس. ويدل الإيمان على الأعمال القلبية، وهي أركان الإيمان الست وذلك كما في حديث جبريل السابق. وهذه هي القاعدة التي ذكرها العلماء: [الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا].
- يفسر الإسلام بالاستسلام لله بالقلب مع الأعمال الظاهرة⁽²⁾.
- كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمن: فعند إطلاق كلمة مسلم ومؤمن فإن المسلم قد يكون مؤمناً في بعض الأحوال ولا يكون مؤمناً في بعضها، والمؤمن مسلم في جميع الأحوال. فالإيمان أعم من الإسلام. فاسم المؤمن المطلق يقع على من قام بالدين ظاهراً وباطناً، وما يترتب عليه من الرفعة في الدرجات، ورضا الله عنه، والقرب منه، كما في الآية بشأن الأعراب.
- اسم المسلم يقع على كل من نطق بالشهادتين، ولم يظهر منه ما يناقضهما. فيحكم له بالإسلام ظاهراً، والله يتولى السرائر، ويترتب على ذلك: حفظ نفسه وماله، ويعامل معاملة المسلمين في كل شيء، ولعل ذلك ينقذه من الخلود في النار، وهذا هو الفرق العملي الذي نستفيدة من تفريق الله تعالى بين اللفظين في الآية.
- الإنسان أول ما يكون مسلماً ثم يرتقى في درجات الإيمان حسب قربه من ربه جل وعلا، والقيام بما أوجب عليه، ويزيد أكثر وأكثر بالقيام بالنوافل والسنن بعد الواجبات حتى يصل إلى درجة الإحسان.

(1) المسألة ملخصة من كتاب معارج القبول ص 187. وللإستزادة ينظر نص كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في المسألة في مجموع الفتاوى 13/7-15 و 265/7 و 472/7-474، وكذلك ينظر مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين 92/4.

(2) مجموع الفتاوى 265/7.

• ولا يمنع ذلك أن يكون مؤمناً الإيمان الإجمالي بأركان الإيمان، فهو إن لم يؤمن بذلك فهو بعيد عن الإسلام، فكيف يطيع الله وهو لا يؤمن به أو باليوم الآخر أو برسله أو ملائكته أو القدر، فالمسلم مؤمن إيماناً مجملًا بهذه الأركان ويزداد إيمانه بها أكثر وأكثر كلما قرب من الله جل وعلا.

المبحث الأول أركان الإسلام

تمهيد: مقدمات حول أركان الإسلام:

أولاً: مفهوم أركان الإسلام لغة:

الركن: مأخوذ من الفعل ركن، والجمع أركان ويفيد الجوانب القوية من كل شيء، ويقوم به ويسند إليه⁽¹⁾.
والإسلام لغة: مأخوذ من مادة (سلم)، والسَّلام والسلامة: البراءة، وتسَلَّم منه: تبرأ، وسَلَّمه الله من الأمر: وقاه إياه، والسَّلَم: الاستسلام، والسَّلَم: الإسلام، والسَّلَم: الانقياد والاستسلام⁽²⁾.
والإسلام: الاستسلام لأمر الله والانقياد لطاعته، ويقولون: سلَّمنا لله ربنا: أي استسلمنا له، وأسلمنا. والسَّلَم -أيضاً- الإسلام. والمسلم: المستسلم، ولهذا يقال "المسلم: المخلص لله عبادة"⁽³⁾.
وخلاصة القول في معنى الإسلام لغة: هو تمام الخضوع والانقياد والاستسلام.

ثانياً: مفهوم الإسلام شرعاً:

والإسلام شرعاً: لإطلاقه حالتان:

"الحالة الأولى: أن يطلق على الانفراد غير مقترن بذكر الإيمان فهو حينئذ يراد به الدين كله، أصوله وفروعه، من اعتقاداته وأقواله، وأفعاله لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ﴾ [المائدة: ٣]. وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، أي في كافة شرائعه.

الحالة الثانية: أن يطلق مقترناً بالإيمان فهو حينئذ يراد به الأعمال والأقوال الظاهرة، كقوله تعالى: ﴿قَالَتْ

(1) ينظر: مقياس اللغة 430/2، ولسان العرب 1219/1.

(2) ينظر: لسان العرب 2077/3 - 2081.

(3) ينظر: المحيط في اللغة 333/8.

الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴿[الحجرات: ١٤]﴾⁽¹⁾.

وكما في تعريف الإسلام في حديث جبريل حيث قال النبي ﷺ لجبريل عندما سأله عن الإسلام قال: ((الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً))⁽²⁾.

ومن العلماء من عرف الإسلام بلوازمه ومقتضياته وأهدافه، فقال: "هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك ومعاداة أهله"⁽³⁾.

ثالثاً: عرض أركان الإسلام ودليلها:

فأركان الإسلام هي الأصول التي بني عليها شرع محمد ﷺ وتشكل أعظم الواجبات التي تلزم المسلم، وهي:

1- الشهادتان.

2- إقامة الصلاة.

3- إيتاء الزكاة.

4- صوم رمضان.

5- حج البيت.

فعن ابن عمر ؓ قال، قال رسول الله ﷺ: ((بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان))⁽⁴⁾.

وعن طلحة بن عبيد الله، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس، يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول، حتى دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: ((خمس صلوات في اليوم والليلة))، فقال: هل علي غيرها؟ قال: ((لا، إلا أن تطوع)). قال رسول الله ﷺ: ((وصيام رمضان)) قال: هل علي غيره؟ قال: ((لا، إلا أن تطوع)). قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل علي غيرها؟ قال: ((لا، إلا أن تطوع)). قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال رسول الله ﷺ: ((أفلح إن صدق))⁽⁵⁾.

(1) مختصر معارج القبول د. هشام آل عقدة ص 96.

(2) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان (1).

(3) رسالة: الثلاثة أصول للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ص (3) متن فقط.

(4) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: ((بني الإسلام على خمس)) (8)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أركان الإسلام ودعائمه العظام (16).

(5) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: الزكاة من الإسلام (16)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام (11).

رابعاً: أقسام أركان الإسلام:

وعلى هذا فأركان الإسلام تنقسم إلى قسمين:

الأول: الإيمان، والمتمثل في كلمة التوحيد (الشهادتين) ولوازمها.

الثاني: العمل الصالح، والمتمثل في:

1- العلاقة بين الخالق والمخلوق، وتتمثل في الصلاة.

2- العلاقة بين المخلوقين بعضهم مع بعض (الزكاة).

3- التزكية والتربية على حسن العلاقة بين العبد وخالقه، وبين العبد والمخلوقين (الصيام، والحج)

وتفصيل تلك الأركان في التالي⁽¹⁾:

(1) لم أفصل في تفريعات المسائل العقديّة والأحكام الفقهيّة المتعلقة بالأركان الخمس واكتفيت بأصول المسائل، ويمكن الرجوع لكتب العقيدة والفقّه المطولة والمختصرة، ويكفي هنا ما يتصور به الركن، وكثير مما ذكرت في الأركان الأربع الفقهيّة تم تلخيصه من كتاب فقّه السنة لسيد سابق، والملخص الفقهي للشيخ الفوزان، ودليل المسلم الجديد للشيخ عبدالله باهمام.

الركن الأول

الشهادتان

الشهادتان: "شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله"، هما مفتاح الإسلام ولا يمكن الدخول إلى الإسلام إلا بهما⁽¹⁾.

الشهادة الأولى: "شهادة أن لا إله إلا الله":

أولاً: مفهوم شهادة أن لا إله إلا الله وأهميتها:

بأن يعترف الإنسان بلسانه وقلبه بأنه لا معبود حق إلا الله، لأن إله بمعنى مألوه والتأله التعبد. والمعنى أنه لا معبود حق إلا الله وحده.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]

فهذه الجملة مشتملة على نفي وإثبات:

أما النفي فهو "لا إله" وأما الإثبات ففي "إلا الله"، أي: التقدير "لا إله حق إلا الله".

فهو إقرار باللسان بعد أن آمن به القلب بأنه لا معبود حق إلا الله، وهذا يتضمن إخلاص العبادة لله وحده ونفي العبادة عما سواه.

أما المعبودات سواه فإن ألوهيتها التي يزعمها عابدها ليست حقيقية، أي ألوهية باطلة، بل الألوهية الحق هي ألوهية الله.

فالله تعالى وحده المستحق لجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة، مثل الدعاء والخوف والتوكل والاستعانة والصلاة والزكاة والصيام، فيعلم العبد يقينا أن الله هو المعبود لا شريك له، فلا معبود بحق إلا الله تعالى.

وهذه الكلمة هي أول واجب على المسلم، فمن أراد الدخول في الإسلام فعليه أن يعتقد بها ويتلفظ بها، ومن قالها معتقداً بها، مخلصاً لله فيها نجا من النار، لقوله ﷺ: ((فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله))⁽²⁾.

ثانياً: شروط لا إله إلا الله:

ذكر العلماء أنه لا يمكن أن يحقق العبد لا إله إلا الله حتى يستوفي سبعة شروط وهي:

(1) للاستزادة ينظر: الشهادتان معان وأفانق د. محمد علي ضناوي، وشرح شروط لا إله إلا الله د. خالد بن علي الغامدي، ومتمن الأصول الثلاثة للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأعلام السنة المنشورة للشيخ حافظ حكمي، وشرح منظومة سلم الوصول للشيخ حافظ حكمي، وكتاب حقيقة شهادة أن محمد رسول الله للشيخ عبدالعزيز آل الشيخ، ومجمل أصول أهل السنة والجماعة في العقيدة د. الشيخ ناصر العقل، وعقيدة أهل السنة والجماعة للشيخ العثيمين.

(2) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت (425)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (33).

- 1- العلم بلا إله إلا الله وهو إدراك معنى لا إله إلا الله بدليله. فالإنسان لا يمكن أن يعمل بشيء ويطبقه في حياته حتى يعلمه. فالعلم لازم للعمل، قال الله تعالى: ﴿ قَاعَلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩]. وقال ﷺ: ((من مات وهو يعلم لا إله إلا الله دخل الجنة))⁽¹⁾.
- 2- اليقين وهو اعتقاد لا إله إلا الله من غير شك. قال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].
- 3- الصدق وهو استقامة الظاهر والباطن على توحيد الله وطاعته. قال النبي ﷺ: ((ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، صدقا من قلبه، إلا حرمه الله على النار))⁽²⁾. و ضد الصدق النفاق، فهو من أشرك الكفر بالله ويعني إبطان الكفر وإظهار الإسلام.
- 4- الإخلاص وهو الابتغاء بلا إله إلا الله والعمل بها وجه الله تعالى وثوابه دون رياء ولا سمعة. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حَقَّاءَ ﴾ [البينة: ٥]، وقال ﷺ: ((أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصا من قلبه، أو من نفسه))⁽³⁾.
- 5- المحبة، وتعني حب الله تعالى وحب ما يحب وكرهية ما يكره، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وعلامة حب العبد ربه تقديم كل ما يحب الله على ما يحبه هو وتميل إليه نفسه، وبغض جميع ما يبغض ربه وإن مالت إليه نفسه.
- 6- القبول، ويعني أن نقبل بـ "لا إله إلا الله" كما هي دون أدنى تردد أو تمتع. قال تعالى ذاما الأمم التي استكبرت وردت كلمة التوحيد: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَيْتَنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [الصفات: ٣٥ - ٣٦].
- 7- الانقياد، وهو الإذعان لأمر الله تعالى بالرضى المستحق. قال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال أيضا: ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ [لقمان: ٢٢]، وقوله ﷺ: ((قل آمنت بالله ثم استقم))⁽⁴⁾.
- الشهادة الثانية: "أن محمدا رسول الله":**
- أولا: معنى شهادة أن محمد رسول الله:**

(1) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم عليه النار (43).
(2) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا (128).
(3) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الحرص على الحديث (99).
(4) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، (62).

فهي الإقرار باللسان والإيمان بالقلب بأن محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي ﷺ رسول الله ، الخاتم إلى جميع الخلق من الجن والإنس كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ثانيا: مقتضيات شهادة أن محمد رسول الله:

ومقتضى هذه الشهادة:

- 1- تصدق رسول الله ﷺ فيما أخبر من أمور الغيب واليوم الآخر وأحداث يوم القيامة وعلامتها، والجنة والنار، أخبار السابقين وقصص الأنبياء.
- 2- امتثال أمره ﷺ فيما أمر لأنه ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣ - ٤]، ولأن الله يقول: ﴿ مَن يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: ٨٠].
- 3- اجتناب ما عنه ﷺ نهي وزجر، مع الإيمان بأن هذه المنهيات لمصلحتنا الدنيوية والأخروية علمنا حكمتها أو لم نعلمها.
- 4- المتابعة للرسول ﷺ في سنته والافتداء به وعدم الابتداع في الدين، لقوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣]، وقوله ﷺ: ((من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد))^(١).
- 5- أن لا تعتقد أن لرسول الله ﷺ حقاً في الربوبية وتصريف الكون، أو حقاً في العبادة، بل هو ﷺ عبد لا يعبد، لقوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرَثْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].
- 6- محبته ﷺ، لقول النبي ﷺ: ((ثلاث من وجدهن وجد حلاوة الإيمان - وذكر أولها- أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله..))^(٢).

(1) صحيح البخاري تعليقا بصيغة الجزم في كتاب البيوع، باب النجش، ومسلم، كتاب الأفضية، باب نقض الأحكام الباطلة رقم (1718).
(2) صحيح البخاري، في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (16)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان رقم (43).

الركن الثاني إقامة الصلاة

أولاً: مقدمات حول الصلاة:

الصلاة في اللغة: الدعاء.

وفي الشرع: أقوال وأفعال مخصوصة مفتوحة بالتكبير محتمة بالتسليم.

سميت بذلك: لاشتغالها على الدعاء؛ فالمصلي لا ينفك عن دعاء عبادة أو ثناء أو طلب؛ فلذلك سميت صلاة.

فرضت ليلة الإسراء قبل الهجرة خمس صلوات في اليوم واللييلة: الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر.

وتجب بدخول أوقاتها على كل مسلم بالغ عاقل؛ إلا حائضاً ونفساء؛ فلا تجب عليهما، ولا يقضياها إذا طهرتا إجماعاً، ومن كان زائل العقل بنوم أو إغماء ونحوه، وجب عليه القضاء حين يصحو.

أدلة وجوبها: قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: 103]، أي: مفروضاً في الأوقات التي بينها رسول الله ﷺ بقوله وبفعله، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: 5].

وللصلاة أركان وواجبات وسنن وشروط وموانع وصفة معينة فصلها العلماء من فعله وقوله ﷺ، انطلاقاً من قوله ﷺ ((صلوا كما رأيتموني أصلي))⁽¹⁾، ولا بد للمسلم أن يتعلمها ويلتزم بها حتى يكون مقيماً للصلاة حق القيام⁽²⁾.

ثانياً: منزلة الصلاة في الإسلام:

وللصلاة منزلة كبيرة في الإسلام "فالصلاة هي أكد أركان الإسلام بعد الشهادتين، وقد وضعت على أكمل وجوه العبادة وأحسنها، وقد تضمنت هذه الصلاة كثيراً من أنواع العبادة: ذكر الله، وتلاوة كتابه، وقيام بين يدي

(1) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر، إذا كانوا جماعة، والإقامة، وكذلك بعرفة وجمع، وقول المؤذن: الصلاة في الرحال، في الليلة الباردة أو المطيرة (631).

(2) لم أفضل في الأحكام الفقهية المتعلقة بالصلاة فهي كثيرة جداً، ويمكن الرجوع لها في كتب الفقه المطولة والمختصرة، ويكفي هنا الإشارة إلى أنها ركن وكذلك منزلتها.

الله، وركوع، وسجود، ودعاء، وتسبيح، وتكبير، وهي رأس العبادات البدنية، ولم تخل منها شريعة رسول من رسل الله.

وقد فرضها الله على نبيه محمد ﷺ ليلة المعراج في السماء؛ بخلاف سائر الشرائع؛ فدل ذلك على عظمتها وتأكد وجوبها ومكانتها عند الله⁽¹⁾.

والصلاة من سمات هذه الأمة، حيث جعلها الشارع مدار قبول باقي الأعمال الأخرى، وهي كما قال رسول الله ﷺ: ((أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر))⁽²⁾.

ثالثاً: وجوب المحافظة على الصلاة:

وترك الصلاة من الأمور العظيمة في مخالفة أمر الله: قال تعالى عن الكفار واعترافهم يوم القيامة: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ ﴾ [سورة المدثر 42]، وقال ﷺ: ((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر))⁽³⁾.

وأمر الله بالمحافظة عليها مهما كانت الظروف: في الحضر والسفر، والأمن والخوف، والصحة والمرض، وفي كل حال. قال تعالى: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۗ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة 238-239].

الصلاة دليل على صدق الإيمان: قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۗ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون 1-2]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۗ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۗ ۝٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال 3-4].

رابعاً: فضائل الصلاة:

الصلاة أعظم سبب في تقويم حياة الناس: في سلوكهم ومعاشهم، وتقويم ما يقعون فيه من انحراف كما قال تعالى: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۗ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت 45].

(1) ينظر: الملخص الفقي باختصار.

(2) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب قول النبي: ((كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه)) (864)، سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة (1425) وصححه الألباني في صحيح الجامع (2020).

(3) جامع الترمذي، كتاب الإيمان، باب ترك الصلاة (2623)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (2113).

وبالصلاة يمحو الله الخطايا: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أرأيتم لو أن نхра باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا))⁽¹⁾.

وفي الصلاة إعانة على مقاومة الجزع والهلع: وذلك عند الضر، والمنع وذلك وذلك عند الخير، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج 19-23].

والصلاة من أسباب تكفير الذنوب لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم يأت كبيرة، وذلك الدهر كله))⁽²⁾.
والصلاة تجلب الراحة والاطمئنان القلبي، وهذه المرتبة قال عنها رسول الله: ((وجعلت قرّة عيني في الصلاة))⁽³⁾، وقال لبلال: ((أرحنا بالصلاة يا بلال))⁽⁴⁾.

خامسا: أهمية وفضل الصلاة في المسجد:

رتب الله الأجر العظيم على الصلاة في المسجد والتبكير لها والمحافظة على الصف الأول أجرها عظيم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة))⁽⁵⁾.
وقال صلى الله عليه وسلم: ((لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه))⁽⁶⁾.

وجعل الله تعالى الأجر الكبير على بعض الصلوات: وذلك لما فيها من المشقة، يختبر الله بها عباده؛ كصلاتي العصر والفجر، وصلاة العشاء، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من صلى البردين دخل الجنة))⁽⁷⁾.

(1) صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة (528)، ومسلم، كتاب المساجد، باب المشي إلى الصلاة تحمى به الخطايا وترفع به الدرجات (667).

(2) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه (228).

(3) سنن النسائي كتاب عشرة النساء، باب حب النساء (3940). مسند أحمد 128/3 (12351)، وصححه الحاكم في المستدرک على شرط مسلم 174/2 (2676).

(4) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب صلاة العتمة (4985) وصححه الألباني في صحيح الجامع (7892).

(5) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب فضل صلاة الجماعة (645)، ومسلم، كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها (650).

(6) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب فضل التهجير إلى الظهر (653)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها، والازدحام على الصف (437).

(7) صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر (547)، ومسلم، كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما (635).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما؛ ولو حبوا))⁽¹⁾.

سادسا: أهمية الصلاة في الحياة:

"لو لم تكن الصلاة رأس العبادات لعدت من صالحة العادات، رياضة أبدان وطهارة أردان، وتهذيب وجدان وشتى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان

أصحابها هم الصابرون والمثابرون، وعلى الواجب هم القادرون، عودتهم البكور، وهو مفتاح باب الرزق.

وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرازق وأفضل ما يرود به المخلوق التوجه إلى الخالق .

ولهم إليها بعد البكور رواح فإذا هي تصرفهم عن دواعي الليل ومغرياته وتعصمهم فيه من عوادي الفراغ

ومغوياته والليل خلوات وشهوات وبيت الغوايات.

وتجزئة الوقت مع الصلاة ملحوظة وقيمته عند الذين يقيمونها محفوظة. عودتهم أن يذكروه ويقدره وأن

يسوسه في أعمالهم ويدبروه، والوقت ميزان المصالح وملاك الأمور ودولاب الأعمال.

انظر جلال الجمع وتأمل أثرها في المجتمع وكيف ساوت العلية بالزعم مست الأرض الجباه فالناس أكفاء

وأشباه الرعية والولاية شرع في عتبة الله. خر الجمع للمناخر فالصف الأول كالأخر لم يرفع المنتصرون تصدروه ولم يضع

المتأخر تأخره"⁽²⁾.

(1) صحيح البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب فضل العشاء في جماعة (626) و (618 و624).

(2) ينظر: أسواق الذهب - أحمد شوقي.

الركن الثالث إيتاء الزكاة

أولاً: مقدمات حول الزكاة:

الزكاة: اسم لما يخرج من الانسان من حق الله تعالى إلى الفقراء.

وسميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة، وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات. فإنها مأخوذة من الزكاة، وهو

النماء والطهارة والبركة، قال الله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وهي أحد أركان الإسلام الخمسة، وقرنت بالصلاة في اثنتين وثمانين آية. وقد فرضها الله تعالى بكتابه، وسنة

رسوله ﷺ، وإجماع أمته في السنة الثانية من الهجرة.

فمما جاء في وصية النبي ﷺ لما بعث معاذ بن جبل ؓ إلى اليمن ((.. فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم

صدقة في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم))⁽¹⁾.

وتوعد الله تعالى من امتنع عن أداء الزكاة، قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا

يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣٤].

ومن امتنع عن أدائها - مع اعتقاده وجوبها - فإنه يأثم بامتناعه دون أن يخرج ذلك عن الاسلام، وعلى

الحاكم أن يأخذها منه قهراً ويعزره.

ثانياً: مقاصد الزكاة:

فرض الله الزكاة على المسلمين لمقاصد عظيمة نذكر بعضها:

1- في الزكاة إحسان إلى الخلق، وهي طهرة للمال من الدنس، وحصانة له من الآفات، وعبودية للرب

سبحانه، وقال الله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣]، أي تطهرهم بها من دنس

البخل والطمع، والدناءة والقسوة على الفقراء والبائسين، وما يتصل بذلك من الرذائل، وتزكي أنفسهم بها. أي

تنميتها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعملية، حتى تكون بها أهلاً للسعادة الدنيوية والأخروية.

وبالتالي؛ فهي تطهير للنفوس من الشح والبخل، وامتحان للغني حيث يتقرب إلى الله بإخراج شيء ماله

المحبوب إليه.

(1) تقدم تحريجه في الركن الأول.

2- أداء الزكاة يتحقق به مبدأ الترابط والألفة، ذلك لأن النفس البشرية جبلت على حب من أحسن إليها، وبذلك يعيش أفراد المجتمع المسلم متحابين متماسكين كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وتقل حوادث السرقة والنهب والاختلاس.

3- يتحقق بها معنى العبودية والخضوع المطلق والاستسلام التام لله رب العالمين، عندما يخرج الغني زكاة ماله فهو مطبق لشرع الله، منفذ لأمره، وفي إخراجها شكر المنعم على تلك النعمة، ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُجُكُم لِّإِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَإِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7].

4- يتحقق بأدائها مفهوم الضمان الاجتماعي، والتوازن النسبي بين فئات المجتمع، فإخراجها إلى مستحقيها لا تبقى الثروة المالية مكدسة في فئات محصورة من المجتمع ومحتكرة لديهم. يقول الله تعالى: ﴿كُن لَّا يَكُونُ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: 7].

ثالثا: شروط وجوب الزكاة:

وتجب الزكاة على المسلم إذا توفرت فيه شروط خمسة:

- 1- الحرية.
 - 2- الإسلام.
 - 3- امتلاك نصاب.
 - 4- استقرار الملكية؛ بأن لا يتعلق بها حق غيره.
 - 5- مضي الحول على المال، وهذا في غير الخارج من الأرض كالحبوب والثمار، فأما الخارج من الأرض؛ فتجب فيه الزكاة عند وجوده.
- ومن له دين على معسر؛ فإنه يخرج زكاته إذا قبضه لعام واحد على الصحيح، وإن كان له دين على مليء باذل؛ فإنه زكيه كل عام.
- وما أعد من الأموال للقنية والاستعمال والكراء؛ فلا زكاة فيه؛ كدور السكنى، وثياب البذلة، وأثاث المنزل، والسيارات، والدواب المعدة للركوب والاستعمال.
- ومن وجبت عليه الزكاة، ثم مات قبل إخراجها؛ وجب إخراجها من تركته، فلا تسقط بالموت؛ فيخرجهما الوارث أو غيره من تركة الميت؛ لأنها حق واجب.

رابعاً: الأصناف التي تجب فيها الزكاة:

وأوجب الله الزكاة في أنواع من الأموال تتصف بأنها ليست من حاجاته المستخدمة، ومن طبيعتها النماء والزيادة كالتالي:

1- الذهب والفضة الذي لا يستخدم في اللباس والتحلي، ولا تجب الزكاة فيه إلا بشرطين: الأول: إذا بلغ النصاب وهو من الذهب 85 جراماً تقريباً، ومن الفضة 595 جراماً. والثاني: وممرت عليه سنة قمرية كاملة ومقدارها 354 يوماً. فيخرج المسلم زكاتها 2,5%.

2- الأموال والسيولة من العملات باختلاف أنواعها سواء كانت تحت يده أو أرصدة في البنوك، وتخرج زكاتها بحساب الأموال والعملات بما يقابله من الذهب، فإن كان يساوي نصاب الذهب أو أكثر منه، وهو 85 جرام تقريباً في وقت وجوب الزكاة، ومر على المال سنة قمرية وهو في ملكه، فيخرج منه 2,5%.

3- عروض التجارة، وهي: كل ما أعد للتجارة من أصول كالعقار والمباني والعمارات، أو عروض كالمواد الغذائية والاستهلاكية.

وتخرج زكاتها: يحسب الشخص قيمة جميع ما اتخذه للتجارة إذا مر عليه عام كامل، ويكون التقويم بسعر السوق في ذلك اليوم الذي أراد أن يزكّي فيه، فإذا بلغ ذلك نصاب المال أخرج عنه ربع العشر 2,5%.

4- الخارج من الأرض من الزروع والثمار والحبوب، فتجب الزكاة في أنواع محددة من المزروعات وليس فيها كلها، بشرط أن تبلغ قدراً محدداً شرعاً، ويفرق بين ما يسقى بالأمطار والأنهار وما يسقى بالمؤونة والعمل في مقدار الواجب من الزكاة مراعاة لأحوال الناس.

5- الثروة الحيوانية من البقر والإبل والغنم، فقط إذ كانت تسوم وترعى ولا يتكلف مالها العلف والأكل لها، فإن كان يأتي بالأكل لها السنة كلها أو أغلبها فلا تجب فيها الزكاة، ونصاب زكاتها ومقدار الزكاة له تفصيل يرجع له في كتب الفقه.

خامساً: مصارف الزكاة:

حدد الإسلام المصارف التي تصرف فيها الزكاة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 60]. أي: إنما الصدقات لهؤلاء المذكورين دون من عداهم، لأنه حصرها فيهم، وهم ثمانية أصناف:

الأول والثاني: الفقراء والمساكين، وهم في هذا الموضع، صنفان متفاوتان، فالفقير أشد حاجة من المسكين، لأن الله بدأ بهم، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم، ففسر الفقير بأنه الذي لا يجد شيئاً، أو يجد بعض كفايته دون نصفها. والمسكين: الذي يجد نصفها فأكثر، ولا يجد تمام كفايته، لأنه لو وجدها لكان غنياً.

والثالث: العاملون على الزكاة، وهم كل من له عمل وشغل فيها، من حافظ لها، أو جاب لها من أهلها، أو راع، أو حامل لها، أو كاتب، أو نحو ذلك، فيعطون لأجل عمالتهم.

والرابع: المؤلفلة قلوبهم، المؤلف قلبه: هو السيد المطاع في قومه، ممن يرجى إسلامه، أو يخشى شره أو يرجى بعطيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايتها ممن لا يعطيها.

الخامس: الرقاب، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم، فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم، فيعانون على ذلك من الزكاة.

السادس: الغارمون، أصحاب الديون، وهم قسمان: أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، والثاني: من غرم لنفسه ثم أعسر.

والسابع: الغازي في سبيل الله، وهم: الغزاة المتطوعة، الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم، من ثمن سلاح، أو دابة، أو نفقة له ولعِياله، ليتوفر على الجهاد ويطمئن قلبه، وقال كثير من الفقهاء: إن تفرغ القادر على الكسب لطلب العلم، أعطي من الزكاة، لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل الله.

والثامن: ابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده، فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم.

وهذه الأصناف الثمانية، ترجع إلى أمرين:

أحدهما: من يعطى لحاجته ونفعه، كالفقير، والمسكين، ونحوهما.

والثاني: من يعطى للحاجة إليه وانتفاع الإسلام به.

فأوجب الله هذه الحصة في أموال الأغنياء، لسد الحاجات الخاصة والعامّة للإسلام والمسلمين، فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي، لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسد الثغور، ويجاهد به الكفار وتحصل به جميع المصالح الدينية⁽¹⁾.

(1) تيسير الكريم الرحمن ص 340 باختصار.

الركن الرابع

صيام رمضان

أولاً: مقدمات حول الصيام:

الصيام لغة هو الإمساك.

وشرعاً: التعبد لله تعالى بالإمساك عن الأكل والشرب والجماع وبقية المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

وصوم شهر رمضان ركن من أركان الإسلام، وفرض من فروض الله، معلوم من الدين بالضرورة، ويدل عليه الكتاب والسنة والإجماع: قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

والأحاديث في الدلالة على فرضيته وفضله كثيرة مشهورة، وأجمع المسلمون على وجوب صومه، وأن من أنكره كفر.

ويبدأ وجوب صوم شهر رمضان وينتهي إذا علم دخوله وخروجه، لقول النبي ﷺ: ((الشهر تسع وعشرون ليلة، فلا تصوموا حتى تروه، فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين))⁽¹⁾.

ويلزم صوم رمضان كل مسلم عاقل بالغ قادر، ومن أفطر لعذر ثم زال عذره في أثناء نهار رمضان؛ يلزمه القضاء.

ثانياً: مفسدات الصيام:

ويفسد الصيام بأمور:

1- الأكل والشرب، وما كان في معنى الأكل والشرب، من المحاليل والإبر المغذية، ونقل الدم والتدخين بأنواعه.

2- الجماع بالإيلاج، سواء أنزل الرجل المني أم لم ينزل.

3- إنزال المني باختياره مباشرة، أو استمناء، ونحو ذلك.

4- التقيؤ عمداً.

5- خروج دم الحيض والنفاس.

(1) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ ((إذا رأيتم الهلال فصوموا...)) (1907).

ثالثا: الرخصة في الصيام:

ورخص الله لأصناف من الناس تيسيرا وتخفيفا وهم:

- 1- المريض الذي يتضرر بالصوم، فيجوز له الفطر ويقضي ذلك بعد رمضان.
- 2- العاجز عن الصوم لكبر أو مرض لا يرجى شفاؤه، فيجوز له الفطر ويطعم عن كل يوم مسكينا يعطيه ما مقداره كيلو ونصف من قوت البلد.
- 3- المسافر، فيجوز له الفطر ويقضي ذلك بعد رمضان.
- 4- الحائض والنفساء، يحرم عليهما الصيام ولا يصح منهما، وعليهما القضاء بعد رمضان.
- 5- الحامل والمرضع، إذا خافتا الضرر على النفس أو على الولد أفطرتا وقضيتا ذلك اليوم.

رابعا: فضل الصيام في الإسلام:

وللصيام قيمة كبيرة في الإسلام، فقد ثبت عن النبي ﷺ قوله: ((من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه))⁽¹⁾، قال ﷺ: ((للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه))⁽²⁾. وقال ﷺ: ((إن في الجنة بابا يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟، فيقومون، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد))⁽³⁾. ونسب الله تعالى جزاء الصيام والمثوبة عليه إليه سبحانه، ومن كانت مثوبته وجزاؤه من كريم عظيم جواد رحيم فليشر بما أعده الله له، قال ﷺ: ((كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به))⁽⁴⁾.

خامسا: حكمة الصيام في الإسلام:

وفرض الله الصيام لحكم كثيرة منها:

- 1- فيه تحقيق للتقوى تزكية للنفس وتطهيرا وتنقية لها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة، لأنه يضيق مجاري الشيطان في بدن الإنسان؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فإذا أكل أو شرب؛ انبسطت نفسه للشهوات، وضعفت إرادتها، وقلت رغبتها في العبادات، والصوم على العكس من ذلك.

(1) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيمانا واحتسابا ونية (1901)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان (760).

(2) صحيح مسلم، كتاب الصوم، باب فضل الصيام (1151).

(3) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين (1896)، ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام (1152).

(4) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب: هل يقول إني صائم إذا شتم (1904)، ومسلم، كتاب الصيام، باب حفظ اللسان للصائم وباب فضل الصيام (1151).

2- أن الصوم وسيلة إلى شكر النعم، فالصيام هو كَف النفس عن الأكل والشرب والجماع، وهذه من أجل النعم وأعلاها، والامتناع عنها زمانا معتبرا يعرف قدرها، إذ النعم مجهولة، فإذا فقدت عرفت، فيحمله ذلك على قضاء حقها بالشُّكر.

3- أن الصوم وسيلة إلى ترك المحرمات، لأنه إذا انقادت النفس للامتناع عن الحلال طمعا في مرضاة الله تعالى، وخوفا من أليم عقابه، فأولى أن تنقاد للامتناع عن الحرام، فكان الصوم سببا لإتقاء محارم الله تعالى.

4- الصوم موجب للرحمة والعطف على المساكين، فإن الصائم إذا ذاق ألم الجوع في بعض الأوقات، ذكر من هذا حاله في جميع الأوقات، فتسارع إليه الرقة عليه، والرحمة به، بالإحسان إليه، فكان الصوم سببا للعطف على المساكين.

5- أن الصائم يدرّب نفسه على مراقبة الله تعالى، فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع الله عليه.

6- وفي الصيام التزهيد في الدنيا وشهواتها، والترغيب فيما عند الله تعالى.

7- تعويد المؤمن على الإكثار من الطاعات، وذلك لأن الصائم في الغالب تكثر طاعته فيعتاد ذلك.

8- الصوم "حرمان مشروع وتأديب بالجوع وخشوع لله وخضوع، لكل فريضة حكمة وهذا الحكم ظاهره العذاب وباطنه الرحمة، يستثير الشفقة ويحض على الصدقة، يكسر الكبر ويعلم الصبر ويسن خلاله البر، حتى إذا جاع من ألف الشعب وحرمت المترف أسباب المنع عرف الحرمان كيف يقع وكيف ألمه إذا لدغ"⁽¹⁾.

في الفصل الخامس: إظهار محاسن الإسلام منطقي مزيد من المساهمة للصوم لأهميته للتعريف بالإسلام كجواب لسؤال كثير من الغير مسلمين: "ما الحكمة وراء صوم المسلمين؟"

الركن الخامس

الحج

أولاً: مقدمات حول الحج:

والحج هو قصد بيت الله الحرام لأداء المناسك، وهي أفعال وأقوال جاءت عن النبي ﷺ، كالإحرام والطواف بالبيت الحرام سبع مرات والسعي سبعا بين جبلي الصفا والمروة والوقوف في عرفة ورمي الجمرات بمنى وغير ذلك. وهو ركن من أركان الإسلام، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97]. ويشترط لوجوب الحج: الإسلام والعقل والبلوغ والاستطاعة. وحد الاستطاعة: إمكان الوصول إلى البيت الحرام، وأداء مناسك الحج مع الأمن على النفس والمال، وأن يكون ما يحتاجه لحجه من النفقة زائداً عن حوائجه الأصلية ونفقات من يلزمه نفقتهم. وللحج أركان وواجبات وسنن بينها الله لنا في كتابه، وبينها رسول الله ﷺ من أقواله وأفعاله وتقريراته.

ثانياً: فضل الحج في الإسلام:

وللحج قيمة كبيرة في الإسلام، حيث إن النبي ﷺ لما سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: ((إيمان بالله ورسوله)). قيل: ثم ماذا؟ قال: ((جهاد في سبيل الله)). قيل: ثم ماذا؟ قال: ((حج مبرور))⁽¹⁾. وقال ﷺ: ((من حج فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه))⁽²⁾، وقال ﷺ: ((الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة))⁽³⁾.

وقال الرسول ﷺ: ((ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة))⁽⁴⁾.

ثالثاً: مقاصد الحج:

وللحج غايات ومقاصد جليلة، من أهمها:

1. إظهار توحيد الله، وإفراده بالعبادة بالقول والفعل، فأعمال وأقوال الحج كلها تربي على التوحيد.
2. التربية على العبودية والاستجابة المطلقة لله تعالى من غير اعتراض.

(1) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من قال إن الإيمان هو العمل (26)، ومسلم، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (83).

(2) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور (1521) واللفظ له، ومسلم، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة، ويوم عرفة (1350).

(3) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب وجوب العمرة وفضلها (1773)، ومسلم، كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (1349).

(4) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة، ويوم عرفة (1348).

3. التربية على الزهد في الدنيا والافتقار لله، وذلك لأن الحاج يرفض أسباب الترف والتزين، ويلبس ثياب الإحرام مظهرًا فقره لربه، ويتجرد عن الدنيا وشواغلها التي تصرفه عن الخلوص لمولاه.
4. التربية على البذل في سبيل الله وشكره على نعمته المال، وشكره على نعمة البدن، وهما أعظم ما يتمتع به الإنسان من نعم الدنيا، حيث يجهد المسلم نفسه وينفق ماله في طاعة ربه والتقرب إليه سبحانه.
5. التربية على الاجتماع والوحدة، يجتمع المسلمون من أقطار الأرض في الحج، فيتعرف بعضهم على بعض، ويألف بعضهم بعضاً، هناك تذوب الفوارق بين الناس، وتتحد كلمة المسلمين في أعظم مؤتمر بشري اجتمعت كلمة أصحابه على البر والتقوى وعلى التواصي بالحق والتواصي بالصبر، هدفه العظيم ربط أسباب الحياة بأسباب السماء.
6. الحج يذكر المسلم بيوم اللقاء وذلك إذا تجرد الحاج من ثيابه ولبى محرماً ووقف بصعيد عرفات ورأى كثرة الناس ولباسهم واحد يشبه الأكفان، فهنا يجول بخاطره مواقف سيتعرض لها المسلم بعد وفاته فيدعوه ذلك للاستعداد لها وأخذ الزاد قبل لقاء الله.

المبحث الثاني

أركان الإيمان⁽¹⁾

تمهيد حول مفهوم الإيمان وأدلته:

الإيمان لغة: مأخوذ من الأمن وهو طمأنينة النفس، وهو التصديق. قال أخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف 17]. أي وما أنت بمصدق لنا. إلا أن الإيمان هو التصديق الذي معه أمن⁽²⁾ أي طمأنينة.

وقيل الإيمان هو: الثقة وإظهار الخضوع⁽³⁾.

اصطلاحاً: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان⁽⁴⁾.

وأركان الإيمان بينها الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: 177]. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49]، وحديث جبريل عندما سأل عن الإيمان فقال النبي ﷺ: ((أَنْ تَوْمَنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَوْمَنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ))⁽⁵⁾.

(1) هذا المبحث مختصر من رسالة شرح أصول الإيمان وعقيدة أهل السنة والجماعة للشيخ ابن عثيمين، مع بعض الإضافات من كتب متفرقة في العقيدة، وللإستزادة يمكن الرجوع إلى: مجموعة العقيدة د. عمر الأشقر، ودليل المسلم الجديد لعبدالله باهام، وكتاب التوحيد للناشئة والمبتدئين د. عبدالعزيز عبداللطيف،
(2) المفردات في غريب القرآن ص 21.
(3) القاموس المحيط ص 1518.
(4) كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ص 249.
(5) تقدم تخريجه ص 123.

الركن الأول الإيمان بالله

أولاً: مفهوم الإيمان بالله ومقتضياته:

الإيمان بالله: هو الاعتقاد الجازم بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، فمن آمن بها فهو المؤمن حقاً.

وتفصيل ذلك على النحو التالي:

الأول: الإيمان بوجود الله تعالى⁽¹⁾:

إن وجود الله تعالى قد دل عليه العقل والفطرة، فضلاً عن الأدلة الشرعية الكثيرة التي تدل على ذلك. أما دلالة الفطرة على وجوده: فإن كل مخلوق قد فطر على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طرأ على قلبه ما يصرفه عنها، ولذلك قال النبي ﷺ: ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه))⁽²⁾.
وأما دلالة العقل على وجود الله تعالى؛ فلأن هذه المخلوقات سابقها ولاحقها لا بد لها من خالق أوجدها، إذ لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها، ولا يمكن أن توجد صدفه. فهي لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها لأن الشيء لا يخلق نفسه، لأنه قبل وجوده معدوم، فكيف يكون خالقاً؟!!

ولا يمكن أن توجد صدفه، لأن كل حادث لا بد له من محدث، ولأن وجودها على هذا النظام البديع المحكم، والتناسق المتألف، والارتباط الملتحم بين الأسباب ومسبباتها، وبين الكائنات بعضها مع بعض يمنع منعاً باتاً أن يكون وجودها صدفه، إذ الموجود صدفه ليس على نظام في أصل وجوده، فكيف يكون منتظماً حال بقاءه؟!!

وإذا لم يمكن أن توجد هذه المخلوقات نفسها بنفسها، ولا أن توجد صدفه، تعين أن يكون لها موجد وهو الله رب العالمين.

وقد ذكر الله تعالى هذا الدليل العقلي والبرهان القطعي في آيات كثيرة، ومنها آية سورة الطور، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]. يعني أنهم لم يخلقوا من غير خالق، ولا هم الذين خلقوا أنفسهم، فتعين أن يكون خالقهم هو الله تبارك وتعالى.

(1) للاستزادة ينظر: الإيمان بالله جل جلاله د. على الصلابي، الآيات الكونية ودلالاتها على وجود الله للشيخ محمد متولي الشعراوي، كتاب: أفي الله شك. د. متولي فرج، الدليل الفطري على وجود الله د. عمر الأشقر.

(2) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام (1358) ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (2658).

فإنه لو حدثك شخص عن قصر مشيد، أحاطت به الحقائق، وجرت بينها الأنهار، وملئ بالفرش والأسرة، وزين بأنواع الزينة من مقوماته ومكملاته، وقال لك: إن هذا القصر وما فيه من كمال قد أوجد نفسه، أو وجد هكذا صدفة بدون موجد، لبادرت إلى إنكار ذلك وتكذيبه، وعددت حديثه سفهاً من القول، أفيجوز بعد ذلك أن يكون هذا الكون الواسع بأرضه، وسمائه، وأفلاكه، البديع الباهر، المحكم المتقن قد أوجد نفسه، أو وجد صدفة بدون موجد؟!

وقد فهم هذا الدليل العقلي أعرابي يعيش في البادية، وعبر عنها بأسلوبه، فلما سئل: بم عرفت ربك؟ فقال: "البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على السميع البصير؟!!"⁽¹⁾.

الثاني: الإيمان بربوبيته تعالى⁽²⁾:

أي: بأنه وحده الرب لا شريك له ولا معين.

والرب: هو من له الخلق، والملك، والتدبير، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا مدبر للأمور إلا الله، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولا يتم توحيد العبد حتى يقر بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكة وخالقه ورازقه، وأنه المحيي المميت النافع الضار المنفرد بإجابة الدعاء، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على ما يشاء، ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر خيره وشره.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

وهذا القسم من التوحيد لم يعارض فيه المشركون الذين بعث فيهم الرسول ﷺ، بل كانوا مقرين به إجمالاً؛ قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩].
فعلم بهذا أن الإقرار بربوبية الله تعالى لا يكفي العبد في تحقق إسلامه بل لابد معه من الإتيان بلازمه ومقتضاه وهو توحيد الألوهية وإفراد الله تعالى بالعبادة.

(1) لوامع الأنوار البهية لشرح الدرّة المضية في عقد الفرقة المرضية، محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي 272/1.

(2) للاستزادة ينظر: توحيد الربوبية للشيخ محمد بن إبراهيم الحمد، وبحث علمي بعنوان: معنى الربوبية وأدلتها وأحكامها وإبطال الإلحاد فيها لفضيلة الشيخ د. محمد بن عبدالرحمن أبوسيف الجهني، وكتب الإعجاز العلمي، وأخص منها ما يتعلق بآيات الله في الكون والإنسان، كتاب الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان، وكتاب: الله يتجلى في عصر العلم، لمجموعة علماء أمريكيين، وكتاب: العلم يدعو للإيمان، أ. كريسي موريسون.

وهذا التوحيد لم ينكره إلا فرعون الذي ادعى الربوبية، وكذلك الجوس أنكروا توحيد الربوبية على سبيل التشريك، حيث قالوا: إن للعالم خالقين هما الظلمة والنور.

الثالث: الإيمان بألوهيته⁽¹⁾:

أي: التصديق الجازم بأن الله تعالى وحده هو المستحق لجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة، من الدعاء والخوف والرجاء والاستعانة والاستغاثة والاستعاذة والصلاة والصوم والزكاة والحج..

و(الإله) بمعنى (المألوه) أي: (المعبود) حباً وتعظيماً، وهذا هو معنى (لا إله إلا الله) أي: لا معبود حق إلا الله . قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: 163]، وقال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: 18].

وكل ما اتخذ لها مع الله يعبد من دونه فألوهيته باطلة، قال الله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَّ مَا يَكْفُرُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَبَّ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [الحج: 62].

وتسميتها آلهة لا يعطيها حق الألوهية، قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٣].

وقال تعالى عن يوسف ' أنه قال لصاحبي السجن: ﴿ يَصْحَجِي السَّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: 40].

فلا يستحق أحد أن يعبد، ويفرد بالعبادة إلا الله ، لا يشاركه في هذا الحق أحد، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهذا هو الغاية من خلق الناس قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولهذا كانت دعوة الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم هي الدعوة توحيد الألوهية، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 35]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وهو أول واجب على الإنسان كما جاء في وصية النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه عندما أرسله لليمن: ((إنك تأتي قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله))⁽²⁾.

(1) ينظر: كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب وشروحه، وبلوغ السعادة من أدلة توحيد العبادة د. صلاح البدير، وكتاب توحيد العبادة لمحمد شامي شيبه.

(2) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (7373)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرايع الإسلام (19).

الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته⁽¹⁾:

أي : إثبات ما أثبتته الله لنفسه في كتابه، أو سنة رسوله ﷺ من الأسماء والصفات على الوجه اللائق به سبحانه من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكيف، ولا تمثيل.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 180]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

فالعلم بأسماء الله وصفاته يهتدي به المسلم إلى التعرف على الله تعالى، فمن آمن بأسماء الله وصفاته ازداد معرفة بالله تعالى، فيزداد إيمانه بالله يقينا، ويقوى توحيده لله تعالى، وحق لمن عرف أسماء الله وصفاته أن يمتلئ قلبه تعظيما ومحبة وخضوعاً له.

ويقتضي هذا الإيمان، الثناء على الله بأسمائه الحسنى، وهذا من أفضل أنواع الذكر، وسؤال الله ودعاؤه بأسمائه وصفاته، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180].

ومثال ذلك أن يقول: يا رزاق ارزقني، ويا تواب تب علي، ويا رحيم ارحمني.

ثانيا: ثمرات الإيمان بالله:

وإذا آمن العبد بالله أثمر هذا ثمرات دنيوية وأخروية من أهمها:

1- أن الله يدفع عن المؤمنين جميع المكاره، وينجيهم من الشدائد، ويحفظهم من مكايد الأعداء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

2- أن الإيمان سبب الحياة الطيبة والسعادة والسرور، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

3- الأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [٨٢] [الأنعام: ٨٢].

4- الحصول على مرضاة الله تعالى، ودخول الجنة، والفوز بالنعيم المقيم، والرحمة الكاملة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

5- والإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته يثمر للعبد محبة الله وتعظيمه الموجبين للقيام بأمره واجتناب نهيهِ، والقيام بأمر الله تعالى واجتناب نهيهِ يحصل بهما كمال السعادة في الدنيا والآخرة للفرد والمجتمع.

(1) ينظر: الأسماء والصفات للبيهقي، والمنهج الأسمى في أسماء الله الحسنى ل محمد النجدي، وأسماء الله الحسنى وأثرها في سلوك الإنسان لأبو سنيينة، شرح أسماء الله الحسنى لسعيد القحطاني، وفقه الأسماء الحسنى د. عبدالرزاق البدر.

النصوص الشرعية الدالة على فطرية معرفة الله وتوحيده:

أ/ قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَلَكِن كَثُرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم:30].

- (قال ابن كثير: أي: "سدد وجهك واستمر واثبت على هذا الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية السمحة، ملته إبراهيم عليه السلام التي هداك الله لها، وكلها لك غاية الإكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فقد فطر الله تعالى العباد على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره".

- والمقصود بقوله تعالى: {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}، هي فطرة الإسلام، وعقيقتها هو الاستسلام لله وحده، وقبول العقيدة الصحيحة، والسلامة من الاعتقادات الباطلة.

ب/ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَرِّدَانِهِ أَوْ يَنْصَرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ".²

ومعنى أن (كلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ): أي أن الله سبحانه ركَّب فيه نوعاً من الجيلة يكون معها متهاياً لقبول الحق طبعاً وطوعاً واختياراً، لو تركته شياطين الإنس والجن.

وفي رواية: "ما من مولودٍ يُولدُ إلاَّ على فطرةٍ هذهِ الملةِ (أي على ملة الإسلام)، حتى يُبينَ عنه لسانُه، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه".³

قال ابن كثير رحمه الله: "فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره".⁴

ذلك أن الفطر السليمة توجب أن يكون لهذا العالم العجيب العظيم ربُّ خلقه وأوجده، مالك له ومدبر له ومتصرف فيه، وأن هذا الربُّ هو المستحقُّ وحده أن يُعبَدَ ويُوحَّدَ، وأن تصرف إليه جميع صنوف العبادة قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالزَّيْنَ مِنَ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: 21].

ثم ينبغي أن يكون هو الذي يأمرُ فيطاع، وينهى فلا يعصى {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: 54].

¹ قال البخاري: والفطرة الإسلام. انظر: صحيح البخاري. كتاب التفسير، باب لا تبديل لخلق الله.

² رواه البخاري 7385، ورواه مسلم 2658، لفظه "الملة" للترمذي 2738، ولفظه "على هذه الملة" عند أحمد 7443.

³ أخرجه البخاري 6599، 6600، ومسلم 2658.

⁴ تفسير تفسير القرآن العظيم / ابن كثير (ت 774 هـ).

وقال ابن القيم: "ليس المراد بقوله صلى الله عليه وسلم: "يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ" أنه خرج من بطن أمه يعلم الدين ويعتقد الإسلام بالفعل؛ لأن الله يقول: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [سورة النحل: 78].

ولكن المراد أن فطرته مقتضية لمعرفة دين الإسلام ومحبتة، وقبوله وإرادته للحق، وإقراره بالربوبية، فلو خُلي من غير معارض ومن غير مغيرٍ لما كان إلا مسلماً، ولم يعدل عن ذلك إلى غيره، كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من ارتضاع اللبن حتى يصرفه عنه صارف، ومن ثمَّ شُبِّهَت الفطرة باللبن، فهي تستلزم معرفة الله ومحبتة وتوحيده¹.

ومعنى هذا أن الإنسان إذا ترك بدون مؤثر خارجي فالمفروض أنه يقر بوجود الله وأحقية بالعبودية وعده. ودلَّ قوله صلى الله عليه وسلم: (يهودان أو ينصران أو يمجسان) ولم يقل: (وَسُلَيْمَانِ، على أن المراد بالفطرة: معرفة الله وتوحيده.

أول واجب على المكلف: هو النطق بالشهادتين؛ لكون الإقرار بوجود الله فطري في النفوس؛ ولذا لم تأت الأنبياء بالتدليل عليه، وإلا كانت تستخدم وسيلة تذكيرية بما هو مستقر في نفوسهم؛ لِذِمْرِ النَّاسِ بِالْعِبُودِيَّةِ لِّلَّهِ تَعَالَى وَعَدِهِ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَمَّازِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: "إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَثَلَاثَةَ... الْحَدِيثُ 2."

وليس في الرسل من قال حينما دعا قومه ابتداءً: إنكم مأمورون بطلب معرفة الخالق، فانظروا واستدلوا حتى تعرفوه، فلم يُطْفَؤْأ أولاً بنفس المعرفة، ولا بالأدلة الموصلة إلى المعرفة، إذ كانت قلوبهم تعرفه وتقرُّ به، فكلُّ مولود يولد على الفطرة؛ والإنسان إذا ذكَّرَ ذَكَرَ ما في فطرته، ولهذا قال الله في خطابه لموسى: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: 44] (لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ) ما في فطرته من العلم الذي به يعرفُ ربه، ويعرفُ إناعامه عليه، وإعسانه إليه، وافتقاره إليه، فذلك يدعو إلى الإيمان، (أَوْ يَخْشَى) ما يُنذِرُهُ به من العذاب، فذلك أيضاً يدعو إلى الإيمان.

كيفية الاستدلال بدليل الفطرة

¹ انظر: شرح النووي على مسلم، 208/16، وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، 247/4، 344/16، 249/4، وفتح الباري، 250-248/3.

² رواه البخاري 1496، ورواه مسلم 29.

³ انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، (8/6-10).

إنَّ "دليل الفطرة" والذي يُعدُّ من الأدلة على وجود الله عز وجل، ووعدايته، هو ظهور ضروري مفروض على الذهن فرضاً، فلا يحتاج فيه إلى استدلال، فهجر النظر في المخلوقات، نعم يقينا بأن لها خالقاً.

"ولقد خلقنا الله عز وجل وزودنا بقوى علمية وإرادية تُوجبُ الإقرار بوجوده ووعدايته، فلا اعتقاد بأن الكون لا بد له من خالق، وهذا الخالق محبوب، وهذا المحبوب لا بُدَّ من عبادته وعبادته، هذه القضايا جعلها الله في قلوبنا منذ أن خلقنا".¹

وقد قيل لأعرابي من البادية: بم عرفت ربك؟ فقال: "الأثر يدلُّ على المسير، والبغرة تدلُّ على البعير، فسماؤُ ذات أبراج، وأرضُ ذات فجاج، وبحارُ ذات أمواج، ألا تدلُّ على اللطيف الخبير؟"

وقال أبو حنيفة رحمه الله: "أخبروني عن سفينة في دجلة تذهب فتتلئ من الطعام والمتاع وغيره بنفسها، وتعود بنفسها، وترسي بنفسها، وتفرغ وترجع كل ذلك من غير أن يدبرها أحد؟

فقالوا: هذا محال لا يمكن أبداً!

فقال لهم: إذا كان هذا محالاً في سفينة فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله!"²

الفطرة الكامنة للمعبودية في نفوس الناس:

تلك الفطرة، والتي تشهد عليها دراسات علوم النفس والاجتماع اليوم تؤكد بأن نعمة نزعة نفسية تقود الإنسان نحو خالقه يعبد، ولو قدر بأن أشخاصاً ولدوا في جزيرة بعيدة دون أن يدخل عليهم أي مؤثر خارجي يحرف فطرتهم، لتوجهت فطرتهم إلى عبادة الخالق دون تكلف منهم أو تأثير من غيرهم، ففي فطرة الإنسان افتقار ذاتي إلى قوة غيبية كاملة غنيّة يرهو منها النفع، ويستدفع بها الضر، ويتذلل لها، وخاصة عند الشدائد؛ ولذلك تجد أن الأمم كلها من قديم الزمان، وفي مختلف البلدان لها أماكن للعبادة، حتى عبدوا الشمس والكواكب والنار والأجرام ملتمسين بذلك جلب النفع ودفع الضر، وما ذلك إلا لافتقار الإنسان بطبيعته إلى الإله الذي يملأ كطلعات روعه وهاجته، غير أن البيئة التي ينشأ فيها الإنسان قد تسهم في تشويش الغاية الصحيحة، فبدل أن يتوجه للإله الحق يتوجه إلى آلهة باطلة يُعالمُ بالعقل قبل الشرع بطلانها.

الفطرة ميّلةٌ طبيعيٌ يحمله جميع البشر:

إذ جعلهم الله عز وجل مفطورين على محبة الخير وإيثاره، وكراهية الشر ودفعه، هنيئاً مستعدين لقبول الخير والإخلاص لله والتقرب إليه".¹

2 انظر: المعرفة في الإسلام، د. عبد الله القرني (273-242).

2 انظر: دلائل الإسلام، د. أحمد سعد حمدان (75)، والعقيدة في الله، للأشقر (68).

والحقيقة التي نستنبطها من القرآن في هذه القضية: "هي أن كل مولود يولد على فطرة التوحيد"، فقد دلتنا قصة آدم عليه السلام على أنه كان على عقيدة التوحيد، ودل القرآن الكريم والسنة النبوية على أن هذا لم يكن خاصاً بالإنسان الأول وهو آدم عليه السلام، وإنما هو عام في كل مولود).²

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الدعوة ليست مهمة صعبة؛ فكل شخص يحمل في داخله ميلاً طبيعياً يُرَعِّبُ في عبادة الله سبحانه وتعالى، ولكنها تتغير بسبب تأثير الوالدين، والتنشئة الاجتماعية، وغيرها من العوامل، "ولو تُرِكَ عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها، وإنما يعدل عنها من يعدل؛ لآفة من آفات البشر والتقليد... وكل مولود يولد على معرفة الله والإقرار به، فلا تجر أحداً إلا وهو يقر بأن له صناعاً وإن سماه بغير اسمه، أو عبده معه غيره".³

قال صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى: "إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي هُنُقَاءَ كُلُّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَهَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَهْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتَهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا".⁴

ولذلك، فإن ما يجعل من الدعوة مهمة سهلة، هو دعوتنا الناس للعودة إلى أصل حالتهم الطبيعية، ذلك الأمر الذي يعرفونه في قرارة أنفسهم، وهو أن الله هو الرب، والإله المعبود.

ملحد يستغيث بالله:

من أقوى الأدلة الفطرية أيضاً على وحدانية الله عز وجل، عندما تنظر إلى حال الناس إذا كرتهم الشدائد، ووقعوا في المهالك، وأشرفوا على المخاطر، لتجد قلوبهم معلقة بالله، وأصواتهم مرتفعة بسؤال، وأفئدتهم تنظر إلى إغائتهم، لا تلتفت بمنته ولا يسرة إلا إليه.⁵

ولقد حدثنا بعض الملحدين أنه عندما أصابه شيء مهلك بغتة، وجد نفسه يستغيث بالله تلقائياً دون أن يشعر، ولسانه يجأر: (يا الله!).

وما ذلك إلا لأن فطرة الإنسان تدله على وجود الرب عز وجل، والعاقلة إذا رجعت إلى نفسه وعقله أدنى رجوع، عرف افتقاره إلى خالقه تعالى، فهو مفتقر إليه في تكوينه وبقائه وتقلبه في أحواله⁶، وكذلك إذا نظر إلى

¹ بصرف: كتاب القول السديد ١/ ٦٤.

² دروس الشيخ محمد إسماعيل المقدم | مجلد 100 | صفحة 22

³ انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، ٣/ ٤٥٧، وفتح الباري، ٣/ ٢٤٨-٢٥٠.

⁴ صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥).

⁵ بصرف/ انظر: الرياض الناضرة والمدائق النبوة الزاهرة، ص 251، 252.

⁶ بصرف: كتاب الداعي إلى الإسلام لعبد الرحمن الأنباري، ص ٢١١، ودرر التعارض بين العقل والنقل، ٣/ ١١٣.

الخلافت، عَلمَ فقرهم جميعاً إليه، فهم فقراء إلى الله عز وجل في الخلق والإيجاد، وفي البقاء والرزق والإمداد، وفقراء إليه في جلب المنافع ودرغ المضار.

ومما يزيد ذلك وضوحاً أن الخلق متى شاهدوا شيئاً من الحوادث المتجددة كالرعد والصواعق، والزلازل، والبراكين المفجرة الثائرة، والريح الشديدة، وانهمار الأمطار الغزيرة، وفيضانات الأنهار، واضطراب الأمواج في البحار والمحيطات، متى شاهدوا ذلك دعوا الله وسألوه وافتقروا إليه؛ لأنهم يعلمون أن هذه الحوادث المتجددة لم تتجدد بنفسها، بل لها مُحدث أحدثها، وإن كانوا يعلمون هذا في سائر المُحدثات؛ لكن ما اعتادوا حدوثه؛ لأنَّه صار مألوفاً لهم، بخلاف المتجدد، ولو لم يكن إلا خلق الإنسان، فإنه من أعظم الآيات، فكلُّ يعلم أنه لم يُحدث نفسه، ولا أبواب أحدثه، ولا أحد من البشر أحدثه، ويعلم أنه لا بد له من خالق خلقه، وأن هذا الخالق موجود، حي، عليم، قدير، سميع، بصير، حكيم، حفيظ، يقول الله تعالى: {سَتَرْتَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} أَوْلَمْ يَلْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ {فصلت: 53}.

لا يوجد ملاحدة في الخنادق:

يقول أحد رؤساء أمريكا -أيزنهاور- وكان قائداً للقوات الأمريكية في الحرب العالمية الثانية بعد أن شاهد كيف أن القوات تعود للفطرة وقت الخطر الشديد: "لا يوجد ملاحدة في الخنادق" 2.

ففي الخندق وقت الحرب لا يوجد مُنكرٌ لله، الكل يعود إليه، فهذه حقيقة الفطرة التي يعترف بها كل البشر وخاصة في الأوقات العصيبة، ولا يستطيع أن ينكرها حتى أشد الناس كفراً.

ويقول الله عز وجل تذكيراً لهذا الإنسان الجاهل: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُكُمْ فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا} [سورة الإسراء: 67].

ويقول تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} [سورة النحل: 53].

فَبَيَّنَّ هُنَا أَنَّ النَّاسَ إِذَا غَفَلُوا عَنْ هَذِهِ الْفِطْرَةِ فِي حَالِ السَّرَاءِ، فَلَا تَشْكُ أَنَّهُمْ يَلُودُونَ إِلَيْهَا فِي حَالِ الضَّرِّ؛ لِعَلْمِهِمُ الْفِطْرِيَّ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَكْشِفُ الشَّدَائِدَ، وَلَا مَلْجَأَ مِنْهُ إِلَّا إِلَهُهُ، فَيَسْأَلُونَهُ بِلِسَانِ الْمَقَالِ وَلِسَانِ الْحَالِ. فَهَلْ هَذِهِ الْأُمُورُ تَحْصُلُ إِلَّا لِأَنَّ الْخَلِيقَةَ مَفْطُورَةٌ عَلَى الْإِعْرَافِ بِرَبِّيَّةِ اللَّهِ وَوَعْدَانِيَّتِهِ، وَأَنَّ بِيَدِهِ النِّعَمَ وَالضَّرَّ، وَلَهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا مَنْ قَسَدَتْ فِطْرَتُهُ بِالْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ! 3.

1 انظر: درء تعارض العقل والنقل، 122/3، 129، 131، 137.

2 https://en.wikipedia.org/wiki/There_are_no_atheists_in_foxholes 2

3 بصرف/ انظر: الرياض الناضرة، ص 252، وعقيدة المسلمين للبلهين، 70/1، وشرح أصول الإيمان للشخ محمد بن عثيمين، ص 15.

الأوثان والطبيعة بحاجته إلى خالقها: فكلاهما لا تملكان القدرة على خلق الكون من الذرة إلى المجرة بتلك الدقة، وهذا الإيقان الدهش؛ إثر: {صُنِعَ اللَّهُ الذِّيْ أُنْقِنَ كُلُّ شَيْءٍ}؛ فالأوثان التي يعبدها الكفار والطبيعة التي يؤمن بها الملحد، كلاهما مفتقر إلى خالقهما؛ فلا الأوثان ولا الطبيعة تملكان من أمرهما شيئاً، ولا ليهما القدرة على ضبط الهرمونات بداخلك بهذا الإحكام، ولا على ضبط وظائف جسمك بتلك البراعة، وليس ليهما القدرة على وضع الشفرة الوراثية، والتي هي ملايين المعلومات داخل كل خلية حية، ولا ليهما القدرة على إيجاد أي شيء، ولا حتى إيجاد أنفسهما.

2/الدليل الثاني على وجود الله: "دليل الخلق والإيجاد"

إنّ لهذا الدليل أسماء متعددة في الفضاء الديني عمومًا، والفضاء الإسلامي بشكل خاص، تدور جميعًا حول فكرة مركزية بأنّ ما وُجِدَ بعد عدم فلا بُدَّ له من سببٍ رُجِحَ وجوده على عدمه، وأنّ ما كان ممكنًا فهو مفتقر حتمًا إلى وجود واجبٍ أحدثه، وذلك السبب هو الله تعالى.

- ومن الأسماء التي اصطلحَ على تسمية هذه الدليل به:

دليل الخلق، والإيجاد، والمحدث، والاختراع، والمحرك الأول، والدليل الكلامي، والدليل الكوني، والدليل الكوزمولوجي (الكوني)، وغيرها من الأسماء. 2

ومن تأمل في هذا الدليل، وجد من أسر الأدلة على وجود الله تعالى، وأقربها مأخذًا، وهو ما يفسر شيع هذا النمط الاستدلالي في جميع الحضارات والثقافات والأمم، إذ بواعثه سؤال فطري يُفتش عن أسباب ما يرى ومحس به من الحوادث، والمراد به أنّ الله سبحانه وتعالى جعل وجود كل مخلوق من مخلوقاته دليلًا على وجوده؛ إذ ما من شيء إلا وهو أثر من آثار قدرته سبحانه، وما ثمّ إلا خالق ومخلوق، والمخلوق يدل على خالقه فطرةً وبداهةً، فما من أثر إلا وله مؤثر، كما اشتهر في قول الأعرابي الذي سئل: كيف عرفت ربك؟ فقال بفطرته السليمة: "سبحان الله إن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ومجارت ذات أمواج، ليل داج، ونهار ساج، ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير". 3

1 الفلح: 88

2 شموع النهار، عبد الله العاجري، ص 95.

3 انظر: الرياض الناضرة ص ٢٥٨، ومنهاج الجدك في القرآن ص ١٣٩، وهي من خطبة لقس بن ساعدة، انظر البيان والتبيين للجامع ١ / ٢٥٤ وبتحقيقه عن الأصبغي يرويه عن بعض الأعراب. المجالس الوعظية ١ / ٤٦١.

وقال ابن تيمية: "العالم - بفتح اللام - مثل [الخاتم]1، ما يُعالمُ به، كما أن الخاتم ما يُختمُ به، ويسمى كل صنف من المخلوقات عالماً؛ لأنه عالمٌ وُهِهَاتٌ على الخالق تعالى".2

كيفية الاستدلال بدليل الخلق والإيجاد: تتحصل حقيقة هذا الدليل في الاستدلال على ضرورة وجود الله بحدوث الكون بجميع مكوناته وأحداثه، فالكون حدثٌ من الأحداث، وفعلٌ من الأفعال، وكلُّ شيءٍ يحدث بعد أن لم يكن، فإنه يجب أن يكون له فاعل؛ لاستحالة أن يكون وجودها وانتقالها من العدم إلى الوجود ذاتياً من غير سبب.

وهذا الدليل مبني على مقدمتين ونتيجة:

المقدمة الأولى: المخلوقات وُجِدَتْ بعد أن لم تكن موجودة.

المقدمة الثانية: كل ما وُجِدَ بعد أن لم يكن موجوداً فلا بد له من خالق.

النتيجة: إذن، المخلوقات لها خالق.

الاستدلال على المقدمة الأولى:

الدليل على هذه المقدمة: الحسّ والمشاهدة؛ قال شيخ الإسلام: "الطريقة المذكورة في القرآن هي الاستدلال بحدوث الإنسان وغيره من المحدثات المعلوم حدوثها بالمشاهدة، ونحوها على وجود الخالق سبحانه وتعالى، فحدث الإنسان يستدل به على المحدث ... فنفس حدوث الحيوان والنبات والمعدن والطر والسحاب ونحو ذلك معلوم بالضرورة، بل مشهود لا يحتاج إلى دليل، وإلّا يُعالمُ بالدليل ما لم يُعالمُ بالحس وبالضرورة.

والعلم بحدوث هذه المحدثات عام ضروري لا يحتاج إلى دليل، وذلك معلوم بالحس أو بالضرورة: إما بإخبار يُفيدُ العام الضروري، أو غير ذلك من العلوم الضرورية؛ فحدث الإنسان من النبي كحدث الثمار من الأشجار، وحدث النبات من الأرض، وغيرها من الأمثال.

ومن العلوم بالحس أن نفس الثمرة عادت كائنة بعد أن لم تكن، وكذلك الإنسان وغيره، كما قال تعالى: {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا} [مریم: 67]، {قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا} [مریم: 9]3.

الاستدلال على المقدمة الثانية:

1 مثل الخاتم: أي على وزنه.

3 انظر: النبوات، لابن تيمية (268).

3 درء تعارض العقل والنقل: (7/ 209 - 210).

المقدمة الثانية مبنية على ما يسمى: مبدأ السببية، وقد قال وليام لاين كرايف - بروفيسور الفلسفة الأمريكي - عن أدلته لهذا المبدأ: "أولاً وقبل كل شيء، إن من لبّ الواقع الحقيقي أنه لا يمكن لشيء أن يوجد من لا شيء، وإن اقتراح ظهور الأشياء إلى الوجود ببساطة وبدون أيّ سبب هو إلغاء للتباحث الفلسفي الجدي والتجاء للسحر.

ثانياً: إذا كانت الأشياء تستطيع فعلاً أن تأتي إلى الوجود بلا سبب ومن لا شيء، فيصبح من المعتذر تفسير كيف يمكن حقاً لأي شيء، وكل شيء، ألا يأتي إلى الوجود بلا سبب ومن لا شيء.

أخيراً: إن المقدمة الأولى مُصدّقة عليها بشكل مستمرّ في خبراتنا. فلدينا بالتالي أقوى الدوافع لقبولها".¹

فبني هذه المقدمة على ثلاثة أدلة:

1/ عدم قبول مبدأ السببية، يؤدي إلى إلغاء التباحث الفلسفي الجدي وللتجاء للسحر.

2/ عدم قبوله، يؤدي إلى استحالة تفسير كون الأشياء لا تأتي إلى الوجود بلا سبب، والواقع أن الأشياء لا تأتي للوجود بلا سبب.

3/ مبدأ السببية مُصدّقة بشكل مستمرّ في خبراتنا.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن هذا المبدأ مركوز في فطرة الإنسان إذ قال: "عدوت الحادث بلا محدثٍ أهدتكم، معلومُ البطلان بضرورة العقل، وهذا أمرٌ مركوزٌ في بني آدم حتى الصبيان، لو ضربَ الصبي ضربتً، فقال: من ضربني؟ فقل: ما ضربتك أهد، لم يُصدّق عقله أنّ الضربةً هدت من غير فاعل؛ ولهذا لو جوّزَ مجوّزٌ أن يُحدّثُ كتابةً أو بناءً أو غراساً ونحو ذلك من غير محدثٍ لذلك، لكان عند العقلاء إما مجنوناً وإما مُسفسطاً، كالنكر للعلوم البديهية والمعارف الضرورية، وكذلك معلوم أنه لم يُحدّثُ نفسه، فإن كان معدوماً قبل عدوته لم يكن شيئاً، فيمتنع أن يُحدّثَ غيره فضلاً عن أن يُحدّثَ نفسه".²

النتيجة: المخلوقات لها خالق خلقها.

النصوص الشرعية الدالة على الخلق والإيجاد:

مع أن دليل الخلق والإيجاد دليل عقلي في أصله، إلا أن النصوص الشرعية في الإسلام اهتمت به كثيراً، وكررت التنبه عليه مراراً، وأشارت إلى مسلمته التي يقوم عليها، وإلى مقتضياته التي ينتهي إليها في مواطن متعددة.

أولاً: في نصوص القرآن الكريم:

¹ Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (14 1)

² الجواب الصحيح لمن بدك دين المسيح (3 / 203).

1/ قال تعالى: {قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ أَبْنِيَّ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ} [الأُنعام: 164].

ووجه الدلالة من الآية في لفظ الربوبية، أنه يتضمن السيادة والملك والتدبير، والمخلق من لوازم ذلك.

وكما ذكرنا سابقاً أن دليل الإيجاد، يعني: "أن كل شيء، مُحدث، أي: وُجد بعد أن لم يكن موجوداً، لابد له من مُحدث، أي: مُوجد"، فهذا يدل على أنه لدينا ما لا حصر له من الأدلة على وجود الخالق سبحانه، فكل ذرة في الكون هي دليل على الخلق، إذ كل شيء، مُحدث قد ظهر إلى الوجود هو: دليل على الخالق الموجد.

وأنت إذا نظرت إلى الوجود تبين لك أنه عارض ومتغير وليس دائماً أو أزلياً، وبالتالي فهو غير مكلف بذاته، وهذا يجعلك تقطع بعقلك بأن له خالقاً، وبالتالي ينصرف نظرك إلى مُوجد العالم بمجرد النظر في العالم.

ولذلك ما أكثر آيات القرآن في لفت النظر إلى العالم والموجودات من حولنا:

- قال الله تعالى: {قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُقْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: 101].

- وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} [الروم: 8].

إذن؛ فكل شيء، مُحدث هو دليل مباشر على الموجد، وإذا كان هذا باتفاق العقلاء، فكيف يُستثنى من هذه القاعدة هذا الكون البديع بكل هذه التفاصيل الدقيقة التي لا يمكن مجال أن تكون بسبب صدفة، أو انفجار عابر، أو انتخاب أو تطور؟

ولو سئل منكر لذلك: هل يمكن أن يكون هذا الكتاب الذي يقرأه الآن قد ظهر فجأة بين يدي؟ أو هل هناك احتمال أن تكون قد انضمت كل هذه الكلمات بهذه الصورة على سبيل الصدفة؟ أو أن كل أحرف هذا الكتاب قد تشكلت بسبب انتخاب طبيعي أو تطور معين حتى غرمت بهذه الصورة مفهومة المعنى؟ لكان جواب العاقل قطعاً: لا، لا يمكن ذلك، فلا بد من أن هناك مُحدثاً لهذا الكتاب ومؤلّفاً له!

وإذا كان هذا الجواب على مستوى شيء، واحد صغير جداً في هذا الكون، فكيف بخلق السموات والأرض والجبال والأنهار والأشجار والبحار والكائنات الحية باختلاف أحجامها وأشكالها وكذلك الفطريات والفيروسات والميكروبات، والذرة ومكوناتها، والخلية وأجزائها، والبصمة الوراثية والحمض النووي، وتعاقب الليل والنهار وطلوع الشمس والقمر ومغيبيهما؟! وهذه الأجرام السماوية تملأ أعيننا كل ليل، وغير ذلك

من المخلوقات التي في الكون، هل يمكن أن تكون قد وجدت هكذا صدفة من غير موجد لها؟ لا شك أن العقل البشري السوي يأتى ذلك تمامًا.

"فإذا آمننا بوجود الكون؛ فلا بد أن نؤمن بالله هذا الكون منطقيًا؛ إذ لا معنى لأن نؤمن بالمخلوق ونرفض وجود خالق، ونحن لا نعلم شيئًا جاء إلى الوجود من العدم، دون أن يُخلَق، فكل شيء، مهما بلغ حجمه، عَظُمٌ أو صَغُرٌ، جِلٌّ أو رَقٌّ، وراءه علته، فكيف بنا نؤمن بأن كونًا عظيمًا مثل كوننا جاء إلى الوجود ذاتيًا، دون خالق؟!".¹

2/ يقول الله تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ} [الطور:-36-37].

يقول تعالى هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانع ومخلوق من غير خالق، ولو مر رجل بأرض قفر لا بناء فيها ثم مر بها فرأى فيها بناينا وقصورا وعمارات محكمة لم يحالجه شك ولا ريب أن صانعا صنعها وبانينا بناها.

ثم قال: (أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) وهذا أيضا من المستحيل أن يكون العبد موجدًا خالقًا لنفسه، فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده، وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة، ولا أصبعا ولا ظفرا ولا شعرة كيف يكون خالقًا لنفسه في حال عدمه؟.

وإذا بطل القسمات، تعين أن لهم خالقًا خلقهم، وفاطرا فطرهم، فهو الإله الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون به إلهًا غيره وهو وحده الخالق لهم.²

وقال شيخ الإسلام مفسرًا هذه الآية الكريمة: "هذا تقسيم حاصر، يقول: أخلِقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ خَلَقَهُمْ؟ فهذا ممتنع في بداءة العقول، أَمْ هُمْ خَلَقُوا أَنْفُسَهُمْ؟ فهذا أشد امتناعًا، فعلم أن لهم خالقًا خلقهم.

وهو سبحانه وتعالى ذكر الدليل بصيغة استفهام الإنكار؛ ليبين أن هذه القضية التي استدرك بها، فطرية بديهية مستقرّة في النفوس لا يمكن أبدًا إنكارها، فلا يمكن صحیح الفطرة أن يدعي وجود حادث بدون مُحَدِّثٍ أَهْدَتْهُ، ولا يمكنه أن يقول هو أحدث نفسه".³

ثانيا: في نصوص السنة النبوية الطاهرة:

¹ الإسلام يتحدى، وعبد الدين خات 53.

² انظر: الصواعق المرسلّة (2/ 493).

³ الرد على المطلقين (253).

ومن أوضع النصوص الشرعية، التي تضمنت الإشارة إلى دليل الخلق والإيجاد:

1- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَمَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ هَتَّى يَقُولَ لِمَنْ خَلَقَ رَبُّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ، فَلَيْسْتَ عِنْدَ اللَّهِ وَلَيْتَمَّ".¹

في هذا الحديث: يبينُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم العلاجَ النَّاجِعَ لِثَلْثِ هَذِهِ التَّسْأُلَاتِ، فَقَالَ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَمَدَكُمْ»، فَبِعَتُّ فِي نَفْسِهِ وَعَقَلِهِ الشُّكُوكَ، وَبِشَرِّ التَّسْأُلَاتِ الْعَدِيدَةِ عَنْ حُدُوثِ الْأَشْيَاءِ وَمَنْ أَمَدَهَا وَأَوْجَدَهَا، «فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟»، كَأَنْ يُتَسَاءَلُ: مَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ وَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ وَمَنْ خَلَقَ الْجِبَالَ؟ وَمَنْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ؟ فَيُجِيبُهُ ابْنُ آدَمَ دِينًا وَفِطْرَةً وَعَقْلًا بِقَوْلِهِ: «اللَّهُ»، وَهَذَا جَوَابٌ بَدِهُيٌّ صَحِيحٌ وَعَقْدٌ وَإِيمَانٌ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَقِفُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ مِنَ الْأَسْئَلَةِ وَالْوَسْوَاسِ، بَلْ يُتَّقِلُ مِنْ سُؤَالٍ إِلَى سُؤَالٍ «هَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبُّكَ؟» وَهَذَا مِنَ التَّشْكِيكِ فِي اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَكَأَنَّهُ أَرَادَ مِنَ الْإِنْسَانِ أَنْ يُجْرِيَ عَلَى الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ خَالِقٍ وَمُوَجِّدٍ أَعْلَى مِنْهُ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ بِهِ الشَّيْطَانُ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَهَذَا وَضَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّوَاءَ النَّافِعَ وَالْجَوَابَ السَّرِيعَ لِثَلْثِ ذَلِكَ، بَأَنَّهُ إِذَا وَصَلَ الشَّيْطَانُ مَعَ الْإِنْسَانِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ مِنَ الْوَسْوَاسَةِ، فَلَيْسْتَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْهُ، وَلَيُكْفَى عَنِ الِاسْتِجَابَةِ لَهُ، وَلَيُتَمَّ عَنِ الِاسْتِمْرَالِ مَعَهُ فِي ذَلِكَ، وَلَيَعْلَمَ أَنَّهُ يُرِيدُ إِفْسَادَ دِينِهِ، وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ: «فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ»، فَأَرْشَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى دَفْعِ هَذَا السُّؤَالِ بِأُمُورٍ ثَلَاثَةٍ: بِالِانْتِهَاءِ عَنِ الِاسْتِمْرَالِ، وَالتَّعَوُّدِ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَبِالِإِيمَانِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: أَنَّ الشَّيْطَانَ يَرْتَضِئُ بِابْنِ آدَمَ هَتَّى يُوقِعَهُ فِي الشَّرِّ وَالْكَفْرِ.

وَفِيهِ: تَحْنِيئٌ مِنَ الِاسْتِمْرَالِ مَعَ الْأَسْئَلَةِ الْوُجُودِيَّةِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى الْكُفْرِ.

وَفِيهِ: بَيَانٌ أَنَّ تَسْلِيمَ الْأَمْرِ لِلَّهِ وَإِرْجَاعَ الْقُدْرَةَ إِلَيْهِ، مَعَ الْإِيمَانِ التَّامِّ، فِيهِ مَخْرَجٌ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْكُفْرِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَيْضًا يَقُولُ ابْنُ عِيْمَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

"إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَأْمُرْ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ وَعَدَهُ - مَعَ أَهْمِيَّةِ ذَلِكَ وَضُرُورَتِهِ - وَإِطَاعَةَ أَمْرِ الْعَبْدِ أَنْ يَنْتَهِيَ عَنِ الْخَوْضِ فِي ذَلِكَ السُّؤَالِ مَعَ الِاسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ؛ إِعْلَامًا مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ السُّؤَالِ مُتَضَمِّنٌ لِمَطَأٍ مُنْطَقِيٍّ، وَغَلَطٍ عَقَائِيٍّ ظَاهِرٍ، فَإِنَّ النَّفْسَ تَطْلُبُ سَبَبَ كُلِّ حَادِثٍ، وَأَوَّلَ كُلِّ شَيْءٍ هَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْغَايَةِ وَالْمُنْتَهَى... فَإِذَا وَصَلَ الْعَبْدُ إِلَى غَايَةِ الْغَايَاتِ، وَنَهَايَةِ النِّهَايَاتِ، وَجِبَّ وَقَوَّفَهُ، فَإِذَا تَلَبَّ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئًا آخَرَ

¹ أخرجه البخاري (3276)، ومسلم (734) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وجب أن ينتهي، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم العبد أن ينتهي مع استجارته بالله من وسواس التسلسل، وإلا وجب انتهاؤه؛ لأنه يمتنع أن يكون الخالق كل مخلوق خالق، فإنه لو كان له خالق لكان مخلوقاً، ولم يكن خالقاً لكل مخلوق، بل كان يكون من جملة المخلوقات، والمخلوقات كلها لا بد لها من خالق، وهذا معلوم بالضرورة والفطرة.¹

ولا يزال الشيطان يدفع إلى قلوب من ليست لهم بصيرة بليارد الباطل فيها؛ إما وسوسة مخصصة، أو على لسان شياطين الإنس وملائحتهم.

2- وقال جبير بن مطعم: "سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّرُونَ} [الطور: 35 - 37]، قال: كاد قلبي أن يطير. 2 يعني: قارب قلبي أن يخرج من مكانه؛ لما تضمنته الآيات من بليغ الحجّة. وقد كان جبير بن مطعم رضي الله عنه قدّم على النبي صلى الله عليه وسلم بعد وقعة بدر في فداء الأسيارى، في العام الثاني من الهجرة، وكان إذ ذاك مشركاً، وكان سماعه هذه الآيات من هذه السورة من جملة ما حمل على الدخول في الإسلام بعد.³

من طرق معرفة الله، النظر والتفكير في مخلوقاته:

إنّ التفكير في مخلوقات الله يُعزِّقنا بعظمة الله وقدرته، وإنّ من أعظم الناس حمقاً وجهلاً وضلالاً من يرى هذا الخلق البديع العظيم المتناسق، الدال على الحكمة الباهرة والقدرة المطلقة، ثم لا يؤمن بالخالق الذي أوجدها من العدم.

فتلك الخلية التي يتشكّل منها جسدك، والتي وصفها أحدّهم بأنها أكثر تعقيداً من مدينة نيويورك، تحوي الكثير من المعلومات فيما يسمى: الحمض النووي، وبما أن ثمة معلومات؛ إذن فلا بد من وجود ذكاء، حيث أنّ الحمض النووي يحتوي على معلومات أكثر من كل الكتب التي توجد على سطح الأرض.

إذا تأملت أكثر في خلق الله لك، تجد عجباً من الأجهزة الدقيقة والأنظمة المحكمة:

- فهذا جهاز متكامل لهضم الطعام، يبدأ بالفم يقطع الطعام إلى قطع صغيرة؛ ليسهل هضمه، ثم البلعوم، ثم ترمى اللقمة إلى الحنجرة، فيفتح لها لسان الزمار (اللهاة) باب المري، ويسد عليها باب القصبة الهوائية، ثم تنزلت اللقمة إلى المعدة بواسطة المري، المتحرك حركات دودية، وفي المعدة تستمر عملية الهضم حيث يتحول الطعام إلى سائل تفتح له فتحة البواب في المعدة، ويتجه إلى الإثني عشر، حيث تستمر عملية الهضم

¹ درء تعارض العقل والنقل ص: 315 - الجزء الثالث.

² أخرجه البخاري (4854)، أخرجه مسلم (463) باختلاف يسير دون قوله: "فلما بلغ هذه الآية ..."

³ الموسوعة الحديثية - الدرر السنية

التي هي تحويل المادة الخام من الطعام إلى مادة مناسبة صالحة؛ لتغذية خلايا الجسم، ثم منها إلى الأمعاء الدقيقة حيث تستكمل عمليات الهضم النهائية، ويصبح الطعام بهذه الصورة صالحاً لأن يُمتصَّ بواسطة الخملات الموجودة في الأمعاء ليجري مع تيار الدم.

- وذلك جهاز متكامل لدورة الدم الممتد في شرايين معقدة، لو فردتها؛ لزاد طولها على آلاف الكيلو مترات، متصلة بمحطة ضخ مركزية تسمى القلب، لا تكل ولا تحمل في نقل الدماء خلال تلك الشرايين.

- وهناك جهاز آخر للتنفس، ورابع للأعصاب، وخامس لاستخراج الفضلات، وسادس وسابع وعاشر مما نرداد كل يوم معرفته بها، وما نجمله فيما أكثر مما نعرفه، فمن خلق هذا الإنسان بهذا الإيقان إلا الله؟!

لذلك فإن أعظم خطيئة في الوجود، أن تجعل لله نداً وهو خلقك.

وإذا تأملت فينبه هولك أيضاً، فسترى ما يدهشك؛ فهذا الهواء الذي تستنشق ويتسرب إليك في كل مكان، بلا لون يكدر الأبصار، ولو انقطع عنك دقائق معدودات؛ لفارقت الحياة، وهذا الماء الذي تشرب، وذلك الطعام الذي تأكله، وهذا الإنسان الذي تحبه، وهذه الأرض التي تمشي عليها، وتلك السماء التي تنظر إليها، كل ما تراه عينك وما لا تراه من المخلوقات مما كبر أو صغر، كل ذلك من خلق الله الخلاق العليم.

إن التفكير في خلق الله يجعلنا ندرك عظمة الخالق سبحانه، ويدفع قدرته، وعجيب صنعه، فلا فلتة ولا مصادفة ولا خلل ولا نقص.

وبالتفكير أيضاً يستدرك المرء على ما لله من صفات الكمال والجلال، ويعلم أنه لا يخلق أحد كخلق الله، ولا يدبر كتدبيره سبحانه وتعالى، وكلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة، علم بذلك أنها خلقت للحق والحق، وأنها صحائف آيات، وكتب دلائل على ما أخبر الله به عن نفسه ووعدايته.

قال ابن العربي: "أمر الله تعالى بالنظر في آياته، والاعتبار بمخلوقاته في أعداد كثيرة من آية القرآن، أراد بذلك زيادة في اليقين، وقولا في الإيمان، وثبينا للقلوب على التوحيد، وقد روى ابن القاسم عن مالك: قال: قيل لأبي الدرداء: ما كان أكثر شأن أبي الدرداء؟ قالت: كان أكثر شأنه التفكر. وقيل له -أي لأبي الدرداء-: أفترى الفكر عملاً من الأعمال؟ قال: نعم. هو اليقين".¹

إذن؛ فالتفكير طريق العبد إلى اليقين، كما قال تعالى: {وَكذَلِكَ نُزِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} [الأنعام: 75]، ويقول الله عز وجل: {إِنَّ فِي أَهْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقُونَ} [يونس: 17].

قال خليفته العبدي: "فوالله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلقت ربهم تبارك وتعالى حتى أيقنت قلوبهم برهم عز وجل، وكألم عبدوا الله عن رؤية"1، فكلما نظرنا إلى خلقت الله، وعظيم إهكامه؛ اردنا معرفةً وقيناً به جلا وعلا؛ فخالقت هذا العالم المبهر الأنيق، هو خالقت عظيم عليم قدير حكيم سبحانه؛ ولذلك من ينكر وجوده سبحانه وتعالى، هو المطالب بالدليل وليس المؤمن!

3/ الدليل الثالث على وجود الله:

دليل الإهكام والإيقان

- والإيقان في اللغة:

الإهكام2، وفي اللسان: "وأقن الشيء أهكامه، وإيقانه إهكامه، والإيقان الإهكام للأشياء"3.

فالإهكام والإيقان معناهما واحد، وهو ضبط الشيء، ومنع وقوع الفساد والخلل فيه.

الإهكام والإيقان اصطلاحاً:

يُطلقُ على خلقت السموات والأرض، وما فيها، وخلق الإنسان، وغيره من المخلوقات، والذي يدل على وجود خالقت عليم حكيم.

أسماء أخرى لدليل الإهكام والإيقان:

يسمى الكثيرون هذا الدليل: دليل العناية، والبعض يرى أن دليل العناية زائد على الإيقان4، كما يسمى: دليل النظام أو التناسق5.

أقوال أهل العلم في دليل الإيقان والإهكام:

- قال ابن تيمية: "أفعال الحكمة المتقنة دللت على علمه، وهذا مما وقع الاتفاق عليه من هؤلاء، فإنهم يسلمون أن الإهكام والإيقان يدل على علم الفاعل، وهذا أمر ضروري عندهم وعند غيرهم، وهو من

1 تفسير الدر المنثور في التفسير بالأثر السيوطي (ت 911 هـ).

2 انظر: العين. (5/129).

3 لسان العرب (73/13) [دار صادر].

4 انظر: العقيدة الإسلامية لعبد الرحمن مبنكة (130) [دار القام، ط6، 1412هـ].

5 انظر: عقيدة التوحيد للكاوي (147) [دار ابن تيمية، ط1، 1405هـ].

أعظم الأدلة العقلية التي يجب ثبوت مدلولها، والإحكام والإيقان إنما هو أن يضع كل شيء في محله المناسب، لتحصل به الحكمة المقصودة منه".¹

- وقال ابن القيم: "ومن نظر في هذا العالم وتأمل أمره عفت التأمل، علم قطعاً أن خالقه أتقنه وأحكمه غاية الإيقان والإحكام".²

كيفية الاستدلال بدليل الإحكام والإيقان

يُستدل بهذا الدليل على ضرورة وجود الله سبحانه بما في العالم من الإيقان في الخلق، والإحكام في تفاصيله الدقيقة المذهلة، ولتحقق ذلك لا بد من فاعل يصف بالقدرة والحكمة وسعة العلم.

وهذا الدليل دليل يقيني، ومسلك الاستدلال يستعمله عامة العقلاء في تعاملاتهم الحياتية، لا يحتاج إلى دراسة ولا مراجعة.

ويقوم دليل الإحكام والإيقان على مقدمتين أساسيتين:

- أن الكون متقن ومحكم في خلقه.

- أن الإيقان والإحكام لا بد له من فاعل حكيم عليم.

المقدمة الأولى: الكون متقن ومحكم في خلقه:

المراد بها أن الكون رتب بصورة معقدة جدا لا يمكن اختزالها إلى أسباب راجعة إلى الكون نفسه أو إلى الصدفة، وأن أعضائه وأجزائه شطت في مسارات دقيقة بحيث أن كل جزء منه يؤدي وظيفة دقيقة خاصة به، وقدرت مكوناته بمقادير دقيقة بحيث أن أي زيادة أو نقصان يؤدي إلى اختلافات كبيرة تؤول إلى فساد الكون كله.

والأدلة والشواهد الدالة على صحة هذه المقدمة تنقسم إلى نوعين أساسيين:

1- الدليل الحسي المباشر: فكل عاقل يشاهد أصنافاً منوعة من الإيقان في الوجود، يعلم وتسام بالضرورة وجود متقن لها.

وقد كان هذا النوع من الاستدلال منتشراً عند الأقدمين قبل ظهور العلم التجريبي، وفي بيانه والاعتماد عليه، يقول ابن تيمية رحمه الله: "إذا تأملت هيئة هذا العالم ببصرك، واعتبرتها بفكرك، وجدته كالبيت المبنى

1 النبوات (376).

2 الصواعق المرسله (4/1567).

المعدّ فيه جميع ما يحتاج إليه ساكنه من آله وعتاد، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض مبسوطة كالسباط، والنجوم منضودة كالصابع، والجواهر مخزونة كالذخائر، وضروب النبات مهابة للمطاعم والملابس والآرب، وصنوف الحيوان مسخرة للمراكب، مستعملة في المرافق، والإنسان كالمملك البيت، المحول ما فيه. وفي هذا كله دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتدبير وتقدير ونظام وأن له صناعاً حكيمًا تام القدرة بالغ الحكمة".¹

2- الدليل العلمي التجريبي: فقد كشف العلماء مع التطورات العلمية الحديثة أصنافاً وأشكالا مبهرة من الإيقان والدرقة والتقدير في الكون، ودرجوا مقطوعات مطولة في وصف ذلك الإيقان، وتفننوا في توضيح الإحكام وتناغم ودهشته.

والإقرار بإيقان صنعة الكون وإحكامه ليس خاصا بالعلماء المؤمنين، بل أقربهم أكثر العلماء الملائمة، يقول العالم الفيزيائي المعاصر بول ديفيز (Paul Davies): "عنى العلماء الملاحدون الذين يشككون جزءاً صغيراً جداً وهشاً من الكون يدجون قصائد المدح في ضخامته وعظمته وتناغمه وأناقته وعبقريته".²

ولقد قال بول ديفيز أيضاً بعد أن شرح شروط إمكان الحياة في الكون وامتلاك كوننا لها: "ولو أن أية خاصية أساسية للكون من خصائص الذرات اختلفت لكان من المحتمل جداً أن تصبح الحياة مستحيلة...".³

ومن الملائمة الذين توسعوا في شرح الإيقان والإحكام في الكون، العالم الفيزيائي المعاصر ستيفن هوكينج (Stephen Hawking)، فإنه أولى هذه القضية اهتماماً بالغاً، وكرر مراراً بأن الكون مُصنّف بالضبط الدقيق المبر، ويقول: "معظم الثوابت الأساسية في نظرياتنا تبدو مضبوطة بدقة، بمعنى أنها لو عدلت بمقادير بسيطة، فإن الكون سيختلف كيفياً، سيكون في حالات عديدة غير ملائم لتطورات الحياة".⁴

ويقول عالم الفلك آلن سانديج (Allan Sandage): "إنني مقتنع أن وجود الحياة بكل ما فيها من تنظيم في كل كائن من كائناتها الحية مركب بمنتهى البراعة".⁵

وأما أنتوني فلو (Antony Flew) الفيلسوف الإنجليزي المشهور، أحد أكبر ملاحدة العصر الحديث عن سبب رجوعه عن الالحاد وإقراره بالخالق، يقول: "لا شك أن ما كشفه العلم الحديث من معلومات هائلة في مجال قوانين الطبيعة... وكذلك نشأة الحياة وتنوع الكائنات الحية، قد أمد هذا البرهان -دليل الإيقان- بالكثير

¹ ابن تيمية، بيان تليس الجهمية، (1/ 506).

² الجائزة الكبرى، لماذا الكون مناسب للحياة، بول ديفيز (31).

³ الجائزة الكبرى لماذا الكون مناسباً للحياة، بول ديفيز (10).

⁴ التصميم العظيم، ستيفن هوكينج (199).

⁵ العلم ووجود الله (لامون لينكس) (ص328).

من الأدلة التي أعاننتني كثيرا في الوصول إلى هذا الاستنتاج¹، وذكر أن الكون أَعِدَّ وَصُمِّمَ؛ لاستقبال الحياة عليه بدقة باهرة، ثم بين ذلك بمثال، فقال: "كهور أنك نزلت في إحدى رحلاتك بأحد الفنادق، وعندما دخلت غرفتك وجدت أن الصورة المعلقة فوق السرير نسخة مطابقة للصورة التي علقها منذ سنوات فوق فراشك في بيتك، كذلك السجادة التي تغطي أرضية الغرفة، بل إنهم يضعون في المنزهية نوع الزهور نفسه التي تفضل، وعلى المنضدة في ركن الغرفة وجدت الطبعة الأخيرة من ديوان الشعر الذي تفضل القراءة فيه من حين لآخر، كما وجدت الصحيفة التي اعتدت قراءتها يوميا وداخل التلاجة وجدت أنواع المشروبات والشيكولاته التي تحبها، كما أن زجاجة المياه المعدنية من نفس النوع الذي تستخدم في وطنك، وعندما شغلت جهاز التليفزيون وجدت أن الإرسال الداخل للفندق يعرض باستمرار الأفلام المفضلة عندك، كما تذيع الإذاعة الداخلية المقطوعات الموسيقية التي تحبها، وفي الحمام وجدت الحواظ قد غطت بالقيشاني من نفس درجة اللون الفيروزي التي تفضل، كما وجدت على أحد الأرفف نفس الشامبو والصابون اللذين اعتدت على استخدامهما، وكلما جلست ببصرك وجدت حولك تطابقا بين ما تحب واعتدت عليه، وبين ما قررت لك إدارة الفندق، لا شك أن اهتمام المصارف يتناقض تدريجيا حتى يثبت في يقينك أن أحدا قد أطلع إدارة الفندق على تفاصيل حياتك ودقائق رغباتك"².

المقدمة الثانية: الإيقان والإحكام لا بد له من فاعل :

أي أن مشاهد الإيقان في الوجود يتعذر أن تقع بغير فاعلٍ عالمٍ مريدٍ مختارٍ حكيمٍ قادرٍ يقوم بصنفيهما وتقديرهما؛ لاحتوائها على تفاصيل معقدة ومتداخلة ومذهلة.

وهذه المقدمة من أجناس المقدمات وأظهرها في العقول، ويدل على صحتها وضرورتها أمران:

1- الضمورة العقلية: فالعقل بفطرته السليمة يدل على أن الفعل لا بد له من فاعل، بل الإيقان ليس مجرد فعل وإنما هو فعل مخصوص بحالة تركيبية خاصة تتطلب أن يكون فاعله متصف بصفات كمالية عالية متناسبة مع حالة ذلك الفعل.

2- الضمورة الرياضية: ففضلا عن أن الضمورة العقلية تدل على استحالة وجود الإيقان بغير فاعل حكيم عليم قادر مريد، فإن الحسابات الرياضية تدل على ذلك أيضا وتؤكد، بل وتثبت أيضا بطلان الاحتمالات الأخرى كالحذوث بالصدفة المفاجئة أو التطور طويل الأمد، ومن أظهر الأمثلة على ذلك تكوّن البروتين:

فقد أثبت العالم السويسري تشارلز يوهين من خلال حسابه للعوامل التي يمكن من خلالها تكوّن بروتين واحد بالصدفة أنه يتطلب نسبة 1 إلى 10 أس 160، وهذا رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه، وهو عند

1 ضمن كتاب رحلة عقل، عمرو شريف (٨٣).

2 ضمن كتاب رحلة عقل، عمرو شريف (٩٤).

علماء الرياضيات يساوي صفراً، لأن أعلى نسبة للاحتمال عندهم هو 1 إلى 10 أس 150، واكتشف أن كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالصادفة أكثر مما يتسع له هذا الكون بملايين المرات ويطلب بلايين السنين لتكوّنهُ.¹

إذن دليل الإيقان لا يتضمن فقط الإقرار بوجود خالق، بل يتضمن كذلك اتصافه بصفات العلم والإرادة والحكمة.

الفرق بين دليل الخلق والإيجاد ودليل الإحكام والإيقان

والفرق بين هذا الدليل ودليل الخلق والإيجاد:

- أن دليل الإحكام والإيقان: يستند إلى حالة الكون بعد وجوده.

- أما دليل الخلق: فيستند إلى نشأة الكون في أول حدوثه.

فكما أن المخلوقات يدرك حدوثها من العدم على ضرورة وجود الخالق، فإن الحالة التي هي عليها بعد حدوثها من الدقة في الخلقة، والبراعة في الإيقان، والإبهار في التصميم والإحكام، تدل على ضرورة وجود الخالق سبحانه أيضاً.

دليل الإيقان عُرِفَ عند العامة قبل العلماء

وإضافة إلى كون هذا الدليل عقلياً شرعياً، مؤثراً، يمتاز أيضاً بكونه سهل المقدمات قريب الفهم؛ ولذلك كان حاضراً عند العامة قبل العلماء، ومنها: ما اشتهر من استدلال الأعرابي ببديع صنع السموات، وأبراجها والأرضين وفجاجها على الله العليم الخبير.

- واعتجاج الإمام أبي حنيفة رحمه الله في مناظرته الشهيرة والتي أشرنا إليه سابقاً.²

- وكذلك الإمام مالك رحمه الله: استدرك باختلاف اللغات والأصوات والنفحات على خالقها.

- والإمام الشافعي رحمه الله: استدرك بورق التوت ذات الطعم الواحد، الذي تأكله الدواب ثم كل واحدة تحرجه شيئاً مختلفاً، فبينما تحرجه بعضها إبريسما، تحرجه أخرى عسلاً، وثالثة مسكاً، ورابعة تلقية بعراً، وأصله شيء واحد!

¹ انظر: كتاب هداية المحمدين د. سلطات العميري.

² وخلاصته أن أبا حنيفة سئل عن وجود الله، فقال: دعوني، فإني أفكر في سفينة لا قبضات لها، وهي مع ذلك تذهب وتجي، وتحترق الأمواج العظام، حتى تتخلص منها بنفسها. فقالوا: هذا شيء، لا يقوله عاقل، فقال: وتحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء، الحكمة

ليس لها صانع؟!

- وأما الإمام أحمد رحمه الله: فقد استدرك بمخروج الحي من الميت، حيث قال: "هاهنا حصن حصين أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينما هو كذلك إذ انصدع جداره، فخرج منه حيوان سميع بصير، ذو شكل حسن وصوت ملبج¹.

الإتيان والتعقيد الوظيفي من أدلة وجود الله

تبين لنا أن مجرد وجود الشيء، بعد أن لم يكن موجوداً، هو دليل حقيقي على وجود الخالق؛ وفي هذا الدليل سنتناول دليلاً آخر يزيد يقيننا بذلك؛ وهو التعقيد والإتيان الموجودات في المخلوقات، كما أن هذا الإتيان الموجود في المخلوقات يحمل معه شيئاً عظيماً آخر للإيماننا، وهو الدلالة على كمال الخالق... وفي خلال السطور التالية، سوف نعرض مجموعة من الأمثلة، توضح لنا التعقيد الوظيفي في المخلوقات:

- طفل يرسم بإتيان:

لو وجدت نفسك ذات يوم أمام طفلٍ صغيرٍ جداً، يفلب على ظنك أنه لا يحسن الرسم، ثم رأيتك وقد أتاك بصورةٍ رسمٍ فيها سهلاً أخضرٌ جميلاً، يلعبُ فيه الأطفالُ بألعابٍ مختلفة، ماذا سوف تستنتج من هذا الموقف؟ من البدهي استنتاج أن هذا الطفل قد تعلم الرسم، وأنه قصد رسم هذه اللوحة بما فيها من تفاصيل، ومن ثم لن يحظر بكالك أن هذه اللوحة كانت نتيجة لتدريبه القلم على الورقة بشكل عشوائي، وبدون قصد لرسم ما رسمه².

- محرك معقد:

وكذلك إذا رأينا محركاً معقداً، يحرق الوقود، ثم يحول الطاقة من شكل إلى آخر، فإننا سوف نكون على يقين قوي جداً من وجود صانع لهذا المحرك، لكن هل يمكن أن يكون صانع جاهلاً بهذه الصناعة؟! قطعاً، لا، إن مجرد رؤيتك للمحرك تعني لك أن صانعه عنده علم بالميكانيكا، والكهرباء، والتصميم، ولديه كل ما يلزم لصناعة هذا المحرك، وإلا لما استطاع صناعه، أو لصنعه على نحو غير متقن.

وإذاً كان يقيننا قوياً جداً بوجود رسام للصورة، وصانع ماهر للمحرك، فإننا إذا تأملنا في بعض المخلوقات، وتأملنا ما فيها من تعقيد وإتيان شديد جداً، فإن عقولنا سوف تضطر اضطراباً لإثبات خالقٍ عليم حكيم ذي إرادة.

¹ ينظر: تفسير ابن كثير (1/ 197)، وقد ذكر هذا الدليل طائفة من علماء السلف في كتبهم؛ كالطائفي والبيهقي وابن رشد وابن عزم والرازي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم من العلماء. ينظر: شمع النهار للشيخ عبد الله العجيري (ص 167)، وظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث لـ د. سلطان العميري (2/185).

² بصرف: محاضرة الداروينية عرض ونقد، عبد الله العجيري.

- كاميرا فوتوغرافية:

هل حدثت نفسك، أن تفكر في العمليات المعقدة التي تُؤدّيها وأنت تقرأ هذه السطور؟

رعنا أولا نتباحث حول احتياجات محاكاة هذه العملية بالتقنيات الحديثة، بادئ ذي بدء، نحتاج إلى (كاميرا) عالية المواصفات؛ يمكنها التمييز بين الألوان؛ لإدخال صورة الحرف، ولا بد من اختيار المكان المناسب للكاميرا؛ لتكون واضحة مقروءة.

ولعلنا نتنبّه إلى أن عملية التصوير بالكاميرا ليست مجرد ضغط زر كما يبدو، بل هي الأخرى تحتاج إلى خبرة وعمليات معقدة¹.

ثم نحتاج إلى (آلة للتعرف على الحروف المكتوبة)؛ ليرجم لنا المقصود بها، وكذلك آلة إرسال دقيقة؛ لنقل هذه الصورة من الكاميرا إلى (جهاز التعرف على الحروف المكتوبة).

وفي كل تلك المراحل نحتاج إلى جهاز التخزين المؤقت لهذه المعلومات، ثم جهاز التخزين الدائم الذي به تحفظ العمل النهائي، ولا تنس أيضا الطاقة التي تستغل لنا كل هذه الأجهزة.

كل تلك العمليات تحدث في ثانية، بل في قدر لا يذكر من الثانية من حيث لا تشعر وأنت تقرأ.

أمثلة أكثر تعقيدا:

- العين البشرية:

لعلك دهشت مما سبق مع بساطة الأمر، ولكنني أدعوك لإبقاء الدهشة لا سيأتي، فالسألرة عميقة الفور وليست بهذه السذاجة، ولتقرب قليلا من أهد الأجهزة البشرية التي نستخدمها وهي العين حتى نعرف عما فيها ومكوناتها.

تبدو العين وكأنها عضو صغير سهل التركيب، إلا أنها في الحقيقة من أعجب الأجهزة وأعقدتها في الإنسان، فهي في غاية الدقة والبراعة؛ فإن مكوناتها تصل إلى 40 مكون، لو تغير مكان واحد منها فضلا عن فقدانها؛ لتعطلت العين!

فمثلا المكونات الموضوعية لحماية؛ بدءا من تجويف الفأر في الجمجمة والوسائد الدهنية التي تحميها، ثم الستائر الذكية (الأجفان) التي تظل مفتوحة دون إرهاق، وتقلق تلقائيا عند المخاطر، وفي أثناء ذلك تعمل الفلاتر

¹ يقصد بها عمليات إعداد الكاميرا للتصوير التي يعرفها خبراء التصوير؛ مثل: تحديد المجال SCOPE، وتحديد بؤرة التركيز FOCUS، وتركيز العدسة على المشهد أو ما يسمى عمق المشهد DEPTH OF FIELD، وتباين الألوان CONTRAST، والإضاءة LIGHT وغيرها، وكل هذه تحتاج إلى وقت وجهد وخبرة لتعلمها، ولكن كل ذلك بالنسبة لعين الإنسان يتم تلقائيا بتدبير الله وفضلهم سبحانه في أجزاء من الثانية دون أي إعداد مسبق!

آليا (الرموش) على منع دخول الأتربة! بينما تقوم الدموع بتنظيف شامل وتُنقّيها من الميكروبات بشكل دوري!

ولا يحتاج الإنسان إلى البحث عن مكان مناسب للنظر، فقد وضعت العينين في أفضل مكان؛ لتعطينا أكل رؤية!

ثم إن أردت أن تعجب؛ فانظر إلى الشبكية التي تحوي مليارات العصي والمخاريط؛ وبها تُميّز العين بين كل لون وآخر مهما كان دقيقاً.

هذه العجائب التي لا تُصنّاهي ولا تُجاري، أريكت كبار الملاحدين ودعاة نظرية التطور، (داروين) نفسه، اعترف بمنافة كون هذا التصميم المذهل لمكونات العين صدفة أو من خلق الطبيعة.

يقول داروين: "لكي يفترض أنه من الممكن أن تكون العين بكل ما فيها من أجهزة فذّة من أجل ضبط الطول البؤري للمسافات المختلفة، ومن أجل السماع بدخول كميات مختلفة من الضوء، ومن أجل تعديل الزيف الكروي واللوني، قد تكونت عن طريق الانتخاب الطبيعي، فإن ذلك يبدو -وأنا أعترف بذلك- كشيء مناف للعقل إلى أعلى درجة".³

- أصبغ بشري:

إن أصبغاً واحداً من أصابع الإنسان، فيه مئات الملايين من الخلايا، في كل خلية عمالقة وأسرار لن يتسع المقام للوقوف إلا على نثر يسير منها، ولك أن تتأمل ما قاله لينوس باولنج (Pauling Linus) الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء: "إن خلية حية واحدة من بدن الإنسان هي أشد تعقيداً من مدينة نيويورك".⁴

وإذا انتقلنا إلى داخل خلية واحدة من خلايا جسمك البالغ عددها ٣٧.٢ تريليون خلية تقريباً، هناك تقريباً ١٠ تريليون منها تحمل نواة (جزء صغير داخل الخلية)، في داخل نواة هذه الخلايا الجسمية، يوجد ٢٣ زوجاً من الكروموسومات، بداخل هذه الكروموسومات خيط رفيع جداً يسمى DNA شفرتك الوراثية، يحمل هذا الخيط معلومات عن صفاتك ووظائف أعضائك بشكل كامل، طول هذا الخيط: إذا فردنا الكروموسومات الموجودة في خلية واحدة ووصلناها ببعضها، سيبلغ طولها تقريباً ٢ متر في المتوسط... تخيل! خيط طول ٢ متر يوجد في كل خلية من خلايا جسمك، ترى كيف سيكون ملفوفاً ومرتباً لكي تسع خلية

¹ تلك التقنية والتي تسمى (3D)، هي ما يحاول أصحاب شركات الكاميرا محاكاتها!

² ينظر: مقالة مؤسس نظرية التطور هائر أمام تركيبة العين. http://antishobhat.blogspot.com/2012/09/blog-post_26.html.

³ أصل الأنواع ل(داروين)، ترجمته مجدي المليحي (ص293).

لا تستطيع حتى أن تراها بعينك المجردة؟! إذا وصلنا غيوط المادة الوراثية DNA في خلايا جسمك كلها، (أي: ٢ متر * ١٠ تريليون خلية)، سيكون الطول تقريباً ٢٠ مليار كيلومتر، هذا ما يتعلق بطولها فقط، أما طريقة عملها، وكيفية قراءتها واستخراج المعلومات منها فعالم آخر! هذه الـ ٣٧.٢ ترليون خلية، بعضها مسؤولة عن العظام، وبعضها مسؤولة عن الأعصاب، أخرى مسؤولة عن الدم ... وهكذا، وكل واحدة منها تهتدي لما ينبغي أن تفعله! {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذاريات: 20-21].

- الزرافة!

الزرافة تحمل دماغها فوق عنق طويلة، وقد تصل المسافة بين قلبها وبين دماغها إلى ٣ أمتار، وحتى يتمكن قلبها من إيصال الدم إلى دماغها، فإنّه لا بد أن يكون قويا؛ ولذلك فقد يصل وزنه إلى ١١ كغم، بطول ٦٠ سم، وطول جدرانها ٧.٥ سم^١، إذا فهو يضخ الدم بقوة شديدة نحو الدماغ.

ولكن ماذا سيحدث لو خفضت الزرافة رأسها لتشرب مثلاً، هل ستفجر عروقها ودماغها بسبب هذه القوة؟! لا، فإن الشرايين التي توصل الدم إلى الدماغ تحتوي على صمامات تخفف من الضغط عند انحناء رأس الزرافة. كما أن هناك شبكة من الأوعية الدموية أسفل الدماغ تعمل كإسفنج، فتتص تلك القوة ثم تغذي الدم، كما أن الشريان الذي ينزل الدم من الدماغ إلى القلب فيه صمامات تمنع الدم من الرجوع إلى الدماغ عندما تخفض الزرافة رأسها^٢، فسبحان من {أَعْسَنَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ} [السجدة: 7].

إنّ الله جلا جلاله³:

والآن، وبعد هذه النماذج التي لا نستطيع وصفها إلا بأنها عيّن من فيض ما علّمه علماء الطبيعة من عجائب الخلق، لا يمكن للإنسان يحترم عقله وفطرته إلا أن يقرب بأمرين:

1- بوجود خالق لهذه المخلوقات.

2- وأن هذا الخالق متصف بصفات الكمال المطلق، الذي لا يدخله نقص بوجه من الوجوه.

فمن تأمل في هذا الخلق المتقن، علم يقينا أن خالقه لا بد أن يكون:

Prothero, D. R.; Schoch, R. M. (2003). Horns, Tusks, and Flippers: The Evolution of Hoofed Mammals. Johns Hopkins University Press. pp. 67–72 1

Mitchell, G.; Skinner, J. D. (1993). "How giraffe adapt to their extraordinary shape". Transactions of the Royal Society of South Africa. 48 (2): 207–18 2

3 بصرف: الميسر في تعزيز اليقين.

1- متصفا بالحياة الكاملة؛ فلو لم يكن هيا لما خلقت، قال الله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [البقرة: ٢٥٥]، ويقول جل في علاه: {هُوَ الْعَلِيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [غافر: ٦٥].

2- ولا يمكن أن يتم الخلق بدون إرادة؛ فغير المرید لا يقدر على أن يقوم بشيء له معنى، فضلا على أن يخلق مخلوقات متقنة يجعل لكل منها مهمة ووظيفة.

3- ولا بد أن يكون متصفا بكمال العلم؛ فالخلق، والخلق المتقن، لا يمكن أن يتم بدون علم كامل، فالجاهل لا يمكنه أن يصنع أوسط الأشياء، فإذا لاحظنا دقة خلق الخالق علمنا دقة علمه، وأنه لا تخفى عليه خافية، قال تعالى: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} * ألا يعلم من خلقه وهو اللطيف الخبير {الملك: 13-14}.

4- كما أن الخالق لهذا الإتيان لا بد أن يصف بالقدرة التامة؛ فهذا الكون يسير على سنن وقوانين دقيقة، غير فوضوية، يقول تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: ١٢]، ويقول تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [الروم: 54].

5- ولا يمكن للخالق المتقن أن يتم بدون حكمة تامة بالغة؛ فغير الحكيم لا يمكنه وضع الشيء في موضعه المناسب، يقول تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [سبأ: 1].

6- وإذا تأملت في تسخير الأرض وتذليلها لمعيشتنا، وتأملت كيف أن الرزق والطعام يصل إلى أضعف المخلوقات، وإذا تأملت في إغاثة الله تعالى لعباده بإتزان المطر، علمت أن هذا الخالق رحيم وسعت كل شيء، كريم عظيم الكرم والجود، يقول الله تعالى: {فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُجِيبُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [الروم: 50]، {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} * يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور {سبأ: 2}.

7- ومن لوزام ذلك الخلق المتقن أن يكون الخالق سميعا بصيرا؛ يقول تعالى: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11].

إن آثار الكمال الموجودة في الخلق، تدل على كمال الخالق؛ لأن معطي الكمال أولى به، فالخالق الأسماع والأبصار والناطق، ونحو ذلك من الصفات الكاملة، هو أحق بهذا الكمال على وجه لا يحاط به فيه أحد من

خلقه؛ فالفطرة والبديهة تقتضي أن يكون الخالق المستغني عن الخلق أولى بالكلام من المخلوق المحتاج
الفقير إلى خالقه، يقول الله تعالى: {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الروم: ٢٧]، ويقول تعالى:
{أَفَمَنْ يَخْلُقُ كُنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [النحل: ١٧].^١

النصوص الشرعية الدالة على الإحكام والإتيان

وعريّ دليلٍ كهذا، يُناقش مسألةً من أهمّ مسائل الوجود، أن تناله العناية الفائقة من القرآن الكريم؛ فإن
المسألة كلما كانت أعظم، كان دليلها أوضح وعناية القرآن بها أكبر.

فالقرآن قد تناول هذا الدليل بأساليب متنوعة، تتضمن استتارة الكون الفطري في الإنسان، والذي
يختر على نسبة مظاهر الإتيان إلى رب حكيم عليم، فعلاً لما يريد، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في
السماء، حيث تدعو الآيات إلى:

١- التأمل في نفسه:

يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ
رَكَّبَكَ} [الانفطار: 6 - 8].

٢- والتأمل في وسائل المعرفة الموهوبة له:

يقول تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ} [النحل: 78].

٣- والتفكير في إتيانه سبحانه خلق هذا الكون، وتسخيره للإنسان:

يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِن مَّاءٍ عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ
وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ} [يس: 71 - 73].

- ويقول تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ سَقَّيْنَا الْأَرْضَ سَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا *
وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَرَيْبُونًا وَتَمْلًا * وَصَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِإِنْعَامِكُمْ} [عبس: 24 - 32].

- وقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: 190-191].

ومن ذلك قوله تعالى: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَالِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لِّهَمُّ قَوْمٍ يَّعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلٌّ أَكْثَرُ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الفرج: 60-61].

فانظر كيف لفت النظر إلى بعض الظواهر التي نراها بكثرة، ولكن غفلت قلوبنا عما فيها من إبداع كما قال تعالى: {وَلَكَّيْنِ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} [يوسف: 105].

إن مجرد التأمل في خلق السموات والأرض، وإنزال المطر، وإنبات النباتات وتنوعها؛ كفيلاً بعمارة القلب بالإيمان.

فكيف إذا وجهت النظر، وتأملت في الظواهر الكونية بالغة الإيقان، والتي قد يفغل عنها كثير منا!

- يقول الله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ ۗ وَسِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ ۗ كُلٌّ يَجْرِي لِإِجَالٍ مُّسَمًّى ۗ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} [الرعد: ٢].

- ويقول تعالى: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۗ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ١٨٥].

- ويقول تعالى: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَبَّانَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ} [ق: ٦].

- ويقول تعالى: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ۗ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ} [المالك: ٣].

- ويقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۗ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ۗ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۗ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۗ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [الأنبياء: 30-33].

4- كما أن الله عز وجل تحدى البشر أن يجدوا في صنعه خلاصاً:

يقول تعالى: {مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فارجع البصر هل ترى من فطورٍ* ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر غاسياً وهو هسيرٌ} [الملء: 3-4].

بل أنه عز وجل تحدى جميع البشر أن يخلقوا ذباباً؛ يقول الله تعالى: {يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب} [الحج: 73]، فلو اجتمع البشر بكل إمكانياتهم؛ ليخلقوا ذباباً، ما استطاعوا، فكيف تخلقها الصدفة؟

ماذا لو كان ثمة بيت مصنوع من الخشب بطريقة فنية جميلة؟ هل سيخطر على بال أحد من الناس بأن هذا الخشب المنظم قد انتخبته الطبيعة وطوّرتّه حتى أصبح بهذا الشكل؟ لا أظن منصفاً سيقول نعم، إذا فكيف نقول مع خلق الإنسان الذي خلقه الله له قلباً، ورتةً، وشرابين وأوردةً، ونظاماً عصبياً وعقلياً وعضلياً لم يصل الطب إلى كثير من فهم حقيقتها في جسم الإنسان؟

وكذا تناسق أعضاء الجسد البشري في ردات الفعل والشعور بالجوع والعطش والشبع والريّ والحاجة إلى الراحة والنوم؟ وكذلك التفكير الذهني والذكاء والابتكار والمشاعر المختلفة عند الإنسان من فرح وحزن وخوف وغير ذلك؟ وكذا خلق الإنسان على أطوار متعددة منذ أن كان في رحم أمّه في مراحل عميقة ذكرها الخالق جل جلاله في كتابه الكريم قبل 1400 سنة، إذ يقول الله عز وجل: {ولقد خلقنا الإنسان من سلالةٍ من طينٍ* ثم جعلناه نطقاً في قرارٍ مكينٍ* ثم خلقنا النطقَ علقَةً فخلقنا العلقَةَ مضغّةً فخلقنا المضغّةَ عظاماً فكلّسونا العظامَ لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين} [المؤمنون: 12-14].

فهل يعرف العالم الحديث من ذكر هذا التفصيل الدقيق لمراحل نمو الإنسان في بطن أمه قبل 1400 عام؟ لا شك أن الذي علم الإنسان هذا البيان في ذلك الوقت خالقٌ عليمٌ حكيمٌ، أرسل رسولاً بالحق؛ ليبدد الناس إلى الطريق الصحيح، وأيده بما يثبت صدق نبوته.

وكم في القرآن من ذكر لهذه المخلوقات التي نراها حولنا، وهي من أعظم الأدلة على وجوده وكماله سبحانه واستحقاقه للألوهية وعدمه لاشريك له، فذكر الشمس والقمر، والليل والنهار، وإنزال المطر وإخراج النبات بسببه، وذكر الرعد والبرق، والسحاب والنجوم، وتسخير الرياح لذلك، وتسخيرها لسير السفن في البحر، وذكر خلق الإنسان بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، وحثنا على التفكير في الزواج، واختلاف السنة الناس وألوانهم، وجعل الليل سكناً لنا، وذكر المراحل التي يمر الإنسان بها في حياته، وتفصيل بعض الناس على بعضهم في الرزق، وذكر النحل والإبل والجمال، وغير ذلك، يقول عز وجل: {وخلق كلُّ شيءٍ قَدَرَهُ تقييراً} [الفرقان: 2].

4/ الدليل الرابع على وجود الله: دليل التخصيص¹

المراد بدليل التخصيص:

بالنظر إلى أي مخلوق من مخلوقات الله - سواء في المخلوق نفسه، أو مقارنة بغيره - فإننا نجد مظاهر تخصيص له بهيئة معينة، أو مقدار معين؛ ليتحقق بها مصالحه، ولولا هذا التخصيص؛ لفسدت حياته، وهذا يدل على وجود مخصص له؛ وهو الله سبحانه وتعالى.

"وتنص هذه الدلالة على أنه يجوز عقلاً أن يكون كل جزء من العالم على خلاف صورته وصفته وعالته التي هو عليها الآن، فكونه على هذه الصورة التي هو عليها الآن يحتاج إلى مخصص يخصصها بالوجود، دون غيرها من الصفات والأحوال الممكنة الأخرى"².

"وحاصل هذا الوجه في الدلالة على وجود الله تعالى: أنه لا يمكن أن تتحقق الهداية للمخلوقات دون أن يقتضي ذلك إثبات العالم والحكمة لمن جعلها كذلك، فلا بد أن يكون الله هو الذي خلقها وهدها تلك الهداية، إذ لا يمكن أن تكون تلك الهداية، هي مقتضى طبائع الأشياء في ذاتها؛ لما علم بالضرورة من أن ما عليه المخلوق من الهداية يقتضي أن يكون مخلوقاً لفاية محددة، وذلك لا يمكن أن يكون ذاتياً.

فلزم مما سبق أن إثبات وجود الله تعالى، هو حقيقة ضرورية يدركها الإنسان بمجرد إدراكه لشيء من مظاهر هداية المخلوقات لما خلقت له"³.

"ويراد بالعناية: ما نشهده، ونحس به من الاعتناء المقصود بهذه المخلوقات عموماً، وبالإنسان على وجه الخصوص، والذي يتجلى فيما نراه وندركه من موافقة هذه الموجودات بعضها لبعض، وذلك لا يكون قطعاً إلا من قبل فاعلٍ، قاصدٍ لذلك، مریدٍ.

فهذه الدلالة إذن تبني على أصليين:

الأول: العالم بهذه الموافقة.

الثاني: أن هذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعلٍ قاصدٍ مریدٍ"⁴.

كيفية الاستدلال بدليل التخصيص:

¹ مادة العقيدة الإسلامية، د. أبو زيد بن محمد مكّي، عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى بكلية الدعوة وأصول الدين - قسم العقيدة، ص 43-56 دار الأوراق

² الأدلة العقلية على أصول الاعتقاد، د. سعود العريفي (ص: 241).

³ تُنسب لـ دكتور عبد الله القرني - المصدر: كتاب الأدلة العقلية العقلية على أصول الاعتقاد، لسعود العريفي (ص 226 - 227).

⁴ الأدلة العقلية العقلية على أصول الاعتقاد، لسعود العريفي: ص 226 - 227.

يمكن الاستدلال بدليل التخصيص على وجود الله تعالى من خلال المقدمتين التاليتين:

المقدمة الأولى: وجود خواص مميزة لكل مخلوق من المخلوقات، وله هيئة مخصوصة؛ بحيث لو لم يكن بهذه الخواص؛ لفسد.

والدليل: المشاهدة.

المقدمة الثانية: هذا التخصيص المدرك حساً، لا يمكن أن يكون:

1- من غير سبب.

2- أو يوجد لها لذاتها.

النتيجة: وجود خالق عليكم حكيم، خلق المخلوقات بهذه الخواص؛ ليتحقق في الكون النظام، ويتفهي عنه الاضطراب والتناقض، هذا الخالق هو الله سبحانه وتعالى.

صياغة أخرى لدليل التخصيص:

أ - نشاهد أن: كل مخلوق قد خُصَّ بشكلٍ وهيئة، ومقادير محددة؛ بها يظهر التفاوت بينه وبين مخلوق آخر، كذلك أعضاء المخلوق الواحد؛ قد خُصَّ كل منها بوظيفةٍ وهيئةٍ مختلفة عن بقية الأعضاء.

ب - يجوز عقلاً أن يكون ذلك المخلوق أو العضو على خلاف الصورة التي هو عليها الآن؛ ولو كان على خلاف الصورة التي عليها الآن؛ لفسد.

النتيجة: من (أ)، و (ب): تخصيص المخلوق أو العضو بصورته التي هو عليها الآن يحتاج إلى مُخصِّصٍ.

هذا المُخصِّصُ لا يمكن أن يكون جامداً لا حياة فيه، أو جاهلاً لا يعلم ويعقل، فلا بد أن يكون المخصِّصُ عليماً حكيماً؛ عالمٌ بخصوصيات الأشياء وما يصلح لكل منها، فصوّرها وفقَّ علمه وحكمته على هذه الأوجه المخصوصة المُتَّعَنَّة، وهذا هو الله سبحانه وتعالى.

المستند الشرعي لدليل التخصيص:

المستند الشرعي لهذه الدلالة يكمن في الآيات القرآنية التي تدل على: إمكان تحوُّل المخلوقات إلى مقادير وصفات مضادة تماماً لما هي عليه الآن، وفي تلك الحالة، لن تكون صالحة؛ فتخصيصها بصفات التي هي عليها الآن لتكون نافعة؛ دالٌّ على مشيئة مُخصِّصٍ مُتَّعِنٍ بالعلم والحكمة، يقول الله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ}*

* انظر: الأدلة العقلية التقليدية على أصول الاعتقاد. لسعود العريفي: (ص 242).

أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ عُطْبًا فَظَلْتُمْ ثَمَّ ثَمَرِينَ * إِنَّا لَمُفْرِمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ السَّمَاءِ أَمْ نَحْنُ أَنْزَلُونَهُ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ عِجَاثًا يَلْوَأَ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ أَنْشَأْنَاهَا * تَذَكِّرُونَ وَمَتَعْنَا لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ { الواقعة: 63-74 }

يقول ابن تيمية رحمه الله: "العين، والفم، والأذن فيها مياه ورطوبة؛ فماء العين مالح، وماء الفم عذب، وماء الأذن مر؛ فإن العين شحمة، والملوحة تحفظها أن تذوب.

وهذه أيضا حكمت تملح ماء البحر؛ فإن له سببا وحكمة؛ فسببه: سبوغه أرضه وملوحتها، فهي توجب ملوحة مائه، وحكمتها: أنها تمنع نبت الماء بما يموت فيه من الميتات العظيمة؛ فإنه لولا ملوحة مائه؛ لأذنت، ولو أذنت؛ لفسد الهواء؛ للاقته له، فهلك الناس بفساده، وإذا وقع أحيانا قتل خلق كثير، فإنه يفسد الهواء حتى يموت بسبب ذلك خلق كثير.

وماء الأذن مر؛ لينع دخول الهوام إلى الأذن.

وماء الفم عذب؛ ليطيب به ما يأكله، فلو جعل الله ماء الفم مرا؛ لفسد الطعام على آكله، ولو جعل ماء الأذن عذبا؛ لدخل الذباب في الدماغ، ونظائر هذا كثيرة.

فلا يجوز أن يفعل بخلاف ذلك؛ مثل أن يجعل العينين في القدمين، ويجعل الوجه غشنا عريضا، كالقدمين؛ فإنه كان يفسد مصلحة النظر والشم؛ بل من الحكمة أنه جعل العينين في أعلى البدن، في مقدم؛ ليرى بها ما أمامه، فيدري أين يمشي، ويجعل الرجل غشنا كصبر على ما تلاقيه من التراب وغيره.

والعين لطيفة يفسدها أرقى شيء، فجعل لها أبقانا تغطيها، وأهدابا...

هذا ومثله من مخلوقات الرب، دل على أنه قد أحكم ما خلقه، وأتقنه، ووضع كل شيء بالموضع المناسب له، وهذا يوجب العلم الضروري أنه عالم؛ فيميز بين هذا وبين هذا، حتى خص هذا بهذان وهذا بهذا.

وهو أيضا يوجب العلم الضروري بأنه أراد تخصيص هذا بهذا، وهذا بهذا؛ فدل على علمه وإرادته.

5/ الدليل الخامس على وجود الله: التسوية¹

ومعنى تسوية الشيء:

إحسان خلقه، وإكمال صنعه، وإمداده بأسباب صلاحه، ويقائه، وجعله مستويًا معتدلاً، متناسبًا الأجزاء دون تفاوت أو خلل بحيث يكون مهينًا لأداء وظيفته على أكل وجهه.

دليل التسوية أبلغ في الدلالة

وإذا كان دليل الخلق يدل على الله سبحانه، فإن التسوية أبلغ في الدلالة وأخص منها؛ لأن الشيء يمكن أن يخلق دون أن يكون مسويًا على الوجه الأكل والأتم، وتسوية المخلوقات أمر ظاهر للعيان في كل ما ذراه الله وبرأه، سواء في السماوات أو في الأرض، وفي الحيوان أو النبات، وأما الإنسان فهو نسج وهدى في هذا الباب، ويكفي أن يحمل بأي عضو من أعضائه كالعين أو القلب؛ لئلا يرى عجيب صنع الله، وإحسان خلقه جهل وعلا.

النصوص الشرعية في دليل التسوية

وقد تكررت الإشارة إلى دليل التسوية في القرآن الكريم بعبارات متنوعة وإن كانت متقاربة في الدلالة، ومنها:

1- التسوية:

كما في قوله تعالى: {ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَلَخَقَ فَسَوَّى} [القيامة: 38]، وقوله تعالى: {الذِّي خَلَقَ فَسَوَّى} [الأعلى: 2].

2- الإيقان:

كما قال تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الذِّي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} [الفل: 88].

3- الإحسان:

كما في قوله تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْقَةَ عَلِقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلِقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: 14].

وقوله تعالى: {الذِّي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} [السجدة: 7].

¹ مقرر الثقافة الإسلامية، إعمار اللجنة العلمية بطنجة الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ص 89.

وقوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: 4].

4- نفي التفاوت:

كما في قوله تعالى: {الذِّي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ} [الملئ: 3].

6/ الدليل السادس على وجود الله: دليل التقدير¹

يراد بدليل التقدير:

الاستدلال بما نراه في النفس، وفي الآفات؛ من التقدير المشاهد فيها على وجود الله.

"ومن أوجه هذه الدلالة: أن الله تعالى قد خلق كل شيء بتقدير محدد وهيئة مخصوصة، بحيث يتحقق فيها الانظام وينتهي الاضطراب والتناقض، فلكل شيء من المخلوقات على كثرتها خواص ذاتية تميزه عن جميع المخلوقات، وكما أن تلك الخواص هي أساس تمييز الأشياء؛ فإنها كذلك أساس ما بين الأشياء من السببية، فمن أُنكر تلك الخواص فقد أُلغى السببية، ومن أُنكر السببية لم يمكنه إثبات ما للأشياء من خواص.

فتقدير الله للمخلوقات يقتضي أن تنتظم أمورها وفق سببية مطردة وقوانين محكمة، لا تختلف إلا بإرادة الله تعالى، كما في المعجزات الخارقة للسنتن، وأما الأصل في المخلوقات فهو جريانها على تقدير الله تعالى وتسويتها لها".²

"وجميع هذه الآيات تدل على أن الانظام في المخلوقات هو مقتضى تقدير الله لها، وأنه لا يمكن أن يتحقق الانظام في المخلوقات من غير مدبر، كما لا يمكن أن يكون هو مقتضى طبائع الأشياء في ذاتها دون أن يكون لها خالق، وهذا يقتضي بالضرورة وجود الخالق سبحانه وتعالى".³

كيفية الاستدلال بدليل التقدير:

يمكن الاستدلال بدليل التقدير على وجود الله تعالى من خلال المقدمتين التاليتين:

المقدمة الأولى: وجود مظاهر التقدير بدون زيادة أو نقصان في أي مخلوق من المخلوقات:

- قال تعالى: {وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد: 8].

¹ دلائل الربوبية، د. أبو زيد بن محمد مكجي، ص 60.

² المعرفة في الإسلام للدكتور عبد الله القرني (ص 518-519).

³ المعرفة في الإسلام: للدكتور عبد الله القرني (ص: 520).

- وقال تعالى: {وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ قَدْرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: 2].

- وقال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِنَّ لِقَادِرُونَ} [المؤمنون: 18].

- وقال تعالى: {إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: 49].

- وقال تعالى: {مِنْ أُمَّةٍ شَيْءٌ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْقَةٍ خَلَقَهُ قَدْرَهُ} [عبس: 18-19].

- وقال تعالى: {وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ} [الحجر: 19].

وظاهرة التقدير تبدو في كل ما خلقه الله عز وجل في الأرض والسماء والإنسان والنبات والحيوان، فقد نظم الله أجزاء هذا الوجود على أحسن نظام، وأدلة على كمال قدرة خالقهم، وكمال علمهم، وكمال حكمهم، وكمال لطيفهم.

الدليل: المشاهدة (الإدراك الحسي).

المقدمة الثانية: التقدير المتقن المحكم المدرك حسا، لا يمكن أن يكون:

1- من غير سبب.

2- أو يوجد لها لذاتها.

الدليل: ضرورة عقلية.

النتيجة: وجود خالق عليم حكيم، خلق المخلوقات بهذا التقدير المحكم المتقن؛ وهو الله سبحانه وتعالى.

7/ الدليل السابع على وجود الله: دلائل النبوة

يراد به: كل دليل دل على صدق الأنبياء والرسل، فهو دال على وجود الله، مثل:

1- الآيات والبراهين؛ الدالة على صدق الرسل.

2- إجابة دعوات الأنبياء.

3- النصر على الأعداء.

4- الذين الذي جاؤا به.

5- أخلاقهم التي ميزهم الله بها.

"دلائل النبوة تشمل عدة أمور؛ أهمها: آيات الأنبياء التي يظهرها الله تعالى على أيديهم، تصديقاً لهم في دعوى الرسالة، ويتبع ذلك حصول العاقبة والنصر للرسول وأتباعهم باطراد، مع قلة العدد والعدد، كما تشمل أيضاً كرامات الأولياء، التي يظهرها الله تعالى على أيدي أتباع الرسول إكراماً لهم، وهي من جنس آيات الرسول، وتعتبر امتداداً لها، إذ هي شاهدة بصدقهم، حيث أكرم بها أتباعهم، ويدخل فيها ما يحصل لعباد الله المؤمنين من إجابة الدعوات، وكشف الكريات، وإعاقته للبهات، وغير ذلك من أنواع الكرامات.

ومع أن دلائل النبوة موجهة أصلاً لإثبات دعوى النبوة والرسالة، إلا أن لها دلالة - دون شك - على وجود محمديتها وموجدها، وذلك من وجهين:

أولاهما: أن منها ما هو غارق للعادة، لا يقدر عليه إلا خالق السماوات والأرض، ومُسَيِّرُ نظام العالم على تلك العادة المحروقة، فدل اقتران خرق تلك العادة مع دعوى الرسالة؛ على وجود رب قادر على كل شيء، هو الذي أرسل هذا الرسول، وصدق به هذه الآيات، لهذا فضلاً عن دلالتها على صدق الرسول نفسه.

ثانيهما: أن ما سوى الخوارق من دلائل النبوة، قد ثبت به صدق الرسول، الذي قد أُخْبِرَ عن الرب الخالق العظيم، وعن صفات جلاله وكماله، بما لا يدع مجالاً للشك في كمال ربوبيته وعظمته، فضلاً عن وجوده أصلاً".⁷

وهنا سوف نطرح ثلاثة ملخص من دلائل النبوة، والتي بدورها تدل على وجود الله سبحانه وتعالى، إذ أن كل نبي مؤيدٌ بأدلة وبراهين تُثَبِّتُ أنه مرسل من عنده سبحانه وتعالى، وهذه النماذج، كالتالي:

أولاً: من دلائل نبوة موسى عليه السلام:

مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ دليله على أنه نبي مرسل من عند الله: (العصا)، حيث تعد عصاه من المعجزات الباهرة التي أيد بها الله تعالى بها دليلاً على صدق نبوته ورسالته، قال الله تعالى: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَلَّأَ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنِيٍّ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَبِيبٌ تُسْفَى * قَالَ هُنْذَاهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى} [طه: 17-21]، فالعصا التي صارت بقدره الله تعالى هيئة عظيمة، ابتلعت جميع ما جاء به سحرة فرعون من السحر، فقال تعالى مخاطباً موسى عليه السلام:

⁷ الأدلة العقلية التقليدية على أصول الاعتقاد، لسعود العريفي (ص 296-297).

{وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} [طه:69]، وفي آية أخرى، يقول عز في علاه: {فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} [الشعراء:45].

ثانياً: من دلائل نبوة عيسى عليه السلام:

"لقد أيد الله عيسى عليه السلام بمعجزات منذ ولادته، إذ أن ولادته نفسها معجزة، كما جاء في الملل والنحل للشهرستاني، فقد قال رحمه الله في ذلك: "كانت له آيات ظاهرة، ونبات زاهرة، مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ونفس وجوده وفطرته آية كاملة على صدقه، وذلك حصوله من غير نطفة سابقة، ونطقه البين من غير تعليم سابق".

ومعجزاته التي ذكرها القرآن الكريم تلخص في خمسة أمور، جاء ذكر أربعة منها في سورة المائدة في قوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَيْكَ إِذْ أَيْدَتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْعَوْتَى بِإِذْنِي} [المائدة: 110] ... إلى قوله تعالت كلماته: {إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ نَسْتَضِيعُ رَبَّنَا أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُولُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلُ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأُولَانَا وَأَخْرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْتُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} [المائدة: 112-114].

وستبين من هذه الآيات الكريمه أربع معجزات:

الأولى: إنه يصور من الطين كهية الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، أي أن الله سبحانه وتعالى خلقه على يديه طيراً من الطين، فالخالق هو الله سبحانه وتعالى، ولكن جرى الخلق على يد عيسى، وينفخ من روعه عليه السلام بإذن الله تعالى.

الثانية: إحياءه على يد المسيح عليه السلام بإذن الله جللت قدرته، والمحيي في الحقيقة هو الله العلي القدير، ولكن أجرى الأحياء على يد المسيح عليه السلام، ليكون ذلك برهان نبوته، ودليل رسالته.

الثالثة: إبراءه عليه السلام الأكمه والأبرص، وهما مرضان تعذر على العالم قديمه وحديثه العثور على دواء لهما، والتكهن من أسباب الشفاء منهما، ولكن عيسى بقدره الله شفاهما، ويرى المريضان برقيته، فكان ذلك دليلاً قاطماً على رسالته عليه السلام.

الرابعة: إنزال المائدة من السماء بطلب الحواريين، لطمئن قلوبهم، وليعلموا أن قد صدقهم.

والخامسة: خمسة ذكرت في سورة آل عمران، وهي: أنباؤه عليه السلام بأمر غائبة عن حسر، ولم يعاينها، فقد كان ينهى صحابته وتلاميذه بما يأكلون وما يدفرون في بيوتهم. وقد ذكر الله تعالى في قوله في قوله تعالى حاكياً عنه: {وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْفُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 49] 1.

ثالثاً: من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم:

وهذا رسولنا صلى الله عليه وسلم -وهو خاتم النبيين- دلائل نبوته كثيرة جداً، سواءً بالنظر إلى أخلاقه، أو بالنظر إلى نوع ما جاء به، أو بالنظر للآيات والبراهين.

ويمكن الاستدلال بهذا الدليل على وجود الله وفق مقدمتين:

المقدمة الأولى: وجود دليل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

المقدمة الثانية: الصادق المصدوق؛ يقول إن الذي أرسله هو الله فقوله بأنه رسول الله صدق وحق، فهذا دليل على وجود الله تعالى.

ولنأخذ مثالين على ذلك:

- المثال الأول: قصة أبي هريرة رضي الله عنه ومشاهدته دلائل النبوة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم:

روى البخاري بسنده عن مجاهد؛ أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يقول: "والله الذي لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد بكفيري على الأرض من الجوع، وإن كنت لأتمد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قدرت يوماً على طريقيهم الذي يخرجون منه، فمر أبو بكر رضي الله عنه، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألت إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل، ثم مر بي عمر رضي الله عنه، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألت إلا ليشبعني، فمر فامر يفعل، ثم مر بي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فتبسم حين رأيته، وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال صلى الله عليه وسلم: يا أبا هريرة، قلت: لبيك يا رسول الله، قال صلى الله عليه وسلم: الحق، ومضى فتبعته، فدخل، فاستأذن، فأذن لي فدخل، فوجد لبناً في قمع، فقالت صلى الله عليه وسلم: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهذاه لك فلان، قال صلى الله عليه وسلم: أبا هريرة، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أنت صدقت بعثت بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أنت هربت أرسل إليهم وأصاب منها

1 كتاب محاضرات في الصمانية [محمد أبو زهرة] - الملتبة الشاملة: ص 49، وص 20.

2 دلائل الربوبية، د. أبو زيد بن محمد مكِّي، عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى بكلية الدعوة وأصول الدين - قسم العقيدة.

وأشركهم فيها، فسأني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفّة، كنتُ أعتقدُ أنا أن أُصيّبَ من هذا اللبنِ شربةً أتقوى بها، فإذا جاء أمرُني صلى الله عليه وسلم، فقلتُ أنا أعطيتهم، وما عسى أن يبلّغني من هذا اللبنِ، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بُدٌّ، فأئنتهم فدعوتهم فأقبلوا، فاستأذنوا فأذن لهم صلى الله عليه وسلم، وأخذوا مجالسهم من البيت، قال صلى الله عليه وسلم: يا أبا هريرة، قلتُ: لبيك يا رسول الله، قال صلى الله عليه وسلم: هُذُ فأعطيتهم، قال: فأخذتُ القَدَحَ، فجعلتُ أُعطيهم الرجلَ فيشربُ حتى يروى، ثم يردُّ عليَّ القَدَحَ، فأعطيته الرجلَ فيشربُ حتى يروى، ثم يردُّ عليَّ القَدَحَ فيشربُ حتى يروى، ثم يردُّ عليَّ القَدَحَ، حتى انتهيتُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد روي القومُ كلهم، فأخذتُ القَدَحَ فوضعتُ على يدي، فنظر إليّ فتبسّم، فقال صلى الله عليه وسلم: أبا هريرة، قلتُ: لبيك يا رسول الله، قال: بَقِيتُ أنا وأنت، قلتُ: صدقت يا رسول الله، قال صلى الله عليه وسلم: افعدُ فاشرب، فقعدتُ فشربتُ، فقال صلى الله عليه وسلم: اشرب، فشربتُ، فما زال يقول: اشرب، حتى قلتُ: لا والذي بعثك بالحق، ما أهد له مسلطًا، قال صلى الله عليه وسلم: فأرني، فأعطيتُ القَدَحَ، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة" 1.

وتوجد في هذه الرواية عدة دلائل، سنوردها كالتالي:

أ- دلائل في شخصيته صلى الله عليه وسلم:

رأى أبو هريرة رضي الله عنه في النبي صلى الله عليه وسلم أخلاقاً لا تكون إلا في الأنبياء، مثل:

1- تبسم حين رآه، وحين سقاه؛ فهذا استدلال على صدقه بالنظر في سلوكه الشخصي.

2- كرمه صلى الله عليه وسلم بلبنٍ مهدي له، وهو ليس عنده شيء سواه.

3- استضافته صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه وهو من الفقراء.

4- يشرب صلى الله عليه وسلم آخر القوم.

5- يشرب صلى الله عليه وسلم من الإياء نفسه الذي سبقه في الشراب من الفقراء.

6- لم يحتفظ لنفسه صلى الله عليه وسلم بشيء من اللبن.

7- سقى صلى الله عليه وسلم أبا هريرة بنفسه.

8- يتلطف صلى الله عليه وسلم معه، فيأمره بالشرب حتى يتضلع.

ب- دلائل في دعوتك صلى الله عليه وسلم:

رأى في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم الأمر بالتوحيد، وحسن الخلق، وإطعام الطعام، وإكرام الضيف،
فها هو صلى الله عليه وسلم يكرمهم، وضيقت أهل الصفة، ونحو ذلك من مكارم الأخلاق.

ج- مبشرات في الكتب السابقة:

ففي الكتب السابقة المذكور في صفاته أنه: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة؛ فلذلك قال أبو هريرة رضي الله
عنه: "إذا أتت صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتت هدية أرسل إليهم، وأصاب منها، وأشركهم
فيه".

قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْكَبَائِرَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي
كَانَتْ عَلَيْهِمْ} فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون {
[الأعراف: 157].

د- آيات أجزأها الله تعالى على يديه:

فهذا القدر فيه لبن لا يكفي شخصاً، يكثره الله على يديه حتى يشرب الجميع، ويشرب أبو هريرة رضي الله عنه
حتى لا يجد له مسلماً، فما يملك نفسه، وهو يرى هذه الدلائل حتى يقسم بالله، وشهد للنبي صلى الله
عليه وسلم بالرسالة، وشهد لدينه بأنه حق وصدق.

فهذه الأدلة كلها تدل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي تدل على وجود الله تعالى الذي
أرسله وأيده.

- المثال الثاني على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه مؤيد من ربه جل وعلا:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "أصاب الناس سنة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم
فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يحطب على المنبر يوم الجمعة فقام أعرابي، فقال: يا رسول الله هللك المال
وجاع العيال فارع الله لنا فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وما نرى في السماء قرعة والذئبي نفسي
بيده ما وضعها حتى ناز سحاب أمثال الجبال ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته
فطيرنا يوم ذلك ومن الغد والذئبي يليه حتى الجمعة الأخرى فقام ذلك الأعرابي أو قال غيره فقال يا
رسول الله تهديم البناء وغرق المال فارع الله لنا فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فقال اللهم هوالينا

ولا علينا فما يُشيرُ بيده إلى ناهيةٍ من السَّحابِ إلاَّ انقَرَبَتْ حتَّى صارتِ المدينةُ مثلَ الجُبوتِ وسالَ الواديُّ ولم يَجِ أَحَدٌ من ناهيةٍ إلاَّ أُخبرَ بالجودِ".¹

فإجابة دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم دليل على صدقه، وهو يجبر بأن الله عز وجل أرسله، فهو دليل عظيم على وجود الله تعالى.

يقول ابن تيمية رحمه الله: "وهذه طريقة السلف من أئمة المسلمين في الاستدلال على معرفة الصانع، ومدوث العالم؛ لأنه إذا ثبت نبوته بقيام المعجز؛ وجب تصديقه على ما أنبأهم عنه من الغيوب، ودعاهم إليه من أمر وهداية الله تعالى وصفاته وكلامه...".²

8/ الدليل الثامن على وجود الله: مكارم الأخلاق³

المراد بدليل مكارم الأخلاق:

يراد به: الاستدلال بانتظام حياة الناس بالأخلاق الاجتماعية على وجود الخالق الذي يثبت عليها، ويعاقب من أساء فيها.

"إنَّ القيمَ كالصدق والأمانة والوفاء وغيرها، هي قيمٌ ضرورية لوجود المجتمعات البشرية، ولا يستقيم بدونها مجتمع؛ ولذلك قال بعضهم: إنها ملاط المجتمع الذي يحسك أفراد، كما يحسك الملاط اللبنة التي يتكوّن منها البناء، فغيرها لا يكون هناك علم حتى بأموال الدنيا، ولا وجه اقتصاد، ولا تكونت علاقات اجتماعية".⁴

كيفية الاستدلال بمكارم الأخلاق

يمكن الاستدلال بدليل مكارم الأخلاق على وجود الله تعالى في الخطوات التالية:

1- مكارم الأخلاق من الخير الواجب التماسه؛ الدليل: الفطرة.

2- صاعب مكارم الأخلاق من الواجب توابه، وسيء الأخلاق من الواجب عقابه؛ الدليل: ضرورة عقلية.

¹ أخرجه النسائي (7528) واللفظ له، وأخرجه البخاري (933)، ومسلم (897) باختلاف يسير.

² در، تعارض العقل والنقل لابن تيمية (352/8).

³ دلائل الربوبية د. أبو زيد بن محمد مكّي.

⁴ بصرف: الفيض، ووجود الخالق، أ.د. جعفر شيخ إدريس (ص: 57).

3- أحيانا نجد صاحب مكارم الأخلاق يحسر ويهان، وصاحب الأخلاق السيئة يكرم ويكسب؛ وهذا مخالف للعقلانية.

النتيجة: إما ترك مكارم الأخلاق، فيخالف الفطرة، وإما التمسك بالأخلاق؛ فيخالف العقلانية، وكلاهما مذموم.

الصواب: لا بد من دار أخرى فيها الثواب والعقاب، وهذا يتطلب وجود إله سميع عليم.

"فإذا لم يكن هنالك من خالف يرى ويسمع ما يفعل البشر، وإذا لم تكن هنالك من دار أخرى يتيب الله فيها المحسن على إحسانه، ويعاقب المسيء على إساءته، وكان الكسب المادي في هذه الحياة الدنيوية هو وعدة الكسب المعبر؛ لكان الصادقون الأماناء الوفون بعبودهم هم المغفلين الذين لا عقل لهم، وكان الكذابون الخونة هم العقلاء.

لكن العقل يقول: إن الأمر لا يمكن أن يكون كذلك، لا يمكن أن يكون العقلاء هم الذين يقوضون المجتمع، والمغفلون هم الذين يقونه متماسكا؛ لو كان الأمر كذلك لكانت اللاعقلانية أصلا أصيلا في بنية هذه الحياة الدنيوية، ولكانت هذه الحياة - لذلك - كلها عبثا، لكن ما من عقل يمكن أن يقبل نتيجة كهذه؛ لأن فيها - من بين ما فيها - تفويضا لهم مبدأ تقوم عليه علومنا الكونية كلها، إن هذه العلوم كلها تقوم على افتراض المبدأ المسمى بتناسق الطبيعية، المبدأ الذي يقول: إن قوانين الطبيعة لا تتخلف، وإنه لذلك يمكن أن تدرس دراسة علمية بل رياضية؛ فكيف يكون هذا الكون في جانبه المادي عقلانيا، وفي جانبه البشري متناقضا مع المبادئ العقلية؟!".⁷

"وهناك تناقض آخر يؤدي إليه الإلحاد بالنسبة للقيم الخلقية؛ إن الناس مططورون على أن هذه القيم قيم يحسن بهم أن يلتزموا بها، فهي جزء من تكوينهم العقلي، وهم يشعرون لذلك - وما داموا محفظين بفطرتهم - بالسعادة حين يصدقون الحديث، ويؤدون الأمانة، ويوفون بالعهد، ويشعرون بالشقاء حين يكذبون أو يخونون وينكثون.

فاللحد الذي يريد أن يتصرف وفق ما يقتضيه إلحاده؛ يمر بحالات يشعر فيها بالتناقض بين وازع الداخلي، وتفكيره العقلاني؛ فبينما يقول له الوازع الداخلي: "أصدقُ فهذا أريح لنفسك وأسعد لقلبك"، يقول له فكره: "لكنك تعتقد أنه ليس وراء هذه الحياة من حياة، والصدق في هذه الحال يفوت عليك لذة عاجلة، فقيم التضحية بها وأنت لا تنتظر أخرى بعدها آجلة".

يقول بعض من يسمع مثل هذه الحجج؛ لكن الواقع أنه ما كل الملحمين كذابون، ولا كل المؤمنين صادقون؛ فقد يصدق الملحد وقد يكذب المؤمن، وأقول: أجل إن هذا ليحدث؛ لكن الملحد حين

يصدق يتناقض مع مقتضيات مبدئه؛ أي: إنه لا يصدق صدقا يفوت عليه مصلحة إلا حين يتخلى - مؤقتا - عن مبدئه أو عن عقله.

أما المؤمن فالأمر بالنسبة له عكس ذلك تماما، فهو حين يكذب يكون قد سلك سلوكا يتناقض مع مبدئه ومع عقله، وحين يصدق يكون موافقا لهما ولفطرته.

وعليه؛ فإنه كلما كثر عدد الملحدين، واشتد اقترابهم من مقتضيات مذهبهم؛ فإن الكذب عندهم سيزداد لا محالة، وكلما كثر عدد المؤمنين واشتد استمسكهم بدينهم؛ ازداد عدد الصادقين منهم لا محالة".¹

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: "كيف نوفق بين هذه الوازع الداخلي الذي يدعونا إلى مكارم الأخلاق، والعقل الذي إلى تحصيل ما ينفعنا ودرء ما يضرنا؟ إنه لا حل عند الملحد؛ إن الحارث يوجب عليه إما أن يكون داعيا إلى نبذ الأخلاق، أو يكون داعيا إلى نبذ العقل؛ وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

كيف يحمل الدين هذا الإشكال؟ يقول الدين الحق: نعم إن الأخلاق من باب الخير الذي فطر الله عليه عباده، ولكن هذه الأخلاق نفسها تقتضي أن يثاب المحسن على إحسانه، ويعاقب المسيء على إساءته، ولكن هذا لا يتأتى في دار الدنيا هذه كما هو مشاهد، ولا يمكن إذن أن يتأتى إلا في حياة أخرى بعد هذه الحياة، ولا يتأتى في تلك الحياة الثانية إلا إذا كان هنالك إله عليم عادل حكيم، يعلم ما يعمل الناس الآن؛ ليجازيه عليه غدا".²

"إن إعظام الخلق وما فيه من تناسق وعناية - من بينها وجود قيم خلقية لا تصلح مجتمعات الناس إلا بها - يتنافى مع وجود دار آخرة.

ولكن إذا كانت هنالك دار آخرة ولم يكن هنالك إله شهيد على الناس في هذه الحياة الدنيا، كي يجازيهم عليها في تلك الدار؛ لم يكن لها من فائدة، بل صار الأمر فيها كالأمر في هذه الحياة الدنيا".³

توحيد الربوبية

تعريف توحيد الربوبية، وأدلتها:

تعريف توحيد الربوبية:

1 الفيزياء ووجود الخالق. أ.د. جعفر شيخ إدريس (ص59-60).

2 الفيزياء ووجود الخالق، أ.د. جعفر شيخ إدريس (ص60-61).

3 المصدر السابق ص64.

هو إفراد الله برؤيته للمخلوقات، فلا رب لها سواه، أي: نعتقد أن الله هو المنفرد بالخلق والمالك والأمر (التدبير)، ويدخل في الأمر: الأمر الكوني، والأمر الشرعي.

إذن؛ معنى (الرب): يدور حول صفات ثلاث، لا يُفني واحدٌ منها عن الآخر، وهي صفة: الخالق، والمالك، والمدير، فهو الخالق؛ الذي أوجد الأشياء من عدم، قال الله تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [البقرة: 117]، وقال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [فاطر: 1].

وهو المالك؛ الذي خلق الخلق وانفرد بملكه له كما انفرد بخلق له، وتأمل قول الله تعالى في سورة الفاتحة: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، وفي قراءة أخرى سبعية: {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: 4]، وهي قراءة سبعية متواترة، وإذا جمعت بين القراءتين ظهر معنى بدیع، فالملك أبلغ من المالك في السلطة والسيطرة، لكن الملك أحياناً يكون ملكاً بالاسم لا بالتصرف، وعيشة يكون ملكاً غير مالك، فإذا اجتمع أن الله تعالى: ملك ومالك تم بذلك الأمر: الملك، والتدبير.

- يقول ابن تيمية: "إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: {إِنَّ رَبَّهُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسْحَرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} 2".

- ويقول السعدي: "هُوَ سُبْحَانَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِكُهُ، لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَكُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ مِنْ حَرَكَةٍ وَسَكُونٍ فَبِقَضَائِهِ وَقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَخَلْقِهِ" 3.

- ولهذا نقول: إن الله عز وجل منفرد بالملك، كما انفرد بالخلق، كذلك أيضاً منفرد بالتدبير، فهو المدير لجميع الأمور وهذا بإقرار المشركين أنفسهم، فإنهم إذا سُئِلُوا من يدبر الأمور؟ فسيقولون: الله؛ فهو المنفرد بالتدبير: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} [السجدة: 5].

فإذا أقروا بالربوبية نتقل معهم لإثبات المعرفة بالألوهية والأسماء والصفات المحسنة كما سبق في دعوة المشركين، فيكون الانتقال بهم من الإلحاد إلى الربوبية ثم إلى الألوهية مع تعليمهم ذلك وترسيخه في نفوسهم ليستقيم حالهم.

1 الأعراف: 54.

2 مجموع الفتاوى لابن تيمية (251/11).

3 تيسر الكريم الرحمن، للسعدي (ص954).

وتوحيد الربوبية يقوم على أصلين عظيمين:

1- عموم خلقه وربوبيته.

2- عموم إحسانه وحكمته.

قال تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} [السجدة:7]، وقال تعالى: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه:50].

فنعتقد: "أن الله رب العالمين، وأنه رب السموات والأرضين وما بينهما، ورب العرش العظيم، وهو خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل، وهو رب كل شيء ومليكه، وهو مالك الملك؛ يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويضع من يشاء، ويذكر من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، له ما في السموات، وما في الأرض، وما بينهما، وما تحت الثرى، قلوب العباد ونواصيهم بيده وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابعه، إن شاء أن يقيم أقالمه، وإن شاء أن يزيغه أراغمه، وهو الذي أضحك وأبكى، وأغنى وأفقى، وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته، وينزل من السماء ماء؛ فيحيي به الأرض بعد موتها، ويبت فيها من كل دابة، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا به، ولا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه.

ونعتقد كذلك: أنه قد أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وأحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل شيء صنعه، والخير كله بيده، وهو أرحم الراحمين، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، إلى نحو هذه المعاني التي تقتضي شمول حكمته وإتقانه، وإحسانه خلق كل شيء، وسعة رحمته وعظمتها، وأنها سبقت غضبه، كل هذا حقاً." 1.

وربوبية الله تعالى لخلق نوعان:

ربوبية عامة، وربوبية خاصة:

- يقول السعدي: "فالعامة: لجميع المخلوقات، وهي خلقهم وملئهم وتديرهم...

والخاصة: يضاف للربوبية العامة: التوفيق للخير والإعانة عليه، وهذه للمؤمنين خاصة." 2.

ولتوحيد الربوبية أدلة، منها:

1 مجموع الفتاوى لابن تيمية (400/2).

2 انظر: تفسير السعدي (945).

1- قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسْتَخِرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف:54].

2- وقال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْعَمَلَاتِ رُسُلًا أُولَىٰ أَهْنَحَةٍ مَّتَنِيَّ وَكَلَاتٍ ذُرْبَعًا يُزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} [فاطر:1-3].

3- وقال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعِنْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۗ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ} [يونس:3-6].

4- وقال تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ النَّحْيَ مِنَ النَّمِيَّتِ وَيُخْرِجُ النَّحْيَ مِنَ النَّحْيِ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [يونس:31-32].

دليل التماثل من أدلة توحيد الربوبية:

قال الله تعالى في محكم التنزيل: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [المؤمنون:91-92].

لا ريب أن الإله الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعلاً، يوصل إلى عابديه النفع ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه في ملكه، لكان له خلق وفعل، وهينئذ فلا يرضى تلك الشراكة، بل إن قدر على قهر ذلك الشريك وقهره بالملك والإلهية دونة فعل، وإن لم يقدر على ذلك انقرد بخلقهم وذهب بذلك الخلق، كما ينقرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكهم، إذا لم يقدر المنقرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه.

إِذَنْ؛ لَا بَدَّ مِنْ عِدْوَتِ أَحَدٍ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ:

1- إِمَّا أَنْ يَذْهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَخْلَقِهِ وَسُلْطَانِهِ.

2- وَإِمَّا أَنْ يَعْلَوْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ.

3- وَإِمَّا أَنْ يَكُونُوا تَحْتَ قَهْرٍ مَلَكَ وَاحِدٍ يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ كَيْفَ يَشَاءُ، وَلَا يَتَصَرَّفُونَ فِيهِ، بَلْ يَكُونُ وَعْدَهُ هُوَ الْإِلَهُ، وَهُمْ الْعَبِيدُ الْمَرْبُوبُونَ الْمَقْهُورُونَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ.

وَلِذَلِكَ فَإِنَّ انْطِقَامَ أَمْرِ الْعَالَمِ كُلِّهِ وَإِعْظَامَ أَمْرِهِ، مِنْ أَدَلِّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ مُدَبِّرَهُ إِلَهُ وَاحِدٌ، وَمَلِكُهُ وَاحِدٌ، وَرَبُّ وَاحِدٌ، لَا إِلَهَ لِلْمَخْلُوقِ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ لَهُمْ سِوَاهُ.

فَالْعَالِمُ بِأَنَّ وُجُودَ الْعَالَمِ عَنْ صَانِعِينَ مُتَمَاتِلِينَ مُتَمَتِّعٍ لِنَاتِهِ، مُسْتَقَرٌّ فِي الْفِطْرِ مَعْلُومٌ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ بِطَلَانِهِ، فَكَيْفَ تَبْطُلُ إِلَهِيَّةُ اثْنَيْنِ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مُوَافِقَةٌ لِمَا ثَبَتَ وَاسْتَقَرَّ فِي الْفِطْرِ مِنْ تَوْحِيدِ الرَّبُّوبِيَّةِ، دَالَّةٌ مُثَبِّتَةٌ مُسْتَلْزِمَةٌ لِتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ.

بيان البراهين والأدلة العقلية على وجود الله تعالى

إذا كان الماديون والطبيعيون والدهريون يظاهرون بإنكار وجود الله تعالى؛ فإنه لا بد من دعوتهم بتقديم البراهين، والأدلة العقلية القطعية، وذلك من خلال النقاط التالية:

أولاً: التقسيم العقلي الحكيم:

يستدل على كل من أنكر وجود الله تعالى وربوبيته بأمر لا يمكنهم إلا التسليم للحق والافتقار له، أو الخروج عن موجب العقل إلى الجنون والفطر المنحرفة، فيقال لكل من أنكر ذلك:

الأمر الممكن تقسيمها في العقل ثلاثة لا رابع لها:

القسم الأول: إما أن تُوْجِدَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ بِنَفْسِهَا صُدْفَةً مِنْ غَيْرِ مُحَدِّثٍ، وَلَا خَالَقَ خَلَقَهَا، وَهَذَا مُحَالٌ مُمْتَنِعٌ، تَجْزِمُ الْعُقُولُ بِطَلَانِهِ ضَرُورَةً، وَيُعْلَمُ يَقِينًا أَنَّ مِنْ ظَنِّ ذَلِكَ، لِهَوِّ إِلَى الْجَنُونِ أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَى الْعَقْلِ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَعْقِلْ يَعْرِفْ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُوْجِدَ شَيْءٌ مِنْ غَيْرِ مُوْجِدٍ وَلَا مُحَدِّثٍ، إِذْ لَا بَدَّ لِكُلِّ عَادَةٍ مِنْ مُحَدِّثٍ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى إِنْكَارِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ وُجُودَ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ مُوْجِدٍ مُحَالٌ وَيَاطُلُ بِالشَّاهِدَةِ وَالْحَسِّ وَالْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ.

القسم الثاني: وإما أن تكون هذه المخلوقات الباهرة هي المحدثة الخالقة لنفسها، فهذا أيضاً محالٌ ممتنع بضرورة العقل، وكل عاقل يجزم أن الشيء لا يحدثُ نفسه ولا يخلقُه؛ لأنه قبل وجوده معدوم، فكيف يكون خالقاً؟!

- فإذا بطلَ هذان الاحتمالان عقلاً وفطرةً، وبان استحالتهم، تعين القسم الثالث:

القسم الثالث: وهو أن هذه المخلوقات بأجمعها: علوها وسفليتها، وهذه الحوادث لا بد لها من مُحدث ينتهي إليه الخلق والملك والتدبير، وهو الله العظيم الخالق لكل شيء، المتصرف في كل شيء، المدير للأمر كلها، ولهذا ذكر الله تعالى هذا الدليل العقلي والبرهان القطعي، فقال: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} [الطور: 35].

فالمخلوق لا بدُّ له من خالق، والمصنوع لا بدُّ له من صانع، والمفعول لا بدُّ له من فاعل، وهذه قضايا بديهية جلية واضحة، يشترك في العلم بها جميع العقلاء، وهي أعظم القضايا العقلية، فمن ارتاب فيها أو شك في دلائلها؛ فقد برهن على ضلاله، واختلال عقله. 2.

ثانياً: العدم لا يخلق شيئاً:

فالعدم الذي لا وجود له لا يستطيع أن يصنع شيئاً؛ لأنه غير موجود.

وإذا تأملَ العاقل في المخلوقات التي تولد في كل يوم، من إنسان وحيوان، وتقلَّعَ في كل ما يحدث في الوجود من رياح وأمطار وليل ونهار، وما يجري في كل حين من حركات منتظمة للشمس والقمر والنجوم والكواكب، إذا تأملَ في هذا وذلك من التغيرات المحمَّمة التي تجري في الوجود في كل لحظة، فإنَّ العقل يجزمُ بأنَّ هذا كله ليس من صنع العدم، وإلا هو من صنع الخالق الموجود سبحانه وتعالى. 3.

ثالثاً: الطبيعة الصماء لا تملك قدرة، وفاقد الشيء لا يعطيه:

من العلوم عند جميع العقلاء أن الذي لا يملك مالاً لا يسأل الناسُ منه المال، والجاهلُ لا يأتي منه العلم؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

1 انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل 1/66، ودرء المعارض بين العقل والنقل 3/113، والرياض الناضرة للسعدي، ص ٤٤٧، وأضواء البيان للشقيطي، 4/368، وشرح أصول الإجماع لابن عثيمين، ص ١٥.

2 انظر: الرياض الناضرة للسعدي، ص ٤٤٧، ومنهاج الجدل في القرآن الكريم، د. زاهر الألعبي، ص ١٣٨.

3 انظر: حاشية ثلاثة الأصول ل محمد بن عبد الوهاب، بقلم عبدالرحمن بن قاسم، ص ٢٩، والإجماع للزنداني مع مجموعة من العلماء، ص ٢١، وكتاب التوحيد للزنداني ١/٢١.

فمن زعم أن الطبيعة خلقت أو خلقت شيئاً، فقد خالف العقل، ومارب الحق؛ لأن الكون يشهد أن خالقه حكيم عليم غير هاد رزاق، حافظ رحيم، واعد أمد، والطبيعة الجامدة لا تملك مثقال ذرة من ذلك.

ومن العجيب أن كل من زعم أن الطبيعة تخلقت شيئاً، فقد خالف مقتضى العقول؛ لأن الطبيعة لا تملك خبرة، ولهم خبرة، ولا تملك إرادة، ولهم إرادة، ولا تملك علماً، ولهم علم! أما علموا أن فاعد الشيء لا يُعطيه؟ قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ * وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ * ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} [الحج: 73].

فلا بد أن يكون الخالق كاملاً كمالاً مطلقاً، بحيث يكون: مستغنياً عن غيره، ويكون أولاً ليس له بداية، وآخرًا ليس له نهاية، لا يحده زمان، ولا يحده مكان، قادرًا على كل شيء، عالماً بكل شيء، ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

وهذه الخصائص لا يمكن أن تكون إلا لله الكامل من كل الوجوه، وبذلك يسقط - بحمد الله تعالى قول الماديين؛ لأن المادة لا تصف بشيء من ذلك.¹

رابعاً: الصدفة العمياء لا تملك حياة:

ومن أشهر مفسطاتهم القول بـ"صدفة ظهور الكون"، وهذا لعدم فهمهم أو لتجاهلهم أصول الاحتمالات؛ لأن الصدفة لها شرطان لا ينفكان عنها، وهما: الزمان والمكان.

فالصدفة تشترط زمان تقوم فيه بإحداث أثرها.

وتشترط وجود مادي مكاني تقوم فيه بإنتاج مفعولها.

فكيف نقول بدور الصدفة في إيجاد الكون، مع أن كوننا جاء من اللازمان والامكان، وبالتالي من اللاصدفة!

يعتقد الملحدون بالصدفة²، وهي أن جميع الأشياء والمخلوقات تم تكوينها على ما هي عليه بطريقة الصدفة، والمقابلة، وليس ذلك بطريقة القصد والإرادة والتدبير.

ومن حكمته القول مع هؤلاء أن يقال لهم: من أين حصل لهذا العالم هذا النظام العجيب، والترتيب الحكيم الذي حارت فيه العقول؟ كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والصادفة ومجرد البخت؟ وكيف اجتمعت تلك الأجزاء

¹ انظر: موقف الإسلام من نظرية ماركس للعوايشة، ص ١٥٥.

² الصدفة في اللغة: يقال: صادفته لقيه ووجده من غير موعد ولا توقع. انظر: المعجم الوسيط، ١/٥١.

على اختلاف أشكالها، وتباين مواردها وقواعدها، وكيف حفظت وبقيت على آلفها، وكيف تجددت المرة بعد المرة؟!

وهذا فيه دلالة عقلية قاطعة على أن الله هو الخالق لكل شيء، وأن الصدفة لا وجود لها ولا تصرف في مخلوقات الله تعالى. 1

فتحي يلجئهم أهدتهم، عليك أن تتخيل الآتي:

أ- اللاشيء، انضاف إلى اللاشيء، فصار شيئاً عظيماً... صار كوناً مدهشاً من أروع ما يكون ويمتص العليرة الدقيقة والحدود المرجمة.

ب- الصدفة أنتجت الحدود المرجمة والتوابت الفيزيائية التي جاء بها الكون؛ في حين أن شرطي الصدفة هما المكان والزمان، والكون جاء من الامكان والازمان وبالتالي من اللاصدفة!

ج- العشوائية وبيئة الأرض الأولى أنتجت الحياة وأنشأت البكتريا والإنسان، في حين أن العقل البشري في قمه جبروته الآن لا يستطيع أن ينتج أبسط صور الحياة.

د- كل القيم الأخلاقية التي نسام بصحتها والتي يسير أغلبها في اتجاه مضاد للمادة تماماً - فالأخلاق الأصلية تمثل عبئاً مادياً وفسارة على مستوى الصلحة الدنيوية - هي من معطيات المادة ومنتجاتها.

هذه المحالات العقلية عليك أن تؤمن بها حتى تبدأ في الإلحاد.

هـ- لا يوجد مستند عقلي ولا مادي في الإلحاد يمنع من إبادة أهل الأرض جميعاً.

فالعالم المادي لا يعرف الخطأ ولا الصواب؟

إذن تستوي إبادة أهل الأرض جميعاً بإهانتهم إلحادياً.

فالإلحاد مبناه على الإيمان أيضاً، لكن إيمان بلا أئمة من علم أو نقل أو عقل أو خلق.

خامساً: المناظرات العقلية الحكيمية:

من الحكمة في دعوة الملحدين والطبيعيين الماديين أن يناظروا بالمناظرات العقلية الحكيمية التي توضح لهم الحق، وتجعلهم يسلمون ويقرون بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

1 انظر: شرح العقيدة الطحاوية 1 / 35، درء التعارض بين العقل والنقل، 3/129، والإسلام يتحدى، لوحي الدين خان ص 65، وعقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري، ص 34، ومنهاج الجد في القرآن الكريم د. زاهر بن عوض الألوحي، ص 142.

ومن المناظرات التي أقيم بها المسلمون اللحدين ما ذكّر عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى: "أن قوماً من أهل الكلام أرادوا البحث معي في تقرير توحيد الربوبية، فقال لهم: أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة عن سفينة في دجلة، تذهب، فتتلى من الطعام والمتاع وغيره بنفسها، وتعود بنفسها، فترسي بنفسها، وتتفرغ وترجع، كل ذلك من غير أن يديرها أحد؟! فقالوا: هذا محال لا يمكن أبداً! فقال لهم: إذا كان هذا محالاً في سفينة، فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله!! وتحكى هذه الحكاية عن غير أبي حنيفة أيضاً".¹

سارداً: مبدأ السببية:

إن الواقع والعقول السليمة تشهد أن الإنسان منذ فتح عينيه لم يشاهد أن حادثاً حدث من غير سبب، أو أن شيئاً وُجد من غير موجد، حتى أصبح هذا المعنى بحكم الواقع لا يتصور العقل خلافه، ولا يأبى الإقرار به إلا عقل مفقود أو مريض كشأن المعتوهين، أو عقل قاصر كشأن الطفل الذي يكسر الإناء، ثم يقول: إنه انكسر بنفسه.²

ويذكر عن أبي حنيفة رحمه الله وكان معروفاً بالذكاء أنه جاءه قوم دهريون يقولون له: أثبت لنا وجود الله فقال: دعوني أفكر، ثم قال لهم: إني أفكر في سفينة أرسيت في ميناء دجلة وعليها حمل فتزل الحمل بدون عمال، وانصرفت السفينة بدون قائد، فقالوا: كيف تقول مثل ذلك الكلام فإن ذلك لا يعقل ولا يمكن أن تصدقه؟ فقال: إذا كنتم لا تصدقون بها فكيف تصدقون بهذه الشمس، والقمر، والنجوم، والسماء، والأرض، كيف يمكن أن تصدقوا أنها وجدت بدون موجد؟!.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا الدليل العقلي بقوله: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} [الطور: 35].

ولذلك أدرك الأعرابي هذه السببية عندما سُئِلَ: ما الدليل على وجود الرب؟ فقال: "سبحان الله إن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ليل ذات نجوم، ونهار ذات سراج، ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير".³

فكل مخلوق لا بد له من خالق، وكل أثر لا بد له من مؤثر، وكل محدث لا بد له من محدث، وهذا هو قياس الشمول.

أما قياس التمثيل فلقول: هذا محدث فيحتاج إلى محدث.⁴

¹ وانظر: درء المعارض بين العقل والنقل، ٣/ ١٢٧، والرياض الناضرة للسعدي، ص ٢٥٨، وعقيدة المسلمين للبليهي، ١/ ١٢٣، ومنهاج الجرد، ص ٣٩٠.

² انظر: موقف الإسلام من نظرية ماركس ص ٢٨٤ - ٢٨٨.

³ انظر: الرياض الناضرة ص ٢٥٨، ومنهاج الجرد في القرآن ص ١٣٩، وهي من خطبة لقسن بن ساعدة، انظر البيان والتبيين للجامع ١/ ٢٥٤ وينحوه عن الأصمعي يرويه عن بعض الأعراب. المجالس الوعظية ١/ ٤٦١.

⁴ انظر درء المعارض بين العقل والنقل ٣/ ٧٣، ١٢١ - ١٢٧.

وبناء على هذه القاعدة فعالنا هذا، من أرض وسموات، وإنسان وحيوان، وليل ونهار، وشمس وقمر، لا بد له من مُحدث، ثم إن هذا العالم لا يبقى إلا بسبب يحفظه ويبقيه، كما أنه لم يحدث إلا بسبب أحدثه، وهذا لا يقدر عليه إلا الله الواحد القهار.¹

سابعاً: التفكير في المصنوع يدل على بعض صفات الصانع:

فالتفكير في المصنوع يدل على بعض صفات الصانع؛ لأن كل شيء يُوجد في المصنوع يدل على قدرة أو علم أو خبرة، أو حكمة عند الصانع.

وإذا علم هذا فإنه يقال لمن أنكرو وجود الله تعالى وربوبيته: تفكر في خلقك ونفسك، وانظر مبدأ خلقك من نطفة، ثم علقه، ثم مُصنفة، ثم عظاماً، فُلُصِيَتِ العظام لحمًا، حتى صرت بشراً كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، أما يضطرك هذا التفكير والنظر إلى الاعتراف بالرب القادر على كل شيء، وأعطاه علمه بكل شيء، الحكيم في كل ما خلقه وصنعه وأتقنه؟ فلو اجتمع الخلق كلهم على النطفة التي جعلها الله مبدأ خلق الإنسان على أن ينقلوها في تلك الأطوار المتنوعة، أو يحفظوها في ذلك القرار المكين، ويجعلوها سمعاً وصرماً وعقلاً وقوى باطنة وظاهرة، ويثورها هذه النشئة العجيبة، ويركبوها هذا التركيب المنظم، ويرتبوا الأعضاء لهذا الترتيب المحكم، فهل في استطاعتهم وعلومهم أن يصلوا إلى ذلك؟² قال تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَلَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ * فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: 12 - 14].

بيان الأدلة الحسية المشاهدة على وجود الله تعالى

لا ريب أن الأدلة الحسية المشاهدة تدل على وجود الله تعالى وتدرك على ربوبيته، وعلى أنه الخالق لكل شيء، المستحق للعبادة، وهذه الأدلة التي يسمعها الناس ويشاهدونها ويلمسونها، على نوعين:

النوع الأول: إجابة الله تعالى للدعوات في جميع الأوقات، فلا يُحْصِي الخلق ما يُعْطِيه الله للسائلين، وما يُجِيب به أدعية الداعين ويرفع به كرب المكروبين، فتحصل المطالب الكثيرة بأسباب دعاء بعض العباد لربهم، والطمع في فضله والرجاء لرحمته، وهذا برهان مُشاهد محسوس، لا ينكره إلا مكابراً.³

والحقيقة أن ذلك كله شاهد يتحدث إلى العقول البشرية أن لها رباً حكيمًا قادرًا سميعًا بصيرًا مجيبًا.¹

¹ انظر: درء التعارض بين العقل والنقل 3/191.

² انظر: درء التعارض 7/305، 306، 8/73-70، 3/333، 1/509، والرياض الناضرة، ص 48-50، والإيمان لعبد المجيد الزنداني مع مجموعة من العلماء، ص 22، وعقيدة المسلمين، 1/9.

³ انظر: الرياض الناضرة، ص 53، وشرح أصول الإيمان للشيخ محمد بن صالح العثيمين، ص 17.

إذن الدليل المسيحي: هو ما نشاهده من إجابة الدعاء.

وما أكثر ما نقرأ في كتاب الله تعالى أنه استجاب لأنبيائه عليهم السلام، قال الله تعالى: {وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ} [الأنبياء: 76]، وقال تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مِّمَّهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَىٰ لِلْعَابِدِينَ} [الأنبياء: 84]، والآيات في هذا كثيرة والواقع يشهد بهذا.

النوع الثاني: معجزات الأنبياء المسية وهي آيات يُشاهدها الناس أو يسمعون بها، وهي من أعظم البراهين القاطعة على وجود مرسلهم؛ لأنها أمور خارجة عن نطاق البشر، يجريها الله تعالى تأييداً لرسله، ونصراً لهم، وهذه الآيات المحسوسة تدل دلالة قاطعة على وجود الله تعالى. 2.

ولقد ذكرنا بعض هذه المعجزات التي أيد الله بها رسله عليهم السلام سابقاً في مبحث: دلائل النبوة.

بيان الأدلة الشرعية على وجود الله تعالى

وأما الأدلة الشرعية إذا تأملها الإنسان، علم أن الذي أنزله وشرعه هو الرب عز وجل، قال الله تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: 82]، فاختلاف القرآن وعدم تناقضه وتهديف بعضه بعضاً، كل ذلك يدل على أن القرآن نزل من عند الله عز وجل، وكون هذا الدين، بل كون جميع الشرائع التي أنزلها الله عز وجل موافقة تماماً لمصالح العباد، دليل على أنها من عند الله عز وجل، وتشهد بوجوده وهمايته وعلمه.

قطعاً؛ "إنَّ طريقَ الهداية الكاملة، هو ما جاء عن الله تعالى أو عن رسله عليهم السلام، والتي تجمع بين الأدلة العقلية والعقلية، وهي من أعظم الأدلة التي تهدي لمعرفة الله تعالى والإيمان به عز وجل، وتبعث المهتدي بها إلى العمل الزكي للنفس، والمهيئ له إلى سعادة الدارين، بخلاف الهداية العقلية وعددها، فإنها وإن أنقذت صاحبها من القلق النفسي والحيرة الفكرية لا تزكي نفساً، ولا تقوِّم أخلاقه، ولا تهيبه لسعادة الدارين، ولا تحرجه من دائرة الكفر حتى يؤمن بالأدلة الشرعية ويعمل بمقتضاها". 3.

1 انظر: كتاب التوحيد لعبد المجيد الزنداني، 1/43.

2 انظر: شرح أصول الإيمان للشيخ محمد بن صالح العثيمين، ص 18.

3 انظر: عقيدة المؤمن، لأبي بكر جابر الجزائري، ص 39، 49، 63.

"والكتب السماوية كلها تنطق بأن الله هو الخالق لكل شيء، المستحق للعبادة، وما جاءت به من الأحكام المضمنة لصالح العباد، دليل على أنها من رب حكيم عليم بمصالح خلقه، وما جاءت به من الأخبار الكونية التي شهد الواقع بصدقها، دليل على أنها من رب قادر على إيجاد ما أخبر به".¹

ودلالة القرآن الكريم نوعان:

1- خبر الله الصادق:

فما أخبر الله تعالى به، أو أخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم، فهو حق وصدق، ولا يمكن أن يكون في ذلك شيء، مناقض لدليل عقلي ولا سمعي؛ لأن ما أثبتته السمع الصحيح لم ينفسه العقل الصريح، والمعقول الصريح يوافق ما جاءت به الرسل ولا يناقضه، وكل ما عارض الشرع من العقلية فليس دليلاً صحيحاً.²

2- ضرب الأمثال:

إن ضرب الأمثال يُعدُّ دلالة شرعية عقلية، فهي شرعية؛ لأن الشرع دل عليها وأرشد إليها وأثبتها، وعقلية؛ لأنها تُعلمُ صحتها بالعقل.³

ويمكن أن تقتصر في الأدلة الشرعية التي تثبت وجود الله تعالى وأنه رب كل شيء، ومليكه ومدبره، ويستلزم ذلك أنه المستحق للعبادة وعدمه على ذكر طريقتين:⁴

الطريق الأولى: توجيه الله تعالى الأنظار والقلوب إلى ما في هذا الكون من مخلوقات عجيبه تبهر العقول، كقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [البقرة: 21 - 22] . وقوله: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْقُلُوبِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْرَجَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسْتَعْرِبِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [البقرة: 164] .
والقرآن الكريم يزخر بالأدلة على هذا النوع.

¹ انظر: شرح أصول الإيمان لمحمد بن صالح العثيمين، ص 17.

² مجموع الفتاوى 6/71. وانظر: درء التعارض بين العقل والنقل، 1/179-180، 5/399/6، 5/399/7.

³ انظر: مجموع الفتاوى 6/71.

⁴ انظر: درء التعارض بين العقل والنقل، 8/304، 7/309، 3/9، 4/9، ومجموع الفتاوى 11/377-380، وعقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري، ص 63، والرياض

الناضرة للسعدي، ص 253-267.

الطريق الثاني: معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد أيد الله الرسل عليهم الصلاة والسلام بالمعجزات الباهرة للعقول، والحادثة لسنن الكون وقوانين الحياة؛ ليستدلوا بها على صدق نبوتهم، وإثبات رسالتهم، فإذا ثبتت نبوة الرسل بقيام المعجزات علم أن هناك مُرسلاً أرسلهم؛ لأن ثبوت الرسالة يستلزم ثبوت المرسل.¹

وخلاصة ما ذكر ابن تيمية في إثبات وجود الله تعالى كالتالي:

1 - الاستدلال بآيات الله في الكون.

2 - أدلة الفطرة، فإن الخلق مفلطرون على الإقرار بالخالق.

3 - الاستدلال على الله بالله، فإنه سبحانه وتعالى عرفنا نفسه؛ فعرفناه.

4 - الاستدلال بمعجزات الرسل.

5 - إجماع الأمم وأصحاب العقول والفطر السليمة.

6 - المقاييس العقلية.²

أولاً: لماذا لا يكون هناك أكثر من خالق أولي؟

الجواب في قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء: 22]، فوجود إله مع الله يقتضي التعدد، والتعدد يستلزم الافتقار، والافتقار على الخالق -عاشه سبحانه- يستلزم عدم أمان الكون، وأنه قد ينهار، وهذا يستلزم فساد الكون.

إذن؛ لا ضمان لبقاء الكون مع إله مفتقر!

وباستكمال الآية الكريمة: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الأنبياء: 22]، نجد أنها تنزه الباري عن الحاجة والافتقار؛ فهو الغني القيوم سبحانه.

¹ انظر: درء المعارض بين العقل والنقل ٩ / ٤٠ - ٤٣، ٧/٣٠٤، ومجموع الفتاوى ١١ / ٣٧٧.

² انظر: فتاوى شيخ الإسلام، ٣٦/٩١ - ٩٣، وسجد جميع الإجمالات إلى الموضع التي ذكرها ابن تيمية في فتاواه.

أضفت إلى ما سبق: أنه لو كان فيهما إلهين أو أكثر، فإمكان التعارض أقرب عقلاً من التوافق؛ لأن وجود أكثر من إله يعني وجود أكثر من مشيئة وأكثر من إرادة، ولا شك أن تعدد الإرادات يعني إفتقار كل أحد، وهذا يستلزم فساد السماوات والأرض.

وفطرة الإنسان تقطع بأن الله واحد، ولو نظر فيزيائي أو غير فيزيائي في هذا اللون فلن يَصَوِّرَ له إلا خالقاً واحداً؛ لأنها فطرة الله التي فطر الناس عليها.

ثانياً: سقوط فرضية تعدد الآلهة

ومما يدل على وجود إله واحد لا شريك له أنه لو فرض تعدد الآلهة؛ لترتب على ذلك ما يلي:

1- اختلال نظام الكون حيث سينفرد كل منهم بما خلقه، والكون منظم كما هو مشاهد.

2- لكان كل واحد منهم يطلب القهر والغلبة على الآخر؛ فيعلو بعضهم على بعض، قال الإمام ابن كثير في تفسيره: "قال الله تعالى: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ} [المؤمنون: 91]؛ أي لو قُدِّرَ تعدد الآلهة؛ لانفرد كل منهم بما خلقه، فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منظم متسق، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال، {مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ} 1".

وقال الإمام القرطبي عند تفسيره لقول الله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء: 22]؛ "والمعنى لو كان فيهما آلهة سوى الله؛ لفسد أهلها"، وقال غيره: "أي لو كان فيهما إلهان؛ لفسد التدبير؛ لأن أحدهما إن أراد شيئاً، والآخر ضده كان أحدهما عاجزاً"، وقيل: "إن معنى لفسدتا، أي: خربنا وهلك من فيهما بوقوع التنازع باختلاف الواقع بين الشركاء"، فسبحان الله رب العرش عما يصفون، نزهة نفس، وأمر العباد أن يتزهوه عن أن يكون له شريك أو ولد².

الركن الثاني

الإيمان بالملائكة⁽¹⁾

أولاً: معنى الإيمان بالملائكة ومقتضياته:

أي: التصديق الجازم بوجود الملائكة، وأنهم عالم غيبي غير عالم الإنس وعالم الجن، وهم كرام أتقياء، يعبدون الله حق العبادة، ويقومون بتنفيذ ما يأمرهم به، ولا يعصون الله أبداً.

ويقتضي الإيمان بالملائكة أمور:

الأول: الإيمان بصفاتهم المذكورة في القرآن والسنة:

فنؤمن بأن الملائكة خلقت من نور، قال ﷺ: ((خلقت الملائكة من نور))⁽²⁾.

وأن لهم أجنحة، فقد أخبر الله تعالى أنه جعل للملائكة أجنحة يتفاوتون في أعدادها، فقال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ زَيْدٍ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

الثاني: نؤمن بأنهم عباد لله خلقهم الله لعبادته ولا نرفعهم فوق قدرهم:

فنؤمن: بملائكة الله تعالى وأنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾^(٦٦) لَا يَسْخِفُونَهُ، بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿[الأنبياء: ٢٦ - ٢٨] فهم لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعا ولا ضرا، و﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾

ونؤمن بأن الله خلقهم فقاموا بعبادته وانقادوا لطاعته، قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾^(١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿[الأنبياء: ١٩ - ٢٠].

الثالث: الإيمان بأنهم غيب حجبهم الله عن البشر:

فنؤمن بأن الله حجبهم عنا فلا نراهم، وربما كشفهم لبعض عباده، فقد رأى النبي ﷺ جبريل على صورته له ستمائة جناح قد سد الأفق⁽³⁾، وتمثل جبريل لمريم بشراً سوياً فخاطبته وخاطبها⁽⁴⁾، وأتى إلى النبي ﷺ وعنده

(1) ينظر: الإيمان بالملائكة د. على الصلاحي، والإيمان بالملائكة د. عمر الأشقر، وكتاب محاضرات في الإيمان بالملائكة د. محمد أبو سيف.

(2) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة (2996).

(3) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم "أمين" والملائكة في السماء فوافقت أحدهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (3232, 3233).

(4) كما في قوله تعالى: {وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا} (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) { [مريم 16-17].

الصحابة بصورة رجل لا يعرف ولا يرى عليه أثر السفر، شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، فجلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبته إلى ركبتي النبي ﷺ ووضع كفيه على فخذه، وخاطب النبي ﷺ، وخاطبه النبي ﷺ وأخبر النبي ﷺ أصحابه أنه جبريل (1).

الرابع: الإيمان بأن: للملائكة أعمالاً كلفوا بها:

فمنهم: جبريل الموكل بالوحي ينزل به من عند الله على من يشاء من أنبيائه ورسوله، ومنهم ميكائيل الموكل بالمطر والنبات.

ومنهم إسرافيل: الموكل بالنفخ في الصور حين الصعق والنشور.

ومنهم ملك الموت: الموكل بقبض الأرواح عند الموت.

ومنهم ملك الجبال: الموكل بها.

ومنهم مالك: خازن النار، ومنهم ملائكة موكلون بالأجنة في الأرحام، وآخرون موكلون بحفظ بني آدم وآخرون موكلون بكتابة أعمالهم، لكل شخص ملكان.

ومنهم موكلون بسؤال الميت بعد الانتهاء من تسليمه إلى مثواه، يأتيه ملكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه.

ومنهم الملائكة الموكلون بأهل الجنة، وملائكة موكلون بأهل النار.

وقد أخبر النبي ﷺ أن البيت المعمور في السماء يدخله - وفي رواية يصلي فيه - كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم (2).

ثانياً: ثمرات الإيمان بالملائكة:

وإذا آمن العبد بالملائكة أثمر هذا ثمرات دنيوية وأخروية من أهمها:

1- العلم بعظمة خالقهم تبارك وتعالى وقوته وسلطانه.

2- شكره تعالى على عنايته بعباده، حيث وكل بهم من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم وكتابة أعمالهم

وغير ذلك من مصالحهم.

3- محبة الملائكة على ما قاموا به من عبادة الله تعالى على الوجه الأكمل واستغفارهم للمؤمنين.

4- الاستقامة على طاعة الله تعالى، فمن آمن بأن الملائكة تكتب أعماله كلها فإن هذا يوجب خوفه من

الله تعالى، فلا يعصيه في العلانية ولا في السر.

5- الصبر على طاعة الله، والشعور بالأنس والطمأنينة، عندما يوقن المؤمن أن معه في هذا الكون الفسيح

ألوفاً من الملائكة تقوم بطاعة الله على أحسن حال وأكمل شأن.

(1) كما سبق في حديث عمر رضي الله عنه.

(2) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (2307)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (رقم 164).

الركن الثالث

الإيمان بالكتب⁽¹⁾

أولاً: مفهوم الإيمان بالكتب ومقتضياته:

ونؤمن بأن: الله تعالى أنزل على رسله كتباً حجة على العالمين ومحجة للعالمين يعلمونهم بها الحكمة ويزكونهم.

الأول: أن نؤمن بما سمى الله لنا من الكتب المنزلة على الرسل:

فإن الله تعالى أنزل مع كل رسول كتاباً، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25].

ومن تلك الكتب التي سمى الله لنا:

1- التوراة: التي أنزلها الله تعالى على موسى ﷺ، وهي أعظم كتب بني إسرائيل ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابٍ﴾ [المائدة: 44].

2- الإنجيل: الذي أنزله الله تعالى على عيسى ﷺ، وهو مصدق للتوراة وتمام لها، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمٍ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: 46].

3- الزبور: الذي آتاه الله داود ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: 163].

4- صحف إبراهيم وموسى: عليهما الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: 18 - 19].

5- القرآن العظيم: الذي أنزله الله على نبيه محمد خاتم النبيين، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: 185].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48]، فسخ الله به جميع الكتب السابقة وتكفل بحفظه عن عبث العابثين وزيف المحرفين ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9] لأنه سيبقى حجة على الخلق أجمعين إلى يوم القيامة.

الثاني: الكتب السابقة مؤقتة بأمد:

(1) ينظر: الإيمان بالكتب د. عمر الأشقر، الإيمان بالقرآن والكتب السماوية د. علي الصلابي، الإيمان بالكتب د. محمد الحمد، وبحث بعنوان الإيمان بالكتب السابقة وآثاره، د. أمين الشقاوي، منشور على شبكة الألوكة.

أي أن الكتب السابقة لها وقت محدد ينتهي بنزول ما ينسخها ويبين ما حصل فيها من تحريف وتغيير، ولهذا لم تكن معصومة منه فقد وقع فيها التحريف والزيادة والنقص.

قال تعالى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: 46]، وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: 79].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبَدُّونَهَا وَنُحْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: 91].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 78، و79].

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: 15].

ولذا لا نصدق من أخبار هذه الكتب إلا ما صدقه القرآن الكريم أو السنة الصحيحة، ولا نكذب ما كذبه القرآن والسنة الصحيحة، ونسكت عن الباقي فلا نصدقه و نكذبه. ويجب على المسلم أن يحترم تلك الكتب ولا يهينها ولا يدنسها؛ لأنها قد تحتوي في طياتها على شيء من بقايا كلام الله الذي لم يحرف.

الثالث: الإيمان بالقرآن إيماناً جازماً:

فالقرآن الكريم هو كلام الله تعالى المنزل على نبينا محمد ﷺ، تميز عن الكتب بعدد من الميزات وهي:

1- أن القرآن الكريم قد تضمن خلاصة الأحكام الإلهية، وجاء مؤيداً ومصداقاً لما جاء في الكتب السابقة

من الأمر بعبادة الله وحده. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّبًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48].

2- أنه الكتاب الخاتم المنزل على النبي الخاتم، الناسخ لجميع الكتب السابقة، فيجب على جميع الناس إلى

يوم القيامة التمسك به، والعمل بمقتضاه، بخلاف الكتب السابقة فهي لأقوام معينين في زمن محدد، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لَا تَذَرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: 19].

3- حفظ الله تعالى للقرآن الكريم، فلم ولن يحرف، قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

[الحجر: 9].

الرابع: التزام المسلم بالواجب تجاه القرآن:

فالمؤمن عليه تجاه القرآن أن:

- 1- يعظم القرآن ويحبه ويحترمه إذ هو كلام الخالق جلّ وعلى.
- 2- السعي إلى التمسك بأحكامه والعمل به، والتخلق بأخلاقه.
- 3- العمل على تلاوته وتدبره والتفكير فيه.

ثانياً: ثمرات الإيمان بالكتب:

وإذا آمن العبد بالكتب أثمر هذا ثمرات دنيوية وأخروية من أهمها:

- 1- العلم بعناية الله تعالى بعباده، وكمال رحمته، حيث أرسل لكل قوم كتاباً يهديهم به، ويحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة.
- 2- العلم بحكمة الله تعالى في شرعه، حيث شرع لكل قوم ما يناسب أحوالهم ويلائم أشخاصهم، كما قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48].
- 3- شكر نعمة الله في إنزال تلك الكتب، فهذه الكتب نور وهدى في الدنيا والآخرة، ومن ثم فيتعين شكر الله على هذه النعم العظيمة.

الركن الرابع

الإيمان بالرسول⁽¹⁾

أولاً: مقدمات حول الإيمان بالرسول:

الإيمان بالرسول هو: هو التصديق الجازم بأن الله بعث في كل أمة رسولا منهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن الرسل كلهم صادقون مصدقون، أتقياء أمناء، هداة مهتدون، وأنهم بلغوا جميع ما أرسلهم الله به، فلم يكتموا ولم يغيروا، ولم يزيدوا فيه من عند أنفسهم حرفا ولم ينقصوه، كما قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل: 35].

حاجة البشرية إلى الرسل:

الرسالة ضرورية للعباد، لا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأبي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة. ولا سبيل إلى السعادة والفلاح في الدارين إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من طريقهم.

ولقد سمى الله رسالته روحا، والروح إذا عدم فقدت الحياة، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: 52].

وأرسل الله الرسل لتحقيق أمور:

- 1- تعريف الناس بمعبودهم الحق، ولدعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: 36].
- 2- وأرسل الله الرسل لإقامة الدين، والنهي عن التفرق فيه، يقول تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: 13].
- 3- وأرسل الله الرسل للتبشير والإنذار، فقال سبحانه: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأنعام: 48].

وتبشير الرسل وإنذارهم دنيوي وأخروي، فهم في الدنيا يبشرون الطائعين بالحياة الطيبة، ويجذرونهم بالعذاب والهلاك الدنيوي، وفي الآخرة يبشرون الطائعين بالجنة ونعيمها، ويخوفون المجرمين والعصاة عذاب الله في الآخرة.

(1) ينظر: الإيمان بالرسول والرسالات د. عمر الأشقر، الإيمان بالرسول د. عطية أحمد عطية، وبحث بعنوان: من أركان العقيدة .. الإيمان بالرسول، د. علي محمد مقبول الأهدل.

4- وأرسل الله الرسل لإعطاء الأسوة الحسنة للناس في السلوك القويم، والأخلاق الفاضلة والعبادة الصحيحة، كما قال تعالى في شأن نبينا محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝﴾ [الأحزاب: 21].

وإن ما تعانيه الدول - التي يسمونها دولا متقدمة ومتحضرة - من أنواع الاضطراب والهموم والشقاء والتفكك، إنما هو بسبب الإعراض عن الرسالة.

ثانيا: مقتضيات الإيمان بالرسول:

والإيمان بالرسول يتضمن:

1. الإيمان بأن: الله تعالى بعث إلى خلقه رسلاً ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 165].

2. والإيمان بأن: أولهم نوح وآخرهم محمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: 163]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: 40].

3. والإيمان بأن أفضلهم محمد ثم إبراهيم ثم موسى ثم نوح وعيسى بن مريم وهم المخصوصون في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: 7].

4. والاعتقاد بأن: شريعة محمد ﷺ حاوية لفضائل شرائع الرسل المخصوصين بالفضل لقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: 13].

5. والإيمان بأن: جميع الرسل بشر مخلوقون، ليس لهم من خصائص الربوبية شيء، قال الله تعالى عن نوح وهو أولهم: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: 31]، وأمر الله تعالى محمدا وهو آخرهم أن يقول: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: 50]، وأن يقول: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 188].

6. والإيمان بأنهم: عبيد من عباد الله أكرمهم الله تعالى بالرسالة، ووصفهم بالعبودية في أعلى مقاماتهم وفي

سياق الثناء عليهم، فقال في أولهم نوح ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: 3].

وقال في آخرهم محمد ﷺ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الفرقان: 1]، وقال في رسل

آخرين ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: 45]. وقال: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا

دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿ [ص: 17] . وقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: 30] . وقال في عيسى ابن مريم: ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الزخرف: 59] .

7. والإيمان بكل من سمى الله من الأنبياء، وأما من لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالاً، وتصديق ما صح من أخبار الرسل، قال تعالى: ﴿ ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ مِنْ بَيْنِكَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] .

8. الإيمان بأن الله خص الأنبياء بالوحي دون بقية الناس، كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلِّمٌ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 110] ، فليست النبوة والرسالة مكتسبة بالصفاء الروحي ولا الذكاء والمنطق العقلي، وإنما اختيار واصطفاء رباني، فقد اختار الله الرسل واصطفاهم من بين سائر الناس ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ اللَّهُ أَنَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] .

9. الإيمان بأن الرسل معصومون فيما يبلغون عن الله، فهم لا يخطئون في التبليغ عن الله، ولا يخطئون في تنفيذ ما أوحى الله به إليهم.

10. الإيمان بأن من صفات الرسل: الصدق، فالرسل صادقون في أقوالهم وأعمالهم، قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَتَّبِعُنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدٍ نَاهِدًا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: 52] .

11. الإيمان بأن من صفات الرسل الصبر، فالرسل كانوا مبشرين ومنذرين، يدعون إلى دين الله تعالى، وقد أصابتهم صنوف الأذى وأنواع المشاق، ومع ذلك فقد صبروا وتحملوا في سبيل إعلاء كلمة الله، قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: 35] .

12. والإيمان بأن الله تعالى قد أيد رسله في المعجزات البينة والبراهين القاطعة الدالة على صدقهم، وصحة نبوتهم ورسالتهم، فأجرى الله على أيدي رسله المعجزات وهي أمور خارقة للعادة يظهرها الله تعالى على أيدي أنبيائه ورسله على وجه يعجز البشر عن الإتيان بمثله.

13. والإيمان بأن: الله تعالى ختم الرسالات برسالة محمد ﷺ وأرسله إلى جميع الناس لقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: 158] .

14. ونؤمن بأن: شريعته ﷺ هي دين الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، وأن الله تعالى لا يقبل من أحد ديناً سواه لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ [آل عمران: 85].

15. من كفر برسالة محمد ﷺ إلى الناس جميعاً فقد كفر بجميع الرسل، حتى برسوله الذي يزعم أنه مؤمن به متبع له، لقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: 105]، فجعلهم مكذبين لجميع الرسل مع أنه لم يسبق نوحاً رسول. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: 150، 151].

16. والإيمان بأنه: لا نبي بعد محمد رسول الله ﷺ، ومن ادعى النبوة بعده أو صدق من ادعاها فهو كافر لأنه مكذب لله ورسوله وإجماع المسلمين.

ثالثاً: آثار الإيمان بالرسول آثار عظيمة، نذكر منها:

1- العلم برحمة الله تعالى وعنايته بعباده حيث أرسل الرسل إليهم ليهدوهم إلى الطريق الصحيح، وبيئوا لهم كيف يعبدون الله؛ لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 107].

2- شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى.

3- محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتعظيمهم والثناء عليهم بما يليق بهم؛ لأنهم قاموا بعبادة الله وتبليغ رسالته والنصح لعباده.

4- اتباع الرسالة التي جاءت بها الرسل من عند الله، والعمل بها، فيتحقق للمؤمنين في حياتهم الخير والهداية والسعادة في الدارين، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴿ [طه: 123 - 124].

الركن الخامس

الإيمان باليوم الآخر⁽¹⁾

أولاً: مفهوم الإيمان باليوم الآخر وأهميته:

الإيمان باليوم الآخر معناه: التصديق الجازم بيوم القيامة وأن الله تعالى يبعث الناس من القبور، ثم يحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم، حتى يستقر أهل الجنة في منازلهم، وأهل النار في منازلهم. ولقد كثر في القرآن الكريم ذكر اليوم الآخر، وبتقريره كل موقع، ونبه إليه في كل مناسبة، وأكد وقوعه بشتى أساليب العربية، كثيراً ما ربط الإيمان به بالإيمان بالله، كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: 232].

والإيمان باليوم الآخر نتيجة لازمة للإيمان بالله وعدله، فالله لا يقر الظلم ولا يدع الظالم بغير عقاب، ولا المظلوم بغير إنصاف، ولا يترك المحسن بغير ثواب وجزاء، ويعطي كل ذي حق حقه، ونحن نرى في الحياة الدنيا من يعيش ظالماً ويموت ظالماً ولم يعاقب، ومن يعيش مظلوماً ويموت مظلوماً ولم يأخذ حقه، فما معنى هذا والله لا يقبل الظلم؟ معناه أنه لا بد من حياة أخرى غير هذه الحياة التي نعيشها، لا بد من ميعاد آخر يكافأ فيه المحسن ويعاقب فيه المسيء ويأخذ كل ذي حق حقه.

ثانياً: مقتضيات الإيمان باليوم الآخر:

والإيمان باليوم الآخر يتضمن:

1- الإيمان بالبعث والحشر:

وهو إحياء الموتى من قبورهم، وإعادة الأرواح إلى أجسادهم، فيقوم الناس لرب العالمين، ثم يحشرون ويجمعون في مكان واحد حفاة عراة كما خلقوا أول مرة.

2- الإيمان بالحساب والميزان:

فيوم القيامة يحاسب الله الخلائق على أعمالهم التي عملوها في الحياة الدنيا، وتوزن الأعمال في ميزان عظيم، فتوضع الحسنات في كفة، والسيئات في الكفة الأخرى، فمن رجحت حسناته بسيئاته فهو من أهل الجنة، ومن رجحت سيئاته بحسناته فهو من أهل النار، ولا يظلم ريبك أحداً.

(1) ينظر: الإيمان باليوم الآخر الجنة والنار، عمر الأشقر، والقيامة الصغرى والقيامة الكبرى، د. عمر الأشقر، والإيمان باليوم الآخر لمحمد الحمد، والإيمان باليوم الآخر للصلاحي، والإيمان باليوم الآخر والقدر أحمد البيانوني.

3- الإيمان بالجنة والنار:

فالجنة هي دار النعيم المقيم، أعدها الله للمؤمنين المتقين، المطيعين لله ورسوله، فيها جميع أنواع النعيم الدائم مما تشتهيهِ النفوس وتقر به العيون من جميع أنواع المحبوبات. والنار هي دار العذاب المقيم، أعدها الله للكافرين الذين كفروا بالله وعصوا رسله، فيها من أنواع العذاب والآلام والنكال ما لا يخطر على البال.

4- الإيمان بالشفاعة العظمى:

والشفاعة العظمى لرسول الله ﷺ خاصة، يشفع عند الله تعالى بإذنه ليقضي بين عباده، حين يصيبهم من الهم والكرب ما لا يطيقون فيذهبون إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى حتى تنتهي إلى رسول الله ﷺ.

5- الإيمان بالشفاعة فيمن دخل النار من المؤمنين أن يخرجوا منها:

وهي للنبي ﷺ وغيره من النبيين والمؤمنين والملائكة، وبأن الله تعالى يخرج من النار أقواماً من المؤمنين بغير شفاعة، بل بفضلِهِ ورحمته.

6- الإيمان بالحوض:

أي حوض رسول الله ﷺ الذي ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأطيب من رائحة المسك طوله شهر وعرضه شهر وآنيته كنجوم السماء حسناً وكثرة، يرده المؤمنون من أمته، من شرب منه لم يظمأ بعد ذلك.

7- الإيمان بالصراط المنصوب على جهنم:

أي الإيمان به وأن الناس يمشون عليه على قدر أعمالهم، فيمر أولهم كالبرق ثم كمر الريح ثم كمر الطير وشد الرجال تجري بهم أعمالهم، حتى تعجز أعمال العباد، فيأتي من يزحف، وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة، تأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج ومكردس في النار.

8- الإيمان برؤية المؤمن لله:**9- الإيمان بكل ما جاء في الكتاب والسنة من أخبار ذلك اليوم وأهواله.****10- الإيمان بشفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوها: وهي للنبي ﷺ خاصة.****11- الإيمان بفتنة القبر:**

وهي سؤال الميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه، فيقول المؤمن: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد، وأما الكافر والمنافق فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته.

12- الإيمان بعذاب القبر ونعيمه:

الإيمان بعذاب القبر للكفار العصاة، ونعيمه للمؤمنين، وأن من مات فقد قامت قيامته وانتقل إلى الدار الآخرة. ولا نحوض في كيفية ذلك.

ثالثاً: ثمرات الإيمان باليوم الآخر:

1. الإيمان باليوم الآخر له أشد الأثر في توجيه الإنسان وانضباطه والتزامه بالعمل الصالح وتقوى الله , وبعده عن الأنانية والرياء. ولهذا يتم الربط بين الإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح في كثير من الأحيان، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [التوبة: 18], وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام: 92].
2. تنبيه الغافلين المنشغلين بأمور الحياة ومتاعها عن التنافس في الطاعات واغتنام الوقت للتقرب إلى الله بالطاعات إلى حقيقة الحياة وقصرها وأن الآخرة هي دار القرار والخلد، فحين يؤمن الإنسان باليوم الآخر، فإنه سيوقن بأن كل نعيم في الدنيا لا يقاس إلى نعيم الآخرة، ولا يساوي من جهة أخرى غمسة واحدة من أجله في العذاب، وكل عذاب في الدنيا - في سبيل الله - لا يقاس إلى عذاب الآخرة، ولا يوازي من جهة أخرى غمسة واحدة من أجله في النعيم.
3. الطمأنينة بأن الإنسان ملاق نصيبه، فإذا فاته شيء من متاع الحياة الدنيا فلا ييأس ويقتل نفسه حزناً، بل عليه أن يجتهد ويوقن بأن الله لا يضيع أجر من أحسن العمل، وإن كان قد أخذ منه مثقال ذرة بظلم أو غش حصلها يوم القيامة في أحوج ما يكون إليها، فكيف يغتم من علم أن نصيبه سيأتيه لا محالة في أهم اللحظات وأخطرها؟ وكيف يحزن من يعلم أن من يقضي بينه وبين خصومه هو أحكم الأحكامين .

الركن السادس

الإيمان بالقدر خيره وشره⁽¹⁾

أولاً: مفهوم الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر خيره وشره: هو تقدير الله تعالى للكائنات حسبما سبق به علمه واقتضته حكمته. فهو التصديق الجازم بأن كل خير وشر فهو بقضاء الله وقدره، وأنه الفعال لما يريد، لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته، وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره، ولا يصدر إلا عن تديره، ومع ذلك فقد أمر العباد ونهاهم، وجعلهم مختارين لأفعالهم، غير مجبورين عليها، بل هي واقعة بحسب قدرتهم وإرادتهم، والله خالقهم وخالق قدرتهم، يهدي من يشاء برحمته، ويضل من يشاء بحكمته، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

ثانياً: مقتضيات الإيمان بالقضاء والقدر:

وعلى هذا فمقتضيات الإيمان بالقدر:

- 1- الإيمان بأن الله تعالى بكل شيء عليم، علم ما كان وما يكون وكيف يكون بعلمه الأزلي الأبدي، فلا يتجدد له علم بعد جهل ولا يلحقه نسيان بعد علم.
- 2- الإيمان بأن الله تعالى كتب في اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى يوم القيامة ﴿الْمُتَعَلِّمُونَ أَنَّهُ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج: 70].
- 3- الإيمان بأن الله تعالى قد شاء كل ما في السماوات والأرض، لا يكون شيء إلا بمشيئته، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.
- 4- الإيمان بأن الله هو الخالق للأشياء، وكل ما سواه مخلوق قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 62، 63].
- وخلاصة هذه الأربع مراتب أن نؤمن بأن كل ما يقوم به العباد من أقوال أو أفعال أو تروك فهي معلومة لله تعالى مكتوبة عنده والله تعالى قد شاءها وخلقها.
- 5- الإيمان بأن الله تعالى جعل للعبد اختياراً وقدرة بهما يكون الفعل، قال تعالى: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شَتَّيْتُ﴾ [البقرة: 223]. وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ [التوبة: 46]. فأثبت للعبد إتيانا بمشيئته وإعداداً بإرادته.

(1) ينظر: الإيمان بالقدر د. عمر الأشقر، والإيمان باليوم الآخر والقضاء والقدر د. أحمد البيانوني، والإيمان بالقضاء والقدر لمحمد الحمد.

وتوجيه الأمر والنهي إلى العبد، إذا لم يكن له اختيار وقدرة كان توجيه ذلك إليه من التكليف بما لا يطاق، وهو أمر تأباه حكمة الله تعالى ورحمته وخبره الصادق.

ولولا أن الفعل يقع بإرادة العبد واختياره لكان مدح المحسن عبثاً وعقوبة المسيء ظلماً، والله تعالى منزه عن العبث والظلم.

والله تعالى أرسل الرسل ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 165]، ولولا أن فعل العبد يقع بإرادته واختياره، ما بطلت حجته بإرسال الرسل.

والواقع يشهد أن كل فاعل يحسُّ أنه يفعل الشيء أو يتركه بدون أي شعور بإكراه، فهو يقوم ويقعد ويدخل ويخرج ويسافر ويقيم بمحض إرادته، ولا يشعر بأن أحداً يكرهه على ذلك، بل يفرق تفريقاً واقعياً بين أن يفعل الشيء باختياره وبين أن يكرهه عليه مكره. وكذلك فرق الشرع بينهما تفريقاً حكيماً، فلم يؤخذ الفاعل بما فعله مكرهاً عليه فيما يتعلق بحق الله تعالى.

ثالثاً: الإيمان بأنه لا حجة للعاصي على معصيته بقدر الله تعالى:

الإيمان بأنه لا حجة للعاصي على معصيته بقدر الله تعالى؛ لأن العاصي يقدم على المعصية باختياره، من غير أن يعلم أن الله تعالى قدرها عليه، إذ لا يعلم أحد قدر الله تعالى إلا بعد وقوع مقدوره ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: 34]، فكيف يصح الاحتجاج بحجة لا يعلمها المحتج بها حين إقدامه على ما اعتذر بها عنه، وقد أبطل الله تعالى هذه الحجة بقوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بِأَسَنَاتِهِمْ هَلْ عَنَدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَحْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 148].

ونقول للعاصي المحتج بالقدر: لماذا لم تقدم على الطاعة مقدراً أن الله تعالى قد كتبها لك، فإنه لا فرق بينها وبين المعصية في الجهل بالمقدور قبل صدور الفعل منك؟ ولهذا لما أخبر النبي ﷺ الصحابة بأن كل واحد قد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار قالوا: أفلا نتكل وندع العمل؟ قال: ((لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له))⁽¹⁾.

ونقول للعاصي المحتج بالقدر: لو كنت تريد السفر لمكة وكان لها طريقان، أخبرك الصادق أن أحدهما مخوف صعب والثاني آمن سهل، فإنك ستسلك الثاني ولا يمكن أن تسلك الأول وتقول: إنه مقدر عليّ، ولو فعلت لعدك الناس في قسم المجانين.

(1) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب {فسنيسره للعسرى} (494)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (2647).

ولو عرض عليك وظيفتان إحداهما ذات مرتب أكثر، فإنك سوف تعمل فيها دون الناقصة، فكيف تختار لنفسك في عمل الآخرة ما هو الأدنى ثم تحتج بالقدر؟
ونراك إذا أصبت بمرض جسمي طرقت باب كل طبيب لعلاجك، وصيرت على ما ينالك من ألم عملية الجراحة وعلى مرارة الدواء. فلماذا لا تفعل مثل ذلك في مرض قلبك بالمعاصي؟
6- الإيمان بأن الشر لا ينسب إلى الله تعالى لكمال رحمته وحكمته، قال النبي ﷺ ((والشر ليس إليك))⁽¹⁾.

ففنفس قضاء الله تعالى ليس فيه شر أبداً، لأنه صادر عن رحمة وحكمة، وإنما يكون الشر في مقتضياته، لقول النبي ﷺ في دعاء القنوت الذي علمه الحسن: ((وقني شر ما قضيت))⁽²⁾ فأضاف الشر إلى ما قضاه. ومع هذا فإن الشر في المقتضيات ليس شراً خالصاً محضاً، بل هو شر في محله من وجه، خير من وجه، أو شر في محله، خير في محل آخر.

فالفساد في الأرض من الجذب والمرض والفقر والخوف شر، لكنه خير في محل آخر، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41].
فقطع يد السارق ورجم الزاني شر بالنسبة للسارق والزاني في قطع يد السارق وإزهاق النفس، لكنه خير لهما من وجه آخر، حيث يكون كفارة لهما فلا يجمع لهما بين عقوبتي الدنيا والآخرة، وهو أيضاً خير في محل آخر، حيث إن فيه حماية الأموال والأعراض والأنساب.

رابعاً: ثمرات الإيمان بالقدر:

1. الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب؛ لأن السبب والمسبب كلاهما بقضاء الله وقدره.
2. راحة النفس.. طمأنينة القلب؛ لأنه متى علم أن ذلك بقضاء الله تعالى، وأن المكروه كائن لا محالة، ارتاحت النفس واطمأن القلب ورضي بقضاء الرب، فلا أحد أطيب عيشاً وأربح نفساً وأقوى طمأنينة ممن آمن بالقدر.
3. طرد الإعجاب بالنفس عند حصول المراد، لأن حصول ذلك نعمة من الله بما قدره من أسباب الخير والنجاح، فيشكر الله تعالى على ذلك ويدع الإعجاب.
4. طرد القلق والضجر عند فوات المراد أو حصول المكروه، لأن ذلك بقضاء الله تعالى الذي له ملك السماوات والأرض وهو كائن لا محالة، فيصبر على ذلك ويحتسب الأجر، وإلى هذا يشير الله تعالى بقوله: ﴿مَا

(1) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (771).

(2) مسند أحمد 3/245 (1718) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات، سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في القنوت في الوتر (1178).

أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَن نَّبْرَاهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ [الحديد 22، 23].

5. القدر من أكبر الحوافز للعمل والنشاط والسعي بما يرضي الله في هذه الحياة، فالمؤمنون مأمورون بالأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، والإيمان بأن الأسباب لا تعطي النتائج إلا بإذن الله، لأن الله هو الذي خلق الأسباب، وهو الذي خلق النتائج، قال النبي ﷺ: ((أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان))⁽¹⁾.

6. أن يعرف الإنسان قدر نفسه، فلا يتكبر ولا يبطر؛ لأنه عاجز عن معرفة المقدر، ومستقبل ما هو حادث، ومن ثم يقر الإنسان بعجزه وحاجته إلى ربه تعالى دائماً، فالإنسان إذا أصابه الخير بطر واغتر به، وإذا أصابه الشر والمصيبة جزع وحزن، ولا يعصم الإنسان من البطر والطغيان إذا أصابه الخير، والحزن إذا أصابه الشر، إلا الإيمان بالقدر، وأن ما وقع فقد جرت به المقادير، وسبق به علم الله.

7. أنه يقضي على رذيلة الحسد، فالمؤمن لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله؛ لأن الله هو الذي رزقهم وقدر لهم ذلك، وهو يعلم أنه حين يحسد غيره إنما يعترض على قدر الله وقضائه.

8. الإيمان بالقدر يبعث في القلوب الشجاعة على مواجهة الشدائد، ويقوي فيها العزائم، لأنها توقن أن الآجال والأرزاق مقدره وأنه لن يصيب الإنسان إلا ما كتب له.

9. الإيمان بالقدر يغرس في نفس المؤمن حقائق الإيمان المتعددة، فهو دائم الاستعانة بالله، يعتمد على الله ويتوكل عليه مع فعل الأسباب، وهو أيضاً دائم الافتقار إلى ربه تعالى يستمد منه العون على الثبات.

10. الإيمان بالقدر يبعث الاطمئنان في النفس، فيعلم المؤمن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

(1) صحيح مسلم كتاب القدر باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله (2664).

المبحث الثالث

بيان شعب الإيمان

هذا الأمر من المعالم المهمة جدا في بيان تعاليم الإسلام، حيث إن من خلاله تتبين شمولية هذا الدين ودخول كل أعمال العباد في الإيمان.

أصل هذا الأمر ما ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله: قال رسول الله ﷺ: ((الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان))⁽¹⁾.

وفي رواية: ((الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان))⁽²⁾.

قوله: ((بضع)) ما بين اثنين إلى عشرة. ((ستون)) عند مسلم ((سبعون)) ولا تعارض بين الروایتين قال النووي فإن العرب قد تذكر للشيء عددا ولا تريد في نفي ما سواه، ((شعبة)) خصلة والشعبة واحدة الشعب وهي أغصان الشجرة وهو تشبيه للإيمان وخصاله بشجرة ذات أغصان لا تتكامل ثمرتها إلا بتوفر كامل أغصانها. ((الحياء)) صفة في النفس تحمل على فعل ما يحمد وترك ما يذم عليه ويعاب⁽³⁾.

وقد اعتنى الأئمة بهذا الحديث واعتبروه أصلاً لإدخال الطاعات في الإيمان وعدوها من شعبه وألفوا في ذلك بعض المصنفات⁽⁴⁾.

ونبرز ذلك في المطالب التالية:

المطلب الأول

أقوال العلماء في تعداد شعب الإيمان

قال أبو حاتم بن حبان: "تتبع معنى هذا الحديث مدة وعددت الطاعات فإذا هي تزيد على العدد شيئا كثيرا، فرجعت إلى السنن فعددت كل طاعة عدها رسول الله ﷺ من الإيمان فإذا هي تنقص عن البضع والسبعين، فرجعت إلى كتاب الله فقرأته بالتدبر وعددت كل طاعة عدها الله تعالى من الإيمان فإذا هي تنقص عن البضع

(1) صحيح مسلم، في كتاب الإيمان، الحديث (35).

(2) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان (9).

(3) ينظر: تعليق مصطفى البغا على الحديث في صحيح البخاري، وينظر: شرح النووي على مسلم 4/2.

(4) من تلك المؤلفات وأغزرها المنهاج في شعب الإيمان للإمام أبي عبد الله الحليمي، واختصره الإمام البيهقي في كتاب الجامع لشعب الإيمان مع عنايته بالأسانيد خلافاً للحليمي، واختصر كتاب البيهقي الإمام القزويني.

ومن اعتنى بخصر شعب الإيمان الإمام اللالكائي فقد ذكر في كتابه (شرح أصول اعتقاد أهل السنة) اثنتين وسبعين خصلة من خصال الإيمان وذكر تحت كل خصلة ما يناسبها من الأحاديث، وعد الإمام ابن بطة في الإيمان سبعين شعبة سرداً دون ذكر أدلتها.

والسبعين، فضممت الكتاب إلى السنن وأسقطت المعاد فإذا هي كل شيء عده الله تعالى ونبيه ﷺ من الإيمان تسع وسبعين شعبة لا يزيد عليها ولا تنقص فعلمت أن مراد النبي ﷺ في الكتاب والسنن⁽¹⁾.

وعدها الحافظ ابن حجر فقال: "هذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب، وأعمال اللسان، وأعمال البدن:

فأعمال القلب فيه المعتقدات والنيات وتشتمل على أربع وعشرين خصلة ثم ذكرها.

وأعمال اللسان وتشتمل على سبع خصال ثم ذكرها.

وأعمال البدن وتشتمل على ثمان وثلاثين خصلة ثم ذكرها.

إلى أن قال: فهذه تسع وستون خصلة ويمكن عدها تسعاً وسبعين خصلة باعتبار أفراد ما ضم بعضه إلى

بعض مما ذكر⁽²⁾.

ويقول القاضي عياض: "وبقي بين هذين الطرفين - أي الشهادتان وإمطة الأذى - أعداد لو تكلف

المجتهد تحصيلها بغلبة الظن وشدة التتبع لأمكنه وقد فعل ذلك بعض من تقدم، وفي الحكم بأن ذلك مراد النبي ﷺ صعوبة، ثم إنه لا يلزم معرفة أعيانها، ولا يقدر جهل ذلك في الإيمان، إذ أصول الإيمان وفروعه معلومة محققة والإيمان بأنها هذا العدد واجب في الجملة"⁽³⁾.

ويقول ابن القيم: "الإيمان أصل له شعب متعددة، وكل شعبة تسمى إيماناً، فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج والصوم، والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل.. وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة، ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إمطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتاً عظيماً، منها ما يلحق بشعبة الشهادة، ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إمطة الأذى، ويكون إليها أقرب، وكذلك الكفر ذو أصل وشعب، فكما أن شعب الإيمان إيمان، فشعب الكفر كفر، والحياء شعبة من الإيمان، وقلة الحياء شعبة من شعب الكفر، والصدق شعبة من شعب الإيمان، والكذب شعبة من شعب الكفر... والمعاصي كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان.

وشعب الإيمان قسمان: قولية وفعلية، وكذلك شعب الكفر نوعان: قولية وفعلية.

ومن شعب الإيمان القولية شعب يوجب زوالها زوال الإيمان، فكذلك من شعبه الفعلية ما يوجب زوالها زوال

الإيمان، وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية.

فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختياراً - وهي شعبة من شعب الكفر - فكذلك يكفر بفعل شعبة من

شعبه كالسجود للصنم، والاستهانة بالمصحف، فهذا أصل⁽⁴⁾.

المطلب الثاني

(1) شرح النووي على مسلم 5/2.

(2) فتح الباري 52/1.

(3) شرح النووي على مسلم 4/2.

(4) الصلاة وأحكام تاركها ص 55 - 56.

نماذج لشعب الإيمان

من نماذج شعب الإيمان ما ذكره الإمام البخاري في صحيحه بقوله: باب أمور الإيمان وقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَأَيْتَمَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذه الآية من أجمع الآيات في ذكر شعب الإيمان فقد ذكر الله تعالى فيها من شعب الإيمان: 1- الإيمان بالله. 2- الإيمان باليوم الآخر. 3- الإيمان بالملائكة. 4- الإيمان بالكتب. 5- الإيمان بالنبين. 6- صرف المال في الصدقات بطيب النفس وحبا في حصول الأجر والثواب على الأصناف الستة المذكورة في الآية. 7- إقامة الصلاة. 8- إيتاء الزكاة. 9- الوفاء بالعهد. 10- الصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

وكذلك ما جاء في قول الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٩ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].

وفي هذه الآية ذكر الله تعالى مجموعة من شعب الإيمان القولية والفعلية وهي: 1- الخشوع في الصلاة. 2- الإعراض عن اللغو. 3- إيتاء الزكاة. 3- حفظ الفروج. 4- رعاية الأمانة وحفظها. 5- الوفاء بالعهد. المحافظة على الصلوات.

وكذلك ما جاء في سورة المعارج: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ٢٣ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ٢٤ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ٢٥ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ٢٦ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ٢٨ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٢٩ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٣٠ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ٣١ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٣٢ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ٣٣ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٣٤ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٣٥].

والشعب المذكورة في هذه الآية هي: 1- المواظبة على أداء الصلاة. 2- إخراج الصدقة. 3- الإيمان بيوم القيامة، 4- الخوف من عذاب الله. 5- حفظ الفروج عما حرمه الله. 6- حفظ الأمانة، 6- الصدق في الشهادة، 7- المحافظة على إقامة الصلاة.

وكذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُتَّحِقُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْمُرْتَدُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ وَالْحَنُوفُ ذُكُرًا وَأُنثَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَمْسُوا فِتْنَةً مَّن بَشَرًا مَّا عَلَّمُوا مَا عَلَّمِ اللَّهُ رَبِّهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ مَعَهُ يَخُوفُونَ﴾ [التوبة: 112].

والشعب المذكورة في هذه الآية هي: 1- التوبة 2- العبودية 3 الحمد 4- السياحة 5- الركوع والسجود 6- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر 6- حفظ حدود الله.

وكذلك ما ورد في صفات عباد الرحمن في سورة الفرقان، ووصايا سورة الأنعام، ووصايا سورة الإسراء، ووصايا لقمان لابنه.. والآيات في ذلك كثيرة.

الفصل الخامس

إظهار محاسن الإسلام

ويتضمن عشرة مباحث:

- المبحث الأول: محاسن التشريع الاعتقادي في الإسلام.
- المبحث الثاني: محاسن التشريع التعبدية في الإسلام.
- المبحث الثالث: محاسن التشريع الأخلاقي في الإسلام.
- المبحث الرابع: محاسن التشريع الاقتصادي في الإسلام.
- المبحث الخامس: محاسن التشريع القضائي في الإسلام.
- المبحث السادس: محاسن التشريع الاجتماعي في الإسلام.
- المبحث السابع: محاسن تشريع العلاقات الزوجية في الإسلام.
- المبحث الثامن: محاسن التشريع السياسي في الإسلام.
- المبحث التاسع: محاسن تشريع العناية بالعلوم الإنسانية والدينية في الإسلام.
- المبحث العاشر: محاسن تشريع الجهاد في الإسلام.
- المبحث الحادي عشر: محاسن تشريع الحدود في الإسلام.

مدخل:

إن الحديث عن محاسن الدين الإسلامي هو حديث عن مظاهر رحمة الله بعباده، إذ شرع لهم من الدين أحكاماً وآداباً يسيرة وسمحة وكلها حسن وحكمة بالغة.

وهذا باب مهم لإبراز الوجه الناصع لديننا الحنيف، فهو باب كبير عظيم النفع في إيصال رسالة الإسلام. وليس من السهل على أي أحد أن يبين محاسن الإسلام، ولا أن يعدد جوانب الإحسان فيه، لأن الإسلام شريعة الإحسان كما قال ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ...))⁽¹⁾. فليس المقصد هنا الاستيعاب، بل إظهار الفكرة بمجموعة من الأمثلة فقط⁽²⁾، فسنحاول عرض أصول محاسن الإسلام التي يلزم الداعية أن يلم بها، حيث إن محاسن هذا الدين لا يكفيها كتاب واحد ولا حتى عدة مجلدات، ولكنها تحتاج إلى كثير من الكتب والرسائل المتخصصة.

"ولكن ينبغي التأكيد على:

- 1- أن بيان محاسن الدين يعتبر وسيلة لتبليغ المقصد الرئيس والرسالة الأولى للرسول چ وهي توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة ولذا فينبغي ألا يستغرق فيها المعرف بالإسلام فتشغله عن تقرير الإيمان بالله تعالى أولاً.
- 2- المبالغة الشديدة في بعض القضايا والمفاهيم الصحيحة قد يحدث اضطراباً في فهم الإسلام لدى المتلقي، فينظر إليه من زاوية واحدة برؤية منقوصة تؤثر في قبوله للإسلام أو في امتثاله شرع الله فيما بعد"⁽³⁾.
- 3- على كل داعية التخصص في مجال من مجالات العلم الشرعي، أو العلوم الانسانية والاجتماعية، وأن يلم بمحاسن الإسلام في التخصص الذي سيقوم عليه.

تهيد: أهمية إبراز محاسن الإسلام:

من معالم الدعوة الأساسية عرض محاسن الإسلام، التي تلاقي قبولا واهتماماً لدى المخاطبين؛ لأهميتها في حياتهم، أو لمعاناة من فقدوها، مثل: التركيز على عناية الإسلام بالأسرة؛ في المجتمعات المتفككة أسرياً، والتأكيد على مكانة المرأة في الإسلام مقابل المجتمعات التي جعلتها سلعة رخيصة، أو التأكيد على عدل الإسلام أو

(1) صحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح...، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، وتحديد الشفرة (1955).

(2) عقد القرطي في كتابه: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام فصلاً في بيان جمل من هذه المحاسن ومقارنتها بالنصرانية، وقد كتبت فيه مجموعة من الأبحاث الموسعة والمختصرة التي يمكن أن تكون مرجعاً للتوسع في هذا الجانب، ومن ذلك: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية، وهداية الحيارى لابن القيم، ونماذج مختارة في محاسن الإسلام من هدي خير الأنام للشيخ محمد بن علي العرفج، لمحات من محاسن الإسلام للشيخ محمد بن علي العرفج، ومحاسن الشريعة ومساوئ القوانين الوضعية، للشيخ عطية بن محمد سالم، والدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي ورتبها تاريخياً، الشيخ عبدالرحمن السعدي، وموسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللّام د. أحمد بن سليمان أيوب ونخبة من الباحثين إشراف: د. سليمان الدريع وغيرها.

(3) ينظر: دليل الداعية الفقهي، د. عبدالله باهام ص 73-74 باختصار وتصرف يسير.

عنايته بالبيئة أو نظامه الاقتصادي، فلا بد من مراعاة المداخل الأعظم تأثيراً في قلوب الناس واهتماماتهم وثقافتهم⁽¹⁾.

فالتعريف بمحاسن الدين الإسلامي هو تعريف بمظاهر رحمة الله بعباده، وعرض إجمالي للدين بصورته الواضحة، إذ شرع لهم من الدين أحكاماً وآداباً يسيرة وسمحة وكلها حسن وحكمة بالغة، ولذلك امتن الله على المؤمنين بهذه المنة العظيمة إذ يقول: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164].

وإن إبراز هذه المحاسن للمسلمين: يثبتهم ويزيد في إيمانهم، ولغير المسلمين: من أعظم الوسائل في دعوتهم للإسلام، وأهمية ذلك في الأمور التالية:

أولاً: يظهر كمال الدين:

فيظهر من خلال عرض محاسن الإسلام أن دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ هو أكمل الأديان وأفضلها، وقد حوى من المحاسن والكمال والرحمة ما يشهد الله بالكمال المطلق، وسعة العلم والحكمة، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] ويشهد كذلك لرسوله ﷺ أنه رسول الله حقاً، وأنه ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤].

ثانياً: تحبيب الخلق في الإسلام:

فعرض محاسن الإسلام يجذب الخلق ويحببهم إلى هذا الدين، ذي المحاسن الجمّة، والتي لم ترق إليها البشرية إلا في ظل دين الإسلام، وذلك لما يرون من موافقته للمصالح الدنيوية والدينية، ولما فيه من الواقعية والوسطية واليسر، الذي جعله ديناً يوافق الفطرة السليمة ويسعى للرفي بها وإبعادها عن الانتكاسة، حيث إن الوعي والإدراك لمحاسن هذا الدين من الوسائل المثبتة والمؤنسة في طريق الهداية.

ثالثاً: يغي عن التعرض للرد على الشبهات:

البيان والإبراز لهذه المحاسن يغي عن التعرض لدفع شبه المعارضين ابتداءً، والطعن في أديان المخالفين، فعند ظهور الحق يضمحل الباطل، وإذا أحييت سنة ماتت بدعة، وإذا علم وعمل الناس بالمعروف وساد بينهم اختفى المنكر، قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

رابعاً: يزيل الحواجز النفسية بين الناس والإسلام:

فإظهار محاسن الدين الإسلامي يزيل الحواجز النفسية والثقافية التي تكتنف نظرة الغرب وغيرهم إلى الإسلام والمسلمين، هذه الحواجز التي تعود أسبابها بالدرجة الأولى إلى عدم فهم الطرف الآخر فهماً صحيحاً؛ ومثقفو الغرب والشرق وعوامهم لم تسنح لهم الفرصة الكاملة لفهم الدين الإسلامي عقيدةً وشرعيةً بسبب تقصير المسلمين

(1) ينظر: دليل الداعية الفقهي، د. عبدالله باهام ص 73.

في البيان، وبسبب تقصيرهم في البحث والاستقصاء، ولهذا يأتي دائما حكمهم على الإسلام حكما جائرا لا يقوم على العلم والعقل والمنطق؛ مما يستدعي المعرفة الصحيحة والفهم الدقيق؛ إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره، ولو بنيت أحكام المخالفين للإسلام على الإسلام والمسلمين وفق هذا المنهج العلمي لما صدرت منهم تلك الاتهامات الشنيعة للإسلام بأنه دين لا يعرف حقوق الإنسان ومنها حقوق المرأة، وأنه دين إرهاب وترويع للآمنين؛ وأن المسلمين أمة من الهمج التي تعشق الدماء وتتنكر للمدنية والحضارة !

خامسا: خطورة الإخلال في عرض محاسن الدين:

الإخلال في بيان محاسن الإسلام ينتج عنه خسارة كبيرة، ويتسبب في حرمان العالم من خير عظيم، هم في أمس الحاجة إليه، وهم يتلمسون المخرج من مشاكلهم العويصة التي يرزحون تحت نيراتها وقسوتها من الخواء الروحي، والتفكك الأسري، وانعدام الأمن، وشيوع الفواحش والمنكرات التي حيرت العقلاء منهم⁽¹⁾!

سادسا: كل من كان أعرف بالدين كان له أقرب:

"أن الناس يتفاوتون في الإيمان وكماله تفاوتاً عظيماً، وكلما كان العبد أعرف بهذا الدين وأشد تعظيماً له وسروراً به وابتهاجاً، كان أكمل إيماناً وأصح يقيناً، فإنه برهان على جميع أصول الإيمان وقواعده.

فمن أكبر وسائل الدعوة إلى دين الإسلام شرح ما احتوى عليه من المحاسن التي يقبلها ويتقبلها كل صاحب عقل وفطرة سليمة، فلو تصدى للدعوة إلى هذا الدين رجال يشرحون حقائقه ويبينون للخلق مصالحه لكان ذلك كافياً كفاية تامة في جذب الخلق إليه لما يرون من موافقته للمصالح الدنيوية والدنيوية، ولصلاح الظاهر والباطن من غير حاجة إلى التعرض لدفع شبه المعارضين والطعن في أديان المخالفين، فإنه في نفسه يدفع كل شبهة تعارضه؛ لأنه حق مقرون بالبيان الواضح، والبراهين الموصلة إلى اليقين، فإذا كشف عن بعض حقائق هذا الدين صار أكبر داع إلى قبوله ورجحانه على غيره"⁽²⁾.

وأخيراً: قال الشيخ عبدالعزيز بن باز -: "فعلى جميع الأمة حكماء وعلماء وتجار وغيرهم أن يبلغوا عن الله وعن رسوله ﷺ هذا الدين، وأن يشرحوه للناس بشق اللغات الحية المستعملة بأساليب واضحة، وأن يشرحوا محاسن الإسلام وحكمه وفوائده وحقيقته حتى يعرفه أعداؤه، وحتى يعرفه الجاهلون فيه، وحتى يعرفه الراغبون فيه"⁽³⁾... "والله لو عرفه الناس اليوم، ولو عرفه العالم على حقيقته لدخلوا فيه أفواجا اليوم، كما دخلوا فيه أفواجا بعدما فتح الله على نبيه ﷺ مكة"⁽⁴⁾.

(1) ينظر: بحث بعنوان بيان محاسن الإسلام ودوره في بناء الجسور الثقافية بين العالم الإسلامي والغرب بحث مقدم للمؤتمر العالمي عن العالم الإسلامي والغرب: الحواجز والجسور، إعداد: د. أحمد بن عثمان المزيد، أستاذ مساعد بقسم الثقافة الإسلامية كلية التربية، جامعة الملك سعود.
(2) محاسن الدين الإسلامي - د. أمين بن عبدالله الشقاوي - مقال منشور على شبكة الألوكة.
(3) مجموع فتاوى ورسائل للشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله (453/2).
(4) كلمة في المؤتمر الأول للدعوة والدعاة المنعقد في المدينة النبوية عام 1397هـ.

معالم مهمة في عرض جمال ومحاسن الإسلام

يقين الدعوية من كمال الشريعة وأنها التوزيع الوحيد الصالح لكل زمان ومكان.

الإسلام كله محاسن والمقصود إظهار المحاسن المناسبة لمستوى المدعوين.

إسماع المدعو بعض التلاوات الخاتمة وإطلاعه على مشاهد الصلاة والحج فشعائر الإسلام قوية بذاتها.

استخدام أسلوب السؤال وتحريك فطرة المدعو وإيراد اللوازم الباطلة على دينه.

تبيين أنه الإسلام جاء لحرب الخرافات وليصح الأوهام التي وقعت في الشرائع السابقة.

توضيح مكانة العقل في الإسلام.

المصالح في الإسلام تراعي مصالح الدنيا والآخرة وتجمع بين حاجات الروح والجسد.

استعمال الصور والمقاطع التي تقارن بين أحوال المهتمين قبل وبعد إسلامهم.

عرض الأرقام والاحصائيات الموثقة التي تبين النتائج الكارثية لحضارة الغرب (نسبة الإجهاد، والانتحار، ومكاتب الموت الرحيم، التحرش، السرقات، ونتائج هروبهم) مع ملاحظة فارق النسبة في بلدان المسلمين.

المبحث الأول

محاسن التشريع الاعتقادي في الإسلام

لا شك أن أهم ما يميز الإسلام عن المناهج الأخرى هو تلك العقيدة الصافية التي أظلت الإنسانية، واحتضنت النفس البشرية وأفاضت على من يلتحم بها ما يستريح به الضمير وتسكن به النفس، حيث يجد ذلك التفسير المتفرد الحكيم لحقيقة الكون والحياة مما يجعله يمارس نشاطه في الحياة بانسيابية وتوازن وانسجام بين الروح والمادة.

ويمكن إجمال محاسن الإسلام في الجانب العقدي في النقاط التالية⁽¹⁾:

أولاً: العقيدة في الإسلام توفيقية غيبية:

فالعقيدة الإسلام موقوفة على كتاب الله، وما صح من سنة رسوله محمد ﷺ فليست محلاً للاجتهاد؛ لأن مصادرها توفيقية، وذلك أن العقيدة الصحيحة لا بد فيها من اليقين الجازم، فلا بد أن تكون مصادرها مجزوم بصحتها، وهذا لا يوجد إلا في كتاب الله وما صح من سنة رسوله ﷺ. وعليه فإن جميع المصادر الظنية، كالقياس والعقل البشري لا يصح أن تكون مصدراً للعقيدة، فمن جعل شيئاً منها مصدراً للعقيدة فقد جانب الصواب، وجعل العقيدة محلاً للاجتهاد الذي يخطئ ويصيب. وغيبية بمعنى أنها في أصولها ومنطقاتها غيبية، قد يكون فيها بعض الجوانب التي يدركها الإنسان بعقله السليم وفطرته لكنه إدراك إجمالي، وتبقى بعض أصولها وتفصيلها غيبية.

ثانياً: السهولة والوضوح:

فهي عقيدة سهلة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، فلا لبس فيها، ولا غموض، ولا تعقيد ليس فيها ألغاز، ولا فلسفات؛ فألفاظها واضحة، ومعانيها بينة، يفهمها العالم والعامي، والصغير والكبير، لاستمدادها من الكتاب والسنة.

فهي موافقة للفطرة القويمة، والعقل السليم، وسليمة من الاضطراب والتناقض واللبس، فالحق لا يضطرب، ولا يتناقض، ولا يلتبس، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

(1) ينظر: ملخص من دروس العقيدة في الأكاديمية الإسلامية المفتوحة للمستوى الثالث، تأليف: أ.د. ناصر بن عبدالكريم العقل، بتصرف. والعقيدة وأثرها في بناء الجيل، لعبدالله عزام 44/1-52. ومقال بعنوان: خصائص العقيدة الإسلامية، أ.د. عبدالله بن عبدالعزيز الجبرين. ومبحث علمي بعنوان: محاسن العقيد الإسلامية، لأحمد بن عثمان المزيد، منشور في مجلة الدراسات الإسلامية، في جامعة الملك سعود.

وقد تأتي بما تحار العقول فيه وتحتاج للنظر فيه أكثر من مرة، ولكن لا تأتي بالمحال: ففي العقيدة الإسلامية ما يبهر العقول، وما قد تحار فيه الأفهام، كسائر أمور الغيب؛ من عذاب القبر ونعيمه، والصراط، والحوض، والجنة والنار، وكيفية صفات الله، فالعقول تحار في فهم حقيقة هذه الأمور، وكيفياتها، ولكنها لا تحيلها بل تسلّم لذلك، وتنقاد، وتدعن؛ لأن ذلك صدر عن الوحي المنزل، الذي لا ينطق عن الهوى.

ثالثاً: لا إكراه في الدين:

ذكر العلماء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] أنه كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان، فتنصرا قبل أن يبعث النبي ﷺ، ثم قدما المدينة في نفر من النصرى يحملون الطعام، فأتاهما أبوهما، فلزمهما وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما، فأبيا أن يسلما، فاختموا إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟ فأنزل الله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ فخلى سبيلهما⁽¹⁾.

قال ابن كثير: "لا تكروهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرها مقسورا"⁽²⁾.

ويشهد لهذه الآية كذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. فالإسلام لا يكره أحداً على الدخول فيه، ودعوة الإسلام تكمن في بيان منهجه والاقتناع به وإفساح الطريق للناس أن يتعرفوا عليه ثم يترك القرار بعدها للناس ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ ويجاسبهم على ما قرروا. يقول جوستاف لبيون⁽³⁾: "إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم.. فإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الإسلام واتخذ العربية لغة له؛ فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس عهد بمثله، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى"⁽⁴⁾.

رابعاً: لا واسطة بين الإنسان وربه:

"أعطت كثير من الديانات لبعض الأفراد مزية دينية على غيرهم، وربطت عبادات الناس وإيمانهم برضى أولئك الأفراد وموافقتهم، فهم -بحسب تلك الديانات- الوسطاء بينهم وبين الإله، وهم من يمنح المغفرة، وربما يعلم

(1) أسباب النزول للواحي ص46.

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 310/1.

(3) جوستاف لبيون: (توفي 1931م) طبيب ومؤرخ فرنسي، عمل في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا، كتب في علم الآثار، وعني بالحضارة الشرقية، وألف عام 1884 كتاب حضارة العرب الذي جمع فيه عناصر عديدة مما أثرت به الحضارة العربية على العالم، وبحث في قيام دولتهم وأسباب عظمتها وخطاؤها. ينظر: ترجمته على موقع وكيبيديا.

(4) حضارة العرب، جوستاف لبيون، ص127.

الغيب - كما هي دعواهم الباطلة- ومخالفتهم سبب الخسران المبين. فجاء الإسلام وكرم الإنسان وأعلى قدره، وأبطل أن تكون سعادة البشرية أو توبتها أو عبادتها مربوطة بأشخاص معينين مهما بلغوا من الفضل والصلاح" (1).

أما العقيدة في الإسلام فإنها تقوم على العلاقة المباشرة بين العبد وربّه من غير واسطة، فيسأل العبد ربّه ما يريد في أي وقت وفي أي مكان وعلى أي حال، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186]

وعندما يذنب فهو ليس بحاجة إلى أن يعترف لراهب أو قسيس أو غيرها بذنوبه التي ارتكبها، أو يطلب منه صك الغفران، وإنما يطلب المغفرة من الله الغفور الرحيم من غير واسطة.

خامساً: تحقيق الكرامة الإنسانية وتحرره من الظلم:

العقيدة الإسلامية تحرير الإنسان من عبودية الإنسان والهوى فيخلص في عبادته لله رب العالمين. قال رباعي بن عامر ؓ بين يدي رستم قائد جيوش الفرس: "إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله" (2). "إن الدينونة لله بالتوحيد تحرر البشر من الدينونة لغيره، وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وبذلك تحقق للإنسان كرامته وحرية الحقيقية، هذه الحرية وتلك اللتان يستحيل ضمناهما في ظل أي منهج آخر غير المنهج الإسلامي يدين فيه الناس بعضهم لبعض بالعبودية، في صورة من صورها الكثيرة.. ولأجل هذا قام الإسلام بمحاربة كل أصناف العبودية لغير الله، وسعى إلى التضييق على منابعها، وسد ذرائعها؛ حتى يمكن للإنسان أن يحقق الاستقلال والتحرر الكامل من كل صنوف الاستعباد التي أضرت بعقله وروحه وأفسدت عليه علاقته بربه" (3).

سادساً: إقرار أخوة أنبياء الله ورسله جميعاً:

العقيدة الإسلامية توجب احترام وتوقير المسلمين لسائر الأنبياء والرسل والكتب، بل تجعل ذلك من أركان الإيمان وهي: ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره)) (4). وخاصة مكانة موسى وعيسى • عند المسلمين، فقد ورد ذكر موسى صريحاً في القرآن 136 مرة، واسم عيسى 'ثمانية عشرة مرة.

فالمسلمون يؤمنون بجميع الأنبياء والرسل الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم وفي سنة النبي محمد ﷺ؛ فقد كانت دعوة جميع الأنبياء بما فيهم إبراهيم وموسى وداود وعيسى ومحمد -عليهم الصلاة والسلام- واحدة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا الْطَّغُوتَ﴾ [النحل: 36]. والذي أرسل محمداً

(1) دليل المسلم الجديد، فهد باهام، ص 20.

(2) تقدم تخريجها ص 20.

(3) فضاءات الحرية لسلطان العميري ص 118.

(4) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان (1).

ﷺ هو الذي أرسل سائر الأنبياء؛ فالإيمان بهم واجب، وحبهم دين، والإيمان بما أنزل إليهم من كتب عقيدة ثابتة في الإسلام.

والقرآن أنزل مصدقا لجميع الكتب السماوية، ومهيمنًا عليها ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: 48] "فما شهد له القرآن بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود، قد دخله التحريف والتبديل" (1).

سابعاً: وسط لا إفراط فيها ولا تفريط:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: 143]، فهي مثلاً:

وسط في عقيدتها في عيسى ابن مريم ' بين تقصير اليهود وطعنهم وغلو النصارى وإطرائهم، فاليهود يقولون: هو ولد زنا، ويقولون عن مريم: إنها بغي. قال تعالى: ﴿ يَتَّخِذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ [مريم: 28]، وقال تعالى: ﴿ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 156].

والنصارى يقولون: هو الله، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: 17]، ويقولون أيضاً: هو ابن الله، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ [التوبة: 30].

وأما المسلمون فيقولون: هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، وروح منه، وهو وجيه في الدنيا والآخرة، ومن المقربين، ويصفونه بما وصفه الله به في كتابه، لا يغلون فيه غلو النصارى، ولا يقصرون في حقه تقصير اليهود، كما قال تعالى: ﴿ يَتَّاهَلُ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء: 171].

فهذا بعض ما تيسر ذكره من محاسن العقيدة الإسلامية العظيمة.

المبحث الثاني

محاسن التشريع التعبدية في الإسلام

للتشريع التعبدية في الإسلام محاسن كثيرة، يمكن إبرازها في النقاط التالية⁽¹⁾:

أولاً: شمولية معنى العبادة في الإسلام:

للعبادة في الإسلام مفهوم شامل لكل حياة المسلم، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] ويوضح هذا المفهوم الشامل ما ثبت من حديث أبي ذر ؓ، قال: قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم. قال: فقال رسول الله ﷺ: ((أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون، إن بكل تسبيحة صدقة، وبكل تحميدة صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة)) قال: قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته يكون له فيها أجر؟ قال: ((أرايتم لو وضعها في الحرام، أكان عليه فيها وزر؟ وكذلك إذا وضعها في الحلال، كان له فيها أجر))⁽²⁾.

يقول شيخ الإسلام: "العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلك حب الله ورسوله وخشيته الله والإجابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمة والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله"⁽³⁾.

فمفهوم العبادة في الإسلام أوسع مما يتصوره بعض من لم يتعرف على حقيقة الأوامر التعبدية التي جاء بها

الإسلام.

(1) للاستزادة حول هذا الموضوع ينظر: رسالة ماجستير بعنوان مقاصد العبادة في القرآن د. يوسف خليفة، ورسالة ماجستير بعنوان مقاصد المعاملات في الإسلام د. أبو بكر فوزي، و حكمة العبادات - الشيخ عبدالله جوادى آملي، والحكمة في التشريع الإسلامي - العبادات نموذج - د. يونس حسن عبدالرزاق.

(2) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (1006).

(3) مجموع الفتاوى 361/2.

ثانياً: من محاسن الإسلام في تشريع الصلاة:

الصلاة في الإسلام علاقة بين العبد وبين الخالق العظيم في علوه، فلا وساطة من بشر وغيره، أثرها يعود على الخلق، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وهي مذهبة للهم والغم، وأنها ملجأ وملاذ للمؤمنين عند الفرع فقد كان، ﷺ، يقول: ((يا بلال أقم الصلاة، أرحنا بها))⁽¹⁾.

وهي من أكبر ما يعين العبد على أمور دينه وديناه، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وفي تأديتها جماعة يحصل التعارف والتواصل بين المؤمنين، وفي فرضها مراعاة لظروف الناس الطارئة كالسفر والمرض والمطر الشديد، حيث تنقص ركعاتها أو بعض هيئاتها.

وأثبتت بعض الدراسات الطبية دور الصلاة في علاج بعض الأمراض كدوالي الساقين، وتآكل المفاصل والصداع⁽²⁾.

ثالثاً: من محاسن الإسلام في تشريع الزكاة:

الزكاة من أعظم أنظمة التكافل والتضامن الاجتماعي في الإسلام، حيث مواساة الغني للفقير ومن في حكمه من المستحقين للزكاة الذين جاء تحديدهم في القرآن الكريم حتى لا يأتي أحد ويمنع صنفاً منهم من حقه الذي أوجبه الله تعالى له؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَنَمِمْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة: 60].

وفي الزكاة تزكية للنفس من الشح والبخل، وتطهر القلب من حب الدنيا، وفيها التخلص بأخلاق الكرام من الجود والسخاء، قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: 103].

وفيها إذهاب لما قد يكون في نفوس الفقراء والمحرومين للأغنياء من حقد أو حسد. وهي وسط بين الاشتراكية المجحفة والرأسمالية المتطرفة.

رابعاً: من محاسن الإسلام في تشريع الصيام:

الصيام في الإسلام نظام يربي المسلم على الصبر على شهوتي البطن والفرج بالامتناع عن الأكل والشرب، والعلاقات الجنسية بين الزوج وزوجته، ففيه تمريناً للنفس على قوة العزيمة والصبر، وتقوية لدواعي الإخلاص لأنه ما من أحد يطلع عليه إلا الله.

(1) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب صلاة العتمة (4985)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (7892).

(2) ينظر: كتاب الاستشفاء بالصلاة. د. زهير رابع ص (98) و(125) وغيرها.

كما يتأكد في الصوم التربية على الامتناع عن الأخلاق السيئة من إيذاء الناس بالكلام أو بالبطش أو غيره؛ ويقوي في النفس صفة الحلم والصفح، قال ﷺ: ((إذا أصبح أحدكم يوماً صائماً، فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ شاتمته أو قاتله، فليقل: إني صائم، إني صائم))⁽¹⁾.

والصيام يبعث في الإنسان فضيلة الرحمة بالفقراء والإحساس بهم وبم حاجتهم، وهو مدعاة للوحدة بين المسلمين، حيث يصومه كل المسلمين في وقت واحد هو شهر رمضان من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. وأثبتت بعض الدراسات أن للصيام دور في علاج كثير من الأمراض، وخصوصاً ما يتعلق بالسمنة والجهاز الهضمي والكبد⁽²⁾.

خامساً: من محاسن الإسلام في تشريع الحج:

في الحج إبراز معنى العبودية والاستسلام المطلق لله تعالى، وتصفية النفس وتعويدها على البذل والإنفاق، وترك الزينة والخيلاء، وشعور المرء بمساواته لغيره فلا ملك ولا مملوك ولا غني ولا فقير بل الكل هناك سواء. وفي الحج التعرف على أحوال المسلمين وحاجاتهم الخاصة والعامة، وفي الحج توطين النفس على فراق الأهل والولد، والتذكير بالموت والحشر.

وفي الحج تربية للمسلم على التوازن في حياته، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 198] وكذلك التربية على الالتزام والانضباط والنظام، فمواقيت العبادة في الحج منضبطة فلا يمكن أن يؤخر بعضها ولا يقدمها⁽³⁾. فهذه بعض محاسن التشريع الإسلامي في الجوانب التعبدية.

للتشريع التعبدي في الإسلام محاسن كثيرة وعلى الدعاة التعريف بها وإقتناص سؤلها غير المسلمين عن الصلاة والزكاة والحج لعرض جمال الإسلام من هذه النواحي ضرور وفرصة رمضان "للتعريف بالإسلام في نصف ساعة" جواباً على سؤلها: لماذا يصوم المسلمون؟ فرصة عظيمة.

في بداية رمضان عام 2006 أذاعت إذاعة راديو مدينة فرايبورغ بجنوب ألمانيا مقابلة معي باللغة الألمانية يسألون فيها عن الحكمة وراء صوم رمضان، وما هي فوائدها، وكيف يصبر المسلمون كل هذه الساعات بدون طعام أو شراب؟

عدد كبير من المسلمين وكذلك من غير المسلمين ممن يعرفونني سمعوا المقابلة، ورأوا أنني قد وفقت بفضل الله في طرحي، ولكنني عقلتني عن أهم شيء، كان ينبغي علي أن أفعل، فقد كان بإمكانني أن أقول لهم: "قبل أن أعرفكم بشعيرة الصوم، دعوني أعرفكم بما هو

(1) صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب حفظ اللسان للصائم (1151).

(2) ينظر كتاب: الصيام معجزة علمية، د. عبد الجواد الصاوي ص 142-145، وكتاب الإعجاز الطبي في الصيام د. عبد الباسط محمد سيد.

(3) للاستزادة ينظر كتاب: وقفات تربوية في آيات الحج أ.د محمد بن عبدالعزيز العواجي.

أَجَلُّهُ وَأَعْظَمُ، وهو الخالقُ الْمَدْبُرُ - سبحانه - الذي أَسْرَنَا بِهَا". ولا أخفوه عليكم أنيهِ مَازَلَتْهُ (أَجِدُ فِيهِ قَلْبِيهِ غَضَبًا) لما قَوَّضْتُ كُلَّمَا تَذَكَّرْتُ هَذَا الأَمْرَ، فَقَدْ كَانَتْهُ مَعَ الأَسْفُهِ الشَّدِيدِ آخِرَ فِرْصَةٍ أُبَيِّحَتْ لِيهِ لِيُؤَمِّدَتْهُ فِيهِ إِذَاعَةُ رَادِيو.

إِخْوَانِيهِ الدَّعَاةُ! هُنَاكَ حَاجَةٌ إِلَيْهِ التَّعْرِيفُ بِالإِسْلَامِ بِأَسَالِيبٍ وَفُنُونٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَأَمَهُمَا فِيهِ هَذَا الزَّمَنُ: مِرَاعَاةُ الأَسْلُوبِ المَخْتَصِرِ الذِّي يَرَكِّزُ عَلَيهِ عَرْضِ أَصُولِ الإِسْلَامِ، مَعَ ضَرُورَةِ اِقْتِنَاصِ هَذِهِ الفِرْصِ وَخِصُوصًا فِيهِ المَوَاسِمِ مِثْلِهِ رَمَضَانِ، عِيْتُهُ يَلْتَمُ فِيهِ هَذَا السُّؤَالُ مِنْهُ غَيْرِ المُسْلِمِيْنَ، أَلَا وَهُوَ: "لِمَاذَا يَصُومُ المُسْلِمُونَ؟"، وَليْسَ هَذَا فَقَطْ بَلْهُ تَرَاهُمْ فِيهِ بَعْضُ المَوَاسِمِ يَتَسَاءَلُونَ: "لِمَاذَا يَفْعَلُ المُسْلِمُونَ هَذَا وَلا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ؟"؛ وَلِذَلِكَ يَقَعُ عَلَيهِ عَاقِبَتًا وَاجِبُهُ تَعْرِيفُهُمْ بِأَسْسِ الإِسْلَامِ بِمَا أَنَّنَا نَعِيشُهُ بَيْنَهُ ظَهْرَانِيَهُمْ فِيهِ هَذِهِ البِلْدَانِ بِحَيْثُ نَقُولُ لَهُمْ: "قَبْلَهُ أَنَّهُ أَخْبَرَكُمْ عَنْ سَبَبِ صِيَامِ المُسْلِمِينَ رَمَضَانَ، دَعْوَتِهِ أُعْرِفُكُمْ بِدِينِ الإِسْلَامِ، وَلِمَنْ يَصُومُوا؟ وَكُلُّهُ عِبَادَةٌ يَفْعَلُونَهَا، مَا الذِّي وَرَاءَهَا؟".

لِذَا أَقُولُ لَكُمْ دَاعِيَةً، بَلْهُ لَكُمْ مُسَامِي: "لَوْ أُبَيِّحَتْ لِيهِ الفِرْصَةُ فِيهِ بِدَايَةِ رَمَضَانَ:

- أَنَّهُ تَلْقِيهِ كَلِمَةً لِدَةٍ ثَلَاثِينَ دَقِيقَةً أَمَامَ جَمْعٍ مِنْهُ غَيْرِ المُسْلِمِينَ، وَتُرِيدُ أَنَّهُ تُقَرِّفُهُمْ بِالإِسْلَامِ مِنْ خِلَالِهِ عُنْوَانِهِ: "لِمَاذَا يَصُومُ المُسْلِمُونَ؟" فَمَاذَا سَقُولُهُ؟

- لَوْ تَمَّتْهُ اِسْتِخْفَاتُهُ فِيهِ بِرَنَاجِ تَلْفِزِيُونِيهِ بِقِنَاةٍ جَمُورُهَا غَيْرَ مُسْلِمِينَ لِتَتَحَدَّثَ عَنْهُ رَمَضَانَ، مَاذَا سَقُولُهُ؟

- لَوْ تَمَّتْهُ اِسْتِخْفَاتُ جِيرَانِهِ المَسْجِدِ الغَيْرِ مُسْلِمِينَ لِلاَفْطَارِ الجَمَاعِيِّ وَعَلِيَّهِ أَنَّهُ تَتَحَدَّثَ عَنْهُ رَمَضَانَ، مَاذَا سَقُولُهُ؟

- لَوْ أُرْدَتْهُ أَنَّهُ تَسْجِلُهُ فِيدِيو فِيهِ نَصْفَهُ سَاعَةً تَبَشِّرُ فِيهِ بِالإِسْلَامِ وَتَحْكِيهِ عَنْهُ مُغْتَنِيَهَا فِرْصَةَ رَمَضَانَ، وَالدَّعَاةُ الجِدُّ سَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ الحَاكِمَةَ فِيهِ الدَّعْوَةَ وَيَتَعَلَّمُوا مِنْهُ مَهَارَاتِهِ التَّبْلِيغِ، مَاذَا سَقُولُهُ فِيهَا؟

- لَوْ أُرْدَتْهُ أَنَّهُ تَقَدَّ مَطْوِيَةً لِتَوَزَعَهَا عَلَيهِ غَيْرِ المُسْلِمِينَ فِيهِ شَهْرَ رَمَضَانَ، مَاذَا سَتَكْتَبُهُ فِيهَا؟

هَذِهِ خَمْسُ مَنْتَجَاتِهِ دَعْوِيَّةِ رَمَضَانِيَّةِ ذَكَرْتُمَا بَيْنَهُ أُيْدِيَكُمْ.. عَلَيْنَا أَنَّهُ نُوَجِّهُ دَعْوَةً لَكُمْ مِنْهُ لَدِيهِ الخِبْرَةُ الدَّعْوِيَّةُ أَنَّهُ يَصْنَعُ مَنْتَجَاتِهِ دَعْوِيَّةً لِاِقْتِنَاصِ فِرْصَةِ فَضُولِهِ غَيْرِ المُسْلِمِينَ فِيهِ رَمَضَانَ، مِثْلَهُ تَسْجِيلُ 30 دَقِيقَةً يُعَرِّفُهُ فِيهَا بِالإِسْلَامِ بِأَسْلُوبٍ جَمِيلٍ وَبِلَفْتَةٍ الأَمِّ، أَوْ يَكْتَبُهُ مَقَالًا قَصِيرًا وَيُنشَرُهُ فِيهِ الجُرِيدَةُ المَحَلِيَّةُ.

إنه هذا الأمر يستحقه أنه يشغله به عدد كبير من الدعاة؛ للتعريف بالحق، وأيضاً لمزاحمة الباطل، فلا يقول أحدنا يُوجد من تكلم في هذه الأمر فلما علينا التكرار؟ بله علينا أنه نستمر في الدعوة إلى الله ديننا، وأنه نفتن في عرض منتجاتنا بأفضل الوسائل وأرق الطرق، وخاصة في مواسم الخير، ثم نشرها على أوسع نطاق في جميع وسائل التواصل الاجتماعي وعلى اليوتيوب، مع ضرورة الترويج لها بصفة مستمرة؛ ليستفيد منها الجميع: المسلمون وعلى رأسهم الدعاة، وكذلك نشرها بين غير المسلمين وبلغاتهم.

المحددات:

- 1- تحدث بلفظ المبلغ الذي يحكي عنه الإسلام مباشرة لغير المسلمين وليس موجهة للمسلمين، وليس بلفظ المدرب والموجه الذي يتحدث للدعاة كيف يتحدثون.
- 2- تذكر أنه هذا المقطع يصل إلى غير المسلمين ويستعرفون على الإسلام من خلاله.
- 3- تذكر أنه هذا المقطع سيرشحه الدعاة لغير المسلمين؛ ليطلعوا من خلاله على الإسلام.
- 4- اهتم بجودة التسجيل وجمال العرض.. فأنته تعرض دين الله لهم.
- 5- التركيز على التعريف بجمال الإسلام ومحاسنه وقيمه ودلائله صحيحة قبله أنه تبدأ بالمدينه عن سببه صوم المسلمين رمضان، فهي فرصته ليتعرف بالإسلام. ونقترح أنه تبدأ بإثباته الخالق ووعدايته، ولماذا خلق الخلق وأرسل الرسل، وإثبات صحة القرآن وصدق النبي صلى الله عليه وسلم، مع مراعاة التركيز أيضا على إيقاظ الفطرة.
- 6- أنه يكون الكلام بطريقة منهجية محددة وليس مجرد كلام ارجالي.

وإليكم نموذج:

لماذا يصوم المسلمون؟

صديق، جار، زميل العزيز، الآن وقت رمضان وقد سألته نفسه لماذا يصوم المسلمون شهر كامل يُعْرَضُونَ أنفسهم للجوع والعطش يوم كامل؟ للمسلم يكفيه أن الله الخالق الحكيم هو الذي أمرنا بذلك قد لا يكفي هذا لذا أقترح أن تأذن له أن أعرفه على أسس الإسلام قبله أن نتعرف على الصيام كدراسة للأخلاق ومصدر للرحمة ومصدر لأجمل علاقة بينه الناس وغالقتهم وبينهم أنفسهم وحتى تعرفه لماذا يؤديه المسلم كل العبادات وحتى تفهم لماذا مع كل صلاة وكل دقيقة صوم نعلن المحبة والتعظيم لله ونعلن عبوديتنا له وعده.

والصيام فرضها الله على الأنبياء السابقين عليهم السلام، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة البقرة: 183]، والمسلم يؤديه الصيام عبادة وطاعة لله عز وجل؛ لأنه يعلم أن الله لا يأمر إلا بما هو خير له في الدنيا والآخرة، فيحصل له بسببه ذلك الأجر والثواب، وبالصوم يحقق الهدف الرئيسي وهو التقوى؛ لأنه فيه تربية على مراقبة الله تعالى في السر، فيترك المفطرات في كل مكان وفي كل لحظة من لحظاته يوم الصيام، ولو كان لا يراه أحد، فإذا كان يستطيع ترك الأشياء الضرورية كالطعام والشراب فهو أقدر على ترك المعاصي التي ليست ضرورية بل مضافة، وذلك بنفسه العزيمة التي تُكَلِّمُ بها من الصيام، وتحصل له الفوائد الأخرى التي تحصل تبعاً دون أن يقصد لها المسلم العبادة، كالصحة.

فلو تعرفته على أسس الإسلام سيكون سهلاً عليه فهم كيف يقدر المسلمون الصوم لذا لو تأذن له أن أعطي أهم الأساسيات عن حقيقة الإسلام ثم أهم الفوائد والحكم الروحية والأخلاقية والوجدانية بشكل ملخص وفي نصف ساعة؟

دعني أسألك في البداية: ألا يورق سؤاله نفسه: من خلقتي ولماذا؟ ولماذا أذهب بعد الموت وما مصيري؟ من هو الإله الحق؟ من نعبده؟ وما هو الموتى الأخير؟ كيف أفوز بالجنة والحياة الأبدية؟ ما الهدف من كل هذا الوجود؟ أليس مقلقاً إن كانت النهاية موتاً وتراباً وعدمًا؟ ألا تكون الصدمة عظيمة إن لم تكن مهيناً لما بعد الموت؟

حين يتأمل المرء الأرض التي يعيش عليها، ويرى هذا الكون الواسع الجميل، السماء بنجومها الكثيرة، تسير بنظام متقن، والأرض بكل ما عليها لا بد له أن يتساءل: من الذي خلقه هذا كله؟

من الذي خلق الإنسان فأبدعه، وجعله في أحسن صورة؟

وعينها يتأمل المرء نفسه يجد العجيب في إبداع الخالق، وإحكام صنعه، تأمله في أجهزة جسمه المختلفة التي تعمل بطريقة محكمة، ولا تعرف عن عملها إلا القليل، فضلا عن استطاعتها التحكم فيها.

هل يظن عاقله بأنه الكون وما فيها خلقه عبثاً، وأنه الناس يولدونه، ويعيشونه على هذه الأرض زمناً ثم يموتونه، وينتهي كل شيء؟ أو أنه الكون وجد بالصدفة أو أوجد نفسه بنفسه، بما أنه هذان احتمالان مستحيلان فلا بد أنه هناك من أوجد كل هذا.

نعم إنه الله الخالق الذي خلق الكون كله، وهو وعد الذي يصرفه فيه وسيرة.

إنه ربك العظيم القوي الأكبر من كل مخلوقاته الذي خلقك، ورزقك، وحياك، ويميتك، وهو الذي أوجدك من العدم، كما أوجد هذا العالم كله من العدم. ألا يستحق استنار ساعده للتعرف على خالقه وماذا يريد منك؟

إذا ما حقيقة الأمر، ولما خلقنا نحن البشر ومن يجيبني على كل أسئلتني؟

بحثنا الإسلام على التفكير والتأمل وأنه نبي أعطانا على الدليل الصحيح. ونجد أنه القرآن يشير إلى ذلك، فقد حكى الله لنا فيه عن أهل العقول والتفكير، فقال: {وَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَهُ هَذَا بَطِلاً تُبَاهِنَاً} (آل عمران: 191).

صديقي، ألا يهمل أنك تعرفه بعينه ومجاريه على الدين الأكثر والأوسع إنتشاراً كما أثبتته الإحصاءات العالية؟ ما السبب من وراء ذلك؟ ما رأيك أنه تعطيه نفسك ولو مرة في حياتك الفرصة لتعرفه على الإسلام من مصادرها الموثوقة ثم تحاكمها بمنطقك وعقلك وتعدى الدعايات الإعلامية لتتقبه عن المعلومات من مصادرها وتحكم بموضوعية واتزان؟

وهذه الأدلة التي سأذكرها نأخذها نحن من الوحي الأخير من الله وهو القرآن المعجز ومن سنة النبي الخاتم محمد (كلامه وأفعاله وتقريراته) لذا سأقتح عليك قرائتهما بأقرب وقت، فنأخذ نحن منهما الحقائق ونأخذ منهما أنه كل شيء، نراه حولنا له خالق الذي لم يخلقنا سدى وبتركنا، وإلّا أرسل رسلاً مثله آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ورسالة كلهم: "اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً". {1} {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}. {2}، خلقه كافة البشر والمخلوقات والأكوان، وهو وعد يستحق التمجيد. والإسلام يأمرنا بحب كل أنبياء الله فلا يؤمن حق الإيمان من لم يؤمن بالرسالة فالركن الرابع من أركان الإيمان أنه تؤمن بالأنبياء كلهم وعيسى كنبى ونجبه وختمه وتؤمن برسالة النبي هي نفس رسالة محمد صلى الله

عليه وسام، فالسلمون هم أتباع صادقون لعيسى والأنبياء والرسل من قبله ويتبعونه الوصايا التي جاء بها الأنبياء (عليهم السلام) وعليهم جميعاً أيضاً فرض الصيام وستجد في 40 موضع في البايبل عن فرضية الصيام.

الآن دعنا نتسائل هل هذا الكون كله خلقه بدون خالق صدفة ومع مرور الزمن؟
من الخالق؟

دعني أسأل: مما يتكون جوالك أو أجهزتك أو سيارتك؟ ماذا لو أخبرتك الآن بأنه كل هذه الأجهزة تشكّلته بنفسها صدفة..

يجربنا المنطق السليم بقيام أحد بصناعة هذه الأمور التي نستخدمها، لذا يفترض بالمنطق السليم أنه يجربنا الشيء نفسه بالنسبة للكون، مع كل قوانينه وأنظمتها - التي تعد بالنسبة أكثر تعقيداً من الهاتف والسيارة. كما تشير إلح وجود ذكاء أعلى خلق الكون وهندسته. يدل وجود المخلوق على وجود خالق؛ كما يعطيه تعقيد المخلوق وإتقانه خلقه نبذة عن مدى ذكاء الخالق وقدراته.

إذن لماذا خلقنا الله؟

فإنه خلقنا لعبادته لكن عبودية الإنسان خالقه إختيارية وليست إجبارية (إختيارية إختيارية) فالصوم إختيار هل ستقف بربك أنه فرضها لحكم والزكاة فرضها لتعطيها للفقراء فهل ستطيع أم لا تطيع ليختبرنا في تحقيق هذه العبادة، فمن عبّد الله وأحببه وخضع له وأطاع وأمره واجتنب نواهيه ناله رضا الله ورحمته ومحبتة وهمازة الجزاء الحسن، ومن رفض عبادة الله الذي خلقه ورزقه، واستكبر عنها، فقد خسر. فالله لم يخلقنا عبثاً ولم يتركنا مدح، وإنه من أحمق الناس من ظن أنه خرج إلح هذه الدنيا ووهب له السمع والبصر والعقل، ثم عاش في هذه الحياة فترة من الزمن ثم مات، ولا يدري لماذا جاء إلح هذه الدنيا، وإلح أين سيذهب بعدها، والله جل وعلا يقول: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَتَّكُمُ الْإِنَّا لَا تُرْجِعُونَهُ) [المؤمنون: 115].

سأخبرك ماذا ستجد في مصادر الإسلام من الأمور الأساسية.

الإسلام لا ينتسب لرجل خاص، ولا لقبيلة، أو عرق، أو أمة، وذلك لأنه ليس خاصاً بأمة من البشر حتى ينسب لها، وما ابتدع من تلقاء بشر حتى ينسب له، وإلح سمى فقط الإسلام: أي التسليم والطاعة الكاملة للرب الخالق المالك، والتحرر من كل أنواع العبودية لغيره.

رسالة الإسلام هي رسالة عالمية لكل البشر: للمسلمين واليهود والنصارى والهندوس والبوذيين والملاحدين وغيرهم. لقد أرسل الله رحمة للجميع.

استجد في الإسلام من مصدره (القرآن والسنة) أنه يرشدنا إلى احترام آباءنا وكبار السن ورعايتهم، والإحسان إلى الأهل والزوجة والأبناء.

استجد في الإسلام من مصدره (القرآن والسنة) أنه يشجعنا على إطعام الضعفاء والفقراء ومساعدة المحتاجين والمعاقين ومساندتهم ورمضان أفضل فرصة لتجوع مثلهم فنشعر بهم، وتجربنا الإسلام بأنه غير الناس هو أنفعهم للناس، وأمرنا بالصدق والأمانة والوفاء والكرم والايثار والتواضع والقناعة والتسامح والرحمة والصبر والإحسان والعفة والشكر والشجاعة للحق والعدالة الاجتماعية والسلام العالمي وأنه نتعامل مع البشر والحيوانات والطيور والبيئة من حولنا برحمة وأنه تحب للناس ما تحب لأنفسنا والسعي في إسعاد الآخرين بأنه لا نقاتل الآخرين ولا نكسر مشاعر أحد بلفظ أو تصرف، ونتجنب الفرور والتكبر وألا نختر الناس أو نضع من قدرهم، وأمرنا بالإسلام بأنه لا نفرض الناس ولا نكذب عليهم ولا نخدعهم ولا نخسدهم ولا نسيء الظن بهم.

الإسلام يؤكد لنا من مصدره (القرآن والسنة) بأنه جميع الناس سواسية بفضو النظر عن الجنس أو اللون أو الجنسية، فلا تفاخر ولا تفاضل في الإسلام بالجنس أو النسب أو الجنسية أو الأرض التي ينتج لها الفرد.

ما أرشد إليه النبي محمد حول مبدأ المساواة والعدل بين الناس هو مستمد من كلام الله في القرآن الكريم الذي فيه حلوه للقضاء على العنصرية.

دعني أعرفك أيضاً بالوحي الأخير للبشرية: القرآن الذي جاء لنا هذه الأوامر مثل الصوم وغير ذلك من العبادات.

ما هو مصدر القرآن ولماذا يستحيل أنه يكون محمد هو من ألفه القرآن؟

القرآن الكريم هو كلام الله الموحى به إلى نبيه الله الخاتم محمد ﷺ، وهو آخر الكتب التي أنزلها الله تعالى وهو الكتاب السماوي الأخير والوحيد الذي لم يجرّف أو يبدّل منه كلمة أو حرف واحد منذ نزوله بالوحي قبل 14 قرناً، وبقيت بلغته العربية الأصلية حتى اليوم محفوظاً والقرآن دليل على نبوته محمد ﷺ فلا يستطيع بشر أن يخترع من تلقاء نفسه كل هذه الدقة العلمية.

فهو يمكنه أن يكون محمد الرسول الخاتم قد اخترعه من تلقاء نفسه، أو تعام ما فيه وأعاد صياغته وقدمه للناس بعد ذلك؟

إنها تقفز إلى ذهنه مباشرة ما لم يكن صاعبها مطلقاً على القرآن، دارساً له، أو عالماً بسيرة محمد ﷺ وقصته 1.

القرآن كتابه دقيقه يزيد عن 600 صفحة يغطي مجالات عديدة من المواضيع أو محي بها على مدار 23 عاماً، يصف لنا بالتفصيل الدقيقه كيف بدأ الخلق، وكيف ينتهي، ويصفه الجنة ونعيمها، والنار وأحوالها عذابها، ويقرر قضايا تفصيلية عن حقيقة الكون والإنسان. لو كان بشراً هو من كتبه القرآن كان ليواجه بالفعل بعدد من المشاكل فكتابته ومحى من عند الله ممنوع أنه يحطه أو أنه يناقضه نفسه وممنوع أن تكون لغته ركيكة أو يكون هناك عبارات غير مؤدية ويجب أن يحافظ عليه متسقاً وأن يكون أفضل كتابه لغوياً وعلمياً على وجه الأرض، وبالفعل كل هذه المواصفات تطبقه على القرآن.

لو لم يكن القرآن من عند الله لكان على محمد ﷺ أن يكتبه هو بنفسه وهو في وسط الصحراء العربية الحالية من الكتب ونافيله أنه أمي. كان عليه أن يكون بارعاً في القانون. في الحقوق المدنية والقانون الجنائي وقوانين الأسرة والعمل والنزاعات الشخصية والعقارات والضرائب والمالية وكان عليه أن يعرف التاريخ مع انعدام كتبه التاريخ والمؤرخين حوله. وفعل نصه القرآن بارع في هذه القوانين المذكورة كلها.

كان عليه أن يعرف القصص وأحداثه وسير الانبياء من قبله وتاريخ الدول السابقة والأحكام الدينية اليهودية والمسيحية. وكان عليه أن يعرف كيف يقيم نظام دولة ويطور أمة تعيش في صحراء قاحلة. وعليه أن يجمع قوانينه للحمية الغذائية ومأم بعلم النفس وعلم التربية والتحكيم وتوزيع الثروات المالية وقانون الميراث والتوليد والعمل وفي العلوم يجب أن تتوفر له معرفة بعلم الأجنحة وعلم المحيطات وتشكيل سحابة الصفاغ التكتونية والأشعة فوق البنفسجية ومعرفة دقيقة بالنباتات والجبال والنحل والدماغ البشري والانفجار العظيم وتوسع الكون ولأحبه يكمل الكتابه يجب أن تكون لديه معرفة ببعض ما سيحدثه في المستقبل وحتي يتمكن من كتابة الأشياء التي سوف تحدثه في السنوات القادمة يجب أن تتوفر له القدرة على السفر عبر الزمن ليدخل اسمه وذكره في الكتاب المقدس إذ كان يدعي أن الكتابه الذي كتبه من عند الله يجب ألا يفشله في حله واحد من الحلول التي يقدمها، لظن من يفحص القرآن أنه لا توجد وسيلة يمكنه أن تُعلمن لرجله في الصحراء قبله 1400 عام أن يكتبه مثل هذا الكتابه بهذه البراعة بدونه أدنى تناقض.

وثبت بدونه شأنه أنه القرآن فيه كل هذه المواصفات التي ذكرتها فمستحيل أن يكتبها النبي محمد. وهذا، إذن، يعني، أنه كان صادقاً في أنه وحياً من عند الله الخالق.

فإذا كان من عند الله فهذا يعني أنه كان نبياً حقيقياً وإن كان نبياً صادقاً فينبغي أن تؤمن به وتصغى لرسالته وأنه نطبعه.

ما هو القرآن الذي كثيراً ما يصدر أعلى الكتب مبيعاً وتوزيعاً حول العالم ويؤمن به مليارات مسلم ويثبتون على أنه معجزة الإسلام الخالدة؟

إن صحته القرآن، وكونه كلام رب العالمين، يتبين من وجوه متعددة:

أولاً التقلد: هناك أنواع من المعجزات، وإعجاز القرآن تنقل القرآن خلفاً عنه سلفه، والإعجاز في اللفظ: فإن القرآن يحفظه في كل عصر الملايين من الناس، ونقله جيلاً عن جيل عبر التاريخ بأرق درجته الضبط والإتقان والدقة في كتابته، وطرقه نطقه وأدائه، وحفظه في الصدور، وطرقه كتابته، لا ينقص منه حرف، ولا تزيد فيه حركة إذ أن الله تعالى قد تكلف بحفظه. وقد جاء في القرآن: {وَلَوْ كَانُوا مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} (النساء: 82) ولا عجب فقد تكلف الله بحفظه، فقال: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر: 9).

ثانياً: عدم القدرة على الاتيان بمثله

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.﴾ [البقرة: ٢٣]. تحدى القرآن الكريم العربي، الذين كانوا قول الشعر واللفظ، على الاتيان بسورة واحدة تشبه سور القرآن. ووجدوا أنفسهم عاجزين عن الارتفاع إلى مستوى هذا التحدي على الرغم من قدراتهم اللغوية.

ثالثاً: وضوح الرسائل التي تعرفه بالله

ينسجم ما يعلمنا إياه القرآن الكريم عن الخالق عز وجل مع ما يستطيع أي شخص التوصل إليه بصورة منطقية في أي مكان كان - وهو القول بوجود خالق واحد ليس كمثل شيه،.

رابعاً: غلو القرآن من أي تناقض أو تعارض.

خامساً: والرسالة الشاملة للقرآن الكريم: شمولية القرآن

سادساً: اختبار إبطال القرآن:

يقدم القرآن الكريم اختصاراً لإبطاله، وهو اختبار جيد يمكن تطبيقه على جميع الكتب التي تدعي كونها منه عند الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانُوا مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

سابعاً: الرقة في القرآن الكريم والنظم البديع والأسلوب المخالف لكل نظم معروف في لسانه العربي وفي غيرها. الجزالة والإخبار عن الأمور التي تقدمت في أوله الدنيا، وعن المغيبات في المستقبل التي لا يطلع عليها إلا بالوحي. والإعجاز البياني والنفسي واللغوي.

قصة الخلق

خلق الله أبانا آدم عليه السلام من طين ثم نفخ فيه من روحه، ثم بعد ذلك خلقه الله من آدم زوجته حواء؛ وجاء الانبياء بعد آدم

فلا يوجد أي نبي طلب من الناس أن يعبدوه. فلما دعا عيسى عليه السلام الناس إلى عبادة الله، استجاب له من استجاب ورفض الدعوة كثير من الناس واستمر في دعوته يدعو الناس إلى عبادة الله؛ لكن كثير منهم كفر به وعاداه بله تألبوا عليه وحاولوا قتله! فقال الله تعالى له: (يا عيسى إني متوفيتك ورافعتك إليّ ومطهرتك من الذين كفروا) [آل عمران: 55].

ذكرنا أن الرسول المختار من عند الله لا بد أن يكون في الذروة العليا من سمو النفس وصدق الحديث وحسن الأخلاق، وكذلك كان محمد صلى الله عليه وسلم فقد نشأ صادقاً أميناً حسن الخلق طيب الحديث فصيح اللسان محبوباً من القريب والبعيد معظماً في قومه ومحترماً بينهم يلقبونه بالأمين.

وبالإضافة إلى حسن خلقه فقد كان جميل الخلق لا تملح العين من رؤيته أبيض الوجه واسع العينين طويل أهداب العينين أسود الشعر عريض المنكبين.

وللعلم مكانة عظيمة في الإسلام

يظن البعض أن الدين يعارض العقل ويتناقض المنهج العلمي؛ لأنه رأى أدياناً أخرى مصدر للخرافات والأوهام والأساطير وتصادر العقل وتتناقض أحياناً، فصادرها وكتبها تعج بالأساطير والمعتقدات الخرافية التي تخالف الكون والعالم أو عبارات غير محترمة.

والمطلع على القرآن الكريم وسنة النبي محمد -الصدران الرئيسيان للإسلام- يعلم يقيناً أنه أعظم للعقل مكانة لا يجاريه فيها دين آخر وأنه يستحق العقل ويدعو للتأمل والتفكير، حتى إنه كرر سؤال الاستنكار (أفلا تعقلون؟) أكثر من ثلاثين عشرة مرة.

ما هذا التناقض الرهيب بين الإسلام وواقع بعض المسلمين؟

هذه جملة قد يقولها البعض إذا تعرفوا على حقيقة شرائع الإسلام التي تدعو لسمو الأخلاق والسير لعمارة الأرض، ونفع الإنسانية، ونشر السلام بين الناس، ثم نظروا حولهم فوجدوا مزيجاً تنتسب إليه الإسلام بعيدة كل البعد عنه ذلك.. فهل يمكن أن يكون هؤلاء أتباع الدين الحق؟

ليس كل من انتسب إليه الإسلام أو ولد في الإسلام يكون مسلماً ملتزماً بكل شعائر الدين، فهناك الكثير من القصور والانحراف عنه حقيقة الإسلام وتعاليمه في كل مكان من حولنا، ومن المسلمين من لا يعرفون الإسلام إلا اسمه فقط.

الفويا من الإسلام

هناك جهات إعلامية تسعى لنشر الفويا من الإسلام واتهام المسلمين بالإرهاب، فما علاقته بالإسلام: نسأل أولاً من الذي أشعل الحرب العالمية الأولى والثانية؟ هل المسلمون؟ من الذي قام بقتل 20 مليوناً نفسه بشرية من سكان أستراليا الأصليين؟ أو من ضربه القنابل النووية هيروشيما وناجازاكي؟ من الذي قام بقتل ما يزيد على 100 مليون من الهنود الحمر في أمريكا الشمالية؟ و 50 مليوناً آخرين الهنود الحمر في أمريكا الجنوبية؟ من الذي قام باسترقاق حوالي 180 مليوناً أفريقيين كعبيد وقد توفي حوالي 77% منهم أثناء الأعمال الشاقة ثم تم إلحاقهم في المحيط الأطلسي؟ هل المسلمون؟ لا، لم يكونوا المسلمين!! قبل كل ذلك علينا أن نقوم بتحديد معنى الإرهاب جيداً؛ فلا يجوز التكيل بمكاليين.

إله هنا قد تكون له فكرة واضحة عن الإسلام، تستطيع بعدها أن تتدبر في رفع رصيد المعرفة عن هذا الدين.

بعد عرضنا القصير هذا حول الإسلام، ومعرفة أكثر عن هذا الدين، أود معرفة رأيك. هل يقنعك هذا الكلام؟ هل تعتقد أنه أكثر منطقية مما تؤمن به حالياً؟ إذا كان كذلك، فأنا أدعوك بكل جدية إلى التفكير بالأمر واعتناق الإسلام ليكون دينك ومنهج حياتك

كم مرة ترددت في اتخاذ قرار واغتنام فرصة لصالحك، وما زلت حتى اليوم تلوم نفسك على ذلك التردد؟

إنه أعظم كرامة للإنسان هي هيبته وقدرته على اتخاذ القرار الذي فيه مصلحة بدون خوف أو تلجج.

فإنه كان قد ظهر لله رونقه لهذا الدين وجماله، وما زلتو بحاجته إليه مزيد من البحث والسؤال عنه حقيقة الإسلام ومزاياه، فأما ملته مجال رحبه للقراءة والاطلاع والحوار والسؤال، ولكنه لتنظر إليه ابتداءً من الآن بعينه أخرى وزاوية مختلفة.. بانصافه وتجرد والآن أنا وآقوه سيكون أسهل علينا فهم لماذا يصوم المسلمون؟.

من أسماء الله تعالى: الحكيم، فكل ما خلقه أو شرعه فهو لحكمة بالغية فام يفرض علينا الله تعالى الصيام في شهر رمضان من أجله أنه نجوع ونعطش ونعصب، وإلهناك مقاصد وأهداف وحكم كثيرة لهذه العبادة، سنذكر بعض منها:

تربية النفس على التقوى: إنه أول هذه الحكمة والمقاصد من الصيام أنه يبلغ درجاته من التقوى، إله شرع الله الصيام وفرضه لتحقيق التقوى، والتدريب على الطاعات، فمرضانه من مواسم الخيرات التي امتن الله تعالى بها على عباده؛ ليقوى إيمانهم، وتزداد فيه تقواهم، وتعمق صلواتهم وبرهم ورفقهم تعاملهم مع الناس ويزيد رصيدهم في ميزان حسناتهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]. ففيه رمضان من العبادات والأعمال الصالحة ما يجعل النفوس تنقاد إله رب العالمين، فتزكو النفوس، وتظهر القلوب، وتعيش الأرواح أجواء إيمانية مفعمة بالبركات والرحمات. والصوم عبادة يتقرب بها العبد إله به بترك محبوباته المحبولة على محبتها من الطعام والشراب والنكاح؛ لينال بذلك رضوانه والفوز بدار كرامته، فينجم في هذا الاختبار ويتبين بذلك إثارة لمحباته به على محبوباته نفسه وللدار الآخرة على الدار الدنيا. ويلوغ مقام التقوى عند الله غاية تطلع إليها أرواح المؤمنين، والصوم أداة من أدواتها وطريقه موصل إليها؛ فالتقوى هي التي توظف القلوب الشاردة لتؤدي هذه الفريضة طاعة لله، وإيثارا لرضاه، والتقوى هي التي تدفع العبد ليحرس صومه لئلا يفسده بالعصية. واختبار لصبرك هل تطيع الله أو لا تطيع.

إتباع الصائم بنعمة الله تعالى عليه: فعندما يصوم المسلم يمتنع عن الطعام والشراب والجماع وسائر المفطرات، وعينئذ يتذكر نعمة الله تعالى عليه بوجود هذه النعم ويسيرها له حاله الفطر، فيشكر الله تعالى على نعمه التي لا تحصى، قال تعالى: "وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّهُ الْإِنْسَانُ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ" (إبراهيم: 34). أنه الصوم وسيلة إله شكر النعم، فالصيام هو كف النفس عن الأكل والشراب والجماع، وهذه من أجل النعم وأعلاها، والامتناع عنها زمانا معتبرا يعرف قدرها، إذ النعم مجهولة، فإذا فقدت عرفتها، فيخيل ذلك على قضاها بالشكر.

تذكير الصائم بإخوانه الفقراء والمساكين: فإنه الصوم موجب للرحمة والعطف على المساكين فإنه الصائم إذا ذاق ألم الجوع في بعض الأوقات، ذكر من هذا حاله في جميع الأوقات، فتسارع إليه الرقة عليه، والرحمة به، بالإحسان إليه، فكان الصوم سببا للعطف على

المساكين. وفعلا نجد أنه الصيام يقوي من إرادة المسلم ويجعله إيجابيا، بالإقدام على مساعدة الغير والإكثار من عمله الخير وغيرها فنجد ملايين اليوروهات وملايين الأطنان من المواد الغذائية تذهب من بلدان إسلامية إلى أفريقيا. فإن الصائم إذا شعر ألم الجوع والعطش يتذكر إخوانه الفقراء والمساكين، فيرحمهم ويعطفهم عليهم ويعد يده بالعون والإحسان إليهم، قال تعالى: "وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ" (النساء: 36). هكذا نستشعر حال إخواننا المستضعفين والمشردين والمكبوبين، في كل مكان، الذين يهجرهم من ديارهم، فيخربونهم إلى العراء جوعا هلكا لا يجدون ما يسترهم، ولا ما يسد رمقهم. وهذا الشعور يساعد في التوجه نحو تحقيق التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع.

الصيام يكسر عدة الشهوة: فالصوم أعظم طريق لإزالة النفس، والسيطرة عليها، والتدريب على ضبطها، وقيادتها ويكسر عدة الشهوة، وبالداومة عليه تحصل لدى المسلم الاستقامة وخفض البصر والبعد عن المحرمات ومجاهدة النفس، ولذا أوصى النبي ﷺ الشاب الأعزب الذي لا يستطيع الزواج بالصيام، فعنه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَبَابًا لَا نَجِدُ شَيْئًا، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مِنْ اسْتِطَاعِ الْبَاءَةِ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضَىٰ لِلْبَصَرِ، وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ" (رواه البخاري ومسلم). وأنه الصوم وسيلة إلى ترك المحرمات، لأنه إذا انقادت النفس للإمتناع عنه انحلت طمعا في مرضاة الله تعالى وحيته، وهوفا من سخطه وأليم عقابه، فأولها أنه تنقاد للإمتناع عنه الحرام. فالصوم يتغلب على الشهوة، لأنه النفس إذا سبقت تمتت الشهوات، وإذا جمعت امتنعت عما تهوى فكان ذلك رادعا له عن ارتكاب المحارم والفواحش والجرائم، وذلك جامع للأسباب القوي فيكون معنى الآية: فَرْضُهُ عَلَيْكُمْ الصِّيَامَ لِتَكُونُوا بِهِ مِنَ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ أَتَيْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ فِيهِ كِتَابِي. إنه الصوم يملك الإنسان من قيادة نفسه لما فيه غيرها وسعادتها في الدنيا والآخرة، ويعد عنه أنه يكون عبدا للشهوات وهوارة.

الصيام مدرسة خلقية كبرى: يتدرب فيها المؤمن على خصاله كثيرة، ويعود المسلم على خلقه الصبر، ويعلمه النظام والانضباط، ويدربه على الأمانة. إضافة إلى ذلك أنه الصيام يكسب المسلم عفة اللسان؛ لأنه الصائم يمسك عن الرفق والصحبة، ومجاعة من سبه أو سفه عليه، فعنه أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمٌ صَوْمٌ أَحْرَمْتُ فَلَائِزُ فِتْنَةٍ وَلَا يَصْحَبُ فَإِنَّهُ سَابُّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتِلُهُ فَلْيَقْلِبْهُ إِلَيْهِ امْرُؤٌ صَائِمٌ" (رواه البخاري ومسلم). فالصوم مشروع تربوي تهديفي تأسيسي لنفس الإنسان وتقويم لسلوكه، إذا راعى العبد آداب وسننه وأحكامه أثر تأثيرا بالغا فيه، ويظهر ذلك في عباداته وأخلاقه وسلوكه ومعاملاته. وإعلاء للجانب الروحي على الجانب المادي في الإنسان.

الصيام يوحد مشاعر المسلمين: إنه الصيام يوحد مشاعر المسلمين، فالكل صائم وفقه منج تربويه واحد، من أخصى الأرض إلى أدها، غنيها وفقيرها، أبيضها وأسودها، عمرها وعمها، الكل ممثله لأمر الله تعالى. وهو الشعور بوحدة الأمة وجماعية الطاعة، فلو أن الله تبارك وتعالى غير كل واحد منا بصيام 30 يوماً وعبدة وقيام 30 ليلة منفرداً عن غيره، لوجد صعوبة كبيرة وكان هذا العمل فيه مشقة عظيمة، ولكن من رحمة الله تبارك وتعالى بالأمة أنه جعل الطاعة جماعية، ففيه رمضان يصير الغالب على المجتمع حرصه على الصيام مع أعمال الطاعة والخير والبر، فالمساجد تمتلئ، وأعمال البر والصدقات يتسابق فيها المتسابقون، والأخلاق السمحة تفرض نفسها، والكل يقرأ القرآن ويجلسون في المساجد، وما ذلك إلا بما أودعه الله في هذا الشهر من بركاته، وتيسيره للناس سبل الخير عن غيره من الشهور. وأنت تصوم هذا العام وتفطر على ما رزقك الله من غيره وفضله، تذكر إخوانك المبطلين في كل مكان، في أفريقيا وأرض الشام ويورما وغيرها، فتستشعر معاناتهم وآلامهم، وتبذل لهم من مالك ودعائك ما تستطيع، وتحمد ربك على نعمة العافية. وفي تعيين شهر رمضان بالذات شهراً للصوم، دون ترك التعيين للإنسان ليختار شهراً معيناً لنفسه من السنة، فيه إشعار للمسلمين بوحدةهم، ومن تعويدهم النظام والانضباط والاستسلام لله تعالى، وفيه فتح الباب لأعمال موحدة من الخير، ينال كل مسلم من المسلمين فيها نصيبه، وإعلان لدخول المسلمين جميعاً في يوم واحد مدرسة واحدة فيها الصيام والقيام ومكارم الأخلاق، والبذل والإحسان، وتلاوة القرآن. وإضافة إلى ذلك فإنه يذكرنا بصيام أنبياء الله نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام.

الصيام يكسبه البدن الصحة والقوة والحياة: أثبت علم الطب أنه للصيام فوائد صحية كثيرة، فهو يعمل على إزالة السموم من الجسم، ويرفع الجهاز الهضمي، ويساعد على علاج التهابات، ويعمل على خفض مستويات السكر في الدم، ويساعد على زيادة حرق الدهون، وهو مفيد لمرضى ارتفاع ضغط الدم، ويعزز الجهاز المناعي، ويعمل على تنقية الكلى والمسالك البولية، ويساعد على خفض الوزن الزائد، ويقوي الجسم من الحصوات والرواسب الكلسية والزوائد اللحمية والأكياس الدهنية، ويحفظ أنسجة الجلد ويقوي من الأمراض الجلدية. وأثبتت بعض الدراسات أنه للصيام تأثيراً إيجابياً على تنقية الجسم من الخلايا الورمية، كما أنه بعض الأطباء في الغرب يستغلون الصيام كوسيلة لعلاج بعض الأمراض كأمراض القلب، والتهاب المفاصل، والربو، والقرح، وبعض أمراض الجهاز الهضمي: مثل التهاب المرارة، ومرض القولون العصبي، وبعض الأمراض الجلدية. ومع الجوع يبدأ الجسم باستهلاك المخزون الجسدي، وطرده ما فيه من السموم والفضلات؛ فمع قلت الطعام الناتج عن صيام النهار ينتظم التنفس، ويقطع العبد اللعوب على القلب، ويتيح للجهاز الهضمي أن يجد أنسجته التالفة، كما أنه قلت الفضلات تسمع بإراحة الكلى وتجدد نشاطها، إلى غير ذلك من الفوائد الصحية العظيمة. هناك بعض المسلمين يكثر من الطعام في المساء عند الإفطار وهذا عمل غير جيد فالأصل في رمضان وغير رمضان

عدم الإكثار من الطعام وتطبيق السنة في حديثه: "مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وَعَاءَ شَرًّا مِنْهُ بِطَنِهِ، بِحَسْبِهِ ابْنُ آدَمَ أَكَلَاتَهُ يُقِمِّنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَتَلْتُهُ لَطْعَامِهِ، وَتَلْتُهُ لِشَرَابِهِ، وَتَلْتُهُ لِنَفْسِهِ" 1.

تعويد المؤمن على الإكثار من الطاعات، وذلك لأنه لأثر الصائم في الغالب تكثر طاعته فيعتاد ذلك. و الصيام يعطي المؤمن القدرة على اتخاذ القرار في القيام بالعبادات ومواصلتها فيما بعد رمضان التي اعتادها في رمضان.

تربية النفس على التوبة: أن الصيام يدرّب المؤمن ويعلمه الامتناع عن العصية واجتنابها والبعد عنها. فمن كان لا يستطيع ترك ذنبه ما أو تعاطيه سكر أو دخان أو لسانه غير مهذب يجرع الناس وهو أثبت في شهر كامل أنه يستطيع أن يعدل سلوكياته السيئة. عبر عام طويل يحمل العبد على ظهره من الذنوب والمعاصي ويقع في مخالفات كثيرة، والذنوب تميته القلوب، وإذا اعتاد العبد على الذنب استسهله وغاض في غماره، فيظلم قلبه وإذا اعتاد العبد على الطاعات سلك طريقه الخير وارتقى بنفسه.

تربية النفس على العفو والصفح: من الأمور التربوية التي يجب أن يخرج بها العبد من رمضان أنه يتعد عن أذى الناس، وسام الناس من لسانه ویده، فلا ينبغي للعبد أن يصوم رمضان وهو واقع في قطع الرحم والغيبة والنميمة والسب والشتم والكذب وهي معاصي يجب الحذر منها واجتنابها من الصائم وغيره؛ إذ إنها تجرح الصوم وتضعف الأجر؛ لقوله النبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلِ بِهِ، وَالْجَهْلِ بِهِ؛ فَلَيْسَ لِي حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ"، ولقوله صلى الله عليه وسلم: " الصَّيَّامُ جُنَّاتٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمَ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ؛ فَلْيَقُلْ إِنَّهُ أَمْرٌ صَائِمٌ " 2 فمتى لو سابل أحد أو استفزك تقول إنني صائم. فالصوم ليس مجرد الإمساك عن الطعام والشراب والجماع من الفجر حتى غروب الشمس كلا، فهناك حكم وأسرار لهذا بعضها، لكننا نرى بعض الناس يصوم بطنه ولا يصوم جوارحه، فيصوم عن الحلال المباح، ويتناول ما حرم الله من المنكرات كقول الزور وفعل الزور، فلا يتورع بلسانه عما حرم الله، ولا يفض بصرة كذلك عن المحرمات، ويقع بيده ورجله في المحرمات، بل ربما يفطر عند إفطاره على كسبه محرم، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وإن مما يستجلب به العبد عفو الله عنه أنه يعفو عن الناس، ولين الجانب معهم، ويخفض الجناح لهم، فعنه عائشة أنها قالت: (يا رسول الله أرايت إن وافقت ليلة القدر ما أدعو؟ قال: اللهم إنك عفوٌ تحبُّ العفو

1 صحيح سنن الترمذي 2380

2 أخرجه البخاري (1805)، ومسلم (1151)

فَأَعْفُو عَنْهُمْ¹). قال ابن رجب: "والعفو من أسماء الله تعالى وهو الذي يتجاوز عن سيئات عباده، الماحي لآثارها عنهم، وهو محبة العفو، فيحبب أن يعفو عن عباده، ومحبة من عباده أن يعفو بعضهم عن بعض؛ فإذا عفا بعضهم عن بعض عاملهم بعفوه، وعفوه أحب إليه من عقوبته"²

أن الصوم وسيلة للتعالج بالإخلاص ويريح على الصدق؛ لأن الصائم يعلم أنه لا يطلع أحد غير الله تعالى على حقيقة صومه، وأنه إذا شاء أن يترك الصوم دون أن يشعر به أحد لفعله، فلا يمنعه عن الفطر إلا اطلاع الله تعالى عليه، ولا يمنعه على الصوم إلا رضا الله، والتفكير إذا تعايشته مع هذه الرؤية صارت متعلية بالإخلاص والصدق.

الصوم في الحر واستدارة الزمان: اختيار السنة القمرية في التوقيت له فيها حكم عظيمة، فالسنة القمرية أقل من السنة الشمسية بموالب عشرة أيام، فعلى هذا يتقدم شهر رمضان كل عام عنه في السنة الماضية عشرة أيام، وعلى هذا ففيه خلال ستة وثلاثين عامًا لا يقو يوم من أيام السنة إلا وقد صامه المسلم، يشهد له بصومه لربه. اليوم القصير.. واليوم الطويل.. واليوم الحار.. واليوم البارد. وبذلك يتساوى المسلمون في كل أقطار الدنيا في مقدار الصيام وحدته، ولولا هذا لكان نصيب أهل المناطق الحارة أشد من نصيب أهل المناطق الباردة، وناس يصومون يومًا طويلًا أبد الدهر، وناس يصومون يومًا قصيرًا. ومن رحمة الله عز وجل بعباده أن علق الصوم والإمساك على علامتين سماويتين يسهل تمييزهما هما طلوع الفجر، وغروب الشمس، وفي ذلك ضبط للتوقيت يستطيعه أي إنسان في أكثر مناطق العالم كما قال سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: 187]. ومن رحمة الله بعباده أن منح الناس في رمضان وقتًا يعوضون فيه كل ما فقدوه في صيام اليوم من هاجمة الجسد، وذلك بإباحة الطعام والشراب والنكاح ليلاً، ومنعه منهم نهارًا، وبذلك يتحضر الصيام نفعًا خالصًا للإنسان بدنيًا ونفسيًا.

كما ترى في الإسلام كل شيء منضبط فلا يوجد فوضى في التشريع وفي أمور حياة الناس الدينية.

ولكي يؤتي الصوم النتيجة المرجوة منه، فلا بد للصائم أن يلتزم بآداب الصوم، وأن يتجنب ما يحدس فيه، قال صلى الله عليه وسلم: "مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَقْلِ بِهِ، وَالْجَهْلَ؛

1 أخرجه الترمذي (3513) وصححه الألباني في صحيح الجامع (4423).

2 لطائف المعارف لابن رجب ص(228).

فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشِرَابَهُ"، ولقوله صلى الله عليه وسلم: " الصَّيَّامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمٌ صَوْمٌ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُتُهُ وَلَا يَضْحِكُهُ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ؛ فَلْيَقْلِبْهُ إِلَى امْرَأَتِهِ صَائِمٌ "1.

ومعنى جنَّة: وقاية في الدنيا من المعاصي بكسر الشهوة، وحفظ الجوارح، وفي الآخرة من النار.

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: إذا صمت، فليصم سمعك وصرعك ولسانك عن الكذب والحرام، ودع أذى الجار، وليكن عليك مكينة ووقار يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك، ويوم فطرك سوا.

رمضان دورة إيمانية مكثفة نرجوا فيها نحن المسلمون أن نتقنها وقد:

- زاد إيماننا

- ارتقىنا بصلواتنا نحافظ عليها على أوقاتها ونقيها على وجهها

- صلحت نياتنا

- صلحت نفوسنا

- ارتقى أخلاقنا

- تدرينا على حفظ ألسنتنا وجوارحنا

- تدرينا على الحام واللين والأناة

- تدرينا على العفو وحسن التسامح والتغاضي والتواضع لأجل الله

- زاد علمنا وتدرينا وفهمنا لكتاب ربنا

- تعلمنا على حسن إدارة والاستفادة من أوقاتنا

- طهرنا قلوبنا من الرياء والنفاق، وألسنتنا من قول الزور والفجور والفاحش من الكلام.

- طهرنا عيوننا من الخيانة والنظر إلى ما حرم الله

- طهرنا أرزاقنا من الحرام، فأطبنا مطعمنا لتستجيب دعواتنا

- تَعُودُنَا عَلَيَّ مَحَابِبَةَ أَنْفُسِنَا وَالصَّدَقَةَ فِيهِ ذَلَالَةٌ

- تَدْرِبُنَا عَلَيَّ ضَبْطَ النَّفْسِ

- تَدْرِبُنَا عَلَيَّ الصَّبْرَ وَالشُّكْرَ

- تَدْرِبُنَا عَلَيَّ تَمَامَ الرِّضَى بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَنَا

- تَنْهِنَا عَنِ الْخَوْضِ فِيهِ الْقَيْلِ وَالْقَالِ وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ

وَنُرِيهِوْنَا أَنَّنَا مَصْلَعُنَا عَلَيَّ رِضَا رَبِّنَا

فَظَلَّ هَذِهِ تَمَارِينُ رَائِعَةٍ لِبَقِيَّةِ الرَّهْرِ 11 شَهْرًا لِنَسْتَمِرَّ عَلَيْهَا.

المبحث الثالث

محاسن التشريع الأخلاقي في الإسلام

اعتنى الإسلام بالجانب السلوكي والأخلاقي، ورسم كيفية تعامل الناس مع بعضهم البعض في المجتمع الواحد، وحرص على إرساء دعائمه وأسسها التي تكفل الأمن والأمان لكل أعضاء المجتمع الواحد. ولقد تجاوز الإسلام الدعوة النظرية في الأخلاق إلى التطبيق؛ فبوأ الأخلاق مكانة سامية وربطها بالإيمان به تعالى وجعلها شاملة لكل نواحي الحياة⁽¹⁾.

ومن أجمع الآيات في جانب السلوك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠] فهذه الآية جمعت أصول محاسن الإسلام في جانب السلوك فعن ابن مسعود: "إن هذه الآية أجمع آية في القرآن"⁽²⁾.

وتظهر محاسن الإسلام العملية في جانب السلوك في أمور أجملها في جانبين نعروضهما من خلال مطلبين⁽³⁾:

المطلب الأول

الحث على السلوكيات الفاضلة

حث الإسلام على السلوكيات الفاضلة ويظهر ذلك من خلال مجموعة من التوجيهات في القرآن والسنة، ومن ذلك:

أمر الإسلام بالتعاون على البر والتقوى، فقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2].

وأمر بالأخوة والاتحاد وعدم التفرق والتنازع، فقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وبين لهم عاقبة التنازع، فقال تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وحت على التعارف والتواضع بقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ خُضًّىٰ وَقَوْلُهُ: ﴿تِلْكَ

(1) أهمية الأخلاق والأدلة عليها ذكرناها عند الحديث عن أخلاق الداعية في أهمية الأخلاق في الإسلام في الكتاب الثاني (الداعية).

(2) جامع البيان 337/14.

(3) للاستزادة ينظر: الأخلاق الدينية والحكم الشرعية د. عبدالرحمن الجزائري، والأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام د. مصطفى حلمي، الأخلاق في الإسلام د. محمد علي يوسف، الأخلاق والآداب الإسلامية د. عبدالله الهاشمي، الأخلاق الإسلامية ودورها في بناء المجتمع، د. جمال نصر، الأخلاق الإسلامية وأسسها د. عبدالرحمن حبنكة، موسوعة نضرة النعيم في أخلاق سيد المرسلين، د. صالح ابن حميد.

الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴿ [الفصص: ٨٣]، وقوله: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال ﷺ: ((يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمري على أسود، ولا أسود على أحمري، إلا بالتقوى))⁽¹⁾.

وأمر بالعدل والإحسان في جميع الأحوال حتى مع غير المسلمين، فقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَأَلِيمًا رَحِيمًا ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨]. وأمر بالأمانة والوفاء بالعهد، فقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا ءَالَيْمَنَ بَعَدَ تَوْكِيدِهَا قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل: ٩١]، وأوجب الوفاء بالعقود مهما كانت، قال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١]. وقوله: وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَان مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤].

وبين ﷺ مغبة عدم الوفاء بالعقود، فقال: ((لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له))⁽²⁾. وحث على سلامة الصدر بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [الحشر: ١٠]. وحث على الأدب في المشي والكلام ومن ذلك، قوله تعالى: ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٩].

وحدث كذلك على الحياء، فقال ﷺ: ((الحياء لا يأتي إلا بخير))⁽³⁾، وقال: ((الحياء خير كله))⁽⁴⁾، وقال: ((إن لكل ديناً خلقاً وخلق الإسلام الحياء))⁽⁵⁾.

وحدث على الصدق ومدحه، وحذر من الكذب وذمه، فقال ﷺ: ((عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً،

(1) مسند أحمد 474/38 (23489)، شعب الإيمان للبيهقي (4921)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (2963).

(2) مسند أحمد 375/19 (12383)، صحيح ابن حبان 422/1 (194) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن. وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (35).

(3) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحياء (6117)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان (165).

(4) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان (165).

(5) موطأ مالك، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في الحياء (1644) وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الحياء (4181)، قال شعيب الأرنؤوط: قد وصله ابن ماجه بسنتين ضعيفين يرتقي الحديث بهما إلى درجة الحسن، ينظر: جامع الأصول 622/3 (1958)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة 616/2-618 (940): وبالجملة فهذا الإسناد حسن، ولا يعكر عليه أن مالكا أخرجه في "الموطأ" لأنه إسناد آخر وهو مرسل، بل هو شاهد للموصول لا بأس به.

وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً⁽¹⁾.

ومن السلوكيات الفاضلة الجامعة التي حث عليها الإسلام كذلك، ترك الإنسان ما لا يعنيه، فقد قال ﷺ: ((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))⁽²⁾.

وحث على القوة والعزيمة، فقال ﷺ: ((المؤمن القوي، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان))⁽³⁾.

المطلب الثاني

التحذير من السلوكيات السيئة

فصلت تعاليم الإسلام كثيراً في النهي عن كل السلوكيات التي من شأنها أن تشين الإنسان وتورث العداوات بين الناس، وتعيق المجتمع من القيام بواجباته ومن ذلك:

1- نهى الإسلام عن الإسراف والتبذير والبخل والتقتير في قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْذُرْ بَذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]. ووصف ذلك بأبشع وصف، ومثل له بحالة السوء، بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

2- ونهى عن التناجي، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُبَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المجادلة 9-10]. وقد فصلها النبي ﷺ بقوله: ((إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن ذلك يجره))⁽⁴⁾.

3- ونهى عن التكبر على الخلق في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]، وبين أنه لا يجب من اتصف بهذا الوصف، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: 23].

4- ونهى عن مشية التبخر والتمایل كما يفعل المتكبرون، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، وجعلها وصية الصالحين لذرياتهم في قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

5- نهى عن البغي بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾

(1) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (6805).
(2) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (3976)، جامع الترمذي، كتاب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس (2317) وقال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح 1361/3 (4839).
(3) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله (6945).
(4) صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة (6290)، ومسلم، كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه (2184).

[الأعراف: ٣٣]، وقول النبي ﷺ: ((إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد))^(١).

"والبغى: الاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم"^(٢).

6- وحرمة السخرية والاستهزاء والهمز واللمز، والتنايز بالألقاب، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا مِن قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]. وقال ﷺ: ((ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء))^(٣).

7- ونهى عن سوء الظن، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِتْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. وقول ﷺ: ((إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث))^(٤). وعن عمر بن الخطاب ؓ قال: "ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيراً وأنت تجد لها في الخير محملاً"^(٥).

8- نهى عن التجسس والتجسس^(٦)، بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال ﷺ: ((ولا تجسسوا ولا تحسسوا))^(٧).

وقد ورد أن النبي ﷺ خطب فقال: ((يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يفيض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عورتهم فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله))^(٨).

9- نهى عن الغيبة والبهتان، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

(1) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (2865)

(2) روح المعاني 280/10.

(3) جامع الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الفحش والتفحش (1977) وقال حديث حسن، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (320).

(4) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع (5143)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب الظن والتجسس والتنافس والتناجش (2563).

(5) الدر المنثور 566/13، كنز العمال 252/16، شعب الإيمان للبيهقي 323/6 (8345).

(6) قيل في الفرق بين التجسس والتجسس: أن التجسس "تتبع فيه العورات من أجل الغير، ومنه جاء الجاسوس، أما التجسس: فتتبع فيه العورات من أجل النفس، وقيل معناها واحد في تطلب معرفة الأخبار". ينظر: النهاية في غريب الحديث 752/1.

(7) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع (5143)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها (2563).

(8) جامع الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن (2032) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الجامع 1323/2 (7985).

ونبهنا رسول الله ﷺ على معنى الغيبة وحقيقتها فقال يوماً لأصحابه: ((أندورن ما الغيبة؟)) قالوا الله ورسوله أعلم، قال: ((ذكرك أخاك بما يكره)) قيل: أ رأيت إن كان في أخي ما أقول؟ فقال ﷺ: ((إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتته))⁽¹⁾.

10- نهي عن النميمة: قال تعالى: ﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم 11]، قال العلماء: "النميمة: نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد بينهم"⁽²⁾.

وقال رسول الله ﷺ: ((لا يدخل الجنة قتات))⁽³⁾ وفي رواية ((لا يدخل الجنة نمام))⁽⁴⁾، وخرج النبي ﷺ، من بعض حيطان المدينة، فسمع صوت رجلين يعذبان في قبريهما، فقال: ((أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة...))⁽⁵⁾.

11- نهي عن إثارة النعرات القومية والعصبيات القبلية والدعوات الجاهلية التي تفرق بين الناس، فقال ﷺ: ((ليس منا من ضرب الحدود، ودعا بدعوى الجاهلية))⁽⁶⁾.

ولما تنادى الصحابة بـ قوميتهم قال ﷺ: ((دعوها فإنها منتنة))⁽⁷⁾، وفي رواية: ((أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم))⁽⁸⁾.

12- نهي عن مجموعة من الأخلاق التي تعكر صفو الأخوة فقال ﷺ: ((لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره.. بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه))⁽⁹⁾.

وكذلك ما ورد في قوله ﷺ: ((المؤمن أخو المؤمن، فلا يجمل له أن يبتاع على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يذر))⁽¹⁰⁾، وكقوله: ((من غش فليس منا))⁽¹¹⁾.

(1) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الغيبة (2589).

(2) شرح النووي على صحيح مسلم 112/2.

(3) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة (6056)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب غلط تحريم النميمة (105).

(4) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب غلط تحريم النميمة (105).

(5) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب النميمة من الكبائر (6055)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (292) مع وجود اختلاف في اللفظ.

(6) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما ينهى من الويل ودعوى الجاهلية عند المصيبة (1297)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الحدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية (103).

(7) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: { سواء عليهم أستغفرت لهم.. } (4905)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً.

(8) القصة مبسوسة في كتب السيرة وغيرها، انظر: السيرة النبوية لابن هشام 555/1-556، وتفسير جامع البيان 629/5، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم 716/3-718، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 90/2، والدر المنثور 57/2-58.

(9) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره .. (6706).

(10) صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه حتى يأذن أو يترك (1412).

(11) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب من غشنا فليس منا (102).

13- نهى عن التهاجر والخصومة، فقال ﷺ: ((تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين والخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجل كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال أنظروا هذين حتى يصطلحا))⁽¹⁾. وقال: ((لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث فمن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار))⁽²⁾.

14- نهى عن المزاح غير اللائق كما قال النبي ﷺ يقول: ((لا يأخذن أحدكم متاع أخيه لاعباً ولا جاداً))⁽³⁾، فقد يروع أخ أخاه في الله فيغضب ذلك الأخ ويصدر منه رد فعل قد يكون سبب خصام بينهما⁽⁴⁾.

15- نهى عن مجموعة من المعاملات التي تورث العداوة، كحرمة الربا في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: 275].

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 278 - 279]. و((لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه))⁽⁵⁾.

16- حرم الله الميسر بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: 90 - 91].

فكل هذه النواهي والتحذيرات من أجل النهي عن السلوكيات الخاطئة التي تهدد أمن المجتمع النفسي والاقتصادي والاجتماعي.

لأخلاقه في الإسلام مكانة عظيمة جداً، تظهر منه وجوه كثيرة، نذكر منها ما يأتي: أولاً: لتعليق الرسالة بتقوم الأخلاق وإساعة مكارم الأخلاق، جاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إني بعثت لاتمم مكارم الأخلاق ثانياً: تعريفه الدين بحسن الخلق فقد جاء في حديثه مرسله أنه رحل جاء المح النبي فقال يا رسول الله: ما الدين؟ فقال الرسول الله: «حسن الخلق». وهذا يعني أنه حسن الخلق ركن الإسلام العظيم الذي لا قيام للدين بدونه، كالوقوفه في عرفاته بالنسبة للحج، فقد جاء في الحديث الشريف «الحج عرفه» أي أنه ركن الحج العظيم الذي لا يكون الحج إلا به الوقوف في عرفاته.

المبحث الرابع

- (1) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب النهي عن الشحناء والتهاجر (2565).
- (2) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب فيمن يهجر أخاه المسلم (4914)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (7653).
- (3) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب من يأخذ الشيء على المزاح (5003)، وجامع الترمذي كتاب الفتن، باب ما جاء لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً (2161)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (4183).
- (4) موسوعة الآداب الإسلامية، عبدالعزيز فتحي السيد ندا 566/2 بتصرف.
- (5) صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا وموكله (1598).

محاسن التشريع الاقتصادي في الإسلام

من المشكلات الظاهرة في كل المجتمعات المشكلة الاقتصادية، حيث إنها تمثل جانبا من أهم جوانب الحياة الاجتماعية بل هي أخطرهما في التأثير المباشر على سلوك الإنسان وتصرفاته، ولذا فقد وضع الإسلام نظاما دقيقا في أصول التعاملات المالية يضمن به حقوق الفرد والجماعة، وأجل تلك المحاسن في النقاط التالية⁽¹⁾:

1- المال في الإسلام مال الله، والعباد مستخلفون فيه، قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ

﴿[الحديد:7].

2- الإسلام يقوم على تمجيد العمل والنهي عن البطالة، حتى فضل العامل الكادح على العابد الذي لا يعمل. قال ﷺ: ((ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده))⁽²⁾.

3- التركيز على مصدر المال، وأوجه إنفاقه بأن يكون المال حلالا طيبا من مصدر العمل المشروع والتجارة النظيفة، ولا يصرف إلا فيما فيه منفعة، ففي الحديث في تعداد ما يسأل عنه المرء يوم القيامة: ((وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟))⁽³⁾.

4- مراعاة الفطرة الإنسانية، بإقرار حق الملكية الفردية وحق العباد، لأن الإنسان مفطور على حب المال، كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤ - ٢٥].

5- إقرار نظام الإرث وتنظيمه تنظيما دقيقا لأن الإنسان مفطور على حبه لأبنائه وقلقه عليهم إذا تركهم بدون مال، حتى عندما أراد سعد بن أبي وقاص ؓ أن يتصدق بماله عندما أحس بالموت قال له رسول الله ﷺ: ((الثلث، والثلث كثير إنك أن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تتركهم عائلة يتكفون الناس))⁽⁴⁾.

6- النهي عن المعاملات المحرمة التي تأخذ أموال الناس بالباطل، ولهذا حرم الربا والرشوة والغصب والغش، والبيع على بيع أخيه والعينة والنجش وما إلى ذلك.. الترغيب في القرض الحسن. قال ﷺ: ((من أقرض الله مرتين كان له مثل أجر أحدهما لو تصدق به))⁽⁵⁾. وقال: ((كل قرض صدقة))⁽⁶⁾.

7- وأمر بإنظار المعسر، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾

[البقرة: ٢٨٠].

(1) للاستزادة ينظر: الاقتصاد الإسلامي، أسس ومبادئ وأهداف، أ. د. عبدالله بن عبدالحسن الطريقي، ومبادئ الاقتصاد الإسلامي، د. أحمد نصار، والوسطية في الاقتصاد الإسلامي د. محمد الفنجري، علم الاقتصاد في النظم الوضعية والشريعة الإسلامية، والنظام المالي في الإسلام د. قطب إبراهيم محمد.

(2) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده (2072).

(3) جامع الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقاق والورع، باب في القيامة (2417) وقال الترمذي: حسن صحيح.

(4) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة (1295)، ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث (1682).

(5) صحيح ابن حبان 418/11 (5040) شعب الإيمان للبيهقي 187/5 (3284)، وقال شعيب الأرنؤوط: حسن.

(6) المعجم الأوسط للطبراني 17/4 (3498) شعب الإيمان للبيهقي 188/5 (3285). وحسنه الألباني في صحيح الجامع (4542).

المبحث الخامس

محاسن التشريع القضائي في الإسلام

ويمكن بيان محاسن التشريعات القضائية في الإسلام من خلال المطالب التالية⁽¹⁾:

المطلب الأول

أهمية القضاء في الإسلام

غاية القضاء في الإسلام إقامة العدل الذي هو رسالة هذا الدين، ومهمة رسل الله القيام بهذا الأمر وانفاذه. ووظيفة أتباع الرسل السير على هذا النهج كي تبقى النبوة تمد الناس بظلمها الظليل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل 90]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: 58].

وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: 26].

فالعدل هو الغاية من رسالات الله، والعدل قيمة من القيم الإسلامية العليا، لأن إقامة الحق والعدل هي التي تشيع الطمأنينة، وتنشر الأمن، وتشد علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وتقوي الثقة بين الحاكم والمحكوم، وتنمي الثروة، وتزيد في الرخاء، وتدعم الأوضاع، فلا تتعرض لخلخلة أو اضطراب، ويمضي كل من الحاكم والمحكوم إلى غايته في العمل، والانتاج، وخدمة البلاد، دون أن يقف في طريقه ما يعطل نشاطه، أو يعوقه عن النهوض. وإنما يتحقق العدل بإيصال كل حق إلى مستحقه والحكم بمقتضى ما شرع الله من أحكام وتجنب الهوى في القسمة بين الناس بالسوية.

فمن أهم الوسائل التي يتحقق بها القسط، وتحفظ الحقوق، وتصان الدماء والأعراض والأموال؛ هي: إقامة النظام القضائي الذي فرضه الإسلام، وجعله جزءاً من تعاليمه، وركيزة من ركائزه التي لا بد منها ولا غنى عنها. ولذا فالقضاء في الإسلام شامل لجميع الحقوق سواء أكانت حقوقاً لله أم حقوقاً للآدميين.

(1) تم تلخيصه من كتاب فقه السنة لسيد سابق - كتاب القضاء، وللاستزادة ينظر: النظام القضائي في الإسلام د. أحمد علي جرادات، والنظام القضائي في الفقه الإسلامي د. محمد رأفت عثمان، مآثر النظام القضائي في الإسلام د. نجدة غماش، التنظيم القضائي في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة د. محمد الزحيلي، السلطة القضائية ونظام القضاء في الإسلام أ. د نصر فريد واصل، القضاء في الإسلام الشيخ علي الطنطاوي.

وهو فرض كفاية لدفع التظالم وفصل التخاصم ويجب على الحاكم أن ينصب للناس قاضيا ومن أبي أجبره عليه، وإذا كان الإنسان في جهة لا يصلح للقضاء غيره تعين عليه ووجب عليه الدخول فيه.

وبين النبي ﷺ أن القضاء مسؤولية عظيمة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن الرسول ﷺ قال: ((لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس))⁽¹⁾.

وحذر رسول الله ﷺ من الدخول في القضاء لمن لا علم لهم بالحق ولا قدرة لهم على الصدع به ولا يتمكنون من ضبط أنفسهم ولا كبح جماحها ومنعها من الميل إلى الهوى، فقال النبي ﷺ: ((القضاة ثلاثة: قاضيان في النار وقاض في الجنة: رجل قضى بغير الحق فعلم ذلك فذاك في النار، وقاض لا يعلم فأهلك حقوق الناس فهو في النار، وقاض قضى بالحق فذلك في الجنة))⁽²⁾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: ((من جعل قاضيا فقد ذبح بغير سكين))⁽³⁾ أي فقد تعرض لذبح نفسه وإهلاكها بتوليئه القضاء.

ولذا كان الخوف من العجز عن القيام بالقضاء على الوجه الأكمل هو السبب في امتناع بعض الأئمة عن الدخول في القضاء.

"منه وفيه القضاء، أو جعله قاضيا بين الناس، فقد ذبح بغير سكين."
 الحکم بین الناس من الأمور العظام التي يخاف عليها صاحبها، إلا أنه يعرل ويقضي بالحق.
 وفي الحديث: التحذير من الظلم.
 وفيه: خطورة القضاء بين الناس، إن لم يعرل أو يقض بالحق.

المطلب الثاني

الإسلام حدد مصدر القضاء العادل

القرآن والسنة هما مصدر الحكم في الإسلام، قال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أُنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ

(1) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة (71)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب من يقوم بالقرآن ويعلمه (816).

(2) جامع الترمذي، كتاب الأحكام، باب ما جاء عن رسول الله ﷺ في القاضي (1322) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (4298).

(3) مسند أحمد 52/12 (7145)، وقال شعيب الأرنؤوط: حسن، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح، وابن ماجه كتاب الأحكام، باب ذكر القضاة (2308)، وسنن أبي داود بلفظ ((من ولي القضاء)) في كتاب الأفضية، باب في طلب القضاء (3573)، وجامع الترمذي، كتاب الأحكام، باب ما جاء عن رسول الله ﷺ في القاضي (1325) قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

سنن الترمذي (1325)، أخرجه أبو داود (3571) مخصراً، والترمذي (1325) واللفظ له

لَفَسِقُونَ ﴿ [المائدة: 49]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥].

ولا شك أن الاعتماد في أحكام القضاء على الكتاب والسنة، مما يضمن دقة الأحكام، وعدم اتباعها للهوى، وفي ذات الوقت يضمن وحدة الحكم في كل أطراف الدولة الإسلامية، وكذلك استمراريته طوال العصور المتعاقبة.

ولذا فإن أول من تولى القضاء هو رسول الله ﷺ في المدينة، كما جاء في الصحيفة التي قررها رسول الله عندما وصل المدينة: ((إنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله، وإلى محمد رسول الله))⁽¹⁾.

وإذا اجتهد القاضي في معرفة الحق وإصابة الصواب فهو مأجور ولو لم يصب الحق، فعن عمرو بن العاص أن الرسول ﷺ قال: ((إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر))⁽²⁾.

قال الخطابي: "إنما يؤجر المخطئ على اجتهاده في طلب الحق لأن اجتهاده عبادة. ولا يؤجر على الخطأ بل يوضع عنه الإثم فقط. وهذا فيمن كان من المجتهدين جامعا لآلة الاجتهاد عارفا بالأصول وبوجه القياس، وأما من لم يكن محلا للاجتهاد فهو متكلف ولا يعذر بالخطأ في الحكم بل يخاف عليه أعظم الوزر"⁽³⁾.

وعلى ذلك حدد علماء الإسلام من يصلح للقضاء:

قال الفقهاء: ولا يقضي بين الناس إلا من كان عالما بالكتاب والسنة، فقيها في دين الله، قادرا على التفرقة بين الصواب والخطأ، بريئا من الجور، بعيدا عن الهوى.

وقد اشترط الفقهاء في القاضي أن يبلغ درجة الاجتهاد، فيكون عالما بآيات الاحكام وأحاديثها، عالما بأقوال السلف ما أجمعوا عليه وما اختلفوا فيه، عالما باللغة، وعالما بالقياس، وأن يكون مكلفا ذكرا عدلا سميعا بصيرا ناطقا.

وهذه الشروط تعتبر حسب الامكان ويجب تولية الأمثل فالأمثل.

فلا يصح قضاء الكافر ولا الصغير ولا المجنون ولا الفاسق ولا المرأة ولا المقلد.

وعلى ذلك قال العلماء: كل من ليس بأهل للحكم فلا يحل له الحكم، فإن حكم فهو آثم ولا ينفذ حكمه وسواء وافق الحق أم لا، لأن إصابة الحق اتفافية ليست صادرة عن أصل شرعي فهو عاص في جميع أحكامه سواء وافق الصواب أم لا. وأحكامه مردودة كلها. ولا يعذر في شيء من ذلك.

(1) السيرة النبوية لابن هشام . 503/1.

(2) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (7352)، ومسلم، كتاب الأفضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (1716).

(3) معالم السنن 160/4.

المطلب الثالث

دستور القضاء الإسلامي

بين رسول الله ﷺ، مجموعة من قواعد القضاء العامة التي هي أساس للقضاء والعدل في الإسلام، ونكتفي هنا بذكر أربعة نماذج لها:

أولاً: نماذج لأحاديث نبوية:

القاعدة الأولى: عن علي ؑ أن الرسول ﷺ قال: ((يا علي إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر، كما سمعت من الأول فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء)) قال: فما اختلف علي قضاء بعد، أو ما أشكل علي قضاء بعد⁽¹⁾.

القاعدة الثانية: عن ابن عباس ؓ، أن رسول الله ﷺ، قال: ((لو يعطى الناس بدعواهم، لادّعى ناس دماء رجال وأموالهم، ولكن اليمين على المدعى عليه))⁽²⁾.

القاعدة الثالثة: عن أم سلمة ~ أن النبي ﷺ قال: ((إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي بنحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار))⁽³⁾.

القاعدة الرابعة: للقاضي أن يشفع الشفاعة الحسنة فيطلب من الخصوم أن يصطلحوا أو يتنازل أحدهم عن بعض حقه، فعن كعب بن مالك ؓ: أنه تقاضى ابن أبي حدرد ؓ دينا له عليه في عهد رسول الله ﷺ في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله ﷺ وهو في بيته، فخرج إليهما رسول الله ﷺ حتى كشف سجد حجرتة، ونادى كعب بن مالك، فقال: ((يا كعب))، فقال: لبيك يا رسول الله، ((فأشار له بيده، أن ضع الشطر من دينك))، قال كعب: قد فعلت يا رسول الله، قال النبي ﷺ: ((قم فاقضه))⁽⁴⁾.

ووضع عمر بن الخطاب ؓ أسس أحكام القضاء في الرسالة التي أرسلها إلى أبي موسى الأشعري ؓ وفيها.

(1) مسند أحمد 2/225 (882)، وأبي داود كتاب الأفضية، باب كيف القضاء (3584) وقال شعيب الأرنؤوط محقق مسند أحمد: حسن لغيره.

(2) صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب اليمين على المدعى عليه (1711).

(3) صحيح البخاري، كتاب الحيل، باب إذا غضب جارية فزعم أنها ماتت.. (6967) واللفظ له، ومسلم، كتاب الحدود، باب الحكم بالظاهر، واللعن بالحجة (1713).

(4) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب رفع الصوت في المساجد (471)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين (1558).

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس. سلام عليك. أما بعد:

- فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له.
- آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك.
- البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.
- والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا.
- لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل.
- الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق.
- واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلا استحلت عليه القضية، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى.
- المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودا في حد أو مجربا عليه شهادة زور، أو ظنينا في ولاء أو نسب، فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والایمان.
- وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شأنه الله، فما ظنك بثواب غير الله، في عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام⁽¹⁾.

المطلب الرابع

واجب القاضي في الإسلام

على القاضي أن يتحرى الحق فيبتعد عن كل ما من شأنه أن يشوش فكره، فلا يقضي أثناء الغضب الشديد، أو الجوع المفرط، أو الهم المقلق، أو الخوف المزعج أو النعاس الغالب، أو الحر الشديد، أو البرد الشديد أو شغل القلب شغلا يصرف عن المعرفة الصحيحة والفهم الدقيق، لحديث أبي بكر ؓ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((لا يقضين حاكم بين اثنين وهو غضبان))⁽²⁾.

(1) تاريخ المدينة لابن شبة 412/1، سنن الدارقطني 206/4-207، سنن البيهقي 65/6 و115/10 و119 و135 و150، وصححه الألباني في إرواء الغليل 241/8.

(2) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب: هل يقضي القاضي أو يفني وهو غضبان (7158)، ومسلم، كتاب الأفضية، باب كراهة قضاء القاضي وهو غضبان (1717).

وعلى القاضي أن يسوي بين الخصمين في:

- 1 - في الدخول عليه.
 - 2 - والجلوس بين يديه.
 - 3 - والاقبال عليهما.
 - 4 - والاستماع لهما.
 - 5 - والحكم عليهما. والمطلوب منه التسوية بينهما في الأفعال دون القلب، فإن كان يميل قلبه إلى أحدهما ويجب أن يغلب بحجته على الآخر فلا شيء عليه، لأنه لا يمكنه التحرز عنه.
 - 6- ولا ينبغي أن يلغن واحدا منهما حجته، ولا شاهداً شهادته، لأن ذلك يضر بأحد الخصمين، ولا يلغن المدعي الدعوى والاستحلاف، ولا يلغن المدعى عليه الإنكار والإقرار، ولا يلغن الشهود أن يشهدوا أو لا يشهدوا.
 - 7- ولا أن يضيف أحد الخصمين دون الآخر، لأن ذلك يكسر قلب الآخر، ولا يجيب ضيافة أحدهما، ولا إلى ضيافتهما ما داما متخاصمين.
- ولا بد أن يكون عفيف النفس، ولا يقبل ولا يطلب حراماً، قال في سبل السلام: "وحاصل ما يأخذه القضاة من الأموال على أربعة أقسام: رشوة، وهديّة، وأجرة، ورزق.
- فالأول الرشوة:** إن كانت ليحكم له الحاكم بغير حق فهي حرام على الآخذ والمعطي، وإن كانت ليحكم له بالحق على غريمه فهي حرام على الحاكم دون المعطي. لأنها لاستيفاء حقه، فهي كجعل الأبق وأجرة الوكالة على الخصومة.
- وقيل: تحرم لأنها توقع الحاكم في الإثم.
- وأما الهدية:** فإن كان ممن يهاديه قبل الولاية فلا يجرم استدامتها، وإن كان لا يهدي إليه إلا بعد الولاية: فإن كانت ممن لا خصومة بينه وبين أحد عنده؛ جازت وكرهت، وإن كانت ممن بينه وبين غريمه خصومة عنده فهي حرام على الحاكم والمهدي.
- وأما الأجرة:** فإن كان للحاكم جراية من بيت المال ورزق منه حرمت بالاتفاق، لأنه إنما أجري له الرزق لأجل الاشتغال بالحكم فلا وجه للأجرة، وإن كان لا جراية له من بيت المال جاز له أخذ الأجرة على قدر عمله غير حاكم، فإن أخذ أكثر مما يستحقه حرم عليه.
- لأنه إنما يعطى الأجرة لكونه عمل عملاً، لا لأجل كونه حاكماً، فأخذه لما زاد على أجر مثله غير حاكم إنما أخذها لافي مقابلة شيء بل في مقابلة كونه حاكماً، ولا يستحق لأجل كونه حاكماً شيئاً من أموال الناس اتفاقاً.

فأجرة العمل أجرة مثله، فأخذ الزيادة على أجرة مثله حرام، ولذا قيل: إن تولية القضاء من كان غنيا أولى من توليته من كان فقيرا. وذلك لأنه لفقره يصير متعرضا لتناول ما لا يجوز له تناوله إذا لم يكن له رزق من بيت المال⁽¹⁾.

المطلب الخامس

نماذج من القضاء في صدر الإسلام

النموذج الأول: قضاء رسول الله في المرأة التي سرقت وهي شريفة النسب:

عن عائشة ~، أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: ((أتشفع في حد من حدود الله، ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))⁽²⁾.

النموذج الثاني: قضاء شريح بين علي بن أبي طالب واليهودي:

أخرج أبو نعيم في الحلية قال: وجد علي بن أبي طالب درعا له عند يهودي التقطها فعرّفها فقال: درعي سقطت عن جمل له أورك. فقال اليهودي: درعي وفي يدي. ثم قال اليهودي بيني وبينك قاضي المسلمين، فأتوا شريحا. فلما رأى عليا قد أقبل تحرف عن موضعه. وجلس علي فيه.

ثم قال علي: لو كان خصمي من المسلمين لساويته في المجلس لكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تساووهم في المجلس، وساق الحديث. قال شريح: ما تشاء يا أمير المؤمنين. قال درعي سقطت عن جمل لي أورك فالتقطها هذا اليهودي.

قال شريح: ما تقول يا يهوي. قال: درعي وفي يدي.

قال شريح: صدقت والله يا أمير المؤمنين إنما لدرعك ولكن لا بد من شاهدين، فدعا قنبر والحسن بن علي وشهدا أنها درعه.

فقال شريح: أما شهادة مولاك فقد أجزناها، وأما شهادة ابنك لك فلا نجيزها.

(1) سبل السلام 124/4.

(2) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء (3475) ومسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره (1688).

فقال علي: ثكلتك أمك، أما سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: ((الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة)).

قال: اللهم نعم.

قال: أفلا تجيز شهادة سيد شباب أهل الجنة؟ ثم قال لليهودي: خذ الدرع.

فقال اليهودي: أمير المؤمنين جاء معي إلى قاضي المسلمين فقضى لي ورضي، صدقت والله يا أمير المؤمنين إنها لدرعك سقطت عن جمل لك التقطتها. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فوهبها له علي، وأجازه بتسعمائة، وقتل معه يوم صفين⁽¹⁾.

ولا تزال أفضية المسلمين على نزاهتها وشرفها؛ ومن خالف ذلك باسم الإسلام فإنما هو مخطئ أو محتال نسأل الله السلامة والعافية.

المبحث السادس

محاسن التشريع الاجتماعي في الإسلام

يمكن إبراز محاسن الإسلام في التشريعات الاجتماعية من خلال ذكر ثلاثة أنواع⁽¹⁾:

المطلب الأول

محاسن الإسلام في الوصية ببر الوالدين

فقد تكرر الأمر ببر الوالدين وتقديهما على كل الحقوق، بل جعلت بعد حق الله تعالى، وذلك في مواضع كثيرة من القرآن والسنة، كما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 22]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: 36].

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي قال: ((أملك)) قال: ثم من؟ قال: ((أملك)) قال: ثم من؟ قال: ((أملك)) قال: ثم من؟ قال: ((أبوك))⁽²⁾.

وقال النبي ﷺ: ((رضى الرب في رضى الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد))⁽³⁾، وعن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل قال: ((إيمان بالله ورسوله))، قيل: ثم ماذا؟ قال: ((بر الوالدين))⁽⁴⁾.

ونهى عن عصيانهما، فعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: ((ثلاثة لا يدخلون الجنة أبدا ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة العاق لوالديه والمرأة المترجلة، والديوث، وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والمدمن على الخمر، والمنان بما أعطى))⁽⁵⁾.

وعن أبي بكر قال: قال رسول الله ﷺ: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟)) ثلاثا، فقلنا: بلى يا رسول الله، قال: ((الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئا فقال - ألا وقول الزور))⁽⁶⁾.

(1) للاستزادة انظر: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الشيخ: محمد الطاهر بن عاشور، النظام الاجتماعي في الإسلام لتقي الدين النبهاني، والنظام الاجتماعي في الإسلام د. بسام العطاوي.

(2) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة (5971). صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب بر الوالدين وأههما أحق به (2548).

(3) الأدب المفرد 4/1 (2)، جامع الترمذي، في كتاب البر والصلة، باب ما جاء من الفضل في رضى الوالدين (1899). وصحيح ابن حبان 172/2 (429) وصححه الألباني في صحيح الجامع 658/1 (3499).

(4) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من قال إن الإيمان هو العمل (26)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (83).

(5) سنن النسائي، كتاب الزكاة، باب المنان بما أعطى (2562) وصححه الألباني في صحيح الجامع (3071).

(6) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور (2654)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (87).

وعن المغيرة بن شعبة ٤، قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله حرّم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال))⁽¹⁾.

ونهى عن مضايقتهما، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبُغْنَ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا فِى وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وأمر بمصاحبتها بالإحسان ولو كانا كافرين، بل لو كانا يدعوانه إلى الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

المطلب الثاني

محاسن الإسلام في الوصية بصلة الأرحام

أمر الله تعالى بصلة الأرحام وهي: الإحسان إلى الأقربين، وإيصال ما أمكن من الخير إليهم، ودفع ما أمكن من الشر عنهم؛ فتشمل زيارتهم والسؤال عنهم، وتفقد أحوالهم، والإهداء إليهم، والتصدق على فقيرهم، وعيادة مرضاهم، وإجابة دعوتهم، واستضافتهم، وإعزازهم وإعلاء شأنهم، وتكون أيضا بمشاركتهم في أفراحهم، ومواساتهم في أتراحهم، وغير ذلك مما من شأنه أن يزيد ويقوي من أواصر العلاقات بين أفراد هذا المجتمع الصغير.

فبين الله تعالى أن حق الرحم في المرتبة الثالثة بعد حق الله وحق الوالدين، قال: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦].

وأمر تعالى بإعطاء الأرحام حقوقهم، قال تعالى: ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وبين تعالى أن الرحم سيسأل الله عنها يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١].

وجعل تعالى صلة الرحم توجب صلته سبحانه للواصل، وتتابع إحسانه وخيره وعطائه عليه، فقد ثبت قول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: ((أَنَا الرَّحْمَنُ وَهِيَ الرَّحْمُ، شَقِقَتْ لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي، مِنْ وَصَلَهَا وَصَلْتَهُ، وَمِنْ قَطَعَهَا بَتَّتَهُ))⁽²⁾⁽³⁾.

(1) صحيح البخاري، كتاب الاستقراض، باب ما ينهى عن إضاعة المال (2408)، ومسلم، كتاب الأفضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (593).

(2) بتته: الباء والتاء له وجهان وأصلان: أحدهما القطع، والآخر ضرب من اللباس. فأما الأول فقالوا: البت القطع المستأصل، ينظر: مقاييس اللغة 1/170.

(3) سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب في صلة الرحم (1694)، وأحمد 213/3 (1680) وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح غيره، وصحيح ابن حبان 186/2 (443).

وبشّر الرسول ﷺ الذي يصل رحمه بسعة الرزق والبركة في العمر، فقال: ((من سرّه أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه))⁽¹⁾.

وصلة الرحم امتداد لبر الوالدين بعد موتهما، لقول النبي ﷺ: ((إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه))⁽²⁾.

فبالقيام بحق الوالدين وصلة الرحم يحصل خير عميم؛ فيها تتأكد وحدة المجتمع الإسلامي وتماسكه، وتمتلىء نفوس أفرادها بالشعور بالراحة والاطمئنان؛ إذ يبقى المرء دوماً بمنأى عن الوحدة والعزلة، ويتأكد أن بنيه وذريته وأقاربه يحيطونه بالموودة والرعاية، ويمدونه بالعون عند الحاجة.

(1) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق (1961)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (2557).

(2) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب صلة أصدقاء الأب والأم، ونحوهما (2552).

المطلب الثالث

محاسن الإسلام في التشريعات الخاصة بالمجتمع

شرح الله مجموعة من التوجيهات التي تصلح بها أحوال الناس في المجتمع الواحد ومنها ما مر عند الحديث عن محاسن الإسلام في الجانب السلوكي، وهنا سنتعرض لست نقاط تبرز هذا الجانب:

أولاً: الحث على الإحسان إلى الجار:

بين النبي ﷺ أن من تمام الإيمان الاحسان للجار، قال رسول الله ﷺ: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره))⁽¹⁾.

وحق الجار في الإسلام على مراتب، قال تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [النساء: 36]. فقولته: "﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: الجار القريب الذي له حقان حق الجوار وحق القرابة، فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العرف. وكذلك ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أي: الذي ليس له قرابة. وكلما كان الجار أقرب بابا كان أكد حقاً، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة والدعوة واللطافة بالأقوال والأفعال وعدم أذيته بقول أو فعل"⁽²⁾.

وإذا كان الجار كافراً كان له حق الجوار، وإذا كان قريباً وهو كافر له حقان: حق الجوار، حق القرابة، وإن كان فقيراً يتصدق عليه، لقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسَطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: 8].

ثانياً: إكرام الضيف:

إكرام الضيف مكرمة من مكارم التشريعات الاجتماعية التي تبرهن على سماحة الدين ولها انعكاسات على النفس من كرم في الطبع، وإيثار للغير، وشهامة ومروءة.

وبين النبي ﷺ أن إكرام الضيف، من تمام الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، فقال ﷺ: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه))⁽³⁾.

حتى إن الإسلام جعل من الواجب على المضيف أن يكرم ضيفه مدة الضيافة التي حددها رسول الله ﷺ بثلاثة أيام؛ فإذا زاد بقاء الضيف وإقامته على ثلاثة أيام، فإن أكرمه المضيف كان ذلك منه بمنزلة الصدقة على

(1) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت (182).

(2) تيسير الكريم الرحمن ص 177.

(3) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت (182).

الضَّيْف، يؤجر ويثاب عليها، ولكن لا ينبغي للضيف أن يثقل على مضيفه حتى يجرجه ويضيق عليه، فقد قال النبي ﷺ: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته يوم ليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحلُّ له أن يثوي⁽¹⁾ عنده حتى يجرجه))⁽²⁾.

ثالثا: الحث على الاحسان للضعفاء:

فقد حث الإسلام على رعاية الضعفاء من المساكين واليتامى والخدم، قال رسول الله ﷺ: ((فكوا العاني - يعني الأسير - وأطعموا الجائع وعودوا المريض))⁽³⁾، وقال ﷺ: ((أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا))⁽⁴⁾.

وقال ﷺ: ((الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار))⁽⁵⁾. وكان ﷺ يقول: ((أفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمن، كسوت عورته، أو أشبعت جوعته، أو قضيت حاجته))⁽⁶⁾.

فقال ﷺ: ((إخوانكم خولكم⁽⁷⁾، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم))⁽⁸⁾. وقال ﷺ: ((من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه))⁽⁹⁾.

رابعا: أمر الإسلام بالإصلاح بين المتخاصمين:

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الحجرات 9-10]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: 10]. ومن الرحمة: "أن لا يتصدع بنيانكم، ولا تتشتت

(1) الثواء: بالتخفيف والمد، الإقامة بمكان معين، انظر: فتح الباري 533/10.

(2) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إكرام الضيف، وخدمته إياه بنفسه (6135)

(3) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب فكاك الأسير (3046).

(4) صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب اللعان (5304).

(5) صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب النفقة على الأهل (5353)، ومسلم، كتاب الزهد والرقاق، باب الإحسان على الأرملة والمسكين واليتيم (2982).

(6) شعب الإيمان للبيهقي 123/6، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة 365/5 (2291).

(7) خولكم: خدمكم. ينظر: فتح الباري 115/1.

(8) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك (30)، ومسلم، كتاب الأيمان والنذور، باب إطعام المملوك مما يأكل (1661).

(9) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر (4867).

أمتكم وتصبح جماعات وطوائف متعدية يقتل بعضها بعضاً، ولما لم يتق المؤمنون الله في الإصلاح الفوري بين الطوائف الإسلامية المتنازعة حصل من الفساد والشر ما الله به عليم في الغرب الإسلامي والشرق⁽¹⁾.

وقال رسول الله ﷺ: ((ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة))⁽²⁾، وقال: ((كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة))⁽³⁾.

وقال ﷺ: ((أفضل الصدقة صلاح ذات البين))⁽⁴⁾.

وقال النبي ﷺ قال لأبي أيوب الأنصاري ؓ: ((يا أبا أيوب ألا أدلك على صدقة يرضى الله تعالى ورسوله موضعها؟ قال: بلى. قال: تصلح بين الناس إذا تفاسدوا وتقرب بينهم إذا تباعدوا))⁽⁵⁾.

خامساً: النهي عن إشاعة الأراجيف، والأمر بالثبث في الأخبار:

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهَلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]..

ففي الآية "تنبيه على أنه إذا كان الخبر شيئاً عظيماً وله قدر، فحقه أن يتوقف فيه وإن علم أو غلب صحته على الظن حتى يعاد النظر فيه ويتبين"⁽⁶⁾.

إن الطريقة الشرعية التي ينبغي على المسلم أن يلتزمها عند سماعه للشائعات تقوم على: الثبث وحب الخير للمسلمين ورعاية حقوقهم وأعراضهم، والتماس الأعداء لهم.

فالتثبت من كل خبر، وكل حدث، والتبين قبل الحكم؛ هو أمر الله الصريح في القرآن، ومنهج رسوله القويم، بحيث لا يبقى مجال للوهم والخرافة في العقيدة والمعاملات، ولا يبقى مجال للظن والشبهة في القضاء والعلاقات.

سادساً: الأمر بالتناصح بين أفراد المجتمع:

قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

(1) أيسر التفاسير للجزائري 294/4.

(2) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين برقم (4919)، وجامع الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب 56 (2509) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(3) صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب فضل الصلح بين الناس والعدل بينهم (2707)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (1009).

(4) شعب الإيمان للبيهقي 489/7 (11092)، قال الألباني: صحيح لغيره، في صحيح الترغيب والترهيب (2817).

(5) المعجم الكبير للطبراني 257/8 (7999)، شعب الإيمان للبيهقي 490/7 (11094)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (2644).

(6) روح المعاني 145/9..

عن أبي مدينة الدارمي، قال: "كان الرجلان من أصحاب محمد ﷺ إذا التقيا، ثم أرادا أن يفتقا، قرأ أحدهما: والعصر إن الإنسان لفي خسر حتى يختمها، ثم يسلم كل واحد منهما على صاحبه" (1).
عن تميم الداري ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: ((الدين النصيحة)). قلنا: لمن؟ قال: ((لله ولكتابه ولسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)) (2).

وعن جرير بن عبدالله ؓ قال: ((بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم)) (3).

ومن التناصح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي يحفظ الله به المجتمعات، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحصل النجاة من عذاب الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

ولم يقل وأهلها صالحون!! لأن الذي يعمل على إصلاح الناس هو الذي يحيي الأمة ويعمل على نجاتها، أما الصالح فلنفسه فقط، فهو لا يعمل لنجاة نفسه ولا لنجاة أمته ومجتمعه.

سابعاً: الأمر بالتعاون على البر والتقوى:

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2] "فالله سبحانه يوجب على الناس إيجاباً دينياً أن يعين بعضهم بعضاً في كل عمل من أعمال البر التي تنفع الناس أفراداً وأقواماً في دينهم ودنياهم وكل عمل من أعمال التقوى التي يدفعون بها المفسد والمضار عن أنفسهم" (4).

وقد جاء التمثيل النبوي لأهل الإيمان أنهم كالجسد الواحد وكالبنيان كذلك عن أبي موسى ؓ عن النبي ﷺ أنه قال: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ثم شبك بين أصابعه)) (5).

وكذلك في عموم قوله ﷺ: ((والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)) (6).

ثامناً: النهي عن كل ما يفسد المجتمع:

فقد نهي الإسلام عن كل ما يفسد المجتمع فأمر بالحجاب وعدم إظهار المرأة لزينتها قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ

(1) الزهد لأبي داود ص34.

(2) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (55).

(3) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: ((الدين النصيحة: لله ولسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)) (57)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (56).

(4) تفسير المنار 131/6.

(5) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره (481)، ومسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تراحم المؤمنين وتعاضفهم وتعاضدهم (2585).

(6) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (2699).

مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ... ﴿ الآية [النور: ٣٠ - ٣١].

ونهي عن القذف حفاظا على الأعراض، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٤].

ونهي عن إشاعة الفاحشة في المجتمع كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩].

فهذه بعض التشريعات والتوجهات الاجتماعية الدقيقة التي تبين عظمة هذا الدين ومحاسنة وموافقته لاحتياجات البشر ودقائقها وخصوصا ما يجعلهم يحيون حياة طيبة.

المبحث السابع

محاسن تشريع العلاقات الزوجية في الإسلام⁽¹⁾

"الأسرة في الإسلام نظام إلهي وهدى نبوي وسلوك إنساني، والحياة في بيوت المسلمين عبادة شاملة وسنة متبعة وتربية مستمرة.. فبيت الأسرة هو وحده الذي يجمع بين الذكر والأنثى وكل وطر يقضى بعيداً عنه فهو عصيان لله واعتداء على حدوده، ومن ثم فإن تكوينها دين، والحفاظ عليها إيمان، ومكافحة الأوبئة التي تهددها جهاد، ورعاية ثمرتها من بنين وبنات جزء من شعائر الله"⁽²⁾.

ولذا فقد شرع الله تعالى مجموعة من العوامل التي تحافظ على كيان الأسرة والعلاقة بين الزوجين، وبيان ذلك في النقاط التالية⁽³⁾:

أولاً: "أمر الله تعالى الأزواج بمعاشرة الزوجات بالمعروف:

فقال تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء 19] فالإسلام ينظر إلى البيت بوصفه سكناً وأمناً وسلاماً، وينظر إلى العلاقة الزوجية بوصفها مودة ورحمة وأنساً، ولذا قال ﷺ: ((خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي))⁽⁴⁾.

(1) هذا الأمر داخل في التشريعات الاجتماعية ولكن فصلناه لأهميته.

(2) البيت المسلم القدوة أمل يحتاج إلى عمل، أبو الحمد ربيع ص4.

(3) للاستزادة ينظر: كتاب الإصلاح بين الزوجين، أ.د محمد بن عبدالعزيز العواجي - تحت الطابعة، وحقوق الزوج والزوجة وأصول المعاشرة الزوجية، العشرة الطيبة، أ. محمد حسين، الحقوق الزوجية في الكتاب والسنة د. هشام الرفاعي، فقه التعامل بين الزوجين الشيخ مصطفى العدوي، الخلافات الزوجية في ضوء الكتاب والسنة د. رعد الحيايلى، فقه الأسرة للشيخ فاضل السقار، آداب الأسرة المسلمة أ. سعيد العذارى، قانون الأسرة أ. أيمن صالح.

(4) جامع الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ (3895) وقال: هذا حديث حسن صحيح، سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب حسن معاشره النساء (1977).

ولا أدل على تلك العشرة بالمعروف من مسابقتها ﷺ زوجته في سفر، فقد حدثت أم المؤمنين عائشة - - أنها كانت مع النبي ﷺ في سفر قالت: فسابقته فسبقته، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، فقال: ((هذه بتلك))⁽¹⁾.

ومن المعاشرة بالمعروف الكلام الطيب والترين والتسلية وقضاء الحاجات والمشاورة، كما كان يفعل رسول الله ﷺ مع زوجته⁽²⁾.

ثانيا: القوامة في يد الرجل:

والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء 34].

فهذه الآية تنص على تنظيم الحياة الزوجية وتوضيح الاختصاصات فيها لمنع الاحتكاك بين أفرادها، بردهم جميعاً إلى حكم الله لا لحكم الهوى، فيبين الله تعالى أن القوامة في البيت المسلم للرجل، لتفضيل الرجل بمقومات القوامة، وما تتطلبه من خصائص ودربة، وتكليف الرجل الإنفاق على الأسرة.

فلا يطلب من المرأة أن تعمل لكي تنفق على نفسها، ولكن على الزوج أن ينفق عليها ولو كانت الزوجة غنية، وعلى الزوج أن يوفر لزوجته كل ما تحتاجه: في حدود طاقته، وفي غير معصية الله تعالى، وهذا من مستلزمات القوامة، فعن حكيم بن معاوية عن أبيه ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، ما حق الزوجة على أحدنا؟ قال ﷺ: ((أن تطعمها إذا طعمت، وأن تكسوها إذا اكتسيت، ...))⁽³⁾.

ثالثا: الأمر بالإصلاح بين الزوجين:

فإذا علم بوقوع شقاق بين الزوجين وجب أن يبعث حكمان للإصلاح بين الزوجين، سواء كان الحكمان من أهل الزوج والزوجة أو من غيرهم، أو سواء الذي يرسل هو السلطان أو الزوجان أو غيرهم⁽⁴⁾، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء 35].

(1) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب السبق على الرجل (2578)، وابن ماجه كتاب النكاح، باب حسن معاشره النساء (1979)، وصححه الألباني في الصحيحه (131).

(2) ينظر كتاب: كيف عاملهم رسول الله ﷺ، د. محمد المنجد مبحث كيف عامل زوجاته، فقد جمع شواهد كثيرة.

(3) سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب حق المرأة على زوجها (2142)، وابن ماجه، كتاب النكاح، باب حق المرأة على الزوج (1850)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (1876).

(4) ينظر: أحكام القرآن للطحاوي 442/2-446.

فالأسرة هي نواة المجتمع فإذا فسدت الأسرة أو تفرقت أصبح المجتمع غير متماسك، أصبح مجتمعا يستطيع أعداؤه أن يدخلوا إليه من كل مكان؛ لأن كيانه غير متكامل وصفوفه غير متصلة والشقاكات بينه كثيرة.

رابعا: موقف الإسلام من وقوع النشوز بين الزوجين:

فإذا وقع من الزوجة النشوز⁽¹⁾ فإن الإسلام يرشد إلى اتخاذ الإجراءات المتدرجة في علاج علامات النشوز منذ أن تلوح من بعيد.

وهذه الإجراءات المتدرجة ليست معركة بين الرجل والمرأة يراد بها الاعتداء على المرأة حين تهم بالنشوز، إن هذا قطعاً ليس هو الإسلام وليس هو هدف الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: 34].

فأول إجراء هو الموعظة والنصيحة: فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "عظوهن بكتاب الله، فأمره الله إذا نشزت أن يعظها ويذكرها الله، ويعظم حقه عليها"⁽²⁾. والثاني الهجران في المضاجع: أي: "أن يكون الرجل والمرأة على فراش واحد لا يجامعا"⁽³⁾، وقيل: "يرقد عندها ويوليها ظهره، ولا يطؤها، ولا يكلمها"⁽⁴⁾.

على أن هناك أدبا في الهجر في المضاجع، وهو ألا يكون هجرا ظاهرا، فلا يكون أمام الأطفال مثلا، فيورث في نفوسهم شرا وفسادا، ولا هجرا أمام الأهل أو الغرباء يذئد الزوجة أو يستثير كرامتها فتزداد نشوزا. فالمقصود علاج النشوز لا إذلال الزوجة، لقول الرسول ﷺ: ((ولا تهجر إلا في البيت))⁽⁵⁾. ثم يأتي إجراء ثالث أكبر من سابقه ولكنه أهون من تحطيم العلاقة الزوجية وهو الضرب، وهذا الإجراء مع أنه أشد لكنه محدود فقد ورد في تفسير الضرب أن يكون الضرب غير مبرح ولا مؤثر⁽⁶⁾.

"فإن حصل المقصود بوحدة من هذه الأمور وأطعنكم، فاتركوا معانبتها على الأمور الماضية والتنقيب على العيوب التي يضر ذكرها، ويحدث بسببها الشر"⁽⁷⁾. قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾.

خامسا: موقف الإسلام عند عدم رغبة الزوج في زوجته:

- (1) النشوز هو: "استعلاء النساء على أزواجهن وارتفاعهن عن فرشهم بالمعصية منهن، فالنشوز هو: البغض ومعصية الزوج، وإرادة فراق الزوج". ينظر: جامع البيان 6/698.
- (2) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم 942/3 برقم (5261).
- (3) جامع البيان عن ابن عباس 700/6.
- (4) جامع البيان عن السدي 700/6.
- (5) سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب حق المرأة على زوجها (2142)، سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب حق المرأة على الزوج (1850)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (1876)، والسلسلة الصحيحة (687).
- (6) أورد الإمام الطبري الأقوال في الضرب ولم تخرج عن معنى الضرب غير المبرح، وروى ذلك عن سعيد بن جبير والشعبي وابن عباس، والحسن وقتادة وعطاء وعكرمة، ينظر جامع البيان 712/6. وصحيح مسلم، كتاب الحج، باب حج النبي ﷺ (1218).
- (7) تيسير الكريم الرحمن 177 باختصار وتصرف.

إذا كان الزوج راعياً عن زوجته، فأرشد الله في هذه الحال إلى الطريق الذي تستقيم به الأمور، وهو طريق الصلح من المرأة أو وليها ليعود الزوج إلى الاستقامة، بأن تسمح المرأة عن بعض حقها لإلزام لزوجها على شرط البقاء معه، وأن يعود إلى مقاصد النكاح أو بعضها، كأن ترضى ببعض النفقة أو الكسوة أو المسكن أو تسقط حقها من القسم أو تهب يومها وليلتها لزوجها أو لضرتها بإذنه، عن عائشة -~ في قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أُمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، قالت: "هو الرجل يرى من امرأته ما لا يعجبه كثيراً أو غيره فيريد فراقها، فنقول أمسكني، واقسم لي ما شئت. قالت: ولا بأس إذا تراضيا"⁽¹⁾.

فهنا يعالج الإسلام مشكلة الإعراض حين يخشى وقوعه من ناحية الزوج، فيهدد أمن المرأة، وأمن الأسرة كلها، فإن القلوب تتقلب وإن المشاعر تتغير، والإسلام منهج حياة يعالج كل جزئية فيها، ويتعرض لكل ما يعرض لها، ويصمم المجتمع ويرسمه وينشئه وفق هذا المنهج القويم.

سادسا: تشريع الطلاق:

فإذا سدت أبواب الإصلاح، ولم يكن التوفيق بينهما فالطلاق هو الحل الأخير، وسيوفق الله كلا منهما إلى الطريق الأصح، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلاً مِّن سَعَتِهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 30]. "فالفرق قد يكون خيراً لهما، لأن الفراق خير من سوء المعاشرة"⁽²⁾.

ولنا أن نتصور كيف تكون الحال لو أن الطلاق ممنوع أو محرم، إن الحياة بين هذين الزوجين ستكون جحيماً لا يطاق، ولهذا نجد في أوروبا أن القوانين فيها أخذت تميز الطلاق مع أن الكنيسة النصرانية بتعاليمها المحرفة لازالت تحظر الطلاق حتى مع ثبوت الخيانة الزوجية. وكانت فقط تحكم بالتفريق الجسدي بين الزوجين مما سبب مشاكل اجتماعية خطيرة"⁽³⁾.

ويلحق به الخلع برضاها منه، والفسخ بحكم الحاكم بينهما في مواضع معروفة يرجع لها في كتب الفقه.

سابعا: شرع العدة في الطلاق:

وشرع الله هذه العدة محاولة لإيجاد فرصة للعودة، ورغبة في استئناف ما انقطع من حبل الزوجية، فإنه لا بد من فترة يختبر فيها الزوجان عواطفهما بعد الفراق، فقد يكون في قلوبهما رفق من ود يمكن تجديده! فإذا سكت الغضب، واطمأنت النفس، استصغرت الأسباب التي دفعت إلى الفراق، وظهرت اعتبارات مهمة، تؤدي إلى استئناف الحياة.

فهذه الإجراءات كلها للحفاظ على الرابطة الزوجية، فالرجل عندما يعلم أن الأمر سيؤول إلى ذلك الحد، فإنه يفكر ويمسك نفسه عن الطلاق ويصبر ويكظم غيظه لكي لا يقع في حالة لا يستطيع أن يسترجع زوجته بعدها.

(1) صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب قول الله تعالى: {أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير} (2694).

(2) التحرير والتنوير 219/5.

(3) فقه السنة 383/2.

ثامنا: لا تُخرج المرأة من بيتها ولا تُخرج في حال الطلقة الرجعية:

قال تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ [الطلاق: ١].

والحكمة من ذلك والله أعلم: هي إتاحة الفرصة للرجعة، واستثارة عواطف المودة، حيث تكون الزوجة بعيدة بحكم الطلاق قريبة من العين، ويرى الزوج زوجته في أثناء الحمل وما يصيبها من التعب والشدة، أو يرى ابنه أمامه وهو يكبر والجهد الذي تبذله أمه معه، فيفعل هذا في المشاعر فعلة بين الاثنين، كل هذا ليبقى عقد الزوجية، وتبقى الأسرة المسلمة قائمة يشد بعضها بعضا، فأما حين تقع في الفاحشة فلا محل لاستجلاب المشاعر الطيبة، والمودة الدفينة.

هذه صورة من التشريعات التي يحافظ الإسلام بها على الأسرة، وهذا الأمر يعد من المحاسن المهمة التي لا يعرفها الناس عن الإسلام، ولو علموها لعرفوا قيمة هذا الدين الحنيف⁽¹⁾.

(1) هناك بعض التشريعات الخاصة بالأسرة، أرجأت الحديث عنها إلى موضع الحديث عن حقوق المرأة في الإسلام، حيث إن ظهور العناية بالمرأة فيه أوضح.. وهناك كثير من التشريعات والتفصيلات تركتها خشية الإطالة، ويمكن الرجوع إليها في كتب الفقه في الأبواب الخاصة بفقه الأسرة. وينظر: مقاصد نظام الأسرة في التشريع الإسلامي للأستاذ د. عبدالقادر داوودي، والعلاقات الأسرية في الإسلام د. محمد أبو النيل.

المبحث الثامن

محاسن التشريع السياسي في الإسلام

راعى الإسلام جانب التطور في حياة البشرية، وهذا أكثر ما يتمثل في سياسة الحكم وسياسة المال، وتنظيم الدولة، فهذه الأمور تتطور بحسب الحال البشرى.

ولذا كان الإسلام حكيماً غاية الحكمة مسيراً للفطرة ملبياً حاجاتها وهو يتعامل مع هذه الجوانب، فوضع لها القواعد الكلية، ولم يضيق التفاصيل، وضع لها الإطار العام الذي يريد للبشرية أن تتلائم في حدوده، وترك لكل جيل من الأجيال المتعاقبة أن يضع الصورة التي تناسبه وتتفق مع ظروفه بشرط واحد وهو أن تكون الصورة في حدود الإطار المشروع.

ففي سياسة الحكم -مثلاً- وضع الإسلام بعض الأسس والثوابت التي لا تتحقق مصالح العباد بدونها، ولا يمكن أن يختلف عاقلان على ضرورتها، ومن أمثلتها مبدأ الشورى الوارد في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

ثم لم يخصص طريقة لأخذ الشورى محصورة، وترك ذلك للتجارب البشرية واجتهادها في التطبيق، وهذا يبين عظمة هذه الشريعة وحسنها وصلاحتها المطلقة كمنهج حياة للبشر على مدى الزمان والمكان⁽¹⁾.

وهنا سنبين بعضاً من محاسن مبادئ النظام السياسي الإسلامي باختصار لنعطي صورة عن تلك التشريعات السياسية التي يمكن لأي داعية أو معرف بالإسلام استيعابها بسهولة، وإيصالها للناس، وهي كالتالي⁽²⁾:

أولاً: السيادة للشرع:

أي: إن المرجعية العليا والمطلقة للتشريع في دولة الإسلام هي لشريعة الله تعالى المتمثلة في كتاب الله وسنة رسوله، وما انعقد عليه إجماع الأمة، قال تعالى: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال ﷺ: ((السمع والطاعة على المرء المسلم في ما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة))⁽³⁾.

(1) ينظر: إضاءات للمعرفين بهذا الدين - إعداد الهيئة العالمية للتعريف بالإسلام ص 122-123.

(2) ينظر للاستزادة: النظام السياسي في الإسلام د. محمد عبدالقادر أبو فارس، والنظام السياسي في الإسلام - النظرية السياسية ونظام الحكم، د. عبدالعزيز عزت الخياط رحمه الله، والنظام السياسي في الإسلام، أ. د. سليمان بن قاسم العيد، وخصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم، للأستاذ د. /فتحي الدريني.

(3) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية برقم (6611)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (3423).

ووجه الدلالة هنا أن في تحريم طاعة أولي الأمر في معصية الله ما يدل على تفرد الله جل وعلا بالحكم. وهذا يقتضي تطبيق الشريعة عقيدة ونظاما، دولة وتشريعا، فكرا وحضارة على جميع شؤون الحياة؛ فلا يترك الناس على هواهم من غير ضابط ولا مرتكز يقيمون عليه تشريعاتهم وينظمون في ضوئه شؤون حياتهم⁽¹⁾، لأنه تعالى هو خالق الخلق العالم بما يصلحهم، فإن كان كل مخترع لآلة هو الذي من حقه أن يضع لها نظام التشغيل الخاص بها، فكيف بالعليم القدير القائل: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

والتاريخ والواقع يشهدان بأن كل تشريع أرضي هو تعبير عن الطبقة التي تمتلك وتحكم، وأنه يمثل مصالحها علي حساب بقية الطبقات، فالإقطاعي يحكم فيشترع لحساب طبقة الإقطاعيين، وصاحب رأس المال يحكم فيشترع لحساب الرأسماليين، وحماية مصالحهم على حساب العمال.. مما سبب الشقاء والحياة المريرة في هذه الأمم. ومن محاسن هذه القاعدة في الإسلام - أن السيادة للشرع - أن إقرارها لا يسلب الأمة الاجتهاد لنفسها في النوازل، والتقنين لشؤونها الدنيوية المتطورة، إنما المقصود أن يكون الاجتهاد أو التقنين في إطار المرجعية للكتاب والسنة، والإدراك للمقاصد الكلية للشريعة الإسلامية، ففي النصوص من السعة ما يجعلها صالحة لكل زمان ومكان.

ثانيا: مسؤولية الحاكم:

فالحاكم مسؤول مسؤولية كاملة عن رعيته فيما يخص دينهم ودنياهم، قال رسول الله ﷺ: ((الإمام راع ومسئول عن رعيته))⁽²⁾.

وعن أبي ذر ؓ قال: قلت: يا رسول الله أمري. قال: ((الإمارة أمانة، وهي يوم القيامة خزي وندامة إلا من أمر بحق وأدى بالحق عليه فيها))⁽³⁾.

فالواجب الأكبر على الحاكم المسلم يتمثل في القيام بأعباء المنصب على أكمل وجه، وولاية الأمر في الدولة الإسلامية ما هي إلا وسيلة للقيام بحفظ الدين وسياسة الدنيا به، ولا يمكن أن تغفل ما بين الأمرين من تداخل. وهو مسؤول في الدنيا أمام القضاء إذا ارتكب مخالفة جنائية بعيدا عن سلطته، ومسؤول أمام الأمة إذا فرط في أمر من أمور الأمة، ومسؤول أمام الله تعالى في الآخرة.

وعلى ذلك فلا بد للأمة من أن تكون مراقبة للحاكم محاسبة له - وفق الشرع كذلك - فليس أحد بمعصوم، ولذا قال أبو بكر الصديق ؓ في خطبته بعد البيعة له بالخلافة: "أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني"⁽⁴⁾.

ثالثا: الشورى منهج الحكم:

(1) الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي ص 230.

(2) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن (893).

(3) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة (1825).

(4) السيرة النبوية لابن هشام 262/4، وتاريخ الطبري 210/3، والبداية والنهاية 248/5 و301/6 وقال ابن كثير: إسناده صحيح.

وتعرف الشورى بأنها: طلب الرأي ممن هو أهل له، وهذا هو الصحيح.
وقيل: هي استطلاع رأي الأمة أو من ينوب عنها في الأمور العامة المتعلقة بها⁽¹⁾.
الشورى في الإسلام أساس الحكم؛ إذ قرر الإسلام أن الشورى خصيصة من خصائص المجتمع الإسلامي،
وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]
وقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فهو مجتمع يقوم على أساس احترام الرأي وتبادل وجهات
النظر، ويستنكر الاستبداد بالرأي الذي يفضي - لا محالة - إلى التعسف والطغيان.
فعن قتادة ؓ، قال: "أمر الله نبيه أن يشاور أصحابه في الأمور، وهو يأتيه وحى السماء، لأنه أطيب لأنفس
القوم، وأن القوم إذا شاور بعضهم بعضاً وأرادوا بذلك وجه الله عزم لهم على الرشد"⁽²⁾.
وعن الحسن البصري ؓ قال: "قال: قد علم الله أنه ما به إليهم من حاجة، ولكن أراد أن يستن به من
بعده"⁽³⁾، وقال: "ما تشاور قوم قط إلا هداهم الله لأفضل ما بحضرتهم"⁽⁴⁾.

رابعاً: إقامة العدل بين الناس:

فالعدل في الإسلام هو غاية الغايات من الحكم الإسلامي، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا
مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، إنه عدل مطلق عام شامل، ومن ثم يوجب
الإسلام التزامه بالنسبة للمسلمين وغير المسلمين، وبالنسبة للأصدقاء والأعداء.
وقد أمر الله به مع الأعداء، ومع من بيننا وبينهم بغض ومفارقة لأي سبب، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شَتَانُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا
قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

خامساً: طاعة الحاكم ونصرته في المعروف وألا ينازع في حكمه:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن
كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

(1) نظام الدولة في الإسلام، وعلاقتها بالدول الأخرى - جعفر عبدالسلام: ص 199.

(2) الدر المنثور للسيوطي 358/2.

(3) الدر المنثور 358/2.

(4) الدر المنثور ٣٥٧/٧.

وعن عبادة بن الصامت ؓ، قال: ((بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق حيثما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم))⁽¹⁾.
فمن مبادئ الحكم الإسلامي أن الحاكم مادام قائماً بأمر الله، حاكماً بالعدل، منفذاً لأحكام الشرع، ملتزماً بها في أعماله وتصرفاته، راعياً لأمانته وعهده، وكان مستوفياً شروط الولاية إبان ولايته، وجب له على الأمة حقان: حق الطاعة وحق النصرة.

قال الماوردي -: "فإذا قام الإمام بما ذكرناه من حقوق الأمة، فقد أدى حق الله تعالى فيما لهم وعليهم، ووجب له عليهم حقان: الطاعة والنصرة ما لم يتغير حاله"⁽²⁾.

مع التأكيد على أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وعدم إيعانتهم على ظلمهم - إن وقع - والسعي في نصحتهم وإرشادهم، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال ((الدين النصيحة)) فقال الصحابة ؓ: لمن؟ قال: ((لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم))⁽³⁾.

قال الإمام النووي -: "وأما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به وتنبههم وتذكيرهم برفق ولطف وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين وترك الخروج عليهم وتآلف قلوب الناس لطاعتهم قال الخطابي - ومن النصيحة لهم الصلاة خلفهم والجهاد معهم وأداء الصدقات إليهم وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة وأن لا يغروا بالثناء الكاذب عليهم وأن يدعى لهم بالصلاح"⁽⁴⁾.

(1) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب، كيف يبايع الإمام الناس (7199)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية (1709).

(2) الأحكام السلطانية للماوردي ص 42.

(3) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (55).

(4) شرح صحيح مسلم للنووي 38/2.

المبحث التاسع

محاسن تشريع العناية بالعلوم الإنسانية والدينية في الإسلام

من الأمور التي اهتم بها الإسلام غاية الاهتمام العلم الذي يقيم به الإنسان دينه، وكذلك العلم الذي يقيم به الدنيا، وبيان هذا الأمر في المطالب التالية⁽¹⁾:

المطلب الأول

اهتمام الإسلام بالعلم

اهتم الإسلام من أول يوم نزل فيه بالعلم فكان أول ما نزل به القرآن هو الأمر بالقراءة والإشارة إلى العلم، بقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥]، وجاء رسول الله ﷺ ليقول كذلك: ((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ))⁽²⁾.
والإسلام يهتم بهذا بالعلم لأنه الطريق لمعرفة الحق، قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

والعلم يميز أهل العلم عن غيرهم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].
وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ))⁽³⁾.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من سلك طريقاً يطلب فيه علماً؛ سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض وكل شيء حتى الحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر

(1) للاستزادة ينظر: طلب العلم فوائد ونصائح وحكم للذهبي، جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، موسوعة رعاية طلاب العلم في الإسلام، إشراف أ.د. محمد بن عبدالعزيز العواجي، ماذا قدم المسلمون للعالم - إسهامات المسلمين في الحضارة الإسلامية، د. راغب السرجاني، العلم وبناء الأمم د. راغب السرجاني، الإسلام والعلم التجريبي د. فاروق الدسوقي، العناية بطلاب العلم عند علماء المسلمين، د. عبدالحكيم الأنيس، والعلم والعلماء، زيد الفياض،

(2) سنن ابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (224)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (183)، وقال السيوطي في شرحه على سنن ابن ماجه 20/1: وقال المزي: هذا الحديث روى من طريق تبلغ رتبة الحسن، وهو كما قال فيني رأيت له خمسين طريقاً.

(3) جامع الترمذي، كتاب العلم باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (2685)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (4213).

ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا؛ وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر⁽¹⁾.

والأدلة في ذلك كثير حتى أنه صنفت في الإسلام كتب عن فضل العلم والعلماء⁽²⁾..

ففي الإسلام كل مسلم عليه أن يتعلم ما يقيم به دينه، من علوم شرعية، وما يقيم به حياته وحياته المجتمعية من علوم إنسانية ودينية كالطب والهندسة والتجارة والزراعة والرعي.. وتطوير ذلك كله "فالعلوم الدنيوية كالمهندسة والطب والفيزياء والكيمياء.. وغيرها من العلوم التي يخدم بها المسلم دينه وأمتة فإن أقل ما يقال في حكمها هو الإباحة لأن الأصل في المنافع الإباحة، ويرتقي للوجوب إذا عدم من يتقنه وكانت الحاجة إليه ووجود من يستطيع تعلمه، وذلك لأن تعلم تلك العلوم يجعل الأمة قوية عزيزة مهابة، وهذا واجب على الأمة وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فإذا قام من يفني بذلك عن الأمة سقط عن الباقي، وإذا تركه الجميع أثم من يجد في نفسه القدرة على تحصيل تلك العلوم.

وبناء على ما سبق إذا لم يكن تحصيل تلك العلوم إلا بالرحلة إليها وبالمسلمين حاجة لتحصيلها، فيجب على من وجد في نفسه القدرة على تحصيل تلك العلوم أن يرحل لاكتسابها لأنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"⁽³⁾.

فالقضية في الإسلام واجب ديني، وقضية اجتماعية مفروضة على الجميع؛ إذ يجب أن يطلب الجميع العلم، ليصبحوا جميعاً متعلمين فيما يعملون ويتخصصون فيه، لم يستثن من ذلك رجل أو امرأة.

وقد كان لذلك كله أثر بعيد المدى في الدولة الإسلامية بعد ذلك، حيث وُلد نشاطاً علمياً واسعاً في مختلف ميادين العلم والمعرفة، نشاطاً لم يعهد له التاريخ مثيلاً، ممّا جعله يحقق ازدهاراً حضارياً عظيماً على أيدي علماء المسلمين، ويمدُّ التراث الإنساني بذخيرة علمية رائعة، يظل العالم بأسره مديناً لها.

فلقد بدأت الحركة العلمية في زمن النبي ﷺ واستمرت بعد وفاته وظهرت آثارها ومظاهرها الرائعة، والتي أبحرت الأوربيين⁽⁴⁾.

يقول أحد المفكرين الغربيين: "إن ما يدين به علمنا للعرب ليس فيما قدموه إلينا من كشف مدهشة لنظريات مبتكرة. بل يدين لهم بوجوده نفسه. فالعالم القديم - كما رأينا - لم يكن للعلم فيه وجود.. وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات. ولكن أساليب البحث في دأب وأناة وجمع المعلومات

(1) سنن أبي داود كتاب العلم باب الحث على طلب العلم (3157)، جامع الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه في الدين (3606)، سنن ابن ماجه، كتاب الفضائل، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (219). وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (223)، وصحيح الترمذي والترهيب (70).

(2) مثل كتاب: فضل العلم والعلماء لابن القيم.

(3) ينظر رسالة: أحكام الابتعاث للخارج في الفقه الإسلامي. د. حصة الرقيق ص 38.

(4) للاستزادة يرجع لكتاب: إسهامات المسلمين في الحضارة الإسلامية، د. راغب السرجاني.

الإيجابية وتركيزها والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبي كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليوناني.. أما ما ندعوه " العلم " فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة ولطرق من الاستقصاء مستحدثة.. وهذه الروح وتلك المناهج أوصلها العرب إلى العالم الأوربي⁽¹⁾.

المطلب الثاني

اهتمام الإسلام برعاية طلاب العلم

فالإسلام وصل إلى أبعد من هذا حيث قرر أهمية رعاية طلاب العلم ليتفرغوا لطلب العلم، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانُ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَنْفِقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: 122].

قال الشيخ ابن سعدي في توجيهه لطيف لهذه الآية: "إنَّ المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، وتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصداً واحداً، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكم العامة النافعة في جميع الأمور"⁽²⁾.

وقال رسول الله ﷺ: ((سيأتيكم أقوام يطلبون العلم. فإذا رأيتموهم فقولوا لهم مرحبا بوصية رسول الله ﷺ وأقنوهم))⁽³⁾.

وقوله: ((وأقنوهم)) "أي: علموهم واجعلوا لهم قنية من العلم يستغنون بها إذا احتاجوا إليه، والقنية بالكسر والضَّم ما اكتسبه وخزنه لحاجته"⁽⁴⁾.

لقد اهتم السلف رحمهم الله بالعناية بطلاب العلم ورعايتهم، فعن عبد الله بن مسعود من طرق أنه كان يقول إذا رأى الشباب يطلبون العلم: "مرحبا بينابيع الحكمة ومصايح الظلم، خلقان الثياب، جدد القلوب، حلس البيوت ريجان كل قبيلة"⁽⁵⁾.

وعن عباس بن يزيد قال: حدثنا حبان بن موسى قال: عوتب ابن المبارك فيما يفرق من المال في البلدان دون بلده، قال: "إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث، فأحسنوا طلبه لحاجة الناس إليهم، احتاجوا، فإن تركناهم ضاع علمهم، وإن أعناهم بثوا العلم لأمة محمد ﷺ، لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم"⁽⁶⁾.

(1) ينظر: تجديد الفكر الديني في الإسلام لمحمد إقبال ص150، نقلاً عن المفكر الغربي: بريفولت في كتابه بناء الإنسانية.

(2) تيسير الكريم الرحمن ص355.

(3) سنن ابن ماجه افتتاح الكتاب في الإيمان وفصائل الصحابة والعلم، باب الوصاة بطلبة العلم (247) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (280) وصحيح سنن ابن ماجه (201).

(4) شرح سنن ابن ماجه للسيوطي وغيره 22/1 نسخة المكتبة الشاملة.

(5) جامع بين العلم وفضله، 231/1 (256)، شعب الإيمان للبيهقي 242/2 (1600).

(6) سير أعلام النبلاء للذهبي 387/8. تاريخ بغداد للخطيب البغدادي 160/10.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - : " رزق الكفاية لطلبة العلم من الواجبات الشرعية؛ بل هو من المصالح الكلية التي لا قيام للخلق بدونها"⁽¹⁾.

المطلب الثالث

نماذج لعلماء الإسلام وتخصصاتهم

وهنا سنعرض أبرز علماء المسلمين الأوائل في مجال البحوث العلمية التي هي ثمرة المنهج الإسلامي في تأدية واجب الاستخلاف في الأرض وأن العلم هو الخطوة الأولى بعد الإيمان بالله في تحقيق ذلك الاستخلاف. فلقد أثبتت الحقائق التاريخية أن العلماء المسلمين العرب وجهوا نشاطهم الفكري إلى ميادين العلوم الإنسانية منذ ظهور الإسلام، ومن هؤلاء العلماء البارزين المؤسسين للفرضيات والنظريات في مجال تقنية المعلومات، ابن سينا: مكتشف الطب الوقائي والقانون الأول، والخوارزمي: واضع علم الجبر على أسسه الصحيحة، وابن نفيس: من عباقرة أطباء التشريح سبق علماء الغرب بثلاثة قرون، وابن حمزة المغربي الذي بلور فكرة اللوغاريتمات⁽²⁾. والحسن بن الحسن بن الهيثم العالم الموسوعي الذي قدم إسهامات كبيرة في الرياضيات والبصريات والفيزياء وعلم الفلك والهندسة وطب العيون والفلسفة العلمية والإدراك البصري والعلوم بصفة عامة بتجاربه التي أجراها مستخدماً المنهج العلمي، وله العديد من المؤلفات والمكتشفات العلمية التي أكدها العلم الحديث⁽³⁾. وهنا يقول الحسن بن الهيثم: "أنا ما دامت لي الحياة سأبذل جهدي وعقلي مستخدماً طاقتي في العلم لثلاثة أمور: إفادة من يطلب الحق في حياتي وبعد مماتي، وذخيرة لي في قبري ويوم حسابي، ورفعة لسلطان المسلمين"⁽⁴⁾.

الاعتناء بعلوم الأمم الأخرى وتوريثها للبشرية:

وهذا أعظم ما أسدته الأمة الإسلامية إلى الأمم الأخرى بعد إرشادها إلى الإسلام وإهدائه إياهم ونقله علومهم الخاصة بهم إلى الجميع بدون احتكار. أما بالنسبة لعلوم الأمم الأخرى وقفه الفاتحون الأوائل رضي الله عنهم علوم الأمم متحضرة مادياً إلى درجة كبيرة، فمن ذلك الحضارة الماربية المصرية والآشورية والكلدانية، والفينيقية والرومانية وغير ذلك من الحضارات، فقاموا بنقل كل ذلك تقريباً إلى اللغة العربية فأحسنوا، ولم يكتفوا بنقله وتوريثه إلى الحضارة الأوروبية وإنما عبر النهضة في الغرب كما يدعي بعض المستشرقين والمستغربين أنه المسلمين كانوا جسراً فقط لنقل حضارة الأولين إلى الغرب، بله أضافوا إليه وهذبوه ووضعوا القواعد العلمية للاستفادة مما نقلوه، فبزغتهم لهم شمس حضارة طمع

(1) مجموع الفتاوى 457/7.

(2) للاستزادة يرجع لكتاب: إسهامات المسلمين في الحضارة الإسلامية، د. راغب السرجاني.

(3) للاستزادة حول ابن الهيثم يرجع لكتاب: الحسن بن الهيثم، بحوثه وكشوفه البصرية. د. مصطفى نظيف.

(4) صناعة الهدف، هشام مصطفى عبدالعزيز ص 159.

⁵ إلا فيما نقلوه من الخرافات العقدية والمعضلات الكلامية الذي أصرَّ بهم ضرراً بالغاً، وفتح عليهم باب شر لم يغلق تماماً إلى الآن.

علمه الدنيا شعاعها زماناً طويلاً، وكانته على الحقيقة السبب الرئيس لنهضة الغرب التي قامت على أنقاض الحضارة الإسلامية الرائعة التي فرط فيها أهلها تفرطاً بيناً، فالسلمون لم يورثوا الأمم الأخرى عقيدتهم الصافية فقط بل ورثوهم معها أسباب الحضارة ومفاتيح العلوم، لكن كثيراً من الأمم - لضلالها وبعدها عن أسباب الهداية - اكتفت بأخذ العلوم وقطف ثمارها، وضلت عن أسباب الهداية والرشاد عصبية وحمية جاهلية، والعياذ بالله.

المطلب الرابع

المكتبات في الحضارة الإسلامية (1)

انتشرت المكتبات في جميع أرجاء الدولة الإسلامية، فوجدت المكتبات في قصور الخلفاء، وفي المدارس والكتاتيب والجوامع، وكما وجدت في عواصم الإمارات وجدت كذلك في القرى النائية، والأماكن البعيدة؛ مما يؤكد على تأصل حب العلم لدى أبناء هذه الحضارة.

ومن أشهر المكتبات في الحضارة الإسلامية، ومن أهمها مكتبة بغداد "بيت الحكمة" وكانت مدينة قرطبة العاصمة تضم سبعين داراً للكتب⁽²⁾. وأكبرها مكتبة قرطبة التي أسسها الخليفة الأموي الحاكم المستنصر سنة 350 في قرطبة، وقد أقام لها موظفين مخصصين للعناية بشئونها، وجمع فيها النسخ، وعين لها عدداً كبيراً من المجلدين، وقد ظلت محط أنظار العلماء وطلاب العلم في الأندلس، وقد وفد إليها الأوربيون للنهل من معينها، وعلوّمها، وقد كانت عدة الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعاً وأربعين فهرسة، في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين⁽³⁾.

وكان "الإنفاق على المكتبات بصفة عامة من ريع الأوقاف التي توقف عليها؛ حيث كانت الدولة تُخصّص لها أوقافاً معينة، ويقدم لها بعض الأغنياء وأهل الخير أوقافاً تساعد في الإنفاق عليها⁽⁴⁾. " وهذا أبو القاسم جعفر بن محمد أوقف داراً أسماها دار العلم، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وفقاً على كل طالب علم، لا يمنع أحد من دخولها، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب أعطاه ورقاً وورقاً - أي كتباً ونقوداً - وكانت تفتح يومياً⁽⁵⁾.

(1) للاستزادة ينظر: أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي، سعيد أحمد حسن، والمكتبات في الحضارة العربية الإسلامية ربحي مصطفى عليان.

(2) المسلمون والجرمان، إبراهيم العدوي، ص 270.

(3) التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار 190/1.

(4) أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين، محمد حسين محاسنة ص 161.

(5) الوقف ودوره في تنمية المجتمع ص 30.

المطلب الخامس

الاهتمام بالمدارس وطلاب العلم الوافدين في الحضارة الإسلامية

ازدهرت الحياة الثقافية في الأندلس وبخاصة في عهد الحكم الثاني (350-366) وكانت جامعة قرطبة التي أنشأها والده عبدالرحمن الناصر في المسجد الجامع يفد إليها الطلاب من جميع أنحاء الأندلس، ومن أفريقيا وأوروبا، وقد استدعى الحكم بعض الأساتذة المشهورين من الشرق ليحاضروا فيها⁽¹⁾.

والناظر للحضارة التعليمية الإسلامية يجد أنه: "كانت الدراسة فيها على قسمين: قسم داخلي للغرباء والذين لا تساعدهم أحوالهم المادية على أن يعيشوا على نفقات آبائهم، وقسم خارجي لمن يريد أن يرجع في المساء إلى بيت أهله وذويه، أما القسم الداخلي فكان بالمجان أيضاً يهيأ للطلاب فيه الطعام والنوم والمطالعة والعبادة... ولا تزال لدينا حتى الآن نماذج من هذه المدارس التي غمرت العالم الإسلامي كله، ففي دمشق لا تزال المدرسة النورية التي أنشأها البطل العظيم نور الدين الشهيد وهي ما تزال واقعة تعطينا نموذجاً حياً لهندسة المدارس في عصور الحضارة الإسلامية، ولقد زارها الرحالة ابن جبير في أوائل القرن السابع الهجري وكتب عنها أنها من أحسن مدارس الدنيا مظهراً، وهي قصر من القصور الأنيقة... وقد كانوا يأكلون فيها ثم عدل عن ذلك إلى راتب معلوم في آخر كل شهر يعطى للطلاب المنتسبين إليها⁽²⁾.

ومن مناقب الإسكندرية ما ذكره ابن جبير في رحلته حيث قال: "والمدارس والمخارس الموضوعة فيه لأهل الطب والتعبد، يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه وإجراء يقوم به في جميع أحواله. واتسع اعتناء السلطان بمؤلاء الغرباء الطارئین حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا ذلك، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحتهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء. وقد رتب أيضاً فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة، وينهون إلى الأطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم"⁽³⁾.

ويقول ابن بطوطة: "أما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها: وأما الزوايا فكثيرة، والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقهاء، وأكثرهم الأعاجم. وهم أهل أدب. ولكل زاوية شيخ وحارس وترتيب أمورهم عجيب. ومن عوائدهم في الطعام أنه يأتي خديم الزاوية إلى الفقراء صباحاً، فيعين له كل واحد ما يشتهي من الطعام. فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزة ومرة في إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد، وطعامهم مرتان في اليوم، ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر إلى عشرين، ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة، والصابون لغسل أثوابهم، والأجرة لدخول

(1) المختصر في أخبار البشر أبو الفداء 24/4، تاريخ العرب، فليب حتى، 857/2، 858.

(2) من روائع حضارتنا 214/205 مختصراً .

(3) رحلة ابن جبير 4/1.

الحمام، والزيت للاستصباح، وهم أعزب، وللمتزوجين زوايا على حدة، ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس، والمبيت بالزاوية، واجتماعهم بقبة داخل الزاوية⁽¹⁾.

- و"كان السلطان محمد الفاتح محباً للعلم والعلماء فبذل مجهوداً كبيراً في إنشاء المدارس والمعاهد،... وألحق بالمدارس والمعاهد مساكن للطلبة ينامون فيها ويأكلون، ووضعت لهم منحة مالية شهرية، وأنشأ بجانبها مكتبة خاصة، ويعيرون فيها الكتب للطلبة والمدرسين"⁽²⁾.

المبحث العاشر

محاسن تشريع الجهاد في الإسلام

قضية الجهاد من القضايا الشائكة في الدعوة إلى الله وي طرح فيها من الشبهات التي يحاولون فيها إتهام الإسلام بالإرهاب، والكلام فيها يطول وسنعرض لأهم أربع قضايا لا بد وأن يعرفها الداعية في مجال محاسن الإسلام في تشريع الجهاد حتى لا يقع في قلبه الحرج وتتكون لديه صورة صحيحة يستطيع أن يبلغها وينقلها لغير المسلمين⁽³⁾.

المطلب الأول

السِّلم هو الأصل في الإسلام

كان الرسول يُعَلِّمُ أصحابه ويوجههم فيقول لهم مرياً: ((لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا لِلَّهِ الْعَافِيَةَ))⁽⁴⁾، فالسلم بطبيعة تربيته الأخلاقية التي يترتب عليها من خلال القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ يكره القتل والدماء، ومن ثم فهو لا يبدأ أحداً بقتال، بل إنه يسعى بكل الطرق لتجنب القتال وسفك الدماء، وفي آيات القرآن الكريم ما يؤيد هذا المعنى جيداً.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] فإنها من الآيات التي تدعو للسلم ولا تدعو للحرب،

(1) رحلة ابن بطوطة 15/1.

(2) فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح، لعلي الصلابي 169-170 مختصراً.

(3) للتوسع حول هذا الموضوع: ينظر كتب الفقه في أبواب الجهاد وكذلك كتب السنة وشروحها عند أبواب الجهاد، ومن الكتب المتخصصة في ذلك: الجهاد في الإسلام د. عبدالله الزاحم، والجهاد في الإسلام بين الطلب والدفاع، المفاهيم الصحيحة للجهاد في سبيل الله في ضوء الكتاب والسنة.. للشيخ سعيد القحطاني، الجديد في فقه الجهاد د. علي العمري، وفقه الجهاد في الإسلام لحسن أيوب، نظرات معاصرة في فقه الجهاد د. أحمد الإمام، وكذلك أسلوب استخدم القوة في كتاب الحكمة في الدعوة إلى الله أ.د. سعيد بن وهف القحطاني فقد فصل فيه عن الجهاد والدعوة.

(4) صحيح البخاري، عن عبدالله بن أبي أوفى: كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أحر القتال حتى تزول الشمس (2804) واللفظ له، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء (1742).

حيث إنها تحت على إعداد القوة التي تجعل من تعرف ومن لا تعرف يهابك فلا يعتدي عليك، فقد قيل: الذي يريد السلام فليجهز للحرب، وأعد جيشاً قوياً تتجنب الحرب⁽¹⁾.

والآية التي بعدها وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١] تدل على ذلك، قال الشيخ السعدي: "﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ الكفار المحاربون، أي: مالوا ﴿لِلسَّلَامِ﴾ أي: الصلح وترك القتال. ﴿فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة: منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم. ومنها: أن في ذلك إجماماً لقواكم، واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك، ومنها: أنكم إذا أصلحتهم وأمن بعضكم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه والمتبعون له. فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين.

ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم. فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافيتهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره، فقال: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِبَصَرِهِ وَيَأْمُرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]⁽²⁾.

ومن الأدلة كذلك على أن الإسلام دين السلام أن الله تعالى سمى صلح الحديبية فتحاً، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، وهذه السورة نزلت في صلح الحديبية⁽³⁾، فقد سمى الله تعالى معاهدة صلح حقت فيها الدماء فتحاً مبيناً..

(1) هذه العبارات نقلتها عن أ. فاضل سليمان في دورة له عن كيفية التعامل مع الشبهات حول الإسلام، والأستاذ. فاضل سليمان من الدعوة المشهورين في أمريكا والدول الغربية، وهو مؤسسة ومدير مركز جسور للتعريف بالإسلام.

(2) تيسير الكريم الرحمن ص 335.

(3) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (4172)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية (1786).

المطلب الثاني

لماذا الجهاد في الإسلام

الإذن بالقتال لم يأت إلا بعد أن بدئ المسلمون بالحرب، وحينئذ لا بد من الدفاع عن النفس والدين، وإلا كان هذا جبناً في الخلق، وخوراً في العزيمة، قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿الحج: ٣٩ - ٤٠﴾.

وعلة القتال واضحة في الآية، وهي أن المسلمين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق. ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿البقرة: ١٩٠﴾.

يقول القرطبي: "هذه الآية أول آية نزلت في الأمر بالقتال، ولا خلاف في أن القتال كان محظوراً قبل الهجرة بقوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿فصلت: ٣٤﴾، وقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿المائدة: ١٣﴾، وما كان مثله مما نزل بمكة، فلما

هاجر إلى المدينة أمر بالقتال" (1).

والملاحظ أن الأمر بالقتال هنا إنما جاء لمحاربة من بدأ بالقتال فقط، دون المسالم، وجاء التأكيد الشديد على ذلك المعنى بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا ﴿ثم التحذير للمؤمنين: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿فالله

تعالى لا يحبُّ الاعتداء، ولو كان على غير المسلمين، وفي هذا تحجيم كبير لاستمرار القتال.

ومن هنا فإنه لا يجوز للمسلم أن يقاتل من لم يقاتله إلا بعلة واضحة، كسلب أو نهب أو اغتصاب لحقوق المسلمين، أو بسبب ظلم أوقعوه بأحد، والمسلمون يريدون رفع هذا الظلم، أو بسبب منعهم للمسلمين من نشر دينهم، أو إيصال هذا الدين للآخرين.

ومثل الآية السابقة يقول الله تعالى أيضاً ﴿الَّذِينَ قَاتَلُوا قَوْمًا تَكْفُرًا أَيْمَنَهُمْ وَهُمْ يُبَايِعُ الرَّسُولَ وَهُمْ بِكُفْرِهِمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً ﴿التوبة: ١٣﴾، والمقصود بمن نكثوا أيمانهم كفار مكة، وكان سبباً في خروج

النبي ﷺ فأضيف الإخراج إليهم، وقيل: أخرجوا الرسول ﷺ من المدينة لقتال أهل مكة للنكث الذي منهم، وعن الحسن ﴿وَهُمْ بِكُفْرِهِمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً ﴿بالتقال ﴿أُولَٰئِكَ مَرَّةً ﴿أي نقضوا العهد، وأعانوا بني بكر على خزاعة، وقيل:

﴿بِكُفْرِهِمْ ﴿بالتقال يوم بدر؛ لأن النبي ﷺ خرج للعير، ولما أحرزوا غيرهم كان يمكنهم الانصراف، فأبوا

إلا الوصول إلى بدر، وشرب الخمر بها.. وقيل: إخراجهم الرسول ﷺ، منعهم إياه من الحج والعمرة والطواف، وهو ابتداءهم⁽¹⁾.

فهذه هي الأسباب والدوافع التي تدعو المسلمين إلى الحرب، وهي أسباب ودوافع لا ينكرها منصف، ولا يعترض عليها محايد؛ فهي تشمل:

1- إعلاء كلمة الله، وتبليغ دينه، ودعوة الناس إليه، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿ وَقَنَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

2- نصر المظلومين، قال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَوْلِيهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥].

3- رد العدوان، وحفظ الإسلام، وحماية عقيدة التوحيد، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢١٦] الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ لَظَلِيمٌ يُدْرِكُ مَا يَكْفُرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿ [الحج: ٣٩ - ٤٠] (2).

فلا بد من تأمين الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الأعداء أن يفتنهم عنه، وأيضاً حماية الدعوة حتى تبلغ للناس جميعاً من غير إكراه⁽³⁾.

ومن المهم التنبيه أن الأمر بالصبر قرين الأمر بالجهاد في الإسلام وهناك أحوال يكون الصبر والعفو عن الأعداء، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ

لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿ [الشورى: ٣٩ - ٤٣].

قال ابن القيم: "فمدحهم على عفو بعد قدرة لا على عفو وذل وعجز ومهانة، وهذا هو الكمال"⁽⁴⁾.

(1) الجامع لأحكام القرآن 86/8.

(2) الحكمة في الدعوة إلى الله لسعيد بن وهف القحطاني 542/2.

(3) انظر: بماذا انتصر المسلمون أنور الجندي: ص 57-62.

(4) الروح ص 242.

المطلب الثالث

ضوابط وأخلاقيات الجهاد في الإسلام⁽¹⁾

"إِنَّ حَسْنَ الْخَلْقِ، وَلَيْنَ الْجَانِبِ، وَالرَّحْمَةَ بِالضَّعِيفِ، وَالتَّسَامُحَ مَعَ الْجَارِ وَالْقَرِيبِ تَفْعَلُهُ كُلُّ أُمَّةٍ فِي أَوْقَاتِ السَّلْمِ مَهْمَا أَوْغَلَتْ فِي الِهْمَجِيَّةِ، وَلَكِنْ حَسْنَ الْمَعَامَلَةِ فِي الْحَرْبِ، وَلَيْنَ الْجَانِبِ مَعَ الْأَعْدَاءِ، وَالرَّحْمَةَ بِالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ وَالشُّيُوخِ، وَالتَّسَامُحَ مَعَ الْمَغْلُوبِينَ، لَا تَسْتَطِيعُ كُلُّ أُمَّةٍ أَنْ تَفْعَلَهُ، وَلَا يَسْتَطِيعُ كُلُّ قَائِدٍ حَرْبِي أَنْ يَتَّصِفَ بِهِ؛ إِنْ رَوِيَةَ الدَّمُ تَنْبِيرَ الدَّمِ، وَالْعَدَاءُ يُؤَجِّجُ نِيرَانَ الْحَقْدِ وَالْغَضَبِ، وَنَشْوَةَ النِّصْرِ تَسْكُرُ الْفَاتِحِينَ؛ فَتَوَقَّعْهُمْ فِي أَبْشَعِ أَنْوَاعِ التَّشْفِيِّ وَالْإِنْتِقَامِ."

وهنا يتوج التاريخ قادة حضارتنا الإسلامية؛ عسكريين ومدنيين، فاتحين وحاكمين؛ إذ انفردوا من بين عظماء الحضارات كلها بالإنسانية الرحيمة العادلة في أشد المعارك احتداماً، وفي أحلك الأوقات التي تحمل على الانتقام والتأر وسفك الدماء؛ وأقسم لولا أن التاريخ يتحدث عن هذه المعجزة الفريدة في تاريخ الأخلاق الحربية بصدق لا مجال للشك فيه لقلت إنها خرافة من الخرافات وأسطورة لا ظل لها على الأرض⁽²⁾.

فإذا كان السلم هو الأصل في الإسلام، وإذا شرعت الحرب في الإسلام للأسباب والأهداف التي ذكرناها سابقاً؛ فإن الإسلام كذلك لم يترك الحرب هكذا دون قيود أو قانون، وإنما وضع لها ضوابط تحدُّ ممَّا يصاحبها، وبهذا جعل الحروب مضبوطة بالأخلاق ولا تسيرها الشهوات، كما جعلها ضدَّ الطغاة والمعتدين لا ضدَّ البراء والمسلمين، وتتمثل أبرز هذه القيود الأخلاقية فيما يلي:

أولاً: عدم الاعتداء:

قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة:

١٩٠].

فيدخل في ذلك ارتكاب المناهي: من المثلة والغلول، وقتل النساء، والصبيان، والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال، والرهبان، والمرضى، والعمي، وأصحاب الصوامع؛ لكن من قاتل من هؤلاء أو استعان الكفار برأيه قتل⁽³⁾.

ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: ((اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً...))⁽⁴⁾، وفي رواية: ((لَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا، وَلَا طِفْلًا، وَلَا صَغِيرًا، وَلَا امْرَأَةً...))⁽¹⁾،

(1) للاستزادة ينظر كتاب: أخلاقيات الحروب الإسلامية في سيرة خير البرية د. إيهاب كمال.

(2) من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي بتصرف ص 73.

(3) انظر: المغني لابن قدامة 175/13-179.

(4) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث (1731).

وقال: ((لا تقتلن ذرية ولا عسيفا))⁽²⁾ ((3)).

وفي رواية: ((ولا تقتلوا وليداً، أو امرأة، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة))⁽⁴⁾.

ثانياً: عدم الإفساد في الأرض:

ويدخل عدم الإفساد في الأرض في عدم الاعتداء، وذلك قتل الحيوان لغير مصلحة، وتحريق الأشجار، وإفساد الزروع والثمار، والمياه، وتلويث الآبار، وهدم البيوت⁽⁵⁾.

فلم تكن حروب المسلمين حروب تخريب يحرص فيها المتقاتلون من غير المسلمين على إبادة مظاهر الحياة لدى خصومهم، بل كان المسلمون يحرصون أشد الحرص على الحفاظ على العمران في كل مكان، ولو كان ببلاد أعدائهم، وظهر ذلك واضحاً في كلمات أبي بكر الصديق ؓ، وذلك عندما وصى جيوشه المتجهة إلى فتح الشام، وكان مما جاء في هذه الوصية "ولا تفسدوا في الأرض ولا تغرقن نخلاً ولا تحرقنّها، ولا تعقروا بهيمة، ولا شجرة ثمر، ولا تهدموا بيعة"⁽⁶⁾.

ثالثاً: عدم الغدر:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

فإذا كان بين المسلمين والكفار عهد أو أمان فلا يجوز للمسلمين الغدر حتى ينقضي الأمد، فإن خاف المسلمون من أعدائهم خيانة، بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة، فحينئذ يخبرهم المسلمون أنه لا عهد بيننا وبينكم حتى يستوي علم المسلمين وعلم أعدائهم بذلك. ودل مفهوم الآية أيضاً أنه إذا لم يخف منهم خيانة؛ بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته⁽⁷⁾.

ولذا يقول النبي ﷺ ((من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدُّ عقده ولا يجلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء))⁽⁸⁾.

- (1) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في دعاء العدو (2614)، مصنف ابن أبي شيبة 483/6، السنن الكبرى للبيهقي (17932). وقال ابن الاثير في جامع الأصول 596/2: وفي سنده خالد بن الفرز الراوي عن أنس لم يوثقه غير ابن حبان، وبقيه رجاله ثقات، وله شواهد يتقوى بها.
- (2) العسيف: الأجير. ينظر: المصباح النير للفيومي ص 155.
- (3) سنن ابن ماجه، كتاب الجهاد، باب الغارة والبيات وقتل الصبيان (2832)، والمستدرک علی الصحیحین للحاکم 133/2 (2565)، وقال الحاکم: الحديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.
- (4) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها (1731).
- (5) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، 227/1 وعناصر القوة في الإسلام، ص 212.
- (6) السنن الكبرى للبيهقي 145/9 (18125)، شرح مشكل الآثار للطحاوي 144/3 (111)، وتاريخ دمشق لابن عساكر 75/2.
- (7) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، 321/2، وتيسير الكريم الرحمن ص 324.
- (8) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير إليه (2759)، وجامع الترمذي، كتاب السير، باب ما جاء في الغدر (1580)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

كان بينه معاوية وبينه الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم حتى إذا انقضى العهد غزاهم فجاء رطله على فرس أو برزونه وهو يقول الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدر فنظروا فإذا عمرو بن عبسة فأرسل إليه معاوية فسأله فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان بينه وبينه قوم عهد فلا يشد عقده ولا يحملها حتى ينقضيه أمدها أو ينبذ إليهم سواء فرجع معاوية.

كان النبي ﷺ يودع السرايا موصياً إياهم ((وَلَا تَغْدُرُوا)). ولم تكن هذه الوصية في معاملات المسلمين مع إخوانهم المسلمين، بل كانت مع عدو يكيد لهم، ويجمع لهم، وهم ذاهبون لحربه! وقد وصلت أهمية هذا الأمر عند رسول الله ﷺ أنه تبرأ من الغادرين، ولو كانوا مسلمين، ولو كان المغدور به كافراً؛ فقد قال النبي: ((من آمن رجلاً على دمه فقتله، فأنا بريء من القاتل، وإن كان المقتول كافراً))⁽¹⁾.

رابعا: قبول السلم والهدنة إن طلب العدو المقاتل:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

"فإن في ذلك فوائد كثيرة، منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك كان أولى لإجابتهم، ومنها: أن في ذلك إجماعاً لقواكم، واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر إن احتيج لذلك، ومنها: أنكم إذا اصطلحتم وأمن بعضكم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان"⁽²⁾.

خامسا: حسن معاملة الأسرى:

وإن محاسن الإسلام في الجهاد لتصل إلى أوج عظمتها حين تتعلق بالأسرى أثناء الحروب، فالشأن في الحروب أنها يغلب عليها روح الانتقام والتنكيل، لا روح الإنسانية والرحمة، ولكن الإسلام كان له منهج إنساني تحكمه الرحمة.

ومن الاحسان للأسرى الإنفاق على الأسير فإن هذا مما يثاب عليه المسلم؛ وذلك بحكم ضعفه وانقطاعه عن أهله وقومه، وشدّة حاجته للمساعدة، وقد قرن القرآن الكريم برّه ببر اليتامى والمساكين؛ فقال في وصف المؤمنين: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: 8]، "أقتصر على الثلاثة لأنهم من أهم من تجدر الصدقة عليهم؛ فإن المسكين عاجز عن الاكتساب لما يكفيه. واليتيم مات من يعوله ويكتسب له، مع نهاية عجزه بصغره. والأسير لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلة"⁽³⁾.

(1) التاريخ الكبير للبخاري 322/3، واللفظ له، وصحيح ابن حبان 320/13 (5982)، وحلية الأولياء 24/9 وصححه الألباني في صحيح (6103).

(2) تيسير الكريم الرحمن ص 325.

(3) محاسن التأويل 375/9.

وفي قصة ثمامة بن أثال وكيف كان النبي ﷺ يعامله⁽¹⁾ أروع النماذج في الاحسان للأسرى حتى إنه رسول الله ﷺ قال لأصحابه ع: ((أحسنوا إيساره⁽²⁾)) ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أهله، فقال: ((اجمعوا ما كان عندكم من طعام، فابعثوا به إليه، وأمر بلقحته⁽³⁾ أن يغدى عليه بها ويراح))⁽⁴⁾. أي أن النبي ﷺ كان يطعمه من بيته ويسقيه من ناقته.

ومن الإحسان للأسرى ما ورد أنه ﷺ عندما رأى أسرى يهود بني قريظة موقوفين في العراء في ظهيرة يوم قائظ، فقال مخاطباً المسلمين المكلفين بحراستهم: ((لَا تَجْمَعُوا عَلَيْهِمْ حَرَّ الشَّمْسِ وَحَرَّ السَّلَاحِ، وَقِيلُوهُمْ⁽⁵⁾ واسقوهم حتى يبردوا))⁽⁶⁾.

ومن الإحسان للأسرى أن الإسلام يمنع تعذيب الأسير للإدلاء بمعلومات، وقد قيل للإمام مالك: أيعذب الأسير إن رجي أن يدل على عورة العدو؟ قال: ما سمعت بذلك⁽⁷⁾. وهذا ما أنكره النبي ﷺ على بعض الصحابة عندما ضربوا غلامين من قريش وقعا أسيرين في أحداث بدر، فقال لهم: ((إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا، صَدَقًا، وَاللَّهِ إِنَّهُمَا لَقُرَيْشِيٌّ))⁽⁸⁾.
سادسا: عدم التمثيل بالميت:

فقد ((نهى رسول الله ﷺ عن المثلة))⁽⁹⁾. وعمل رسول الله ﷺ بذلك رغم ما حدث في غزوة أحد من تمثيل المشركين بحمزة عم الرسول ﷺ، فإنه لم يغير مبدأه.

بل هدد النبي ﷺ المسلمين تهديداً خطيرا إن قاموا بالتمثيل بأجساد قتلى الأعداء، فقال: ((أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ، أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا، وَإِمَامًا ضَلَالَةً، وَمِثْلًا مِّنَ الْمُثَلِّينِ))⁽¹⁰⁾.

(1) صحيح البخاري، كتاب أبواب المساجد، باب الاغتسال إذا أسلم وربط الأسير أيضا في المسجد، وكان شريح يأمر الغريم أن يجلس إلى سارية المسجد (462).

(2) الإيسار بالكسر مصدر أسرته أسرا وإيسارا. وهو أيضا الحبل والقيد الذي يشد به الأسير. ينظر: النهاية في غريب الحديث 48/1 أي: عاملوه بإحسان وهو في القيد.

(3) اللَّفْحَةُ وَاللَّفْحَةُ: النَّاقَةُ الْحَلُوبُ الْغَزِيرَةُ اللَّبَنِ. ينظر: كتاب العين 47/3.

(4) سيرة ابن هشام 638/2، والروض الأنف للسهيلي 501/7.

(5) قيلوهم: أي أريجوهم بالقبول، وهي راحة نصف النهار عند حر الشمس. ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية 198/4.

(6) ينظر: مغازي الواقدي 514/2، وإمتاع الأسماع للمقريزي 250/1، وسبل الهدى والرشاد للصالحى 13/5.

(7) التاج والإكليل لمختصر الخليل لمحمد بن يوسف العبدري 548/4.

(8) ينظر: سيرة ابن هشام 617/1، والطبري في التاريخ 436/2، والسهيلي: الروض الأنف، 58/3، والسيرة النبوية، لابن كثير 397/2، وعيون الأثر، لابن سيد الناس 291/1.

(9) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب النهي من غير إذن صاحبه (2342).

(10) مسند أحمد 413/6 (3868)، واللفظ له، وحسنه شعيب الأرنؤوط، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (281).

وكان عمر بن الخطاب يقول إذا بعث أمراء الجيش: "لا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور"⁽¹⁾.

هذه هي بعض أخلاق الحروب عند المسلمين.. تلك التي لا تلغي الشرف في الخصومة، أو العدل في المعاملة، ولا الإنسانية في القتال أو ما بعد القتال.

المطلب الرابع

شبهة انتشار الإسلام بالسيف (2)

انتشار الإسلام بالعنف من الشبهات التي يرددها بعض المغرضين كثيرا؛ حيث يدعون أن الإسلام كان عنيفاً يجب إراقة الدماء، وأن الإسلام انتشر بالسيف، وأن معتنقي الإسلام لم يدخلوا فيه طواعية ولا اختياراً، وإنما دخلوا فيه بالقهر والإكراه.

إن هدف الفتوحات الإسلامية نشر الإسلام من خلال إزالة العوائق التي تقف أمام الناس في حرية الاعتقاد، فهم لا يكرهون الناس على الدخول في الدين وإنما انطلقوا لينشروا الإسلام وليرفعوا الظلم عن المظلومين الذين حيل بينهم وبين معرفة الحق.

فالحقيقة أن جوهر الإسلام وخبر التاريخ يكذبان هذه الفرية، ويستأصلونها من جذورها، فقله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، يمثل قاعدة أساسية صريحة بالنسبة للحرية الدينية، فلم يأمر الرسول الله ﷺ والمسلمون من بعده - أحداً باعتناق الإسلام قسراً، كما لم يلجئوا الناس للتظاهر به هرباً من الموت أو العذاب؛ إذ كيف يصنعون ذلك وهم يعلمون أن إسلام المكروه لا قيمة له في أحكام الآخرة، وهي التي يسعى إليها كل مسلم؟!!

وقد جعل الإسلام قضية الإيمان أو عدمه من الأمور المرتبطة بإرادة الإنسان نفسه واقتناعه فقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

(1) عيون الأخبار لابن قتيبة 107/1-108.

(2) لم أقف على كتاب متخصص في هذا ولكن هذه المسألة ماثورة في كتب الدفاع عن الإسلام ومنها: التسامح في الإسلام بين المبدأ والتطبيق د. شوقي أبو خليل، محمود حمدي زفروق: حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك، وحقائق الإسلام وأباطيل خصومه عباس محمود العقاد ص 169، 170. وبحث: الحرية الدينية في الشريعة الإسلامية "أبعادها وضوابطها" د. محمد الزحيلي، مجمع الفقه الإسلامي الدورة التاسعة عشرة لعام 1428هـ / 2008م بالشارقة، وكتاب الحكمة في الدعوة إلى الله عند حديثه عن أسلوب استخدام القوة، وكتاب البابا والإسلام ليوسف بن عبدالله، مقال: هل انتشر الإسلام بالسيف د. محمد المنجد، منشور على موقع الإسلام سؤال وجواب، ومقال: الرد على مقولة انتشار الإسلام بالسيف، منشور على موقع دار الإفتاء المصرية، ومقال: حقيقة انتشار الإسلام بالسيف، د. ياسر منير. وقد كتب في هذا د. نبيل لوقا - وهو نصراني - كتاب بعنوان: كتاب انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء.

ولفت القرآن نظر رسول الله ﷺ إلى هذه الحقيقة، ويبيّن له أن عليه تبليغ الدعوة فقط، وأنه لا سلطان له على تحويل الناس إلى الإسلام، فقال: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، ومن ذلك يتّضح أن دستور المسلمين يرفض رفضاً قاطعاً إكراه أحد على اعتناق الإسلام⁽¹⁾.

ومن ذلك ما روي أن الصحابة أسروا ثمامة بن أثال الحنفي -، وقدموا به المدينة، وربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: ((ماذا عندك يا ثمامة؟)) فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكرك، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فترك حتى كان الغد فقال: ((ما عندك يا ثمامة؟)) فقال: عندي ما قلت لك. إن تنعم تنعم على شاكرك، فتركه حتى كان بعد الغد فقال: ((ما عندك يا ثمامة؟)) فقال: عندي ما قلت لك، فقال: أطلقوا ثمامة، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد: والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك؛ فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ، والله ما كان دين أبغض إليّ من دينك؛ فأصبح دينك أحب الدين إليّ، والله ما كان بلد أبغض إليّ من بلدك؛ فأصبحت بلدك أحب البلاد إليّ... الحديث⁽²⁾.

فقد أسلم ثمامة بن أثال دون ضغط أو إكراه، فقد تركه النبي ﷺ في المسجد ثلاثة أيام متتالية وهو مشرك؛ لكي يرى ويشهد المسلمين وهم يصلون، ويتعاملون مع بعضهم، ورسول الله ﷺ بينهم يعلمهم ويرشدهم، فلما رأى ذلك أسلم، مع أن النبي ﷺ لم يكرهه على الإسلام.

يقول المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) وهو يتحدث عن سر انتشار الإسلام في عهد رسول الله ﷺ وفي عصور الفتوحات من بعده: "قد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة، ولم ينتشر الإسلام إذن بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت مؤخراً كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند -التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل- ما زاد عدد المسلمين إلى خمسين مليون نفس فيها -هذا في زمنه-، ولم يكن الإسلام أقل انتشاراً في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط"⁽³⁾.

فالإسلام إذن إنما غزا القلوب وأسر النفوس.. وإن كان بإمكان السيف أن يفتح أرضاً، فليس بإمكانه أن يفتح

قلبا!

(1) حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك، محمود حمدي زقزوق ص 33.

(2) صحيح البخاري، كتاب أبواب المساجد، باب الاغتسال إذا أسلم وربط الأسير أيضاً في المسجد، وكان شريح يأمر الغريم أن يجلس إلى سارية المسجد (462).

(3) كتاب البابا والإسلام، ليوسف بن عبدالله، نقلا عن حضارة العرب، غوستاف لوبون: ص 128، 129.

المبحث الحادي عشر

محاسن تشريع الحدود في الإسلام

الحد لغة: هو المنع، وحدود الله: محارمه التي نهي عن ارتكابها وانتهاكها، وسميت بذلك لأنها تمنع من الإقدام على الوقوع فيها.

وشرعا: عقوبة مقدرة في الشرع؛ لأجل حق الله تعالى. وقيل: عقوبة مقدرة شرعاً في معصية؛ لتمنع من الوقوع في مثلها أو في مثل الذنب الذي شرع له العقاب.

والحدود سبعة: منها ما هو متفق عليه وهو حد السرقة، وحد الزنا، وحد القذف وحد شرب الخمر، ومختلف فيه وهو حد الردة، وحد الحرابة، وحد القصاص. ومنهم من أخرجوا القصاص لأنه من حق العباد⁽¹⁾. ويمكن بيان بعض محاسن تشريع الحدود في الإسلام من خلال المطالب التالية⁽²⁾:

المطلب الأول

الحكمة العامة من الحدود في الإسلام

القصد من إقامة الحدود الحد من الجرائم التي تعاني منها كل المجتمعات البشرية في الماضي والحاضر، والتي استعصى علاجها مهما سن من القوانين لمنعها، كجرائم القتل والاعتداء على الأنفس، وجرائم الجنس من اعتداء وأنجار وترويج، وجرائم السرقة والنهب والاعتداء على الأموال الخاصة والعامة، وجرائم السكر والمخدرات بأنواعها التي تذهب بالعقول والأموال.

ففي تلك الحدود تأديب للجماعات والأفراد، وقطع لطغيانهم على حقوق الغير وحرماهم، كما أن فيها محافظة على أموال الناس من السرقة والغصب، ولأعراضهم وأنسابهم من الانتهاك والاختلاط، ولعقولهم من الزوال والذهاب، ولنفسهم من الهلاك والإزهاق ظلماً وبغياً وعدواناً.. فهذه الحدود من محاسن الإسلام الرائعة؛ فالإنسان لا يكون سعيداً في حياته مطمئناً بها، إلا إذا أمن على نفسه وماله وعرضه، وهذه الحدود تراعي هذا الأمن⁽³⁾.

كما أن في تطبيق الحدود تطهيراً للعبد في الدنيا؛ لقول النبي ﷺ: ((بِأَيْعُونِي عَلَيَّ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِيَهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ

(1) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية 254/12-256، والفقه الميسر في ضوء الكتاب والسنة- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف ص361.

(2) للاستزادة ينظر: نظام العقوبات في الإسلام مباحث الحدود دراسة مقارنة للشيخ محمد جعفر، مسقطات الحدود في الشريعة الإسلامية أ.د. إبراهيم الحمود، أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع الشيخ محمد حسين الذهبي، الحدود في الإسلام للشيخ: عبد الله عبد الغني خياط، مجلة البحوث الإسلامية، عدد9 لسنة1404هـ.

(3) بيان محاسن الإسلام ودوره في بناء الجسور الثقافية بين العالم الإسلامي ص23.

وَفِي مَنِّكُمْ فَأَجْرَهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ فَبَايَعَنَاهُ عَلَى ذَلِكَ))⁽¹⁾.

"فإن أكثر العلماء ذهب إلى أن الحدود كفارة"⁽²⁾ وهذا من فضل الله ورحمته بعباده.

"هدف الشريعة الإسلامية من فرض العقوبة هو إصلاح النفوس وتهذيبها والعمل على سعادة الجماعة البشرية؛ ذلك لأن للإسلام في العقاب رأيا ينفرد به.

من أجل ذلك وضع الله الحدود وضعا شرعيا كافلا لراحة البشر في كل زمان ومكان؛ حتى يكون الناس في مأمن وتمتنع الجرائم التي ترتكب، فكل فعل سيئ يحدث في الأرض لا يمكن إصلاحه إلا بالعقوبة. فالعقوبة إذا مصلحة للمجتمع، وليس في الشريعة ما يمنع من أن تكون أسباب المصالح مفسد فيؤمر بها أو تباح لا لكونها مفسد، بل لكونها مؤدية إلى المصالح، بل إن دفع الضرر مقدم على جلب المنافع"⁽³⁾.

يقول العز بن عبد السلام: "ربما كانت أسباب المصالح مفسد فيؤمر بها أو تباح، لا لكونها مفسد، بل لكونها مؤدية إلى المصالح، وذلك كقطع الأيدي المتأكلة حفظاً للأرواح، وكالمخاطرة بالأرواح في الجهاد، وكذلك العقوبات الشرعية كلها ليست مطلوبة لكونها مفسد، بل لكون المصلحة هي المقصودة من شرعها كقطع يد السارق وقاطع الطريق، وقد سميت مصالِح من قبيل المجاز بتسمية السبب باسم المسبب"⁽⁴⁾.

ويقول في موضع آخر منها: "الأطباء يدفعون أعظم المرضى بالتزام بقاء أديانها، ويجلبون أعلى السلامتين والصحتين ولا يباليون بفوات أديانها، وأن الطب كالشرع وضع لجلب مصلحة السلامة والعافية ولدرء مفسد المعاطب والأسقام، ولدرء ما أمكن درؤه من ذلك ولجلب ما أمكن فالعقوبات شرعت لمصلحة تعود إلى كافة الناس"⁽⁵⁾.

ويقول ابن تيمية - تعالى: "شرعت العقوبات رحمة من الله تعالى بعباده، فهي صادرة عن رحمة الخلق وإرادة الإحسان إليهم، ولهذا ينبغي لمن يعاقب الناس على ذنوبهم أن يقصد بذلك الإحسان إليهم والرحمة بهم كما يقصد الوالد تأديب ولده، وكما يقصد الطبيب معالجة المريض"⁽⁶⁾.

ويقول الدهلوي: "اعلم أن من المعاصي ما شرع الله فيه الحد وذلك كل معصية جمعت وجوها من المفسدة، بأن كانت فسادا في الأرض واقتضابا على طمأنينة المسلمين، وكانت لها داعية في نفوس بني آدم لا تزال تهيج فيها، ولها ضراوة لا يستطيع الإقلاع منها بعد أن أشربت قلوبهم بها وكان فيه ضرر لا يستطيع المظلوم دفعه عن نفسه في كثير من الأحيان، وكان كثير الوقوع فيما بين الناس، فمثل هذه المعاصي لا يكفي فيها الترهيب بعذاب الآخرة، بل لا بد من إقامة ملامة شديدة عليها وإيلا م لا يكون بين أعينهم ذلك فيردعهم عما يريدونه. ثم مثل

(1) صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب الحدود كفارة (18).

(2) شرح صحيح البخاري، لابن بطال 402/8.

(3) ينظر: الحكمة من إقامة الحدود، مجلة البحوث الإسلامية 305/25.

(4) قواعد الأحكام ص 14.

(5) قواعد الأحكام ص 6.

(6) الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية 521/5.

ببعض المعاصي، إلى أن قال: وكالسرقة؛ فإن الإنسان كثيرا ما لا يجد كسبا صالحا فينحدر إلى السرقة ولها ضراوة في نفوسهم، ولا تكون إلا اختفاء بحيث لا يراه الناس" (1).

المطلب الثاني

المحاسن العامة في تشريع الحدود في الإسلام

من محاسن شريعة الإسلام في هذا المجال ما وضعته من قواعد وضوابط تحكم تطبيق تلك الحدود والعقوبات، ومن ذلك:

أولا: عدم مؤاخذة الإنسان بجريرة غيره:

قال تعالى: ﴿وَلَا نَزْرُ وَإِزْرَةٌ وَزَرَ آخَرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عِنْدَهُ: إِنَّا إِذَا نَظَلِمُوكَ﴾ [يوسف: ٧٩]. "لكن إذا ظهرت السيئات فلم تنكر عمت عقوبتها وشمل إثمها، فلا تخرج أيضا عن حكم هذه الآية الكريمة، لأن من ترك الإنكار الواجب فقد كسب سيئة" (2).

وكما قال تعالى عن قوم ثمود: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤]. الذنب نسب للجميع والعذاب وقع على الجميع، مع أن المنفذ واحد لأنهم سكتوا ورضوا، والرضا بالمنكر منكر.

ثانيا: مراعاة الظروف والملابسات:

فلا بد قبل اتخاذ قرار تنفيذ الحكم أو درئه؛ فالإسلام لا يطبق العقوبة على الفرد حتى يضمن أنه ارتكب تلك الجريمة دون مبرر ولا شبهة اضطرار، كما قال رسول الله ﷺ: ((ادروا الحدود بالشبهات)) (3).

ثالثا: المساواة في تطبيق الأحكام الجنائية:

فلا فرق في الإسلام بين شريف ووضيع؛ فقد جاء أسامة بن زيد رضي الله عنه إلى النبي ﷺ، وكان من أحب الصحابة إليه، يشفع في امرأة شريفة سرت ليسقط عنها حد السرقة، فغضب النبي ﷺ وقال له: ((أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟! والله لو أن فاطمة بنت محمد سرت لقطعت يدها...)) (4).

رابعا: تحقيق الضمانات الوقائية قبل وقوع الفعل:

(1) حجة الله البالغة 2/224.
(2) تيسير الكريم الرحمن ص 200.
(3) السنن الكبرى للبيهقي 57/8 (15922)، حلية الأولياء 10/9، مصنف ابن أبي شيبة 11/5 (28493)، وقال العراقي في نصب الراية 383/7 غريب بهذا اللفظ.
(4) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار (3475)، ومسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره (1688).

فالإسلام لا يشدد العقوبة إلا بعد أن شرع الضمانات الوقائية المانعة من وقوع الفعل، ومن ثم من توقيع العقوبة؛ فالإسلام لا يقوم على العقوبة فقط، وإنما يقوم على توفير أسباب الحياة النظيفة الكريمة، ثم يعاقب من يدع الأخذ بهذه الأسباب الميسرة طائعا غير مضطر.

فعندما حرم الله تعالى الزنا ورتب عليه الحد كان قد نبه على ما يقي من الوقوع في تلك الجريمة، بالاستئذان، وغض البصر، والنهي عن مثيرات الفتن، وموقظات الشهوة، ثم بالإحصان والزواج، ومنع البغاء، وتحرير الرقيق.

خامسا: تحديد الإسلام لمن بيده إقامة الحدود:

فالذي يقيم الحد هو الإمام أو نائبه، ضماناً للعدالة، ومنعاً للحيث والظلم، ويتعطل تطبيق الحدود في غياب إمام للمسلمين يطبق الحدود⁽¹⁾.

(1) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية 12/254-256، والفقهاء الميسر في ضوء الكتاب والسنة- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف ص361.

المطلب الثالث

نماذج من محاسن الإسلام في الحدود (1)

النموذج الأول: إبراز محاسن الإسلام في تشريع حد الزنا:

قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

فعقوبة الزنا هي الجلد مائة جلدة أمام الناس والإبعاد عن البلد عاماً كاملاً، وهذا للبكر، وحث المحسن (2) الزاني هو: الرجم بالحجارة حتى الموت وثبت ذلك بالسنة (3). وتبرز محاسن هذا الحد في النقاط التالية:

- 1- "مفسدة الزنا أعظم المفسد، وهي منافية لنظام مصلحة العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحرمات، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وابنته وأخته، وما في ذلك من خراب العالم" (4).
- 2- أراد الإسلام محاربة الحيوانية التي لا تفرق بين جسد وجسد، ولا تهدف إلى إقامة بيت وبناء مجتمع، فليس وراء اللذة المحرمة بناء حياة، ولا عمارة أرض، بل ليس ورائها عاطفة حقيقية، وإنما هي عاطفة تنتهي بانتهاج الشهوة، فالإسلام لا يحارب الفطرة ولا يستقذرها وإنما ينظمها ويطهرها ويرفعها عن المستوى الحيواني فيبني العلاقة الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية.
- 3- "وأمر الله تعالى بعقوبتهما وعذابهما بحضور طائفة من المؤمنين وذلك لأن المعصية إذا كانت ظاهرة، كانت عقوبتها ظاهرة" (5) "لأن الزنا لا يمكن إثباته إلا بأحد هذين الطريقتين: شهادة الشهود الموصوفين شرعاً، أو إقراره على نفسه الصريح في ذلك وفق ضوابط الشرع، فالأمر البين يستوجب العقوبة البينة الظاهرة، وهذا من كمال عدل الله، وليكون لإيقاع العقوبة على الزاني أثر في نفس الزاني والمشاهدين، فيتعظ الزاني والمشاهدون، وهذا فيه تنكيل للزانيين إذا جلدا بحضرة الناس، وأبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما، فإن في ذلك تقريراً وتوبيخاً وفضيحة

(1) سنكتفي هنا بذكر نموذجين لعدم الإطالة.

(2) المحسن: "الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل". ينظر: المقنع 4399/26.

(3) صحيح البخاري، رقم كتاب الإيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي (6633)، ومسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا (1697).

(4) الجواب الكافي لابن القيم ص (359).

(5) فتاوى شيخ الإسلام 285/15.

إذا كان الناس حضوراً⁽¹⁾.

4- والحكمة - والله أعلم - من التفريق بين عقوبة الزاني المحسن والزاني غير المحسن: أن الذي سبق له الوطء في نكاح صحيح قد عرف الطريق الصحيح النظيف وجربه، فعدوله عنه إلى الزنا يشير إلى فساد فطرته وانحرافها، فهو جدير بتشديد العقوبة، بخلاف البكر الذي قد يندفع تحت ضغط الميل. والمحسن ذو تجربة تجعله يتذوقه ويستجيب له بدرجة أعمق مما يتذوقه البكر فهو حري بعقوبة أشد.

5- إن الرأفة بالزناة الجناة قسوة على المجتمع، وعلى الآداب الإسلامية، وعلى الضمائر البشرية، وهي رأفة مصطنعة، فالله أرف بعباده، والله أعلم بمصالح العباد، وأعرف بطبائعهم. فليس لمتشدد أن يتحدث عن قسوة العقوبة الظاهرية، فهي أرف مما ينتظر المجتمع الذي يشيع فيه الزنا وتفسد فيه الفطرة الإنسانية.

6- وعقوبة التغريب مهمة، لأن الزاني عنصر فاسد في المجتمع فلو بقي في المجتمع لأفسده فيبعد عن المجتمع قبل أن يفسد غيره، فجعل الشارع جل وعلا هذا التغريب حفاظاً على المجتمع من الفساد، وتأديباً للزاني حيث يكون بعيداً عن الناس كلهم، غريباً في الأرض، منبوذاً بين الناس، وتأديباً لكل من تسول له نفسه أن يفعل هذا الفعل أن جزاءه سيكون مثل هذا الزاني⁽²⁾.

النموذج الثاني: إبراز محاسن الإسلام في تشريع حد القذف:

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحْسَبُهُمْ أَرْبَعٌ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخُمُسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعٌ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخُمُسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ [النور: ٤ - ٩].

القذف في الشرع: الرمي بوطء يوجب الحد على المقذوف⁽³⁾. وقيل: الرمي بالزنا أو اللواط من غير بينة⁽⁴⁾. والبينه هي: أن يأتي بأربعة شهداء يصفون وقوع حالة الزنا. أو اللواط، أو إذا أقر المقذوف بالزنا واعترف بما رماه به القاذف، وإذا قذفت المرأة زوجها فإنه يقام عليها الحد إذا توفرت شروطه ولم تأت بينة، وإذا قذفها زوجها، فإنه لا يقام عليه الحد، وإنما يتلاعنان⁽⁵⁾.

وتبرز محاسن هذا الحد في النقاط التالية:

1- الإسلام يكره البذاءة وإشاعة الفاحشة بين المسلمين، ويربي أفراد الأمة على الأدب وعفة اللسان، وذلك

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 8/6 .

(2) موضوعات سورة النور. أ.د محمد العواحي (بحث غير منشور - تحت الطباعة) ص 56.

(3) سبل السلام للصنعاني 190/1.

(4) المغني لابن قدامة 383/12 .

(5) فقه السنة، لسيد سابق 598/2 .

لأن إشاعة الفاحشة في المجتمع المسلم تورث العداوات بين أصحاب المجتمع، وتدنس صورة المجتمع بالكلام في الأعراس.

2- إن ترك الألسنة تلقي التهم بدون دليل قاطع، يترك المجال لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئاً بتلك التهمة النكراء، فيصبح المجتمع المسلم ويمسي وإذا أعراضه مجروحة، وسمعته ملوثة، وإذا كل فرد فيه متهم أو مهدد بالاتهام، وإذا كل زوج فيها شك في زوجته، وكل رجل فيها شك في أصله، وكل بيت فيها مهدد بالانحيار.

3- ومع كثرة سماع التهم في ارتكاب هذه الجريمة يوحى إلى الذين لا يفعلون هذه الجريمة أن جو المجتمع ملوث والجريمة منتشرة فيه فيقدم هو أيضاً على تلك الفعلية وتهمون في نفسه بشاعتها بكثرة ترددها وشعوره أن كثيراً ممن حوله يعملون بها.

4- وفي تشديد البينة نذكر "أن الله تعالى هو أهل التقوى وأهل المغفرة، يعفو عن الذنب ويستتر العيب، فلو تساهل الشرع في بينة الزنا لشاع القذف وسهل على البعض أن يكيدوا للآخرين، ثم إن الذي لا يجاهر بالمعصية فيستره الله تعالى ثم يتبع السيئة الحسنة، فإن الذي ستره في الدنيا هو أكرم من أن يفضحه في الآخرة. إن المقصد الجليل للشارع الحكيم هو ألا تشيع الفاحشة وتظهر في الشوارع وتشيع على ألسنة الناس حتى تصبح شيئاً مألوفاً بينهم فتهبط بهم إلى مستوى الحيوانات وهذا هو الذي لا يرضاه الشارع الحكيم"⁽¹⁾.

5- ولأن الذي يفعل الزنا برؤية أربعة شهود له يستطيعون وصف حالته هذا إنسان مجاهر بالمعصية، ويندر أن يتوب منها، وضرره عام للجميع لأنه أظهره فلعل غيره يقتدي به، أما الذي يفعلها وهو متستر فليس بمجاهر بها، وربما يتوب فيتوب الله عليه، والله تعالى أمرنا بعدم تتبع عورات أحد من المسلمين، ما لم يظهر سوءاً أو يترتب على أفعاله سوءاً.

6- تشريع اللعان أسمى ما يتصوره المرء من العدالة والحماية والصيانة للأعراض، فقد كانت الحكمة في تخصيص المرأة بالغضب من الله إن كان زوجها صادقاً: "لأن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور، وهي تعلم صدقه فيما رماها به، ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها، فالمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يجيد عنه"⁽²⁾.

أحكام الإسلام ليست نصحاً وإرشاداً غالية من التواب والعقاب. إنها إرشادات ونصح عقاباً ولكن لها تواب حسن ينال الملتزم بها، ولها عقاب يصيب المخالف لها، علم درمات متفاوتة في العقاب والتواب.

والأصل في أجزية الإسلام وعقوباتها أنها في الآخرة لا في الدنيا، ولكن مقتضيات الحياة

(1) من لطائف التفسير لأحمد فح عقيلان 411/2 بتصرف .

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 15/6.

وضرورة استقرار المجتمع وتنظيم علاقاته الافراد على نحو واضح مؤثر وضامن لحقوقه الناس كل ذلك دعا اليه انه يكونه الجزاء الاغروييه جزاء دينوييه، أيه مع العقابه الاغروييه عقابه توقعه الدوله في الدنيا على المخالفه لأحكام الإسلام.

ونطاقه الجزاء في الإسلام واسع وشامله شموله الإسلام لجميع شؤونه الحياه ومنه ثم فأجزيه الإسلام تتعلق بأمر العقيدة والاخلاق والعبادات والعاملاته. فكله مخالفه لهذه الأمور لها جزاؤها في الآخرة وقد يكونه لها جزاء في الدنيا أيضاً. والجزاء في الدنيا لا يمنع الجزاء في الآخرة عنه المخالفه العاصيه الا اذا اقترنته معصيته بالتوبه النصوح والتوبه النصوح تقوم على الندم على ما اقتره الانسان، وعلى العزم الاكيد على عدم العوده إليه هذه المخالفه، وعلى التحلل منه حقوقه الغير اذا كانته معصيه تتعلق بهذه الحقوق. وقد ترتبه على هذا الجزاء الاغروييه خضوع المسلم لأحكام الشريعه خضوعاً اختيارياً في السر والعلن خوفاً من عقابه الله، وعتي لو استطاع الافلاته من الدنيا، لان العقابه الاغروييه ينتظره ولا يستطيع الافلاته منه. ولهذا اذا ارتكب المسلم جرمه أو معصيه في غفلة من ايمانه طلبه إقامة العقوبه عليه بمحض اختياره، فهذا ما عر اعترفه أمام الرسول ﷺ بجرمه الزحف وطلبه إقامة الحد «العقوبه» عليه. وهكذا تنهيه النفوس عن مخالفه القانونه الإسلاميه اما بدافع الاحترام له والحياء من الله تعالى واما بدافع الخوف من العقابه الآجله الذي ينتظره المخالفين {يوم تجد كل نفس ما عملته من غير محضه وما عملته من سوء تود لو أنه بينها وبينه أمداً بعيداً}. {فمن يعمل مثقال ذره خيراً يره ومن يعمل مثقال ذره شراً يره}. وفي هذا وذلك أعظم ضمانه لزهج النفوس عن المخالفه والعصيان.

الفصل السادس

بيان التشريعات الحقوقية في الإسلام

ويتضمن تسعة مباحث:

- المبحث الأول: حقوق الإنسان في الإسلام.
- المبحث الثاني: حقوق غير المسلمين في الإسلام.
- المبحث الثالث: حقوق المرأة في الإسلام.
- المبحث الرابع: حقوق الطفل في الإسلام.
- المبحث الخامس: حقوق العمال والخدم في الإسلام.
- المبحث السادس: حقوق الكبار في الإسلام.
- المبحث السابع: حقوق الحيوان في الإسلام.
- المبحث الثامن: حقوق البيئة في الإسلام.
- المبحث التاسع: الحقوق الصحية في الإسلام.
- المبحث العاشر: حق الحرية في الإسلام.

تمهيد:

يعتبر الإسلام أن كل حق للإنسان هو في نفس الوقت حق للبشرية، خوفاً لعباده من غير تمييز في اللون والجنس، حيث إن المساس بها هو إخلال بالحق الإلهي.

ويعتبر الإسلام الحقوق الأساسية والحريات العامة جزءاً من الدين الإسلامي، لا يحق لأحد أن يعطلها سواء جزئياً أو كلياً، كما جعل رعايتها عبادة، وإهمالها أو التعدي عليها منكرًا يحاسب عليه المسلم يوم القيامة، فكل إنسان مسؤول عن هذه الحقوق بمفرده، والأمة كافة مسؤولة عنها بالتضامن، لذا اعتبر الإسلام الآتي: أن الإيمان والتربية أساس احترام الحقوق، فلا خير في مؤمن لا يؤدي واجبه، ويجب على الدولة والمجتمع رعاية الحقوق كاملة. وسنعرض لنماذج من تلك الحقوق، لنبي تصوراً متكاملًا عن الإسلام لدى الداعية إلى الله تعالى، ليسير في دعوته على بصيرة من دينه فتتحقق أهداف الدعوة ورسالتها.

فلا بد للداعية من التعرف على التشريعات الحقوقية في الإسلام لأمر:

أولاً: ليدرك تكامل الشريعة الإسلامية.

ثانياً: ليعرض الإسلام بشمولية وواقعية تراعي ظروف الناس واحتياجاتهم، فالإسلام جاء لإرساء العدل وإقامة الحقوق.

ثالثاً: التعريف بهذا الدين والدعوة إليه من خلال بيان الحقوق التشريعية في الإسلام، باب عظيم يقوم على منهجية الشمولية وأداء الحقوق، والعمل على إقامتها بين الناس أياً كانوا وفي أي مكان نزلوا.

رابعاً: النماذج التي تم اختيارها هنا هي التي يحاول أعداء الإسلام أن يدخلوا من خلالها لتشيويه الإسلام وبيان أنهم سبقوا الإسلام في الحقوق عن طريق الديمقراطية والتشريعات الوضعية.. مع أن الإسلام سبقهم بها بالشرع المنزل على جميع الرسل وختم برسالة النبي ﷺ.

وهناك نماذج أخرى للحقوق تم ذكرها في فصل محاسن الإسلام في تشريعاته، حاولنا عدم ذكرها لكي لا يحصل تكرار.

المبحث الأول

حقوق الإنسان في الإسلام

إن الإسلام وشريعته لم تكن يوماً لتحديد عن القيم والأخلاق، والتي تمثلت في إقرار مجموعة من الحقوق التي شملت كل بني الإنسان، دون تمييز بين لون أو جنس أو لغة، وشملت أيضاً محيطه الذي يتعامل معه، وتمثلت كذلك في صيانة الإسلام لهذه الحقوق بسطان الشريعة، وكفالة تطبيقها، وفرض العقوبات على من يعتدي عليها.

وكل ما سبق ذكره من محاسن للدين الإسلامية ماهي إلا نماذج لحقوق الإنسان في الإسلام، فمحاسن الإسلام كلها تصب وتراعي حقوق الإنسان وإعلاء شأنه، وتحافظ على الضروريات الخمس وهي الدين والنفس والنسل، والعقل.

فالإسلام ينظر إلى الإنسان نظرة راقية فيها تكريم وتعظيم، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقد قرّر ذلك رسول الله ﷺ في خطبة الوداع، التي كانت بمنزلة تقرير شامل لحقوق الإنسان، حين قال: ((فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمٍ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ))⁽¹⁾.

وهنا سأبرز بعض الجوانب الأساسية التي تدلل على حقوق الإنسان في الإسلام على سبيل المثال وليس الحصر ليتمكن الداعية من أن ينطلق منها في دعوته ورسالته لتكون رسالته رسالة شاملة متكامل.. وذلك من خلال المطالب التالية⁽²⁾:

(1) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى (1654)، ومسلم، كتاب القسامة والحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (1679).

(2) للاستزادة ينظر: حقوق الإنسان في الإسلام : دراسة مقارنة مع الإعلان العالمي والإعلان الإسلامي لحقوق الإنسان، د. محمد الزحيلي، حقوق الإنسان في الإسلام د. راوية الظاهر، موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام د. خديجة النبراوي، كتاب حقوق الإنسان في الإسلام والرد على الشبهات حولها أ.د سليمان الحقييل.

المطلب الأول

حفظ النفس الإنسانية

قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32].

وعندما سئل رسول الله ﷺ عن الكبائر ذكر منها: ((الإشراك بالله.. وقتل النفس..))⁽¹⁾.
وقال ﷺ: ((لا يجل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الشيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة))⁽²⁾.

وعندما ذكر الموبقات السبع ذكر أن خمسة منها داخله في حقوق الإنسان، فقال ﷺ: ((اجتنبوا السبع الموبقات)) قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: ((الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات))⁽³⁾.
ولذا شرع الإسلام القصاص قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179]، والقصاص: "عقوبة مشروعة تعنى معاقبة الجاني بمثل ما جنى حقا لله ولعباده، سواء كانت جنايته القتل أو غيره، فالقتل بالقتل والجرح بالجرح وقطع العضو بما يماثله"⁽⁴⁾.

وقيل: "القصاص هو أن يعاقب الجاني بمثل جنايته على أرواح الناس، أو عضو من أعضائهم، فإذا قتل شخص آخر استحق القصاص، وهو قتله كما قتل غيره"⁽⁵⁾.

يقول الشيخ الشنقيطي: "فعقوبة القصاص تعتبر من أبرز الأحكام الشرعية التي تحفظ حياة الناس؛ لأنها تتعلق بمعاقبة الجاني بمثل ما ارتكب من جريمة في حق أخيه أو المجتمع الذي ينتمي إليه، وتطبيق عقوبة القصاص فيها إصلاح للحياة الإنسانية وتعمل على زيادة التنشئة الاجتماعية عند الفرد والأسرة والمجتمع على حد سواء، وتحقق للأمة دعائم الأمن والسلام والبناء الحضاري في جميع جوانب المجتمع وحياته الأمنية والسياسية والأخلاقية والاجتماعية فيعم الأمان والاطمئنان والرفاه الاجتماعي ربوع الوطن الذي يحتكم ويلتزم حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ"⁽⁶⁾.

وشرع الله تعالى ما يحفظ حياة الإنسان حتى من نفسه، فقال ﷺ: ((من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم، يتردى فيه خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تحسى سمّاً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نارٍ

(1) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور (2510).

(2) صحيح مسلم، كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم رقم (25).

(3) صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا، إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ (2677).

(4) الجامع لأحكام القرآن 2/245.

(5) الفقه على المذاهب الأربعة، لعبد الرحمن بن محمد عوض الجزيري 1/182.

(6) أضواء البيان 3/122.

جَهَنَّمَ خَالِدًا مَّخْلُودًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ؛ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مَّخْلُودًا فِيهَا أَبَدًا))⁽¹⁾.

وَحَرَّمَ الْإِسْلَامُ كُلَّ عَمَلٍ يَنْتَقِصُ مِنْ حَقِّ الْحَيَاةِ؛ سِوَاءِ أَكَانَ هَذَا الْعَمَلُ تَخْوِيفًا، أَوْ إِهَانَةً، أَوْ ضَرْبًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ يَعْذِبُ الَّذِينَ يَعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا))⁽²⁾.
ومن حفظ النفس الحفاظ على العقل وجعله من المقاصد الكلية العظيمة التي جاءت الشريعة الإسلامية لحفظها، فشرعت، تحريم المسكرات وتناول المخدرات، وكالاعتقاد في الخرافة و الشعوذة ، والتقليد الأعمى وعدم إعمال الفكر.

المطلب الثاني العدل بين الناس

أكد الإسلام على حق العدل بين الناس جميعاً؛ بين الأفراد والجماعات، وبين الأجناس والشعوب، وبين الحكام والمحكومين، وبين الولاة والرعية، فلا قيود ولا استثناءات، ولا فرق في التشريع بين عربي وأعجمي، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين حاكم ومحكوم، وإنما التفاضل بين الناس بالتقوى، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

"قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾، يدل على استواء الناس في الأصل لأن أباهم واحد وأمهم واحدة وهذا فيه أكبر زاجر عن التفاخر بالأنساب وتطاول بعض الناس على بعض، بين تعالى أنه جعلهم شعوبا وقبائل لأجل أن يتعارفوا أي يعرف بعضهم بعضا، ويتميز بعضهم عن بعض لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعض ويتطاول عليه. وذلك يدل على أن كون بعضهم أفضل من بعض وأكرم منه إنما يكون بسبب آخر غير الأنساب. وقد بين الله ذلك هنا بقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾، فأتضح من هذا أن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من الانتساب إلى القبائل⁽³⁾.

وقال ﷺ: ((أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَائَكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لَأَدَمَ، وَأَدَمٌ مِنْ تُرَابٍ، أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ، وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ فَضْلٌ عَلَى عَجْمِي إِلَّا بِالتَّقْوَى))⁽⁴⁾.

ومن أوجه العدل بين الرجل والمرأة، العدل في الوعد في الآخرة بالثواب، والجنة، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُذُنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97].

(1) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به وما يخاف منه والخبيث (5442)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه... (109).

(2) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق (2613).

(3) أضواء البيان 417/7.

(4) مسند أحمد 474/38 (23489)، وشعب الإيمان للبيهقي (4921)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والرهيب (2963).

وقرر الإسلام بتقرير مبدأ العدل بين الناس وإزالة الفوارق الجنسية والفوارق في اللون والنسب، نظرياً وعملياً ففي شعيرة الصلاة، نزول كل الفوارق التي تميز المصلين فمن حضر إلى المسجد أولاً أخذ مكانه في مقدمة الصفوف، وإن كان أقل الناس مالاً أو جاهاً، فنجد في الصف الواحد في المسجد الغني بجانب الفقير والعالم بجوار الأمي، والحاكم بجوار المحكوم، والمعلم بجانب الطالب، والمهندس بجوار العامل لا فرق بين واحد وآخر فكلهم سواسية بين يدي الله.

ومن مظاهر العدل العملية التي قررها الإسلام العدل أمام الأحكام الشرعية؛ فالحلال حلال للجميع، والحرام حرام على الجميع، والفرائض ملزمة للجميع، والعقوبات كذلك مفروضة على الجميع. ويظهر هذا بوضوح في حادثة المرأة المخزومية القرشية التي سرقت فقرر الرسول ﷺ قطع يدها. فوسط أعيان قريش أسامة بن زيد ليشفع فيها عند رسول الله فلما تحدث أسامة بن زيد مع رسول الله ﷺ في ذلك الأمر غضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً وقال لمن حوله من الصحابة: ((إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق منهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد. وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها))⁽¹⁾.

المطلب الثالث

حق الكفاية في الإسلام

ومعناه أن يحصل كل فرد يعيش في كنف الدولة الإسلامية على كفايته من مقومات الحياة؛ بحيث يجيا حياة كريمة، ويتحقق له المستوى اللائق للمعيشة، وهو يختلف عن حد الكفاف الذي تحدثت عنه النظم الوضعية، والذي يعني الحد الأدنى لمعيشة الإنسان⁽²⁾.

وحق الكفاية هذا يتحقق بالعمل، فإذا عجز الفرد فالزكاة، فإذا عجزت الزكاة عن سد كفاية المحتاجين تأتي ميزانية الدولة لسداد هذه الكفاية.

وقد عبّر الرسول -صلى الله عليه وسلّم- عن ذلك بقوله: ((من كان لنا عاملاً فليكتسب زوجة، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادماً، ومن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكناً))⁽³⁾.
وبقوله: ((من ترك ديناً أو ضياعاً⁽⁴⁾ فأبى وعلّى))⁽⁵⁾.

وقال ﷺ: ((ما آمن بي -وفي رواية- ليس المؤمن من بات شبعاناً وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم))⁽⁶⁾.

(1) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (3288)، ومسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره (1688).

(2) موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام، خديجة النبراوي ص 505-509.

(3) سنن أبي داود، كتاب الخراج، باب أرزاق العمال (2945)، والمعجم الكبير للطبراني 305/20 (727)، والمستدرک علی الصحیحین للحاکم 563/1 (1473) وقال صحيح علي شرط البخاري، وصححه الألباني في صحيح الجامع (6486).

(4) ضياعاً: أي ترك أولاداً صغاراً ضائعين لا مال لهم، ينظر: لسان العرب، 228/8.

(5) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة الأحزاب (4503)، ومسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (867)، واللفظ له.

(6) المستدرک علی الصحیحین 15/2 (2166)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي والمعجم الكبير للطبراني عن أنس 259/1 (750) واللفظ له، وشعب الإيمان للبيهقي 76/5 (3117)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 167/8: إسناد البزار حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (5505).

وقال ﷺ مادحا الأشعريين: ((إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا - أَي إِذَا نَفَذَ زَادَهُمْ - فِي الْغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهَمَّ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ)) (1).

والكفاية في المجتمع المسلم مكفولة ليس للمسلمين فحسب بل لكل من يقيم على أرض هذا المجتمع المسلم..

المبحث الثاني

حقوق غير المسلمين في الإسلام

إن أحكام الإسلام تتميز بالشمولية والواقعية والكمال والعالمية والرحمة للعالمين، لذلك كانت شاملة ومناسبة لجميع نواحي الحياة، وصالحة لكل زمان ومكان.

إن مبادئ الإسلام تم تشريعها من لدن حكيم عليم بما يصلح الناس في الدنيا والآخرة، وهذا ظاهر لكل منصف تأمل أحكام الإسلام.

ولذا فقد تمتع غير المسلمين - المقيمون في بلاد المسلمين - بمجموعة من الحقوق التي منحها لهم التشريع الإسلامي بهدي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ونبرز هذا الأمر في المطالب التالية (2):

المطلب الأول

أهم حقوق غير المسلمين في الإسلام

أبرز أهم هذه الحقوق في النقاط التالية:

أولاً: حرية العقيدة:

قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ذكر العلماء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] أنه كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان، فتنصرا قبل أن يبعث النبي ﷺ، ثم قدما المدينة في نفر من النصراني يحملون الطعام، فأتاها أبوهما، فلزمهما وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما، فأبيا أن يسلما، فاختموا

(1) صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام والنهد والعروض (2354)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأشعريين (2500).

(2) للاستزادة ينظر: حقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية د. علي بن عبدالرحمن الطيار، حقوق غير المسلمين في بلاد الإسلام تأليف أ. د. صالح بن حسين العايد، حقوق غير المسلمين في الإسلام، د. عبد العظيم أحمد عبدالعظيم، فن التعامل النبوي مع غير المسلمين، د. راغب السرجاني، كيف عاملهم د. محمد المنجد.

إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟ فأُنزل الله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ فخلى سبيلهما⁽¹⁾.

قال ابن كثير: "لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرها مقسورا"⁽²⁾.

"فالإنسان مسؤول عما يفعل أو يعتنق من دين؛ لأنه مسؤول عن أفعاله من خلال اختيار حر وتفكير حر، ومؤدى ذلك أنه نعمة العقل وهي من معطيات الله للإنسان تمنح الإنسان الحق في حرية التفكير وحرية الاعتقاد"⁽³⁾.

ويشهد لهذه الآية كذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].
فالإسلام لا يكره أحداً على الدخول فيه، ودعوة الإسلام تكمن في بيان منهجه والاقتران به وإفساح الطريق للناس أن يتعرفوا عليه ثم يترك القرار بعدها للناس ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ ويجاسبهم على ما قرروا.

ثانياً: العدل مع غير المسلمين وعدم ظلمهم والاعتداء عليهم:

قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٨].

وقال ﷺ: ((من ظلم معاهد أو انتقصه حقاً، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة))⁽⁴⁾.

وقال ﷺ: ((من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً))⁽⁵⁾.

وقد سجل التاريخ صوراً للعدل قام بها المسلمون مع غير المسلمين⁽⁶⁾ تبين أن الإسلام لم يفرق بين المسلم وغير المسلم في المعاملات العامة؛ فالجميع سواسية أمام الحاكم العادل فلا محاباة حتى وإن كان أحد الخصمين مسلماً رفيع المكانة، والآخر يهودياً أو نصرانياً⁽⁷⁾.

(1) أسباب النزول للواحد ص 46.

(2) تفسير القرآن العظيم 310/1.

(3) حقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية د. علي بن عبدالرحمن الطيار ص 141.

(4) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع (1924).

(5) صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم (3166).

(6) للاطلاع ينظر: كتاب حقوق غير المسلمين في بلاد الإسلام تأليف أ.د. صالح بن حسين العايد، فن التعامل النبوي مع غير المسلمين، د. راجب السرجاني.

(7) ينظر: حقوق غير المسلمين، الطيار، 139-140، وحقوق غير المسلمين، العايد 45-46.

ويكفي في ذلك قصة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص f، فعن أنس ؓ "أن رجلاً قبطياً من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب ؓ فقال: يا أمير المؤمنين عائد بك من الظلم قال: عدت معاذاً. قال: سابت ابن عمرو بن العاص فسبقتة فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين فكتب عمر إلى عمرو f يأمره بالقدوم ويقدم بابنه معه فقدم عمرو من مصر إلى المدينة، فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب ابن عمرو فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين. قال أنس فضرب فوالله لقد ضربه ونحن نحب ضربه، فما أفلح عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه، ثم قال عمر للمصري: ضع السوط على صلعة عمرو!! فقال: يا أمير المؤمنين إنما ابني الذي ضربني وقد استقدت منه فقال عمر لعمرو: مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتم أمهاتهم أحرارا؟ قال: لم أعلم ولم يأتيني" (1).

يا الله.. يسافر من مصر إلى المدينة ليشتكي ولداً ضرب ابنه لأنه يعلم أن عمر لا يرضى بالظلم، ثم عمر يرسل لعمرو بن العاص أن يأتي من مصر إلى المدينة ليقتص منه للرجل القبطي.

ثالثاً: الحماية والأمن:

يمكن لغير المسلم في ظل الأمن أن يحيا آمناً على دمه أن يسفك وعرضه أن ينتهك وماله أن يغتصب وسكنه أن يقتحم، وفي ظل الأمن يأمن غير المسلم من كل خوف أو فزع أو ترويع، مع رفع الظلم عنهم، ولهم الدفاع عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، كما أن لهم الحق في السكن في أي مكان يريدون في الدولة الإسلامية، باستثناء الحرم ولهم حرية التنقل في دار الإسلام في أي وقت شاءوا أو يعودوا إليها متى شاءوا مطمئنين على سلامتهم وحمايتهم من أي اعتداء (2).

وقد تكفل الشريعة الإسلامي بحق حماية أموال غير المسلمين؛ حيث حرم أخذها أو الاستيلاء عليها بغير وجه حق، وذلك كأن تسرق أو تغصب أو تتلف، أو غير ذلك مما يقع تحت باب الظلم، وقد جاء ذلك تطبيقاً عملياً في عهد النبي ﷺ إلى أهل نجران، حيث جاء فيه: ((ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم ومثلتهم وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير)) (3).

وهذا الأمن الداخلي وخارجي "فإن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكرع والسلاح ونموت دون ذلك صوناً لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة" (4).

(1) ينظر: كنز العمال 873/12 رقم (36010). وحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي 581/1، وابن الجوزي: مناقب عمر بن الخطاب 99. ومحض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب 473/2، انظر: ابن عبدالحكم في: فتوح مصر ص 290.

(2) حقوق غير المسلمين، للطيار 144 .

(3) دلائل النبوة للبيهقي 485/5، الخراج لأبي يوسف ص72، والطبقات الكبرى لابن سعد 288/1، والأموال لابن زنجويه 447/2 (732)، وتاريخ المدينة لابن شهبة 584/2، ولم أقف على الحكم عليه.

(4) الفروق للقرافي 14/3-15، وعزاه لابن حزم في مراتب الإجماع.

رابعاً: المعاملة الحسنة:

في القرآن قاعدة جلييلة هي الأساس في التعامل مع غير المسلمين، بينت أن الأصل أن تكون معاملتهم حسنة، بل أن يحظوا بالبر والإحسان ما لم تبرز منهم مظاهر عملية من العداة الصريح⁽¹⁾، وهي قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨].

"أي لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين، والإخراج من دياركم فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا مفسدة"⁽²⁾.

ومن حسن المعاملة كتب أبو بكر ؓ لخالد بن الوليد ؓ في عقد الذمة لأهل الحيرة في العراق: "وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله"⁽³⁾.

"فأهل الذمة كالمسلمين فدفعت الضرر عنهم واجب.. ثم قال- وهل المراد بدفع الضرر ما يسد الرمق أو الكفاية؟ قولان: أحدهما الكفاية، فيجب في الكسوة ما يستر كل البدن على حسب ما يليق بالحال من شتاء أو صيف، ويلحق بالطعام والكسوة ما في معناه كأجرة طبيب وثن دواء، وخادم منقطع... ومما يندفع به ضرر المسلمين والذميين فك أسراهم"⁽⁴⁾.

وحت الإسلام المسلمين على بر آبائهم وأمهاتهم غير المسلمين، فالاختلاف في الدين لا يلغي حق أولى القربي، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق ؓ، قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ، فقلت: أمي⁽⁵⁾ قدمت وهي راغبة، أفأصلها؟ فقال رسول الله ﷺ: ((نعم، صلي أملك))⁽⁶⁾.

ومن المعاملة الحسنة عيادة مرضاهم، أيا كانوا صغارا كانوا أو كبارا أغنياء أو فقراء، فعن أنس ؓ، قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ، فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: ((أسلم))، فنظر إلى أبيه

(1) حقوق غير المسلمين للعايد75.

(2) تيسير الكريم الرحمن ص 758.

(3) كتاب الخراج لأبي يوسف ص 306.

(4) نهاية المحتاج للرملي 46/8.

(5) هي: قتيلة بنت عبد العزى. ينظر: شرح صحيح مسلم للنووي 89/7.

(6) صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب قبول الهدية من المشركين (2427).

وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم عليه السلام، فأسلم، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: ((الحمد لله الذي أنقذه من النار))⁽¹⁾.

خامسا: الدعوة بالتي هي أحسن:

ولا تمنع حرية الاعتقاد والمعاملة بالتي هي أحسن من دعوتهم للإسلام وتعريفهم به، بل هو من الواجبات المتحتمة على المسلمين، من غير إكراه ولا مضارة، بل بالحوار الهادئ والهادف، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فمن حقوق غير المسلمين دعوته بالحسنى، فقد أمر الله موسى عليه السلام عندما أرسله إلى فرعون بأن يقول له قولاً ليناً فقال: ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾^(٤٣) فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤].

وتتوجب الدعوة بالحسنى إذا كان غير المسلم من الوالدين، وهذا ظهر في دعوة إبراهيم عليه السلام، لأبيه في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾^(٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾^(٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾^(٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾^(٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤١ - ٤٥].

وكذلك المجادلة بالتي هي أحسن، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

المطلب الثاني

شهادات المنصفين حول رعاية الإسلام لحقوق غير المسلمين

لقد شهد المنصفون من غير المسلمين للإسلام، وما فيه من تشريعات وتطبيقات لحفظ حقوق غير المسلمين، ومن تلك الشهادات⁽²⁾:

أولاً: المؤرخ الإنجليزي السير توماس أرنولد⁽³⁾:

(1) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام (1356).
(2) للاستزادة ينظر: قالوا عن الإسلام لعماد الدين الخليل، عظمة النبي في عيون المنصفين والعقلاء الغربيين د. محمد السقا عيد، غربيون أنصفوا الإسلام د. السيد عبدالرؤوف، وبحث قيم منشور في موقع مجلة المجتمع الكويتية بعنوان: سماحة الإسلام في الدراسات الغربية المنصفة، د. سعيد عبيدي، في يناير 2017.

(3) توماس ووكر أرنولد 1280-1349 هـ، مستشرق إنكليزي، تعلم في كمبرج، واشتغل بالتدريس في عدة جامعات بالهند وباكستان، ثم عاد إلى لندن ودرس في جامعتها، عين مديراً لمعهد الدراسات الشرقية. له عدة كتب بالإنجليزية عن العلوم الإسلامية. ينظر: الأعلام للزركلي 76/2-77. وينظر: المستشرقون لنجيب العقيقي 84/2.

يقول المؤرخ الإنجليزي السير توماس أرنولد: "لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة، واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام قد اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على هذا التسامح"⁽¹⁾.

ويقول: "إن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق، إن نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى، لقد ظل الكفار على وجه الإجمال ينعمون في ظل الحكم الإسلامي بدرجات من التسامح لم تكن نجد لها مثيلاً في أوروبا حتى عصور حديثة جداً، وإن التحول إلى الإسلام عن طريق الإكراه محرم طبقاً لتعاليم القرآن، وإن مجرد وجود كثير من الفرق والجماعات المسيحية في الأقطار التي ظلت قروناً في ظل الحكم الإسلامي لدليل ثابت على ذلك التسامح الذي نعم به هؤلاء المسيحيون"⁽²⁾.

ويقول أيضاً: "وقد نجد عوامل أخرى ساعدت على تناقص الشعب المسيحي في الحقيقة، ولكننا لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها (فرديناند، وإيزابيلا) دين الإسلام من إسبانيا، أو التي جعل بها (لويس الرابع عشر) المذهب البروتستانتي مذهباً يعاقب عليه متبعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن إنجلترا مدة ثلاث مئة و خمسون سنة، وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انزلت انزالاً تاماً عن سائر العالم المسيحي الذي لم يكن فيه أحد يقف في جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين، ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من التسامح نحوهم"⁽³⁾.

ثانياً: المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه⁽⁴⁾:

تقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: "العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام، فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها، سمح لهم جميعاً دون

(1) الدعوة إلى الإسلام، أرنولد توماس، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، عبدالمجيد عابدين، إسماعيل النحراوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1971م، ص 51.

(2) الدعوة إلى الإسلام، ص 62.

(3) الدعوة إلى الإسلام ص 147-148.

(4) زيغريد أو زيكريد هونكه 1913-1999: مستشرقة ألمانية معروفة بكتاباتها في مجال الدراسات الدينية، وحصلت على شهادة الدكتوراه عام 1941م اشتهر عنها في آخر حياتها أنها كانت تنظر للإسلام نظرة معتدلة كما هو واضح من أشهر تراجم كتاباتها انتشاراً في العالم العربي وهما: شمس العرب تسطع على الغرب وكتاب الله ليس كذلك. ينظر: موقع ويكيبيديا.

أي عائق يمنعهم بممارسة شعائر دينهم، وترك المسلمون لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسه بأذى، أوليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال؟ ومتى؟
ومن ذا الذي لم يتنفس الصعداء بعد الاضطهاد البيزنطي الصارخ وبعد فضائع الإسبان واضطهادات اليهود؟ إن السادة والحكام المسلمين الجدد لم يزجوا بأنفسهم في شؤون تلك الشعوب الداخلية، فبطريك بيت المقدس يكتب في القرن التاسع لأخيه بطريك القسطنطينية عن العرب: إنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة، وهم لا يستخدمون معنا أي عنف" (1).

ثالثاً: الكاتب ول ديورانت (2):

يقول ول ديورانت: "لقد كان أهل الذمة، المسيحيون واليهود والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح، لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم.. ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زي ذي لون خاص وأداء فريضة عن كل شخص، تختلف باختلاف دخله وتراوح بين دينار وأربعة دنانير.

ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح، ويعفى منها الرهبان والنساء والذكور الذين هم دون البلوغ، والأرقاء، والشيوخ، والعجزة، والعمي والفقراء... وكانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم، وقضاتهم وقوانينهم، وكان تسامح الحكام المسلمين معهم يختلف باختلاف الأسر الحاكمة... وكان اليهود يتمتعون بكامل الحرية في حياتهم وفي ممارسة شعائر دينهم في بيت المقدس، وكان المسيحيون يمارسون دينهم بكامل حريتهم؛ إذ يحدثنا المؤرخون أنه كان في بلاد الإسلام في عصر المأمون أحد عشر ألف كنيسة، كما كان فيها عدد كبير من هياكل اليهود ومعابد النار، وكان المسيحيون أحراراً في الاحتفال بأعيادهم علناً، والحجاج المسيحيون يأتون أفواجا آمنين لزيارة الأضرحة المسيحية في فلسطين، لقد أصبحوا أحراراً آمنين تحت حكم المسلمين الذين لم يكونوا يجدون لنقاشهم ومنازعاتهم معنى يفهمونه.

ولقد ذهب المسلمون في حماية المسيحيين إلى أبعد من هذا؛ إذ عين والي أنطاكية في القرن التاسع الميلادي حرساً خاصاً ليمنع الطوائف المسيحية المختلفة من أن يقتل بعضها بعضاً في الكنائس" (3).

رابعاً: المستشرق آدم متر (4):

(1) شمس الإسلام تسطع على الغرب أثر الحضارة العربية على أوروبا، زغريد هونكه، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجليل، بيروت، الطبعة الثامنة، 1993م، ص 364.

(2) ول ديورانت: مؤلف أمريكي معاصر، يعد كتابه (قصة الحضارة) ذو الثلاثين مجلداً، واحداً من أشهر الكتب التي تؤرخ للحضارة البشرية عبر مساراتها المعقدة المتشابكة، عكف على تأليفه السنين الطوال، وأصدر جزأه الأول عام 1935، ثم تلتها بقية الأجزاء، ومن كتبه المعروفة كذلك (قصة الفلسفة). نقلاً عن: موقع قصة الإسلام - شهادة المنصفين عن الإسلام.

(3) قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، دار الجليل، بيروت، 130/13-132 بتصرف.

(4) آدم متر: 1869 - 1917م هو مستشرق سويسري ألماني. اهتم بالأدب العربي في القرن الرابع الهجري وما تلاه. له كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري.

ويقول آدم متز: "ولما كان الشرع الإسلامي خاصاً بالمسلمين، فقد خلت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم، والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كنسية، وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضاً، وقد كتبوا كثيراً من كتب القانون، ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج، بل كانت تشمل إلى جانب ذلك مسائل الميراث وأكثر المنازعات التي تخص المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به"⁽¹⁾.

خامساً: ألفريد جيوم⁽²⁾:

يقول ألفريد جيوم: "لقد استقبل المسلمون في سوريا ومصر والعراق بترحاب، لأنهم قضوا على الابتزاز الإمبراطوري، وأنقذوا البيع المسيحية المنشقة من الضغط الكريه الذي كانت تعانيه الحكومة المركزية، وبرهنوا بذلك على معرفة بالمشاعر والأحاسيس المحلية أكثر من معرفة الأعراب"⁽³⁾.

سادساً: جوستاف لبيون⁽⁴⁾:

يقول جوستاف لبيون: "إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم.. فإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الإسلام واتخذ العربية لغة له؛ فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس عهد بمثله، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى"⁽⁵⁾.

(1) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري 93/2.

(2) ألفريد جيوم 1888م - 1965م، مستشرق إنجليزي متخصص في علم الكلام الإسلامي، له مجموعة من المؤلفات في مقارنة الأديان وعلم الحديث والسيرة النبوية، لم يخف إعجابه بالإسلام وسماحته.

(3) الفلسفة وعلم الكلام، ألفريد جيوم، دراسة منشورة في كتاب «تراث الإسلام»، ترجمة: جرجس فتح الله، بيروت، 1972م، ص 177.

(4) مقدمة ترجمته ص 181.

(5) حضارة العرب، جوستاف لبيون، ص 127.

المبحث الثالث

حقوق المرأة في الإسلام

حقوق المرأة في الإسلام من الموضوعات التي دخلها التشويه من قبل أعداء الإسلام للإساءة للإسلام وأهله فغيروا الحقائق وشوهوها ليصدوا عن سبيل الله وهذا من الأسباب التي جعلتهم لا يرغبون في الدخول في هذا الدين حيث يصورون المرأة المسلمة على أنها المهقورة المغلوبة على أمرها حبيسة البيت تحت رجل ظالم، فيدخلون من مداخل خاطئة ويجرفون الحقائق، ويخفون حقوق المرأة وما تتمتع به من عز وكرامة في الإسلام.

ومن جهة أخرى فالنساء شقائق الرجال، لذلك كان لابد من بيان الصورة الصحيحة الحسنة التي حظيت بها المرأة في الإسلام من خلال حقوق تراعي طبيعتها واحتياجاتها ودورها تجاه ربها وأمتها.

فقد جاء الإسلام يدافع عن المرأة وينزلها المكانة التي لم تبلغها في ملّة ماضية، ولم تدركها في أمة تالية؛ حيث شرع لها -كأم وأخت وزوجة وابنة- من الحقوق منذ أربعة عشر قرناً، ما لا تزال المرأة الغربية تصارع الآن للحصول عليه، ولكن هيهات⁽¹⁾!

ويتضح ذلك من خلال الأمور التالية:

أولاً: قرر الإسلام بدايةً أن النساء يماثلن الرجال في القدر والمكانة:

﴿فَمَا يَنْتَقِصُ مِنْهُنَّ أَبَدًا كَوُنُھُنَّ نِسَاءً﴾، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُنَّ لِيَاسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسُ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وفي ذلك قال الرسول ﷺ مؤصلاً لقاعدة مهمة وهي: ((إِنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ))⁽²⁾.

فالمرأة لا تختلف عن الرجل من حيث العنصر الإنساني، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾

[الحجرات: ١٣].

(1) تم الحديث عن مجموعة من حقوق المرأة عند الحديث عن محاسن الإسلام في تشريعات الأسرة، وهنا حاولت أن أذكر أموراً أخرى، وللاستزادة وكثير من الشواهد يمكن مراجعة كتب الفقه عند الحديث عن فقه الأسرة، ومن الكتب المتخصصة، مكانة المرأة في الإسلام لجعفر عبدالسلام، ومكانة المرأة في القرآن والسنة لمحمد بلتاجي، والتمايز العادل بين الرجل والمرأة في الإسلام د. محمد بن أحمد الدوسري، والمرأة في الإسلام للشيخ محمد الغزالي ومحمد سيد طنطاوي وأحمد عمر هاشم.

(2) مسند أحمد 265/43 (26195) وقال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره، وجامع الترمذي أبواب الطهارة، باب ما جاء فيمن يستيقظ فيرى بلا (113)، وسنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب في الرجل يجد البلة في منامه (236)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (1983).

وفي الخطاب الرباني فهم مكلفون ومحاسبون ومتساوون، قال تعالى: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، ولكل منهما صفات نفسية وجسدية رعاها الله في بعض التكليفات والتشريعات.

ثانيا: حق الرعاية وفضلها:

قال رسول الله ﷺ: ((من كان له ثلاث بنات فصبر عليهن وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته⁽¹⁾ كن له حجابا من النار يوم القيامة))⁽²⁾.

وقال: ((من يلي من هذه البنات شيئا فأحسن إليهن؛ كن له سترا من النار))⁽³⁾.
وقال: ((أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها... فله أجران))⁽⁴⁾.

وكذلك فإن كان للرجل أخوات وأنفق عليهن وأدهن فخرجوا له الجنة وأن يكن حجابا له من النار⁽⁵⁾.

ثالثا: حق اختيار الزوج:

فقد كفل الإسلام للمرأة سواء كانت بكرا أو ثيبا حق الموافقة أو الرضا للخطبة، قال رسول الله ﷺ قال: ((لَا تُنْكَحُ الْأَيِّمُ حَتَّىٰ تُسْتَأْمَرَ وَلَا تُنْكَحُ الْبُكَرُ حَتَّىٰ تُسْتَأْذَنَ)) قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ إِذْهَا قَالَ: ((أَنْ تَسْكُتَ))⁽⁶⁾.

رابعا: حق الصداق والنفقة:

قال تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ فَاكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤]. فالإسلام أوجب على الزوج أن يوفر لزوجته كل ما تحتاج إليه من طعام ومسكن وأثاث وخدمة وكل ما يلزمها بالمعروف، قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: ٧]، وقال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: ((وَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكَسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ...))⁽⁷⁾.

خامسا: حق المعاشرة بالمعروف:

- (1) جدته: أي من غناه. ينظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه 391/2.
- (2) سنن ابن ماجه، كتاب الأدب، باب بر الوالد، والإحسان إلى البنات (3669)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (293).
- (3) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (5649)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات (2629).
- (4) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب اتخاذ السراري ومن أعتق جاريته ثم تزوجها (4795).
- (5) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز 357/4.
- (6) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها (5136)، ومسلم النكاح، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت رقم (3538).
- (7) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ (3009).

وهي الصحبة الطيبة بين الزوج والزوجة التي تقوم على المودة والرحمة، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ ءَايَتْهُ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21].

وقال ﷺ: ((وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضَلَعٍ مِنْ ضَلَعِ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضَّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تَقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا))⁽¹⁾، وقال ﷺ: ((خَيْرِكُمْ خَيْرِكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرِكُمْ لِأَهْلِي))⁽²⁾.

ومن المعاشرة الحسنة ملاطفة الزوجة وملاعبتها ومضاحكتها، وهذا لا يعتبر نقصاً في رجولة الرجل أو إسقاطاً لهيبته فقد ورد عن الرسول ﷺ أنه قال: ((كل ما يلهو به الرجل المسلم باطل إلا رمية بقوسه، وتأديب فرسه، وملاعبة أهله، فإنهن من الحق))⁽³⁾.

سادساً: حق الرعاية والتوجيه والتعليم:

قال ﷺ: ((كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير راع وهو مسؤول، والرجل راع على أهله وهو مسؤول، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة، ألا وكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته))⁽⁴⁾. وقال ﷺ: ((طلب العلم فريضة على كل مسلم))⁽⁵⁾.

ولقول رسول الله ﷺ: ((لا تمنعوا إماء الله مساجد الله))⁽⁶⁾. فعلى الرجل أن يوجه أفراد أسرته بما فيهم الزوجة ويعلمهم ما تعلمه من أمور دينه.

سابعاً: حق العدل بين الزوجات:

أمر الله تعالى بالعدل بين الزوجات، وأمر من لم يستطع العدل أن لا يتزوج أكثر من واحدة، ويمكنه أن يجمع معها ملك اليمين، لأنه ليس لها من الحقوق كما للحرّة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمِينِ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعًا فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [سورة النساء: 3].

وورد عن النبي ﷺ أنه قال: ((من كانت له امرأتان فمال إلى إحداها جاء يوم القيامة وشقه مائل))⁽⁷⁾.

(1) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الوصية بالنساء (5186)، ومسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء (1468).

(2) جامع الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ (3895) وقال: هذا حديث حسن صحيح، سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب حسن معاشره النساء (1977).

(3) جامع الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، وقال: حديث حسن (1637)، وصححه الألباني من غير قوله: ((فإنهن من الحق)) في السلسلة الصحيحة (315).

(4) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن (893).

(5) سنن ابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (224)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (183).

(6) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم؟ برقم (900)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المسجد إذا لم يترتب عليه فتنة رقم (442).

(7) سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء (2133)، وصححه الألباني في صحيح الجامع 1110/2 (6511).

ومن التطبيق العملي للنبي ﷺ لذلك ما ثبت ((أن النبي ﷺ كان إذا أراد السفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، وكان يقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها، غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة زوج النبي ﷺ، تبتغي بذلك رضا رسول الله ﷺ))⁽¹⁾.

ثامنا: حقوق عند الطلاق:

فقد شرع الإسلام مجموعة من القوانين والتشريعات التي يحافظ بها على كرامة المرأة وحقوقها المالية والنفسية والاجتماعية عند عدم توفر الحياة الزوجية المطمئنة، ومن ذلك:

- حرم الإسلام خروج المرأة أو إخراجها من بيتها في حال الطلقة الأولى والثانية.
- حرم الإسلام على الزوج أخذ أو استرجاع الصداق إذا وقع الطلاق، وأما غير المدخول بها فلها نصف المهر، مع منع الله تعالى إمساك النساء للإضرار بهن.
- أثبت الإسلام حق المطلقة في المتعة: وهي ما يؤمر الزوج بإعطائه للمطلقة ليحبر به ألم فراقها، سواء كان ذلك قبل الدخول أو بعده، وسواء كان قد فرض لها صدقا أو لم يفرض لها صداق.
- وكذلك وجوب النفقة على الزوج للمطلقة طلاقا رجعيا وللمطلقة الحامل وإن كانت بائنا، والمتوفى عنها زوجها لا نفقة لها سواء كانت حاملا أم لا⁽²⁾.

تاسعا: تشريع الخلع⁽³⁾:

بداية تواعد الإسلام المرأة التي تطلب الطلاق من زوجها بغير سبب، فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أيما امرأة سألت زوجها طلاقا في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة))⁽⁴⁾، وهذا من باب المحافظة على رابطة الزوجية والرابطة الأسرية في المجتمع.

ولكن إذا استفحل الأمر وأحست الزوجة بسوء عشرة زوجها، أو عدم التوفيق معه في الحياة بصفة عامة لأي سبب من الأسباب، وأن بقائها معه يعطل القيام بما أمر الله به، أو الخروج عن أمر الله في حسن العشرة أو العفة، جاز لها أن تطلب الطلاق منه⁽⁵⁾، وأن تعوضه على تحطيم عشه بلا سبب متعمد منه، برد الصداق الذي أمرها إياه أو بعضه، لتعصم نفسها من معصية الله وتعدي حدوده، وهذا ما يسمى في الشرع بالخلع⁽⁶⁾.

وهكذا يراعي الإسلام جميع الحالات الواقعية التي تعرض للناس، ويراعي مشاعر القلوب الجادة التي لا حيلة للإنسان فيها، فلا يقسر الزوجة على حياة تنفر منها، وفي الوقت ذاته لا يضيع على الرجل ما أنفقه بلا ذنب جناه.

(1) صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها قال الله تعالى: {ولا تؤتوا السفهاء أموالكم} (2593).

(2) ينظر هذه المسائل وغيرها في كتب الفقه عند كتاب الطلاق.

(3) حول موضوع الخلع يمكن مراجعة العدة في شرح العدة 77/2-80 فيه بيان مختصر بالدليل.

(4) سنن أبي داود، كتاب الطلاق، باب الخلع (2226). وصححه الألباني في صحيح أبي داود (1947).

(5) فقد ثبت أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: ((أتردين عليه حديثه؟)) قالت: نعم. فقال رسول الله ﷺ: ((أقبل الحديقة وطلقها طلقة))، صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب الخلع وكيف الطلاق فيه (5273).

(6) فتح الباري 307/9 مختصرا.

عاشرا: تحريم الظهر:

"فيحرم قول الرجل لزوجته: أنت علي كظهر أمي"⁽¹⁾، فهو يجرمها على نفسه كحرمة أمه عليه، "وإذا ظاهر الرجل امرأته ترتب على ظهاره حرمة إتيان الزوجة حتى يكفر كفارة الظهر، وكان أهل الجاهلية يعتبرون هذه الكلمة طلاقاً أبدياً، وجاء الإسلام واعتبره ظهاراً له كفارة لأن الإسلام أراد أن يرتقي بالمجتمع وأن يرتقي بالأسرة بالحفاظ عليها من الضياع في ظل منهج ينظم ويقوم حياتها، ويحفظ لها حقها، ويضمن لها سعادتها في دنياها وأخرها، فحرم الظهر لما تضمنه من تحريم ما أحل الله، وفيه أذية للمرأة.

حفظاً على الأسرة المسلمة، ووقاية من الوقوع في مثل تلك الأقوال التي تحرم ما أحل الله وتسبب خللاً في بناء الأسرة والمجتمع، كانت كفارة الظهر، والتي ليست على التخيير، وإنما هي على الترتيب الوارد في الآية عتق رقبة، فإن لم يجد ما يعتق فيصوم شهرين متتابعين. لا يفرق بين الأيام إلا لعذر شرعي، فإن لم يكن يقدر على الصيام فيطعم ستين مسكيناً.

ومن الملاحظ أنه "قد روعي في كفارة الظهر التشديد، محافظة على العلاقة الزوجية، ومنعاً من ظلم المرأة، فإن الرجل إذا رأى أن الكفارة يثقل عليه الوفاء بها، احترم العلاقة الزوجية، وامتنع عن ظلم زوجته"⁽²⁾.

الحادي عشر: حق الزوجة عند وقوع الإيلاء⁽³⁾:

شرح الله حداً يجرم بعده الهجران، لأنه قد يكون الرجل باغياً يريد إعنات المرأة وإذلالها، أو يريد إيذائها لتبقى معلقة، لا تستمتع بحياة زوجية معه ولا تستطيع أن تتزوج زوجاً غيره، وهذا الحد الذي شرعه الله تعالى هو: أربعة أشهر، وهو أقصى حد يبعد الرجل فيه عن امرأته محرماً نفسه عليها.

لأن "الهجران فيه، إيذاء لنفسية الزوجة، وإهدار لكرامتها، وتعطيل للحياة الزوجية، وجفوة تمزق أوصال العشرة وتزيد من الفجوة، والخلاف، والهجران، وتحطم بنیان الأسرة، وقد تصل إلى أن تنشر الرذيلة والفاحشة بين فئات المجتمع"⁽⁴⁾.

الثاني عشر: حقوقها كام:

قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف 15]، وعن أبي هريرة ؓ قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي قال: ((أملك)) قال: ثم من قال: ((أملك)) قال ثم من؟ قال: ((أملك)) قال ثم من؟ قال: ((أبوك))⁽⁵⁾.

ويزداد وجوب الرعاية عند الكبر قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: 23].

(1) الجامع لأحكام القرآن 118/14.

(2) فقه السنة 457/2.

(3) الإيلاء هو "الحلف على ترك وطء المرأة" المغني 5/11.

(4) ينظر: فقه السنة 133/2.

(5) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة (5971). صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب بر الوالدين وأخما أحق به (2548).

الثالث عشر: حقها في الاستقلال المالي وحقها في الميراث:

أثبت الإسلام للمرأة ذمّة ماليةً مستقلةً تماماً كالرجل؛ فلها أن تبيع وتشتري، وتستأجر وتؤجر، وتوكل وتهب وترث وتورث، ولا حجر عليها في ذلك ما دامت عاقلة رشيدة، وذلك انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُنْسِمَ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء:6].

وكذلك فرض الإسلام للمرأة الميراث، وهو حق فرضه الله لها، ترث في بعض حالاته نصر ما يرث الرجل، وفي بعض الحالات أكثر من الرجل وفي بعض الحالات أقل من الرجل، وأحياناً ترث المرأة ولا يرث الرجل. فتورث المرأة على النصف من الرجل ليس موقفاً عاماً لكل الذكور وكل الإناث، أي أن هذا التمييز ليس قاعدة ثابتة في كل حالات الميراث إنما هو في حالات خاصة ومحدودة من بين حالات الميراث، وقاعدة الموارث في الإسلام لا يرجع إلى معايير الذكورة والأنوثة بل إن هذا التمايز بين أنصبة الوارثين والوارثات في فقه الميراث الإسلامي إنما تحكمه ثلاثة معايير:

1- درجة القرابة بين الوارث وبين الموروث فكلما اقتربت الصلة زاد النصيب من الميراث وكلما ابتعدت الصلة قل النصيب من الميراث.

2- موقع الجيل الوارث من التابع الزمني للأجيال فالأجيال التي تستقبل الحياة وتستعد لتحمل أعبائها عادة ما يكون نصيبها أكبر من نصيب الأجيال التي تستبدر الحياة ذلك بغض النظر عن الذكورة والأنوثة للوارثين والوارثات، فبنت المتوفى ترث أكثر من أمه، بل وترث البنت أكثر من الأب حتى لو كانت رضية وحتى لو كان الأب هو مصدر الثروة التي للابن والتي تنفرد البنت بنصفها، وكذلك يرث الابن أكثر من الأب وكلاهما من الذكور.

3- العبء المالي الذي يوجب الشرع الإسلامي على الوارث تحمله والقيام به حيال الآخرين وهذا هو المعيار الوحيد الذي يثمر تفاوتاً بين الذكر والأنثى أو انتقاصاً من ميراثها، بل العكس هو الصحيح ففي حالة ما إذا اتفق الوارثين في درجة القرابة اتفقوا وتساووا في موقع الجيل الوارث من تتابع الأجيال مثل أولاد المتوفى ذكورا وإناثا يكون تفاوت العبء المالي هو السبب في تفاوت أنصبة الميراث، فعلى سبيل المثال فالذكر مكلف برعاية أمه وأخته أو أخواته والإنفاق عليهن عند وفاة والده، ولذا استحق أن يأخذ ضعف الأنثى⁽¹⁾.

ومن هنا يتبين أن الإسلام راعى حق المرأة في الاستقلال المالي مهما كانت غنية فالرجل هو المسؤول عنها وعن توفير الحياة الكريمة المعتدلة حسب وسعه وقدرته.

(1) هذا العرض ملخص رسالة ماجستير بعنوان أحكام ميراث المرأة في الفقه الإسلامي للباحثة د. ورود عادل إبراهيم عورتاني، بإشراف د. محمد الصليبي، جامعة النجاح الوطنية بفلسطين 1419هـ منشور في برنامج المكتبة الشاملة.

الرابع عشر: حقوقها في المشاركة في الشعائر الدينية والأعمال الاجتماعية:

قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 71].

فالأيات ذكرت المؤمنين والمؤمنات، تأكيداً على أهمية مشاركة المؤمنات في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمعناها العام.

ومن ذلك استشارته ﷺ أم المؤمنين أم سلمة ~ في الحديبية وقبول مشورتها⁽¹⁾. ولما أجات أم هانئ بنت أبي طالب ~ رجلاً من المشركين، وأبى أخوها عليّ إلا أن يقتله، كان قضاء الرسول ﷺ في هذه الحادثة قوله: ((أَجْرْنَا مِنْ أَجْرَتِ يَا أُمَّ هَانِيَّ))⁽²⁾.

فأعطاه الحق في أن تعطي الأمان والجوار في الحرب أو السلم لغير المسلمين فما دون ذلك فهو أولى وأحرى. وكان رسول الله ﷺ يبين فضل النساء وأهم ما يجب على المرأة في الرقي بالمجتمع ببناء أجياله، ورعايتها للأسرة، فعن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: ((خير نساء ركن الإبل نساء قريش، أحناه علي ولد في صغره، وأرعاه علي زوج في ذات يده))⁽³⁾.

ومن ذلك الاعتراف لهن بالفضل في خدمة الدين، والتفاعل مع قضايا المجتمع والإسلام، فقدمت أسماء بنت عميس رضي الله عنها من الحبشة فقال لها عمر رضي الله عنه: يا حبشية سبقناكم بالهجرة! فقالت: لقد صدقت كنتم مع رسول الله؛ يطعم جائعكم، ويعلم جاهلكم، وكنا البعداء والطرءاء، أما والله لأذكرن ذلك لرسول الله، فأنته فقال ﷺ: ((لنناس هجرة واحدة، ولكم هجرتان))⁽⁴⁾.

لقد كرم الإسلام المرأة تكريمًا عظيمًا ورفع شأنها، وجعلها لكرما عظيم الثواب، وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالنساء خيراً، فقال: (استوصوا بالنساء خيراً).

وإليها بعض الصور المختصة من صور تكريم الإسلام للمرأة، ورفع شأنها:

1- جعلها شقيقة للرجل، ومساوية له في التكليف الشرعية، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (النساء شقائق الرجال).

(1) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (2731).

(2) صحيح البخاري، عن أم هانئ بنت أبي طالب، كتاب الجزية والموادعة، باب أمان النساء وجوارهن (3000)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى (336).

(3) صحيح البخاري كتاب النكاح باب إلى من ينكح، وأي النساء خير، وما يستحب أن يتخير لنطفه من غير إيجاب (5082) ومسلم، كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل نساء قريش (2527).

(4) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (4230)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل جعفر بن أبي طالب وأسماء بنت عميس (2503).

2- المرأة مساوية للرجل في الثواب الأخرى: قَالَ تَعَالَى: (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْهُ الصَّالِحَاتِ مِنْهُ ذَكَرٌ

أَوْ أَنْتَهَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ

وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) النساء [124].

3- الإحسان إلى المرأة:

لقد كرم الإسلام المرأة، وأمر بالإحسان إليها في كل مراحل حياتها، وفي كل أحوالها:

كَرَّمَهَا أَمَّا: قَالَ تَعَالَى: (وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا) البقرة [83].

وقال رسول الله، يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحَسَنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: (أُمَّلِي). قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (ثُمَّ أُمَّلِي). قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (ثُمَّ أَبُوك).

وكَرَّمَهَا زَوْجَةً: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا).

كَرَّمَهَا بِنْتًا: فَأَمَرَ بِرَبِّتِهَا وَالْإِنْفَاقِ عَلَيْهَا وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهَا، فَمَنْ قَامَ بِذَلِكَ فَلَهُ الثَّوَابُ الْعَظِيمُ، قَالَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَصَبَّرَ عَلَيْهِنَّ وَأَطْعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ حِدَّتِهِ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

وكَرَّمَهَا أُخْتًا: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بِرُّ أُمَّلِي وَأَبَاكَ، وَأُخْتَاكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ فَأَدْنَاكَ).

وقال محمد صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ أَوْ ثَلَاثُ أُخْوَاتٍ، أَوْ ابْنَاتٍ أَوْ أُخْتَانٍ، فَأَحْسَنَ صَحْبَتَهُنَّ وَأَتَّقَى اللَّهَ فِيهِنَّ فَلَهُ الْجَنَّةُ).

وكَرَّمَهَا خَالَةً: قَالَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ) أَيُّهَا: فِيهِ الْبِرُّ وَالْإِكْرَامُ وَالصَّلَاةُ.

وأمر محمد صلى الله عليه وسلم بالإحسان إلى المرأة التي ماتت عنها زوجها: فَقَالَ: (السَّاعِيَةُ عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمَسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ).

4- جعل لها ذمتها المالية الخاصة:

فَلَفَّحَ لَهَا الْإِسْلَامُ حَقَّ الْمَلِكِيَّةِ، قَالَ تَعَالَى:

(لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا أَلْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ

مِمَّا أَلْتَسَبْنَ وَنَسَلُوا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ

يُظهِرُ شَيْعَةَ عَلِيًّا (النساء [32]).

وجعل لها الحقَّ في الميراث، ولم يكن لها حقُّ فيه قبل الإسلام، قال تعالى: (لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ

الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ

الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرُ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا) النساء [7]

والمرأة لها صداقتها كاملاً، جعله الشرع لها، وهي مالكة له لا يُشاركها فيه أحد، قال تعالى:

(وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ مَخْلَصًا فَإِنَّهُ طِبَنُ لَكُمْ عَنْهُ شَيْعَةٌ مِنْكُمْ نَفْسًا فَطَوَهُ هَيِّئًا مَّرِيئًا) النساء [4].

5- حذر من الاعتداء عليها، وضمها حقها:

قال النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَرُ عَقَبَ الضَّعِيفِينَ: الْيَتِيمَ وَالْمَرْأَةَ) أي: أُلْحِقُ الْإِيْمَ بِمَنْ ضَيَّعَ حَقَّهَا.

6- صيانة عرضها:

منه تكريم الإسلام للمرأة أنه صانها عرضها وشرفها، فلا تحل معاشرتها إلا بعقد زواج صحيح، قال النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم: (اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ؛ فَإِنَّمَا أَهَرْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَخَلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ)، والمراد بكلمات الله هنا: عقد الزواج الشرعي.

وحرم اتِّمَامُهَا فِي عَرْضِهَا، وهو من أكبر اللبائس، قال تعالى: (إِنَّهُ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ

الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) النور [23].

بل من رماها في عرضها من غير بينة وجبه عليه ثلاثة عقوبات قاسية:

1- يجلد ثمانين جلد.

2- لا تقبل شهادته.

3- يسموه فاسقاً.

قال تعالى: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا

بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَهُنَّ أَجْلُدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً

وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (النور [4].

7- كفالتهما المادية:

المرأة سواء كانت صغيرة أم كبيرة فهناك رجل مسؤول عن الإنفاق عليها، وهذا يضمن لها معيشة كريمة بين الناس، فلا تظنر إلى أنه تم يد لها إلى أحد من الناس تطلبه مساعدة منه؛ فيزِلها أو يساومها على عرضها!

فإذا كانت صغيرة فأبوها ينفق عليها، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين) وضم أصابعه،

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لقد بال أمر؛ إنما أنه يجلسه عن يمينه يملأه قوتاً).

وإذا كانت متروكة فيجب على زوجها أن ينفق عليها.

إن الإسلام رفع من شأن المرأة، وصان كرامتها، وحفظ لها حقوقها بتشريع متوازن، وبذلك يعيش الرجال والنساء عيشة كريمة في مجتمع آمن، كل منهما يعرف ما له من حقوق وما عليه من واجبات، فيسعدونهما في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: (من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى)

وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم

أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) النحل [97].

المبحث الرابع

حقوق الطفل في الإسلام

لما كانت مرحلة الطفولة من المراحل المهمة والأساسية في بناء شخصية الفرد إيجاباً أو سلباً، وفقاً لما يلاقيه من اهتمام، جاء الإسلام ليقرر أن هؤلاء الأطفال حقوقاً وواجبات، لا يمكن إغفالها أو التغاضي عنها، وذلك قبل أن توضع حقوق الطفل بأربعة عشر قرناً.

كما سبق الإسلام غيره من النظم في الاهتمام بهذه الحقوق في مراحل متقدمة للغاية تبدأ من اختيار الأم الصالحة، ثم الاهتمام به في حالة الحمل فأقر تحريم إجهاضه وهو جنين، وإجازة الفطر في رمضان للمرأة الحامل، وتأجيل حد الزنا حتى يولد وينتهي من الرضاع، وإيجاب الدية على قاتله. وجعل من حقوقه بمجرد ولادته الاستبشار بقدمه، واستحباب تحنيكه، وحلق شعر رأسه والتصدق بوزنه، واختيار الاسم الحسن للمولود، والعقيقة، وإتمام الرضاعة، والحتان والحضانة والنفقة والتربية الإسلامية الصحيحة، وحق التعليم⁽¹⁾.

ومما يدل على قمة ما وصل إليه الإسلام من رعاية لحقوق الطفل ما ثبت أن رسول الله ﷺ انتقد الرجل الذي قال له إن لي عشرة من الأبناء ما قبلت واحداً منهم، فقال النبي ﷺ: ((من لا يرحم لا يرحم))⁽²⁾. وعن أنس بن مالك ؓ، جاء شيخ يريد النبي ﷺ فأبطأ القوم عنه أن يوسعوا له فقال النبي ﷺ: ((ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا))⁽³⁾.

وفي رواية: ((من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا))⁽⁴⁾. وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم، فقال النبي ﷺ: ((أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة))⁽¹⁾، فلأنه لا يقبل أبناءه اعتبره الإسلام منزوع الرحمة.

(1) هذه الأمور جميعاً عليها أدلة كثيرة تركتها لعدم التطويل، ويمكن الرجوع إليها في كتاب تحفة المودود في أحكام المولود، وفن تربية الأولاد في الإسلام لمحمد سعيد مرسي، وورقة بحث بعنوان: ((حول ميثاق الطفل في الإسلام)) ضمن أعمال مؤتمر ((حقوق الطفل العربي بين المواثيق الدولية والرؤى الإقليمية)) الشارقة - 25-26 إبريل 2006. وكتاب حقوق الطفل من وجهة نظر الإسلام. د. عادل محمد أبو العلا.

(2) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (5997) ومسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان، والعيال، وتواضعه، وفضل ذلك (2318)

(3) جامع الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الصبيان برقم (1919)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (2196).

(4) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في الرحمة (4943)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (6540).

ومن هذه الرحمة ما ثبت أن الغامدية ~ التي زنت وأرادت أن يطبق النبي عليها حد القذف، ردها النبي ﷺ حتى تلد، فما وضعت وجاءت قال النبي ﷺ: ((إذا لا نرجمها وندع ولدها صغيرا ليس له من يرضعه))⁽²⁾. وكذلك للأطفال حق التقدير والاحترام وإظهار الاهتمام، فعن أنس بن مالك ؓ قال: ((أتى رسول الله ﷺ على غلمان يلعبون فسلم عليهم))⁽³⁾.
 عن أنس قال: ((كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار فيسلم على صبيانهم، ويمسح برءوسهم، ويدعو لهم))⁽⁴⁾.

ومن حقوق الأطفال في الإسلام التربية والتأديب فقد كان رسول الله ﷺ حريصا على تعليم الصغار وتأديبهم، والأمثلة على ذلك كثيرة منها ما روي عن ابن عباس ؓ أنه قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوما، فقال: ((يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف))

وفي زيادة: ((تعرف على الله في الرخاء يعرف في الشدة.. واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن ما العسر يسرا))⁽⁵⁾.

(1) صحيح البخاري، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانفته (5998)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (2317).

(2) صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى (1695).

(3) صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب استحباب السلام على الصبيان (2168).

(4) السنن الكبرى للنسائي 386/7 (8349) وصححه الألباني في التعليقات الحسان (460).

(5) جامع الترمذي، كتاب صفة القيامة والرفائق والورع، باب (59) برقم (2516) وأحمد (2800)19/5 والزيادة له، وصححه الألباني بزياداته في الصحيحة (2382).

المبحث الخامس

حقوق العمال والخدم في الإسلام

يكفي الخدم العمال شرفا ورعاية في الإسلام أن النبي ﷺ كان قد أوصى بهم في آخر حياته، وآخر توجيهاته لأمته، فعن أنس بن مالك قال: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضرته الوفاة، وهو يغرغر بنفسه ((الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم))⁽¹⁾.

"أراد بما ملكت أيمانكم المماليك، وإنما قرنه بالصلاة ليعلم أن القيام بمقدار حاجتهم من الكسوة والطعام واجب على من ملكهم وجوب الصلاة التي لا سعة في تركها، وقد ضم بعض العلماء البهائم المستملكة في هذا الحكم إلى المماليك"⁽²⁾.

يمكن بيان معالم تلك الحقوق في النقاط التالية⁽³⁾:

أولاً: حسن معاملتهم وإكرامهم، وعدم تكليفهم ما لا يطيقون:

فقد دعا الإسلام أصحاب الأعمال إلى معاملة خدمهم معاملة إنسانية كريمة، وإلى الشفقة عليهم، والبر بهم وعدم تكليفهم ما لا يطيقون من الأعمال، فقال ﷺ: ((إخوانكم خولكم⁽⁴⁾، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم))⁽⁵⁾ فارتفع بدرجة العامل الخادم إلى درجة الأخ! وهذا ما لم يسبق أبدا في حضارة من الحضارات. وقال ﷺ قال: ((إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله أكلة أو أكلتين، أو لقمة أو لقمتين، فإنه ولي حره وعلاجه))⁽⁶⁾.

قال النووي: "وفي هذا الحديث الحث على مكارم الأخلاق والمواساة في الطعام لا سيما في حق من صنعه أو حمله لأنه ولي حره ودخانه وتعلقت به نفسه وشم رائحته"⁽⁷⁾.

(1) سنن ابن ماجه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ (1625) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(2) عون المعبود 44/14.

(3) للاستزادة ينظر: معاملة الخدم في الإسلام للشيخ محمد علي أبو العباس، وأحكام الخدم في الشريعة الإسلامية د. محمد عمر بازمول، كيف علمهم رسول الله ﷺ د. محمد المنجد، مطوية حقوق الخدم د. أحمد الجسار. وبحث بعنوان: حقوق الأجراء للشيخ د. إبراهيم بن محمد الحقييل منشور على موقع الألوكة.

(4) خولكم: خدمكم. ينظر: فتح الباري 115/1.

(5) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك (30)، ومسلم، كتاب الأيمان والنذور، باب إطعام المملوك مما يأكل (1661).

(6) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب الأكل مع الخدم (5360)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل (1663).

(7) شرح صحيح مسلم للنووي 135/11.

كما يجب على صاحب العمل عدم إرهاق العامل إرهاقاً يضر بصحته، ويجعله عاجزاً عن العمل، فلقد قال رسول الله ﷺ في ذلك ((ما خَفَّفْتَ عَنْ خَادِمِكَ مِنْ عَمَلِهِ كَانَ لَكَ أَجْرًا فِي مَوَازِينِكَ))⁽¹⁾.
وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((لِلْمَمْلُوكِ طَعَامُهُ وَكِسْوَتُهُ، وَلَا يَكْلَفُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا يَطِيقُ))⁽²⁾.

ثانياً: استيفاء أجر الخادم:

فألزم الإسلام أن يوفي للعامل والخادم أجره المكافئ لجهده دون ظلم أو مماطلة، فقال: ((أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرْقُهُ))⁽³⁾.

وحَدَّرَ الإسلام من ظلم العمال، فقال الرسول ﷺ في الحديث القدسي عن رب العزة عزو وجل: ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ))⁽⁴⁾.

ثالثاً: الرفق بهم والتجاوز عن أخطائهم وعدم ظلمهم وضربهم:

ومن تطبيقه ﷺ لذلك قول أم المؤمنين عائشة ~: ((مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا))⁽⁵⁾.

وعبدالله بن عمر ؓ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، كم نغفو عن الخادم؟ فصمت، ثم أعاد عليه الكلام، فصمت، فلما كان في الثالثة، قال: ((اعفوا عنه في كل يوم سبعين مرة))⁽⁶⁾.

وعن عائشة، أن رجلاً قعد بين يدي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم؟ قال: ((يحبس ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً، لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل)). قال: فتنحى الرجل فجعل يبكي ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: أما تقرأ كتاب الله ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ

(1) صحيح ابن حبان 153/10 (4314)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 239/4: فيه عمرو بن الحريث قال ابن معين: لم ير النبي ﷺ فإن كان كذلك فالحديث مرسل، ورجاله رجال الصحيح، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(2) صحيح مسلم، كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل، وإلباسه مما يلبس، ولا يكلفه ما يغلبه (1662).

(3) سنن ابن ماجه، كتاب الرهون، باب أجر الأجراء (2443)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (1055)

(4) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب إثم من باع حراً (2114).

(5) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب مبادئه ﷺ للآثام... (2328).

(6) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في حق المملوك (5164)، وجامع الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في العفو عن الخادم

(1949) وصححه الألباني في الصحيحة (488).

مَثَقَالَ حَبَكَةٍ مِّنْ خَرَدَلٍ أَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبَتٍ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧] فقال الرجل: والله يا رسول الله ما أجد لي ولهم شيئا خيرا من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرار كلهم⁽¹⁾.

رابعا: حرمة إيذائهم وضربهم وكفارة التعدي عليهم:

وعن أبي هريرة ؓ، قال: سمعت أبا القاسم ؓ يقول: ((من قذف مملوكه، وهو بريء مما قال، جلد يوم القيامة، إلا أن يكون كما قال))⁽²⁾.

وقال أبو مسعود البدري: كنت أضرب غلاما لي بالسوط، فسمعت صوتا من خلفي، ((اعلم، أبا مسعود))، فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: ((اعلم، أبا مسعود، اعلم، أبا مسعود))، قال: فألقيت السوط من يدي، فقال: ((اعلم، أبا مسعود، أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام))، قال: فقلت: لا أضرب مملوكا بعده⁽³⁾.

قال النووي: "فيه الحث على الرفق بالمملوك، والوعظ والتنبيه على استخدام العفو، وكظم الغيظ، والحكم كما يحكم الله على عباده"⁽⁴⁾.

وعن زاذان أبي عمر، قال: أتيت ابن عمر وقد أعتق مملوكا، قال: فأخذ من الأرض عودا أو شيئا، فقال: ما فيه من الأجر ما يسوى هذا، إلا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من لطم مملوكه، أو ضربه، فكفارته أن يعتقه))⁽⁵⁾.

خامسا: عيادة مريضهم وشهود جنازتهم والصلاة عليهم:

بل إن الإسلام حث على عيادة الخدم عند مرضهم ولو كانوا غير مسلمين، فعن أنس ؓ، قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ، فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: ((أسلم))، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: ((الحمد لله الذي أنقذه من النار))⁽⁶⁾. وقد أرشد الإسلام إلى تفقدتهم والعناية بهم حتى بعد موتهم، فإذا مات أحد من الخدم أو العمال فقد أرشد الإسلام إلى شهادة جنازته، وإن لم يستطع فيذهب لقبه ويدعو له، فعن أبي هريرة ؓ، أن امرأة سوداء كانت تقم

(1) جامع الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنبياء عليهم السلام (3165)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (2290).

(2) صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب قذف المملوك (6858)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب التغليظ على من قذف مملوكه بالزنا (1660).

(3) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده (1659).

(4) شرح صحيح مسلم للنووي 130/11.

(5) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده (1657).

(6) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام (1356).

المسجد، ففقدتها رسول الله ﷺ، فسأل عنها فقالوا: ماتت، قال: ((أفلا كنتم آذنتموني دلوني على قبرها)) فدلوه، فصلى عليها⁽¹⁾.

فلم ينشغل رسول الله ﷺ عن تفقد هذه الخادمة التي كانت تخدم المسجد، بل أخذت شيء من اهتمامه ومن وقته ليذهب إلى قبرها ويصلي عليها رسالة للناس جميعا إلى الاهتمام بهؤلاء الخدم والعمال حتى بعد موتهم.

سادسا: زيارتهم في بيوتهم والدعاء لهم:

ومن اهتمام الإسلام بالخدم، أرشد إلى زيارتهم وزيارة أسرهم، والدعاء لهم، فعن أنس، قال ؑ قال: دخل علينا رسول الله ﷺ وما نحن إلا أنا وأمي وخالتي أم حرام، فقال: ((قوموا أصلي بكم)) فصلى بنا في غير وقت صلاة، قال رجل لثابت: فأين جعل أنس؟ قال: جعله عن يمينه، فلما قضى صلاته دعا لنا أهل البيت بكل خير من أمر الدنيا والآخرة، فقالت أمي: يا رسول الله، خويدمك، ادع الله له، قال: فدعا لي بكل خير، فكان في آخر ما دعا لي: ((اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيه)) قال أبو داود: فذكروا أن أنسا قال: فولد من صلي ثمانون⁽²⁾.

سابعا: تفقد أحوالهم:

وأرشد كذلك الإسلام إلى تفقد أحوال الخدم وسؤالهم عن حاجاتهم، فعن زياد بن أبي زياد مولى بني مخزوم عن خادم للنبي ﷺ رجل أو امرأة قال كان النبي ﷺ مما يقول للخادم ((ألك حاجة)) قال حتى كان ذات يوم فقال يا رسول الله حاجتي قال: ((وما حاجتك)) قال حاجتي أن تشفع لي يوم القيامة قال: ((ومن ذلك علي هذا)) قال ربي قال: ((إما لا فأعني بكثرة السجود))⁽³⁾.

وفي رواية: عن ربيعة بن كعب الأسلمي ؑ، قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: ((سل)) فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: ((أو غير ذلك)) قلت: هو ذاك. قال: ((فأعني علي نفسك بكثرة السجود))⁽⁴⁾.

(1) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب الخدم للمسجد(460)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب الصلاة على القبر (956) واللفظ له.

(2) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز الجماعة في النافلة، والصلاة على حصير وخمرة وثوب، وغيرها من الطاهرات (660).

(3) مسند أحمد 479/25 (16706)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (4836).

(4) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه (489).

المبحث السادس

حقوق الكبار في الإسلام

من سنن الله أن الصغير يكبر، والكبير يهرم، وهكذا تدور الحياة دورتها. لكن مع هذه التبدلات تبقى القيمة الإنسانية ثابتة لا تتغير، لذلك أوصى الإسلام باحترام الإنسان - كقيمة - في كل أحواله وبالغ في التأكيد عليها في مرحلة كبر السن.

ومن جانب آخر قد حرص الإسلام أشد الحرص على العناية بالفرد داخل المجتمع، منذ كونه جنيناً طفلاً، فشاباً، فرجلاً، بعد أن أعطاه قيمته الإنسانية فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

فالإنسان في جميع مراحل حياته محترم ومكرم، لقيمته الإنسانية الذاتية، ويزداد ذلك التكريم والاحترام بقدر ما يكتسب من محامد وصفات وبقدر ما يعمل من أعمال البر والخير.

ولذا نجد الإسلام حفظ للإنسان كرامته، ووفى بحقه، فأمر بإكرامه عند شيبته وحث على القيام بشؤونه، وهو النموذج الذي جسده ابننا شبيب ' اللتان قالتا: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: 23]. ويمكن بيان معالم حقوق الكبار في الإسلام في النقاط التالية⁽¹⁾:

أولاً: حق الوالدين:

أمر الله تعالى ببر الوالدين، ولما كان حال الكبر هو مظنة الإهمال والضعف والغضب خصه سبحانه بالذكر وميزه من العناية من بين سائر الحالات التي يمر بها الإنسان في حياته، قال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۗ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 23-24].

وقال ﷺ: ((رغم أنف ثم رغم أنف، ثم رغم أنف))، قيل: من يا رسول الله؟ قال: ((من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة))⁽²⁾.

وقال النبي ﷺ لرجل استأذنه في الجهاد: ((أحيي والداك))، فقال: نعم، قال: ((ففيهما فجاهد))⁽¹⁾.

(1) للاستزادة ينظر: رعاية المسنين في الإسلام د. عبدالله بن ناصر السدحان، وحقوق كبار السن في الإسلام أ. د عبدالرزاق البدر، حقوق كبار السن في الإسلام، د. أحمد عمار عبد الجليل عبد الخالق، وكيف عاملهم رسول الله ﷺ د. محمد المنجد.

(2) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة (2551).

ثانياً: توجيه الإسلام إلى احترام كل كبير:

إن الأمر لا يقف عند الوالدين إذا بلغا سن الشيخوخة بل يتعدى ذلك إلى كل كبير في السن، فيوجب له الاحترام ويجعل ذلك من الإسلام، فعن أنس بن مالك ؓ، جاء شيخ يريد النبي ﷺ فأبطأ القوم عنه أن يوسعوا له فقال النبي ﷺ النبي ﷺ: ((ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا))⁽²⁾، وفي رواية: ((من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا))⁽³⁾.

وقال ﷺ: ((إن من إجلال الله إكرام ذي الشبهة المسلم))⁽⁴⁾، "أي تعظيم الشيخ الكبير في الإسلام بتوقيره في المجالس والرفق به والشفقة عليه ونحو ذلك كل هذا من كمال تعظيم الله لحرمة عند الله"⁽⁵⁾.
وعن أبي أمامة ؓ عن رسول الله ﷺ قال: ((ثلاثة لا يستخف بحقهم إلا منافق: ذو الشبهة في الإسلام وذو العلم وإمام مقسط))⁽⁶⁾.

ويعد الشاب البار الذي استجاب لأمر ربه يعده بالجزاء الأوفى فيقول ﷺ: ((ما أكرم شاب شيخاً لسنه - أي في شيخوخته - إلا قبض الله له من يكرمه عند سنه))⁽⁷⁾.
وقال النبي ﷺ قال: ((أمرني جبريل أن أقدم الأكاير))⁽⁸⁾.

ثالثاً: تشريعات الإسلام ودورها في رعاية حقوق الكبار:

وقد راعى الإسلام حق الكبار في العبادات أيضاً، وأمر من يؤم الناس أن يراعي حال المسنين، قال ﷺ: ((إذا صلى أحدكم للناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير وإذا الحاجة، وإذا صلى لنفسه فليطول ما شاء))⁽⁹⁾.

ورخص للمسن أن يحج عنه غيره إذا لم يستطع الذهاب هو بنفسه إلى الحج، فعن ابن عباس عن الفضل أن امرأة من خثعم قالت يا رسول الله إن أبي شيخ كبير عليه فريضة الله في الحج وهو لا يستطيع أن يستوى على ظهر بعيره. فقال النبي ﷺ ((فحجى عنه))⁽¹⁰⁾.

(1) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب الجهاد بإذن الأبوين (3004)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأتقما أحق به رقم (2549).

(2) جامع الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الصبيان (1919)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (2196).

(3) مسند أحمد 644/11 (7073) وقال شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح، سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في الرحمة (4943)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (6540).

(4) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم، رقم (4843) وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، رقم (2199).

(5) عون المعبود 123/13.

(6) المعجم الكبير للطبراني 202/8، وشعب الإيمان للبيهقي 426/7.

(7) جامع الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في إجلال الكبير (2022) قال أبو عيسى هذا حديث غريب.

(8) كتاب الفوائد للشافعي 1/97/9، وهو في السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني (1555).

(9) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من شكك إمامه إذا طول (705).

(10) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب الحج عن العاجز لزمانه وهم ونحوهما أو للموت (1335).

التخفيف عليهم في الأحكام، وذلك في حديث خولة بنت ثعلبة التي ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت، قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: ((مريه فليعتق رقبة))، قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: ((فليصم شهرين متتابعين))، قالت: فقلت: والله يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام، قال: ((فليطعم ستين مسكينا، وسقا من تمر))، قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده، قالت: فقال رسول الله ﷺ: ((فإننا سنعيه بعرق من تمر))، قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله سأعيه بعرق آخر" (1).

وفي السلام أمر الإسلام بأن يسلم الصغير على الكبير، عن أبي هريرة ؓ، عن النبي ﷺ قال: ((يسلم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير)) (2).

وفي إمامة الصلاة يقدم الكبير، فعن أبي مسعود الأنصاري ؓ، قال: لنا رسول الله ﷺ: ((يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، وَأَقْدَمُهُمْ قِرَاءَةً، فَإِنْ كَانَتْ قِرَاءَتُهُمْ سَوَاءً، فَلِيؤْمَهُمْ أَقْدَمُهُمْ هَجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهَجْرَةِ سَوَاءً، فَلِيؤْمَهُمْ أَكْبَرُهُمْ سَنًا...)) (3).

رابعاً: رعاية الإسلام حقوق الكبار من غير المسلمين:

ومن حق الكبار أن الإسلام حفظ لهم أنفسهم من القتل أو الإضرار بها حتى ولو كانت غير مسلمة، فعن ابن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية، أو جيشاً قال: ((وَلَا تَقْتُلُوا وُلْدًا، أَوْ امْرَأَةً، وَلَا كَبِيرًا فَانِيًا)) (4).

وفي رواية: ((لَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا...)) (5).

وعمر بن نافع عن أبي بكره قال: مر عمر بن الخطاب ؓ بباب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير ضير البصر، فضرب عضده من خلفه، وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي. قال: فما الجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسنن. قال: فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباه؛ فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شيبته ثم نخذله عند الهرم ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه. قال: قال أبو بكره: أنا شهدت ذلك من عمر ورأيت ذلك الشيخ (6).

(1) مسند أحمد 300/45 (27319)، وأبو داود كتاب الطلاق باب في الظهار (2216) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (1918).

(2) صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب تسليم القليل على الكثير، رقم (6234).

(3) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامة (673).

(4) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها (1731).

(5) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في دعاء العدو (2614)، وابن أبي شيبه 483/6، السنن الكبرى للبيهقي (17932)، وقال ابن الأثير في جامع الأصول 596/2: وفي سننه خالد بن الفرز الراوي عن أنس لم يوثقه غير ابن حبان، وبقيّة رجاله ثقات، وله شواهد يتقوى بها.

(6) الخراج لأبي يوسف (139). الأموال لأبي عبيد ص 46.

خامسا: مواقف عملية لرعاية الرسول ﷺ لحق الكبار:

ورد أنه انطلق عبدالرحمن بن سهل، ومحبيصة، وحويصة ابنا مسعود إلى النبي ﷺ، فذهب عبدالرحمن يتكلم، فقال النبي ﷺ: ((كبر كبر)) وهو أحدث القوم، فسكت فتكلما.. (1).

وعن ابن عباس ؓ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سقى، قال: ((ابدءوا بالكبير))، أو قال ((بالأكابر)) (2). ولما دخل رسول الله ﷺ مكة، ودخل المسجد، أتاه أبو بكر بأبيه "أبي قحافة"، فلما رآه رسول الله ﷺ، قال: ((هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية فيه))، قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه، قال: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: ((أسلم)). فأسلم (3).

فمن إكرام الرسول ﷺ لوالد أبي بكر أنه أراد أن يأتيه بنفسه، وأجلسه بين يديه، ومسح على صدره. وعن سهل بن سعد ؓ، قال: أتى رسول الله ﷺ بقدر، فشرب، وعن يمينه غلام هو أحدث القوم والأشياخ عن يساره، قال: ((يا غلام أتأذن لي أن أعطي الأشياخ))، فقال: ما كنت لأؤثر بنصيبي منك أحدا يا رسول الله، فأعطاه إياه (4)، فكان من رغبة رسول الله ﷺ أن يعطي كبار السن.

قال النووي: "وفعل ذلك أيضا تألفا لقلوب الأشياخ، وإعلاما بودهم وإيثار كرامتهم إذا لم تمنع منها سنة.. (5)".

عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: ((أراني أتسوك بسواك، فجاءني رجلان، أحدهما أكبر من الآخر، فناولت السواك الأصغر منهما، فقيل لي: كبر، فدفعته إلى الأكبر منهما)) (6).

بل كان رسول الله ﷺ يمازح كبار السن تخفيفا عليهم، فقد أتت عجوز إلى النبي ﷺ وقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال: ((يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز))، ثم قال: ((أخبروها أنها لا تدخلها وهي

عجوز، إن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً ۖ فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ۖ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٧]) (7).

سادسا: نماذج عملية للصحابة في رعاية حق الكبار:

(1) صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب المواعدة والمصالحة مع المشركين بالمال وغيره، وإثم من لم يف بالعهد (3173).

(2) مسند أبي يعلى 315/4 (2425)، وقال ابن حجر: سنده قوي، فتح الباري 87/10.

(3) مسند أحمد 517/44 (26956) وقال الهيثمي رجاله ثقات، وحسنه الألباني في التعليقات الحسان (7164).

(4) صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب إذا أذن له أو أحله، ولم يبين كم هو (2451)، مسلم في الأشربة، باب استحباب إدارة الماء والدين ونحوهما عن يمين المبتدئ (2030).

(5) شرح صحيح مسلم للنووي 201/13.

(6) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب دفع السواك إلى الأكبر (246)، ومسلم، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ (2271).

(7) الشمائل للترمذي ص 199، وصححه الألباني في الصحيحة (2987).

وظهر أثر تربية النبي ﷺ للصحابة على مراعاة حق الكبار ما روي عن سمرة بن جندب ؓ قال لقد كنت على عهد رسول الله ﷺ غلاما، فكنت أحفظ عنه، فما يمنعني من القول إلا أن ها هنا رجالا هم أسن مني⁽¹⁾.
وعن الأوزاعي، أن عمر بن الخطاب، ؓ خرج في سواد الليل فرأه طلحة، فذهب عمر فدخل بيتا ثم دخل بيتا آخر، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا بعجوز عمياء مقعدة، فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا، يأتيني بما يصلحني، ويخرج عني الأذى، فقال طلحة: "ثكلتك أمك يا طلحة أعترات عمر تتبع؟"⁽²⁾.

(1) صحيح مسلم، كتاب الكسوف، باب أين يقوم الإمام من الميت للصلاة عليه (964).

(2) حلية الأولياء 47/1.

المبحث السابع

حقوق الحيوان في الإسلام

من محاسن هذا الدين وكماله أنه اهتم بالحيوان اهتماماً بالغاً لا يوجد في أي دين من الأديان، فالحيوان في الإسلام له قيمته ومكانته وموقعه في هذا الكون قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمَّا تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِسِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْحَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: ٥ - ٨].

وانطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. أبرز هنا نماذج لهذا الجانب، فمن أهم الحقوق التي أصلها التشريع الإسلامي للحيوان^(١):

المطلب الأول

تحريم إيذاء الحيوان

فقد روى جابر أن النبي ﷺ مرَّ على حمارٍ قد وُسم^(٢) في وجهه، فقال: ((لَعَنَ اللَّهُ الْإِذِي وَسَمَهُ))^(٣). وعن عبد الله بن عمر، قال: ((لَعَنَ النَّبِيُّ مِنْ مَثَلٍ بِالْحَيَّوانِ))^(٤) وهذا يعني أن إيذاء الحيوان وتعذيبه وعدم الرفق به يعتبر جريمة في نظر الشريعة الإسلامية.

ويقول الرسول ﷺ: ((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هَرَّةٍ؛ لَمْ تَطْعَمَهَا، وَلَمْ تَسْقِهَا، وَلَمْ تَتْرَكْهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))^(٥)^(٦).

ومرَّ رسول الله ﷺ ببعيرٍ قد لحق ظهره بيطنه^(٧) فقال: ((اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ))^(٨).. فاركبوها

(1) للاستزادة ينظر: موسوعة حقوق الحيوان على الإنسان في الشريعة الإسلامية د. أسامة السيد عبدالسميع، والرفق بالحيوان إنسانية د. نوار المطيري، والإسلام والرفق بالحيوان، حقوق الحيوان والرفق به في الشريعة الإسلامية د. أحمد عبيد الكبيسي، دراسة تمت بتكليف من منظمة OIE وضعها د. عبد الرحمن د. حسن عيدروس.

(2) وسمه: إذا أثر أو عثم فيه بكى، والوسم والسمة العلامة المميزة للشيء، ينظر: اللسان 635/12.

(3) صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه (2117).

(4) صحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجتممة (5196).

(5) خشاش الأرض: المراد هوام الأرض وحشراتهما من فأرة ونحوها. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري 357/6، والنووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج 240/14.

(6) صحيح البخاري، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء (2236)، ومسلم، كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة (2242)، واللفظ له.

(7) لحق ظهره بيطنه: أي ظهر عليه الهزال من الجوع، ينظر: عون المعبود في شرح سنن أبي داود 448/5.

(8) المعجمة: المعجمة التي لا تقدر على النطق، فإنها لا تطيق أن تنفص عن حالها، وتتضرع إلى صاحبها من جوعها وعطشها. ينظر: مرقاة المفاتيح لشرح مشكاة المصابيح للهروي 2205/6.

صَالِحَةً، وَكُلُّوْهَا صَالِحَةً))⁽¹⁾.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: "كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَانطَلَقَ لِحَاجَتِهِ فَرَأَيْنَا حَمْرَةً⁽²⁾ مَعَهَا فَرخَانٌ، فَأَخَذْنَا فَرخِيهَا، فَجَاءَتِ الْحَمْرَةُ فَجَعَلَتْ تُعْرَشُ⁽³⁾ فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: ((مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بَوْلَهَا؟ رُدُّوْا وَلَدَهَا إِلَيْهَا))⁽⁴⁾.

ويدخل في ذلك ألا تستخدم في غير ما لم تخلق له، قال رسول الله ﷺ: ((إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا سَخَّرَهَا لَكُمْ لَتُبَلِّغَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ))⁽⁵⁾.

أي: لا تجلسوا على ظهورها فتوقفونها وتحديثون بالبيع والشراء وغير ذلك، بل انزلوا واقضوا حاجاتكم ثم اركبوا. والنهي مخصوص باتخاذ ظهورها مقاعد لغير حاجة، أما الحاجة لا على الدوام فجائزة؛ بدليل أن المصطفى ﷺ خطب على ناقته وهي واقفة يوم عرفة⁽⁶⁾.

ويدخل في تحريم أذيتها تحريم اتخاذ الحيوان غرضاً فها هو ابن عمر رضي الله عنهما يمر بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه، فقال لهم: لعن الله من فعل هذا؛ ((إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ مَنْ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غُرْضًا))⁽⁷⁾.

(1) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم (2548)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (23).

(2) الحِمْرَةُ: طائر صغير كالعصفور، انظر: ابن منظور: لسان العرب 208/4.

(3) تعرش أي: ترفرف، والتعرّيش أن ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها، ينظر النهاية في غريب الحديث، ولسان العرب 313/6.

(4) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في قتل الذر (5268)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم (25).

(5) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الوقوف على الدابة (2567)، وصححه الألباني في الصحيحة (22).

(6) ينظر: عون المعبود 169/7، وفيض القدير 174/3.

(7) صحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والجنمة (5196)، ومسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من

الحيوان، باب النهي عن صبر البهائم (1958).

المطلب الثاني

وجوب الرحمة والرفق بالحيوان

وقد تجسّد ذلك في قول الرسول ﷺ ((بينما رجل بطريق اشتدّ عليه العطش فوجد بئراً، فنزل فيها فشرب، ثمّ خرج، فإذا كلب يلهث⁽¹⁾ يأكل الثرى⁽²⁾ من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني. فنزل البئر، فملاً خفة ماء، ثمّ أمسكه بفيه فسقى الكلب، فشكر الله له⁽³⁾ فغفر له))، قالوا: يا رسول الله، وإنّ لنا في البهائم لأجراً⁽⁴⁾؟ فقال: ((في كل ذات كبد رطبة أجر⁽⁵⁾))⁽⁶⁾.

ومن الرحمة بالحيوان أن يختار له المراعي الخصبية، وإن لم توجد فيجب أن ينتقل بها إلى مكان آخر، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: ((إنّ الله تبارك وتعالى رفيقٌ يحبُّ الرفق، ويرضى به، ويعين عليه ما لا يعين على العنف، فإذا ركبتم هذه الدوابّ العجم فأنزلوها منازلها، فإن كانت الأرض جذبة فأنجوا عليها بنقيها⁽⁷⁾))⁽⁸⁾.

ومن الرحمة بالحيوان الإحسان إليه واحترام مشاعره: وهي درجة عليا، أعلى من الرحمة وأثمن، أوجبها التشريع الإسلامي في معاملة الحيوان؛ وإنّ أعظم تطبيق لهذا الخلق حين نهى الرسول ﷺ عن تعذيبه أثناء الذبح فقال ﷺ: ((إنّ الله كتب الإحسان على كل شيء؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القتل، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحدّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته))⁽⁹⁾.

كما ثبت أن رجلاً أضجع شاة يريد أن يذبحها وهو يحدّ شفرته أمامها، فقال النبي ﷺ: ((أتريد أن تميتها مواتاً، هلاًّ حددت شفرتك قبل أن تضجعها))⁽¹⁰⁾.

(1) يلهث: يرتفع نفسه بين أضلاعه، أو يخرج لسانه من شدة العطش، ينظر لسان العرب 184/2.

(2) الثرى: التراب الندي، وقيل: أي بعض الأرض. ينظر: لسان العرب 110/14.

(3) أي أثنى عليه فجزاه على ذلك بأن قبل عمله وأدخله الجنة. ينظر: فتح الباري 278/1.

(4) يعنون: أيكون لنا في سقي البهائم والإحسان لها أجر؟!.

(5) كل كبد رطبة أجر: أي حية يعني بها رطوبة الحياة. فيها أجر عام مخصوص بحيوان محترم، وهو ما لم يؤمر بقتله، ونبه بالسقي على جميع وجوه الإحسان من الإطعام... ينظر: فيض القدير 601/4.

(6) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (5663)، ومسلم، كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها (2244).

(7) النقي: الشحم والودك، والمعنى أن ينجوا عليها وهي في عافيتها؛ حتى يحصل في بلد الخصب، ينظر: لسان العرب 338/15.

(8) الموطأ كتاب الاستئذان، باب ما يؤمر به من العمل في السفر برقم (1767)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (682).

(9) صحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة (1955).

(10) المستدرک على الصحيحين للحكام 257/4 (7563) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (24).

لن تجد أمة من الأمم بلغت هذا المستوى من الرفق والرحمة بالحيوان في غابر الأزمان غير أمة الإسلام؟ وأختم بمقولة الفاروق عمر ؓ وهو يشرع فيها لحقوق الحيوان حتى جعل الطريق المعبد السوي حقًا واجبا من حقوقه حين قال: "لو أن بغلة عثرت بشط العراق لخشيت أن يسألني الله عنها لم لم تصلح لها الطريق يا عمر"⁽¹⁾.

(1) هذا الأثر روي بألفاظ كثير وهو في حلية الأولياء 53/1، الطبقات الكبرى لابن سعد 305/3، مصنف ابن أبي شيبة 277/13، وتاريخ الطبري 202/4.

المبحث الثامن

حقوق البيئة في الإسلام

البيئة لغة: المكان والمنزل، والإسم البيئة، والباءة، والمبءة، وتطلق على منزل القوم، حيث يتبوؤون من قبل واد، أو سند الجبل، ومنه المبءة: معطن الإبل؛ حيث تناخ في الموارد أو المراح الذي تبيت فيه⁽¹⁾. والبيئة اصطلاحاً: كلمة جامعة تشمل جميع مناحي الحياة، وقد تتسع البيئة لتشمل الأرض التي تقلنا، والسماء التي تظننا، وقد تضيق لتخص بيت الإنسان، وموقع عمله، وسكانه، وهي باختصار: "كل شيء يحيط بالإنسان، من موجودات، من ماء، وهواء، وكائنات حية، وجمادات، وهي المجال الطبيعي الذي يمارس فيه الإنسان حياته، ونشاطاته المختلفة؛ ليحولها إلى "بيئة مشيدة"، التي في خانها البيئة الأخلاقية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والتكنولوجية."⁽²⁾

وجاء التشريع الإسلامي بقاعدة عامة لكل البشر الذين يحيون على ظهر الأرض؛ وهي عدم إحداث ضرر من أي نوع لهذا الكون، فقال رسول الله ﷺ: ((لا ضرر ولا ضرار))⁽³⁾.

ومن هنا يمكن إبراز هذا الجانب الحضاري في الإسلام من خلال النماذج التالية⁽⁴⁾:

أولاً: تشريع أوامر ونواهي تحذر من تلوث البيئة:

فقد شرع الإسلام التشريعات التي تحذر من تلويث البيئة أو إفسادها، ومثال ذلك ما روى معاذ بن جبل ؓ أن رسول الله ﷺ قال: ((اتقوا الملاعن الثلاثة: البراز في الموارد، وقارعة⁽⁵⁾ الطريق، والظل))⁽⁶⁾.

وعن جابر ؓ أن رسول الله ﷺ ((نهى عن البول في الماء الراكد))⁽⁷⁾.

وقال: ((لا يغتسل أحدكم في الماء الدائم وهو جنب))⁽⁸⁾ قال ابن حجر: "فدل على أن المنع من الانغماس فيه لئلا يصير مستعملاً؛ فيمتنع على الغير الانتفاع به"⁽⁹⁾.

(1) ينظر: مقاييس اللغة 312/1، لسان العرب 382/1.

(2) ينظر: البيئة ومفهومها وعلاقتها بالإنسان، موقع موسوعة البيئة.

(3) سنن ابن ماجه، كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بحاره (2340)، والمستدرک علی الصحیحین 66/2 (2345)، وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(4) للاستزادة حول الموضوع يمكن الرجوع لبحث: حماية البيئة في الإسلام د. راغب السرجاني، وهو بحث قيم حصل من خلاله الباحث على جائزة الأمير نايف في السنة النبوية سنة 2012م.

(5) قارعة الطريق: أي وسط الطريق، والمراد بالظل: ظل الشجرة وغيرها. انظر: عون المعبود 31/1.

(6) سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب المواضع التي نهى النبي ﷺ عن البول فيها (26) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (112).

(7) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب النهي عن البول في الماء الراكد (281).

(8) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب النهي عن الاغتسال في الماء الراكد (283).

(9) فتح الباري 347/1.

ثانيا: الحث على إزالة الأذى من الطريق:

حتى إن الإسلام جعل من إمطة الأذى عن الطريق عبادة لها الأجر العظيم، فقال ﷺ: ((إمطة الأذى عن الطريق صدقة))⁽¹⁾.

وقال: ((عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي؛ حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا، فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الْأَذَى يَمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِي أَعْمَالِهَا النُّخَاعَةَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لَا تَدْفَنُ))⁽²⁾.

وقال رسول ﷺ: ((الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان))⁽³⁾ فإمطة الأذى عن الطريق من الإيمان.

وقال رسول ﷺ: ((من سمي الله... وعزل حجراً أو شجراً أو عظماً من طريق الناس مشى وقد زحج نفسه عن النار))⁽⁴⁾.

وقال: ((بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره، فشكر الله له فغفر له))⁽⁵⁾.
وقال: ((لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس))⁽⁶⁾.

وهذا الأمر قاعدة كبيرة في إزالة كل ما يؤذي الناس، ومن باب أولى عدم فعل أي أمر يلوث البيئة ويكون سبباً في إيذاء الناس.

ثالثاً: الحث على استنبات الأرض:

ومن الحفاظ على البيئة حث الإسلام على استنبات الأرض وزراعتها وإحيائها وإعمارها، قال رسول الله ﷺ: ((ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزؤه أحد⁽⁷⁾ إلا كان له صدقة))⁽⁸⁾.

وقال ﷺ: ((من أحيأ أرضاً ميتةً فله منها - يعني أجراً - وما أكلت العوافي⁽⁹⁾ منها فهو له صدقة))⁽¹⁰⁾.

وقال ﷺ: ((من كانت له أرض فليزرعها، أو ليمنعها أخاه))⁽¹⁾.

(1) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الأخذ بالركاب ونحوه (2989).

(2) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها (553).

(3) صحيح مسلم، في كتاب الإيمان، الحديث (35).

(4) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (1007).

(5) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الشهداء (1914).

(6) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الشهداء (1914).

(7) يرزؤه أحد: أي لا ينقصه ويأخذ منه خيراً، ينظر: لسان العرب 85/1.

(8) صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع (1552).

(9) العوافي: كل طالب رزق من إنسان أو بهيمة أو طائر، ينظر: النهاية في غريب الحديث 266/3.

(10) سنن النسائي، كتاب إحياء الموات، باب الحث على إحياء الموات (5756)، ومسنند أحمد 170/22 (14310) وقال شعيب

الأرناؤوط: حديث صحيح.

ونهى الإسلام عن قطع الشجر عبثاً، فقال رسول الله ﷺ: ((من قَطَعَ سِدْرَةً⁽²⁾ صَوَّبَ اللهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ))⁽³⁾ "يعني من قطع سدره في فلاة يستظلُّ بها ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حقِّ يكون له فيها صوب الله رأسه في النار"⁽⁴⁾.

فهذه بعض ملامح اهتمام الإسلام بالبيئة تبين عظمة هذا الدين وشموله، وتأصيله للحضارة الحقيقية التي تتخذ من الشرع منطلقاً لها.

(1) صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب ما كان من أصحاب النبي ﷺ يواسي بعضهم بعضاً في الزراعة والثمرة (2341)، ومسلم، كتاب البيوع، باب كراع الأرض (1536).

(2) السدر: شجر النبق. انظر: لسان العرب 354/4. أراد سِدْرَةً فِي الْفَلَاةِ يَسْتِظِلُّ بِهَا أَبْنَاءُ السَّبِيلِ. ينظر: الفائق في غريب الحديث، للزمخشري جار الله 168/2.

(3) سنن أبي داود، كتاب النوم، باب في قطع السدر (5239)، والسنن الكبرى للبيهقي 230/6 (11538)، المعجم الأوسط للطبراني (2441)، وصححه الألباني في الصحيحة (61 و615).

(4) هذا من تعليق أبي أيوب رضي الله عنه على الحديث بعد ذكره للحديث مباشرة.

المبحث التاسع

الحقوق الصحية في الإسلام

حرص الإسلام على رعاية صحة المسلم وسلامته من الأمراض حتى يكون قادراً على القيام بالتكاليف الشرعية والأعمال الدنيوية، وجعل حفظ الجسم من الضروريات الخمس، وهي: الدين، والنفس، والنسل، والعقل، المال، وأي إخلال بها يترتب عنه الخسران، وهذا انطلاقاً من قول النبي ﷺ: ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف))⁽¹⁾، وقوله: وقوله في الحث على التداوي: ((يا عباد الله، تداووا، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء))⁽²⁾.

والنماذج في ذلك كثيرة يصعب حصرها في هذا البحث⁽³⁾ ولكن منها:

أولاً: التخفيف عن المريض في التكاليف:

من يسر الشريعة وسماحتها التخفيف عن المريض في التكاليف عندما يلزم به المرض وذلك انطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ [النور: ٦١] يقول الشيخ السعدي: "يخبر تعالى عن منتهى على عباده، وأنه لم يجعل عليهم في الدين من حرج بل يسره غاية التيسير، فليس على هؤلاء جناح، في ترك الأمور الواجبة، التي تتوقف على واحد منها"⁽⁴⁾.

وعلى سبيل المثال:

ففي الطهارة: يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

وفي الصلاة: عن عمران بن حصين ؓ، قال: كان بي الناصور⁽⁵⁾، فسألت النبي ﷺ عن الصلاة، فقال: ((صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع، فعلى جنب))⁽⁶⁾.

(1) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله .. (2050).

(2) جامع الترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في الدواء والحث عليه (2172)، وقال: حسن صحيح.

(3) للاستزادة ينظر: حقوق المريض في الإسلام د. خالد بن عبدالرحمن الشايع ورقة عمل للملتقى الدولي لشؤون المرضى مدينة الملك فهد الطبية بالرياض 1429/3/16هـ، وكتاب الطب في البخاري وشرحه في الفتح، وكتاب الطب النبوي لابن القيم، أخلاق الطبيب د. محمد لطفي الصباغ، أخلاقيات الطبيب المسلم سعد بن ناصر الشثري، الرعاية الصحية والطبية في القرن الأول، د. أسماء آل ذياب.

(4) تيسير الكريم الرحمن ص575.

(5) الناصور: مرض معروف، يحصل في الدبر.

(6) صحيح البخاري، كتاب تقصير الصلاة، باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب (1117).

وفي الصيام: قال تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وفي الحج: عن كعب بن عجرة رضي الله عندهما سئل عن الفدية قال: حملت إلى رسول الله ﷺ والقمل يتناثر على وجهي فقال: ((ما كنت أرى الوجد بلغ بك ما أرى أو ما كنت أرى الجهد بلغ بك ما أرى أتجد شاة)). فقلت لا فقال: ((فصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع))⁽¹⁾.
فمع أن حلق الرأس في حالة الإحرام لا يجوز، فقد أباح الشارع ذلك لصاحب العذر تخفيفاً، وجعل في ذلك الفدية حتى يأخذ أجره كاملاً.

حتى إن الله تعالى يكتب للمريض أجر الأعمال التي كان يعملها قبل مرضه كاملة الأجر، وقد قال رسول الله ﷺ: ((إذا مرض العبد أو سافر كتب له من الأجر مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً))⁽²⁾.
ثانياً: دلالتهم على سبل الوقاية مما يضر بصحتهم:

وهذا كثير جداً وصنفت فيه المصنفات ويكفي الإشارة إليه هنا:

- قال رسول الله ﷺ: ((إذا استنجح⁽³⁾ الليل أو كان جنح الليل فكفوا صبيانكم⁽⁴⁾ فإن الشياطين تنتشر حينئذ فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم وأغلق بابك واذكر اسم الله وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله وأوك⁽⁵⁾ سقاءك⁽⁶⁾ واذكر اسم الله وخمر⁽⁷⁾ إناءك واذكر اسم الله ولو تعرض عليه شيئاً⁽⁸⁾)⁽⁹⁾.
- وقال رسول الله ﷺ يقول: ((ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، حسب آدمي لقيمات يقمن صلبه . فإن غلبت آدمي نفسه فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس))⁽¹⁰⁾.
- وقال رسول الله ﷺ يقول: ((من تصبح بسبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر))⁽¹¹⁾.
- وقال ﷺ: ((وفر من المجذوم⁽¹²⁾ كما تفر من الأسد))⁽¹⁾.

(1) صحيح البخاري، كتاب الإحصار وجزاء الصيد، باب الأطعمة في الفدية نصف صاع (1721).

(2) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة (2996).

(3) استنجح: أظلم. وجنح الليل: ظلامه وقيل أول ما يظلم.

(4) فكفوا صبيانكم: ضمومهم وامنوعهم من الانتشار.

(5) أوك: من الإيكاء وهو الشد والوكاء اسم ما يشد به في فم القرية ونحوها.

(6) السقاء ما يوضع فيه الماء أو اللبن ونحو ذلك.

(7) خمر: من التخمير وهو التغطية.

(8) تعرض عليه شيئاً: تجعل على عرض الإناء شيئاً كعود ونحوه امتثالاً لأمر الشارع.

(9) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (3280)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء

(2012) وجميع معاني الكلمات مأخوذة من تعليق الشيخ مصطفى البغا على البخاري.

(10) سنن ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهية الشبع (3349)، مسند أحمد 132/4 (17225)، وصححه الألباني

في صحيح ابن ماجه (2704).

(11) صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب فضل تمر المدينة (2047).

(12) الجذام: علة تتأكل منها الأعضاء، وهو معدي. ينظر: المعجم الوسيط 113/1.

- وقال رسول الله ﷺ: ((الطاعون رجس أرسل على طائفة من بني إسرائيل أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه))⁽²⁾.

- وفي الوقاية من أسباب انتقال الأمراض كذلك: ((نهى رسول الله ﷺ أن يتنفس في الإناء أو ينفخ فيه))⁽³⁾، ((وكان رسول الله ﷺ إذا عطس غطى وجهه بيده أو بعض ثوبه وغض بها صوته))⁽⁴⁾.

ثالثا: عيادة المرضى والحث على ذلك:

فقد قال رسول الله ﷺ يقول: ((حق المسلم على المسلم خمس رد السلام وعبادة المريض واتباع الجنائز وإجابة الدعوة وتشميت العاطس))⁽⁵⁾.

ولما اشتكى سعد بن عباد شكوى له فأتاه النبي ﷺ يعود مع عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن مسعود⁽⁶⁾.

وثبت أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعود وكان النبي ﷺ إذا دخل على مريض يعود قال: ((لا بأس طهور إن شاء الله))⁽⁷⁾.

فقد كان رسول الله ﷺ إذا أتى مريضا أو أتى به قال: ((اذهب الباس رب الناس اشف وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما))⁽⁸⁾.

رابعا: التوجيه لبعض سبل العلاج:

وهذا كذلك باب كبير جدا في التوجيهات الإسلامية أذكر منها على سبيل المثال:

- قوله ﷺ: ((إن أمثل ما تداويتم به الحجامة والقسط البحري))⁽⁹⁾، وقال ﷺ: ((الشفاء في ثلاثة شربة عسل وشرطة محجم وكية نار وأنهى أمي عن الكي))⁽¹¹⁾.

- وعن أبي سعيد الخدري ؓ أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه فقال: ((اسقه عسلا)) ثم أتى

(1) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الجذام (5705).

(2) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون (5728)، ومسلم، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة (2218).

(3) جامع الترمذي، كتاب الأشربة، باب ما جاء في كراهية النفخ في الشراب (2009)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(4) جامع الترمذي، كتاب الأدب، باب ما جاء في خفض الصوت وتخميم الوجه عند العطاس (2969)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(5) صحيح مسلم، في كتاب السلام، باب من حق المسلم للمسلم رد السلام (2162).

(6) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض (1304).

(7) صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب عيادة الأعراب (3616).

(8) صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب دعاء العائد للمريض (5675).

(9) القسط البحري: العود: خشب يأتي من الهند، ومن مواضع آخر، وهو مدر نافع للكبد جدا، والمغص، والدود، وحمى الربع شربا، وللزكام والنزلات والوباء بخورا، وللبهق والكلف طلاء ويحبس البطن ويترد الرياح، ويقوي المعدة والقلب، ويوجب اللذة. ويدخل في أصناف كثيرة من الطيب. ينظر: تاج العروس 26/20.

(10) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الحجامة من الداء (5696)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب حل أجر الحجامة (1577).

(11) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الشفاء من ثلاث (5680).

الثانية فقال: ((اسقه عسلاً)) ثم أتاه الثالثة فقال: ((اسقه عسلاً)) ثم أتاه فقال: قد فعلت فقال: ((صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلاً)) فسقاه فبراً⁽¹⁾، وقال النبي ﷺ يقول: ((إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا من السام)) والسام الموت⁽²⁾.

المبحث العاشر

حق الحرية في الإسلام

الحرُّ، بالضم: نقيض العبد، والحرّة: نقيض الأمة، والجمع حرائر، والحر من الناس: أختيارهم وأفضالهم، وحرية العرب: أشرافهم، "والحرّة: الكريمة من النساء، والحر من كل شيء هو أعتقه وأحسنه وأصوبه، والشيء الحر هو كل شيء فاخر، وفي الأفعال هو الفعل الحسن والأحرار من الناس أختيارهم وأفضالهم"⁽³⁾.
تعددت المذاهب في تعريف الحرية اصطلاحاً، فقد ورد في إعلان حقوق الإنسان الصادر عام 1789 أن الحرية: هي "حق الفرد في أن يفعل ما لا يضر بالآخرين"⁽⁴⁾.
أما الحرية في الإسلام: فهي: "ما وهبه الله للإنسان من مكنة التصرف لاستيفاء حقه وأداء واجبه دون تعسف أو اعتداء"⁽⁵⁾.

ومن هنا سنتحدث عن حق الحرية في الإسلام من خلال المطالب التالية⁽⁶⁾:

المطلب الأول

منطق مفهوم الحرية في الإسلام

فالأصل في الناس أن الله خلقهم أحراراً، وليسوا عبيداً، والإسلام يعزز هذه الأمر، ويضبطه بما يحقق الحرية المتكاملة، ويتضح ذلك في النقاط التالية:

أولاً: الحرية أداة الاستخلاف في الأرض:

- (1) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الشفاء بالعسل (5684).
- (2) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الحبة السوداء (5685).
- (3) انظر: لسان العرب 181/4.
- (4) الحرية مفهومها وضوابطها وآثارها د. ناصر بن سعيد السيف ص3.
- (5) ومفهوم الحرية من المنظور الإسلام لـ يوسف محمد أبو سليمة ص2.
- (6) ينظر: بحث: مفهوم الحرية في الإسلام، منشور بمجلة البحوث والدراسات الشرعية د. وفاء نايف خالد العجمي، وعلى موقع الملتقى الفقهي، ومقال: الحرية في المفهوم الإسلامي، حسام العيسوي إبراهيم، منشور على موقع صيد الفوائد، ومفهوم الحرية من المنظور الإسلام لـ يوسف محمد أبو سليمة.

فالحرية في الإسلام أصل كرامة الإنسان، فإن الله جعله خليفة يعمر الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

ومن ثم فإن الله جعل الإنسان سيداً مكرماً في هذا الوجود، فقد سخر الحق الله تبارك وتعالى للإنسان كل شيء؛ ليتحرر من العبودية من كل شيء إلا عبوديته الله، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

وهذا الأمر يجعل الحرية الإنسانية حرية المخلوق المسئول المحاسب لا حرية الذي لا يسأل عما يفعل، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].
ثانياً: الحرية أمر رباني:

لم يأت مبدأ الحرية في الإسلام نتيجة تطور في المجتمع، أو ثورة طالبت به، أو نضوج وصل إليه الناس، وإنما هي مبدأ منزل من السماء، ليرتفع به أهل الأرض، فقد جاء الإسلام ليرقى بالبشرية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ولذا كان المسلم حراً مختاراً، يستطيع أن يعبر عن آرائه وأفكاره، وأن يمتلك قراره، ويتحمل مسؤوليته.

قال الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب التي يقول فيها: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً" (1)؟!

ثالثاً: الإسلام هو رسالة الحرية والتحرر من العبودية لغير الله:

الرسالة النبوية هي رسالة الحرية من العبودية لغير الله تعالى سواء من عبادة أشخاص، أو جمادات أو شهوات، وضح ذلك جلياً من كلمات جعفر بن أبي طالب حينما وقف أمام النجاشي حينما سألهم عن سبب اضطهاد الوثنية القرشية للمسلمين فقال رضي الله عنه: "أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف...".
وهذه هي معاني العبودية الحقيقية، التي تستعبد الإنسان، وتضر به وتضر بالمجتمع، وتضر بالضعفاء..

ثم قال: فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه، من: الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

(1) فتوح مصر وأخبارها لعبدالحكم ص 290، ينظر: كنز العمال 873/12 رقم (36010). وحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي 581/1، وابن الجوزي: مناقب عمر بن الخطاب 99. ومحض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب 473/2

فعدد عليه أمور الإسلام... ونقول في عيسى الذي جاء به نبينا: هو عبدالله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء، البتول⁽¹⁾.

وهذه هي معاني الحرية الحقيقية التي ترفع من قيمة الإنسان.

رابعاً: الحرية في الإسلام ضرورة إنسانية وفريضة شرعية:

إن الإسلام جعل الحرية فريضة وواجباً شرعياً، وضرورة من الضرورات الإنسانية والاجتماعية، ولا يحل للإنسان أن يتنازل عنها، فهي بمثابة الحياة له، وهي من أهم المكتسبات التي يجب الحفاظ عليها، لذلك من الضروري أن نفهم معنى الحرية، وأن نمارسها بالشكل الصحيح.

الحرية في الإسلام ضرورة من الضرورات الإنسانية، وفريضة إلهية وتكليف شرعي وواجب.. وليست مجرد "حق" من الحقوق، يجوز لصاحبه أن يتنازل عنه إن هو أراد⁽²⁾!

خامساً: الحرية في الإسلام استنقاذ للبشرية من الظلم:

النظرة الإسلامية تحرر الإنسان من كل الطواغيت، فمن مفاهيم كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" عملياً هي تحرير الإنسان من العبودية لكل الظالمين، فإفراد الله بالألوهية والعبودية هي جوهر تحرير الإنسان من العبودية لغير الله، تحرير الإنسان من كل ألوان الظلم المادية التي تستلب منه الإرادة والحرية والاختيار.

وهذه الحرية تمثلت في كلمة ربيعي بن عامر أمام رسم قائد جيش الفرس، حيث قال بعزة وحرية وقوة: "الله جاء بنا، وهو بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"⁽³⁾.

فانطلقت الفتوحات الإسلامية لتحرر الناس من القهر العقدي والاستبداد السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني والثقافي الذي دام قروناً، انطلق المسلمون ليحرروا القلوب والعقول من الخرافات والعبودية لغير الله، وليحرروا البلاد من طغيان البشر وظلمهم وقهرهم السياسي والاجتماعي والديني والأخلاقي الذي يحول بينهم وبين معرفة الحق، ثم لم يكرهوا أحداً على الدخول للإسلام.

سادساً: الحرية في الإسلام توحيد للتشريع عن أهواء البشر:

فالبشر طبعهم المحاباة والجهل وعدم العدل واتباع الأهواء، أما التشريع الرباني فهو تشريع العليم الخبير، الخالق المالك المدبر الذي ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى ٢ - ٣]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [الملك: ١٤].

(1) مسند أحمد 201/1 برقم (1740)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن. وقد أوردت الرواية مختصرة.

(2) مقال: المفهوم الإسلامي للحرية، د. محمد عمارة، مجلة الأزهر ذو القعدة 1433هـ، جزء 11 لسنة 85.

(3) ينظر القصة بطولها في: تاريخ الطبري 520/3، والكامل في التاريخ لابن الأثير 297/2، والبداية والنهاية لابن كثير 39/7 حوادث سنة

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: ((يا عدي اطرح عنك هذا الوثن)) وسمعتة يقرأ في سورة براءة: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة ٣١]، قال: ((أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه))^(١).

سابعاً: الحرية في الإسلام علاج من سيطرة المادة والشهوات:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: ((تعس عبد الدينار، والدرهم، والقטיפه، والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض))^(٢).

إن الإسلام يحزر الإنسان من العبودية للأشياء، التي يحسبها مملوكة له، وتحت تصرفه، فإذا هي التي تحركه أو توقفه، وربما تكون سبب في هلاكه في الدنيا والآخرة.

ثامناً: حرية الإسلام فك لكل ما يكبل الإنسان:

حين يرعى الإسلام حرية الإنسان، فإنه يؤسسها بداية على تحريره هو من كل ما يكبل إرادته ويلغي إنسانيته وكرامته خارج أمر الله عز وجل:

يحرره في قلبه ومشاعره من سيطرة الأهواء والدوافع الشيطانية الانحرافية.

ويحرره في عقله وتفكيره من قيود الأوهام والخرافات والانحرافات الفكرية.

ويحرره في بدنه وكيانه من عناصر الظلم والقهر والاستعباد والمهانة.

وذلك من أجل أن تبقى كل معاني العبودية والخضوع خالصة لله وحده، وهو الذي أراد لعباده حياة

التحرر والكرامة والامتياز قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ

وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

(1) جامع الترمذي كتاب التفسير باب، ومن سورة التوبة (3095)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (3293).

(2) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (2886).

وقوله: (تعس) سقط على وجهه أو شقي وهلك. (عبد الدينار) مجاز عن الحرص عليه وتحمل الذلة من أجله فمن بالغ في طلب شيء وانصرف عمله كله إليه صار كالعابد له. (القטיפه) دثار مخمل والذثار ما يلبس فوق الشعار والشعار ما لامس الجسد من الثياب. (الخميصة) كساء أسود مربع له خطوط. (أعطي) من المال. (رضي) عن الله تعالى وعمل العمل الصالح. (انتكس) انقلب على رأسه وهو دعاء عليه بالخيبة والخسران. (شيك) أصابته شوكة. (فلا انتقش) فلا قدر على إخراجها بالمنقاش ولا خرجت والمراد إذا أصيب بأقل أذى فلا وجد معينا على الخلاص منه. من تعليق الشيخ مصطفى البغا على صحيح البخاري.

المطلب الثاني

موقف الإسلام من الرق

موقف الإسلام من الحرية ليس مجرد موقف فكري نظري، وإنما تجسد على أرض الواقع تجربة إصلاحية غيرت المجتمع الذي ظهر فيه تغييراً جذرياً- وذلك هو الذي يحسب للإسلام، في فترات التاريخ! لقد جاء الإسلام ونظام الرق والعبودية نظام عام وراسخ في المجتمعات، بالغ القسوة يمثل ركيزة من ركائز النظامين الاقتصادي والاجتماعي لعالم ذلك التاريخ وفي كل الحضارات. فلما قامت دولة الإسلام في المدينة المنورة، قام بإصلاح وتغيير الواقع بشمولية لجانب الوقاية والعلاج، مع التدرج في ذلك، وبيان ذلك في النقاط التالية⁽¹⁾:

أولاً: جعل الإسلام التحرر من الرق بمنزلة إحياء النفس:

مقام الحرية يبلغ درجة عالية في الأهمية وسلم الأولويات، حيث اعتبر الإسلام عتق الرقبة، أي: تحرير العبد أو الأمة، هو إخراج له من الموت الحكمي إلى حكم الحياة.. وهذا هو الذي جعل عتق الرقبة كفارةً للقتل الخطأ الذي أخرج به القاتل نفساً من إطار الأحياء إلى عداد الموتى، فكان عليه، كفارة عن ذلك، أن يعيد الحياة إلى الرقيق بالعتق والتحرير، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ ﴾ [النساء: 92].

يقول الإمام النسفي: "فإنه -أي القاتل- لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء، لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار، لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها، من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات، إذ الرق أثر من آثار الكفر، والكفر موت حكماً"⁽²⁾.

ثانياً: حرم الإسلام وألغى المنابع والروافد التي تمد "نهر الرقيق" بالجديد:

فمن كمال وأسرار الشريعة الإسلامية حرصها على نشر الحرية في الإسلام بكيفية منتظمة، فإن الله لما بعث رسوله بدين الإسلام كان الرق متفشياً في البشر، وأقيمت عليه ثروات كثيرة، وكانت أسبابه متعددة ومن أهمها: الأسر في الحرب، والخطف في الغارات، وبيع الآباء والأمهات أبناءهم، والرهائن، والتدائين، فأبطل الإسلام جميع أسبابها عدا الأسر⁽³⁾.

ثالثاً: وسع الإسلام مجالات وأسباب عتق الرقبة:

وذلك بأمور:

1- تحبيب الناس وحثهم على عتق الأرقاء، وجعلها من أعمال أعظم أعمال البر، قال تعالى: ﴿ تَسَّ أَلْبَرًا

(1) منهج الإسلام في تحريم الرق، مقال علمي منشور على موقع مهارات الدعوة، وبمحت علمي في الرد على شبهة أن الإسلام أقر نظام الرق، منشور على موقع بيان الإسلام، وينظر كتاب: الإسلام في قفص الاتهام د. شوقي أبو خليل ص 193 وما بعدها، الافتراءات على الإسلام والمسلمين د. أمير عبدالعزيز.

(2) مدارج التنزيل وحقائق التأويل ص 189.

(3) انظر: مفهوم الحرية من المنظور الإسلامي ص 6.

أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ
وَعَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴿البقرة: ١٧٧﴾.

2- جعل عتق الرقاب مصرفاً من مصارف صدقات المسلمين وزكواتهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ
لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُؤْمِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴿التوبة: ٦٠﴾.

3- جعل العديد من الكفارات هي تحرير الرقبة.. مثل:

- كفارة القتل الخطأ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴿النساء: ٩٢﴾.

- وكفارة الظهار، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ
ذَلِكَ نَوْعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿المجادلة: ٣﴾.

- وكفارة اليمين، قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّعْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ
فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِّنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴿المائدة: ٨٩﴾.

- وكفارة الجماع في نهار رمضان، لما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال:
"بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكت، قال: ((مالك؟)) قال:
وقعت على امرأتي وأنا صائم، فقال ﷺ: ((هل تجد رقبة تعتقها؟)) قال: لا..."⁽¹⁾.

4- سن شرائع المساواة بين الرقيق ومالكة وسيده في المطعم والمشرب والملبس.. ودعا إلى حسن
معاملته والتخفيف عنه في الأعمال.. حتى أصبح الاسترقاق- في ظل هذه التشريعات- عبئاً اقتصادياً
يزهد فيه الراغبون في الثراء! ويعطي صورة مشرقة للإنسانية بآتم صورها حتى مع بقاء الرق، قال
ﷺ: ((إخوانكم خولكم⁽²⁾، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل،
وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم⁽³⁾)).

5- مع اقتصار الإسلام على سبب الرق في أسرى الحرب مع الكفار، إلا أنه جعل للأسرى مخارج أخرى
غير الرق، كمبادلة الأسرى بأسرى المسلمين، وقبول الفداء منهم أو من قومهم مقابل إطلاق

(1) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان، ولم يكن له شيء، فتصدق عليه فليكفر (1936)، ومسلم، كتاب الصيام، باب
تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان (1111).

(2) خولكم: خدمكم. ينظر: فتح الباري 1/115.

(3) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك (30)، ومسلم، كتاب الإيمان
والنذور، باب إطعام المملوك مما يأكل (1661).

سراحهم، بل وشرع المنّ عليهم بإخلاء سبيلهم بلا مقابل، وكل ذلك وقع في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَّخْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاكَ فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَامًا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤].

كانه عمر يقول: أبو بكر سيّدنا، وأعتق سيّدنا. يعني بلالاً. البخاري 3754

وعينما ينتشر الإسلام ويعم أرماء الكون يصبح الناس جميعاً أخوة لا تفاضلهم بينهم ولا تمايز إلا بالتقوى والعمل الصالح.

من خصائص الإسلام

العمل على تحرير العبيد

قضت الظروف القاسية في أعقاب مديدة من الدهر، على بعض النفوس الإنسانية أنه تعذبه، وأنه تذوق من ألوان النكال ما تقشعر لهوله الجلود، وتشيبه نواصي الولدان. كانه ذلك يوم كان السيد حراً في عبده يقتله إن شاء، ويستحييه إن أراد؛ ويصبه عليه من سياط العذاب إن استحياه ما يمزقه جلده؛ ويجعله يؤثر الموت المرع، على حياة ملؤها الألم والعذاب. سارت هذه الحالة لجميع الأمم والشعوب مهما يكن الدين الذي كانته دينه والشرعة التي تخضع لها.

فلما جاء الإسلام دين الرحمة والعدالة، دين المروءة والإنسانية، دين الحرية والكرامة، تبدلت الحالة غير الحالة وعلت الرحمة محل القسوة، ونزلت العدالة مكان العسف والظلم والظفیان.

اعترف الإسلام بالكرامة الإنسانية، وامتنع بها على الإنسان، قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَوَضَعْنَاكُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ مِّنْ خَلْقِنَا تَقْضِيلاً﴾ [الإسراء: 70].

ولا جرم أنه من الكرامة أنه يكون الإنسان حراً طليقاً، ينعم بحريته التي فطره الله عليها، ويفرد ويروع إلهه حيث يطيب له الفدو والرواح، وأتقى من الأمر ما يشاء ويدع ما يشاء، بغير أنه يكون عليه مسيطر ولا رقيب، ما دام لا يعتدي على حرية غيره.

ولقد قاله أحد الملهمين أو المحدثين من هذه الأمة الإسلامية الحرة، وهو الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه مخاطباً أميراً من أمراءه على أكبر إمارات من الإمارات التي بسط عليها الإسلام سلطانه ورفع عليها رايته، وهو عمرو بن العاص أمير مصر حين شكاه أحد القبط "متي استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟".

ولكنه هناك حالاته إذا تلبس بها الإنسان أهدر الإسلام كرامته؛ وأهدر حريته، وأهدر ما له، بله وأهدر حياته أيضاً.

وذللهم إذا وقفه في سبيل الدعوة الإسلامية؛ وما ولو أنه يصد عن سبيل الله، فأباح الله حينئذ قتاله وقتله وأسره بعتوه وعدوانه. قال تعالى ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأُخْرِهِمْ مِنْ حَيْثُ أُخْرِيَكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَمَسُ مِنْ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَيْثُ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: 190، 192] وقال تعالى ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَيْثُ إِذَا أَكْمَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَثًّا وَبَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَيْثُ تَضَعُ الْحَرْبُ أَدْرَاةَهَا ﴾ [محمد: 4].

رأى الله أنه هذه الأنفس التي تريد أن تعبتو بحرية غيرها، وأنه تقفه في وجه الدعوة الإسلامية السلمية البريئة، وأنه تصد عن سبيل الله، وأنه تبغيها عوجاً، جديرة ألا تستمع بحريتها، وأنه تهدر كرامتها، جزاء وفاقا، فأذن الله في أسرها وأباح استرقاقها بما اعتدت على حرية غيرها.

كان الاسترقاق قبل الإسلام فوضي بغير نظام؛ يكفي أن تغير قبيلة قوية بغيماً وعدواً على قبيلة ضعيفة وادعة هائلة مطمئنة في ديارها، فتسبي رجالها ونساءها وولدانها مالها، وتصرف في كل أولئك تصرف المالك فيما يملكه، من حيث لا رادع، ولا زاجر ولا رقيب. يكفي أن يلقوه رجل قوي رجلاً ضعيفاً أو فتاة لا حول لها ولا قوة؛ أو وليداً بعيداً عن أبيه فيشد وثاقه ويعرضه للبيع كما يعرض المتاع.

ولكن الإسلام الذي جاء بالهدى والنور، والعدل والإحسان، والبر والقسط والخير والحق، نظم الرق، وضيق دائرة الاسترقاق ووضع أسساً للقضاء عليه.

أول ما بدأ به من ذلك أنه حرم الاسترقاق من طريق الفارة الظالمة على الوادعين الأمنيين، ومن طريق الاغتطاف وشد الوثاق، قال عليه الصلاة والسلام فيما يروي عن ربه: قال الله تعالى "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنته خصمه خصمته، رجل أعطوه يه ثم غدر، ورجل باع حراً ثم أكل ثمنه، ورجل استأجر أجباً فاستوفى منه ولم يعطه أجره."

وجعل الاسترقاق محصوراً في دائرة ضيقة جداً، وهي الأسر في الجهاد أي الحرب الشرعية التي يراد بها إعلاء كلمة الله تعالى.

وكل أسر من غير هذه السبيل باطل محرم.

ثم رغب في عتقه الأرقاء، وعضه عليه وجعله من أعظم القربى، قال تعالى ﴿ فَلَا اتَّخَذَ الْعُقَبَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقَبَةُ * فَلَهُ رَقَبَةٌ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد: 11 - 16].

وقال عليه الصلاة والسلام "أما رجل أعتقه امرأ مسلماً استنقذ الله بكله عضو منه عضواً من النار" وقال عليه الصلاة والسلام "أما رجل كان له جاريت أدبها فأعسن تأديبها، وعلما فأعسن تعليمها، وأعتقها وتزوجها فله أجران".

وشرع المكاتب وهي أن يشتري الرقيق نفسه من ماله بحال يؤديه إليه نجوماً.

وقد رغب القرآن الكريم فيها، وعضه على العونة عليها. قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ اللَّيْتَابَ * إِذَا كَانُوا مِنْكُمُ يُغَايِبُونَ * فَأْتَوْهُمُ مِنْ مَالِ اللَّهِ ذِكْرًا تَلَرُّهُمُ * فَتَيَاتِكُمْ عَلَيْهِ الْبِغَاءُ * إِنَّ أَرْدَنُوا تَحَصُّنًا لِيَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [النور: 33].

وشرع نظام الفداء بالأسرى. وذلك أن يسترد الكفار أسراهم في مقابل مداهم أسرى المسلمين، أو في مقابل مال يدفعونه لهم؛ وجعل الأمة التي تله من سيدها غير خاضعة لنظام الرق فلا تباع ولا توهب ولا تورث وتصح بعد موته مرة. قال عليه الصلاة والسلام "أبما وليدة ولدته من سيدها فإنه لا يبيعها ولا يهرها، ولا يورثها وهو يستمتع بها، فإذا مات فسيه مرة".

وكان عليه الصلاة والسلام يأمر بالعتق في ظروف خاصة تقربا إلى الله تعالى. روى البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت "لنا نؤمر عند الكسوف بالعتاق".

وإذا لاحت بركة من جانب الحرية لعبد كانه سببا في عتقه فلو أنه لامرئ نصيباً في عبد مشترك بينه وبين غيره، فأعتقه نصيبه، عتق العبد كله من ماله، إنه كان له مال، قال عليه الصلاة والسلام "من أعتقه نصيباً أو شقيقاً [1] في مملوك ففلاصه عليه في ماله؛ إنه كان له مال، وإلا قوم عليه فاستسعر به غير مشقوق عليه" وجعل عليه الصلاة والسلام المثلث بالعبد سبيلاً إلى عتقه فقال: "من مثل بعبد عتقه عليه".

وشرع الإسلام العتق في الكفارات؛ فجعل كفارة للقتل الخطأ؛ قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً * وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَرِيَّةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهَا * إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانُوا مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مِنْكُمْ أَوْ قَوْمٌ مُؤْمِنُونَ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَرِيَّةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهَا * وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ * وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ [النساء: 92].

وشرع العتق كفاية للظهار. قال تعالى ﴿ وَالزَّيْنِ يُّظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لَهَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِهِ أَنْ يَتَّعَمَّأَ ذَلِكَ تُوعِظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: 3].

وشرع كفاية للفطر العمدة في رمضان. فلقد كان أول ما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عنه من جاء ليستغنيه فبخره أظفر عمداً في رمضان أن قال له "أجد ما تحرر به رقبة".

وشرع العتق كفاية لليمين على التخير. قال تعالى ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: 89].

وقد وضع الإسلام قواعد لمعاملة الرقيق بالرفق والحسنى. قال عليه الصلاة والسلام "إنه إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كانه أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكفوه ما يغلبهم، فإنه كلفتموه ما يغلبهم فأعينوهم" وقال عليه الصلاة والسلام "لا يقل أحدكم عبدي، أمتي؛ وليقل فتاوي وفتاوي وغلامي". وقال عليه الصلاة والسلام "إذا أتت أحدكم خارمه بطعام فإنه لم يجلسه معه فليناوله لقمته أو لقمتين أو أكلة أو أظنين فإنه وليه علاجه".

هذه النصوص تفعلها إنه كنته ممن يؤثرون الإيثار بأثر الإسلام أول من عمل عليه

تحريم الرقيق، وأول من أمر بالإحسان إليه.

ولا جرم أنه هذا التشريع يفضي إليه القضاء على الرقيق شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى منه شيء، وإذا علمت أنه الإسلام جعله عتق الرقاب مصفاً من مصارف الزكاة حيث يقول ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَاتِ قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن سبيله فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ [التوبة: 60] تبين للو أن الإسلام كان يسير في هذا السبيل بحظوة سريعة إبقاء على الإنسانية وتكرماً لها.

وإنه المعاملة التي أمر الإسلام أن يعامل بها الرقيق تجعل كثيراً من الأحرار يتقن لو أنه كان رقيقاً يرتع في ظلاله سيده مكفوه التوبة، خفيف الظهر، ولا يحمل من أوقار الحياة وتكاليفها شيئاً.

ومحسب أنه تنظر فيما قدمه للو من النصوص، لتعلم عالم اليقين؛ أنه من الكذب الصراح ما يتشدد به الخراصون من أنه هذه الأمة من أمم الفريه أو تلاله، أول من فكر في محاربة الرقيق والقضاء عليه.

نحز لا نبخس الناس أشياءهم، ولا نغصأ أولي الحق عقوبهم، ولا نجحد أصحاب الفضل فضلهم، فإننا نعرفه لهذه الأمم أنها جردت في إحياء تشريع وضع الإسلام أساسه أول الأمر ثم أغفله المسلمون، وتورطوا في شرو أنسنتهم شريعتهم المظهرة. ألم تعلم بأسواق الرقيق التي كانت تقوم على قدم وساق، في البلاد الإسلامية، يصول فيها النخاسون ويجولون، وليس بين الأرقاء الذين يبيعونهم واحد فقط ممن يبيع الإسلام استرقاقهم.

فكلمهم مخطوف أو مسروق. وحسبائهم هؤلاء الفتيات البيض اللاتي امتلأت بهن القصور في جميع العصور، واستمتع بهن الرجال؛ واستولدوهن الأولاد بغير عقد شرعي فتلوتهن الأنساب، وسرقهن عرق السفاح في كثير من الأسر والبيوتات.

إنه الرق الذي تعاونت الدول "المتقدمة" على محاربته ليس هو الرق الحلال الذي أباه الإسلام، بل هو رق غيبته آثم حرمة الإسلام منذ طمع نوره وأشرقته شمسها على الآفاق. فالفضل في محاربة الرقيق، والقضاء على الرق الأثيم، يرجع قبل كل شيء إلى الإسلام، دين الله الحق؛ الذي يأمر بالعدل، والإحسان، وإيتاء زكوة القلوب؛ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغية

ومن الغريب المدهش، أنه الأمم التي سعت وهدت في سبيل تحرير الأفراد، لا تزال تجد و تسع في سبيل استعباد الأمم والشعوب، وما التمدح بمنة أعطيته باليسار ثم سلبه أضعافه أضعافها باليمين

المطلب الثالث

الترابط بين الحرية والمسؤولية في الإسلام

مكانة الحرية في الإسلام تتحقق من خلال الحقوق والواجبات في مختلف شؤون الحياة، لأن الحقوق من دون أن تقيد بالواجبات سيصبح الفرد غير مرتبط بالآخرين؛ وقد يعرف حقوقه ولا يعرف حقوق الآخرين عليه؛ وبذلك يصبح انفرادياً في تعامله قاصراً عن أداء واجباته، ولذا فالإسلام بين علاقة الحرية والمسؤولية في أنها علاقة تلازم وتكامل، لتكون:

- حرية الإنسان إرادة خيرة فاعلة في مسؤولياته بالرغبة والافتناع.
- المسؤولية استثماراً عاقلاً ونافعاً لإرادته الحرة، من أجل مصلحة الفرد والجماعة والمجتمع والأمة والإنسانية جميعاً.

أما الحرية المطلقة بغير قيود ولا حدود، فهي سلوك بهيمي فوضوي مفسد ومدمر، لا يليق بكرامة الإنسان صاحب الرسالة، ولا بحياته ومجتمعه.

إن حقيقة التلازم بين الحرية والمسؤولية في حياة الإنسان أشبه بحال السائق وقواعد نظام السير: فأنت حر أن تركب سيارتك من ذوقك واختيارك، وتسير حيث تشاء، لكنك مطالب بمراعاة قواعد نظام السير واحترامها، حفاظاً على سلامتك وسلامة غيرك، ولو أردتها حرية مطلقة في الطريق بغير التزام ولا انضباط، جنيت على نفسك وعلى غيرك وعلى النظام العام. والواقع شاهد بالمآسي المفجعة لحوادث السير على مغبة التهور والشطط وخرق حدود الحرية وضوابطها⁽¹⁾.

فمهما كانت حريتك حقا مشروعاً، فهي تنتهي حيث تبدأ حرية غيرك، وأياً كان حقك فيها فهو قرين الواجب نحو غيرك، وتلك ضرورة الحياة الاجتماعية الإنسانية التي لا تستقيم على الأمن والاستقرار بغير انضباط والتزام.

وإنما فسدت أحوال المجتمعات وضاعت المصالح والأمن والاستقرار بعاملين رئيسيين:

أحدهما: الإفراط والغلو والشطط في طلب الحرية وممارسة حقها، بغير ضوابط عقلية ولا دينية ولا خلقية، فتصبح تهوراً وتمرداً تعقبه الشرور والمفاسد.

وثانيهما: التفريط والتقصير في أداء واجب المسؤولية، عن جهل أو تجاهل أو تمرد، مما يؤدي إلى ضياع الحقوق والمصالح⁽²⁾.

فالإسلام يعتبر الناس جميعاً مسؤولين، كل في دائرته وبحسب استطاعته ووسعه، كما هو البيان الصريح للحديث الصحيح عن الرسول ﷺ أنه قال: ((كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع

(1) انظر: الحرية والمسؤولية في الإسلام على الموقع الإلكتروني منارات ص2.

(2) الحرية والمسؤولية في الإسلام على الموقع الإلكتروني منارات ص2.

وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتهما، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته⁽¹⁾.

المطلب الرابع

صورت تحقيق الحرية في الإسلام

حق الحرية عام وشامل وأصل لحقوق متعددة مثل: حرية التدين، وحرية الذات، أو الحرية الشخصية، وحرية التفكير، وحرية الرأي أو التعبير، وحرية العمل والمسكن والتملك والانتفاع، والحرية السياسية، والحرية المدنية، حتى إن إنسانية الإنسان رهن بحريته⁽²⁾.

إذ لا يمكن أن تتحقق إنسانيته بدون حرية وقد عزز الرسول ﷺ في سنته المطهرة وسيرته العطرة، مبدأ الحرية سواء في التفكير أم في التعبير أم في أعمال الرأي والاجتهاد في أمور الدين والدنيا، حرصاً منه على تكوين الشخصية المستقلة المتماسكة القوية لدى المسلم⁽³⁾.

ويمكن بيان ذلك في النقاط التالية:

أولاً: حرية التفكير:

أعطى الإسلام للإنسان حرية التفكير في حدود الآداب العامة والأخلاق الفاضلة، شريطة عدم السب واللعن والكذب والقذف، وكل ذلك بما يتفق مع المبدأ العام.

فقد جاء الإسلام يدعو الناس إلى النظر والتفكير، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى قِزْبٍ ثُمَّ نُنْفَكِرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ حِجَّةٍ ﴾ [سبأ: 46].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: 101].
وذم الله تعالى الذين يتبعون الظنون والأوهام وقال: ﴿ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النجم: 28].

وذم الذين يتبعون الهوى وعلى الذين يقلدون الآباء، أو يقلدون الكبراء والرؤساء، وبين أنهم الذين يقولون يوم القيامة: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴾ [الأحزاب: 67].

وبين أن ذلك سبب تكذيبهم للرسول عليهم الصلاة والسلام: ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: 23].

(1) صحيح البخاري، كتاب العتق، باب العبد راع في مال سيده ونسب النبي ﷺ المال إلى السيد (2558)، ومسلم، كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم (1829).

(2) انظر: حقوق الإنسان في الإسلام د. محمد الزحيلي ص 185، وحقوق الإنسان في الإسلام ص 91-95.

(3) انظر: مفهوم الحرية من المنظور الإسلامي ص 6.

فإن العقل الصريح أساس النقل الصحيح، ومن هنا ظهر في الإسلام -تبعاً للحرية الفكرية- الحرية العلمية، قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

ووجدنا أن العلماء يختلفون، وقد يخطيء بعضهم بعضاً، ويرد بعضهم على بعض، ولا يجد أحد في ذلك حرجاً.. ينتفع بعضهم بكتب بعض، وبآراء بعض، ورأينا اختلاف الفقهاء وسعة صدورهم في الخلاف بين بعضهم، وقد قال يونس بن عبد الأعلى الصديقي -: "ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة ثم افترقنا ولقيته فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة"⁽¹⁾. وقال أحمد بن حفص السعدي: "سمعت أحمد بن حنبل الإمام يقول: لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق وإن كان يخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضاً"⁽²⁾.

ثانياً: حرية القول وإبداء الرأي:

وإذا كان الإسلام قد أعطى للإنسان حرية التفكير فإنه أعطى له أيضاً حرية القول -بلا إيذاء للآخرين- فالقول الذي فيه إيذاء للآخرين حرمه الإسلام، قال ﷺ: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت))⁽³⁾.

بل جعل الإسلام القول والنقد - إذا تعلق به مصلحة الأمة، ومصلحة الأخلاق والآداب العامة - أمراً واجباً.. أن تقول الحق، لا تخاف في الله لومة لائم، أن تأمر بالمعروف، أن تنهي عن المنكر، أن تدعو إلى الخير، أن تقول للمحسن: أحسنت وللمسيء: أسأت، وأن تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، فعن طارق بن شهاب قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: أي الجهاد أفضل؟ قال: ((كلمة حق عند إمام جائر))⁽⁴⁾، وفي رواية: ((أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، أو أمير جائر))⁽⁵⁾.

وحدث الإسلام على الشورى وطلب المشورة والمبادرة في ذلك، وهو نوع من أنواع الحرية التي في القول وإبداء الرأي، وقل أمر الله تعالى رسوله بطلب الرأي والمشورة من أصحابه، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، بل جعل ذلك من صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. فلا ينفردون برأي حتى يتشاوروا ويجمعوا عليه.

ثالثاً: الحرية السياسية:

- (1) سير أعلام النبلاء 240/8.
- (2) سير أعلام النبلاء 371/11.
- (3) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يكره من قيل وقال (6475).
- (4) مسند أحمد 126/31 (18830)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.
- (5) سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (4344) واللفظ له، والترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر (2174) وقال الترمذي: وهذا حديث حسن غريب، وسنن النسائي كتاب البيعة، باب فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر (4209)، وسنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (4011)، ومسند أحمد 541/36 (22207) وقال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره.

ومن تعاليم الإسلام الحنيف أنه قرر عدم الحجر على الناس في إبداء آرائهم وشرح وجهات نظرهم في الحياة الإنسانية ومن بينها الحياة السياسية، والحرية السياسية ليست إلا فرعاً لأصل إسلامي عام هو حرية الإنسان، وهذه الحرية التي يقررها الإسلام يحددها قيدها وهو التزام حدود القيم الإنسانية فلا يجوز أن يكون الرأي الذي يبديه الإنسان طعنًا في الدين أو خروجاً عليه فذلك مخالف للنظام العام في الدولة الإسلامية.

ففي غزوة بدر: "ذكروا: أن الحباب بن المنذر بن الجموح قال: يا رسول الله، رأيت هذا المنزل، أمزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: ((بل هو الرأي والحرب والمكيدة؟)) فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل" (1) ثم بدأ يخبره بوجهة نظره، وقبلها رسول الله ﷺ وكانت سببا في الانتصار في المعركة (2).

رابعاً: حرية الكسب والتملك:

حث الإسلام على العمل أيًا كان نوعه ما دام من الأعمال المباحة قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

بشرط عدم الضرر بالنفس أو الضرر بالغير.. أيًا كان ذلك الضرر.

خامساً: حرية العقيدة:

فانطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فإن الإسلام قد ربط قيمة الحرية بالإنسان مطلق الإنسان، وليس بالإنسان المسلم وحده، وإذا كان الدين والتدين هو أعلى وأول ما يميز الإنسان، فإن إقرار الإسلام للإنسان على دينه المخالف لشاهد على تقديس حرية الإنسان في كل الميادين.. قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال الله عن نوح في دعوته قومه: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاننِّي رَحْمَةً مِّن عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلزِمُكُمْوهَا وَأَنتم لَهَا كَرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨].

وقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُم جَمِيعًا أَفَأنت تَكْرهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله تعالى: { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا } فهو سبحانه بذلك يقرر للإنسان حريته بأمور الإيمان والعقيدة والتوحيد، وهي أسمى الأمور، وحمله مسئولية حريته في ذلك، وهذا هو العدل التام، وأقام عليه الحجة بما أعطاه من حرية قوامها الإرادة والاختيار والعقل.

(1) ينظر: مغازي الواقدي 53/1، السيرة النبوية لابن هشام 620/1.

(2) انظر: الحرية في منظور الإسلام ص/3-4.

لقد أراد الله للناس الهدى والإيمان، لكنه - سبحانه - جعل لهم، مع هذه الإرادة الإلهية الحرة والتخيير والتمكين، فكان انتصار الإسلام للحرية الإنسانية في كل الميادين. فكانت شرعية الإسلام حرية الاعتقاد؛ بمعنى أنها لا تجبر أحداً على اختيار معتقد بعينه، وعملت على صيانة هذه الحرية.

المطلب الخامس

لا يوجد حرية مطلقة في الإسلام

إن الحرية في الإسلام لا تعني تخفي حدود الآخرين، أو السير عكس الاتجاه، أو أن لا نتفهم ظروف الآخرين.

أما الحرية بالمفهوم الجاهلي تعني أن تفعل ما تشاء وتأكل ما تشاء وتلبس ما تشاء وتعتقد ما تشاء وتنام مع من تشاء بدون قيود أو ضوابط؟ والنتيجة ارتفاع معدلات الجريمة والقتل والسرقة والاختطاف والاعتصاب والشذوذ والخيانة والسكر والانحلال الخلقي الغير مسبوق في موطن البلاد الراعية والداعية إلى الحرية.

قال ﷺ: ((لا ضرر ولا ضرار))⁽¹⁾ بمعنى إنه لا ضرر بالنفس ولا ضرار بالغير، حيث إن بعض الناس يفهم الجزء الثاني من الحديث ((لا ضرار)) يعني: لا يجوز أن تضر بغيرك فقط، إما نفسك فلا بأس بالإضرار بها، وهذا غير متحقق في مفهوم الحرية في الدين الإسلامي.

وبعض الناس يتكلمون عن حرية الرأي، ويدخلون فيها حرية الكفر، ويخلطون بين حرية الفكر، وحرية الكفر، ويسمحون بحرية الكفر ضمن حرية الفكر، وأن تعتقد ما تشاء من المذاهب الضالة، ولذلك عندهم مشكلة حقيقية في حد الردة، وفي حديث: ((من بدل دينه فاقتلوه))⁽²⁾ والمقصود بدينه دين الإسلام، كما بين العلماء في شرح الحديث.

فيقولون: من أراد أن يخرج من الدين فليخرج، ولكن في الإسلام الذي يخرج من الدين يقتل، وإلا يصبح الدين بوابة بلا بواب، ولا راع، ولا حارس، ويجترئ الناس على ترك الدين، وعلى ترك الإسلام، وهكذا يصبح الدين العوبة، من شاء دخل ومن شاء ترك.

فلا إكراه في دخول الدين الإسلامي، أما إذا دخل الإنسان في الإسلام فلا يجوز أن يخرج بل عليه أن يلتزم بالإسلام وتعاليمه، كما أن الإنسان غير مجبر على العمل في شركة معينة ولكن إذا دخل الشركة لابد له من الانضباط بنظامها.

كما قالت طائفة اليهود: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

[آل عمران: ٧٢].

(1) سنن ابن ماجة، كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره (2340)، والمستدرک علی الصحیحین 66/2 (2345)، وقال: صحیح الإسناد علی شرط مسلم ولم یخرجاه.

(2) صحیح البخاری، کتاب الجهاد والسير، باب: لا یعذب بعذاب الله (3017).

فأراد الله سبحانه ألا يكون هذا الدين ألعوبة، فمن دخل في الإسلام بعد اقتناع وبعد وعي وبصيرة فليلزمه وإلا تعرض لعقوبة الردة. فالحرية الأولى حرية التدين والاعتقاد.

كما أن الاعتداء على النفس أو الملك الشخصي لا تعتبر حرية للإنسان، لذلك حرم الإسلام الانتحار أو الإضرار بشيء من الجسد أو الملك في غير مصلحة صحيحة، كما لا يُعتبر الاعتداء على الغير سواء باللسان كالسب أو الأركان كالضرب من الحرية. فمن فعل ذلك فهو من الأشرار لا الأحرار.

ومن حدود الحرية كذلك قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْحَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا نَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ بَشَرًا مِّنَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُم الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبَوْا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَّ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١١ - ١٢].

فالحرية في الإسلام ليست سائبة ولا مطلقة حتى تهوي بصاحبها إلى قاع الضلال الروحي ودرك الانحطاط الأخلاقي، بل هي حرية واعية منضبطة، فإذا خرج بها الإنسان عن أحكام الدين ونطاق العقل وحدود الأخلاق ومصلحة الجماعة، تمت مساءلته ومحاسبته وإيقافه عند حده وردة عن غيه، منعاً لضرر الفرد والجماعة، وفساد الدين والدنيا⁽¹⁾.

يقول الشيخ عبدالله النديم: "... ولئن قيل: إن الحرية تقضي بعدم تعرض أحد لأحد في أموره الخاصة، قلنا: إن الحرية عبارة عن المطالبة بالحقوق والوقوف عند الحدود.. وهذا الذي نسمع به ونراه رجوع إلى الهيمنة وخروج عن حد الإنسانية، ولئن كان ذلك سائغاً في أوروبا، فإن لكل أمة عادات وروابط دينية أو بيئية، وهذه الإباحة لا تناسب أخلاق المسلمين ولا قواعدهم الدينية ولا عاداتهم. والقانون الحق هو الحافظ لحقوق الأمة من غير أن يجني أو يغري بالجناية عليها بما يبيحه من الأحوال المحظورة عنده"⁽²⁾.

والخلاصة⁽³⁾:

- 1- أن الحرية من أهم القيم الإسلامية، لأنها فطرة الله التي فطر الناس عليها، ويتميز الإنسان بها عن سائر الكائنات الحية الأخرى.
- 2- أن المفهوم الحقيقي للحرية هي تمكن الإنسان من أن يقوم بدوره الطبيعي في الحياة دون تعسف أو إضرار بالآخرين.

(1) انظر: مفاهيم خاطئة للحرية 4.

(2) انظر: مجلة الأستاذ، العدد 19، 8 جمادى الثانية سنة 1310هـ، ص 439.

(3) ملخصاً من بحث مفهوم الحرية في الإسلام، منشور بمجلة البحوث والدراسات الشرعية د. وفاء نايف خالد العجمي، وعلى موقع الملتقى الفقهي.

- 3- إن تمام حرية الفرد تكمن في قمة عبوديته لله تعالى، وتخلصه من عبودية ما سواه، وهذا يتحقق بمجرد دخول الإنسان دين الإسلام.
- 4- إن حرية الاختيار بالنسبة للدين تكون عند لحظة الاختيار الأول، أما بعد الدخول في الإسلام فهو ملزم باتباع كل أوامره واجتناب كل نواهيه، تحقيقاً لمسؤولية الاختيار.
- 5- أن دوافع الأفعال شرعية، وليست من هوى النفس، أو إملاءات الشهوة، وهذا هو الفرق الأساسي بين الحرية والتفلسف.
- 6- الحرية الحقيقية في علاقتك بالآخرين تعني ارتباطك بهم طبقاً للقواعد الشرعية، وليست وفقاً لقدرتك على غلبتهم وقهرهم، وانتزاع حقوقهم.
- 7- إن إحساسك بالعلاقة بينك وبين الآخرين ينمي فيك حسن المسؤولية وأداء الأمانة.
- 8- أن للحرية صوراً نظماً الإسلام، ومنها حرية التفكير، والقول، والحرية السياسية، وحرية الكسب والتملك والتنقل، وحرية العقيدة، والتي هي من أحلى الصور في الإسلام.
- في الغرب، يمكن ملاحظة فوضى كبيرة تتعلق بالحرية من نواح متعددة، وسأشير إلى ناحيتين تبرزان التناقض الشديد في هذا المجال:
- الناحية الأولى:** هناك تضارب واضح في كيفية ممارسة الحريات، حيث تتعدى بعض الحريات على حقوق الآخرين بشكل فادح، ورغم ذلك، يمسك البعض بها دون مبالاة بالأثار السلبية التي قد ترتب على الآخرين.
- الناحية الثانية:** الحرية تُفهم عموماً في الغرب على أنها القدرة على فعل ما تشاء دون قيود، ولكن هناك جانب آخر لا يُعطى نفس الأهمية وهو الحق في عدم القيام بأي شيء، إذا لم ترغب في ذلك. فعلى سبيل المثال، يُجبر الأطفال في المدارس إما بشكل مباشر أو عبر أساليب غير مباشرة مثل غسل الدماغ والتحفيز، على تبني سلوكيات معينة أو اتخاذ قرارات تتعلق بجنسهم. وفي حالات ندم هؤلاء الأطفال، يصبح من الصعب عليهم العودة إلى وضعهم السابق، مما يؤدي إلى معاناة شديدة، مثل الانتحار أو العيش حياة مليئة بالصراعات النفسية.
- بالإضافة إلى ذلك، يُفرض على الناس التفكير بطريقة معينة أو تأييد سياسات محددة، وإلا يتم اتهامهم بعبارات مثل "معارضة السامية" أو تُستخدم قضايا مثل إسرائيل كوسيلة للتخويف والترهيب. هذه الممارسات توضع تناقضات كبيرة في مفهوم الحرية وتؤدي إلى انتهاك الحقوق الفردية بطرق غير مقبولة.

الخاتمة

- الحمد لله رب العالم وصلى الله وسلم وعلى عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد:
- فبعد هذا العرض لموضوع الدعوة إلى الله يمكن تلخيص ما سبق في النقاط التالية:
1. من البصيرة في الدعوة إلى الله، أن يعرف الداعي إلى الله إلى أي شيء سيدعو الناس؟ وما المجالات التي يخاطب الدعاة المدعوين بها؟
 2. موضوع الدعوة يتلخص في: بناء تصور عام عن رسالة الإسلام، وأصول التلقي والاستدلال فيه، والتعريف بمقاصد الإسلام الخمس وهي حفظ الدين والنفس، والعقل، والنسل، والمال، وبيان خصائص الإسلام، وتعاليم الإسلام التي هي أركان الإسلام والإيمان، والتعريف بمحاسن الإسلام، وبيان التشريعات الحقوقية في الإسلام.
 3. إن بناء تصور شامل عن رسالة الإسلام من أهم الموضوعات التي لا بد وأن تطرح على المدعوين لإقناعهم بالإسلام أولاً، ثم لتطبيقهم الإسلام التطبيق الصحيح ثانياً.
 4. لا نستطيع أن نقوم بإعداد رسالة واحدة عن الإسلام تقال في كل مكان، وعند كل أحد، لأن الذي يحكم هذا هو الزمان والمكان والحال والفئة المخاطبة، فيعطى كل موقف ما يحتاجه من رسالة الإسلام، وهناك أساسيات يمكن من خلالها بناء رسالة عامة عن الإسلام، يمكن صياغتها حسب الزمان والمكان والحال والمخاطبين.
 5. الإسلام هو دين الله الوحيد وهو دين كل الأنبياء الذي لا يقبل ديناً سواه، وهو يشمل العبودية لله وحده، وإقامة العدل، وتحقيق الرحمة للعالمين، وإتمام مكارم الأخلاق، ونشر العلم ورفع الجهل، والاستخلاف في الأرض وإعمارها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والترغيب في الطيبات، والتيسير، والتعارف بين الشعوب لتحقيق التعاون.
 6. الأصل أن أول ما يجب أن يدعى الناس إليه في الإسلام هو التوحيد، مع اختلاف المداخل للدعوة للتوحيد من شخص لآخر، فلا بد أن تكون هناك رؤية واضحة متدرجة لبنى التوحيد في النفوس بناء قويا وأصيلاً، تقوم على تثبيت عقيدة الربوبية وأن لهذا الكون خالق، ثم تغرس حقيقة سبب الخلق والإيجاد، ثم تثبيت أهمية حاجة الإنسان إلى منهج للحياة، ثم غرس حقيقة البعث والجزاء.
 7. من أهم ما لا بد أن يعلم عن الإسلام: المصدر الذي يتم تلقي الإسلام منه والذي وصل إلينا الإسلام من خلاله، والأدلة على تشريعات الإسلام وصدق خبره.
 8. أصول أهل السنة في التلقي والاستدلال تركز على تعظيم النصوص الشرعية والانقياد لها، والاعتماد على السنة الصحيحة، وصحة فهم النصوص وأهميته في الاستدلال الصحيح، والاعتماد على منهج الصحابة في الفهم، والمعرفة باللغة العربية، وجمع النصوص الواردة في الباب الواحد.

9. خصائص الإسلام: هي أوصافه ومميزاته ومقوماته التي تفرد وتميز بها عن غيره من الأديان والمذاهب الأخرى.
10. خصائص الإسلام لا بد للداعية من معرفتها معرفة جيدة وتفهمها للناس حتى لا يختلط الخبيث بالطيب، والصالح بالطالح، وليدرك الناس عظمة هذا الدين، مما يتيح لغير المسلمين تكوين صورة صحيحة عن الإسلام.
11. خصائص الإسلام هي: الربانية، والعالمية، والشمولية، والتكامل، والواقعية، والوسطية والتيسير، والتدرج والسماحة، والعدل.
12. من موضوعات الدعوة المهمة المعرفة بمقاصد الإسلام لأن هذا العلم يبحث ويدرس ويبرز جوهر الإسلام وغايته ورسالته، ويكشف عن حكم الإسلام ومقاصد أحكامه وهذا مما يعين على إبراز محاسن الشريعة ومكارمها، ونفي الأفهام والتفسيرات المشوهة للإسلام، والتقويم والتسديد والإمداد لسائر العلوم والدراسات الإسلامية.
13. مقاصد الإسلام خمسة هي حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال.
14. من خصائص هذا الدين أنه دين شامل للعقيدة والعبادة والمعاملات.. فالإسلام ليس عقيدة قلبية أو حالة روحية يعيشها القلب فحسب.. والإسلام ليس تكاليف مالية وجهد بدني يقوم به المسلم.. والإسلام ليس نظاما اقتصاديا أو اجتماعيا أو سياسيا فحسب.. بل الإسلام هذا كله (عقيدة وعبادة وشريعة)، وإذا أردنا أن نعرض تعاليم الإسلام التي تميز الإسلام عن غيره، فلا بد أن نعرض الإسلام وفق هذا الشمول والتكامل..
15. تعاليم الإسلام التي لا بد للمسلم أن يتعلمها ويلتزم بها بينها الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وقد جمع حديث جبريل مع النبي ﷺ جانبي العقيدة والعبادة.. أما جانب التشريع والمعاملات الأخرى فقد ورد في آيات من كتاب الله تعالى، وهي كثيرة تدل على وجوب اتباع الشريعة الإسلامية وتطبيقها في جميع شؤون البشرية.
16. من أهم تعاليم الإسلام التي لا بد وأن يتعلمها المسلم بعد تعرفه على الإسلام ودخوله فيه، أركان الإسلام الخمس وأركان الإيمان الست، فأركان الإسلام هي الأصول التي بني عليها شرع محمد ﷺ وتشكل أعظم الواجبات التي تلزم المسلم، وهي: الشهادتان، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وأركان الإيمان، هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.
17. إن الحديث عن محاسن الدين الإسلامي هو حديث عن مظاهر رحمة الله بعباده، إذ شرع لهم من الدين أحكاماً وآداباً يسيرة وسمحة وكلها حسن وحكمة بالغة.
18. موضوع محاسن الإسلام باب مهم لإبراز الوجه الناصع لديننا الحنيف، فهو باب كبير عظيم النفع في إيصال رسالة الإسلام، وفيه تثبيت وزيادة إيمان للمسلمين، ولغير المسلمين.
19. لا بد من أن تعرف المسلم وغير المسلم على محاسن تشريعات العقيدة والعبادة والأخلاق والاقتصاد والاجتماع والسياسية، والأسرة، والقضاء، والحربية، ومحاسن تشريع الحدود الإسلامية، وكذلك التعرف على عناية

التشريع الإسلامي بالعلوم الإنسانية والدينية.

20. لا بد للداعية من التعرف على التشريعات الحقوقية والدعوة إليها وإبرازها، ليدرك الناس تكامل الشريعة الإسلامية، وليكون لدى الداعية القدرة على عرض الإسلام والسعي لتطبيقه مع واقعية تراعي ظروف الناس واحتياجاتهم، فالإسلام جاء لإرساء العدل وإقامة الحقوق.

وبهذا نكون من خلال هذا الكتاب قد بينا وأشرنا للدعاة إلى شمولية هذا الدين، وبيننا تصورا واضحا عن الإسلام الذي ندعو إليه في أذهان الدعاة إلى الله ليقوموا هم بدورهم في بناء صورة ذهنية عن الإسلام والدعوة إليه وتعليمه.

وفي الختام نسال الله تعالى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وممن يقومون على الدعوة وتبليغ دين الله تعالى، وأن نكون ممن يقوم علي وضع لبنة من لبنات بناء صرح هذه الأمة العظيم .
كما أسأله سبحانه أن يجزي خيرا كل من ساهم في إخراج هذا البحث بتوجيه أو فكرة أو تصويب خطأ أو بيان، وأن لا يجرمنا وإياهم الأجر، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن ينفع به المسلمين، وأن يكون حجة لنا لا علينا، اللهم آمين.

وآمل من إخواني القراء والباحثين المسارعة في المساهمة بتصحيح خطأ أو زيادة بيان وتوضيح أو ذكر بعض المقترحات، ولا يخلوا على إخوانهم بما تجود به قريحتهم من أفكار ومعلومات . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين